التفسير المأمون

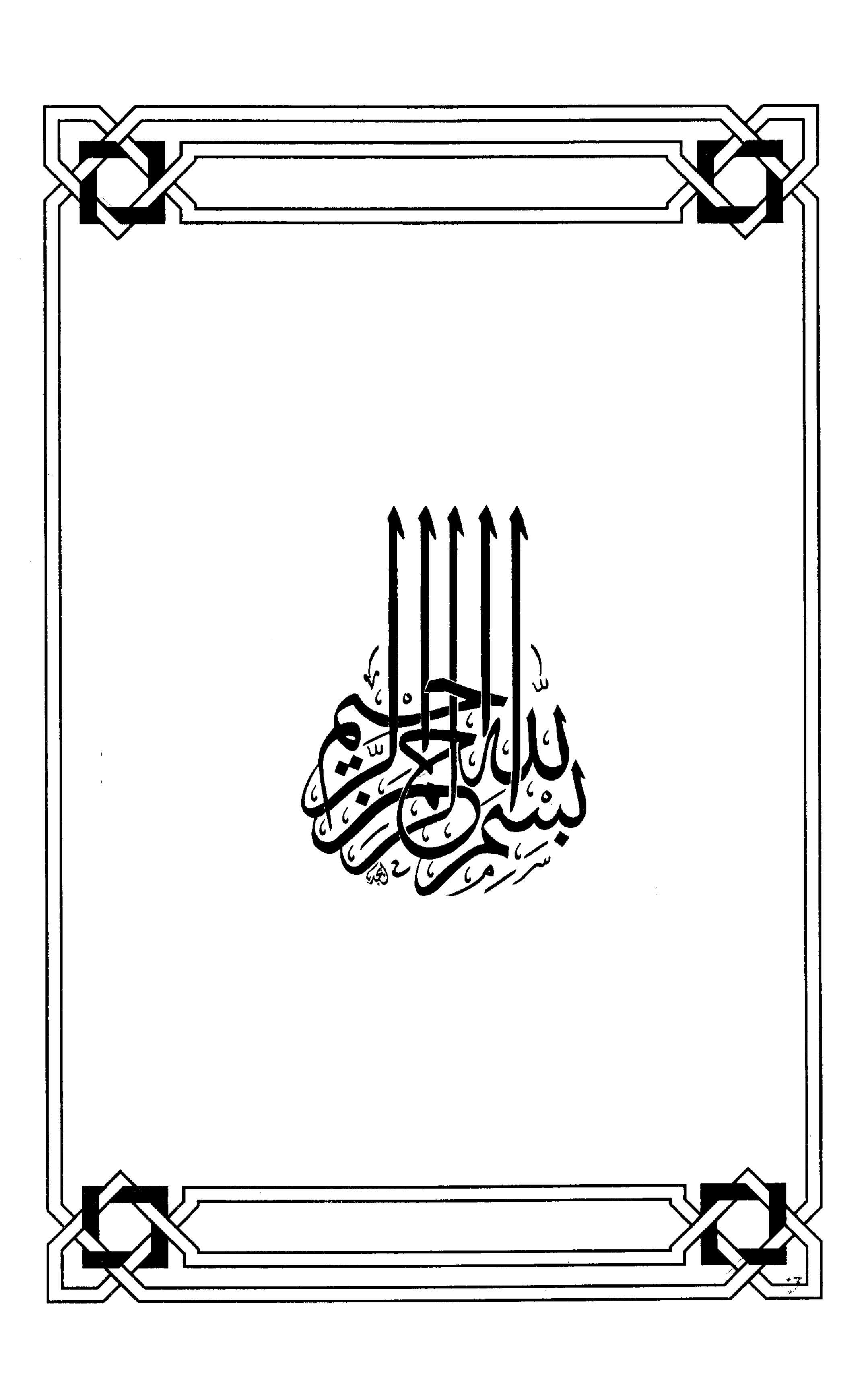
على منهج التنزيل والصحيح المسنون

تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين
- الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة -
على فهم الصحابة والتابعين

تفسير منهجي فقهي شامل معاصر

الجزء السابع

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون حموش


بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المأمون

على منهج التنزيل والصحيح المسنون

الطبعة الأولى
1428 هـ ـ 2007 م

موافقة وزارة الإعلام
رقم: 91092
ورقم: 91451
تاريخ: 16/ 7/ 2006 م
دمشق ـ سورية

يطلب من المؤلف
دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي
الدكتور أحمد راتب حموش

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

الخطاب لأهل الفرقة والاختلاف، ولأهل الكذب والافتراء، من نسبوا الولد والشريك لله، واستهزؤوا بشرعه ووحيه، فسيحشرهم أذلاء صاغرين في سجون جهنم جزاء وفاقاً، بما كانوا يمرحون في الأرض بغير الحق وبما كانوا يتجبرون، وقد علت وجوههم اليوم طبقة من السواد والغبرة والقترة.

فقد خرّج الإمام أحمد والترمذي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال. يغشاهم الذل من كل مكان. يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار. يُسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال]. وسنده صحيح[1].

وله شاهد عند ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولفظه: [إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر في صورة الناس، يعلوهم كل شيء من الصَّغار، حتىٰ يدخلوا سجناً من النار في دار يقال له بولس من نار الأنيار، ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال].

وقوله: ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ جملة في محل نصب على الحال. وقال الأخفش: (﴿ تَرَى ﴾ غير عامل في ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، إنما هو مبتدأ وخبر). قال الشوكاني: (والأولىٰ أنَّ «ترى» إن كانت من الرؤية البصرية، فجملة ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ حالية، وإن كانت قلبية، فهي في محل نصب على أنها المفعول الثاني لترى، قال: والاستفهام في قوله: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ للتقرير).

وقال القاسمي رحمه الله: (﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أي لما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم. فالسواد حقيقي. أو لما يلحقهم من الكآبة، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية، ورسوخ الرذائل النفسانية في ذواتهم. فالسواد مجاز بالاستعارة).

وأما الكبر فقد عرّفه رسول الله ﷺ في حديثه ـ الذي في المسند وسنن أبي داود ومستدرك الحاكم عن أبي هريرة ـ حيث قال: [الكِبْرُ مَنْ بَطِرَ الحق، وغَمَطَ الناس][2].

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد والترمذي. انظر صحيح سنن الترمذي (2025).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد، وأبو داود (4092). انظر صحيح سنن أبي داود (3448).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

قال السدي: (﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ قالَ: بفضائلهم). وقال ابن زيد: (بأعمالهم. قال: والآخرون يحملون أوزارهم يوم القيامة ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: 25]).

وقال القاسمي: (أي بفوزهم وفلاحهم لإتيانهم بأسباب الفوز، من الاعتقادات المبنية على الدلائل والأعمال الصالحة). وقال ابن كثير: (أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله فتبيض وجوههم لا يمسهم السوء يوم القيامة ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع، مزحزحون عن كل شر، نائلون كلَّ خير).

وقد قرأها قراء المدينة وبعض قراء البصرة ومكة (بمفازَتِهم)، في حين قرأها قراء الكوفة (بمفازاتِهم) وكلاهما مشهور عند القراء. ويجوز أن تكون الباء في (بمفازتهم) للسببية: أي بسبب فوزهم مع انتفاء مساس السوء لهم وعدم وصول الحزن إلى قلوبهم لأنهم رضوا بثواب الله وأمنوا من عقابه. حكاه الشوكاني.

وجملة القول: فإن الله وعد الذين اتقوا الشرك والوقوع فيما يسخطه سبحانه بالنجاة يوم القيامة من الأهوال والفزع والمصائب والعذاب بما التمسوا أسباب الفوز والنصر والنجاة بأعمالهم وحرصهم على التقوى والعمل الصالح واجتناب الفواحش والآثام. فجملة ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ وجملة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ كلاهما في محل نصب حال، أي هذه حالة المتقين يوم القيامة.

قال النسفي: (﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾: النار ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ كأنه قيل: وما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء، أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم). وقال ابن جرير: (ولا هم يحزنون على ما فاتهم من آراب الدنيا إذ صاروا إلى كرامة الله ونعيم الجنان).

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾. أي: فله الخلق والأمر سبحانه والتدبير، وهو الحفيظ على كل شيء وكيل، وهو تمهيد للآية التالية حيث يعيب عليهم سبحانه عبادة غيره، فإن الإقرار بالربوبية يقتضي الإقرار بالألوهية كما قال في سورة المؤمن: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ

﴿رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

قال ابن جرير: (الله الذي له الألوهة من كل خلقه الذي لا تصلح العبادة إلا له، خالق كل شيء، لا ما لا يقدر على خلق شيء، وهو على كل شيء قيم بالحفظ والكلاءة).

وقوله: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قال قتادة: (أي مفاتيح السماوات والأرض). وقال السدي: (خزائن السماوات والأرض). وقال ابن زيد: (المقاليد: المفاتيح. قال: له مفاتيح خزائن السماوات والأرض).

قال الرازي: (والإقليد بكسر الهمزة المِفْتاح. و«المِقْلَدُ» بوزن المِبْضَعُ مفتاحٌ كالمنجل والجمع المقاليد). أي عنده مفاتيح خزائن الخير والشر ينفق منها كيف يشاء ويقسم منها كيف يشاء. كما جاء في معجم الطبراني ومسند الطيالسي بسند حسن عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ قال: [عند الله خزائن الخَيْر والشر، مفاتيحُها الرجال، فطوبىٰ لمن جعله الله مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشر، وويل لمن جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير][1].

وقيل: (خزائن السماوات المطر، وخزائن الأرض النبات). قلت: بل الآية أعم من ذلك وأشمل فخزائن الخير لا يحصيها إلا الله الخالق الأحد.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. فإن من جحدوا القرآن وما فيه من الأدلة والبراهين والحجج، وأنكروا النبوة والوحي، فهم في أشد الخسران وكامل الحرمان.

قال ابن جرير: (والذين كفروا بحجج الله فكذبوا بها وأنكروها، أولئك هم المغبونون حظوظهم من خير السماوات التي بيده مفاتيحها، لأنهم حرموا ذلك كله في الآخرة بخلودهم في النار، وفي الدنيا بخذلانهم عن الإيمان بالله عز وجل).

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾. أي: فمن هو المنعم غيره الذي يستحق العبادة والتعظيم، ومن هو الرازق غيره الذي يوصف بالكريم، ومن هو المتفضل والمدبر غيره الذي يوصف بالحكيم، ومن هو الجبار القهار غيره ينصر عباده المؤمنين ويوصف بالعلي القوي العظيم.

---

(1) حديث حسن. انظر تخريج «السنة» (296)، وصحيح الجامع الصغير (3987).

وقد كان المشركون دعوا النبي ﷺ لعبادة الأصنام وقالوا هو دين آبائك ، فسفههم الله بقوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ . والاستفهام للإنكار التوبيخي ، و«غيرَ» منصوب «بأعبد» وكأن التقدير: أفتأمروني أن أعبد غير الله ، كما يجوز نصب «غيرَ» بتأمروني ، و«أعبد» بدل منه بدل اشتمال. والجمهور على قراءتها بإدغام نون الرفع في نون الوقاية «تأمرونّي».

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

هو كقوله: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ . قال مقاتل: (أي أوحى إليك وإلى الأنبياء قبلك بالتوحيد ، والتوحيد محذوف). وقال القرطبي: (وقيل: الخطاب له والمراد أمته ، إذ قد علم الله أنه لا يشرك ولا يقع منه إشراك. والإحباط الإبطال والفساد ، قال القشيري: فمن ارتد لم تنفعه طاعاته السابقة ولكن إحباط الردة العمل مشروط بالوفاة على الكفر ، ولهذا قال: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ فالمطلق ها هنا محمول على المقيد ، ولهذا قلنا من حج ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحج).

وهذا مذهب الشافعي ، وأما مالك فتجب عنده الإعادة ، والراجح أنها لا تجب ، لما روىٰ مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال أناس لرسول الله ﷺ: [يا رسول الله ! أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ قال: أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ بها ، ومن أساء أُخِذَ بعمله في الجاهلية والإسلام][1].

وكذلك روىٰ الإمام مسلم عن عروة بن الزبير: [أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال لرسول الله ﷺ: أرأيت أموراً كنت أتحنَّثُ بها في الجاهلية ، من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم ، أفيها أجر ؟ فقال له رسول الله ﷺ: أسلمتَ على ما أسلفت من خير][2]. والله تعالىٰ أعلم.

فغاية القول: أن الشرك يذهب العمل ، والخطاب وإن وجّه للنبي ﷺ ففيه إقناط للكفرة وتضخيم لهذا الذنب العظيم الذي اقترفوه ، وهو خطاب للأمة من باب أولىٰ ، ويعجبني ما ذكره العلامة القاسمي حيث قال: («إنْ» تقتضي احتمال الوقوع. وهو هنا

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (120). كتاب الإيمان.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (123). كتاب الإيمان.

مقطوع بعدمه. قال: فالجواب أنّ هذا الكلام وارد على سبيل الفرض. والمحالات يصح فرضها لأغراض. والمراد به تهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية قبح الإشراك).

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. لفظ الجلالة منصوب بما بعده وهو قوله ﴿فَٱعْبُدْ﴾. قال النسفي: (ردٌّ لما أمروه به من عبادة آلهتهم كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته بل إن عبدت فاعبد الله، قال: وكن من الشاكرين على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم). وقال ابن عباس: (فاعبد: أي فَوَحِّد). وقيل بل المعنىٰ (فأطع). ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ قال الشوكاني: (لإنعامه عليك بما هداك إليه من التوحيد والدعاء إلى دينه واختصك به من الرسالة).

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي تميمة قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: [أنت رسول الله، أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلام تدعو؟ قال: أدعو إلى ربك الذي إن مسَّك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضْلَلْتَ بأرض قَفْرٍ فدعوته رد عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][1]. ورواه أبو داود.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أما سبب نزول هذه الآية، فهو ما ذكره الإمام أحمد في مسنده ورجاله رجال الصحيح، والترمذي في جامعه، وابن خزيمة في صحيحه، وابن جرير في تفسيره عن علقمة بن عبد الله قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم! أبلغك أن الله عز وجل يحمل الخلائق على أصبع، والسماوات على أصبع، والأرضين على أصبع، والشجر على أصبع، فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه، فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾].

والحديث في الصحيح بلفظ (فتلا رسول الله ﷺ). فقد أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، عند تفسير سورة الزمر، قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد: أن الله يجعل السماوات على إصْبَع، والأرضينَ على إصَبعٍ، والشجرَ على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائرَ الخلائِق على إصبع،

(1) حديث صحيح. رواه أحمد، وأبو داود (4084). انظر صحيح سنن أبي داود (3442).

فيقول: أنا الملك ، فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجِذُه تصديقاً لقول الحَبْر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾][1].

ثم ذكر البخاري فقال: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾. فروىٰ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يقبض الله الأرض ، ويطوي السماوات بيمينه ، ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض][2].

وفي المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: [إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ، ويحركها يقبل بها ويدبر ، يُمَجِّدُ الربُّ نفسَهُ أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم فرجف برسول الله ﷺ المِنبُرُ حتى قُلنا لَـيَخِرَّنَ به][3].

وفي تأويل قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أكثر من قول:

الأول: ما عظموا الله حق تعظيمه. قال السّدي: (ما عظموا الله حق عظمته). وقال المبرد: (ما عظموه حق عظمته من قَوْلك فلان عظيم القدر).

الثاني: ما آمنوا به ولم يعرفوا قدره. قال ابن عباس: (هم الكفار الذين لم يؤمنوا بِقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره).

الثالث: ما عبدوه بل أشركوا به. قال النحاس: (ما عظموه حق عظمته إذ عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها).

وكلها في معنىٰ واحد ، وهو أن الكافرين ما عرفوا الله حقّ المعرفة ، وما عظّموه حق التعظيم ، وما أخلصوا له العبادة ، بل نسبوا له النقائص والعيوب ، فتعالى الله عما يقولون علوا كبيراً.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4811) ، ومسلم (2786/ 19 ـ 20) ، والنسائي في «التفسير» (470) ، والترمذي (3238) ، (3239) ، وانظر مسند أحمد (1/ 251).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4812) ، وأخرجه مسلم في الصحيح برقم (2787).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في مسنده (2/ 88) ، وابن حبان في «صحيحه» (7327).

وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

يروي ابن جرير عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال: (كنا عند رسول الله ﷺ حين جاءه حبر من أحبار اليهود فجلس إليه فقال له النبي ﷺ حدثنا قال: إن الله تبارك وتعالىٰ إذا كان يوم القيامة جعل السماوات على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والماء والشجر على أصبع وجميع الخلائق على أصبع ثم يهزّهن ثم يقول: أنا الملك. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه تصديقاً لما قال ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾).

قال ابن عباس: (قد قبض الأرضين والسماوات جميعاً بيمينه، ألم تسمع أنه قال ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ يعني الأرض والسماوات بيمينه جميعاً. قال: وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه).

قلت: وكأن مراد ابن عباس قوله ﷺ: [وكلتا يديه يمين] كما في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو، ولفظه بتمامه: [إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمان، وكلتا يديه يمين، الذين يَعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا][1].

وأخرج محمد بن أبي شيبة في «كتاب العرش» عن أبي ذر الغفاري، عن النبي ﷺ قال: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][2].

قال ابن عباس: (ما السماوات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم).

وقد خرّج الترمذي عن عائشة: [أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قالت: قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: على جسر جهنم][3]. وفي رواية: (على الصراط يا عائشة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1827) ـ كتاب الإمارة. ورواه أحمد.

(2) حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (1/114)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، ص (290). وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (109).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي (2589).

وفي لغة العرب: القَبْضة: المرة من القبض، والقُبضةُ: المقدار المقبوض بالكف، ومنه الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي موسى عن النبي ﷺ: [إن الله خلق آدم من قُبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض..] الحديث. ومذهب السلف في (القبضة واليمين) إثبات ذلك بلا تكييف ولا تحريف ولا تبديل للفظ عما تعرف العرب.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. قال القرطبي: (ثم نزّه نفسه على أن يكون ذلك بجارحة).

وقال الشوكاني: (﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من المعبودات التي يجعلونها شركاء له مع هذه القدرة العظيمة والحكمة الباهرة).

قلت: ثم أتبع هذه الآية ذكر أهوال القيامة والنفخ في الصور يوم لا ينفع الشرك والرياء أهله بل يفزعون ويتقطعون، كما روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عَمِلَ عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِركَه][1].

68 ـ 75. قوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2985) ـ كتاب الزهد ـ باب تحريم الرياء.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر سبحانه عباده عن أهوال يوم القيامة لعلهم يتقوه ويخافوه، وهذه الأهوال تبدأ بنفخة الفزع ثم نفخة الصعق فيصعق أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله، فيموت بها الأحياء منهم ثم يقبض أرواح من استثنىٰ، وآخِر من يموت ملك الموت فينفردُ الله الحي القيوم بالبقاء إذ لا يشاركه في الديمومة أحد، كما كان على ذلك أولاً فيقول جل في كبريائه: (لمن الملك اليوم) ثلاث مرات! ثم يجيب نفسه فيقول (لله الواحد القهار). فقد قهر بجبروته وعظمته كل شيء، ثم يحيي إسرافيل ويأمره بنفخة القيام فينفخ فيقوم الناس لرب العالمين. فإذا برز الرحمان لفصل القضاء بين خلقه أضاءت الأرض وأشرقت بعظيم نوره ويؤتىٰ بكتاب الأعمال لبدء الحساب كما يُحضر النبيون للشهادة على الناس، ويكرم الله أمة محمد بالشهادة انتصاراً للأنبياء وشهادة لهم بتبليغ الأمانة التي جحدها أقوامهم، فيقضي الله بين الرسل وأممهم ويفصل بينهم بالحق ويقاضي كلاً بعمله وهو أعلم بما يفعلون. ثم تسوق الملائكة المجرمين والأشقياء إلى النار سوقاً عنيفاً ودفعاً غليظاً فإذا ما وصلوها فتحت أبوابها فتحاً سريعاً، ليباشروهم عقاباً أليماً بما أشركوا بالله وضيعوا شرعه وحكموا بغيره واستهزؤوا برسله، وتقول لهم الملائكة تقريعاً وتوبيخاً: ألم يأتكم رسل من جنسكم بالحجج والبينات وَيُحذرونكم شرّ هذا اليوم وذل الخزي فيه؟! قالوا: نعم، ولكن كذبناهم وعاندناهم ليحق علينا الشقاء الذي كتبه الله علينا بعلمه وعدله وحكمته واستحقاقنا له. قالوا: فادخلوا أبواب جهنم ماكثين فيها جزاء مكوثكم في الدنيا على الكبر والعناد والاستهزاء بالحق فبئس ما اخترتم لأنفسكم من الهلاك والشقاء. ثم أخبر سبحانه عن منازل السعداء، أهل الإيمان الأتقياء، حيث تحتفل الملائكة اليوم بتقديمهم، واستقبالهم في وفودهم، ليسيروا في مواكب من البهجة والأمن إلى دار الخلود والاستقرار، فلا نصب بعد اليوم ولا وصَب ولا استعصار، فقد اصطفوا جماعات جماعات، المقربين ثم الأبرار ثم أصحاب اليمين والصالحات، فإذا ما وصلوا دار الخلود والنعيم والمسرات، خرج الخزنة الكرام لاستقبالهم، وتلقتهم الملائكة المقربون بالبشارة والسلام عليهم، سلام عليكم طبتم في منازلكم وفي جنانكم، ماكثين في قصوركم

وغرفاتكم ، فقد طابت في الدنيا أقوالكم وأعمالكم ، وطابَ جهادكم وسعيكم ، فطاب لأجل ذلك جزاؤكم. فتحركت ألسنتهم بحمد الله العظيم ، الذي صدقهم وعده الكريم ، وأورثهم أرض الجنة أرض النعيم ، ينعمون فيها ويتلذذون فنعم أجر العاملين ، وأما الملائكة فهم محدقون حول العرش اليوم ، يتابعون التسبيح والتعظيم ، وقد قاموا بهذا الاستقبال الكريم ، فرضي الله عنهم وعن حسن استقبالهم وحسن عبادتهم ، ولما فرغ الله من القضاء بين خلقه لهجوا بذكره وقالوا الحمد لله رب العالمين. فإلىٰ تفصيل ذلك :

قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾. أي : نَفَخَ إسرافيل في القرن وهي النفخة الثانية نفخة الصعق ، فإن النفخ في الصور ثلاثة أحوال :

الأولىٰ : نفخة الفزع. وهي التي أشار الله لها في سورة النمل بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾.

الثانية : نفخة الصعق. وهي قوله في سورة الزمر في هذه الآية : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾. قال السدي : (أي مات).

الثالثة : نفخة القيام لربّ العالمين. وهي تتمة الآية السابقة : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾.

فبنفخة الصعق يموت الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من استثنىٰ الله سبحانه ، ثم يقبض الله أرواح الباقين حتّى يكون آخر من يموت ملك الموت عليه السلام ، فينفرد الحيّ القيوم جل ثناؤه بالديمومة والبقاء ، فهو الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً ، ثم يقول سبحانه : لمن الملك اليوم ؟ لمن الملك اليوم ؟ لمن الملك اليوم ؟ ثم يجيب نفسه بنفسه سبحانه فيقول : (لله الواحد القهار) ، أنا الذي كنت وحدي وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء. ثم يحيي الله أولَ من يحيي إسرافيل ويأمره بالنفخة الثالثة وهي نفخة البعث ، فينفخ إسرافيل في الصور، كما قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾.

قال الحافظ ابن كثير : (أي أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً ، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة).

والآية كقوله في سورة النازعات : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾. وكقوله

في سورة الإسراء: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وكقوله في سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: [بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئاً كرهه أو لم يرضه قال: لا والذي اصطفىٰ موسىٰ عليه السلام على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه، قال: تقول: والذي اصطفىٰ موسىٰ عليه السلام على البشر، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً، وقال: فلان لطم وجهي. فقال رسول الله ﷺ: لم لطمت وجهه؟ قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفىٰ موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا. قال: فغضب رسول الله ﷺ حتىٰ عرف الغضب في وجهه ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله. قال: ثم ينفخ فيه أخرىٰ فأكون أول من بعث أو في أول من بعث، فإذا موسىٰ عليه السلام آخذ بالعرش (وفي رواية: آخذ بقائمة من قوائم العرش) فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي. ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متىٰ عليه السلام][1].

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت[2]. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقلُ. قال: وليس من الإنسان شيء لا يبلىٰ إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب[3] ومنه يركب الخلق يوم القيامة][4]. (وفي رواية لمسلم: كل ابنِ آدم يأكله التراب إلا عجبَ الذنب منه خلق وفيه يركب).

وفي جامع الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وأصغىٰ سمعه وحنىٰ جبهته ينتظر متىٰ يؤمر بالنفخ؟ فقالوا:

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3414)، ومسلم (7/ 100 ـ 101) من حديث أبي هريرة.
(2) أي امتنعت عن الجواب لعدم علمي به.
(3) وهو العظم بين الأليتين أسفل الصلب.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4935)، وأخرجه مسلم (2955/ 141).

يا رسول الله ! وما تأمرنا ؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل][1] . وفيه عن عبد الله بن عمرو قال: قال أعرابي: يا رسول الله ما الصور ؟ قال: [قَرْنٌ ينفخُ فيه].

وعند البخاري عن ابن عباس: [في قوله تعالىٰ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ قال: الصور. و﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ قال: النفخة الأولى ، و﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ قال: الثانية][2].

وأما تفصيل النفخة وما قبلها وما بعدها فقد جاء ذلك في صحيح الإمام مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [يخرج الدجال في أمتي فيمكث فيهم أربعين ، لا أدري أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً ، أو أربعين ليلة ، فيبعث الله تعالى عيسىٰ بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي ، فيظهر فيهلكه الله تعالى (وفي رواية: فيطلبه فيهلكه) ثم يلبث الناس بعده سنين سبعاً ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله تعالى ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقىٰ أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتىٰ لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه. ويبقىٰ شرار الناس في خفة الطير[3] وأحلام السباع[4] ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً. قال: فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها ، وهم في ذلك دارّة أرزاقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغىٰ ليتاً ورفع ليتاً (أي أمال صفحة عنقه) وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه (أي يطينه ويصلحه) فيصعق ثم لا يبقىٰ أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعالى مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال: أيها الناس ! هلموا إلى ربكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال كم ؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين ، فيومئذ تبعث الولدان شيباً ، ويومئذ يكشف عن ساق. (وفي رواية: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً ، وذلك يوم يكشف عن ساق)][5] .

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه أكثر من تأويل:

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن. انظر صحيح سنن الترمذي (1980).
(2) رواه البخاري في ترجمة باب. وانظر تخريج المشكاة (5529).
(3) المراد سرعتهم إلى الشرور والفساد كسرعة الطير.
(4) المراد العدوان والظلم ، فهم إليه كالسباع العادية.
(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2940) (116) ، وأحمد (2/ 166) ، وابن حبان (7353).

الأول: أنهم جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت. قال السدي: (جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت).

وقيل: جبريل وميكائيل وحملة العرش وملك الموت وإسرافيل.

الثاني: أنهم رضوان والحور ومالكٌ والزبانية. قال الضحاك: (هو رضوان والحور ومالك والزبانية).

الثالث: أنهم الشهداء. فعن سعيد بن جبير: (الشهداء ثنية الله حول العرش متقلدين السيوف).

وقيل: عني بالاستثناء في الفزع: الشهداء، وفي الصعق: جبريل وملك الموت وحملة العرش. ورجحه ابن جرير.

الرابع: أنه موسىٰ عليه السلام. لما جاء في حديث الصحيحين عن أبي هريرة. وفي رواية أخرى: [فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بموسىٰ آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنىٰ الله]. وفي طريق آخر: [لا تخيروني على موسىٰ فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسىٰ باطِشٌ بجانب العرش(1) فلا أدري أكان فيمن صُعِق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنىٰ الله].

قال القشيري: (ومن حمل الاستثناء على موسىٰ والشهداء فهؤلاء قد ماتوا غير أنهم أحياء عند الله. فيجوز أن تكون الصعقة بزوال العقل دون زوال الحياة، ويجوز أن تكون بالموت، ولا يبعد أن تكون الموت والحياة فكل ذلك مما يجوزه العقل، والأمر في وقوعه موقوف على خبر صدق).

الخامس: قيل الله أعلم بمن استثنىٰ. فعن قتادة قال: (الله أعلم بثنياه).

وعنه أيضاً: (قوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ قال الحسن: يستثني الله وما يدع أحداً من أهل السماوات ولا أهل الأرض إلا أذاقه الموت. قال قتادة: قد استثنىٰ الله، والله أعلم إلى ما صارت ثنيته. قال: وذكر لنا أن نبيّ الله قال: أتاني ملك فقال: يا محمد اختر نبيّاً مَلِكاً، أو نبيّاً عبداً، فأومأ إليّ أن تواضَعْ. قال: نبياً عبداً. قال: فَأُعْطيت خصلتين: أن جُعِلْتُ أوّلَ من تنشق عنه الأرض، وأولَ

---

(1) أي متعلق به بقوة.

شافِع ، فأرفع رأسي فأجدُ موسىٰ آخذاً بالعرش ، فالله أعلم أصَعِقَ بعدَ الصعقة الأولى أم لا ؟).

السادس: قيل الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يرجع إلى من مات قبل النفخة الأولىٰ. قال القرطبي: (أي فيموت من في السماوات والأرض إلا من سبق موته ، لأنهم كانوا قد ماتوا).

السابع: قيل عقارب أهل النار وحياتها. ذكره القرطبي أيضاً.

قلت: الله أعلم ما يستثني عند كل نفخة ومن يُصعَق فيها ، ولكن الثابت أن الناس سيموتون جميعاً في نهاية المطاف وأن أول من يرفع رأسه بعد الصعق نبينا عليه الصلاة والسلام وهو لا يدري حين يبصر موسىٰ عليه السلام متعلقاً بقائمة العرش هل صُعِقَ أم استثنيَ من الصعق.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾. قال السدي: (في الصور ، وهي نفخة البعث).

وعن عكرمة: (في قوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ قال: الأولىٰ من الدنيا ، والأخيرة من الآخرة).

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾. قال ابن جرير: (ذُكِرَ لنا أن معاذ بن جبل سأل نبيَّ الله ﷺ: كيف يُبْعَثُ المؤمنون يوم القيامة ؟ قال: يبعثون جُرْداً مُرْداً مكحلين بني ثلاثين سنة).

قلت: وهذا ثابت في حديث الترمذي وسنده حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [أهل الجنة جُردٌ ، مردٌ ، كُحْلٌ ، لا يفنىٰ شبابهم ولا تبلىٰ ثيابهم][1].

ورواه أحمد عن معاذ ولفظه: [يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين].

وأما نساء أهل الجنة فقد وصفهن الله في سورة الواقعة: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾. أي في سن واحدة ، ليس فيهن العجائز والشّواب ، بل كلهن شواب.

وعن السدي: (﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾: قال حين يبعثون). أي ينظرون إلى البعث

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن (2545) بإسناد حسن في الشواهد ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 295) وإسناده على شرط مسلم.

الذي وعدوا به، وإلى الأهوال المحيطةِ بهم، أي قاموا ينظرون ماذا يؤمرون، وقيل بل المعنىٰ ينتظرون ما يفعل بهم.

قال القاسمي: (أي وقوف، يقلبون أبصارهم دهشاً وحيرة، أو ينتظرون ما يحل بهم).

وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فيه أكثر من تأويل:

الأول: قيل المراد أضاءت بعدل ربها، ذكره الحسن. وقال الضحاك: (بحكم ربها). قال القرطبي: (أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلمات والعدل نور. قال: إشراقها إضاءتها، يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت). وقال النسفي: (وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حين ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها ولا ترىٰ أزينَ للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه).

الثاني: قيل بل المراد نور يخلقه الله يوم القيامة. قال ابن عباس: (النور المذكور هاهنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض). فتكون إضافة النور إلى الله كإضافة المُلكِ إلى المالك.

الثالث: قيل بل المراد أضاءت يوم القيامة إذا تجلىٰ الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء. فعن السدي: (﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾: قال أضاءت). وقال ابن جرير: (فأَضاءت الأرض بنور ربها. يقال أشرقت الشمس: إذا صفت وأضاءت، وأشرقت: إذا طلعت، وذلك حين يبرز الرحمان لفصل القضاء بين خلقه) واختاره ابن كثير.

الرابع: قيل بل المراد المعنىٰ الحقيقي وهو أن الله نور السماوات والأرض.

قال قتادة: (فما يتضارّون في نوره إلا كما يتضارون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه).

وقال أبو جعفر النحاس: (وقوله عز وجل: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يبين هذا الحديثُ المرفوع من طرق كثيرة صحاح «وتنظرون إلى الله عز وجل لا تُضامون في رؤيته» وهو يروىٰ على أربعة أوجه: لا تُضامُون ولا تضارُون ولا تضامُّون ولا تضارّون، فمعنىٰ «لا تضامُون» لا يلحقكم ضيم كما يلحقكم في الدنيا في النظر إلى الملوك. و «لا تضارُون» لا يلحقكم ضير. و«لا تضامّون» لا ينضم بعضكم إلى

بعض ليسأله أن يريه. و«لا تضارّون» لا يخالف بعضكم بعضاً، يقال: ضارّه مضارّة وضِراراً أي خالفه) ذكره القرطبي.

قلت: والضيم لغة: الظلم، والحديث أصله في صحيح البخاري عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إنكم سترون ربّكم عياناً. وفي رواية قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلةَ البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تَضَامُّون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾][1].

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [تضامون في رؤية القمر ليلة البدْر؟ قالوا: لا. قال: فكذلك لا تضامون في رؤية ربكم يوم القيامة][2].

وفيه أيضاً عن أبي سعيد قال: قلنا يا رسول الله! أنرى ربنا؟ قال: [تَضَامّون في رؤية الشمس في الظهيرة في غير سحاب؟ قلنا لا. قال: فتضارونَ في رؤية القمر ليلة البدر في غير سحاب؟ قالوا: لا. قال: إنكم لا تضارون في رؤيته إلا كما تضارون في رؤيتهما].

فإن الله سبحانه نور السماوات والأرض، فإذا تجلىٰ لعباده ليفصل بينهم فاض النور منه سبحانه: نور وجهه ونور عدله ونور قضائه وحكمه، فكان ذلك كله نوراً على نور.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾. فيه أكثر من قول:

الأول: كتب الأعمال. فعن قتادة قال: (كتاب أعمالهم. قال: يريد الكتاب والصحف التي فيها أعمال بني آدم، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله). وقال ابن جرير: (يعني كتاب أعمالهم لمحاسبتهم ومجازاتهم).

الثاني: قيل بل المراد وضع الكتاب للحساب. فعن السدي: (ووضع الكتاب: قال الحساب). أي مِنْ وَضْعِ المُحاسب كتاب المحاسبة بين يديه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (573)، وأحمد في المسند (4/ 362).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (178). باب فيما أنكرت الجهمية. انظر صحيح سنن ابن ماجة (148)، وكذلك (149) للحديث الذي بعده.

الثالث: قيل بل المراد المحفوظ. قال ابن عباس: (يريد اللوح المحفوظ).

قلت: والظاهر أنه قد أحضر ما هو مكتوب قد سُطِّرت فيه الأعمال ودقائق الأفعال وعلمه الله وكتبه في اللوح المحفوظ من قبل، ليوزع اليوم على الثقلين كل يأخذ كتابه بيده التي تناسب النتيجة والفصل والعدل والقضاء.

وقوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. قال ابن جرير: (وجيء بالنبيين ليسألهم ربهم عما أجابتهم به أممهم وردت عليهم في الدنيا حين أتتهم رسالة الله). وقال ابن كثير: (يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا رسالات الله إليهم).

وقوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾. فيه أكثر من تأويل:

الأول: قيل المراد أمة محمد ﷺ يشهدون للرسل أنهم قد بلغوا أقوامهم إذ جحدت أممهم أن يكونوا أبلغوهم رسالة الله.

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ فإنهم ليشهدون للرسل بتبليغ الرسالة وبتكذيب الأمم إيّاهم). والآية كقوله في سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

الثاني: قيل بل المراد الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله.

قال السدي: (الذين استشهدوا في طاعة الله). وقال القاسمي: (وجوّز إرادة المستشهدين في سبيل الله تعالى، تنويهاً بشأنهم، وترفيعاً لقدرهم، بضمهم إلى النبيين في الموقف). وقال الشوكاني: (وقيل المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة لمن ذبّ عن دين الله).

الثالث: قيل بل المراد الحفظة من الملائكة.

قال ابن زيد: (هم الحفظة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم). وقال القرطبي: (قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالسائق يسوقها إلى الحساب والشهيد يشهد عليها، وهو الملك الموكل بالإنسان).

الرابع: قيل بل المراد الأبرار في كل زمان ليحتجوا أمام الله على أهل ذلك الزمان. قال النسفي: (وقيل هم الأبرار في كل زمان يشهدون على أهل ذلك الزمان). وذكره القاسمي بقوله: (أي الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار المطلعين على أحوالهم).

قلت: والبيان الإلـٰهي يحتمل كل هذه المعاني الجليلة من اشتمال الشهداء على أمة محمد ﷺ أمة الوسط ، والأبرار في كل زمان ، وأتباع الرسل ، ومن قتلوا في الذبّ عن دين الله العظيم ، ومِنْ حضور الملائكة المختصين بالشهادة لتقام الحجة على الناس في الآخرة كما أقيمت عليهم في الدنيا ، وإن كان الأول هو الراجح :

ففي مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرَّجل ، والنبيّ ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيُقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيُدعىٰ قومهُ ، فَيقال لهم : هل بلّغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فَيُقَال له : من يشهدُ لكَ ؟ فيقول : محمدٌ وأمته ، فيُدعىٰ محمد وأمته ، فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال : وما عِلْمكم بذلك ؟ فيقولون : جاءنا نَبينا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه ، فذلك قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾][1] .

وفي صحيح الإمام البخاري ومسند أحمد وجامع الترمذي له لفظ آخر عن أبي سعيد به : [يجيء نوح وأمته فيقول الله : هل بلغت ؟ فيقول : نعم أي ربِّ ! فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاء لنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ، والوسط : العدل ، فيُدعونَ ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم][2] .

وقوله : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ . أي : بالعدل والقسط والصدق . ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . قال القاسمي : (أي فتوزن أعمالهم بميزان العدل ، ويوفون جزاء أعمالهم ، لا ينقص منها شيء) .

قلت : والمراد القضاء بين النبيين وأممهم ، وفصل الخطاب ، وإقامة الحجج ، وتثبيت الحقوق ، ودحض الشبه والأكاذيب والأباطيل ، وتعيين المستحقات بدقة وإنصاف ، فلا يحمل على أحد ذنب غيره ولا تجزىٰ نفس ولا تعاقب إلا بما اجترحت واكتسبت .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (3/ 58) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (11007) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7349) ، والترمذي بإثر (2961) ، وابن ماجة (4284) ، وأحمد (3/ 58) ، وابن حبان (7216) ، والطبري (2165) .

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾. أي: من خير أو شر، ومن صغير أو كبير. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. أي: فلا تخفىٰ عليه من أعمالهم خافية، فهو الذي يعلم السر وأخفىٰ، وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو الذي معهم إذ كانوا يبيتون مالا يرضىٰ من القول، ويأمرون بالمنكر والفاحشة في الأرض، كما كان مع المؤمنين وهم يحترقون شوقاً للقائه ويبذلون أوقاتهم في رضوانه، وفي الاستعداد للجهاد والموت في سبيله.

وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾. أي: جماعة جماعة، وطائفة طائفة، وحزباً حزباً، كل حسب انتمائه وصِلاته بأصناف الباطل والهوى وأنواع الغي والضلال. فإن ﴿زُمَرًا﴾ في محل نصب حال.

فعن قتادة في قوله: ﴿زُمَرًا﴾ قال: (جماعات). وقال أبو عبيدة: (زمراً: جماعات متفرقة بعضها إثر بعض).

قال الشوكاني: (وهو مشتق من الزمر، وهو الصوت، إذ الجماعة لا تخلو عنه). وقال القاسمي: (أي أفواجاً متفرقة، بعضها في أثر بعض، على تفاوت ضلالهم وغيهم، رعاية للعدل في التقديم والتأخير).

وقال النسفي: (﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ سوقاً عنيفاً، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل). وقال القاسمي: (وقيل: دفعاً وزجراً بصوت كصوت المزمار).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾. وهي سبعة أبواب كما قال سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾. وجملة(فتحت) جواب (إذا)، إذ إن كل قوم يدخلون من الباب المناسب لأعمالهم ولتوجههم ولما كانوا يخضعون من دون الله من الطواغيت والشهوات والأهواء ومُغريات الحياة الدنيا. قال الحافظ ابن كثير: (وبمجرد وصولهم لها فتحت أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة).

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾. أي: تقريعاً لهم وتوبيخاً وزيادة في الحسرة والألم. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾: مما أنزل الله على الأنبياء والرسل من الكتب والعلم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ بالحجج والبراهين ويحذرونكم شرّ هذا الموقف اليوم؟! ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ فأقروا والحسرة تأكل قلوبهم. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. أي: فمضىٰ عليهم قضاء الله وكتابته بأن الخزي اليوم والسوء على الكافرين، إذْ قد علم سبحانه الأعمال كلها وكتبها كتابة علم وعدل لا كتابة ظلم وجبر فتبارك الله أحكم الحاكمين.

والآية كقوله سبحانه في سورة السجدة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. ثم ذكر سبحانه سبب ما صاروا إليه من الشقاء الذي كتبه الله عليهم لعلمه بفساد نياتهم وتوجههم: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وكقوله في سورة «المؤمنون»: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾. وكذلك في سورة تبارك: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

وفي الصحيحين عن علي عن النبي ﷺ قال: [ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5 ـ 10]][1].

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. هو كقوله جل ثناؤه في سورة النبأ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾. وكقوله في سورة البينة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾. قال وهب: (تستقبلهم الزبانية بمقامع من نار فيدفعونهم بمقامعهم، فإنه ليقع في الدفعة الواحدة إلى النار بعدد ربيعة ومضر). فهذا مآل الكبر واتباع الهوى فهل أجداكم أو نفعكم عند الله شيئاً، أم هو الذي صيّركم إلى ما أنتم فيه من الشقاء.

ثم وصف سبحانه حال السعداء الأبرار، أهل النجاة والفوز الأخيار، لتستكمل صورة المشهد في ذلك اليوم الرهيب.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4948)، ومسلم (647) ح (6)، ورواه أبو داود (4694)، والترمذي (2136)، (3344)، والنسائي في «التفسير» (698)، وابن ماجة (78).

وهو قوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ ﴾ . وعن ابن زيد ـ في قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ وفي قوله ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ ـ قال: (كان سوق أولئك عنفاً وتعباً ودفعاً ، وقرأ: ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ قال: يدفَعون دفعاً ، وقرأ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ قال: يدفعه ، وقرأ: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا﴾ ثم قرأ ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا﴾ قال: فهؤلاء وفد الله).

قال الشوكاني: (أي ساقتهم الملائكة سوق إعزاز وتشريف وتكريم). وقال النسفي: (المراد سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يكرم ويشرف من الوافدين على بعض الملوك).

وقال القاسمي: (أي مساق إعزاز وتشريف ، للإسراع بهم إلى دار الكرامة ﴿ زُمَرًاۖ﴾ أي متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل).

وأحسن الإمام القرطبي الربط بين الآية وما قبلها والمقارنة حيث قال: (﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ يعني من الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم ، ممن اتقىٰ الله تعالى وعمل بطاعته. وقال في حق الفريقين ﴿ وَسِيقَ﴾ بلفظ واحد ، فسوق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان ، كما يفعل بالأسارىٰ والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرضوان ، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك ، فشتان ما بين السوقين).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾. في تقدير جواب (إذا) وجوه عند أهل التفسير:

الأول: قيل الجواب محذوف تقديره (سعدوا). قال المبرد تقديره: (سعدوا وفتحت). وقيل بل تقديره: اطمأنوا.

الثاني: قيل بل الجواب قوله ﴿ وَفُتِحَتۡ ﴾ والواو زائدة. ذكره الأخفش. قال القاسمي نقلاً عن السمين قوله: (وإنما جيء هنا بالواو دون التي قبلها ، لأن أبواب السجون مغلقة إلى أن يجيئها صاحب الجريمة فتفتح له ، ثم تغلق عليه. فناسب ذلك عدم الواو فيها. بخلاف أبواب السرور والفرح ، فإنها تفتح انتظاراً لمن يدخلها). وقيل: إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله

تعالى ، والتقدير حتىٰ إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة ، بدليل قوله : ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص : 50] ذكره الشوكاني .

الثالث : قيل بل الجواب محذوف تقديره «دخلوها» . قال الزجاج : (القول عندي أن الجواب محذوف على تقدير : حتىٰ إذا جاؤوها ، وكانت هذه الأشياء التي ذكرت دخلوها فالجواب دخولها وحذف لأن في الكلام دليلاً عليه) .

الرابع : قيل بل الجواب قوله ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا ﴾ على زيادة الواو أيضاً . ذكره القاسمي .

الخامس : قيل بل الجواب محذوف تقديره جاؤوها . ويكون التقدير : (حتىٰ إذا جاؤوها جاؤوها وفتحت أبوابها) .

قال النسفي : (والمعنىٰ حتىٰ إذا جاؤوها وقع مجيئهم مع فتح أبوابها) .

وكلها لطائف جميلة يحتملها التأويل والتفسير تدل على عظمة البيان الإلـٰهي وروعته وجمال آفاقه .

قال الإمام القرطبي : (وحذف الواو في قصة أهل النار ، لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً وترويعاً لهم . ذكره المهدوي وحكىٰ معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول ، فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أعلم أنه سبقه إليه أحد ، وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ دلّ بهذا على أنها كانت مغلقة ، ولما قال في أهل الجنة : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ دل بهذا على أنها كانت مفتحة قبل أن يجيئوها ، والله أعلم) .

وأما الواو فهي واو الحال على تقدير القول : جاؤوها وقد فتحت لهم الأبواب . وقيل إنها واو الثمانية فإن من عادة العرب في العدد القول : خمسة ستة سبعة وثمانية كقوله تعالىٰ في سورة الحاقة : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ ﴾ [الحاقة : 7] ، وكقوله في سورة الكهف : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ . ومنهم من استدل بهذا التأويل على أن أبواب الجنة ثمانية ، واستدل بعضهم بحديث الإمام مسلم وأحمد وبعض أهل السنن عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [ما منكم من أحد يتوضأ ، فيسبغ الوضوءَ ، ثم يقول حين يفرُغُ من وضوئه : أشهد أنْ لا إله إلا الله وحده

لا شريك له ، وأن محمداً عبدُه ورسوله ، إلا فتحت لهُ أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء][1] .

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمىٰ الريان لا يدخله إلا الصائمون][2] .

وقوله: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾. قال ابن جرير: (وعنىٰ بقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أمنة من الله لكم أن ينالكم بعدُ مكروه أو أذى). وقيل الواو ملغاة أي التقدير: حتىٰ إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ، قال لهم خزنتها. وقوله ﴿ طِبْتُمْ ﴾ أي طابت أعمالكم في الدنيا فقابلها اليوم في الآخرة أن طاب مثواكم ومنزلكم. وقال مجاهد: (قوله ﴿ طِبْتُمْ ﴾ أي كنتم طيبين في طاعة الله). وقال النقاش: (أي طبتم بالعمل الصالح). وقال مقاتل: (إذا قطعوا جسر جهنم حُبِسُوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا ، حتىٰ إذا هُذِّبُوا وطيِّبُوا قال لهم رضوان وأصحابه: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ بمعنىٰ التحية ﴿ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾). أي ماكثين فيها أبداً.

وقد خرّج الإمام البخاري في صحيحه حديث القنطرة هذا حيث قال: حدثني الصَّلْتُ بنُ محمد حدثنا يزيدُ بن زُرَيْع ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ قال حدثنا سعيدٌ عن قتادةَ عن أبي المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يَخْلُصُ المؤمنون من النار فَيُحْبَسُون على قنطرةٍ بين الجنة والنار ، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا حتىٰ إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأَحَدُهُم أهْدىٰ بمنزِلِهِ في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا][3] .

وأول من يقرع باب الجنة ويدخلها هو محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وسيد ولد آدم ، ثم تَلِجُ أمته من بعده.

فقد روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (234) ح (17) ـ كتاب الطهارة ـ في آخر حديث أطول.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 95) ، ومسلم (1152) ، والترمذي (765).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2440) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 13).

أكثر الناس تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة][1] . وفي رواية: (أنا أول شفيع في الجنة).

وكذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [نحن السابقون الأولون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم][2] . وفي لفظ عند الإمام مسلم عنه: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم[3] ، فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه).

ولمسلم عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: [أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا صاحب لواء الحمد ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة ولا فخر ، آخذ بِحلقة باب الجنة فيؤذن لي فيستقبلني وجه الجبار جل جلاله فأخر له ساجداً]. وروى الدارمي نحوه من طريق ابن عباس.

وكذلك روى مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك][4] .

وأما صفة الزمرة الأولىٰ من بين الزمر الداخلة في هذا الموكب العظيم فهي كما روى الشيخان والإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ولا يتغوطون فيها ولا يتمخطون فيها ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً][5] .

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (331) ، (332)/ (196).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (876) ، ومسلم (855) ، وأحمد (2/ 243).
(3) أي ما سبقونا إلا بهذا القدر.
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (333) (197) ، وأخرجه أحمد في المسند (3/ 136).
(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3245) ، ومسلم (2834) (17) ، وأخرجه الترمذي (2537) ، ورواه أحمد (2/ 316) ، وابن حبان (7436).

وقوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾.

فإنهم إذا دخلوا الجنة حمدوا الله الذي أذهب عنهم الهَمَّ والغَمَّ وأبدلهم بالحزن والضيق فرجاً ومخرجاً، كما قال سبحانه في سورة فاطر: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾. وكقوله في سورة الأعراف: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. فيحمدون الله عند دخولهم الجنة لما شاهدوا حسن الاستقبال وعاينوا جميل التكريم ورؤية وجه الله العظيم.

ففي صحيح الإمام مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالىٰ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخِلْنا الجنة، وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربِّهم](1).

وأما قوله ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ ففيه أكثر من تأويل:

الأول: قيل المراد أرض الجنة. فعن قتادة: (قوله ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ قال: أرض الجنة). وكذلك قال ابن زيد وقرأ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]. وقال القاسمي: (أي أرض الآخرة شبه نيلهم بأعمالهم لها، بإرثهم من آبائهم. فكأن الأعمال آباؤهم). وقال النسفي: (أرض الجنة وقد أورثوها أي ملكوها وجعلوا ملوكها. قال: تشبيهاً بحال الوارث).

الثاني: قيل بل المراد الأرض التي كانت تكون لأهل النار لو كانوا مؤمنين.

فقد ذكر ذلك أبو العالية وقتادة والسدي. قال ابن جرير: (وجعل أرض الجنة التي كانت لأهل النار لو كانوا أطاعوا الله في الدنيا فدخلوها ميراثاً لنا عنهم).

الثالث: قيل بل هو على التقديم والتأخير والمراد أرض الدنيا. ذكره القرطبي.

قلت: والبيان الإلـهي يحتمل هذه اللطائف البديعة، والتفاسير الرفيعة، فالحمد لله الذي مَكَّنَنَا في الأرض وخذل عدوّ الحق وأورث الأرض للمؤمنين يحكمون بشرع الله العظيم، ثم كافأهم في قبورهم بأن أراهم مقاعدهم من الجنة وأورثهم مقاعد غيرهم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (181) ـ كتاب الإيمان.

من أهل النار بما أخلفوا الله ما وعدوه وكانوا كاذبين ، ثم هيأ لهم ملكاً في الجنة ليصيروا ملوكاً والخدم حولهم وهم ينعمون ويتلذذون.

وقوله: ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ . قال السدي : (ننزل منها حيث نشاء). وقال أبو جعفر: (نتخذ من الجنة بيتاً ونسكن منها حيث نحبّ ونشتهي). أي حيث شئنا حللنا وحيث أحببنا نزلنا في جناننا المخصصة لنا. قال النسفي: (أي يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ أي يتخذ متبوأ ومقراً من جنته حيث يشاء). وقوله: ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ . أي: فهنيئاً لمن قدّم لنفسه في الدنيا لسعادته في الآخرة في الجنة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالىٰ: أعْددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر][1].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ الأشعري عن النبي ﷺ قال: [إن للمؤمنين في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ، فلا يرى بعضهم بعضاً][2].

وفي لفظ آخر: (الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون).

قال ابن القيم رحمه الله: (وهذه الخيم غير الغرف والقصور بل هي خيام في البساتين وعلى شواطئ الأنهار).

وقوله: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ . أي: تراهم يا محمد يوم قضي الأمر محدقين من حول عرش الرحمان. قال ابن جرير: (ويعني بالعرش: السرير). ونقل عن السدي قوله: (محدقين حول العرش ، قال: العرش السرير). وإدخال (مِن) في قوله ﴿ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴾ للتأكيد ، والمراد حافين حول العرش كقولك (ما جاءني من أحد).

وقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ في محل نصب حال ، أي حال كونهم مسبحين لله يلهجون بحمده وبذكره ، وقيل: يصلون لله حول العرش شكراً له وتعظيماً. قال ابن

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2824) ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب صفة الجنة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3243) ـ كتاب بدء الخلق. وأخرجه مسلم (2838) ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب في صفة خيام الجنة ، وماللمؤمنين فيها من الأهلين.

جرير: (يصلون حول عرش الله شكراً له، والعرب تدخل الباء أحياناً في التسبيح وتحذفها أحياناً فتقول: سبح بحمد الله وسبح حَمْدَ الله كما قال جل ثناؤه ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وقال في موضع آخر ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾). قال النسفي: (وذلك للتلذذ دون التعبد لزوال التكليف).

وقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أي بين الخلائق فريق في الجنة وفريق في السعير. قال الشوكاني: (أي بين العباد بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار). وهو اختيار ابن كثير.

التأويل الثاني: قيل: قضي بين النبيين الذين جيء بهم مع الشهداء وبين أممهم بالحق والعدل. ذكره القرطبي. وهو اختيار ابن جرير.

التأويل الثالث: قيل: بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب درجاتهم. ذكره الشوكاني وَرَجَّح التأويل الأول.

قلت: فالكل قد أخذ حقه في ذلك اليوم الرهيب، فقد فصل الله بين الأنبياء وأقوامهم بعد أن تقدم الشهداء من أمة محمد بالشهادة ضد المكذبين للرسل على صدق الرسل وتبليغهم. ثم قضي بينهم في دار الخلود كل في مقامه وحسب مرتبته سواء كان من أهل الجنة أو من أهل النار. وكذلك الملائكة فقد أنصفهم ربهم سبحانه في منازلهم ومراتبهم فلهج الملائكة والمؤمنون بحمد الله العظيم الذي حمد نفسه ومدحها من قبلهم فتبارك الله أحسن الخالقين حيث ختم الموقف بقوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال قتادة: (افتتح الله أول الخلق بـ «الحمد لله» فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وختم بالحمد فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾).

قال القرطبي: (فلزم الاقتداء به، والأخذ في ابتداء كل أمر بحمده وخاتمته بحمده).

وقال القاسمي رحمه الله: (والقائل: إما الحق جل جلاله، أو الملائكة الحافون، أو المؤمنون ممن قضي بينهم، أو الكل، فله الحمد عز وجل).

واختار الحافظ ابن كثير إطلاق الآية حيث قال: (أي نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله. قال: ولهذا لم يسند القول إلى قائل فدلّ على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد).

قلت: فإذا فرح المؤمنون بمنازلهم في الجنة، وَبِخِزْيِ أعدائهم في النار، نطقت

ألسنتهم بالحمد وتحركت قلوبهم بالشكر والذكر لله المنعم الكريم ، وشاركتهم بفرحهم الملائكة الكرام ، ونَطَقَ معهم كل شيء في هذا الكون بما يحب الله لنفسه من المدح فقالوا جميعاً : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

تم تفسير سورة الزمر
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الله تعالىٰ أغنىٰ الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك به معه غيره تركه يوم القيامة وشركه ، وقال له : اطلب ثوابك من عنده .

2 ـ لا أحدَ أغيرُ من الله ، ولذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ولا أحد أحبّ إليه المدح من الله ولذلك مدَحَ نفسه ، ولا أحدَ أحبُّ إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل .

3 ـ الشمس والقمر ثوران مكوَّران في النار يوم القيامة .

4 ـ إنّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً ، ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وشقي أو سعيد .

5 ـ عجباً لأمر المؤمن ، إن الله تعالىٰ لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له .

6 ـ من دعا إلى هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعِه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً .

7 ـ أفضل الصلاة طول القنوت ، وأفضل الجهاد من عُقِرَ جوادُه وأريق دَمُه .

8 ـ عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالىٰ ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات .

9 ـ إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزىٰ بها في الآخرة .

10 ـ إن الله تعالىٰ يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرَّم الله عليه .

11 ـ ليودَّن أهل العافية يوم القيامة ، أنَّ جلودهم قرضت بالمقاريض ، مما يرون من ثواب أهل البلاء.

12 ـ إن الله تعالىٰ لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغِيَ به وَجْهُه.

13 ـ الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ما ابتغي به وجهُ الله.

14 ـ إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول أنّىٰ لي هذا ؟ فيقال : باستغفار ولدك لك.

15 ـ الطاغوت مشتق من الطغيان. والطاغوت الشيطان ، وكل ما عبد من دون الرحمان.

16 ـ بشرىٰ الدنيا الرؤيا الصالحة ، ومن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ـ صادقاً من قلبه ـ وجبت له الجنة.

17 ـ إن الله تعالىٰ يحبّ معاليَ الأمور وأشرافها ، ويكره سَفْسَافَها.

18 ـ إنّ في الجنة غرفاً يرىٰ ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدّها الله لمن أطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلىٰ بالليل والناس نيام.

19 ـ ليس المنشرح صدره مثل القاسي قلبه ، والله تعالىٰ خلق الخلق في ظلمة ثم ألقىٰ عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ ، ومن أخطأه ضَلَّ.

20 ـ أحسن الحديث القرآن ، وأحسن القصص القرآن ، والقرآن يصدق بعضه بعضاً.

21 ـ فضل العلم أحبّ إلى الله من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع.

22 ـ ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، لكل جزءٍ منها حَرُّها.

23 ـ من مات وعليه دَيْن فليس ثمّ دينار ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات.

24 ـ لو أنكم توكلون على الله تعالىٰ حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطيرَ ، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً.

25 ـ قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمان ، فمن شاء أقامه ، ومن شاء أزاغه. والميزان بيد الرحمان يَرْفَعُ أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة.

26 ـ إذا حضرتم مَوْتاكم فأغِمضُوا البَصَر ، فإن البصر يتبع الروح ، وقولوا خيراً ، فإن الملائكة تُؤمِّنُ على ما يقول أهل البيت.

27 ـ من سَرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكُرَبِ ، فليكثر الدعاء في الرخاء.

28 ـ لولا أنكم تذنبون ، لخلق الله خلقاً يذنبون ، فيستغفرون ، فيغفر لهم .

29 ـ كُلُّ أهل الجنة يرىٰ مقعده من النار ، فيقول : لولا أن الله هداني ، فيكون له شُكْرٌ ، وُكلُّ أهل النار يرىٰ مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هداني ، فيكون عليه حسرة .

30 ـ يقبض الله الأرض ، ويطوي السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض .

31 ـ الناقور : الصور . والراجفة : النفخة الأولىٰ . والرادفة : الثانية .

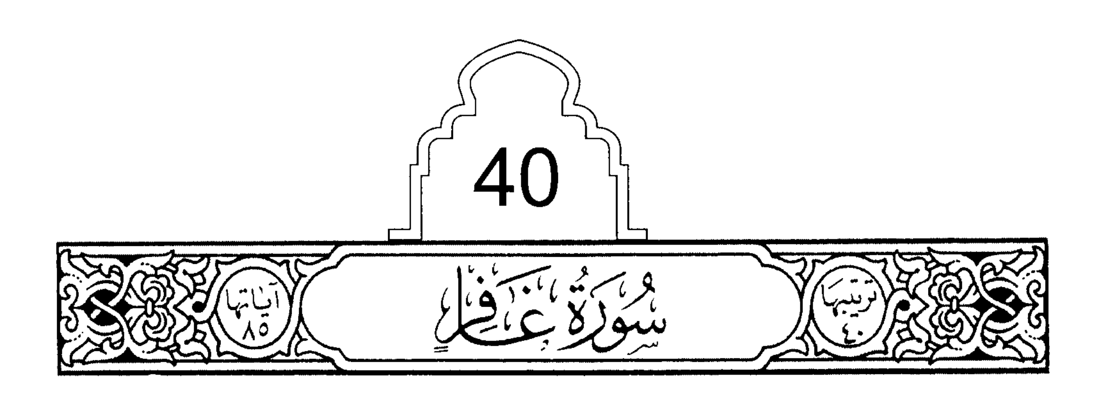
32 ـ إن في الجنة ثمانية أبواب ، باب منها يسمىٰ الريان لا يدخله إلا الصائمون .

33 ـ قال الله تعالىٰ : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

34 ـ الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلاً ، في كل زاوية أهل للمؤمن لا يراهم الآخرون .

35 ـ افتتح الله أول الخلق بـ «الحمد لله» فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام : 1] ، وختم الحساب والقضاء بالحمد فقال : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : 75] .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية. قيل: سوىٰ الآيتين (56 ـ 57).

قال ابن عباس وقتادة: (إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة وهما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والتي بعدها). وعدد آيات هذه السورة (85).

وتسمى بسورة غافر إشارة لقول الله فيها: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، كما تسمى بسورة المؤمن لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون.

قال المهايمي: (سميت به لاشتمالها على كلمات مؤمن آل فرعون، المتضمنة دلائل النبوة ورفع الشبه عنها، والمواعظ والنصائح وسلامته عن أعدائه. وعما أخذوا به، وهي من أعظم مقاصد القرآن. وتسمى سورة غافر وسورة الطّول).

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: (أنزلت سورة حم المؤمن بمكة). وأورد البيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: (أنزلت الحواميم السبع بمكة).

موضوع السورة

منهاج المؤمن في الدعوة

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار للقرآن من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل توبة التائبين، شديد العقاب

على المجرمين ، وما يجادل في آيات الله إلا أهل الكفر المُسْتدرجين .

2 ـ تسليةُ النبي ﷺ بِذِكْرِ أخبار الرسل قبله وصبرهم على أذىٰ قومهم حتىٰ فصل الله بالحق وأنزل نصره على المؤمنين ، ونقمته وعذابه بالكافرين .

3 ـ تسبيح الملائكة حملة العرش واستغفارهم للمؤمنين ، وسؤال الله تعالىٰ أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم برحمته ومن صلح من أرحامهم جنات النعيم .

4 ـ هوان الكفار يوم الحساب ، وقد أخزاهم الله بالعذاب ، بعدما فرحوا بالشرك في دار الدنيا ونفروا من توحيد الله رب الأرباب .

5 ـ امتنانُ الله على عباده بآيات مقدرته وإنزاله الماء ، ليخلصوا له العبادة ـ سبحانه ـ والدعاء .

6 ـ ثناء الله على نفسه وعرشه وإثبات تنزل الوحي بأمره لينذر الرسل يوم الحساب ، يوم يخرج الناس من قبورهم لنيل الجزاء من الثواب أو العقاب .

7 ـ الإنذار بيوم الآزفة وقد وقعت القلوب في الحناجر من شدة المخافة ، وهول الازدحام ، وازدحام الأهوال .

8 ـ سنة الله تعالى في أخذ الأمم الظالمة وإنزال نقمته عليها والعذاب ، وذلك في الدنيا قبل حلول العذاب الأكبر يوم الحساب .

9 ـ إرسالُ الله تعالى إلى فرعون وهامان وقارون الآثمين ، واستكبار القوم ولجوء موسىٰ إلى ربه لينصره على الطاغية وجنوده المجرمين .

10 ـ تحذير مؤمن آل فرعون قومه تكذيب أو معاندة المرسلين ، وتنبيهه لهم أن هذا التمكين في الأرض لا يدوم ولا يرد بأس الله عن القوم المسرفين .

11 ـ تحذير مؤمن آل فرعون قومه عذاب الدارين ، وطبع الله على قلوب المتكبرين .

12 ـ تمادي فرعون في الكفر والضلال ، ومساعدة هامان له في تثبيت سلطانه الفاسد ، وما كيد الظالمين إلا في تبار وخسار .

13 ـ استمرار مؤمن آل فرعون تحذير قومه غرور الحياة الدنيا ، وترغيبه لهم في طاعة الله الموصلة إلى جنات النعيم ، وتوضيحه لهم أن ما هم عليه من الكفر والإفساد يوصل إلى عذاب الجحيم ، وأنهم سيذكرون يوماً قوله ونصيحته لهم والله هو السميع البصير العليم .

14 ـ نجاةُ مؤمن آل فرعون في الدنيا والآخرة ، وإحاطة العذاب بفرعون وجنده في الغرق والقبر ثم بنار الآخرة المستعرة.

15 ـ حوار الرؤساء مع أتباعهم من المجرمين ، وصورة الخزي والندم على الكافرين.

16 ـ تقدير الله نزول نصره على رسله وعباده المؤمنين في الدارين ، وتسلية الله نبيّه عما يلقاه من أذىٰ المشركين.

17 ـ تسفيه المنكرين للبعث والمعاد ، بأن خلق الله السماوات والأرض أكبر من خلق العباد.

18 ـ أمْرُ الله عباده إفراده بالدعاء والتعظيم ، والمستكبرون عن عبادته مآلهم إلى نار الجحيم.

19 ـ امتنان الله تعالى على عباده بنعمة الليل والنهار ، والأرض والسماء والتصوير والرزق الحلال.

20 ـ تفرّد الله تعالىٰ بأمر الإماتة والإحياء ، وتقريع المشركين الذين يفرحون بالباطل ومصيرهم إلى الخزي والعذاب والإعياء.

21 ـ تسلية الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بأمره بالصبر ، وتبشيره باقتراب الفرج.

22 ـ امتنان الله على قريش ومن بعدهم بنعمة الأنعام ، والمنافع العائدة عليهم منها في المأكل والمشرب والمركب ، وكذلك نعمة ركوب السفن في البحار.

23 ـ التحذير من مصير الأمم الكافرة التي كفرت وجاءها العذاب بعد الطغيان ، وما أغنىٰ عنها ما أُعطيت من القوة والأموال والبنيان.

24 ـ إيمان كثير من الناس عند رؤية العذاب ، وكفرهم بالله بعد ذهاب العقاب.

25 ـ سنة الله التي قد خلت في عباده أن الهلاك على الكافرين ، والنجاة لطائفة المؤمنين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 9. قوله تعالىٰ: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إن هذا القرآن المعجز هو من جنس هذه الحروف العربية، فهو تنزيل من الله العزيز في انتقامه من أعدائه، العليم بما يعملون في السر والخفاء أو علانية وجهاراً تحت سمائه، وهو الغفور يقبل التوبة عن عباده، الشديد العقاب لِمَنْ تمادىٰ في طغيانه وعناده، وهو المتفَضِّلُ صاحب الفضل والنعم المبسوطة على مَنْ شاء من خلقه، المتطوِّل عليهم بما لا يقدرون ولا يطيقون القيام بشكره، من الفضل والمنِّ والإنعام، وتذليل الدنيا وجميل الأيام. إنه ما يَدْفَعُ الحق من عباده بعد البرهان، إلا الجاحدون الذين يتقلبون في البلاد بالكفر والطغيان، وَحُبِّ الرياسة والكبر والعلو بالظلم على الأنام، فقد كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من الأمم بعدهم، ممّن أهمَّتهم دنياهم وتعظيم شهواتهم، وبغوا وتمادوا حتى همّت كل أمة بقتل رسولهم،

والمكر واستخدام الباطل في محاولة لتقويض الحق ولكن أنّىٰ لهم ، فقد عاجلهم الله بالعقوبة وأنزل العذاب بهم ، وحقت عليهم كلمة الله ليملأن جهنم منهم ومن أتباعهم. لكنِ الملائكة الذين يحملون العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للمؤمنين ويدعون الله لهم ، بأن يمنّ عليهم بالمغفرة والنجاة من عذاب الجحيم ، ودخول الجنان هم وذراريهم ممن اتبعهم آمنين ، دون الخوض في متاعب الحساب وآلام العذاب.

فإلى تفصيل ذلك:

قوله تعالىٰ: ﴿حمٓ﴾. أجمل ما قيل فيه: إنه إعجاز للعرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي ركبت كلماته من مثل هذه الأحرف المقطعة. وقد مضىٰ ذكر أمثال ذلك.

أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: [إنْ بُيِّتُمْ فليكن شِعارُكمْ: حم لا ينصرون][1].

ويبدو أن الانتصار قد تواتر بعد ذكر هذه الحروف في أوائل تلك السور التي ذكر فيها. فقال هنا جل ذكره: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. و﴿تَنزِيلُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، أو مبتدأ مرفوع للخبر ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾. والمعنىٰ: هذا القرآن هو تنزيل من الله ذي العزة والعلم.

قال ابن جرير: (من الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في انتقامه من أعدائه ، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بما يعملون من الأعمال وغيرها ، تنزيل هذا الكتاب). وقال ابن كثير: (فلا يرام عزه ، ولا يخفىٰ عليه الذر وإن تكاثف حجابه). وقال النسفي: (أي المنيع بسلطانه عن أن يتقول عليه متقول ، العليم بمن صدق به وكذب ، فهو تهديد للمشركين وبشارة للمؤمنين).

وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾. أي يغفر ما سلف ، ويعفو ويصفح عمن تاب وأقبل صادقاً.

وقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾. أي لمن تمرَّد وطغىٰ ، وآثر الحياة الدنيا وبغىٰ ، وعتا عن أوامر الله فاستكبر وعصىٰ.

وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49 ـ 50].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو دواد (2597) ـ كتاب الجهاد ، باب في الرجل ينادي بالشعار ، وكذلك أخرجه الترمذي (1682) ، والنسائي في «اليوم والليلة» (622) ، والحاكم (2/ 107) وإسناده صحيح. وجهالة الصحابي لا تضر. وانظر صحيح سنن أبي داود (2262).

وقد أخرج البخاري في «الأدب المفرد» ، وأحمد في «المسند» بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، وويل لأقماع القول ، وويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون][1] .

قال الزمخشري: (من المجاز «ويل لأقماع القول» وهم الذين يستمعون ولا يعون). فشبه استماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يعلمون به بالأقماع ـ جمع قِمْع ـ التي لا تعي شيئاً مما يفرغ فيها ، فكأنه يمر عليها مجتازاً كما يمر الشراب في القمع.

وقوله: ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ . أي: ذي الفضل والنعم المبسوطة على من شاء من خلقه ، ونعمه لا يحصيها أحد. يقال منه: إنّ فلاناً لذو طول على أصحابه إذا كان ذا فضل عليهم.

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ يقول: ذي السعة والغنى). وقال مجاهد: (الغنىٰ). وقال قتادة: (أي: ذي النعم والفواضل). وقال ابن زيد: (الطول: القدرة). وقال عكرمة: (ذي المَنّ). وقال يزيد بن الأصمّ: (﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ : يعني الخير الكثير).

وقوله: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

أي: لا نظير له تعالىٰ في صفاته ، وفي تفضله ومنّه وكرمه ، وفي مغفرته وعقابه ، فأفردوه بالعبادة والتعظيم ، والتمسوا المقام بين الخوف والرجاء ، فإليه المآل في نهاية الحال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ .

أي: لا يخاصم في حجج الله وأدلته على وحدانيته إلا الذين جحدوا آياته ، فلا يخدعك ـ يا محمد ـ تصرّفهم في البلاد ومكثهم فيها مع كفرهم ، فإن الله تعالىٰ يمهلهم ليبلغ الكتاب أجله ولتحق عليهم كلمة العذاب.

وعن قتادة: (﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ : أسفارهم فيها ومجيئهم وذهابهم).

---

(1) إسناده صحيح. أخرج البخاري في «الأدب المفرد» (380) ، وأحمد (2/ 165) ، (2/ 219) ، وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (1/ 42). وانظر السلسلة الصحيحة (482).
والأقماع: جمع قِمْع ـ الإناء يجعل في رأس الظرف ليملأ بالمائع.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55 ـ 56].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 44 ـ 45].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196 ـ 197].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسىٰ رضي الله تعالىٰ عنه قال: قال رسول ﷺ: [إنَّ الله لَيُملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾][1].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾. قال قتادة: (الكفار). أي: كذّب قبل قومك ـ يا محمد ـ قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهم الأمم الذين تحزّبوا وتجمّعوا على رسلهم بالتكذيب لها، كعاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين وأشباههم.

وقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾. أي: ليقتلوه. والأخيذ: الأسير.

قال ابن كثير: (أي: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسولَهم).

وقوله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

أي: وخاصموا رسولهم بالباطل من الخصومة، وماحلوا بالشبهة ليبطلوا بجدالهم وخصومتهم الحق الذي معه من الدخول في طاعته، كما يخاصمك قومك يا محمد.

أخرج أبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: [من أعان على خصومة بظلم، لم يزل في سخط الله حتى ينزع]. وفي لفظ: [فقد باء بغضب من الله عز وجل].

وفي لفظ: [من خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، حبس في ردغة الخبال، حتى يأتي بالمخرج مما قال][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ـ كتاب التفسير، وانظر مختصر صحيح مسلم (1831).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 117)، والحاكم (2/ 27)، والسياق له، وأحمد =

وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾. قال قتادة: (شديد والله).

والمقصود: فكيف كان انتقامي منهم؟ ألم أهلكهم فأجعلهم للخلق عبرة ولمن بعدهم عظة؟ فالديار خراب، والمساكن خلاء!

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

أي: كما وجب العذاب على الأمم التي كذبت رسلها قبلك ـ يا محمد ـ كذلك وجبت كلمة ربك على كفار قومك الذين اتخذوا الجدال بالباطل طريقاً لهم لدحض الحق الجلي.

قيل: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بدل من الكلمة، والتقدير: أحقت الكلمة حقاً أنهم أصحاب النار. وقيل: بل هي ترجمة عن الكلمة، والتقدير: وكذلك حق عليهم عذاب النار الذي وعد الله أهل الكفر به ـ واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

قال ابن كثير: (أي: يقْرِنون بين التسبيح الدّال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح). قال النسفي: (﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي مع حمده، إذ الباء تدل على أن تسبيحهم بالحمدلة).

قلت: وحملة العرش هم سادة الملائكة، وأعظمهم قوة وخلقاً.

كما قال تعالىٰ في سورة الحاقة: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [17].

وقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن ملك من ملائكة الله تعالىٰ حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة سنة][(1)].

وله شاهد عند الطبراني بسند جيد من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلىٰ وعلى قرنِهِ العرش،

= (2/ 70). وكذلك (2/ 82)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (438).

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4727)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (151).

وبين شحمة أذنيه وعاتقِهِ خفقان الطير سبع مئة عام ، يقول ذلك الملك : سبحانك حيث كنت][1] .

وقوله : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ . فيه إظهار شرف الإيمان ، فهم مع ما أوتوا من قوة لحمل العرش فإنهم أذلاء خاشعون لله .

وقوله : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ . قال قتادة : (لأهل لا إله إلا الله) .

قال ابن جرير : (يقول : ويسألون ربهم أن يغفر للذين أقروا بمثل إقرارهم من توحيد الله ، والبراءة من كل معبود سواه ذنوبهم فيعفوها عنهم) .

وفي السنة الصحيحة ما يدل على مثل ذلك :

ففي صحيح مسلم عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : [ما مِنْ عبدٍ مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل][2] . وفي لفظ آخر : [مَنْ دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك الموكَّلُ بهِ : آمين ، ولك بِمِثْل] .

وفي مسند أحمد بإسناد صحيح عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا عادَ الرجل أخاه المسلم مشىٰ في خرافة[3] الجنة حتى يجلس ، فإذا جلس غمرته الرحمة ، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتىٰ يمسي ، وإن كان عشياً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح][4] .

وعن خلف بن هشام البزار القارئ قال : (كنت أقرأ على سليم بن عيسىٰ فلما بلغت : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بكىٰ ثم قال : يا خلف ! ما أكرم المؤمن على الله نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له) .

وقال يحيىٰ بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية : (افهموها فما في العالم جنة

---

(1) إسناده جيد . أخرجه الطبراني من حديث أنس . انظر صحيح الجامع (866) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 538) ـ بحث : الإيمان بالملائكة ـ لمزيد من التفصيل .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2732) ـ كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب . ح (86) ، ح (87) .

(3) أي في اجتناء ثمرها .

(4) حديث صحيح . أخرجه أحمد (1/ 81) ، وأبو داود (3099) ، وابن ماجة (1/ 440) ، وأخرجه الحاكم (1/ 349) ، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (77) . وانظر السلسلة الصحيحة (1367) .

أرجىٰ منها ، إن ملكاً واحداً لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم ، كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾. أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم.

وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾. أي: فاصفح عمن أساء ثم جاء تائباً مطيعاً.

قال قتادة: (﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ من الشرك ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي طاعتك).

وقوله: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾. أي: اصرف عن الذين تابوا واتبعوا سبيلك عذاب النار يوم القيامة.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾. أي: ربنا اجمع بينهم وبينهم ، ممن عمل صالحاً مثلهم ليتم سرورهم بهم.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: 21].

أخرج البزار والبغوي بسند صحيح عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ قال: [إنّ الله لَيَرْفَعُ ذُرِّيةَ المؤمن إليه في درجته ، وإنْ كانوا دونه في العمل ، لِتَقَرَّ بهم عَيْنُه ، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية ، ثم قال: وما نَقَصْنا الآباءَ بما أَعْطَينا البنين][1].

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أي إنك أنت ـ يا ربنا ـ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبيره وشرعه وقدره.

وقوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. قال قتادة: (أي العذاب). أي: وقِهم عذاب السيئات. وقال أيضاً: (أي وقهم ما يسوؤهم). والمقصود: وقهم فعل السيئات أو الوقوع في حبائلها.

وقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾. أي: ومن تق السيئات وعواقبها يوم القيامة فقد رحمته بالنجاة والجنة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

---

(1) صحيح الإسناد. أخرجه البزار (ص221) ، وابن عدي (ق 270/ 1) ، والبغوي في «التفسير» (8/ 82) ، والحاكم (2/ 468) ، وانظر السلسلة الصحيحة (2490).

10 ـ 14. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ كيف ينادىٰ الكفار في النار وقد مقتوا أنفسهم إذ ضيّعوا دنياهم بالكفر فاستحقوا العذاب في أخراهم فيقال لهم: إن مقت الله إياكم في الدنيا وأنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون هو أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم، وقد أخزاكم الله في عذاب الهون، ذلك بأنكم كنتم تفرحون بالشرك وتنفرون من توحيده تعالىٰ فالحكم له اليوم وحده لا شريك له.

إنه ـ تعالىٰ ـ هو الذي يبين لكم آيات مقدرته وينزل لكم الماء من السماء وما يتذكر ـ أيها العباد ـ إلا من ينيب، فأخلصوا له العبادة والدعاء رغم أنف الكافرين فإن الله سبحانه سميع قريب.

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾. قال مجاهد: (مقتوا أنفسهم حين رأوا أعمالهم، ومَقْتُ الله إياهم في الدنيا، إذ يُدعون إلى الإيمان فيكفرون، أكبر).

وقال قتادة: (يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوا، أكبر مما مقتوا أنفسهم، حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة).

وأصل المقت في لغة العرب البغض، يقال: مقت فلان فلاناً أي أبغضه، والمقصود أن الكفار أبغضوا أنفسهم بسبب ما أسفلوا من الأعمال التي أوصلتهم إلى عذاب النار، فنادتهم الملائكة بأن مقت الله لهم وهم يردون أمره في الدنيا ويستكبرون عن طاعته كان أكبر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

إخبار عن تلطفهم في السؤال ، فقالوا: يا رب إنه بقدرتك العظيمة أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً في أصلاب آبائنا ثم أمتنا بعد انتهاء حياتنا الدنيا ثم أحييتنا اليوم للحساب وقد اعترفنا بذنوبنا وظلمنا أنفسنا في الدار الدنيا فهل أنت مجيبنا للعودة إلى دار الامتحان في الدنيا لنعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل؟!

وعن ابن عباس: قوله: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ قال: (هو كقوله: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾).

وعن قتادة قال: (كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ، فأحياهم الله في الدنيا ، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة ، فهما حياتان وموتتان).

قال: (﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ فهل إلى كرّة إلى الدنيا).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

أي: فأُجيبوا حين طلبوا الرجعة أن لا سبيل إلى ذلك[1] ، والسبب وراء هذا المنع أنّ سجاياكم لا تقبل الحق بل تمجُّه وتنفيه فما بكم حبّ الله ودينه ورسله وإنما إرادة التخلص من ألم النار ، وقد قضىٰ الله أن لا رجعة إلى تلك الدار ، فالحكم إليه إنه هو الحكيم الجبار العلي المتعال.

قال ابن جرير: (﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾ فأنكرتم أن تكون الألوهة له خالصة وقلتم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: 5]. ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ يقول: وإن يجعل لله شريك تصدقوا من جعل ذلك له ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ يقول: فالقضاء لله العلي على كل شيء ، الكبير الذي كل شيء دونه متصاغراً له اليوم).

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾.

أي: هو الذي يريكم آيات قدرته العجيبة من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق والزلازل والبراكين وغير ذلك مما يدل على انفراده سبحانه بالجبروت

(1) أي في الكلام محذوف هذا تقديره ، وقد استغني بدلالة الظاهر من ذكره عليه.

والعظمة ، وكذلك ينزل لكم من السماء الغيث الذي يخرج به أقواتكم وغذاء أنعامكم وما يعقب ذلك من أرزاقكم.

وقوله : ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ . قال السدي : (من يقبل إلى طاعة الله).

أي : وما يتعظ بحجج الله ويعتبر بها إلا من هو بصير راجع إلى الله يرجو رحمته ويخشىٰ عذابه.

وقوله تعالىٰ : ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ .

قال النسفي : (ثم قال للمنيبين : ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ فاعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم).

أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً مِنْ قَلْبٍ غافل لاهٍ][1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير قال : [كان ابن الزُّبير يقول في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ ، حين يُسَلِّمُ : «لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ، له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النِّعمةُ وله الفَضْلُ ، وله الثناءُ الحَسَنُ ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». وقال : كان رسول الله ﷺ يُهلِّل بِهنَّ دُبُرَ كل صلاة][2] .

15 ـ 17 . قوله تعالىٰ : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ .

في هذه الآيات : ثناء الله تعالىٰ على نفسه ، ومدح عرشه ، وإثبات تنزل الوحي

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3479). وانظر صحيح سنن الترمذي (2766).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (594) ـ كتاب المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته. وانظر مسند أحمد (4/ 4) بإسناد على شرط مسلم.

بأمره ، لينذر الرسل يوم التلاقي. يوم يخرج الناس من قبورهم للحساب ، ونيل ما استحقوا من الثواب أو العقاب.

فقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ . إخبار عن عظمته تعالىٰ وكبريائه ، وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع سماواته ومخلوقاته.

أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][1].

وأخرج ابن خزيمة في «التوحيد» ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» بسند صحيح عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره][2].

وقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ .

قال ابن زيد: (هذا القرآن هو الروح أوحاه الله إلى جبريل ، وجبريل روح نزل به على النبي ﷺ وقرأ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193]).

وقال قتادة: (﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ قال: الوحي من أمره).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورىٰ: 52].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: 193 ـ 194].

وهذا الوحي الأخير من الله هو أكبر معجزة باقية في الأرض إلى يوم القيامة.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [ما مِنَ الأنبياء من نَبِيٍّ إلا قد أُعْطِيَ من الآيات ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أَوْحىٰ الله إليَّ ، فأرجو أن أكونَ أكثرهم تابعاً يوم القيامة][3].

---

(1) حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (1/114) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 290) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (109).

(2) صحيح موقوف. أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» وعبد الله بن أحمد في «السنة». انظر «مختصر العلو» ص (102) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1161).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4981) ـ كتاب فضائل القرآن ، وكذلك (7274). =

وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

قال ابن عباس: (﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده). وقال قتادة: (يوم تلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق). وقال ابن زيد: (يوم تتلاقىٰ العباد). وقال ميمون بن مِهران: (يلتقي الظالم والمظلوم). ولا شك أن كل هذه الأوصاف كائنة يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾. أي: ظاهرون لا يخفى عليه شيء منهم ومن أعمالهم.

قال القرطبي: (ومعنى: ﴿بَارِزُونَ﴾ خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء، لأن الأرض يومئذ قاع صفصف لا عوج فيها ولا أمْتاً).

وقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

قال ابن جرير: (يقول الرب: لمن السلطان اليوم؟ وذلك يوم القيامة. فيجيب نفسه فيقول: لله الواحد الذي لا مثل له ولا شبيه، القهار لكل شيء سواه بقدرته الغالب بعزته).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يقبِضُ الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض][1].

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾.

إخبار عن عدله تعالىٰ في قضائه وفصله بين خلقه، وحكمه على أعمالهم وما كسبت أيديهم، فإنه تعالىٰ يجازي الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 22].

= وأخرجه مسلم (152) ـ كتاب الإيمان ـ وقد مضىٰ.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4812) ـ كتاب التفسير. وكذلك (7412)، ورواه مسلم.

وفي صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربه عزّ وجل أنه قال: [يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ـ إلى أن قال ـ يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجَدَ خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسَه][1].

الحديث الثاني: أخرج الحاكم بسند جيد عن سلمان ، عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب! لِمَنْ يزنُ هذا؟ فيقول الله تعالىٰ: لمن شئت من خلقي ، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][2].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي يحاسب الخلائق جميعهم كما يحاسب نفساً واحدة.

كما قال جل ذكره: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: 50]. وكقوله جل ثناؤه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

قال القاسمي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي بإيصال ما يستحق كل منهم إليه ، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته).

18 ـ 20. قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ إنذار قومه يوم القيامة وقد وقعت القلوب في

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2577) ، والترمذي (2495) ، وابن ماجة (4257) ، وأحمد في المسند (5/ 160) ، وأخرجه ابن حبان (619).

(2) أخرجه الحاكم (4/ 586) ، وإسناده صحيح لغيره. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

الحناجر من شدة المخافة وازدحام الأهوال وما من شفيع للظالمين ولا حميم. إنه تعالىٰ يعلم السر وأخفىٰ ، ويقضي بالحق والذين يدعون من دونه ليس لهم من الحكم شيء والله هو السميع البصير.

فقوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾. قال مجاهد: (يوم القيامة). وقال ابن زيد: (يوم القيامة ، وقرأ: ﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: 57 ـ 58]).

قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: وأنذر يا محمد قومك يوم الآزفة يعني يوم القيامة أن يوافوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة فيستحقوا من الله عقابه الأليم).

وفي لغة العرب: أزِفَ الرحيل أي دنا ، فسميت الآزفة ـ أي القيامة ـ بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آتٍ قريب.

وقوله: ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾.

قال قتادة: (قد وقعت القلوب في الحناجر من المخافة ، فلا هي تخرج ولا تعود إلى أمكنتها).

وقال السدي: (شخصت أفئدتهم عن أمكنتها فنشبت في حلوقهم فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا ، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر).

ونصب ﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ على الحال ، أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه تعالىٰ.

كما قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: 38].

وقوله: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾.

قال السدي: (من يعنيه أمرهم ، ولا شفيع لهم). قال النسفي: (﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ محب مشفق ﴿ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي يشفع).

والحميم في لغة العرب: القريب الذي تهتم لأمره. والمقصود: ما للكافرين بالله يوم الآزفة من حميم يحم لهم فيدفع عنهم هول ما نزل بهم من عذاب الله ، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيطاع ويُجاب لما سأل.

وقوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾: نظر الأعين إلى ما نهىٰ الله عنه). وقال قتادة: (أي يعلم همزه بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله ولا يرضاه).

قال ابن عباس: (هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره). قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صَغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذَرَ الناسُ عِلمَهُ فيهم، فيستحيوا من الله تعالىٰ حقّ الحياء، وَيتّقوه حقّ تقواه، ويراقبوه مُراقبة مَنْ يَعْلم أنه يراه، فإنه تعالىٰ يعلَمُ العينَ الخائنة وإن أبدت أمانةً، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصُدور من الضمائر والسرائر).

وقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾. أي تكنّه وتضمره.

قال ابن عباس: (هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره، فإذا رأىٰ منهم غفلة تدسَّسَ بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غضّ بصره، وقد علم الله عز وجل منه أنه يودّ لو نظر إلى عورتها). قال: (﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾.

قال القرطبي: (أي يجازي من غَضَّ بصرَه عن المحارم ومن نظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها). وقال القاسمي: (﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالعدل).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾. أي: لأنهم لا يقدرون على شيء.

قال النسفي: (تهكّمٌ بهم ـ يعني بآلهتهم ـ لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. تقرير ووعيد وتعريض. تقرير أنه تعالىٰ هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ووعيد لهم بأنه تعالىٰ يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون ومصيرهم إليه، وتعريض بآلهتهم الهزيلة التي لا تسمع ولا تبصر.

21 ـ 22. **قوله تعالىٰ**: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول تعالىٰ: أولم ير هؤلاء المشركون ما حل بالأمم الكافرة قبلهم ـ وهم يسيرون في أطراف البلاد فيمرون على آثارهم ـ مع أنهم كانوا أشد منهم قوة في الأجسام، ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: من المعالم العظيمة والصروح المتينة وقوي البنيان، فأخذهم الله بذنوبهم وما وقاهم من عذاب الله واق، إنهم كفروا رغم ما أُثْبِتَ لهم من الآيات الداعية إلى الإيمان، وما يقتضيه من الأركان، فدمرهم الله، إن عذابه شديد أليم موجع لا مردّ له إذا نزل بالقوم الكافرين.

وعن قتادة: (﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يقيهم، ولا ينفعهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: فاحذروا أيها القوم أن تسلكوا سبيلهم في تكذيب محمد ﷺ وجحود توحيد الله ومخالفة أمره ونهيه فيسلك بكم في تعجيل الهلاك لكم مسلكهم).

23 ـ 27. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

في هذه الآيات: خَبَرُ إرسال الله تعالىٰ موسىٰ ﷺ إلى فرعون وهامان وقارون، ومقابلتهم للحق بالتكذيب والمكر والتهديد بالقتل، ولجوء موسىٰ عليه السلام إلى ربه لينصره على هذا الطاغية المتجبر المتكبر.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾. السلطان هو الحجة والبرهان. قال قتادة: (أي عذر مبين).

والآية تسلية من الله تعالىٰ لنبيه ﷺ عما يلقىٰ من مشركي قريش بإعلامه ما لقي موسىٰ قبله من فرعون وملئه، وسنته سبحانه في أهل الكفر.

وقوله: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ ﴾. أي: إلى رؤوس الكفر والمكر والكبر.

ففرعون رأس الكفر في زمانه، يعاونه وزيره هامان رأس المكر، وأكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة قارون رأس الكبر.

وقوله: ﴿ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾. أي اتهموه بالكذب والسحر والجنون.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾.

أي فلما جاءهم موسىٰ بتوحيد الله وإفراده بالتعظيم والعمل بطاعته مع إقامة الحجة عليهم قالوا اقتلوا أبناء من آمن معه وأبقوا نساءهم للخدمة. قال قتادة: (هذا قتل غير القتل الأول الذي كان)[1].

وقوله: ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾. أي: وما مكرهم في محاولتهم تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك.

قال ابن جرير: (وما احتيال أهل الكفر لأهل الإيمان بالله إلا في جور عن سبيل الحق، وصدّ عن قصد المحجة).

وقوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾.

قال ابن كثير: (وهذا عَزْمٌ من فِرْعونَ ـ لعنه الله ـ علىٰ قتل موسىٰ ـ عليه السلام ـ أي قال لقومه: دعوني حتىٰ أقتلَ لكم هذا، ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾، أي: لا أبالي منه. وهذا في غاية الجَحْدِ والتَّجهرُم والعناد).

وقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾.

قال قتادة: (﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي أمركم الذي أنتم عليه ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ والفساد عنده أن يعمل بطاعة الله).

(1) أي غير القتل الذي كان قبل مولد موسىٰ عليه السلام للاحتراز من ولادته.

قال القرطبي: (إن لم يبدل دينكم فإنه يظهر في الأرض الفساد. أي يقع بين الناس بسببه الخلاف).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

قال ابن جرير: (وقال موسىٰ لفرعون وملئه: إني استجرت أيها القوم بربي وربكم من كل متكبر عليه تكبر عن توحيده والإقرار بألوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه).

قال النسفي: (وقال: ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التكبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده، ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها).

وفي سنن أبي داود ومسند أحمد بسند صحيح عن أبي بردة بن عبد الله، أن أباه حدثه، أن النبي ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: [اللهم إنا نَجْعَلُكَ في نحورهم، ونعوذُ بكَ من شرورهم][(1)].

28 ـ 29. قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ مؤمن آل فرعون قومه مغبة إقدامهم على قتل رجل يقول ربي الله ويدلهم على الإيمان به وسبيل النجاة والسعادة في الدارين، وتنبيهه لهم أن هذا التمكين في الأرض قد لا يدوم وقد يأتي عذاب الله فلا يرد عن القوم المسرفين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1537) ـ باب ما يقول إذا خاف قوماً. وأخرجه أحمد (4/ 414 ـ 415)، والنسائي في «اليوم والليلة» (601). انظر صحيح أبي داود (1360). ورواه الحاكم (2/ 142) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

فقوله: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾.

قال السدي: (هو ابن عم فرعون. ويقال: هو الذي نجا مع موسىٰ). وقيل: (كان قبطياً آمن بموسىٰ سراً). قلت: والأرجح أن يقال: كان رجلاً مؤمناً من آل فرعون يخفي إيمانه.

وقوله: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾. هذه كلمة حق عند سلطان جائر، وقد ثبت في السنة الصحيحة أن ذلك من أعظم الجهاد.

فقد أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [أفضلُ الجهاد كلمةُ عدْلٍ عِندَ سلطانٍ جائر ـ أو «أمير جائر» ـ][1].

و﴿أن﴾ في موضع نصب، والتقدير: أتقتلون موسىٰ لأن يقول ربي الله.

وعن ابن إسحاق: (﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ بعصاه ويده).

وقد استشهد أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية مدافعاً عن رسول الله ﷺ وقد تطاول عليه الشقي عقبة بن أبي معيط وهو يصلي عند الكعبة يريد خنقه.

فقد أخرج البخاري في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن عروة بن الزبير قال: [قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشدِّ ما صَنَعَ المشركون برسول الله ﷺ، قال: بَيْنا رسول الله ﷺ يصلي بفِناء الكعبة إذ أقبل عقبةُ بن أبي مُعَيْطٍ فأخذ بِمَنْكِبِ رسول الله ﷺ ولَوَىٰ ثوبَهُ في عُنُقِهِ فخنقَهُ خَنْقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، فَأخذ بِمَنْكِبِه، ودفع عَنْ رسول الله ﷺ، وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾][2].

وأخرج النسائي في «الكبرىٰ» بإسناد على شرط الشيخين عن عروة، عن عمرو بن العاص أنه سُئِل: ما أشدُّ ما رأيتَ قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ؟ قال: [مَرَّ بهم ذاتَ يوم فقالوا له: أنت تنهانا أن نعبدَ ما يعبُدُ آباؤنا؟ فقال: «أنا ذاك». فقاموا إليه، فأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر مُحتضِنَهُ من وَرَائِهِ، وهو يصيح بأعلى صوته، وإنَّ عينيه

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4344) ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي. ورواه ابن ماجة (4011) ـ كتاب الفتن. انظر صحيح أبي داود (3650).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4815) ـ كتاب التفسير ـ عند هذه الآية من سورة المؤمن. وأخرجه كذلك برقم (3678)، (3856). ورواه أحمد (2/ 204)، وابن حبان (6567).

لَيسيلان ، وهو يقولُ: يا قوم: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ حتىٰ فرغ من الآية كلها](1) .

والمقصود بالآية: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: ﴿ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ ، وقد أقام لكم الحجج والبراهين على صدق ما معه من الحق!

وقوله: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ .

أي: وإن يك موسىٰ كاذباً بقيله ونبوته فإنما وبال ذلك عليه فلا حاجة لكم بقتله ، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يهددكم به من العذاب في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي: (﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾ : ولم يكن ذلك لشك منه في رسالته وصدقه ، ولكن تلطفاً في الاستكفاف واستنزالاً عن الأذىٰ. ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ أي: إن لم يصبكم إلا بعض الذي يعدكم به هلكتم).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ . قال قتادة: (مشرك أسرف على نفسه بالشرك). وقال السدي: (المسرف: هو صاحب الدم. ويقال: هم المشركون). والمعنىٰ كما قال ابن جرير: (إن الله لا يوفق للحق من هو متعَدّ إلى فعل ما ليس له فعله ، كذّاب عليه يكذب ، ويقول عليه الباطل وغير الحق).

وقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: قد أنعم الله عليكم بهذا المُلك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض ، فراعُوا هذه النعمة بشكر الله ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذّبتم رسوله. ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ ، أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكرُ ، ولا تَرُدُّ عنا شيئاً من بأسِ الله إن أرادنا بسوء).

وقوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ .

فيه منهاج كل طاغية على مر الزمان ، ابتداء من فرعون الذي كان أعتىٰ الأنام. أراد فرعون أن يقول: ما أشير عليكم إلا بقتل موسىٰ ، وما أهديكم بهذا الرأي إلا طريق الصلاح والصواب. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (ما أشير عليكم إلا ما أرىٰ لنفسي ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ في تكذيب موسىٰ والإيمان بي).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (11462) ، وكذلك في «التفسير» (482) ، وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

وقد كذب عدو الله ، فقد كان متحققاً من صدق موسىٰ في نبوته ورسالته كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ . [النمل : 14]. وكقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء : 102].

قال النسفي: (﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾: ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أدخر منه شيئاً ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر. يعني أن لسانه وقلبه متواطئان على ما يقول ، وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسىٰ عليه السلام ، ولكنه كان يتجلد ، ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة).

وهذا المنهاج الذي مضىٰ عليه فرعون في الغش لرعيته والكذب في حقهم هو مصدر خزي وفضيحة له ولأمثاله من الحكام الطغاة يوم القيامة ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن مَعْقِل بن يسار قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [ما مِنْ عَبْدٍ يسترعيه الله رَعِيَّةً فلم يَحُطْها بِنُصْحِهِ إلا لم يَجِدْ رائحةَ الجنة](1).

وفي لفظ: [ما من والٍ يلي رَعِيَّةً من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرَّم الله عليه الجنة].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، يُرْفَعُ لكل غادر لِواءٌ ، فقيل: هذه غَدْرَةُ فلانِ بنِ فلان](2).

وفي لفظ آخر من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [لكل غادر لواء يوم القيامة يُرْفَعُ له بَقدْرِ غَدْرِه ، ألا ولا غادِرَ أعظَمُ غَدْراً من أمير عامّة].

الحديث الثالث: أخرج مسلم من حديث عائذ بن عمرو مرفوعاً: [إنَّ شَرَّ الرِّعَاء الحُطمة ، فإياك أن تكون منهم](3).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7150) ـ (7151) ، كتاب الأحكام ، باب من استُرعي رعية فلم ينصح. ورواه مسلم في الصحيح (1421).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1735) ـ كتاب الجهاد. باب تحريم الغدر. وانظر كذلك الحديث (1738) للفظ الآخر.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1830) ـ كتاب الإمارة. باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر ، والحث على الرفق بالرعية ، والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

30 ـ 35. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ۝٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ۝٣٥﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ مؤمن آل فرعون قومه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فإنه من يضلل الله فماله من هاد. وتذكيره لهم مخالفتهم نبي الله يوسف عليه السلام قبل ذلك وطاعتهم له من أجل الجاه والوزارة ومنافع الدنيا، فلما مات ظنوا أن الرسالة قد انقطعت، والله يضل المبطلين، ويطبع على قلوب المتكبرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾.

إخبارٌ من الله عز وجل عن تحذير مؤمن آل فرعون قومه بأس الله ونقمته وما نزل بالأمم السابق عند تكذيبها. قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: يا قوم إني أخاف عليكم بقتلكم موسىٰ إن قتلتموه مثل يوم الأحزاب الذين تحزّبوا على رسل الله نوح وهود وصالح، فأهلكهم الله بتجرُّئهم عليهم فيهلككم كما أهلكهم).

وقوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾.

أي مثل حال قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم: قوم إبراهيم وقوم لوط. قال ابن عباس: (﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ يقول: مثل حال). وقال ابن زيد: (مثل ما أصابهم). وعن قتادة: (﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ قال: الأحزاب).

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾. قال النسفي: (أي وما يريد الله أن يظلم عباده

فيعذبهم بغير ذنب أو يزيد على قدر ما يستحقون من العذاب. يعني أن تدميرهم كان عدلاً لأنهم استحقوه بأعمالهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾. أي يوم القيامة يوم يكثر فيه التنادي.

قال قتادة: (يوم ينادي أهل الجنة أهل النار: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ وينادي أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: 50]).

وقال ابن زيد: (يوم القيامة ينادي أهل الجنة أهل النار). وقيل: (ينادي الكافر فيه بالويل والثبور والحسرة).

وفي التنزيل أيضاً:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ [ق: 41].

وفي الصحيحين والمسند عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يدني المؤمن فيضَعُ عليه كَنَفَهُ ويستُره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتىٰ قَرَّره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطىٰ كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادىٰ بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 18]][1].

الحديث الثاني: أخرج الدارمي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا جمع الله العباد بصعيد واحد، نادىٰ مناد: يلحق كل قوم بما كانوا يعبدون. ويبقىٰ الناس على حالهم، فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم هاهنا؟ فيقولون: ننتظر إلـٰهنا. فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه، فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجداً، وذلك قول الله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2441)، ومسلم (2768)، وأحمد (2/ 74).

سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ويبقىٰ كل منافق فلا يستطيع أن يسجد ، ثم يقودهم إلى الجنة][1] .

الحديث الثالث: يروي عبد الله بن أحمد في «السنة» بسند صحيح عن ابن مسعود ، أن النبي ﷺ قال: [يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة ، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ، ثم ينادي مناد: أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل ناس ما كان يتولىٰ ويعبد في الدنيا؟ أليس ذلك عدلاً من ربكم؟ قالوا: بلىٰ. . .][2] .

وقوله: ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ . أي: يوم تحاولون الفرار من عذاب جهنم وقد أيقنتم بدخولها لكن لا سبيل ولا مفر .

قال مجاهد: (﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ : فارين غير معجزين). وقال قتادة: (أي منطلقاً بكم إلى النار). وقال: (﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ : أي من ناصر) .

وقوله: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ . قال ابن جرير: (ـ أي ـ: ومن يخذله الله فلم يوفقه لرشده فما له من موفق يوفقه له) .

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ .

قال السدي: (﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾ قال: قبل موسىٰ). قال ابن كثير: (يعني أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسىٰ ، وهو يوسفُ ـ عليه السلام ـ كان عزيزَ أهل مصر ، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالىٰ أمته القِبطَ ، فما أطاعُوه تلك الطاعة إلا لمجرَّد الوزارة والجاه الدنيوي. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ ، أي: يئستم فقلتم طامعين: ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ، وذلك لِكُفرهم وتكذيبهم) .

---

(1) أخرجه الدارمي في السنن (2/ 326) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (584) وقال: (وهذا إسناد جيد رجاله ثقات رجال الصحيح).

(2) أخرجه بتمامه عبد الله بن أحمد في «السنة» ص (177). وانظر مختصر العلو (69) ، ص (110). وهو حديث صحيح كما أفاد الذهبي وأقره الألباني.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

هو ضلال الإهمال والترك والتناسي والخذلان. فإن الضلال له مراتب ثلاث:

المرتبة الأولى: الضياع والانحراف.

المرتبة الثانية: الترك والإهمال والخذلان.

المرتبة الثالثة: الهداية إلى النار يوم القيامة.

فإن الإعراض عن منهج الرسل والغور في البعد عن الله، والتطاول بالرأي والادعاء والغرور مآله الخذلان من الله، ليزداد ضياعاً إلى الضياع والإهمال.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: 19].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [المؤمن: 35].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][1].

والمقصود بالآية: كذلك ـ يا محمد ـ يصد الله عن إصابة الحق وقصد السبيل من هو مسرف بالإثم والكفر مرتاب في قلبه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل نصب بدل من «مَنْ». والتقدير: كذلك يضل الله الذين يجادلون في آياته ويدفعون الحجج بغير دليل، وإنما بدافع الهوىٰ وفاسد التأويل. لقد كبر ذلك الجدال مقتاً عند الله وعند المؤمنين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 89 ـ 90) ـ كتاب الفتن. انظر مختصر صحيح مسلم (1990).

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [هلاكُ أمتي في الكتاب واللَّبن. قالوا: يا رسول الله ما الكتابُ واللَّبن؟ قال: يتعلمون القرآن فيتأولونه على غيرِ ما أنزل اللهُ عز وجل، ويحبون اللَّبن فيدعون الجماعات والجمع، ويبْدون][1].

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾. قال القاسمي: (أي بطر للحق، لا يقبل الحجة. جبار في المجادلة. ألدّ فيصدر عنه أمثال ما ذكر، من الإسراف والارتياب والمجادلة في الباطل لطمس بصيرته، فلا يكاد يظهر له الحق).

وقرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿على كل قلبِ متكبر﴾. وأما عامة القراء: ﴿على كل قلبِ متكبرٍ جبار﴾ وهي القراءة الأَوْلىٰ.

والطبع هو الختم. قال مجاهد: (ثبتت الذنوب على القلب فحفّت به من كل نواحيه حتىٰ تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم).

وقوله: ﴿ جَبَّارٍ ﴾ أي متعظم عن اتباع الحق، متكبر على الله، مشتهر بالجرائم والموبقات. قال قتادة: (آية الجبابرة القتلُ بغير حق).

36 ـ 37. **قوله تعالى**: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن عتو فرعون وتماديه في الكفر، ومساعدة هامان له في تثبيت سلطانه الفاسد، وما كيد فرعون إلا في ضلال وخسار.

فقوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾. الصرح: هو القصر العالي المُنيف الشاهق. قال القرطبي: (لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسىٰ من التوحيد، فإن

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 155)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2778).

بان له صوابه لم يخفهِ عنهم ، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم ، فأمر وزيره هامان ببناء الصرح).

وقوله : ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ .

قال ابن عباس : (مَنْزِلُ السماء). وقال قتادة : (أبواب السماوات). وقال السدي : (طرق السماوات). وقيل : الأمور التي تستمسك بها السماوات. قال ابن جرير : (السبب هو كل ما تُسُبِّبَ به إلى الوصول إلى ما يطلب من حبل وسلم وطريق وغير ذلك). ثم قال : (معناه : لعلي أبلغ من أسباب السماوات أسباباً أتسبب بها إلى رؤية إلٰه موسىٰ ، طرقاً كانت تلك الأسباب منها أو أبواباً أو منازل أو غير ذلك).

وقيل : كرر «أسباب» للتفخيم ، فإن الشيء إذا أبهم ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه. والمقصود : أراد فرعون أن يعظم بذلك شأنه وكرسيه الذي يتزلزل.

وقوله : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا ﴾ .

قال الإمام الجويني أبو محمد والد إمام الحرمين : (وهذا يدل على أن موسىٰ أخبره بأن ربه تعالىٰ فوق السماء ، ولهذا قال : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا ﴾)[1] .

قال ابن جرير : (أي : وإني لأظن موسىٰ كاذباً فيما يقول ويدعي من أن له في السماء رباً أرسله إلينا).

قلت : ومن ثم فمن شك أن الله في السماء اليوم ، فقد تشبه بطريقة فرعون. وفي التنزيل :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر : 10].

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : 5].

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [الملك : 16].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر ـ في خطبته ﷺ يوم عرفة ـ : [ألا هل بلغت؟ قالوا : نعم. فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إليهم ويقول : اللهم اشهد. وفي

(1) انظر : «مختصر العلو» ص (80) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (1/ 173 ـ 175) لتفصيل البحث.

رواية: فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وَيَنْكُتُها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد ثلاث مرات][1].

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. قال ابن كثير: (أي بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهِمَ به الرعيّة أنه يعمل شيئاً يتوصَّل به إلى تكذيب موسىٰ ـ عليه السلام ـ).

وقرأ قراء المدينة والكوفة: ﴿وَصُدَّ﴾، في حين قرأ ذلك أبو عمرو وقراء البصرة: ﴿وصَدَّ﴾ ـ أي: وأعرض. وهما قراءتان معروفتان.

وقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: في خسران). وقال قتادة: (أي في ضلال وخسار). وقال ابن زيد: (التّباب والضلال واحد).

38 ـ 44. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ مؤمن آل فرعون قومه غرور الحياة الدنيا، وترغيبه لهم في طاعة الله الموصلة إلى جنات النعيم، وتوضيحه لهم أن ما هم عليه من الكفر ونشر الفساد في الأرض يوصل إلى عذاب الجحيم. وأنهم سيذكرون يوماً قوله ونصيحته لهم والله هو السميع البصير العليم.

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ص (188). وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ـ (1/ 177) لمزيد من الأدلة في بحث العلو.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

قال النسفي: (فيه تعريض شبيه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي).

قال ابن جرير: (يقول: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بَيَّنْتُ لكم طريق الصواب الذي ترشُدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه، وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسىٰ).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

قال قتادة: (استقرت الجنة بأهلها، واستقرّت النار بأهلها).

والمقصود: شرع يزهدهم في الدنيا التي عكفوا على محاريبها فصدتهم عن الإيمان، وأخبرهم أن هذه الحياة العاجلة متاع زائل عما قريب، ثم إن الآخرة هي دار الاستقرار لا زوال لها، فإما في نعيم وإما في جحيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: من عمل بمعصية الله في هذه الدنيا ثم غادرها دون توبة فإنما يقابله الله تعالىٰ في الآخرة سيئة مثلها من عقابه. ومن عمل بطاعة الله وتعظيم أمره من رجل أو امرأة مع الإيمان بالله فإنما يقابله الله تعالىٰ بالرزق الجميل في جنات النعيم.

وعن قتادة: (﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ أي: شركاً. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي خيراً. ﴿ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: لا والله ما هناكم مكيال ولا ميزان).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

قال مجاهد: (﴿ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ قال: الإيمان بالله). وعن ابن زيد: (﴿ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ قال: هذا مؤمن آل فرعون، يدعونه إلى دينهم والإقامة معهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

قال القرطبي: (﴿ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بيّن أن ما قال فرعون من قوله: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيل الغي عاقبته النار وكانوا دعوه إلى اتباعه، ولهذا قال: ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون).

قال القاسمي: (﴿ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الغالب الذي يقهر من عصاه

﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أي الذي يستر ظلمات نفوس مَنْ أطاعه ، بأنواره).

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

قال السدي: (﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً). وقال الضحاك: (لا كذب). وقال ابن عباس: (﴿لَا جَرَمَ﴾ ، يقول: بلىٰ ، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾). قال مجاهد: (الوثن ليس بشيء). وقال قتادة: (يعني: الوثن لا ينفع ولا يضر). وقال السدي: (لا يجيب داعيه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة).

قال القرطبي: (وكان فرعون أولاً يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ، ثم دعاهم إلى عبادة البقر ، فكانت تُعبد ما كانت شابة ، فإذا هَرِمت أمر بذبحها ، ثم دعا بأخرىٰ لتعبد ، ثم لما طال عليه الزمان قال أنا ربكم الأعلىٰ).

قلت: فإن توجه الكلام ضد عبادة فرعون فيكون المعنىٰ: حقاً ـ أيها القوم ـ إن ما تدعون لعبادته وتعظيمه ليس له دعوة توجب له الألوهية ، فهو بشر مثلكم استخف بعقولكم واستعبدكم. قال الكلبي: (ليس له شفاعة في الدنيا ولا في الآخرة). وقال الزجاج: (ليس له دعوة تنفع).

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾. أي: وأن مرجعنا ومنقلبنا بعد مماتنا إلى الله.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾. قال مجاهد: (السفّاكون الدماء بغير حَقّها هم أصحاب النار). وقال ابن زيد: (سمّاهم الله مسرفين ، فرعون ومن معه). وقال قتادة: (أي المشركون).

قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: وأن المشركين بالله المتعدين حدوده ، القتلة النفوس التي حرم الله قتلها ، هم أصحاب نار جهنم عند مرجعنا إلى الله).

وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾. تهديد ووعيد. أي: فستذكرون في الآخرة قولي إذا نزل بكم العذاب.

وقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾. أي: أجعل اعتمادي وتوكلي على الله ، فإنه الكافي من توكل عليه.

قال السدي: (أجعل أمري إلى الله).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾. أي: إن الله عالم بأمور عباده مطلع على

أعمالهم ، يهدي من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الضلال ، ويثيب ويعاقب كلاً باستحقاقه.

45 ـ 50. **قوله تعالىٰ:** ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآيات: نجاةُ مؤمن آل فرعون في الدنيا والآخرة ، وإحاطة العذاب بفرعون وجنده في الغرق ثم في القبر ثم في نار الآخرة المستعرة. وتصويرُ الله تعالىٰ حوار الرؤساء مع أتباعهم من المجرمين في صورة من الخزي والتحسّر والندم حيث لا سبيل إلى نيل العفو أو المغفرة.

فقوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾. قال قتادة: (كان قبطياً من قوم فرعون ، فنجا مع موسىٰ). والمقصود: نجاه الله مع موسىٰ من الغرق ، وفي الآخرة أدخله الجنة ووقاه النار.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾. قال ابن جرير: (ما ساءهم من عذاب الله ، وذلك نار جهنم).

وقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. فيه إثبات لعذاب القبر.

وعن مجاهد: (قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ قال: ما كانت الدنيا). قال قتادة: (يعرضون عليها صباحاً ومساء).

وقد جاء إثبات عذاب القبر في صحيح السنة المطهرة في أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم عن عائشة: [أن يهودية كانت تخدمها ، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاكِ الله عذابَ القبر. قالت عائشة: فدخل رسول الله ﷺ عليّ فقلت: يا رسول الله ، هل للقبر عذابٌ قبل يوم القيامة؟ قال: لا ، وعَمَّ ذلك؟ قالت: هذه اليهودية ، لا نصنع إليها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاكِ الله عذابَ القبر. قال: «كذبت يهود. وهم على الله أكذب ، لا عذابَ دونَ يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكُثَ ، فخرج ذات يوم نِصْفَ النهار مُشتملاً بثوبه ، مُحمرَّةً عيناه ، وهو ينادي بأعلى صوته: القبرُ كقِطع الليل المظلم! أيها الناس ، لو تعلمون ما أعلمُ بكيتم كثيراً وضحِكْتُم قليلاً ، أيها الناس ، استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذابَ القبر حق][1].

وفي رواية: [قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: وإنّه أُوحِي إليّ أنكم تفتنون في قبوركم][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، وابن حبان في صحيحه عن أنس: [أن النبي ﷺ مرّ بنخل لبني النجار ، فسمع صوتاً فقال: ما هذا؟ قالوا: قبر رجل دفن في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ: لولا أن تدافنوا لدعوت الله عز وجل أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمعني][3].

وله شاهد عنده من حديث جابر قال: [دخل النبي ﷺ يوماً نخلاً لبني النجار ، فسمع أصوات رجال من بني النجار ماتوا في الجاهلية يعذبون في قبورهم ، فخرج رسول الله ﷺ فزعاً ، فأمر أصحابه أن تعوذوا من عذاب القبر][4].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن زيد بن ثابت قال: [بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 81) ، (6/ 164) من حديث عائشة ، بإسناد على شرط البخاري ومسلم ، ولم يخرجاه.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 238) ، وإسناده على شرط الشيخين أيضاً.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 201) ، وكذلك (3/ 103) ، وابن حبان (786) وهو سند على شرط الشيخين. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (158).

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 295 ـ 296) بسند صحيح متصل على شرط مسلم.

ستة أو خمسة أو أربعة ـ شك الجريري[1] ـ فقال: من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا. قال: فمتىٰ مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك. فقال: إن هذه الأمة تبتلىٰ في قبورها، فلولا أن تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه. قال زيد: ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال][2].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

قال القرطبي: (وآل فرعون: من كان على دينه وعلى مذهبه، وإذا كان من كان على دينه ومذهبه في أشد العذاب كان هو أقرب إلى ذلك).

والمقصود: يأمر الله يوم القيامة ملائكته أن يُدخلوا فرعون ومن كان معه على منهجه أشد العذاب في نار جهنم.

وقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾. أي: يختصمون فيها، والمراد فرعون وقومه.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: فيقول الضعفاء للذين استكبروا عن الانقياد للأنبياء وحجة الوحي والحق: إنا كنا نتبعكم فيما دعوتمونا إليه من الشرك في الدنيا فهل أنتم متحملون عنا اليوم جزءاً من العذاب.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

قال ابن جرير: (﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم الرؤساء المتبوعون على الضلالة في الدنيا إنا أيها القوم وأنتم كلنا في هذه النار مخلدون لا خلاص لنا منها، ﴿إِنَّ

---

(1) هو سعيد الجريري الراوي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 160 ـ 161)، وأخرجه أحمد (5/ 190)، وأخرجه ابن حبان (785) بنحو رواية مسلم. وقوله: «تدافنوا» أصله «تتدافنوا» فحذف إحدى التاءين. والمقصود: لولا خشية أن يفضي سماعكم إلى ترك أن يدفن بعضكم بعضاً.

﴿اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بفصل قضائه ، فأسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون ، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلون).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

أي: سأل أهل النار الخزنة أن يدعوا لهم ربهم بتخفيف العذاب عنهم ولو مقدار يوم واحد من أيام الدنيا.

وقوله: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

أي: فردوا عليهم ألم تقم الحجج عليكم على ألسنة الرسل قالوا بلىٰ.

وقوله: ﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

قال ابن كثير: (﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ ، أي: أنتم لأنفسكم ، فنحنُ لا ندعو لكم ولا نسمعُ منكم ولا نَوَدُّ خَلاصَكم ، ونحن منكم بُرآءُ ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتُم أو لم تَدعُوا ، لا يُستجاب لكم ولا يُخفف عنكم ، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ، أي: في ذَهاب ، لا يُتقبَّلُ ولا يُستجاب).

51 ـ 56. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)﴾.

في هذه الآيات: تقريرُ الله نزول نصره على رسله وعباده المؤمنين في الدنيا وفي الدار الآخرة ، يوم لا ينفع الظالمين الاعتذار ولا سبيل لنيل الصفح أو المغفرة. وتسليةُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ عما يلقاه من أذىٰ قومه بأمره بالصبر والتسبيح كما صبر موسىٰ قبله

على أذىٰ قومه وقدأنزل عليه التوراة كما أنزل عليه القرآن ، هدىٰ وذكرىٰ لأولي الألباب ، وأن يستعيذ به تعالىٰ من كيد المستكبرين أهل الجدل بالباطل الذي هم في تباب.

فقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ . منهاج عام في حياة الرسل ومن مضىٰ على منهاجهم.

قال السدي : (قد كانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلون في الدنيا وهم منصورون ، وذلك أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتىٰ يبعث الله قوماً فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوا منهم).

وهذا الفهم يجيب على ما يخطر بالبال هنا من كون بعض الأنبياء كيحيىٰ وزكريا وشعيا ـ عليهم السلام ـ قتله قومه ، ومنهم من خرج مهاجراً ـ من بين أظهر قومه ـ كإبراهيم ـ عليه السلام ـ ومنهم من رفعه الله إلى السماء كعيسىٰ بن مريم ﷺ. ويضاف إلىٰ ذلك الأمور الآتية :

1 ـ الآية بعمومها تدل على وعد الله بنصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا قبل الآخرة ، وذلك بإعلائهم على من كذّبهم ، وإظفارهم عليهم حتىٰ يقهروهم بالغلبة ويذلوهم بالظفر ، كما كان لداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فقد أعطاهما الله من الملك والسلطان ما قهروا به كل كافر ، وكما كان لمحمد ﷺ فقد أظهره الله على من كذّبه من قومه وأذلّهم.

2 ـ كما تدل الآية على انتقام الله لرسله والمؤمنين ممن حادّهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل دون قتال ، كما فعل تعالىٰ ذكره بنوح وقومه من تغريقهم وإنجائه ، وبموسىٰ وفرعون وقومه إذ أهلكهم غرقاً ونجّىٰ موسىٰ ومن معه.

3 ـ وتدل الآية كذلك على انتقام الله في الحياة الدنيا ممن كذبوا الرسل بعد وفاة الرسول فيهم ، كنصرة الله شعياء بعد مهلكه بأن سلّط على قتلته من قهرهم ، وكفعله بقتلة يحيىٰ إذ سلط بختنصّر عليهم فسامهم سوء العذاب. وكفعْله باليهود الذين أرادوا صلب المسيح عليه السلام فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم ، ثم ينزل عيسىٰ بن مريم قبل يوم القيامة إماماً عادلاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويضع الجزية ويقتل الخنزير ويكسر الصليب.

4 ـ قد يكون الكلام على وجه الخبر عن الجميع من الرسل والمؤمنين والمراد

واحد ، أي: ننصر رسولنا محمداً والذين آمنوا به في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ـ ذكره ابن جرير.

قلت: والأَوْلَىٰ هنا أن يقال: الخبر عام وقد يستثنىٰ بعضهم بالاعتبارات السابقة الذكر.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾. قال قتادة: (من ملائكة الله وأنبيائه والمؤمنين به). وعن السدي: (﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ قال: يوم القيامة).

قلت: وقد جعل الله أمة محمد ﷺ أمة الشهادة على جميع الأمم ، فهي تنتصر للمرسلين حين يكذبهم أقوامهم.

ـ قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

وفي صحيح البخاري ومسند أحمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: [يجيء نوحٌ وأمته ، فيقول الله: هل بَلَّغتَ؟ فيقول: نعم أي ربّ! فيقول لأمته: هل بَلَّغَكُم؟ فيقولون: لا ، ما جاء لنا من نبيّ ، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته ، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ والوسط: العدل ، فيُدعون ، فيشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم][1].

وله شاهد في المسند وسنن النسائي وابن ماجة من حديث أبي سعيد ـ كذلك ـ مرفوعاً بلفظ: [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبي ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم ، فيُدعىٰ قومه ، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا ، فيقال له: مَنْ يشهدُ لكَ؟ فيقول: محمدٌ وأمته ، فيدعىٰ محمّد وأمته ، فيُقال لهم: هل بَلَّغَ هذا قومه؟ فيقولون: نعم ، فيقال: وما عِلْمُكُم بذلك؟ فيقولون: جاءنا نبيُّنا ، فأخبرنا أنَّ الرسل قد بَلَّغُوا فصدقناه ، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾].

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾. أي: يوم لا يقبل الله من الظالمين عذراً ولا فدية.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 286) ، (8/ 139) ، وأحمد في المسند (3/ 32) ، وانظر صحيح الجامع (7890). وللشاهد كذلك (7889).

قال ابن جرير: (وذلك أن الله قد أعذر إليهم في الدنيا وتابع عليهم الحجج فيها، فلا حجة لهم في الآخرة إلا الاعتصام بالكذب بأن يقولوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾).

وقوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

أي: وكذلك فإن للظالمين اللعنة وهي الطرد من رحمة الله، ولهم مع اللعنة كذلك شر ما في الدار الآخرة وهو العذاب الأليم المهين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: ولقد آتينا موسىٰ حجة الوحي البالغة وبيان أمر الدين الحق، وأورثنا بني إسرائيل «الكتاب» أي: التوراة، الذي فيه نور وهدىٰ ومنهاج لسعادتهم في الدارين.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. أي: إرشاداً وتذكرة لذوي العقول. ونُصِبَ قوله: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ على المفعول له أو على الحال.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: فاصبر ـ يا محمد ـ على ما تلقاه من أذىٰ قومك، فإن وعدك بالنصر حق.

قال النسفي: (﴿فَٱصْبِرْ﴾ على ما يجرعك قومك من الغصص ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني إن ما سبق به وعدي من نصرتك وإعلاء كلمتك حق).

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾. حضّ للأمة على الاستغفار.

قال القرطبي: (قيل: لذنب أمتك، حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: لذنب نفسك على من يجوّز الصغائر على الأنبياء. ومن قال لا تجوز قال: هذا تعبد للنبي عليه السلام بدعاء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ [آل عمران: 194] والفائدة زيادة الدرجات وأن يصير الدعاء سنة لمن بعده. وقيل: فاستغفر الله من ذنب صدر منك قبل النبوة).

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾. الإبكار: أوائل النهار وأواخر الليل. والعشي: أوائل الليل. أي: ونزه ربك بالشكر له والثناء عليه بأواخر النهار وأوائل الليل.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾. أي: لا يبلغون ذلك الارتفاع الذي أملوه بالتكذيب.

قال قتادة: (لم يأتهم بذلك سلطان). وقال مجاهد: (﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ قال: عظمة).

قال ابن جرير: (إن في صدورهم إلا عظمة ما هم ببالغي تلك العظمة لأن الله مُذِلُّهم).

وقال ابن كثير: (أي: ما في صُدورهم إلا كبرٌ على اتباع الحق، واحتقارٌ لِمَنْ جاءَهم به، وليس ما يَرومُونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصلٍ لهم، بل الحقُّ هو المرفوع، وقولُهم وقصدُهم هو الموضوع).

وقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: فاستعذ بالله ـ يا محمد ـ من شر الكفار، ومن مِثْل ما ابتلوا به من الكفر والكبر، فإن الله هو السميع لدعائك ولما يقولون، البصير بعملك وما يعملون، وسيعلم الذين كفروا أي منقلب ينقلبون.

57 ـ 60. قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تسفيهٌ لمنكري البعث بوضعهم أمام الحقيقة الكبيرة: أنّ خَلْقَ السماوات والأرض أكبر من خلق الناس لو كانوا يعلمون. وأنه كما لا يستوي الأعمىٰ والبصير كذلك لا يستوي المؤمنون والكافرون. فالساعة آتية، والدعاء أمْرٌ من الله لعباده ليفردوه التعظيم والعبادة، والمستكبرون في جهنم خالدون.

فقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾. قال يحيىٰ بن سلام: (هو احتجاج على منكري البعث، أي هما أكبر من إعادة خلق الناس فلم اعتقدوا عجزي عنها؟).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال ابن جرير: (أنّ خلق جميع ذلك هين على الله).

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: لا يستوي الأعمىٰ الذي لا يبصر ـ وهو الكافر لا يتأمل حجج الله بعينه ـ والبصير الذي يرىٰ ـ وهو المؤمن الذي صدق بكلمات الله وحججه ورسله ـ.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾.

أي: وكذلك لا يستوي أهل الإيمان والعمل الصالح مع الكفار العصاة أهل العمل السَّيئ.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾. قال القاسمي: (أي حججه تعالىٰ. فيعتبرون ويتعظون. أي لو تذكّروا آياته واعتبروا بها، لعرفوا خطأ ما هم مقيمون عليه، من إنكار البعث، ومن قبح الشرك).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾. قال النسفي: (لأنه لا بد من جزاء لئلا يكون خلق الخلق للفناء خاصة).

أي: إن الساعة التي يبعث الله فيها عباده من قبورهم لنيل الثواب ونكال العقاب لجائية أيها الناس لا شك في مجيئها، فأيقنوا بحدوثها واستعدوا لها.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. يعني المشركين. لا يصدقون بقيام الساعة.

وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. قال ابن عباس: (يقول: وحدوني أغفر لكم). وقيل: أخلصوا لي العبادة أجب دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم.

والمقصود: تَلَطُّفٌ من الله تعالىٰ وتَفَضُّلٌ على عباده وتَوَدُّدٌ إليهم، بأن ندبهم إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الدعاءَ هو العبادة. ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 267)، وأبو داود (1479)، والترمذي (3247)، وابن حبان (890)، وابن ماجة (3828). وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3086).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: 186].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: 87].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما كرب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح).

وفي صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي في السنن، وأحمد في المسند، بإسناد حسن في الشواهد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ لم يَدْعُ الله، سبحانه، غَضِبَ عليه][1]. وفي لفظ: [يغضب عليه].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [ليس شيءٌ أكْرَمَ على الله، سبحانه، من الدعاء][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي والحاكم بسند حسن في الشواهد عن أبي هريرة مرفوعاً: [ادعوا الله تعالىٰ وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ][3].

الحديث الرابع: أخرج البزار في مسنده بسند صحيح عن أنس: [أن النبي ﷺ مرَّ بقوم مُبْتَلَيْن فقال: أما كان هؤلاء يسألون العافيةَ][4].

ففيه الإنكار على المبتلين الذين لا يسألون الله العافية، وقد ثبت في الحديث

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (658)، والترمذي (2/ 342)، وابن ماجة (3827)، وأحمد (2/ 442)، والحاكم (1/ 491). وانظر: السلسلة الصحيحة (2654).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (3829) ـ كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3087).

(3) حسن لغيره. رواه الترمذي (2/ 261)، والحاكم (1/ 493)، وله شاهد في مسند أحمد (2/ 177)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (594).

(4) حديث صحيح. أخرجه البزار في «مسنده» (3134 ـ كشف الأستار). وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2197).

الصحيح أن الله تعالىٰ حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه يسأله أن يردهما صفراً خائبتين.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

قال السدي: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ قال: عن دعائي. ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال: صاغرين).

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: [إنه من لم يسأل الله تعالىٰ يغضب عليه][1].

وفي مسند أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الناس، يعلُوهم كُلُّ شيء من الصَّغار حتىٰ يدخلوا سِجناً في جهنم ـ يقال له: بولس ـ تعلوهم نار الأنيار، يُسْقون من طينة الخَبال عُصَارَةِ أهل النار][2].

61 ـ 65. **قوله تعالىٰ:** ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

في هذه الآيات: امتنانٌ من الله تعالىٰ على عباده بنعمة الليل الذي يسكنون فيه، ونعمة النهار الذي ينتشرون فيه، وجعل الأرض لهم قراراً، والسماء بناء، وتصويرهم

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (3827)، والترمذي في الجامع (3373) ـ أبواب الدعوات ـ انظر صحيح سنن الترمذي (2686).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 179)، والترمذي نحوه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. انظر صحيح سنن الترمذي (2025)، وقد مضىٰ.

بأحسن الصور ، ورزقهم من الطيبات ، لعلهم يفردونه بالعبادة والتعظيم ، ويخلصون له الدين .

فقوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾ . امتنان منه سبحانه على عباده أن جعل لهم الليل يستريحون فيه من حركات السعي في المعايش في النهار ، وجعل النهار مبصراً مضيئاً ليناسب تحركهم في العمل والأسفار .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : إن الله لمتفضل عليكم أيها الناس بما لا كفء له من الفضل) .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ . أي : قليل من يقوم بواجب الشكر لله على آلائه وتلطفه ونعمه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : 13] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ .

قال النسفي : (أخبار مترادفة ، أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الربوبية والإلـٰهية وخلق كل شيء والوحدانية) .

وقوله : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ . قال القرطبي : (أي كيف تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان بعد أن تبينت لكم دلائله) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : كما ضَلَّ هؤلاء بعبادة غير الله ، كذلك أُفِكَ الذين من قبلهم فَعَبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرَّدِ الجهل والهوىٰ ، وجحدوا حُجج الله وآياته) .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ .

قال القاسمي : (﴿ قَرَارًا ﴾ أي : تستقرون عليها وتسكنون فوقها ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أي مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم) .

وقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ﴾ . أي : خلقكم في أحسن صورة ، فجعل كل عضو في مكان يليق به ، ليتم الانتفاع بها ، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته ، فيدعوكم ذلك إلى القيام بشكره والاعتراف بفضله وتعظيمه وحده لا شريك له .

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾. أي: مما لذّ وطاب من المطاعم والمشارب التي تسرّون بها.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فالذي فعل هذه الأفعال، وأنعم عليكم أيها الناس هذه النعم، هو الله الذي لا تنبغي الألوهة إلا له، وربكم الذي لا تصلح الربوبية لغيره، لا الذي لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: فتبارك الله مالك جميع الخلق جنّهم وإنسهم، وسائر أجناس الخلق غيرهم).

وقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾.

أي: هو الباقي الذي لا يموت، الحيّ أزلاً وأبداً، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا عديل له ولا شبيه ولا نظير، فأخلصوا له العبادة والتعظيم.

وفي الصحيحين عن عتبان بن مالك عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله حرَّمَ على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل][1].

وفي «الحلية» لأبي نعيم بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعاً:

[من قال: «لا إله إلا الله» أَنْجَتْهُ يوماً من دهره، أصابه قبل ذلك ما أصابه][2].

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال الفراء: (هو خبر، وفيه إضمار أمر، أي ادعوه واحمدوه).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس][3].

وفيه أيضاً عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: [جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: عَلِّمني كلاماً أقوله. قال: قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قول إلا بالله العزيز الحكيم.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 206)، وأخرجه مسلم (33) ـ كتاب الإيمان.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (5/ 46)، والبيهقي في «الشعب» (1/ 56)، وأخرجه البزار في «مسنده» (رقم ـ 3)، وانظر السلسلة الصحيحة (1932).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 70) ـ كتاب الذكر، باب: في فضائل التسبيح.

قال: فهؤلاء لربي فمالي؟ قال: قل: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني][1].

وفي صحيح مسلم كذلك عن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما: [أنه كان يقول دُبُرَ كلِّ صلاة، حين يُسَلِّمُ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن. لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ يهلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كل صلاة مكتوبة][2].

وفي سنن ابن ماجة بسند حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله تعالىٰ على عبدٍ نعمةً فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطىٰ أفضلَ مما أخذ][3].

قلت: ولا شك أن أكبر نعمة يحمد المؤمن الله تعالىٰ عليها هي أن جعله من أهل «لا إله إلا الله».

66 ـ 68. **قوله تعالىٰ:** ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: قل يا محمد لمشركي قومك إن الله تعالىٰ ينهىٰ أن يُعبد سواه، إذ لا يستحق العبادة إلا هو، فهو الذي أُمرتُ أَنْ أَذِلّ له كما ذلّ له كل شيء وخضع له. لقد خلق أباكم آدم من تراب ثم خلقكم من نطفة ثم من علقة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ من بطون أمهاتكم صغاراً ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ فتتكامل قواكم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 70). الكتاب السابق. باب: في التهليل والتحميد والتكبير، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1906).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (594)، ح(139)، ح (140)، كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته.

(3) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (3805) ـ باب فضل الحامدين، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3067)، وله شاهد عند الطبراني بنحوه.

ويتناهىٰ شبابكم وتمام خلقكم فتصيروا شيوخاً ، ومنكم من يفارق الحياة قبل ذلك ، إما سقطاً أو صغيراً أو شاباً أو كهلاً. وإلا فإنه يمضي إلى أجله المحدود وعمره المعدود. إنه تعالىٰ هو المتفرد بالحياة والموت وما أمره إلا كن فيكون.

قال ابن جريج : (قوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ : تتذكرون البعث). وقال النسفي : (﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي : فإنما يكوّنه سريعاً من غير كلفة).

69 ـ 76. **قوله تعالىٰ:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

في هذه الآيات: العَجَبُ مِنْ قَوْمٍ يصرفون عقولهم عن الهدىٰ إلى الضلال ويكذبون الوحي والمرسلين ، وهم يوم القيامة يسحبون في الأغلال إلى الجحيم ، مع التقريع والتوبيخ كذلك يضل الله الكافرين ، الذين كانوا يفرحون بالباطل ويخوضون بأهوائهم فبئس ـ جهنم ـ مثوىٰ للمتكبرين.

فقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

أي: ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بالحق المجادلين بالباطل كيف يصرفون عقولهم عن الهدىٰ إلى الضلال. قال قتادة: (﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ : أنىٰ يكذبون ويعدلون). وقال ابن زيد: (يصرفون عن الحق).

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

تهديد ووعيد ، للذين كذبوا القرآن والنبوة ، وأصروا على العناد والكفر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾.

قال القرطبي: (أي عن قريب يعلمون بطلان ما هم فيه إذا دخلوا النار وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم). قال ابن جرير: (حين تجعل الأغلال والسلاسل في أعناقهم في جهنم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾. قال ابن كثير: (﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ ﴾، أي مُتصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم). والحميم: هو الماء الحارّ. قال المهايميّ: (لدفعهم برْد اليقين من دلائل الكتاب والسنة ﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ـ أي يحرقون ـ قال: لإحراقهم الأدلة العقلية والنقلية).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن: 43 ـ 44].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة: 41 ـ 56].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: 43 ـ 50].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. قال رسول الله ﷺ: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشَهم، فكيف بمن يكون طعامه][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة. انظر تخريج: «مشكاة المصابيح» (5683)، وصحيح الجامع الصغير (5126).

وعن مجاهد: (﴿ يُسۡجَرُونَ ﴾ قال: يوقد بهم النار). وقال السدي: (يحرقون في النار). وعن ابن زيد: (يوقد عليهم فيها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ تقريع وتوبيخ.

أي: يقال لهم أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم إياها من دون الله من الأوثان والآلهة والطواغيت حتىٰ يغيثوكم وينقذوكم مما أنتم متورطون اليوم فيه من الخزي والعذاب فإن المعبود يغيث من عبده وخدمه!

وقوله: ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ ﴾.

قال ابن جرير: (فيجيب المساكين: ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ ـ يقول ـ: عدلوا عنا فأخذوا غير طريقنا وتركونا في هذا البلاء، بل ما ضلوا عنا، ولكنا لم نكن ندعو من قبل في الدنيا شيئاً، أي لم نكن نعبد شيئاً).

والمقصود: قالوا ذهبوا عنا فلم ينفعونا ثم جحدوا عبادتهم في محاولة للخروج من المأزق بأي سبيل. كما قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾. قال النسفي: (مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم حتىٰ لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادقوا. أو كما أضل هؤلاء المجادلين يضل سائر الكافرين الذين علم منهم اختيار الضلالة على الدين).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴾.

الفرح هنا: هو السرور بالباطل. والمرح: هو الأشر والبطر. والآية توبيخ لهم بما كانوا يفرحون بالمعاصي ويمرحون بالكبر والبطر.

قال مجاهد: (﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴾ قال: تبطرون وتأشَرون). وعن ابن عباس: (الفرح والمرح: الفخر والخيلاء، والعمل في الأرض بالجاهلية، وكان ذلك في الشرك، وهو مثل قوله لقارون ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴾ وذلك في الشرك).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: ادخلوا أبواب جهنم السبعة من كل باب مِنها جزء مقسوم منكم، فبئس منزل المتكبرين في الدنيا على الله أن يوحدوه ويؤمنوا برسله اليوم جهنم).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، معَ كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها][1].

77 ـ 78. **قوله تعالىٰ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.**

في هذه الآيات: تسليةُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بأمره بالصبر، واقتراب الفرج، وطريق المرسلين. فإنه ما كان لرسول أن يأتي بآية أو نصر من عنده وإنما هو أمر الله الذي ينزل بالنقمة على القوم المجرمين.

فقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. قال القاسمي: (أي فاصبر على جدال هؤلاء المتكبرين في آيات الله، وعلى تكذيبهم، فإن وعد الله إياك بالظفر عليهم، حق ثابت).

وقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

أي: فإما نرينك يا محمد في حياتك بعض ما وعدنا هؤلاء المشركين من العذاب والانتقام أو قبضناك إلينا قبل حلول ذلك بهم فإلينا مصيرك ومصيرهم فنحكم عند ذلك بينك وبينهم بالحق، فنكرمك بجوارنا في جنات النعيم، ونخلدهم في النار في العذاب المهين. قال ابن كثير: (﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: في الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله تعالىٰ أقرَّ أعيُنهم من كُبَرائهم وعظمائهم، أُبيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾. تسلية من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ، فإن من الرسل من قصّ عليه سبحانه خبرهم وكيف أهلك مكذبيهم من أقوامهم، ومنهم أضعاف مضاعفة مما لم يقصص

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1975)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 760) لتفصيل البحث ـ النار: صفتها وصفة أهلها.

عليه في القرآن كيف كان لهم العاقبة والنصرة بعد هلاك كفار قومهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

قال النسفي: (وهذا جواب اقتراحهم الآيات عناداً، يعني: إنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فمن أين لي بأن آتي بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها).

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أي: فإذا جاء عذاب الله ونزل انتقامه بالمكذبين قضي بالعدل: وهو نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين المبطلين: الذين يتبعونَ الباطل والشرك ويعظمون الطواغيت. قال القرطبي: (أي إذا جاء الوقت المسمىٰ لعذابهم أهلكهم الله، وإنما التأخير لإسلام من علم الله إسلامه منهم، ولمن في أصلابهم من المؤمنين. وقيل: أشار بهذا إلى القتل ببدر).

79 ـ 81. قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

في هذه الآيات: الله الذي لا تصلح العبادة إلا له ـ معشر المشركين من قريش ـ هو الذي جعل لكم الأنعام: من الإبل والبقر والخيل والغنم. فبعضها يركب ويؤكل ويحلب كالإبل، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار. وبعضها يؤكل ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض كالبقر. وكذلك الغنم تؤكل ويشرب لبنها، ومن جميعها تستفيدون من الأصواف والأشعار والأوبار، لاتخاذ الثياب والأثاث والمتاع. وإنما يريكم سبحانه بعض آياته وحججه وبراهينه الدالة على وجوب إفراده بالعبادة والتعظيم، ولا تستطيعون إنكار شيء منها إلا بالعناد والكبر وركوب الأهواء واتباع سُبل الشياطين.

قال ابن جرير: (﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ يعني الخيل والحمير. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم).

وعن قتادة: (﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعني الإبل تحمل أثقالكم إلى بلد). وقال مجاهد: (لحاجتِكم ما كانت).

قال القرطبي: (﴿ وَعَلَيْهَا ﴾ يعني الأنعام في البر ﴿ وَعَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ في البحر ﴿ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾؟ أي آياته الدالة على وحدانيته وقدرته). قال ابن كثير: (﴿ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾؟ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته ، إلا أن تُعانِدوا وتُكابِروا).

82 ـ 85. قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: أفلم يسر يا محمد هؤلاء المجادلون من مشركي قومك في البلاد فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن ، رحلتهم في الشتاء والصيف ، فينظروا ما حلّ بمن كفر من الأمم قبلهم مع أنهم كانوا أكثر عدداً وأشد بطشاً فما أغنت عنهم قوتهم وأموالهم من بأس الله إذ عاندوا المرسلين ، وجحدوا آيات الوحي المبين ، سنة الله التي قد خلت في عباده بأن الهلاك على الكافرين.

وعن مجاهد: (﴿ وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ المشي بأرجلهم).

وعن السدي: (﴿ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ قال: فَرِحُوا بما عندهم من العلم بجهالتهم ، فأتاهم من بأس الله تعالىٰ مالا قِبَل لهم به). قال مجاهد: (قالوا: نحن أعلمُ منهم ، لن نُبْعَثَ ولن نُعَذَّب). قال ابن جرير: (﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾: فلما جاءهم بأسنا وسطوتنا لم يغن عنهم ما كانوا يعملون من البيوت في الجبال ولم يدفع عنهم ذلك شيء ولكنهم بادوا جميعاً وهلكوا).

وقوله: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾. أي أحاط بهم ما كانوا يستبعدون وقوعه وينكرونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

قال السدي: (﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ قال: النقمات التي نزلت بهم ﴿قَالُوا﴾ أقررنا بتوحيد الله وصدقنا أنه لا إله غيره، وجحدنا الآلهة التي كنا قبل وقتنا هذا نشركها في عبادتنا الله، ونعبدها معه ونتخذها آلهة، فبرئنا منها).

وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾. قال قتادة: (لما رأوا عذاب الله في الدنيا لم ينفعهم الإيمان عند ذلك).

وقوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾. قال قتادة: (يقول: كذلك كانت سنة الله في الذين خلوا من قبل إذا عاينوا عذاب الله لم ينفعهم إيمانهم عند ذلك).

قال ابن جرير: (ترك الله تبارك وتعالىٰ إقالتهم وقبول التوبة منهم ومراجعتهم الإيمان بالله وتصديق رسلهم بعد معاينتهم بأسه قد نزل بهم، سنته التي قد مضت في خلقه).

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله يقبلُ تَوبَةَ العبدِ ما لمْ يُغَرْغِرْ][1].

وقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

قال الزجاج: (وقد كانوا خاسرين من قبل ذلك، إلا أنه بيَّن لنا الخسران لما رأوا العذاب).

تم تفسير سورة المؤمن

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4253)، والترمذي (3537). انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2802). وصحيح سنن ابن ماجة (3430).

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون.

2 ـ من خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتىٰ ينزع.

3 ـ إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته ، وإن كانوا دونه في العمل ، لِتَقَرَّ بهم عينه.

4 ـ ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه.

5 ـ يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض؟!

6 ـ يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت.

7 ـ الآزفة هي القيامة ، سميت بذلك لأنها قريبة ، إذ كل ما هو آت قريب.

8 ـ أفضلُ الجهاد كلمةُ عَدْلٍ عند سلطان جائر ، أو أمير جائر.

9 ـ إن شرّ الرِّعاء الحُطمة ، فإياك أن تكون منهم.

10 ـ الطبع هو الختم. ثبتت الذنوب على القلب فحفّت به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه ، فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم.

11 ـ استعيذوا بالله من عذاب القبر ، فإن عذاب القبر حق.

12 ـ إن الدعاءَ هو العبادة ، والله تعالىٰ قريب من عباده ، وإنه من لم يسأل الله تعالىٰ يغضب عليه.

13 ـ إن الله حَرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عزَّ وجل.

14 ـ ما أنعم الله تعالىٰ على عبد نعمة فقال: الحمد لله ، إلا كان الذي أعطىٰ أفضلَ مما أخذ.

15 ـ إن الله تعالىٰ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (54).

موضوع السورة

القرآن العربي تنزيل الرحمان
وفيه تفصيل آيات الآفاق والأنفس والأخبار والأحكام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تنزيل القرآن من الرحمان ، قرآن عربي مفصل الشرائع والأحكام.

2 ـ قلوب المشركين مقفلة عن فهم هذا الوحي الكريم ، وآذانهم فيها وقر عن سماع الحق المبين.

3 ـ الويل للمشركين الذين لا يزكون نعمة الله عليهم ، وأعدّ الله للمؤمنين جنات النعيم فيها سعادتهم وسرورهم.

4 ـ التقريعُ على المشركين في كفرهم بالله وشركهم به. وهو الخالق للسماوات والأرض والجبال ، ومقدّر الأعمال والأرزاق والأقوات والآجال.

5 ـ تهديد الله مشركي قريش بمصير الأمم المكذبة قبلهم كعاد وثمود.

6 ـ نَعْتُ الله مشهد الحشر وخزي الطغاة وأتباعهم ، ونطق أسماعهم وأبصارهم وجلودهم لتشهد عليهم.

7 ـ تزيين الشياطين للكفار أعمالهم ، ومكر الله الغالب للطغاة ومكرهم.

8 ـ تنزُّل الملائكة بالأمن والطمأنينة والبشرىٰ بالجنة للمؤمنين ، والوَعْدُ لهم بالنصر والتأييد في هذه الدنيا والتمكين.

9 ـ الثناء الحسن على الدعاة إلى الله أهل العمل الصالح والمثل الأعلى في المسلمين ، والأمر بمدافعة السيئة بالتي هي أحسن فإذا صاحب العداوة كأنه ولي حميم.

10 ـ الإخبار عن بلوغ مراتب الجنة العالية أهل الصبر وأصحاب الحظ العظيم ، والأمر بالاستعاذة بالله من همزات ووساوس الشيطان الرجيم.

11 ـ الليل والنهار والشمس والقمر آيات كبيرة من آيات الله العظيم ، والسجود لا يكون إلا لله ، والملائكة يسبحون ويسجدون ولا يستكبرون ، والأرض الخاشعة تهتز بإذن الله بالماء الذي ينزله محيي الموتىٰ الحي القيوم.

12 ـ تهديد الله تعالىٰ المعاندين في آياته ، وثناؤه على كتابه المعجز في بيانه ، وتسلية رسوله ﷺ عما يلقاه من أذىٰ وتكذيب قومه.

13 ـ مَرَدُّ العمل الصالح أو السَّيِئ على أهله ، ومردُّ علم الساعة إلى الله المتصرِّف في ملكه ، وسوء حال المشركين في الحشر وعند الحساب لنيل عقابه لهم ونكاله.

14 ـ حرص الإنسان على الدعاء بالخير ، وسرعةُ جزعه إذا أصابه شر ، وإسراعه إلى العجب والكبر والشرك إذا أصابه نعيم أوما يَسُرّ.

15 ـ تحذير الله المشركين مغبة كفرهم بهذا القرآن ، وهو تعالىٰ يريهم آيات الآفاق والأنفس ليظهر لهم أنه الحق كلام الرحمان ، ألا إنهم في شك من لقاء ربهم ، وهو تعالىٰ محيط بهم وبأعمالهم وبكل ما حولهم.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 5. قوله تعالىٰ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: إنه ما إن جهر النبي ﷺ بدعوته ممتثلاً بذلك أمر ربه عز وجل، حتىٰ اتجهت الأنظار إليه وتحركت قوىٰ الشر من قريش نحوه، ممثلة برؤوس الكفر وأئمة الطغيان. وفي هذه الأثناء نزلت أوائل سورة فصلت لتقرع ببيانها الساحر عقول طغاة مكة وقلوبهم وآذانهم التي ما انفتحت بعد لقبول منهج الإيمان.

أخرج ابن إسحاق في المغازي بسند حسن قال: (حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش! ألا أقومُ إلى محمد فأكَلِّمُهُ وأعرضُ عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء ويكفُّ عنا؟ فقالوا: بلىٰ يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتىٰ جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النَسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكَفَّرت به من مضىٰ من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. قال: يا ابن أخي، ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتىٰ لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا

حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتىٰ يُداوىٰ منه . فلما فرغ من قوله تلا رسول الله ﷺ صدر سورة السجدة)[1] .

وفي رواية في مسند عبد بن حميد ومصنف ابن أبي شيبة عن جابر : (أن عتبة قال له : «فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتىٰ لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلىٰ أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتىٰ نتفانىٰ . أيها الرجل : إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتىٰ تكون أغنىٰ قريش رجلاً واحداً ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً» .

حتىٰ إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال : أفرغت يا أبا الوليد؟ قال : نعم . قال : فاستمع مني . قال : أفعل . قال : «﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾» .

ثم مضىٰ رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتىٰ انتهىٰ رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك) .

وفي رواية : (فلما بلغ رسول الله ﷺ : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم . فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نَحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال : «ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي خَلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزّه عزّكم

---

(1) أخرجه ابن هشام في السيرة (1/ 293 ـ 294) ، وله شاهد عند أبي يعلىٰ والحاكم بسند يرقىٰ للحسن . انظر كتابي : السيرة النبوية (1/ 205 ـ 206) .

وكنتم أسعد الناس به». قالوا: سحرك يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم)[1].

فقوله تعالىٰ: ﴿حمٓ﴾ هو كأمثاله في أوائل السور السابقة التي ابتدأت بالحروف المقطعة، ومفاده الإعجاز والتحدي، فإن القرآن العظيم هو من جنس هذه الأحرف وهو يتحدىٰ الجن والإنس بإعجازه وبيانه وروعته وسموه.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. انتصارٌ للقرآن، فهو منزل من الرحمٰن الرحيم كما قال جل ذكره: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾. أي: بُيِّنت معانيه وأحكمت أحكامه. قال السدي: (بُيِّنت آياته). وقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بدل من ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو خبر ثان لهذا، أو خبر ﴿تَنزِيلٌ﴾. وجملة: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في محل رفع نعت لكتاب.

وقوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بالنصب على المدح، والتقدير: ذكرنا قرآناً عربياً بشيراً ونذيراً، وذكرناه قرآناً عربياً. أو بالنصب على الحال من كتاب. و﴿عَرَبِيًّا﴾ نعت قرآن منصوب.

وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون).

وقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. قال ابن جرير: (فصلت آيات هذا الكتاب قرآناً عربياً لقوم يعلمون اللسان العربي، بشيراً لهم يبشرهم إن هم آمنوا به وعملوا بما أنزل فيه من حدود الله وفرائضه بالجنة، ومنذراً من كذب به ولم يعمل بما فيه بأمر الله في عاجل الدنيا وخلود الأبد في نار جهنم في آجل الآخرة).

وقوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. أي: فاستكبر عن الإصغاء للوحي وتدبر حججه هؤلاء مشركو قريش ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي لا يصغون للحق إعراضاً واستكباراً.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾. قال مجاهد: (عليها أغطية كالجَعْبة للنَّبْل). وعن السدي: (﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ قال: عليها أغطية).

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (14/ 295 ـ 296)، وعبد بن حميد كما في المنتخب (1123). وانظر صحيح السيرة ـ إبراهيم العلي ـ ص(64)، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1/ 205 ـ 207).

وقوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾. قال السدي: (صمم). أي: ثقل يمنع من استماع قولك.

وقوله: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ هو الاختلاف في الدين. قال النسفي: (﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ ستر، وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها، ومجّ أسماعهم له كأن بها صمماً عنه، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجاباً ساتراً وحاجزاً منيعاً من جبل أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي).

وقوله: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾. أي: اعمل على طريقتك ونحن نعمل على طريقتنا لا نتابعك. قال مقاتل: (اعمل لإلـهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها). وقال الكلبي: (أي اعمل في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك). وعن الماوردي: (فاعمل لآخرتك فإنا نعمل لدنيانا). وقيل: (اعمل بما يقتضيه دينك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا). قال ابن جرير: (أي: فاعمل يا محمد بدينك وما تقول إنه الحق إننا عاملون بديننا وما نقول إنه الحق، ودع دعاءنا إلى ما تدعونا إليه من دينك، فإنا ندع دعاءك إلى ديننا).

6 ـ 8. قوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين إنما أنا بشر مثلكم أنذركم بالوحي أنه لا إله إلا الله فاعبدوه واستقيموا على عبادته واستغفروه من ماضيكم وجاهليتكم فالويل للمشركين، الذين لا يزكون نعمة الله عليهم بالشكر والإيمان بل يكفرون. لقد أعدّ الله تعالىٰ للمؤمنين العاملين بطاعته أجراً غير ممنون، في جنات الخلود جنات النعيم.

فقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾. أي لست بملك بل أنا واحد من بني آدم مثلكم. قال الحسن: (علمه الله تعالىٰ التواضع).

وقوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي من السماء من عند الله تعالىٰ على أيدي الملائكة.

وقوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾. قال ابن كثير: (لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إلـهٌ واحد).

وقوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾. قال القرطبي: (أي وجهوا وجوهكم بالدعاء له والمسألة إليه). وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾. أي: من شرككم وخطاياكم.

وقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. قال ابن عباس: (هم الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله). قلت: وهذا فقه كبير في فهم الآية، فإن إيجاب الزكاة المالية كان في السنة الثانية للهجرة، وهذه الآية مكية، إلا أن يقال أن يكون المراد أصل الصدقة الذي أُمِرَ به المسلمون أول الإسلام متروكاً لشعورهم قبل تعيين الأنصبة في المدينة بعد الهجرة، فيكون هذا جمعاً مع قول قتادة: (﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: يمنعون زكاة أموالهم)، وقوله السدي: (الذين لا يدينون بالزكاة)، وقول معاوية بن قرة: (ليس هم من أهل الزكاة).

لكن قد يقول قائل: بل الصلاة أَهَمُّ لو أريد تفصيل بعض الأحكام والأركان، فإن الصلاة قد فرضت قبل طلوع الشمس وقبل غروبها أول الإسلام، ثم فصلت الفرائض ليلة الإسراء.

ووجه الإجابة عند ذلك يكون بالرجوع لمفهوم الزكاة ـ وهو النماء والطهارة ـ فتحمل الآية علىٰ طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة وأخصّ ذلك طهارتها من دنس الشرك والجحود، ثم أداء زكاة نعم الله الجليلة الكثيرة: كالصحة والمال والولد وألوان النعيم، فيكون معنىٰ الآية: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: دمار عليهم وهلاك محيط بهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: زكاة خلقهم من إفراد الله تعالىٰ بالدعاء والتعظيم، وشكره على نعمة العافية والمال والولد وألوان النعيم، ويدخل في ذلك عندئذ الإنفاق على القرابة المحتاجين وغيرهم من المساكين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9 ـ 10].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: 14 ـ 15].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: 18].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث ، منها :

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي ذرّ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قال : [يُصْبِحُ على كُلِّ سلامىٰ مِنْ أحدِكم صَدَقَةٌ ، فكل تَسْبيحةٍ صَدَقةٌ ، وكُلُّ تحميدةٍ صَدَقَةٌ ، وكُلُّ تهليلةٍ صَدَقَةٌ ، وكُلُّ تكبيرةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بالمعروف صَدَقَةٌ ، ونَهْيٌ عن المنكر صَدقَةٌ ، ويُجْزئ مِنْ ذلك ركْعتان يَرْكَعُهُما من الضحا](1) .

الحديث الثاني: روىٰ أحمد وأبو داود ـ واللفظ له ـ بإسناد صحيح عن بريدة قال : سَمعت رسول الله ﷺ يقول : [في الإنسان ثلاث مئة وسِتّون مَفْصِلاً فعليه أن يتصدَّق عَنْ كلِّ مَفْصلٍ مِنْهُ بصدقة . قالوا : ومن يطيق ذلك يا نبي الله؟ قال : النُخاعة في المسجد تَدْفِنُها والشيء تُنَحِّيهِ عن الطريق ، فإن لم تجِدْ فَركعتا الضحا تُجْزِئُكَ](2) .

وقوله : ﴿ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ . قال ابن جرير : (وهم بقيام الساعة وبعث الله خلقه أحياء من قبورهم من بعد بلائهم وفنائهم منكرون) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

قال مجاهد : (﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال : محسوب) . وقال السدي : (قال بعضهم : غير منقوص ، وقال بعضهم : غير ممنون عليهم) . وقال غيره : (لا مقطوعٌ ولا مجبوبٌ) . والراجح أنه أجر مستمر غير مقطوع ولا منقوص ولا مجبوب ، مقابل ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح واستمروا على ذلك حتىٰ لاقوا ربهم . وأما تفسير بعضهم : غير ممنون عليهم فقد رده بعض الأئمة بقوله تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات : 17] ، وقوله عن أهل الجنة : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور : 27] .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف : 2 ـ 3] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (720) ـ كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب صلاة الضحا .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (5242) ـ باب في إماطة الأذىٰ عن الطريق . انظر صحيح أبي داود (4365) . ورواه أحمد وابن خزيمة كما في صحيح الترغيب (1/ 664) .

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: 108].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [مَنْ يدخل الجنة يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلىٰ ثِيابُهُ ولا يفنىٰ شبابه][1].

وفيه أيضاً عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ينادي مُنَادٍ: إنَّ لكمْ أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبَداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعموا فلا تبأسوا أبداً][2].

9 ـ 12. قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: التقريعُ على المشركين في كفرهم وشركهم بالله الذي خلق الأرض في يومين، وخلق فيها الجبال وبثّ فيها الدواب وقدّر فيها الأقوات في أربعة أيام، ثم استوىٰ إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وقدّر في كل سماء مقاديرها، وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً من استراق الشياطين، ذلك تقدير العزيز العليم.

فعن السدي: (﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ قال: في الأحد والاثنين). قال ابن جرير: (وذلك يوم الأحد ويوم الاثنين، وبذلك جاءت الأخبار عن رسول الله ﷺ وقالته العلماء). قال ابن كثير: (فالجمهور على أنها كأيامنا هذه).

قلت: وقد جاء تفصيل بدء الخلق في حديث الإمام مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [خلق الله التربة يوم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2836) ـ كتاب الجنة ونعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ورواه أحمد (2/ 369)، (2/ 407)، والدارمي (2/ 332).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2837) ـ الكتاب السابق، الباب السابق.

السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يومَ الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبَثَّ فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة ، في آخر الخلق ، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل][1] .

وقوله : ﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ﴾ . قال ابن جرير : (ـ أي ـ : وتجعلون لمن خلق ذلك كذلك أنداداً وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معاصي الله) .

والمقصود : كيف تجعلون لخالق الأرض في يومين ومالك جميع الإنس والجن وكل أجناس الخلق نظراء وأمثالاً تعبدونهم معه وتصرفون لهم الاستغاثة والدعاء والذبح والنذر وغير ذلك مما لا ينبغي إلا لله الخالق الواحد الأحد الصمد .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . قال النسفي : (﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الذي خلق ما سبق ﴿ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ خالق جميع الموجودات وسيدها ومربيها) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا ﴾ . وهي الجبال الثوابت في الأرض تثبتها لئلا تميد بأهلها .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات : 27] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ : 6 ـ 7] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ﴾ [الرعد : 3] .

4 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 15] .

فثَبَّتَ الله الأرض بهذه الثوابت وهي الجبال ، فكانت كالأوتاد قد دُقَّتْ وَغُرِسَتْ في باطنها وأعماقها ، يحفظ الله بها توازن واستقرار هذه الأرض التي ارتضاها سبحانه مكان اختبار عباده فيما بعد. قال النسفي : (إنما اختار إرساءها فوق الأرض لتكون منافع

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2789) ـ كتاب صفات المنافقين ـ باب ابتداء الخلق ، وخلق آدم عليه السلام ، وأخرجه أحمد ـ انظر مختصر العلو للذهبي (71) ـ وأخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (1/ 288) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص 275 ـ 276) .

الجبال ظاهرةً لطالبيها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال كلها مفتقرة إلى ممسك وهو الله عز وجل).

وقوله: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: أي أنبت فيها الشجر. فَعَن السدي: (﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أنبت شجرها).

التأويل الثاني: أي أدام الخير فيها. قال ابن جرير: (يقول: وبارك في الأرض فجعلها دائمة الخير لأهلها).

التأويل الثالث: أي خدّمها بالمنافع وما سيحتاجه الخلق فيها. قال القرطبي: (﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: بما خلق فيها من المنافع).

التأويل الرابع: قيل بل المراد الماء والزرع والثمر. أي: وبارك بالماء والزرع والشجر والثمر.

قلت: وكلها تفاسير متقاربة ، واختلافات تنوع لا تضاد ، غايتها أن الله سبحانه قد بارك في الأرض ، بما أودع فيها من الخيرات والمنافع والمياه والثمار ، لتكون عوناً في المستقبل للإنسان حين يعيش فيها ، فتكفيه مؤنتها ، عَلّهُ يشكر بذلك خالقها ، ولا ينتكس جاحداً متكبراً كشيطانها. ويدل على هذا قوله بعدها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ وفيه معان جميلة ذكرها المفسرون:

المعنىٰ الأول: قيل المراد أرزاقها. قال الحسن: (أرزاق أهلها ومصالحهم). وقال ابن زيد: (قدر فيها أرزاق العباد ، ذلك الأقوات). وقال السدي: (يقول: أقواتها لأهلها).

المعنىٰ الثاني: قيل المراد ما يصلحها. فعن قتادة: (قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال: صلاحها).

المعنىٰ الثالث: قيل المراد الجبال والأنهار والأشجار. فعن مجاهد قال: (خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء). وعن قتادة: (﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾: خلق فيها جبالها وأنهارها وبحارها وشجرها ، وساكنها من الدواب كلها). وفي رواية قال: (جبالها ودوابها وأنهارها وبحارها).

المعنىٰ الرابع: قيل المراد المطر. فعن مجاهد: (في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال: من المطر).

المعنىٰ الخامس: قيل بل المراد تقدير معاش الناس في كل بلد وما يصلح دنياهم وتجارتهم ومعيشتهم. قال الضحاك: (معنىٰ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾: أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرىٰ ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد). وقال عكرمة: (في كل أرض قوت لا يصلح في غيرها، اليماني باليمن، والسابري بسابور).

قلت: وغاية المعنىٰ أن يقال: إن الله تبارك وتعالىٰ قد هَيّأَ الأرض ليسكنها بعد ذلك الإنسان، أكرم المخلوقات وأشرفها، فقد زوّد الله الأرض بما يقوت بني الإنسان من الغذاء، وبما يصلحهم من المعاش، وبما يدبّر أمورهم من أمر التعاون والتجارة، والغذاءُ لا يكون إلا بالمطر، والتجارةُ لا تكونُ إلا بالحركة والتنقّل والسفر، كما تحتاج إلى شيء من المال، وما يقوم مقامه من الحلي والجواهر والياقوت والدرر، فتفضل الله سبحانه فأنزل المطر، وسلكه ينابيع في الأرض لتفجّر يوماً عبر العيون والنَهر، وتكرم الله جل وعزّ فشق الطرق في السهول والجبال، وأودع للإنسان كنوزاً من الخير والمال، والحلي والدرر في الجبال وأعماق البحار، إضافة إلى ما يخرج من تلك الأعماق من السمك واللحم الحلال، كل ذلك قد سخّره لذلك الإنسان، ليدرك يوماً قيمته ومكانته عند خالق الأكوان والأزمان، لعله يقوم بالأمانة العليا التي خلقه من أجلها، وأرسل له بذلك الرسل الكرام، عليهم الصلاة والسلام.

وأما قوله: ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في تتمة أربعة أيام. قال الشوكاني: (أي في تتمة أربعة أيام باليومين المتقدمين. قاله الزجاج وغيره). أي فرغ الله سبحانه من خلق الأرض وجميع ما تقوم به حاجة الإنسان في المستقبل، يوم سيسكنها بأمره، في أربعة أيام: وهي بدءاً من يوم الأحد، يوم خلق فيها الجبال، وانتهاء بيوم الأربعاء، يوم خلق فيها النور والأمل، الذي سيشرق يوماً في قلوب خلقه من النساء والرجال، فكمّلَ سبحانه في تلك الأيام جميع أسباب الحياة فيها، من الأشجار والماء والمدائن والعمران والخراب وغير ذلك مما يقوم ويصلح به الحال.

وقوله: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فيه قولان:

الأول: عن الحسن قال: (في أربعة أيام مستوية تامة). وعن قتادة: (﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قال: من سأل عن ذلك وجده كما قال الله). أي من سأل عن علم ذلك التقدير يوم خلق الله الخلق والأرض، وكم كان ذلك الأجل، حتىٰ استكملها وجعل فيها

الجبال الرواسي والسبل والأنهار ، والبحار والأقوات والأشجار ، فإنّ حدّه كما أخبر تعالىٰ أربعة أيام.

والثاني: عن ابن زيد قال: (قدّر ذلك على قدر مسائلهم ، يعلم ذلك أنه لا يكون من مسائلهم شيء إلا شيء قد علمه قبل أن يكون). وقال الفراء: (في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنىٰ وقدر فيها أقواتها سواء للمحتاجين). قال القرطبي: (وقال أهل المعاني: معنىٰ: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾: ولغير السائلين ، أي خلق الأرض وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل ، ويعطي من سأل ومن لا يسأل).

وغاية المعنىٰ أن الله سبحانه قد أثبت تقدير بدء خلق الأرض وما تحتاجه من مقومات العيش فيها في أربعة أيام ، ليسكنها الإنسان يوماً فيجد ما يسأل من حاجة فيها ، فقد أودعها الله من كنوز الخير وما يقوم به العيش ، لينعم الإنسان فيها يوماً ولا يشقىٰ ، ولينصرف بهمته ومشاعره وجوارحه إلى ما هو أسمىٰ وأرقىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾. قال القرطبي: (أي عمد إلى خلقها وقصد لتسويتها).

وقال ابن جرير: (ثم ارتفع إلى السماء) ، أي بلا تكييف ولا تمثيل. وقيل: ﴿ثُمَّ﴾ ترجع إلى نقل السماء من صفة الدخان إلى حالة الكثافة ، وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفّس.

وقد ذكر القاسمي ـ في تفسيره ـ رحمه الله: (وقال بعض علماء الفلك في تفسير هذه الآية: ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي ذرات ، أي غازات أي سديم. ثم تجاذبت كما يتجمع السحاب فصارت كتلة واحدة. مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كتلة واحدة. فدارت ثم تقطعت وتفصلت بالقوة الدافعة ، فتكونت الأرض والسماوات ، تصديقاً لقوله تعالىٰ: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي فصلناهما ، فصارتا كرات من الماء في يومين. ثم قال: وفي هذا الوقت كان عرشه على الماء. أي كان ملكه وسلطانه على الماء والله أعلم).

وعن ابن عباس: (﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ، قال الله تعالىٰ للسماء: أطلعي شَمْسَك وقمرك وكواكبك ، وأجري رياحك وسحابك. وقال للأرض: شُقّي أنهارك وأخرجي شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾).

وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ﴾. قال السدي: (استوىٰ إلى السماء وهي دخانٌ مِنْ تنفس الماء حين تنفّس، فجعلها سماء واحدة، ففتقها، فجعلها سبع سماوات في يومين في الخميس والجمعة. وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السماوات والأرض. ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ قال: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد، وما لا يُعلم. ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ قال: ثم زيّنَ السماء بالكواكب، فجعلها زينة ﴿وَحِفْظًا ۚ﴾ من الشياطين). أي من الشياطين أن تسترق أخبارها.

وعن قتادة: (﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ﴾ قال: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها، وخلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج).

وفي المسند وجامع الترمذي بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [إني أرىٰ ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وَحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضِعُ أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالىٰ ساجداً][1].

وفي مسند الإمام أحمد كذلك بسند صحيح عن أنس أن النبي ﷺ قال: [البيت المعمور في السماء السابعة، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ ملك، ثم لا يعودون إليه حتىٰ تقوم الساعة][2].

وفوق هذه المخلوقات كلها ما هو أعظم منها وأكبر، وهو العرش، وتحته كرسي الرحمان عز وجل، وقد وصفه الله سبحانه في كتابه فقال في سورة البقرة: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾. قال ابن عباس: (لو أن السماوات السبع والأرضين السبع، بُسِطْنَ ثم وُصِلن بعضهن إلى بعض، ما كنّ فيه سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة).

وبنحو معناه جاء الخبر الصحيح عن رسول الله ﷺ فيما يرويه محمد بن أبي شيبة

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد والترمذي كما مرّ بتمامه. وكذلك ابن نصر في «الصلاة» (1/ 44)، (2/ 43)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1059)، (1060).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 153)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (477).

عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله ﷺ: [ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة][1].

وأخرج ابن خزيمة في التوحيد بسند صحيح عن ابن عباس قال: [الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره][2]. فيكون العرش بهذا المعنىٰ هو أعظم المخلوقات، ومن أول المخلوقات، استوىٰ عليه الرحمان سبحانه استواء يليق بجلاله وكبريائه، وهو سبحانه غير محتاج إلى الكرسي ولا إلى العرش، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: هذا الذي وصفت لكم من خلقي السماء والأرض وما فيهما، وتزييني السماء الدنيا بزينة الكواكب على ما بينت تقدير العزيز في نقمته من أعدائه، العليم بسرائر عباده وعلانيتهم، وتدبيرهم على ما فيه صلاحهم).

13 ـ 18. **قوله تعالىٰ**: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «كتاب العرش» (114/ 1)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص (290). وانظر السلسلة الصحيحة (109).

(2) موقوف صحيح. رواه ابن خزيمة في «التوحيد»، وعبد الله بن أحمد في «السنة» بسند صحيح. انظر مختصر العلو ص (102)، وهو في حكم المرفوع كما لا يخفىٰ. وانظر تفصيل ذلك في كتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1161).

ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: فإن أعرض هؤلاء المشركون عن هذه الحجة التي بينتها لهم ـ يا محمد ـ فقل أنذرتكم صاعقة تهلككم كما أهلكت عاد وثمود الذين كذبوا المرسلين، واستكبروا في الأرض وطغوا وكانوا ظالمين، فأهلكت عاد بالريح وثمود بالصاعقة وكتب الله النجاة للمتقين.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ .

الصاعقة: كل ما أفسد الشيء وغَيَّره عن هيئته. قال الرازي: (الصاعقة: نارٌ تسقط من السماء في رَعْد شديد. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب). قال قتادة: (يقول أنذرتكم وقيعة مثل وقيعة عاد وثمود. قال: عذاب مثل عذاب عاد وثمود).

وقوله: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ .

قال ابن عباس: (الرسل التي كانت قبل هود، والرسل الذين كانوا بعده، بعث الله قبله رسلاً، وبعث من بعده رسلاً). قال ابن كثير: (أي في القرىٰ المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومُبشِّرين ومُنذرين، ورأوا ما أَحَلَّ الله بأعدائه من النِّقم، وما أَلْبَسَ الله أولياءه من النِّعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدّقوا، بل كذبوا وجحدوا). والآية كقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف: 21].

وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ .

قال ابن جرير: (فقالوا لرسلهم إذ دعوهم إلى الإقرار بتوحيد الله: لو شاء ربنا أن نوحده.. لأنزل إلينا ملائكة من السماء رسلا.. ولم يرسلكم وأنتم بشر مثلنا، ولكنه رضي عبادتنا ما نعبد فلذلك لم يرسل إلينا بالنهي عن ذلك ملائكة ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ـ قالوا لرسلهم: فإنا بالذي أرسلكم به ربكم إلينا جاحدون غير مصدقين به ـ).

وقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. قال النسفي: (أي تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم وهو القوة وعظم الأجرام، أو استولوا على الأرض بغير استحقاق للولاية).

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾. قال القرطبي: (اغتروا بأجسامهم حين تهدّدهم

بالعذاب ، وقالوا: نحن نقدر على دفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم). قيل: وبلغ من قوتهم أن الرجل كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: أولم يروا أن الله الذي خلقهم أوسع منهم قدرة ، لأنه قادر على كل شيء ، وهم قادرون على بعض الأشياء بإقداره لهم ، ولو شاء لَعَطَبَهُم وعطَّل حرَكَتَهُم وقدرتهم.

وقوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾. أي: وكانوا بمعجزاتنا يكفرون ، وهم يعلمون أن تلك الآيات حق ، وإنما منعهم البغي والكبر.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾. قال مجاهد: (شديدة). أو قال: (شديدة السَّموم عليهم). وقال قتادة: (الصرصر: الباردة). وقال السدي: (باردة ذات الصوت). قال ابن كثير: (والحق أنها مُتَّصفة بجميع ذلك ، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية ، لتكونَ عُقوبَتُهم من جنس ما اغترُّوا به من قُواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جداً كقوله تعالىٰ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6] ، أي باردة شديدة ، وكانت ذاتَ صوت مزعج ، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق صَرْصَراً ، لقوة صوت جريه).

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾. قال ابن عباس: (أيام متتابعات أنزل الله فيهن العذاب). وقال مجاهد: (مشائيم). وقال قتادة: (النحسات: المشؤومات النكدات). قال ابن زيد: (النحس: الشر ، أرسل عليهم ريح شرٍّ ليس فيها من الخير شيء). وقال الضحاك: (شداد).

قلت: وأصل النَّحْسِ في لغة العرب ضِدُّ السَّعْد ، فيكون المعنىٰ: أرسل الله عليهم الريح الصرصر في أيام ذوات نحس: أي ذوات شؤم وشر وشدة عليهم ، ابتُدئ بذلك عليهم ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: 19] ، ثم تتابع النحس عليهم سبع ليال وثمانية أيام حتى أبادهم عن آخرهم.

وقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾. أي: اتصل بهم عذاب الدنيا بالريح العقيم بعذاب الآخرة الأدهىٰ والأمَرِّ في نار الجحيم ، ثم هم لا ينصرون في الآخرة ، كما خُذلوا ولم ينصروا في الدنيا.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾. ـ أي هداية الرسل ـ هداية الدلالة والإرشاد. قال

ابن عباس: (أي بيَّنا لهم). وقال قتادة: (بَيَّنَا لهم سبيل الخير والشر). وقال ابن زيد: (أعلمناهم الهدىٰ والضلالة ونهيناهم أن يَتَّبعوا الضلالة، وأمرناهم أن يتبعوا الهدىٰ).

وقوله: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾. قال السدي: (اختاروا الضلالة والعمىٰ على الهدىٰ). وقال ابن عباس: (أرسل الله إليهم الرسل بالهدىٰ فاستحبوا العمىٰ على الهدىٰ).

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾. قال السدي: (عذاب الهون: الهوان). والمقصود: لما آثروا حياة العمى على الهدىٰ بعث الله عليهم صيحة ورَجْفَةً وذلاً وهواناً وعذاباً مخزياً.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: بما قدموا لأنفسهم من التكذيب والعناد والجحود.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

قال القرطبي: (يعني صالحاً ومن آمن به، أي ميزناهم من الكفار، فلم يحلّ بهم ما حَلَّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكفارهم).

19 ـ 24. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ الله تعالىٰ مشهد الحشر وقد دُفِعَ الطغاة إلى نار جهنم ونطقت جوارحهم بجرائمهم، فاستنكروا على جلودهم شهادتهم عليهم، فأجابوهم بأنهم نطقوا بأمر الله لهم، وقد كانوا لا يستترون، ويظنون أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، فأوصلهم ظنهم ذلك بالله إلى عذاب الخزي في النار هم فيها خالدون.

فقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾. أي: اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك خزي ذلك اليوم على الكفار، يوم يفرزون في الحشر باتجاه النار.

وقوله: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾. قال ابن عباس: (يدفعون). وقال السدي: (يحبَسُ أوّلهم على آخرهم). أي تجمع زبانية العذاب أولهم على آخرهم. قال النسفي: (أي يستوقف سوابقهم حتىٰ يلحق بهم تواليهم، وهي عبارة عن كثرة أهل النار، وأصله من وزعته أي كففته).

قلت: يُستوقفون ليتلاحقوا ويجتمعوا فيها، كما اجتمعوا في الدنيا على الكذب، فاليوم تجمعهم نار جهنم، وفي وصفهم بأعداء الله مبالغة في ذمهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. ﴿ مَا ﴾ في قوله ﴿ مَا جَآءُوهَا ﴾ مزيدة للتأكيد، والمقصود: حتىٰ إذا صاروا بحضرتها أو وقفوا عليها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما قدموه وأخّروه.

قال الرازي: (فالله سبحانه ذكر هنا ثلاثة أنواع من الحواس: وهي السمع والبصر واللمس، وأهمل ذكرَ نوعين، وهما الذوق والشم، فالذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه.. وكذلك الشم).

فالذوق يحصل عندما تكون جلدة اللسان مماسة للطعام فهو نوع من اللمس، وكذلك الشم يحصل عندما تكون جلدة الحنك مماسة للشيء المشموم وهي نوع من اللمس أيضاً.

وأما الجلود فهي الجلود المعروفة، في قول أكثر المفسرين. وقيل: (أراد بالجلود الفروج) ذكره السدي. وقال الحكم الثقفي: (إنما عنىٰ فروجهم ولكنه كنىٰ بها)، والأول أرجح وأشمل.

قال الشوكاني: (لأن ما يشهدُ الفرجُ من الزنا أعظم قبحاً وأجلب للخزي والعقوبة).

وأما قوله جل ذكره: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ـ فقد جاء ـ في تفسيره حديث صحيح.

فقد روىٰ مسلم وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال: [ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم حتىٰ بدت نواجذه، ثم قال: ألا تسألون مِمَّ ضحكت؟ قالوا: مِمّ ضحكت يا رسول الله؟ قال: عجبت من مجادلة العبد ربَّه يوم القيامة! قال: يقول العبد يوم

القيامة: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلىٰ ، فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني ، فيقول: كفىٰ بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي ، فتنطق بأعماله ، ثم يُخَلّىٰ بينه وبين الكلام ، فيقول: بُعْداً لكنَّ وسحقاً ، فعنكن كنت أناضل][1].

وقوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. قال النسفي: (وهو قادر على إنشائكم أول مرة وعلى إعادتكم ورجوعكم إلى جزائه).

وقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآية. ﴿أَن﴾ في محل نصب على العلة ، أي لأجل أن تشهد أو مخافة أن تشهد.

وفي الصحيحين والمسند عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: [﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ الآية. قال: كان رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف أو رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش في بيت ، فقال بعضهم لبعض: أترون أن الله يسمع حديثنا؟ قال بعضهم: يسمع بعضه ، وقال بعضهم: لئن كان يسمع بعضه لقد يسمع كله ، فأنزلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الآية][2].

وفي رواية: قال ابن مسعود: [كنت مستتراً بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر: قرشيٌّ وثقفيان ، أو ثقفي وقرشيان ، كثير لحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخران: إنا إذا رفعْنا أصواتنا سمعه ، وإنا إذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخران: إن سمع منه شيئاً سمعه كله ، قال: فذكرت للنبي ﷺ فأنزل الله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾][3].

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (8/ 217) ـ كتاب التوبة وقبولها وسعة رحمة الله وغير ذلك. باب: في شهادة أركان العبد يوم القيامة بعمله. انظر مختصر صحيح مسلم (1933). ورواه أحمد وغيره. وقوله: «أناضل» أي أجادل وأدافع وأخاصم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (فتح الباري ـ 8/ 562) ، وانظر صحيح مسلم ـ بشرح النووي ـ (17/ 122) ، ورواه أحمد وغيرهم. وانظر تفصيل البحث في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ـ بحث (16) ـ (1/ 269).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4817)، ومسلم (2775) ، وأحمد (1/ 443 ـ 444) ، وأخرجه=

وعن السدي: (﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي تستخفون منها). قال مجاهد: (تتقون). أي: وما كنتم تستخفون فتتركون ركوب المحرمات والمآثم في الدنيا حذراً أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم اليوم، ولكن حسبتم حين ركبتم ذلك في الدنيا أن الله يخفىٰ عليه كثيراً مما تعملون.

وعن السدي: (قوله: ﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ قال: أهلككم). وعن الحسن قال: (إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن بالله الظن، فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق، فأساءا الظن فأساءا العمل. قال ربكم: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾).

قلت: ولقد كانت هذه الآيات العظيمة تهديداً لقريش إذا استمرت في تشكيكها وتكذيبها واستهزائها بصفات الله، أن يحصل لها من الخزي في ذلك اليوم الموعود ما حكاه الله وأنزله على المؤمنين ليتلوه إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾. كقوله تعالىٰ: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا، فإن النار مأواهم ومستقرهم لا محيد عنها ولا أمل لهم في الخروج منها.

وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾. قال القرطبي: (أي طلبوا الرضا لم ينفعهم ذلك بل لا بد لهم من النار). وقيل: (وإن يستقيلوا ربهم فما هم من المقالين). قال ابن جرير: (وإن يسألوا العُتبىٰ وهي الرجعة لهم) ـ أي إلى الدنيا، فلا جواب لهم. قال ابن كثير: (وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبْدوا أعذاراً فما لهم أعذار، ولا تُقال لهم عثرات).

قلت: وفي لغة العرب، استعتبه: أي استرضاه. والمقصود: وإن حاولوا التماس رضىٰ الله تعالىٰ بالإقرار بالذنب والندم، وطلبوا فرصة أخرىٰ ليُعَدِّلُوا طريقهم ومنهاج عبادتهم لم يجابوا لذلك، بل كان الجواب كما قال تعالىٰ إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 106 ـ 108].

= الترمذي (3248)، وكذلك ابن حبان (390)، وانظر التفصيل في المرجع السابق. وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة فصلت، آية (22).

25 ـ 29. قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تزيين الشياطين للكفار أعمالهم، حتىٰ جمع الله في العذاب بينهم. ومحاولات الكفار الصد عن القرآن، وسبيل الرحمان، حتىٰ أخزاهم الله وضاعف لهم العذاب بمكرهم.

فقوله: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾.

قال مجاهد: (﴿قُرَنَاءَ﴾ شياطين). وقال السدي: (﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة).

قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: وبعثنا لهم نظراء من الشياطين فجعلناهم لهم قرناء قرنّاهم بهم يزينون لهم قبائح أعمالهم. قال: فزين لهؤلاء الكفار قرناؤهم من الشياطين ما بين أيديهم من أمر الدنيا فحسنوا ذلك لهم وحبّبوه إليهم حتىٰ آثروه على أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: وحسّنوا لهم أيضاً ما بعد مماتهم بأن دعوهم إلى التكذيب بالمعاد، وأن من هلك منهم فلن يبعث وأن لا ثواب ولا عقاب حتىٰ صدقوهم على ذلك، وسهل عليهم فعل كل ما يشتهونه، وركوب كلّ ما يلتذونه من الفواحش باستحسانهم ذلك لأنفسهم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 36 ـ 37].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: 129]. قال ابن زيد: (نسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس).

وفي صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: [إنّ إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتىٰ فَرَّقْتُ بينه وبين أهله، فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت][1].

وله شاهد عند ابن حبان من حديث أبي موسىٰ الأشعري ـ بإسناد صحيح رجاله ثقات ـ عن النبي ﷺ قال: [إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده، فيقول: من أضَلَّ اليوم مسلماً ألبستُه التاج، فيخرُج هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ طَلَّقَ امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ عقَّ والديه فيقول: يوشك أن يَبَرَّهما. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت أنت، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ قتلَ، فيقول: أنت أنت ويُلْبِسُهُ التاج][2].

وقوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

أي: وحقّ عليهم ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ كمن قبلهم من الجن والإنس استووا وإياهم في الخسار والدمار. قال القرطبي: (أي وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأمم الذين من قبلهم الذين كفروا ككفرهم).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾. قال النَسفي: (هو تعليل لاستحقاقهم العذاب). والمقصود: إن تلك الأمم الضالة من الجن والإنس كانوا مغبونين ببيعهم رضا الله ورحمته بسخطه وعذابه فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

هو وصف لمحاولات قريش في الصد عن هذا القرآن، وذلك بافتعال الضجيج والفوضىٰ عند تلاوته، ظناً منهم أن ذلك سيصرف تأثيره الساحر علىٰ قلوب الناس حين يُتْلى فلا يؤثر.

قال ابن عباس: (هذا قول المشركين قالوا: لا تتبعوا هذا القرآن والهوا عنه). وعن مجاهد: (﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ قال: المكاء والتصفير، وتخليط من القول

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2813) ـ ح (67)، ح (68)، كتاب صفات المنافقين.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (65) ورجاله ثقات رجال البخاري. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1280)، وكتابي: «منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن» ص (24)، لمزيد من التفصيل في هذا البحث.

على رسول الله ﷺ إذا قرأ ، قريش تفعله). وعن قتادة قال: (أي اجحدوا به وأنكروه وعادوه ، قال: هذا قول مشركي العرب). وعن معمر ، قال بعضهم في قوله: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ قال: (تحدثوا وصيحوا كيما لا تسمعوه). قال ابن جرير: (﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: لعلكم بفعلكم ذلك تصدون من أراد استماعه عن استماعه فلا يسمعه ، وإذا لم يسمعه ولم يفهمه لم يتبعه ، فتغلبون بذلك من فعلكم محمداً).

وقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾. تَوَعُّدٌ من الله المشركين على سوء ما مكروا وما بيّتوا.

وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. قال النسفي: (أي أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم وهو الكفر).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾. قال القرطبي: (أي ذلك العذاب الشديد ، ثم بينه بقوله ﴿ٱلنَّارُ﴾).

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾. أي: لهم فيها المكث الأبدي مقابل ما كانوا من حجج الله ينكرون ويلغون.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾. أي: الشيطانين اللذين كانا سبب غوايتهم ، فإن الشياطين على ضربين جني وإنسي كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112].

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن عن أبي ذر ، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أبا ذر ، تعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن. فقلت: أوَ للإنس شياطين؟ قال: نعم](1).

وقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

أي: نجعلهما أسفل منّا في العذاب ليشتد عليهم النكال ، وليذوقوا ضعف الخزي والوبال ، جزاء إضلالهم إيانا وصيرورتنا إلى هذا المآل.

30 ـ 32. **قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ

(1) حدث حسن. أخرجه أحمد (5/ 178 ـ 179) ، والنسائي (8/ 275) ، وله شواهد.

أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: تَنَزُّلُ الملائكة بالأمن والطمأنينة والبشرىٰ بالجنة للمؤمنين، والوَعْد بالنصر والتأييد في هذه الحياة الدنيا وفي دار الخلود والنعيم.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾. قال مجاهد: (هم الذين قالوا ربنا الله ثم لم يشركوا به حتىٰ لقوه). وقال: (أسلموا ثم لم يشركوا به حتىٰ لحقوا به). قال عكرمة: (استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله).

والمقصود هم الذين أخلصوا الإيمان والعمل لوجه الله كما شرع وثبتوا على ذلك حتىٰ لقوا ربهم.

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: [قلت: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم][1].

وفي لفظ أحمد: [قال: قلت يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصِم به. قال: قُل: ربي الله، ثم استقم. قلت: يا رسول الله، ما أكثرُ ما تخاف عليَّ؟ فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بطرف لسان نفسه، ثم قال: هذا][2]. وفي لفظ آخر: [قال فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه].

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾.

«أنْ» في موضع نصب. والتقدير: بأن لا تخافوا ولا تحزنوا. قال مجاهد: (عند الموت). وقال: (لا تخافوا ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم من أهل وولد، فإنا نخلفكم في ذلك كله). وعن السدي: (﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ قال: لا تخافوا ما أمامكم ولا تحزنوا على ما بعدكم).

وقوله: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. قال السدي: (في الدنيا). وقال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (38)، وأحمد (3/ 413)، والنسائي في «الكبرىٰ» (11489).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 413)، والترمذي (2410)، وابن ماجة (3972)، وانظر للفظ الآخر مسند أحمد (3/ 413)، (3/ 413)، (3/ 384)، والدارمي (2/ 296)، وصحيح ابن حبان (5698)، وإسناده صحيح، وله طرق.

زيد بن أسلم: (يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث) ـ رواه ابن أبي حاتم.

وفي المسند وسنن أبي داود ومستدرك الحاكم بسند صحيح من حديث البراء مرفوعاً: [إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحَنوط[1] من حنوط الجنة، حتىٰ يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتىٰ يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي رواية: المطمئنة)، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، (وفي رواية: حتىٰ إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم)، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتىٰ يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط] الحديث[2].

وله شاهد عند ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الميت تحضُره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرُجي حميدة، وأبشري بروحٍ ورَيْحان، وربٍّ غير غضبان، فلا يزال يقالُ لها ذلك حتىٰ تخرج][3].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾. قال السدي: (نحن الحفظة الذين كنا معكم في الدنيا، ونحن أولياؤكم في الآخرة). والمعنىٰ: فتقول لهم الملائكة عند موتهم: نحن الذين كنا نتولاكم في الدنيا، أي: كنا قرناءكم نسدّدكم ونعينكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونطمئن قلوبكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم بإذن الله الصراط فوق الجحيم، لتصلوا إلى دار السلام دار الخلود والنعيم.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

أي: ولكم في الجنة ما تشتهون من الملاذ وألوان السرور والنعيم، ولكم كذلك

---

(1) ما يخلط من الطيب لأكفان الموتىٰ وأجسامهم خاصة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287)، وأبو داود (2/ 281)، والحاكم (1/ 37 ـ 40).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4262) ـ كتاب الزهد. باب ذكر الموت والاستعداد له. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3437).

ما تسألون وتتمنَّون حصوله من الله المنعم الكريم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [«يقول اللهُ عزَّ وجل: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر، ذُخْراً، بَلْهَ ما أطلعكم الله عليه». ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: [لَمَّا خَلَقَ اللهُ الجنةَ والنارَ أرسل جَبْرئيلَ إلى الجنة، فقال: انْظُر إليها وإلى ما أعْدَدْتُ لأهلها فيها، قال: فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعَدَّ الله لأهلها فيها، قال: فرجَعَ إليه، قال: فوعزتك لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها. .] الحديث[2].

وفيه أيضاً بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمنُ إذا اشتهىٰ الولدَ في الجنة، كانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وسنُّهُ في ساعة كما يشتهي][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾. نزلاً: نصب على المصدر. أي رزقاً وضيافة من الله الغفور الرحيم. قال ابن كثير: (أي: ضيافة وعطاءً وإنعاماً من غفورٍ لذنوبكم، رحيمٍ بكم رؤوفٍ، حيث غفر، وسَتَرَ، ورَحِمَ ولطفَ).

أخرج الإمام أحمد والبزار بإسنادعلى شرط الشيخين عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [«مَن أَحَبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِهَ لقاء الله كَرِهَ الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله، كُلُّنا نكرَه الموتَ؟ قال: «ليس ذلك كراهيةَ الموت، ولكن المؤمنَ إذا حُضِرَ جاءه البشير من الله بما هو صائِرٌ إليه، فليس شيءٌ أحبَّ إليه من أن يكونَ قد لَقِيَ الله فأحَبَّ الله لقاءه ـ قال: وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِرَ جاءَه بما هو صائِرٌ إليه من الشر ـ أو: ما يَلقىٰ من الشرِّ ـ فكَرِهَ لقاءَ الله، فكَرِهَ الله لقاءه»][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2824)، ح (4)، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها.

(2) حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة. انظر صحيح سنن الترمذي (2075) ـ باب ما جاء في أن الجنة حُفت بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2077) ـ الكتاب السابق، باب ما جاء ما لأدنىٰ أهل الجنة من الكرامة.

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 107)، والبزار (780)، وسنده على شرط الشيخين.

وأصله في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنه قالت: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ أَحَبَّ لقاء الله ، أَحَبَّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله ، كره الله لِقاءه. فقلت: يا نبي الله! أَكراهيةُ الموتِ؟ فَكُلُّنا نَكْرهُ المَوْتَ ، فقال: لَيسَ كذلِك ، ولكِنَّ المؤمِنَ إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانِه وجَنَّتِهِ ، أحبَّ لقاءَ الله ، فأَحَبَّ الله لقاءه ، وإنَّ الكافر إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسَخَطِه ، كَرِهَ لِقاءَ الله ، وكَرِهَ الله لقاءَه][1].

33 ـ 36. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

في هذه الآيات: الثناءُ الحسن على الدعاة إلى الله أهل العمل الصالح والمثل الأعلىٰ في المسلمين. والأمر بمدافعة السيئة بالتي هي أحسن فإذا صاحب العداوة كأنه ولي حميم. والإخبار عن بلوغ مراتب الجنة العالية أهل الصبر وأصحاب الحظ العظيم. والأمر بالاستعاذة بالله من همزات ووساوس الشيطان الرجيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. قال الحسن: (هذا حبيب الله ، هذا وليّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحبُّ الخلق إلى الله ، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً في إجابته ، وقال إنني من المسلمين).

وعن قتادة قال: (هذا عبد صدق قولَه عملُه ، ومولجَه مخرجُه ، وسرَّه علانيته ، وشاهده مغيبه ، وإن المنافق عبد خالف قولَه عملُه ، ومولجَه مخرجُه ، وسرَّه علانيته ، وشاهده مغيبه).

واختلف في المعني بذلك: فعن السدي: (﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال محمد ﷺ حين دعا إلى الإسلام).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2684) ـ كتاب الذكر والدعاء. ح (15) ، (16).

وعن قيس بن أبي حازم قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال: المؤذن، ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ قال: الصلاة ما بين الأذان إلى الإقامة).

قلت: بل الآية عامة في صفات خير العباد، وهم الأنبياء والرسل وأتباعهم من العلماء والقادة والدعاة إلى الله وأهل العمل الصالح على منهاج النبوة.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق ذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن نصر في «الصلاة»، والحاكم في المستدرك، بإسناد صحيح ـ رجاله كلهم ثقات ـ عن العلاء بن زياد قال: [سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: أي المؤمنين أفضل إسلاماً؟ قال: «أفضل المؤمنين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله، وأفضل المهاجرين من جاهد لنفسه وهواه في ذات الله». قال: أنت قلته يا عبد الله بن عمرو أو رسول الله ﷺ؟ قال: بل رسول الله ﷺ قاله][1].

ورواه الطبراني بلفظ: [أفضل المؤمنين إسلاماً من سَلم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلقاً، وأفضلُ المهاجرين مَنْ هَجَرَ ما نهىٰ الله تعالىٰ عنه، وأفضل الجِهاد من جَاهَدَ نفسه في ذات الله عزَّ وجل].

ورواه الحاكم من طريق عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده مرفوعاً به دون ذكر الهجرة، وذكر: [أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر][2].

الحديث الثاني: أخرج الديلمي بسند صحيح لغيره عن معقل بن يسار مرفوعاً: [أفضل الإيمان الصبرُ والسماحة][3].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد الخدري: [أنّ رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ فقال: أفضل الناس (وفي رواية: خير الناس) رجلٌ يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه، ثم مؤمن في شعبٍ من

---

(1) أخرجه ابن نصر في «الصلاة» (142/ 2) بسند صحيح رجاله كلهم ثقات. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1491)، وصحيح الجامع الصغير (1140).

(2) أخرجه الحاكم (3/ 626)، وبنحوه ابن نصر في «الصلاة» (143/ 2).

(3) أخرجه الديلمي (1/ 1/ 128)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (رقم ـ 43)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ورجاله ثقات.

الشِّعاب يعبدُ الله ربَّه ، ويدعُ الناس من شرِّه][1].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بإسناد حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ـ وكذلك أحمد والترمذي بألفاظ متقاربة ـ عن النبي ﷺ قال: [المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من الذي لا يخالط الناس ، ولا يصبر على أذاهم][2]. وفي رواية: (أعظم أجراً) بدل «خير». وفي لفظ آخر: [المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، أفضلُ من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبرُ على أذاهم].

قال ابن جرير: (﴿ وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾: وقال إنني ممن خضع لله بالطاعة ، وذلّ له بالعبودة ، وخشع له بالإيمان بوحدانيته).

وقوله: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾. أي التوحيد والشرك ، والبر والإثم.

قال ابن عباس: (الحسنة لا إله إلا الله ، والسيئة الشرك). وقيل: الحسنة الطاعة ، والسيئة: الشرك. وقيل: الحسنة المداراة ، والسيئة الغلظة. وقيل: الحسنة العفو ، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: (الحسنة العلم ، والسيئة الفحش).

وقوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾. قال ابن عباس: (أي ادفع بحلمك جهل من يجهل عليك). وقال: (أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوّهم كأنه ولي حميم).

وعن عطاء: (﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ قال: السلام). قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: ادفع يا محمد بحلمك جَهْلَ مَنْ جَهِلَ عليك ، وبعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء ، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم ويلقاك من قِبلهم).

وقوله: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾. قال قتادة: (أي كأنه وليٌّ قريب). والمقصود: فإذا فعلت ذلك تحول عدوك المشاق مثل الولي الحميم مصافاة لك. قال القاسمي: (﴿ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ ﴾ أي صديق أو قريب ﴿ حَمِيمٌ ﴾ أي شديد الولاء.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 4) ، (11/ 277 ـ 278) ، ومسلم (6/ 39) ، وأبو داود (1/ 389) ، والنسائي (2/ 55) ، والترمذي (3/ 16) ، وابن ماجة (2/ 475) ، وأحمد (3/ 16) ، والحاكم (2/ 71) من حديث أبي سعيد الخدري.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (2/ 493) ، والترمذي (3/ 319) ، وأخرجه أحمد (5/ 365) ، وأبو نعيم في «الحلية» (5/ 62 ـ 63) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (939) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6527).

وأصل الحميم الماء الشديد حرارته. كنىٰ به عن الوليّ المخلص في ودّه ، لما يجد في نفسه من حرارة الحب والشوق والاهتمام نحو مواليه).

وقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾. قال القرطبي: (﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ ﴾ يعني هذه الفَعلة الكريمة والخصلة الشريفة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذىٰ).

أي: وما يلقىٰ هذه الخصلة الرفيعة التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا الذين صبروا على تجرّع الشدائد ، الذين ورثوه من حسن طاعتهم لله وامتثالهم لأوامره القاضية بالتخلق بالعلم والعفو والحلم.

وقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾. قال ابن عباس: (أي نصيب وافر من الخير). وقال السدي: (﴿ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾: ذو جدّ). وقال مجاهد: (الحظ العظيم الجنة). وقال الحسن: (والله ما عظم حظ قط دون الجنة).

فيكون مفهوم الآية على أحد تأويلين:

التأويل الأول: ما يُلَقَّى تلك الخصلة الشريفة إلا أهل الصبر وإلا ذو حظ عظيم من الخير وكمال النفس والخُلق والعقل.

التأويل الثاني: وما يُلَقَّى الجنة إلا الصابرون ، وكذلك إلا ذو حظ عظيم.

قلت: والإعجاز القرآني يحتمل التأويلين معاً ، فإن تلك الخصال الرفيعة طرق الجنة.

وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾. قال السدي: (وسوسة وحديث النفس).
وقوله: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي من كيده وشره ، وإرادته الفاسدة بمقابلة الإساءة بطرقه الشيطانية التي لا تبقي للصلح سبيلاً.

قال ابن كثير: (أي: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلةَ فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سَلَّطَه عليك ، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه ، كَفَّهُ عنك ورَدَّ كيدَه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: 199 ـ 200].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ

مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: 96 ـ 98].

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أي: إنه هو السميع لاستعاذة عباده العليم بأقوالهم وأفعالهم.

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: [كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبّر ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالىٰ جدك، ولا إله غيرك». ثم يقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «الله أكبر كبيراً» ثلاثاً، «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» ثم يقرأ][1].

37 ـ 39. **قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.**

في هذه الآيات: الليلُ والنهارُ والشمس والقمر آيات كبيرة من آيات الله العظيم. والسجودُ لا يكون إلا لله الذي خلقهن فمن استكبر فإن الملائكة جنود كثيرة يسبحون الله وله يسجدون. والأرض الخاشعة تهتز بإذن الله بالماء الذي ينزله عليها ـ سبحانه ـ فهو محيي الموتىٰ الحي القيوم.

فقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ الآية.

أي: ومن علاماته الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته الليل والنهار والشمس والقمر. قال ابن كثير: (أي: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقِرّان، والشمسَ ونورَها وإشراقَها، والقمرَ وضياءَه وتقديرَ منازِلِه في فَلَكِه، واختلافَ سيرِه في سمائِه، لِيُعرَف باختلافِ سيره وسيرِ الشمس مقاديرُ الليل النهار، والجُمَع والشهورُ والأعوام، ويتبيَّن بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (775) ـ كتاب الصلاة. انظر صحيح سنن أبي داود (701).

الشمسُ والقمرُ أحسنَ الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي ، نبَّهَ تعالىٰ على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده ، تحت قهره وتسخيره ، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ، أي: ولا تشركوا به ، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يُشرك به).

وفي الصحيحين عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: [قال لي رسول الله ﷺ: أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتسجد تحتَ العرش ، ثم تستأمر فيوشِكُ أن يُقالَ لها: ارجعي من حيث جئت][1].

وقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩﴾ أي: فإن استكبر المشركون عن السجود لله وإفراده بالتعظيم فإن الملائكة لا يفترون عن السجود له تعالىٰ وتعظيمه بالليل والنهار. قال ابن عباس: (يقول: عبادي ملائكة صافون يسبحون ولا يستكبرون). قال القرطبي: (﴿لَا يَسْأَمُونَ ۩﴾ أي لا يملون عبادته).

وفي سنن ابن ماجة والترمذي بسند حسن عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إني أرىٰ ما لا تَرَوْن ، وأسْمَعُ ما لا تسمعون. إن السَّماء أَطَّت وحقَّ لها أن تئِطَّ. ما فيها موضع أربعِ أصابع إلا وملك واضِعٌ جبهتَه ساجداً لله][2].

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾. أي: هامدة ميتة لا نبات فيها. قال قتادة: (أي: غبراء متهشمة). وقال السدي: (يابسة متهشمة).

وقوله: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾. قال مجاهد: (﴿اهْتَزَّتْ﴾ بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ يقول: انتفخت). قال القرطبي: (فربوُّها ارتفاعها. قال: فالنبات يتحرك للبروز ثم يزداد في جسمه بالكبر طولاً وعرضاً). والربوة والرابية في كلام العرب الموضع المرتفع.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. أي: ومن آياته الدالة على قدرته على إعادة الموتىٰ إحياؤه تعالىٰ الأرض الجدبة القاحلة اليابسة بالماء ينزل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3199) ، ومسلم (159) ، وأحمد (5/ 177) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (11176) ، وابن حبان (6153) ، وأخرجه الترمذي (2186) نحوه.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4190) ـ كتاب الزهد. باب الحزن والبكاء. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3378). ورواه أحمد والترمذي نحوه. انظر السلسلة الصحيحة (1059) ـ (1060).

عليها ، فإذا النبات يهتز فيها ويترعرع ، وإذا بالثمار والزروع تخرج فيها من جميع الألوان ، إنَّ مَنْ أحياها على كل شيء قدير.

40 ـ 45. **قوله تعالىٰ:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ .

في هذه الآيات: تهديد الله تعالىٰ المعاندين في آياته ، وثناؤه تعالىٰ على كتابه المعجز في بيانه ، وتسلية لرسوله عما يلقاه من أذىٰ وتكذيب قومه.

فعن ابن عباس: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ قال: الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه). وقال قتادة: (هو الكفر والعناد). أو قال: (يكذبون في آياتنا). وقال مجاهد: (المكاء وما ذكر معه). وقال السدي: (يشاقون: يعاندون).

والخلاصة كما قال النسفي: (يميلون عن الحق في أدلتنا بالطعن ، يقال: ألحد الحافِرُ ولَحَدَ إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق ، فاستعير لحال الأرض إذا كانت ملحودة ، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة).

وقوله: ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾. تهديد ووعيد. قال القاسمي: (أي لإحاطة علمه بهم ، وكونه بالمرصاد لهم ، فيسجزيهم).

وقوله: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

أي: هل يستوي من يقذف في نار جهنم يوم القيامة ومن يأتي آمناً من دخولها.

وقوله: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾. قال القرطبي: (أمر تهديد ، أي بعدما علمتم أنهما

لا يستويان فلا بد لكم من الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيد بتهديد وتوعُّد).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾. قال قتادة: (كفروا بالقرآن).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾. قال السدي: (عزيز من الشيطان). وقال قتادة: (أعزّه الله لأنه كلامه وحفظه من الباطل).

وقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. قال سعيد: (النكير من بين يديه ولا من خلفه). أي هو منيع الجانب لا يُرام أن يأتي أحدٌ بمثله وليس للبطلان إليه سبيل، فهو كلام رب العالمين الذي تخشع أمامه الجبال والبحار والأكوان.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. قال ابن كثير: (أي: حكيم في أقواله وأفعاله، حميد بمعنىٰ محمود، أي: في جميع ما يأمرُ به وينهى عنه، الجميع محمودة عواقبُه وغاياته). وقال ابن جرير: (هو تنزيل من عند ذي حكمة بتدبير عباده، وصرفهم فيما فيهم مصالحهم، ﴿حَمِيدٍ﴾ يقول: محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم).

وقوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾. قال قتادة: (يعزّي نبيَّه ﷺ كما تسمعون يقول: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: 52]).

وقال السدي: (ما يقولون إلا ما قد قال المشركون للرسل من قبلك).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾. أي: إن ربك ـ يا محمد ـ لذو مغفرة للمنيبين إليه، المقبلين بالتوبة عليه، بالصفح عنهم والتجاوز عن عقوبتهم، ولكنه ذو عقاب مؤلم لمن أصَرَّ على كفره وذنبه واستكبر عن التذلل لربه.

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

قال سعيد بن جبير: (لو كان هذا القرآن أعجمياً لقالوا القرآن أعجمي، ومحمد عربيّ). وفي رواية: (قال: الرسول عربي، واللسان أعجمي). وعن مجاهد: (﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ يقول: بُيِّنت آياته، ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ نحن قوم عرب مالنا وللعُجْمة).

والمقصود: محاصرة عناد مشركي قريش بقوارع حجج الوحي البالغة، فإن القرآن مع بلاغته وفصاحته وانكسارهم أمام روعة بيانه لم يؤمن به المشركون، فأثبت الله تعالىٰ في هذه الآية أن كفرهم بهذا القرآن إنما هو كفر عناد وتعنت. فإنه لو نزل بلغة العجم لأسرعوا القول هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب كي نفهمه؟.

وفي التنزيل نحو ذلك:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 198 ـ 199].

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾. قال قتادة: (جعله الله نوراً وبركة وشفاء للمؤمنين). أي: قل يا محمد لمعاندي هذا الوحي من قومك: هذا القرآن لمن آمن به فيه هدىٰ لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾. قال قتادة: (عموا وصموا عن القرآن فلا ينتفعون به ولا يرغبون فيه).

وعن السدي: (﴿وَقْرٌ﴾ قال: صمم. ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ قال: عميت قلوبهم عنه).

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾. قال مجاهد: (بعيد من قلوبهم). وقال: ضيّعوا أن يقبلوا الأمر من قريب، يتوبون ويؤمنون فيقبل منهم فأبوا). قال ابن جرير: (معناه: كأنّ من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾. تعزية من الله لرسوله محمد ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه، فقد كُذِّب موسىٰ وأوذي من قبل ومعه التوراة ـ كتاب الله ـ فقال بعضهم هو حق وقال بعضهم هو باطل كما اختلف قومك في كتابك.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾. قال السدي: (أخروا إلى يوم القيامة). أي: ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لأهلكهم إهلاك استئصال. وقيل: الكلمة السابقة هي العدة بالقيامة وأن الخصومات تفصل في ذلك اليوم ولولا ذلك لقضي بينهم في الدنيا.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾. قال القاسمي: (أي موقع للريب والاضطراب لأنفسهم وأتباعهم، لعمى بصائرهم وتبلد عقولهم، وإلا فالحق أجلى من أن يخفىٰ).

46 ـ 48. **قوله تعالىٰ**: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ

أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

في هذه الآيات: مَرَدُّ العمل الصالح أو السَّيِئ على أهله، ومردُّ علم الساعة إلى الله المتصرف في ملكه، وسوء حال المشركين في الحشر وعند الحساب لنيل عقابه لهم ونكاله.

فقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾. قال النسفي: (فنفسه نفع). ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾، قال: (فنفسه ضرّ).

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. قال ابن كثير: (أي: لا يعاقبُ أحداً إلا بذنب، ولا يُعَذِّبُ أحداً إلا بعد قيام الحُجَّة عليه، وإرسال الرسول إليه).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالىٰ أنه قال: [يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا][1].

وقوله: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾. أي: لا يعلم وقتها إلا هو سبحانه. كما قال جل ذكره: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: 187]، وكما قال جل ثناؤه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: 44].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: [ـ قال جبريل للنبي ﷺ ـ: يا رسول الله! متىٰ الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلمَ من السائل][2].

وفي رواية: [قال: يا رسول الله! متىٰ تقوم الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾. قال القرطبي: (﴿مِن﴾ زائدة، أي وما تخرج ثمرة. ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي من أوعيتها، فالأكمام أوعية الثمرة).

أي: وما تبرز ثمرة من أغطيتها فتنشق عنها إلا بإذن الله. قال مجاهد: (﴿مِّنْ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 17)، وأحمد في المسند (5/ 160) وهو جزء من حديث طويل.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (9) ـ كتاب الإيمان، وانظر الحديث (10) للرواية الثانية.

﴿أَكْمَامِهَا﴾ حين تطلع). وقال السدي: (من طلعها، والأكمام جمع كُمَّة وهو كل ظرف لماء أو غيره، والعرب تدعو قشر الكفرَّاة كُمّاً).

وقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾. كقوله في سورة الرعد: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8].

قال النسفي: (أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به، يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾. أي: ويوم ينادي الله المشركين أين شركائي الذين كنتم تعبدون معي وزعمتم أن لهم الشفاعة.

وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾. قال ابن عباس: (قوله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ يقول: أعلمناك). قال القاسمي: (أي أعلمناك ما منا من يشهد لهم بالشركة ويقرّ بها الآن). أي: قال المشركون أو الأصنام ـ أو كلاهما: العابد والمعبود ـ أسمعناك وأعلمناك ليس أحد منا اليوم يشهد أن معكَ شريكاً.

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾. أي: بطل عنهم ما كانوا يدعون من قبل في الدنيا من الأوثان والأصنام والطواغيت وحصل التنكر منهم لعبادتهم.

وقوله: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾. قال السدي: (استيقنوا أنه ليس لهم ملجأ). أي: أيقنوا وعلموا أنه لا فرار لهم من النار ولا سبيل للنجاة. كما قال جل وعز: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: 53].

49 ـ 51. قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآيات: حِرْصُ الإنسان على الدعاء بالخير، وسرعةُ جزعه إذا أصابه شر،

وإسراعه إلى العجب والكبر والشرك إذا أصابه نعيم أو ما يَسُرّ.

فقوله: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ﴾. قال ابن زيد: (لا يمل).

وقوله: ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾. قال السدي: (قانط من الخير).

والمعنىٰ: لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير من مال وصحة ورفاهية وسرور، وإن مسه الشر من بلاء أو فقر أو ضيق أو ألم سارع إلى اليأس والقنوط وظن أنه ليس بعد هذا الشر من خير.

وقوله: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾. قال مجاهد: (أي بعملي: وأنا محقوق بهذا).

وقوله: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾. أي: وما أحسب القيامة قائمة يوم تقوم.

وقوله: ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾. قال السدي: (غنىٰ). وقيل: الجنة.

قال ابن جرير: (يقول: وإن قامت أيضاً القيامة ورددت إلى الله حياً بعد مماتي ﴿ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ يقول: إن لي عنده غنىٰ ومالاً).

قال ابن كثير: (﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾، أي يكفر بقيام الساعة لأجل أنه خُوّل نعمة يفخر ويبطَر ويكفُر، كما قال تعالىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: 6 ـ 7]. ﴿ وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾، أي: ولئن كان ثَمَّ معادٌ فَلَيُحْسِنَنَّ إليَّ ربِّي، كما أحسن إليَّ في هذه الدار، يتمنىٰ على الله ـ عز وجل ـ مع إساءته العملَ وعدم اليقين).

وقوله: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾. قال القرطبي: (أي لنجزينهم. قسم أقسم الله عليه).

وقوله: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾. أي أليم شديد لا يفتر عنهم.

وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾. قال السدي: (يقول: ﴿ أَعْرَضَ ﴾: صد بوجهه ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾، يقول: تباعد). قال النسفي: (هذا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه الله بنعمة أبطرته النعمة فنسي المنعم وأعرض عن شكره ﴿ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ وتباعد عن ذكر الله ودعائه أو ذهب بنفسه وتكبر وتعظّم، وتحقيقه أن يوضع جانبه موضع نفسه لأن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة نفسه).

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾. قال ابن عباس: (فذو تضرع واستغاثة). قال القرطبي: (والكافر يعرف ربه في البلاء، ولا يعرفه في الرخاء). وقال القاسمي: (﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير. يديم تضرعه، ويستغرق في الابتهال أنفاسه. وقد استعير «العَرْضُ» لكثرة الدعاء. كما يستعار له «الطول» أيضاً. فيقال: أطال فلان الدعاء، إذا أكثر. وكذلك أعرض دعاءه). وقال ابن كثير: (﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾، أي: يُطيل المسألة في الشيء الواحد. فالكلام العريضُ: ما طالَ لفظُه وقل معناه، والوَجيز: عكسُه، وهو: ما قَلَّ ودَلَّ).

فائدة: لا منافاة بين قوله: ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ وبين قوله: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾.

فإنه قد يكون الأول في قوم والثاني في قوم آخرين، أو قنوط في البر وذو دعاء عريض في البحر، أو قنوط بالقلب ذو دعاء عريض باللسان، أو قنوط من الوثن والصنم ذو دعاء لله تعالىٰ ـ ذكر نحوه النسفي.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8].

أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]][1].

52 ـ 54. **قوله تعالىٰ:** ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ

(1) إسناده قوي رجاله ثقات. أخرجه أحمد (4/ 145)، وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (4/ 115): (رواه أحمد والطبراني والبيهقي في «الشعب» بسند حسن). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (414) ـ وقال الألباني: صحيح بالمتابعة.

مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تحذيرُ الله تعالىٰ المشركين مغبة كفرهم بهذا القرآن، وهو تعالىٰ يريهم آياته وعجائب قدرته في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يظهر لهم أنه الحق كلام الرحمان. ألا إنهم في شك من لقاء ربهم، وهو محيط بأعمالهم وآجالهم، وبكل شيء في هذا الكون حولهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. قال ابن جرير: (قل ـ يا محمد ـ للمكذبين بما جئتهم به من عند ربك من هذا القرآن: أرأيتم أيها القوم إن كان هذا الذي تكذبون به ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ ألستم في فراقٍ للحق وبعد من الصواب. فجعل مكان التفريق الخبر فقال: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ إذ كان مفهوماً معناه. ـ أي ـ: قل لهم: من أشد ذهاباً عن قصد السبيل وأسلك لغير طريق الصواب ممن هو في فراق لأمر الله وخوف له بعيد من الرشاد).

وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. أي سنري هؤلاء المكذبين ـ ومن سار بعدهم على منهاجهم ـ آياتنا البديعة في نصر هذا الدين وإحقاق النبوة وخذلان الطغاة والمتكبرين، وآيات الآفاق والأنفس العجيبة التي تدل على انفراد الله تعالىٰ في هذا الوجود بالكبر والتعظيم.

فعن عمرو بن دينار عن عمرو بن أبي قيس عن المنهال في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ قال: (ظهور محمد ﷺ على الناس).

وعن السدي: (يقول: ما نفتح لك يا محمد من الآفاق ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ في أهل مكة، يقول: نفتح لك مكة).

وقال ابن زيد: (آفاق السماوات: نجومها وشمسها وقمرها اللاتي يجرين، وآيات في أنفسهم أيضاً).

قال ابن كثير: (أي: سنظهر لهم دلالتنا وحجَجنا على كون القرآن حقاً منزَّلاً من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ـ ﷺ ـ بدلائل خارجية ﴿فِي الْآفَاقِ﴾، من الفتوحات

وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان. قال مجاهد، والحسنُ، والسُّدي: ودلائلُ في أنفسهم، قالوا: وقعةُ بدر، وفتحُ مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حَلَّتْ بهم، نصَرَ الله فيها محمداً ﷺ وصحبَه، وخذَلَ فيها الباطِلَ وحِزْبَه.

ويحتملُ أن يكون المرادُ من ذلك ما الإنسان مركَّبٌ منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدالِّ على حكمة الصانع ـ تبارك وتعالىٰ ـ. وكذلك ما هو مجبولٌ عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسَن وقبيح وبين ذلك، وما هو مُتَصَرِّفٌ فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله، وقوته، وحِيَلِه، وحَذَرِه، أن يجوزها ولا يتعدّاها، كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخِه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

وإذا نَظَرْت تريدُ مُعْتَبَراً ... فانْظُر إليكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أنت الذي يُمْسِي ويُصْبح في الـ ... دنيا وكُلّ أموره عِبَرُ
أنتَ المصرَّف كان في صِغَرٍ ... ثم استَقَلَّ بشخصِكَ الكِبَرُ
أنتَ الذي تَنْعَاهُ خِلْقَتُهُ ... يَنْعاهُ مِنْهُ الشَّعْرُ والبَشَرُ
أنتَ الذي تُعْطَى وتُسْلَبُ لا ... يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحذَرُ
أنت الذي لا شيء منه له ... وأحقُّ مِنْهُ بمالِهِ القَدَرُ).

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. أي: أولم يكف بربك ـ يا محمد ـ أنه شاهد على كل أفعال عباده وأقوالهم، وهو مجازيهم على أعمالهم، ومن ذلك شهوده سبحانه على صدق محمد ﷺ عبده ورسوله فيما يخبر عنه.

كما قال جل ثناؤه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: 166].

وفي صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً][1].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار][2].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 46). وانظر مختصر صحيح مسلم (25) ص (14).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 93)، وانظر مختصر صحيح مسلم ـ (20) ـ.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾. قال السدي: (يقول: في شك). أي: هم في شك من قيام الساعة والحساب ولهذا لا يتفكرون ولا يستعدون.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾. قال ابن جرير: (ألا إن الله بكل شيء مما خلق محيط علماً بجميعه، وقدرةً عليه، لا يعزب عنه علم شيء منه أراده فيفوته، ولكن المقتدر عليه العالم بمكانه).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: 28].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: 94 ـ 95].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ ـ في صفة بعض دعائه ـ: [اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر][1].

ـ تم تفسير سورة فصلت ـ
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2713)، ورواه أحمد(2/ 404)، وإسناده صحيح.

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ في الإنسان ثلاث مئة وستون مَفْصلاً علَيه أن يتصدق عن كل مَفْصل كل يوم بصدقة. فالأمر بالمعروف صدقة ، والنهي عن المنكر صدقة ، وإماطة الأذىٰ عن الطريق صدقة ، ويجزئ من ذلك كله ركعتان من الضحا.

2 ـ ينادي مناد في الجنة: إنّ لكم أنت تَصِحُّوا فلا تسقموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً.

3 ـ الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره.

4 ـ البيت المعمور في السماء السابعة ، يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه حتىٰ تقوم الساعة.

5 ـ يقول العبد يوم القيامة: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلىٰ ، فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني. . فيختم على فيه فتنطق أركانه بأعماله.

6 ـ إنّ إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة.

7 ـ إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحاً قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، وربٍّ غير غضبان.

8 ـ المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة ، كان حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وسنُّهُ في ساعة كما يشتهي.

9 ـ أفضل الإيمان الصبر والسماحة ، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر ، وأفضل المؤمنين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده.

10 ـ تذهب الشمس عند كل غروب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر لتخرج.

11 ـ أطّت السماء وحق لها أن تئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله تعالىٰ ساجداً.

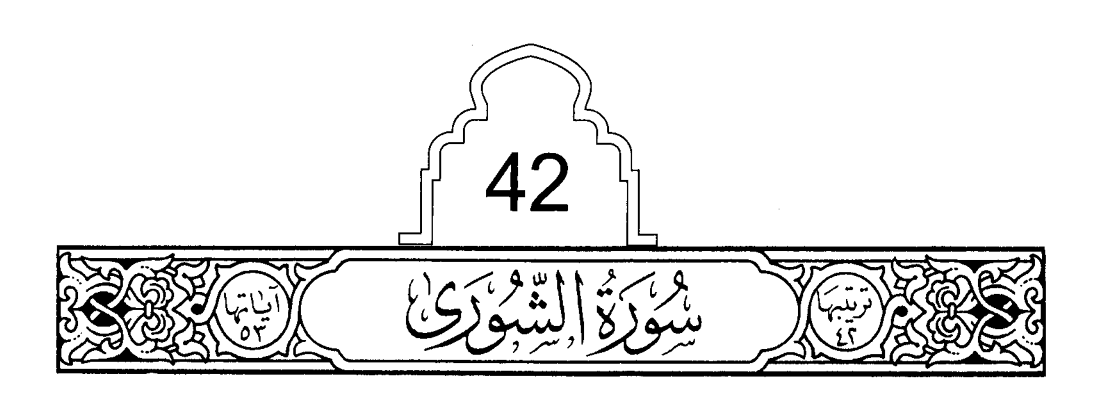
12 ـ إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج.

13 ـ آيات الآفاق والأنفس ماضية بالدلالة إلى قيام الساعة.

14 ـ ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً.

15 ـ الله تعالىٰ هو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر ليس بعده شيء، وهو الظاهر ليس فوقه شيء، وهو الباطن ليس دونه شيء.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (53) .

موضوع السورة

البشرى للمؤمنين ، والخذلان للطغاة الظالمين
والشورى ركن من أركان السياسة الشرعية عند المسلمين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله لهذا القرآن العظيم ، أنزله على رسوله الكريم .

2 ـ الملائكة يسبحون لله لا يفترون ، وللمؤمنين يستغفرون ، والمشركون لا يفلحون .

3 ـ تشريف الله نبيّه بهذ القرآن العربي المبين ، لينذر أهل مكة ومن حولهم يوم الحشر العظيم ، وأن الله لو شاء لهداهم أجمعين ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .

4 ـ الله تعالى هو الحكَمُ ، والحكمُ إليه والتقدير ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

5 ـ تبيانُ الله منهاج الدين الحق للمرسلين ، الذي ثقل وكبر على المشركين ، وما حصل التفرق إلا بسبب الاستكبار عن طاعة رب العالمين ، والله يجمع الخلق ليوم الحشر ثم يفصل بينهم وهو خير الفاصلين .

6 ـ ذمُّ الله أهل الجدال بالباطل وتوعدهم العذاب الأليم ، فالله تعالى أنزل الكتاب والميزان لفهم هذا الدين القويم ، والمشركون مستهترون بأمر الساعة والمؤمنون مشفقون من هول ذاك اليوم العظيم .

7 ـ لُطْفُ الله تعالى بعباده ورزقه لهم رغم معاصيهم ، وتوضيحه لهم السبيلين : سبيل سعادتهم وسبيل شقوتهم .

8 ـ بثُّ الله تعالى البشرى لعباده المؤمنين ليزدادوا إقبالاً عليه ، والرسول ﷺ لا يبتغي الأجر بدعوته إلا من الله الذي يعلم صدقه وإخلاصه إليه .

9 ـ امتنان الله تعالى على عباده قبول توبة التائبين ، وتجاوزه عن المستغفرين .

10 ـ المؤمنون يقبلون على ربهم ويستجيبون ، والكافرون ينفرون ويستكبرون .

11 ـ بَسْطُ الله الرزق لعباده بحكمته ، وإنزال الغيث لهم بفضله ورحمته .

12 ـ إثباتُ الخلق كله لله ، والمصائب هي عقوبات للمذنبين من الله .

13 ـ آيات البر والبحر دلالات للمستدلين ، ولا نجاة من العذاب إذا نزل بالقوم الظالمين .

14 ـ فناء زينة هذه الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير وأبقى للمؤمنين المتوكلين ، المجتنبين الكبائر والفواحش والمعظمين أوامر ربهم وإذا أصابهم البغي كانوا من المنتصرين ، فمن عفا وغفر وصبر فله أجر المحسنين .

15 ـ ضياعُ من أضلَّه الله ولم يوفِّقه للهداية ، والخاسرون هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وحُرموا الشفاعة والولاية .

16 ـ أمْرُ الله عباده المسارعة بالاستجابة له قبل مجيء يوم الأهوال فلا ملجأ ولا نصير ، وفرحُ الإنسان بالنعمة فإن مسّه الشر فيؤوس كفور .

17 ـ إثبات الملك كله لله وخلق الإناث والذكور ، أو التنويع فيهم وهو العليم القدير .

18 ـ تأكيد أمر الوحي لله العظيم ، يخاطب به من اصطفى وهو العلي الحكيم .

19 ـ امتنانُ الله تعالى على رسوله الكريم ، بالإيمان وبهذا الكتاب العظيم .

20 ـ إثبات أمر الهداية لله العزيز الحكيم ، وأمر البلاغ لرسوله الكريم .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 6. **قوله تعالى:** ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: انتصارٌ من الله الملك العظيم، لهذا الوحي الكريم، أنزله على رسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، والملائكة لله يسبحون لا يفترون، وللمؤمنين يستغفرون، والذين أشركوا بالله لا يفلحون.

فقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾. تقدم الكلام على أمثال ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وأن أهم ما تفيد هو الإعجاز والتحدي.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. انتصار لهذا القرآن العظيم. قال ابن جرير: (هكذا يوحي إليك يا محمد وإلى الذين من قبلك من أنبيائه ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تدبيره خلقه).

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

أي جميع ما في السماوات وما في الأرض تحت قهره وتصريفه، فالكل عبيدٌ له وملك له، وهو الشريف الرفيع الكبير المتعال. والتعالي: الارتفاع.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255]. والعظيم: هو الكبير. وتعظَّم: تكبَّر.

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: 62].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: 12].

وفي صحيح سنن ابن ماجة عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ تعارَّ من الليل، فقال حين يستيقظ: لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم دعا ربه: رب اغفر لي، غفر له][1].

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: [ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضُرْ أجلهُ فيقول سبعَ مرات: أسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يشفيك إلا عوفِيَ][2].

وقوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾. قال قتادة: (أي من عظمة الله وجلاله). قال السدي: (﴿ يَتَفَطَّرْنَ ﴾: يتشققن). وقال الضحاك: (يتصدعن من عظمة الله).

وقوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. قال ابن عباس: (والملائكة يسبحون له من عظمته). وقال السدي: (﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال: للمؤمنين. يقول الله عز وجل: ألا إن الله هو الغفور لذنوب مؤمني عباده، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها). قال بعض العلماء: (هَيَّبَ وعظَّم جل وعز في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء). وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: 7].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾. قال النسفي: (أي جعلوا له شركاء وأنداداً ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيب على أقوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء فيجازيهم عليها).

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾. أي: وما أنت ـ يا محمد ـ بموكل عليهم

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (3878) ـ كتاب الدعاء. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3128)، باب ما يدعو به إذا انتبه من الليل، ورواه البخاري بنحوه.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2/ 1698)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 391 ـ 392) في تفصيل معاني الأسماء والصفات.

ولا مفوض إليك إحصاء أعمالهم ، وإنما أنت منذر فبلغهم ما أرسلت به إليهم.

7 ـ 9. **قوله تعالى** : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ .

في هذه الآيات : تشريف الله تعالى نبيّه ﷺ بهذا القرآن العربي المبين ، لينذر به أهل مكة ومن حولهم يوم الحشر العظيم ، ولو شاء الله لهداهم أجمعين ، ولكن حقت كلمة الخزي والذل على الظالمين.

فقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ . قال ابن كثير : (يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ، أي : واضحاً جلياً بيّناً) .

وقوله : ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ . قال السدي : (مكة). وقال النسفي : (أي مكة لأن الأرض دحيت من تحتها ، أو لأنها أشرف البقاع والمراد أهل أم القرى) .

قلت : وفي لغة العرب ـ أم كل شيء أصله ومركزه ، فسميت مكة أم القرى لأنها توسطت الأرض ، فجمعت بين الوسطية والمكانة والشرف.

أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح عن محمد بن مسلم ، أنه قال : إن أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أخبره ، أن عبد الله بن عدي بن الحمراء قال له : رأيت رسول الله ﷺ ، وهو على ناقته ، واقف بالحَزْوَرَة يقول : [والله! إنَّك لَخَيْرُ أرضِ الله ، وأَحَبُّ أَرْضِ الله إليَّ. والله! لولا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ، ما خرجْتُ][1] .

وفي صحيح البخاري وسنن ابن ماجة عن صفيَّةَ بنت شيبة قال : سمعت النبي ﷺ يخطب عام الفتح ، فقال : [يا أيها الناسُ! إنَّ الله حَرَّمَ مَكَّةَ يومَ خلقَ السماوات

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (3108) ـ باب فضل مكة. انظر صحيح سنن ابن ماجة (2523). ورواه الترمذي في الجامع (3925) ، وأحمد في المسند (4/ 305) ، وابن حبان (3708) ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

والأرض. فهي حرامٌ إلى يوم القيامة. لا يُعْضَدُ شَجَرُها ، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُها ، ولا يأخُذُ لُقَطَتَها إلا منشِدٌ][1] .

وقوله: ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾. قال ابن جرير: (ومن حول أم القرى من سائر الناس). وقوله: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ ﴾. أي يوم القيامة. يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد. وقوله: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾. أي: لا شك في حدوثه ووقوعه.

وقوله: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾. قال القاسمي: (أي منهم فريق في الجنة ، وهم الذين آمنوا بالله ، واتبعوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ. وفريق في السعير ، أي النار الموقدة المسعورة على أهلها. وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله).

أخرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا لا إلاّ أن تُخْبِرَنا يا رسول الله ، فقال للذي في يده اليمنى ، هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرهم ، فلا يُزاد فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نعملُ إن كان هذا أمْراً قد فُرِغَ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سددوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قال بيده فقبضَها ، ثم قال: فرغ ربكم عز وجل من العباد ، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ، ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير][2] .

وفي صحيح مسلم من حديث علي مرفوعاً: [ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقيةً أو سعيدةً. فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، فقال: اعملوا فكل مُيَسَّرٌ ، أما أهل السعادة فيُيَسَّرون لعمل أهل السعادة ،

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح البخاري (1/ 317) ، وصحيح سنن ابن ماجة (2524).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2141) ، والنسائي في «الكبرى» (11473) ، وأحمد (2/ 167). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (46) ، وصحيح الجامع الصغير (88).

وأما أهل الشقاوة فييسَّرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾][1].

وفي مسند أبي يعلى بإسناد حسن عن أنس مرفوعاً: [إنَّ الله عز وجل قبض قبضة فقال: في الجنة برحمتي، وقبض قبضة فقال: في النار ولا أبالي][2].

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ ـ مرفوعاً: [إنَّ الله عز وجل خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر][3].

وقد بسطت هذا المفهوم وأنواع الكتابة في اللوح المحفوظ في أبحاث القدر في كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ـ فلله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. قال الضحاك: (أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾. قال أنس بن مالك: (في الإسلام). وقوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. أي يدخل خلقه كلهم الجنة إلا ما لا خير فيهم: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ أي: الكافرون، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: شافع، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: دافع.

وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾. إنكار من الله تعالى على المشركين اتخاذهم آلهة من دون الله، وإخبارٌ أنه سبحانه هو الولي الحق الذي لا يستحق أحد العبادة غيره.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. أي: وهو القادر على إحياء خلقه بعد موتهم، وهو القادر على كل شيء فلا يعجزه شيء.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 46 ـ 47)، وانظر مختصر صحيح مسلم (1844).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (171/ 2)، وابن عدي في «الكامل» (66/ 2)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (47).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 186)، وابن حبان (1806)، ورواه الحاكم (1/ 31) وقال: صحيح. ووافقه الذهبي. وأقره الألباني في «الصحيحة» (48).

10 ـ 12. **قوله تعالى:** ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٢﴾.

في هذه الآيات: إنَّ الله تعالى هو الحَكَمُ وإليه الحُكْم والتقدير، فاطر السماوات والأرض خالق الأزواج من البشر والأنعام ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وبأمره تصريف الأقدار والأرزاق وهو على كل شيء قدير.

فعن مجاهد: (﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾. قال مجاهد: فهو يحكم فيه). أي: له الحكم فيه سبحانه في كتابهِ وسنة نبيه ﷺ، فإن الدين قد اكتمل بهما، وأحكام الشريعة قد بُنِيَت جميعها على هذين الأصلين العظيمين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: 36].

3 ـ وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65].

وفي جامع الترمذي وسنن ابن ماجة عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحديثُ عَنِّي وهو مُتَكِئٌ على أريكتِه، فيقول: بَيْنَنَا وبينكم كِتابُ الله، فما وجدنا فيه حلالاً اسْتَحْلَلْناه، وما وجدنا فيه حراماً حَرَّمناه، وإن ما حَرَّمَ رسول الله ﷺ كما حَرَّم الله][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي ـ أبواب العلم ـ. انظر صحيح الترمذي (2146)، ورواه ابن ماجة في السنن (12)، وانظر كذلك الحديث (13) منه.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾. أي: هو الحكم سبحانه في كل شيء.

وفي صحيح سنن أبي داود من حديث هانئ مرفوعاً: [إنّ الله هو الحكم، وإليه الحكم][1].

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. قال ابن جرير: (﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في أموري وإليه فوضت أسبابي وبه وثقت. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: وإليه أرجع في أموري وأتوب من ذنوبي).

وقوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قال السدي: (خالق ـ السماوات والأرض ـ). وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾. قال مجاهد: (نسْلاً بعد نسل). قال القرطبي: (وإنما قال ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لأنه خلق حوّاء من ضلع آدم). وقال القاسمي: (﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي نساء).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾. أي أصنافاً مختلفة، من الإبل والبقر والغنم وغيرها، ذكوراً وإناثاً.

وقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾. أي يخلقكم فيه ـ على تلك الصفة من الذكران والإناث ـ خلقاً بعد خلق، وجيلاً بعد جيل. قال مجاهد: (نسل بعد نسل من الناس والأنعام). وقال السدي: (﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: يخلقكم). وقال ابن عباس: (يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها)، قال النسفي: (﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثركم، يقال: ذرأ الله الخلق بثهم وكثرهم ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير، وهو أن يجعل الناس والأنعام أزواجاً حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل).

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾. قال الواسطيّ: (ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ).

قلت: وأدخل المثل في الكلام توكيداً للكلام، وكذلك بالكاف، وهما بمعنى واحد. وذهب بعضهم إلى أن الكاف في قوله: ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾ صلة زيدت للتوكيد. فيكون مثله خبر ليس واسمها شيء، وهذا وجه قوي تعرفه العرب.

ثم إن صفات الله عز وجل تثبت على التفصيل وتنفى على وجه الإجمال. فالإثبات المفصل كإثبات السمع والبصر وسائر الصفات، والنفي المجمل كنفي المثلية في قوله

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955). انظر: صحيح سنن أبي داود (4145).

تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. رد على المعطلة، كما إن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ردٌّ على المشبهة. قال ابن جرير: (﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: السميع لما تنطق به خلقه من قول، البصير لأعمالهم).

قوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. قال مجاهد: (مفاتيح بالفارسية). وقال السدي: (خزائن السماوات والأرض). قال النحاس: (والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن). ويقال للمفتاح: إقليد، وجمعه على غير قياس، كمحاسن والواحد حسن ـ حكاه القرطبي.

والخلاصة: مفاتيح خزائن السماوات والأرض بيده سبحانه، وهي نوعان: مفاتيح الخير والشر، ومغاليق الخير والشر. فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾. قال القاسمي: (أي يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويغنيه، ويقتّرُ على آخرين).

وقوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. أي في التوسيع والتقتير، وفيما يصلح لخلقه وما يفسد، وفي كل شيء غير ذلك، فله كمال العلم والحكمة والعدل جل ثناؤه.

13 ـ 15. **قوله تعالى**: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: تبيانُ الله منهاج الدين الحق للمرسلين، الذي ثقل وكبر على

المشركين ، وما حصل التفرق والتمزق إلا بسبب الاستكبار عن طاعة رب العالمين ، والله يجمع الخلق ليوم الحشر ثم يفصل بينهم وهو خير الفاصلين.

فقوله: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾.

شرع: أي نهج وأوضح وسَنَّ وَبيَّن المسالك. قال مجاهد: (قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾: ما أوصاك به وأنبياءه كلهم دين واحد). وعن السدي قال: (هو الدين كله). وقال: (﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾: اعملوا به). قال قتادة: (بعث نوح حين بعث بالشريعة بتحليل الحلال ، وتحريم الحرام ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾).

قال ابن جرير: (﴿۞ شَرَعَ لَكُم﴾ ربكم أيها الناس من الدين ما وصينا به نوحاً أن يعمله ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد. قال: شرع لكم من الدين أن أقيموا الدين). قال: (فمعلوم أن الذي أوصى به جميع هؤلاء الأنبياء وصية واحدة وهي إقامة الدين الحق ولا تتفرقوا فيه). قال القرطبي: (﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ وهو توحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء ، وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلماً. ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسن أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ، قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]).

وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾. قال قتادة: (تعلّموا أن الفرقة هلكة وأن الجماعة ثقة).

وقال التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: 31 ـ 32].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث ، منها:

الحديث الأول: يروي الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة ، ويد الله على الجماعة][1].

الحديث الثاني: يروي أبو نعيم في «الحلية» بإسناد صحيح عن أبي هريرة قال: قال

(1) حديث صحيح. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (173) ، وصحيح الجامع الصغير (1844).

رسول الله ﷺ: [آمركم بثلاث وأنهاكم عن ثلاث، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وتسمعوا وتطيعوا لمن ولاه الله أمركم. وأنهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال](1).

الحديث الثالث: يروي عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند حسن عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: [من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب](2).

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾. أي كبر على مشركي قومك يا محمد، ومن سيمضي على منهاجهم في الكفر والكبر، ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله وإفراده بالألوهية والتعظيم، والبراءة مما سواه من الآلهة والأنداد والطواغيت.

وعن قتادة: (﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ قال: أنكرها المشركون، وكبر عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، فصادمها إبليس وجنوده، فأبى الله تبارك وتعالى إلا أن يمضيها وينصرها ويفلجها ويظهرها على من ناوأها).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾. قال مجاهد: (يقول: ويوفق للعمل بطاعته واتباع ما بعث به نبيه عليه الصلاة والسلام مِنَ الحق مَنْ أقبل إلى طاعته وراجع التوبة من معاصيه). وعن السدي: (﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾: من يُقبل إلى طاعة الله).

وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾. قال معمر عن قتادة: (إياكم والفرقة فإنها هلكة ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ يقول: بغياً من بعضكم على بعض، وحسداً وعداوة على طلب الدنيا).

قال النسفي: (﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ أي أهل الكتاب بعد أنبيائهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ إلا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلال وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء عليهم السلام ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً وطلباً للرياسة والاستطالة بغير حق).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (12)، وبعض أجزاء الحديث في الصحيحين.
(2) حديث حسن. انظر مسند أحمد (5/ 211 ـ 212)، وسنن أبي داود (2/ 290)، ومسند الطيالسي (2491)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (417).

وقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. قال السدي: (يوم القيامة). أي: ولولا ما سبق في قضاء ربك يا محمد أن لا يعاجلهم بالعذاب بل يؤخره إلى يوم القيامة ﴿ لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: لأهلكوا حين تفرقوا لعظم ما اقترفوا.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾. قال السدي: (اليهود والنصارى). قال ابن كثير: (يعني: الجيل المتأخِّر بعد القرن الأول المكذِّب للحق ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أي: ليسُوا على يقين من أمرهِم، وإنما هم مُقلِّدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا بُرهان، وهُم في حيرةٍ من أمرهم وشك مريب، وشقاق بعيد).

وقوله: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ ﴾. أي: فإلى ذلك الدين الحق الذي شرع لكم ووصّى به نوحاً وأوحاه إليك يا محمد فادع عباد الله واستقم على العمل به، ولا تتبع سبل الذين عاشوا على الشك والتكذيب وتعظيم الجاهلية وأهواء النفوس من بقية الأمم السابقة.

وقوله: ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ ﴾. أي بكل كتاب ثبت تنزيله من الله توراة كان أو إنجيلاً أو زبوراً أو صحف إبراهيم أو قرآناً، فإن المتفرقين كانوا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ﴾. قال قتادة: (أمر نبيّ الله ﷺ أن يعدل، فعدل حتى مات صلوات الله وسلامه عليه، والعدل ميزان الله في الأرض، به يأخذ للمظلوم من الظالم، وللضعيف من الشديد، وبالعدل يصدّق الله الصادق، ويكذّب الكاذب، وبالعدل يردّ المعتدي ويوبّخه).

أخرج البزار والبيهقي بسند حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال: [ثلاثٌ مهلكات، وثلاثٌ منجياتٌ، فقال: ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌّ مطاع، وهوى مُتَّبَعٌ، وإعجاب المرءِ بنفسه. وثلاث مُنْجيات: خشيةُ الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا][1].

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ ﴾. قال ابن عباس ومجاهد: (الخطاب لليهود، أي لنا ديننا ولكم دينكم).

---

(1) حديث حسن. أخرجه البزار (رقم ـ 80)، وأبو نعيم في «الحلية» (2/ 343)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 382/ 1)، من حديث أبي هريرة. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1802).

والمعنى: إنه لا معبود بحق إلا الله لا إله غيره، نقر له بالألوهية ونسجد له اختياراً، ومن أبى منكم فليعلم أن من أهمل السجود له باختياره سجد له إجباراً، ونحن برآء من عملكم ومنهاجكم. كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41].

وكقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. وهي سورة الولاء والبراء يصف الله بها منهاج المؤمنين في براءتهم من منهاج أهل الكفر والمشركين. وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة.

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾. قال مجاهد وابن زيد: (لا خصومة بيننا وبينكم).

قال القاسمي: (أي لا خصومة ولا محاجة بعد هذا، لأن الحق قد ظهر، ولم يبق للمحاجة حاجة، ولا للمخالفة محل سوى المكابرة).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. أي: يجمع الله بيننا يوم القيامة فيقضي بالحق فيما اختلفنا فيه، فإنه إليه المعاد والمآل والمرجع لنوال الثواب أو نكال العقاب.

16 ـ 18. **قوله تعالى**: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝١٨﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالى أهل الضلالة الذين يجادلون من استجابوا للحق وتوعُّدُهم العذاب الأليم، فالله تعالى أنزل الكتاب والميزان لفهم هذا الدين القويم، فالمشركون مستخفّون بأمر الساعة والمؤمنون مشفقون من هول ذاك اليوم العظيم.

فعن ابن عَباس: (قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. قال: هم أهل الكتاب كانوا يجادلون

المسلمين ، ويصدونهم عن الهدى من بعد ما استجابوا لله . وقال : هم أهل الضلالة كان استجيب لهم على ضلالتهم وهم يتربصون بأن تأتيهم الجاهلية) .

وعن مجاهد : (﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ﴾ ، قال : طمع رجال بأن تعود الجاهلية ، بعدما دخل الناس في الإسلام) . قال قتادة : (هم اليهود والنصارى حاجّوا أصحاب نبيّ الله ﷺ فقالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبيّنا قبل نبيّكم ، ونحن أولى بالله منكم) . وفي رواية : (ونحن خير منكم) .

والآية توعّدٌ للذين يصدون عن سبيل الله بعد ظهور حجة الوحي البالغة بإبطال حججهم عند الله وأليم العذاب يوم القيامة .

وقوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ . قال قتادة : (الميزان : العدل فيما أمر به ونهى عنه) . أي : الله تعالى أنزل القرآن وسائر الكتب المنزلة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بالصدق ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ أي بالعدل .

قال القرطبي : (والعدل يسمى ميزاناً ، لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل . وقيل : الميزان ما بيّن في الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به . وقيل : هو الجزاء على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . وقيل : إنه الميزان نفسه الذي يوزن به ، أنزله من السماء وعلّم العباد الوزن به ، لئلا يكون بينهم تظالم وتباخس) .

قلت : والأقوال السابقة متقاربة متكاملة ، مفادها أن الله تعالى أنزل الميزان الذي هو مقياس العدل الذي يوزن به الحقوق ويسوّى به الخلاف سواء في الدنيا أو في الآخرة .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : 25] .

2 ـ وقال تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : 7 ـ 9] .

3 ـ وقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] .

4 ـ وقال تعالى : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 8 ـ 9] .

وفي صحيح الحاكم عن سلمان ، عن النبي ﷺ قال: [يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب ، لِمَنْ يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانكَ ما عبدناك حق عبادتك][1].

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾. قال ابن كثير: (فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها ، وتزهيدٌ في الدنيا).

وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾. قال النسفي: (استهزاء). وهو إلحاحهم بالقول: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تنطعاً واستكباراً ، وتكذيباً واستبعاداً.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾. أي: خائفون وجلون عند ذكرها لاستقصار حيلتهم وثقتهم بعملهم ، مع ما يبذلونه من الجهد في الطاعة والاجتهاد في العبادة. كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60] ، ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ألا إن الذين يخاصمون في قيام الساعة ويجادلون فيه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقول: لفي جور عن طريق الهدى ، وزيغ عن سبيل الحق والرشاد ، بعيد من الصواب).

19 ـ 22. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(1) إسناده جيد. أخرجه الحاكم (4/ 586) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: لُطف الله تعالى بعباده ورزقه لهم رغم معاصيهم ، وتوضيحه السبيلين لهم: فمن أراد الحق وإعزاز الدين ذلّل له طريق ذلك ، ومن أراد الدنيا وشهواتها أعطاه منها ، فالمؤمنون في روضات الجنات يوم القيامة يتلذذون في ألوان النعيم ، والكافرون في دركات النار يقاسون في عذاب الجحيم.

فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾. قال ابن عباس: (حَفِيّ بهم). وقال عكرمة: (بارٌّ بهم). وقال السدّيّ: (رفيق بهم). وقال مقاتل: (لطيف بالبرّ والفاجر ، حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم). وقال القرظي: (لطيف بهم في العرض والمحاسبة. قال:

غداً عند مَوْلى الخلق للخلق موقف   يسائلهم فيه الجليل ويلطف).

وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين: (يلطف بهم في الرزق من وجهين: أحدهما ـ أنه جعل رزقك من الطيبات ، والثاني ـ أنه لم يدفعه إليك مرة واحدة فتبذره). وقال الحسين بن الفضل: (لطيف بهم في القرآن وتفصيله وتفسيره). وقال الجُنيد: (لطيف بأوليائه حتى عرفوه ، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه). وقيل: لطيف بمن لجأ إليه من عباده إذا يئس من الخلق توكل عليه ورجع إليه ، فإنه يقبله ويقبل عليه.

قلت: وجميع ما سبق داخل في آفاق لطفه سبحانه بعباده ، وفي مفهوم اسمه ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ فتبارك الله اللطيف الخبير.

وقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾. أي: يوسع رزق من شاء ، ويَحْرِم بحكمته من يشاء.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾. قال النسفي: (﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ الباهر القدرة الغالب على كل شيء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيع الذي لا يغلب).

وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾. الحرث: العمل والكسب. ومنه قول عبد الله بن عمرو: (احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً). قال السدي: (من كان يريد عمل الآخرة نزد له في عمله). قال القرطبي: (والمعنى: أي من طلب بما رزقناه حرثاً لآخرته ، فأدّى حقوق الله وأنفق في إعزاز الدِّين ، فإنما نعطيه ثواب ذلك للواحد عشراً إلى سبع مئة فأكثر. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي طلب بالمال الذي آتاه الله رياسة الدنيا والتوصل إلى المحظورات ، فإنا

لا نحرمه الرزق أصلاً ، ولكن لا حظّ له في الآخرة من ماله).

وعن ابن عباس: (﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ قال: يقول: من كان إنما يعمل للدنيا نؤته منها). قال قتادة: (من آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيباً في الآخرة إلا النار ، ولم نزده بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً قد فرغ منه وقسم له).

وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾. قال السدي: (للكافر عذاب أليم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: 18 ـ 19].

وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

ومن كنوز السنة الصحيحة في آفاق ذلك أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج الترمذي وابن حبان وابن ماجة ـ واللفظ للترمذي ـ عن أنس مرفوعاً: [من كانت الآخرة هَمَّهُ جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همَّهُ جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له][1].

ولفظ ابن ماجة وابن حبان إنما هو من حديث زيد بن ثابت مرفوعاً: [من كانت الدنيا همَّهُ ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الآخرة نيّته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة][2].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بإسناد حسن عن عبد الله: سمعت نبيّكم ﷺ يقول: [مَنْ جَعَل الهُمومَ هَمّاً واحِداً ، هَمَّ المعادِ ، كفاه الله هَمَّ دُنْيَاهُ. وَمَنْ تَشَعَّبَتْ به

(1) أخرجه الترمذي (2/ 76) ، وابن عدي في «الكامل» (ق 8/ 2) ، (129/ 1) ، ورواه البزار (زوائد البزار ـ ص 322). وانظر السلسلة الصحيحة (949).

(2) أخرجه ابن ماجة (2/ 524 ـ 525) ، وابن حبان (72) وإسناده صحيح رجاله ثقات.

الهمومُ في أحوال الدنيا ، لم يُبالِ الله في أيِّ أوديتِه هَلَكَ][1] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد وابن ماجة والترمذي وابن حبان بسند صحيح لشواهده عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله يقول: يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسُدَّ فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ، ولم أسُدَّ فقرك][2] .

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ . أي: أم لهؤلاء المشركين شركاء ابتدعوا لهم من الدين ما لم يبحه الله .

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ . قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ولولا السابق من الله في أنه لا يعجل لهم العذاب في الدنيا ، وأنه مضى من قيله أنهم مؤخرون بالعقوبة إلى قيام الساعة ، لفرغ من الحكم بينكم وبينهم بتعجيلنا العذاب لهم في الدنيا ، ولكن لهم في الآخرة من العذاب الأليم كما قال جل ثناؤه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول: وإن للكافرين بالله لهم يوم القيامة عذاب مؤلم مُوجع) .

وقوله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ . أي: ترى الكافرين ـ يا محمد ـ وجلين خائفين في أرض المحشر يخشون خبائث أعمالهم ، وهذا الذي يخافونه من صليهم سوء العذاب واقع بهم لا محالة .

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ . قال ابن عباس: (في رياض الجنة ونعيمها) .

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ . أي: مما تشتهيه أنفسهم ، وتلذه أعينهم . فهم اليوم في شغل فاكهون في ألوان المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناظر والمناكح والملاذ .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 55 ـ 58] .

---

(1) حديث حسن . أخرجه ابن ماجة (4106) ـ كتاب الزهد . انظر صحيح ابن ماجة (3314) .

(2) أخرجه الترمذي (3/ 308) ، وابن ماجة (2/ 525) ، وابن حبان (2477) ، وأحمد (2/ 358) ، وله شاهد عند الحاكم (4/ 326) بإسناد صحيح ، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3315) .

2 ـ وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: 17]

3 ـ وقال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: 70 ـ 71].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [قال الله عز وجل: أَعْدَدْت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطَرَ على قلب بشر][1].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾. أي الظفر العظيم، والنعيم الكريم، وكمال المنّ والسعة.

23 ـ 24. **قوله تعالى**: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٢٣ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٢٤ ﴾.

في هذه الآيات: بثُّ الله تعالى البشرى لعباده المؤمنين ليزدادوا إقبالاً عليه سبحانه وطاعة له، والرسول ﷺ لا يبتغي بدعوته الأجر من الناس بل من الله الغفور الشكور، وهو تعالى يعلم صدق رسوله ويعلم ما في الصدور.

فقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾. قال النسفي: (﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الفضل الكبير). قال القرطبي: (أي يبشر الله به عباده المؤمنين ليتعجلوا السرور ويزدادوا منه وجداً في الطاعة).

وقوله: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾. الخطاب لقريش خاصة. أي: قل يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة جعلاً، إلا أن تودُّوني لقرابتي فتحفظوني. قال ابن كثير: (أي: قُل ـ يا محمد ـ لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنُّصح لكم مالاً تُعطُونيه، وإنما أطلبُ منكم أن تكُفُّوا شرَّكم عني، وتَذَرُوني

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2824) ـ كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها.

أبلِّغ رسالة ربي ، إن لم تنصُروني فلا تُؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة).

أخرج البخاري في صحيحه والترمذي في جامعه عن عبد الملك بن مَيْسَرة قال: [سمعت طاووساً عن ابن عباس: أنه سُئِل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قُربىٰ آل محمدٍ. فقال ابن عباس: عَجِلْتَ ، إن النبي ﷺ لم يكُنْ بطنٌ من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال: إلا أن تَصِلُوا ما بيني وبينكم من القرابة][1].

ورواه أحمد والطبري عن طاووس قال: سأل رجل ابن عباس المعنى عن قول الله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فقال سعيد بن جبير: قربى محمد ﷺ. قال ابن عباس: عجلت. إن رسول الله ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا لرسول الله ﷺ فيهم قرابة ، فنزلت: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلا أن تصلوا قرابة ما بيني وبينكم. وفي لفظ الطبري: (إلا القرابة التي بيني وبينكم أن تصلوها).

وقوله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾. الاقتراف: العمل. قال ابن زيد: (من يعمل خيراً نزد له). قال القاسمي: (﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي يكتسب طاعة ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي بمضاعفته).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. أي غفورٌ لمن تاب ورجع خائفاً من ربه ، شكور للسعي الصادق بمضاعفة الحسنات والثواب. قال ابن زيد: (غفر لهم الذنوب ، وشكر لهم نعماً هو أعطاهم إياها ، وجعلها فيهم).

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾. قال السدي: (يطبع). وقال قتادة: (فينسيك القرآن). والمعنى: أم يقول هؤلاء المشركون إن محمداً افترى كذباً ، ولو افتريت كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون لطبع الله على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن.

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: 44 ـ 47]. أي لانتقمنا منه أشد الانتقام ، ولما استطاع أحد أن يمنع عنه أو يدفع العقاب.

وقوله: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ﴾. قال القاسمي: (استئناف مقرر لنفي

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3497) ، والترمذي (3251) ، والنسائي في «التفسير» (494). ورواه ابن جرير في «التفسير» (30663).

الافتراء عما يقوله عليه الصلاة والسلام ، بأنه لو كان مفترى لمحقه. إذ من سنته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. أي: إنه تعالى يعلم ما في صدور خلقه وما تنطوي عليه ضمائرهم ، ولا يخفى عليه من أحوالهم شيء.

25 ـ 28. **قوله تعالى:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالى على عباده بقبول توبة تائبهم وتجاوزه عن مستغفرهم فهو العليم بأفعالهم. فالمؤمنون يقبلون على ربهم ويستجيبون ، والكافرون ينفرون ويستكبرون ، والله يبسط الرزق بحكمته ، وينزل الغيث وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد.

فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. قال ابن عباس: (أي عن أوليائه وأهل طاعته). وحقيقة التوبة الرجوع إلى الله سبحانه ، مع معاينة الحسرة في القلب على ما كان من الزلل ، ورد الحقوق إلى أهلها ، والعزم على ألا يعود إلى ما كان سبباً في المعصية. قال محمد بن كعب القرظي: (يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سَيِّئ الإخوان).

قال ابن القيم رحمه الله: (وأول معاني التوبة: أن تنظر إلى ما كان من انخلاعك عن الاعتصام بالله حين إتيان الذنب وأن الله منع عصمته عنك ، وأن تنظر إلى ما كان من فرحك عند ظفرك بذلك الذنب. قال: فما خلّى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك وخلى بينك وبين نفسك ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلاً. قال: وتشتد الغفلة على مقارف الذنب حتى يفرح عند ظفره بشهوته المحرمة. . . وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها ، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً ، ولا يكمل بها فرحه بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه. قال: ومتى خلي قلبه من هذا الحزن واشتدت

غبطته وسروره فليتّهم إيمانه وليبْكِ على موتِ قلبه).

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن أبي سعيد الأنصاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له](1).

وفي صحيح البخاري ومسلم ومسند أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [للهُ أَشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحَدِكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة، فانفلتَتْ منه، وعَلَيْها طعامُه وشرابُه، فأَيِسَ منها، فأتى شجرةً، فاضْطَجَعَ في ظلِّها، قَدْ أَيسَ من راحلتِهِ، فبَيْنا هو كذلك إذْ هُوَ بها، قائمةً عندَهُ، فأخذَ بخِطَامِها، ثم قال من شِدَّةِ الفرح: اللهم! أنت عبدي وأنا ربُّكَ، أَخْطَأَ من شِدَّةِ الفرَح](2).

وقوله: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. قال النسفي: (وهو ما دون الشرك، يعفو لمن يشاء بلا توبة). وقال القرطبي: (﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي عن الشرك قبل الإسلام). قال ابن كثير: (أي: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفو عن السيئات في الماضي).

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. أي من الخير والشر، من الأقوال والأعمال.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. قال ابن عباس: (يشفّعهم في إخوانهم). وقال السدي: (يعني يستجيب لهم). أي يستجيب سبحانه الدعاء لأهل الإيمان والعمل الصالح ولأصحابهم وإخوانهم.

وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ﴾. قال ابن عباس: (يشفّعهم في إخوان إخوانهم). وقيل: يعطيهم ما لم يسألوه. وقيل: يزيدهم على ما سألوه.

وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. أي: والكافرون في عذاب مؤلم موجع يوم معادهم.

وقوله: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ﴾.

أخرج ابن جرير في «التفسير» والطبراني ورجاله رجال الصحيح عن أبي هانئ قال: سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون: [إنما نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ﴾ ذلك بأنهم قالوا لو أن

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني وأبو نعيم في «الحلية». انظر صحيح الجامع (6679).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6309)، ومسلم (2747)، وأحمد (3/ 213)، وغيرهم.

لنا فتمنوا][1]. وفي لفظ الطبراني: (لأنهم تمنوا الدنيا).

وعن قتادة: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ قال: : (كان يقال: خير الرزق ما لايُطغيكَ ولا يُلهيك).

وقوله ﴿ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴾. قال ابن جرير: (إن الله بما يصلح عباده ويفسدهم من غنى وفقر وسعة وإقتار. . . ذو خبرة وعلم، بصير بتدبيرهم وصرفهم فيما فيه صلاحهم).

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾. قال مجاهد: (يئسوا). والمقصود: وهو سبحانه الذي يكرم عباده بنزول المطر من بعد إياسهم، فينزل عليهم في وقت حاجتهم إليه. والآية كقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ [الروم: 49].

وقوله: ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾. قال السدي: (المطر). وقيل: ظهور الشمس بعد المطر ـ ذكره المهدوي. وقال قتادة: (ذُكِرَ لنا أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين! قحط المطر وقنط الناس. قال: مُطِرْتُم (وفي رواية: مطروا إذن) ثم قرأ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾).

قال النسفي: (﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ أي بركات الغيث ومنافعه، وما يحصل به من الخصب).

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾. أي هو المتصرف لخلقه بما فيه اجتماع مصالحهم فيليهم بإحسانه وفضله، ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي المحمود بأياديه عندهم ونعمه فيهم وبجميع ما يقدّره ويفعله.

29 ـ 35. قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» (30697)، ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. ورواه الحاكم وصححه وأشار الذهبي أنه على شرط الشيخين. وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الشورى ـ آية (27).

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إثباتُ الخلق كله لله ، والمصائب عقوبات للمذنبين من الله ، والجميع تحت حكمه سبحانه ، ويريهم آياته في البر والبحر ليعلموا أنه الحق وأن ما يجادلون فيه هو الباطل ، ولا نجاة ولا مفر للمشركين إذا نزل العذاب وجاء أمر الله .

فقوله : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ . قال مجاهد : (الناس والملائكة) . قلت : بل يشمل ذلك الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ولغاتهم وطبائعهم وتوزعهم في أرجاء السموات والأرض . فَخَلْقُ جميع ذلك يدل أنه تعالى القادر على إحيائكم ـ أيها الناس ـ بعد فنائكم .

وقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ . قال ابن جرير : (فكذلك هو القادر على جمع خلقه بحشر يوم القيامة بعد تفرق أوصالهم في القبور) .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ . قال ابن عباس : (يعجل للمؤمنين عقوبتهم بذنوبهم ولا يؤاخذون بها في الآخرة) .

وقال قتادة : (ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : لا يُصيب ابنَ آدم خَدْشُ عُودٍ ، ولا عَثْرَةُ قَدَم ، ولا اختِلاجُ عِرْقٍ إلا بذنب ، وما يعفو عنه أكثر) .

قلت : والذي ذكر قتادة جاء نحوه بإسناد صحيح . فقد أخرج الطبراني في «المعجم الصغير» بسند حسن عن البراء بن عازب مرفوعاً : [ما اخْتَلَجَ عِرْقٌ ولا عَيْنٌ إلا بِذَنْبٍ ، وما يدفَعُ الله أكثر][(1)] .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . أي حيثما كنتم فإنكم في سلطانه وقبضته تعالى . وقوله : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ . أي ما لكم من دونه سبحانه متول بالرحمة ولا ناصر يدفع عنكم عذابه إذا نزل بكم ، فاحذروا أيها الناس سخطه .

---

(1) حديث حسن . رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (1053) ، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (2/ 247) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2215) .

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾. الجواري: جمع جارية، وهي السائرة في البحر. قال مجاهد والسدي: (الجواري: السفن). وعن مجاهد: (﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ قال: كالجبال).

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾. قال قتادة: (سفن هذا البحر تجري بالريح، فإن أمسكت عنها الريح ركدت). قال ابن عباس: (﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ يقول وقوفاً). وقال السدي: (لا تجري).

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. أي: إن في جري هذه السفن في البحر بقدرة الله وتسخيره الريح لعبرة وحجة تدل على وجوب تعظيمه تعالى وحده لا شريك له، وإنما يستفيد من ذلك كل ذي صبر على طاعة الله، ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه وأياديه عنده.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾. قال ابن عباس: (﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يقول: يهلكهن). قال قتادة: (﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي بذنوب أهلها). والمقصود: يهلكهن بالغرق. وجزم ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ عطفاً على ﴿يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾. والمعنى: أو يهلك هذه السفن بإغراقها وأهلها بما كسبت ركبانها من الذنوب، واجترحوا من الآثام.

وقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾. أي: وإنما يصفح تعالى ويتجاوز بعفوه وكرمه عن كثير من ذنوبكم فلا يعاقب عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾. قال السدي: (ما لهم من ملجأ). أي: ويعلم الذين يخاصمون رسوله محمداً ﷺ من المشركين في حججه وآياته ووحيه العزيز أن لا محيدَ لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا، ما لهم من ملجأ يلجؤون إليه إذا حَلَّ بهم عذابنا.

وقوله: ﴿مَّحِيصٍ﴾ مأخوذ من قولهم: فلان يحيص عن الحق أي يميل عنه. وحاص به البعير حيصة إذا رمى به. قال الرازي: (حاص عنه: عدل وحاد. يقال ما عنه ﴿مَّحِيصٍ﴾ أي محيد ومَهْرب).

وقرأ قراء المدينة: ﴿ويعلمُ﴾ بالرفع على الاستئناف. في حين قرأها قراء الكوفة والبصرة ﴿ويعلمَ﴾ بالنصب على العطف على تعليل مقدر، أو على إضمار «أن». والتقدير: وليعلم أو لأن يعلم. والله تعالى أعلم.

36 ـ 43 . **قوله تعالى** : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: فناءُ زينة هذه الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند الله وأبقى للمؤمنين المتوكلين ، المجتنبين الكبائر والفواحش والمعظمين أوامر ربهم وإذا أصابهم البغي كانوا من المنتصرين ، فمن صبر وعفا وغفر كان من المحسنين .

فقوله : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ . قال القرطبي : (﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ يريد من الغنى والسعة في الدنيا . ﴿ فَمَتَٰعُ ﴾ أي فإنما هو متاعٌ في أيام قليلة تنقضي وتذهب ، فلا ينبغي أن يتفاخر به . والخطاب للمشركين) .

وقوله : ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ . قال القاسمي : (﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي من ثوابه الأخروي ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ وذلك لخلوصه عن الشوائب ودوامه ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي في أمورهم وقيامهم بأسبابهم) .

وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ . قال ابن عباس : (كبير الإثم هو الشرك) . وقال السدي : (الفواحش : الزنى) . قال النسفي : (﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ قيل ما عظم قبحه فهو فاحشة كالزنا) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ . أي يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم أو أساء إليهم . وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾ . أي أجابوا ربهم حين دعاهم إلى توحيده والبراءة مما يعبد من دونه . قال عبد الرحمن بن زيد : (هم الأنصار بالمدينة ، استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيباً منهم قبل الهجرة) .

وقوله : ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ . أي أدّوها لمواقيتها بشروطها وهيئاتها .

وقوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾. أي إذا حزبهم أمر تشاوروا بينهم.

يقول «سيد» في «الظلال» (5/ 3160): (وهنا في هذه الآيات يصور خصائص هذه الأمة التي تطبعها وتميزها، ومع أن هذه الآيات مكية نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن يكون نظاماً سياسياً للدولة، فهو طابع أساسي للجماعة كلها يقوم عليه أمرها كجماعة، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة).

قال البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ من صحيحه ـ باب قول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: 38]. ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: 159]. قال: (وإنَّ المشاورة قبل العزم والتبيّن لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 159] فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله. وشاور النبي أصحابه يوم أُحُدٍ في المُقام والخُروج، فرأوا له الخروج، فلما لبِسَ لأْمَتَهُ وعزم قالوا: أقِمْ، فلم يَمِل إليهم بعد العَزْمِ وقال: «لا ينبغي لِنبيّ يَلْبَسُ لأْمَتَهُ فيضَعُها حتى يحكم الله». وشاور علياً وأسامة فيما رمى به أهل الإفك عائشة، فسمعَ منهما حتى نزل القرآن فجلدَ الرّامين، ولم يلتفِت إلى تنازُعِهم ولكنْ حكم بما أمره الله).

فالشورى: هي استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للتوصل إلى أقرب الأمور للحق. قال تعالى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: 159]. أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: (قد علم الله أنه ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستن به من بعده)[1].

وقال الضحاك بن مزاحم: (ما أمر نبيه ﷺ بالمشورة إلا لما علم فيها من الفضل).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة، ويدُ الله على الجماعة][2].

وقوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾. أي: ومما أعطيناهم يتصدقون.

---

(1) أورده في فتح الباري (13/ 340) ـ وقال ابن حجر: إسناده حسن. وانظر لأثر الضحاك بعده تفسير الإمام الطبري (7/ 345).

(2) حديث صحيح. انظر تخريج «السنة» ـ لابن أبي عاصم ـ (80)، وانظر كذلك: صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1844).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا).

وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾. قال القاسمي: (أي وجزاء سيئة المسيء ما ماثلها. إذ النقصان حيف والزيادة ظلم). قال النسفي: (فالأولى سيئة حقيقية والثانية لا، وإنما سميت سيئة لأنها مجازاة السوء، أو لأنها تسوء من تنزل به، ولأنه لو لم تكن الأولى لكانت الثانية سيئة لأنها إضرار، وإنما صارت حسنة لغيرها، أو في تسمية الثانية سيئة إشارة إلى أن العفو مندوب إليه).

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (من ترك القصاص وأصلح بينه وبين الظالم بالعفو). وقال مقاتل: (فكان العفو من الأعمال الصالحة).

وفي جامع الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري مرفوعاً: [ولا ظُلم عبدٌ مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجلّ عِزاً][1]. وفي لفظ لأحمد: [فاعفوا يزدكم الله عزاً].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. قال سعيد بن جبير: (أي مَنْ بدأ بالظلم). وقال ابن عيسى: (لا يحبّ مَن يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحدّ).

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾.

قال القرطبي: (دليلٌ على أن له أن يستوفي ذلك بنفسه). وقال القاسمي: (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي للمعاقب، ولا للعاتب والعائب. لأنهم انتصروا منهم بحق. ومن أخذ حقه ممن وجب ذلك له عليه، ولم يتعد ولم يظلم، فكيف يكون عليه سبيل؟).

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: إنما السبيل على الذين يبدؤون الناس بالظلم والإضرار، أو يعتدون في الانتقام، ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يتكبرون فيها ويشيعون الفساد.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أي: مقابل ظلمهم وعتوهم وبغيهم وإفسادهم.
وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، والترمذي (2325) في السنن، وانظر صحيح سنن الترمذي (1894)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3022).

قال سعيد بن جبير: (يعني لمن حَقِّ الأمور التي أمر الله بها). أي: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناءٌ جميل.

والمعنى: ولمن صَبَرَ على الأذى وسَتَرَ السيئة، ﴿وَغَفَرَ﴾: أي تَرَكَ الانتصار لوجه الله تعالى، فإن ذلك من معالي الأمور ورفيع الأعمال التي يحبها الله سبحانه ويجزي بها الأضعاف المضاعفة. وهذا فيمن ظلمه مسلم.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه: [أنَّ رجلاً شتَم أبا بكر والنبيُّ ﷺ جالسٌ، فجعل النبي ﷺ يَعْجَبُ ويَتَبَسَّم، فلما أكثر رَدّ عليه بعضَ قوله، فغضِبَ النبي ﷺ وقام، فَلَحِقَهُ أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كانَ يشتُمني وأنت جالسٌ، فلما رددتُ عليه بعضَ قوله غَضِبْتَ وقُمْتَ! قال: إنه كان معك مَلَكٌ يَرُدُّ عنك، فلما رَدَدت عليه بعضَ قولِه حَضَرَ الشيطانُ، فلم أكُنْ لأقْعُدَ مع الشيطان. ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ، ما من عبد ظُلِمَ بمظلمة فيُغْضِي عنها لله إلا أَعَزَّ الله بها نَصْرَهُ، وما فَتَحَ رَجُلٌ باب عَطِيَّةٍ يُريد بها صلةً إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرةً إلا زاده الله بها قِلَّةً»][1].

وفي مسند أحمد والبزار بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً: [ثلاثٌ أقسِمُ عليهن: ما نقَصَ مالٌ قطُّ من صَدَقة، فتصدّقوا، ولا عفا رجُلٌ عن مظلمةٍ ظُلِمَها إلا زاده الله تعالى بها عِزّاً، فاعفُوا يزدْكُم اللهُ عِزّاً، ولا فتحَ رجُلٌ على نفسه بابَ مسألةٍ يسألُ الناس إلا فتَحَ الله عليه بابَ فَقْر][2].

44 ـ 46. **قوله تعالى**: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 436)، وإسناده حسن لأجل ابن عجلان.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الغضب». انظر تخريج الترغيب (2/ 8)، وأخرجه أحمد والبزار. انظر صحيح الجامع الصغير (3022).

أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: ضياعُ مَنْ أضلَّه الله ولم يوفقه للهداية ، وشقاءُ الكفار عند رؤية نار جهنم يوم القيامة ، والخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وحُرموا الشفاعة والنصرة من الله والولاية .

فقوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : ومن خذله الله عن الرشاد ، فليس له من ولي يليه ، فيهديه لسبيل الصواب ، ويسدده من بعد إضلال الله إياه) .

وقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ .

قال السدي : (يقول : إلى الدنيا) . أي : وترى الكافرين بالله يا محمد يوم القيامة لما عاينوا عذاب الله المحقق بهم يطلبون من ربهم أن يُرَدُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله فلا يجابون إلى طلبهم .

وقوله : ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ . قال السدي : (﴿ خَـٰشِعِينَ ﴾ : خاضعين من الذل) . وقال ابن زيد : (قد أذلهم الخوف الذي نزل بهم وخشعوا له) .

وقوله : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ﴾ . قال ابن عباس : (يعني بالخفي الذليل) . وقال : (بطرف ذابل ذليل) . وقال قتادة : (يسارقون النظر من شدة الخوف) . قال ابن جرير : (ينظرون إلى النار من طرف ذليل ، وصفه الله جل ثناؤه بالخفاء للذلة التي قد ركبتهم ، حتى كادت أعينهم أن تغور ، فتذهب) . وقيل : أي يفزعون أن ينظروا إليها بجميع أبصارهم لما يرون من أصناف العذاب .

وقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ . قال السدي : (غبنوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) . قال القرطبي : (أي يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حَلَّ بالكفار : إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء ، فإنهم خسروا أنفسهم لأنهم في العذاب المخلّد ، وخسروا أهليهم لأن الأهل إن كانوا في النار فلا انتفاع بهم ، وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينه وبينهم) .

وقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ . أي دائم سرمدي لا يحول ولا يزول .

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾. أي: ولم يجدوا من يمنعهم من الله وحلول نقمته وصِلِيّ عذابه.

وقوله: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ﴾. أي: ومن يخذله الله عن طريق الحق فلا نجاة له.

47 ـ 48. **قوله تعالى**: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (48) ﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالى عباده المسارعة بالاستجابة له قبل مجيء يوم الأهوال فلا ملجأ ولا نصير، وفرحُ الإنسان بالنعمة فإن مسّه الشر فيؤوس كفور.

فقوله: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾. تحذير بعد تصوير، وأمر بالاستعداد ليوم القيامة بعد ذِكْرِ ما فيه من الأهوال على الكافرين والتعسير. قال ابن كثير: (﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾، أي: إذا أمر بكونه فإنه كَلَمْحِ البَصَر يكون، وليس له دافع ولا مانع).

وقوله: ﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾. قال مجاهد: (﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ ﴾: من مَحْرَز). أي: تلجؤون إليه. وعن السدي: (﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ يقول: من عزّ تعتزون). وقال مجاهد: (ناصر ينصركم). والمعنى: ما لكم من حِصْن يومئذ تتحصّنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكّرون فيه، فتغيبون عن بَصَرِهِ ـ تبارك وتعالى ـ. أو ما لكم من قدرة على إنكار شيء مما اقترفتموه ودُوِّنَ في صحائفكم.

وقوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾. أي: فإن أعرض هؤلاء المشركون ـ يا محمد ـ عن الحق الذي معك فدعهم، فلم نرسلك رقيباً عليهم تحفظ أعمالهم وتحصيها، بل عليك بلاغ الرسالة.

وقوله ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾. أي: فإنا إذا أغنينا الإنسان بسعة وعافية ورخاء ونعمة سُرَّ بالغنى وما أعطيناه من العافية وكثرة المال، وإن أصابتهم فاقة وفقر وضيق عيش أو مرض

عقوبة على معاصيهم أيس من الخير ، فالإنسان جحود لنعم الله ، يعدِّد المصائب وينسى النعم.

قال ابن جرير: (وإنما قال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ فأخرج الهاء والميم مخرج كناية جمع الذكور ، وقد ذكر الإنسان قبل ذلك بمعنى الواحد ، لأنه بمعنى الجمع).

قلت: وإنما يَسْلَمُ من هذه الصفة المذمومة المؤمن ، فإنه يحمد الله في السراء والضراء ، ويتذكر نعم الله عليه في الرخاء والشدة.

ففي صحيح مسلم من حديث صهيب مرفوعاً: [عجباً لأمر المؤمن ، إنَّ أمرهُ كُلَّهُ له خَيْرٌ ، وليسَ ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سَرَّاء شَكَر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صَبَرَ ، فكان خيراً له][1].

وفي مسند أحمد وسنن الدارمي بإسناد على شرط مسلم عن صهيب قال: [بينا رسول الله ﷺ قاعد مع أصحابه إذ ضحك ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ قال: عجبت لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير ، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير ، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن][2].

49 ـ 50. قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ الملك كله لله وخلق الإناث والذكور ، أو تنويعهم لبعض عباده وقد يجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير.

فقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾. أي: هو سبحانه الخالق المالك المتصرف وحده في عوالم السماوات والأرض ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وما شاء أعطى ، وما شاء منع.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾. قال مجاهد والحسن: (يهب

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2999) ـ كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير.
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 16) ، والدارمي (2/ 318) ، وإسناده صحيح على شرط مسلم. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (147).

لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهنّ ، ويهب لمن يشاء ذكوراً لا إناث معهم).

وقوله: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾. قال مجاهد: (يخلط بينهم ، يقول: التزويج: أن تلد المرأة غلاماً ، ثم تلد جارية ، ثم تلد غلاماً ، ثم تلد جارية). وقال ابن زيد: (أو يجعل في الواحد ذكراً وأنثى توأماً). قال القتبيّ: (التزويج هاهنا هو الجمع بين البنين والبنات ، تقول العرب: زوّجت إبلي إذا جمعت بين الكبار والصغار).

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾. قال قتادة: (لا يولد له). وقال ابن عباس: (يقول: لا يُلقِح). وأصل العقم في لغة العرب القطع ، يقال: مُلْك عقيم: أي تقطع فيه الأرحام بالقتل والعقوق خوفاً على الملك. وريح عقيم: أي لا تلقح سحاباً ولا شجراً. قال الرازي: (ويوم القيامة يومٌ عقيم لأنه لا يومَ بعدَه).

قال البَغَويُّ: (﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾: ومنهم لوط ـ عليه السلام ـ ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾: كإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ لم يولد له أنثى. ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾: كمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾: كيحيى وعيسى عليهما السلام).

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾. أي: إنه تعالى ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يناسب أحوال عباده في حياتهم أو ابتلائهم ، ﴿ قَدِيرٌ ﴾: على إحداث هذا التفاوت في طبيعة النسل الذي رزقهم ، بل هو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير.

51 ـ 53. **قوله تعالى**: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تأكيدُ أمر الوحي لله العظيم ، وامتنانُه تعالى بالكتاب والإيمان على رسوله الكريم ، وإثباتهُ تعالى أمر الهداية له والبلاغ لنبيه يدعو العباد إلى الصراط المستقيم.

فقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾. بيان لبعض مقامات الوحي بالنسبة لجناب الله عز وجل.

فإن أقسام الوحي كما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة كما يأتي:

القسم الأول: الرؤيا الصادقة في النوم.

فقد كانت بداية الوحي كذلك، فكانت البشائر ترد على نفس رسول الله ﷺ أثناء نومه، لتجيء الرؤيا كما رآها مثل فلق الصبح.

فقد خرّج البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: [أوّلُ ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحْي الرؤيا الصالحةُ في النَّوْم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْح][1].

القسم الثاني: هو ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه عليه الصلاة والسلام دون أن يراه. فإن الله تبارك وتعالى تارة يقذف في رُوع النبي ﷺ شيئاً لا يُتمارى فيه أنه من الله عز وجل.

فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ رُوحَ القدس نفثَ في رُوعي، أنّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدَكم استبطاءُ الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته][2].

القسم الثالث: هو تمثّل الملك رجلاً يخاطب النبي ﷺ حتى يعي عنه ما يقول له. وهذا القسم قد تكرر حتى رآه بعض الصحابة عياناً، وسمعوا منه أمام النبي ﷺ كما في حديث جبريل الذي هو في الصحيح وبعض السنن.

ففي صحيح مسلم عن عمر قال: [بَيْنَا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد...][3]. وفي لفظ ابن ماجة من حديث أبي هريرة: [كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل. وفيه قال عمر: فلقيني النبي ﷺ بعد ثلاث فقال: أتدري من الرجل؟

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3) ـ كتاب بدء الوحي، في أول حديث طويل.
(2) حديث صحيح. انظر تخريج: «مشكاة المصابيح» (15)، وصحيح الجامع الصغير (2081).
(3) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (8) ـ (9) كتاب الإيمان، وصحيح ابن ماجة (53 ـ 54).

قلت: الله ورسوله أعلم. قال: ذلك جبريل أتاكم يُعلمكم معالم دينكم].

القسم الرابع: مجيء الوحي أحياناً بشكل قاس كصلصلة الجرس.

يروي البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: [أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول][1].

القسم الخامس: مجيء الملك أحياناً في صورته الحقيقية التي خلقه الله بها.

ففي صحيح مسلم من حديث عائشة مرفوعاً: [﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾: إنما هو جبريل عليه السلام، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته مُنْهبِطاً من السماء سادّاً عِظَمُ خلقِه ما بين السماء إلى الأرض][2].

القسم السادس: كلام الله لنبيّه مباشرة دون واسطة.

وقد حدث ذلك ليلة المعراج بعد أن غادر جبريل في السماء السابعة وتابع نبينا ﷺ رقياً إلى سدرة المنتهى، فخاطبه ربه سبحانه هناك. كما في صحيح مسلم من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة. ثم قال له بعد التخفيف: يا محمد إنهن خمس صلوات كلَّ يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة][3].

القسم السابع: كلام الله لنبيّه مباشرة أثناء النوم.

فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعاً: [أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال يا محمدُ هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا، فوضع يده بين كتِفَيَّ، حتى وجدت بردها بين ثدييّ، فعلمت ما في السماوات وما في الأرض][4].

القسم الثامن: مجيء ملك غير جبريل يكلم النبي وهو يراه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2)، كتاب بدء الوحي.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (177) ـ كتاب الإيمان، في أثناء حديث طويل.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (162) ـ كتاب الإيمان.
(4) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2580)، وصحيح الجامع الصغير (59).

ففي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: [جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا الملكُ ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك: أمَلِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد! فقال رسول الله ﷺ: لا، بل عبداً رسولاً][1].

وأما قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾، فهو كما كُلِّم موسى ـ عليه السلام ـ فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحُجِبَ عنها.

وفي جامع الترمذي وسنن ابن ماجة عن جابر قال: [لقيني رسول الله ﷺ فقال: يا جابر ما لي أراك منكسراً؟ فقلت: يا رسول الله! استشهد أبي وترك عيالاً وديناً. فقال: ألا أبشرك بما لقي اللهُ به أباكَ؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: ما يكلم الله أحداً قط إلا من وراء حجابه، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً[2]. فقال: تمنّ عليّ أعطيكَ] الحديث[3]. وفي لفظ ابن ماجة: [ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب. وكلم أباك كِفاحاً].

قال ابن كثير: (ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا).

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾. أي: كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم السلام. قال السدي: (جبرائيل يأتي بالوحي).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. قال ابن جرير: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني نفسه جل ثناؤه: ذو علوّ على كل شيء وارتفاع عليه واقتدار. ﴿حَكِيمٌ﴾ يقول: ذو حكمة في تدبيره خلقه).

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾. يعني القرآن، أوحيناه إليك يا محمد، وحياً وَرَحْمَة من أمرنا. فعن قتادة، عن الحسن، في قوله: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ قال: (رحمة من أمرنا). وقال السدي: (وحياً من أمرنا). وإنما سمّاه روحاً لأنه تحيا به القلوب الميتة. قال الشهاب: (فهو استعارة أو مجاز مرسل، لما فيه من الهداية والعلم الذي هو كالحياة).

---

(1) حديث صحيح. رواه أحمد في المسند (2/ 231)، وابن حبان بسند صحيح. انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (1002).

(2) كفاحاً: أي مواجهة.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (2258)، وصحيح سنن الترمذي (2408).

وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾. أي على التفصيل الذي شرع لك ربك بعد ذلك وبيَّنَ لك آفاقه ومعالمه. وقيل: عنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل، وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي ـ حكاه النسفي.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾. أي: ولكن جعلنا هذا القران العظيم ضياء للناس، باشتماله على منهاج السعادة في الدارين.

وقوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾. قال السدي: (يعني القرآن). قال القرطبي: (أي من نختاره للنبوّة، كقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 74]).

قلت: بل الآية تعم كل من أصابه نور هذا الوحي فأبصر به منهاج النجاة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44]. والهداية هنا هي هداية التوفيق والإلهام.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. هذه هداية الدلالة والإرشاد. وهي هداية الرسل، والمعنى: وإنك لتدعو يا محمد إلى منهاج قويم وطريق مستقيم. قال السدي: (تدعو إلى دين مستقيم). وقال قتادة: (لكل قوم هاد). وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾. ـ صراط ـ بدل، ترجمة عن الصراط الأول. قال ابن كثير: (﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، أي: شرعه الذي أمَر به الله).

وقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. قال القاسمي: (أي خلقاً وملكاً). وقوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. قال ابن جرير: (ألا إلى الله أيها الناس تصير أموركم في الآخرة فيقضي بينكم بالعدل).

فإن قيل: أو ليست أمورهم في الدنيا إليه؟ قيل: هي وإن كان إليه تدبير جميع ذلك، فإن لهم حكاماً وولاة ينظرون بينهم، وليس لهم يوم القيامة حاكم ولا سلطان غيره.

فيكون المعنى: إن مآل الأمور للفصل والجزاء إليه سبحانه في الآخرة، فهو يحكم ولا معقب لحكمه، وهو أحكم الحاكمين.

أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح من حديث هانئ مرفوعاً: [إن الله هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكْم][1].

تم تفسير سورة الشورى
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955) ـ كتاب الأدب. والنسائي (5387) [4980] ، وانظر صحيح سنن أبي داود (4145).

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ من عاد مريضاً فقال سبع مرات: «أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك» إلا عافاه الله.

2 ـ أم القرى مكة ، سميت كذلك لأنها توسطت الأرض ، وأمّ كل شيء أصله ومركزه.

3 ـ إن الله عز وجل قبض قبضة فقال: في الجنة برحمتي ، وقبض قبضة فقال: في النار ولا أبالي.

4 ـ من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب.

5 ـ الميزان آلة الإنصاف والعدل. والعدل يسمى ميزاناً.

6 ـ من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همَّه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرَّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له.

7 ـ الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

8 ـ كبير الإثم هو الشرك ، والفواحش ماعظم قبحه فهو فاحشة كالزنا.

9 ـ إن الله تعالى لا يجمع هذه الأمة على ضلالة ، ويد الله على الجماعة.

10 ـ ما عفا رجل عن مظلمة ظُلِمَها إلا زاده الله تعالى عِزّاً ، فاعفوا يزدكم الله عِزّاً.

11 ـ عجباً لأمر المؤمن ، إنَّ أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

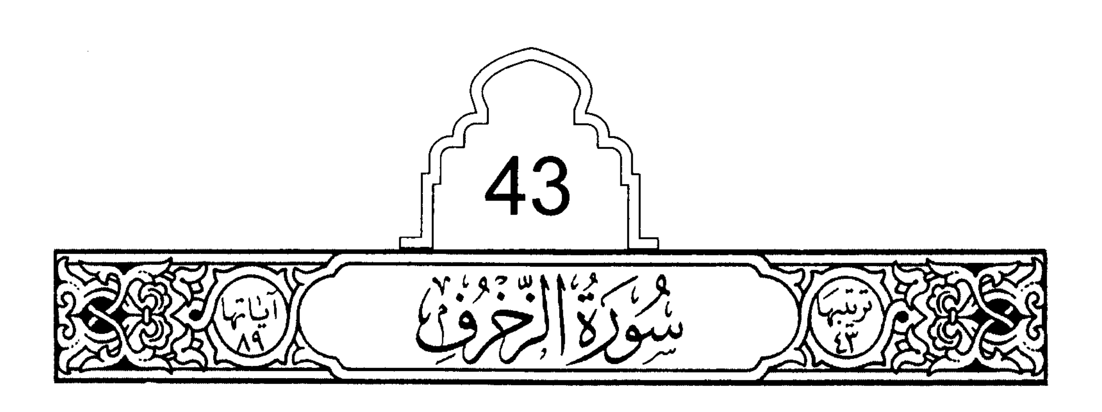
12 ـ يهب الله لمن يشاء إناثاً لا ذكور معهن ، ويهب لمن يشاء ذكوراً لا إناث معهم ، أو يخلط بين الجنسين ، وقد يجعل الرجل عقيماً.

13 ـ الروح هو الوحي تحيا به القلوب الميتة ، فالقرآن روح للمؤمنين .

14 ـ هداية الرسل هي هداية الدلالة والإرشاد ، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء ، فمن شاء أقامه ، ومن شاء أزاغه .

15 ـ إنَّ الله تعالى هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكْم .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (89).

ما ورد في ذكرها

أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الواحد بن سُليم قال: قدمت مكة ، فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت له: يا أبا محمد ، إن أهل البصرة يقولون في القدر ، قال: يا بني أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم ، قال: فاقرأ الزخرف ، قال: فقرأت: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ . قال: أتدري ما أم الكتاب؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السماء وقبل أن يخلق الأرض فيه: أن فرعون من أهل النار ، وفيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ .

قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ فَسألته ما كانت وصية أبيك عند الموت؟ قال: دعاني فقال: يا بني اتق الله واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله خيره وشره ، فإن مت على غير هذا دخلت النار. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ أوَّلَ ما خلقَ الله القلم ، فقال: اكتبْ ، قال: ما أكتب؟ قال: اكتُب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد](1) .

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1749) ـ أبواب القدر ـ باب (16).

موضوع السورة

استدراج الله الظالمين بزخرف الحياة الدنيا
إلى هوان وشقاء الحياة الآخرة

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله تعالى لهذا القرآن العربي المبين ، وبيان سنته تعالى في إهلاك المكذبين للرسل المعاندين للوحي الكريم.

2 ـ إقرار المشركين لله تفرده بالربوبية ، ومع ذلك يشركون به في الألوهية.

3 ـ امتنان الله على عباده إنزال الماء من السماء وخلق الأزواج وتسيير الفلك.

4 ـ إخبار الله تعالى عن افتراء المشركين ، واحتجاجهم بالقدر على شركهم ومكرهم واتباعهم سبيل الشياطين ، وتعظيمهم آبائهم الضالين.

5 ـ ثناء الله تعالى على خليله إبراهيم إمام الموحدين ، وذمّ المشركين الذين ضيعوا ملته ملة الدين القويم.

6 ـ قَسْمُ الله الرزق والأجل بين العباد ، وكذلك النبوة والحكم في البلاد.

7 ـ تسليطُ الله ظلمة الجن على ظلمة الإنس ببغيهم ، وتنافر الفريقين يوم الحشر وقضاء الله النافذ ـ في نار جهنم ـ بجمعهم.

8 ـ مهمة الرسل البلاغ المبين ، وأمر الهداية والتثبيت بيد الله العظيم.

9 ـ قصة موسى مع الطاغية فرعون رأس الكفر والطغيان ، وقصة عتوه وتمرده حتى أذاقه الله الخزي واللعنة والحرمان.

10 ـ ردُّ الله تعالى على قريش في قياسهم الفاسد بتشبيه الأنبياء والملائكة بالأصنام ، وخروج عيسى بن مريم آية من آيات الله آخر الزمان.

11 ـ تخويف الله عباده يوم القيامة يوم يخزي المجرمين ، ويتخلى الأخلاء بعضهم عن بعض والنجاة للمتقين.

12 ـ شقاء المجرمين في نار جهنم نار الجحيم ، فلا يفتر عنهم العذاب ولا هم يموتون.

13 ـ إثبات العبودية لله تعالى سواء في أهل السماء أو في أهل الأرض.

14 ـ تفرّد الله تعالى بأمر الساعة وكل إليه راجعون.

15 ـ لا يملك أحد يوم القيامة الشفاعة إلا بإذن الله العظيم ، والكافرون لن ينفعهم إقرارهم لله بالربوبية ثم هم به مشركون.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 8. **قوله تعالى:** ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: انتصارٌ من الله تعالى لهذا القرآن العربي المبين، وبيان سنته تعالى في إهلاك المكذبين للرسل المعاندين للوحي الكريم.

فقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ كسابقه في أوائل السور التي ابتدأت بمثل هذه الحروف المقطعة، والتي تحمل معنى التحدي والإعجاز، ثم يأتي بعدها مباشرة ذكر الكتاب ليكون انتصاراً لهذا القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾. أي البيّن الجلي في ألفاظه ومعانيه وآفاقه. قال قتادة: (مبين والله بركته، وهداه ورشده).

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾. أي: إنا أنزلناه قرآناً فصيحاً بيناً بلغة العرب، لغة البيان والإعجاز.

وهذه الآية استدل بها أهل البدعة زمن الإمام أحمد على قضية مبتدعة وهي مسألة خلق القرآن، قالوا: فالمجعول مخلوق. فقارعهم أهل العلم كاشفين جهلهم بلغة العرب. فإن «جعل» ـ في كلام العرب ـ إن تعدى إلى مفعول واحد كان بمعنى خلق، وإذا تعدّى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق، وإنما يفيد التحويل.

ومثال الأول:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: 31].

فهنا «جعل» تعدى إلى مفعول واحد، فهو بمعنى خلق.

ومثال الثاني:

1 ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: 224].

3 ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 3].

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. أي: لعلكم تفهمون مقاصده وتعون معانيه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾. تنبيه على فضله ومنزلته وشرفه. قال قتادة: (﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب وجملته). قال مجاهد: (أي: اللوح المحفوظ). وعن قتادة: (﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا. ﴿لَعَلِىٌّ﴾: أي: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل).

والمقصود: أَنَّ هذا القرآن مشرّف في الملأ الأعلى، وهذا يقتضي أن يشرِّفه ويعظمه أهل الأرض. فهو مسطور في اللوح المحفوظ عندنا، وإنه ﴿لَعَلِىٌّ﴾ أي: ذو مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة وشرف. ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مُحْكَمٌ بريء من اللَّبْسِ والزَّيغ.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: 77 ـ 80].

2 ـ وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: 11 ـ 16].

أخرج الطبراني بإسناد صحيح عن جبير قال: قال رسول الله ﷺ: [أبشروا أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله

وطرفه بأيديكم فتمسكوا به ، فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً][1] .

وقوله تعالى : ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ فيه تأويلان محتملان :

1 ـ قال ابن عباس : (أحسبتم أن نصفح عنكم ولما تفعلوا ما أُمرتم به) . وقال مجاهد : (تكذبون بالقرآن ثم لا تعاقبون عليه) . واختاره ابن جرير .

2 ـ وقال قتادة : (والله لو أن هذا القرآن رُفِعَ حين رَدّته أوائلُ هذه الأمةِ لَهَلكُوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته ، وكرّره عليهم ، ودعاهم إليه عشرين سنة ، أو ما شاء الله من ذلك) .

وقال : (الذكر ما أنزل عليهم مما أمرهم الله به ونهاهم . ﴿صَفْحًا﴾ : لا يذكر لكم منه شيئاً) . وقوّاه ابن كثير وقال : (وقول قتادة لطيفُ المعنى جدّاً ، وحاصِلُهُ أنه يقول في معناه : أنه تعالى من لُطفه ورحمته بخلقه لا يترك دُعاءَهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مسرفين مُعرضين عنه ، بل أمرَ به ليهتديَ به من قَدَّر هدايته ، وتقومَ الحجة على من كتبَ شقاوَته) .

وقوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ .

«كمْ» هنا خبرية ، يراد بها التكثير . والمعنى : ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السالفة . قال النسفي : (أي كثيراً من الرسل أرسلنا إلى من تقدمك) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .

تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من استهزاء قومه وتكذيبهم . وَالمعنى : إنها قصة مستمرة ، وحال ماضية في الأمم ، فإنه لم يكن يأتيهم نبي إلا قابلوه بالسخرية والاستهزاء كما قابلك قومك .

وقوله : ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ . أي : فأهلكنا قوماً أشد من قومك ـ يا محمد ـ قوة ، في أبدانهم وأتباعهم وأموالهم .

وقوله : ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ . قال قتادة : (عقوبة الأولين) . وقال مجاهد : (سنّتهم) . قال القاسمي : (أي سلف في القرآن في غير موضع منه ، ذكر قصتهم وحالهم

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (1/ 77/ 1) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 165) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (713) .

في تكذيبهم وتعذيبهم وما مثلناه لهم. أي فليتوقع هؤلاء المستهزئون من العقوبة مثل ما حلّ بسلفهم).

9 ـ 14. **قوله تعالى**: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إقرارُ المشركين لله تفرده بالخلق ثم هم به يشركون، وهو الذي مدّ الأرض لهم وسلك لهم فيها السبل لعلهم يهتدون، ونزّل لهم الماء من السماء وخلق الأزواج وجعل لهم من الفلك والأنعام ما يركبون، ليحمدوه تعالى عند ركوبهم ويعظموه وحده وله يشكرون.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من قومك: من خلق السماوات السبع والأرضين، فأحدثهن وأنشأهنّ؟ ليقولنّ: خلقهنّ العزيز في سلطانه وانتقامه من أعدائه، العليم بهن وما فيهنّ من الأشياء لا يخفى عليه شيء). قال القرطبي: (فأقرّوا له بالخلق والإيجاد، ثم عبدوا معه غيره جهلاً منهم).

وقوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾. قال السدي: (بساطاً). قال ابن كثير: (أي: فِراشاً قراراً ثابتةً، تسيرون عليها وتقومون وتنامون وتتصرّفون، مع أنها مخلوقةٌ على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا).

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾. قال قتادة: (أي طرقاً). والمعنى: مَهّد لكم الأرض من وُعورتها، وجعل لكم طرقاً يسهل عليكم التحرك فيها بين جبالها وأوديتها.

وقوله: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾. أي أثناء سيركم في البلاد والأقاليم والأمصار. قال السدي: (يقول: لكي تهتدوا بتلك السبل إلى حيث أردتم من البُلدان والقرى

والأمصار ، لولا ذلك لم تطيقوا براح أفنيتكم ودوركم ، ولكنها نعمة أنعم بها عليكم).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾. أي: أنزل لكم من المطر بحسب كفاية زروعكم وثماركم وحاجاتكم من الشرب أنتم وأنعامكم. قال ابن جرير: (فلم يجعله كالطوفان فيكون عذاباً كالذي أنزل على قوم نوح ، ولا جعله قليلاً ، لا ينبت به النبات والزرع من قلّته ، ولكنه جعله غيثاً مغيثاً).

وقوله: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾. قال القاسمي: (أي أحيينا به بلدة ميتاً من النبات ، قد درست من الجدب وعفت من القحط).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾. قال قتادة: (كما أحيا الله هذه الأرض الميتة بهذا الماء كذلك تبعثون يوم القيامة). فنبّه سبحانه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد بعد فنائها ليوم الحشر.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾. قال ابن جرير: (والله خلق كل شيء فزوّجه ، أي خلق الذكور من الإناث أزواجاً ، والإناث من الذكور أزواجاً). قلت: وهذا في سائر أصناف النباتات ، وجميع أجناس الحيوانات.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾. الفلك: السفن. والأنعام: البهائم. أي: سَخّرَ لكم السفن للركوب في البحر ، وذلّل لكم الأنعام للركوب في البرّ ، إضافة إلى استمتاعكم بأكل لحومها وشرب ألبانها ولبس أصوافها.

وقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾. قال النسفي: (على ظهور ما تركبونه وهو الفلك والأنعام).

وقوله: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾. قال القرطبي: (أي ركبتم عليه ، وذكر النعمة هو الحمد لله على تسخير ذلك لنا في البر والبحر).

وقوله: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾. أي: ننزه الله الذي ذلّل لنا هذا الركوب وما كنا له مطيقين ولا ضابطين. فعن ابن عباس: (﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ يقول: مطيقين). قال مجاهد: (﴿مُقْرِنِينَ﴾ قال: الإبل والخيل والبغال والحمير). وقال ابن زيد: (لسنا له مطيقين ، قال: لا نطيقها إلا بك ، لولا أنت ما قوينا عليها ولا أطقناها).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. أي: لصائرون بعد موتنا ، فله سبحانه

راجعون ، وإليه سيرُنا الأكبر ، فنبّه بالسير الأصغر في أطراف الدنيا على السير الأكبر إلى الله الذي هو غاية المنتهى.

وقد حفلت السنة الصحيحة بالأذكار الخاصة بركوب الدابة في السفر ، منها:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه ، وأبو داود في سننه ، عن ابن عمر: [أن رسول الله ﷺ ، كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً ، ثم قال: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ . اللهم إني أسألك في سفرنا هذا البِرَّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى. اللهم هَوِّنْ علينا سفرنا هذا. اللهم اطْوِ لنا البُعْدَ. اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والمال. وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي وأحمد وابن حبان ورجاله رجال الصحيح عن علي بن ربيعة ، قال: [شهدت علياً أُتِيَ بدابّةٍ ليركبها ، فلما وضع رِجله في الركاب قال: بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال: الحمد لله ، ثم قال: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ثم قال: الحمد لله ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: الله أكبر ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ثم ضحك ، فقيل: يا أمير المؤمنين من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ، ثم ضحك ، فقلت: يا رسول الله ، من أي شيء ضحكت؟ قال: إن ربَّكَ يَعجبُ من عبدِه إذا قال: اغفر لي ذُنوبي ، يعلم أنه لا يغفرُ الذنوب غيري][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والطبراني بسند صحيح عن أبي لاسٍ الخُزاعي قال: [حَمَلنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحجِّ ، فقلنا: يا رسولَ الله ، ما نرى أن تحملنا هذه! فقال ﷺ: ما من بعير إلا في ذُرْوَتِه شيطانٌ ، فاذكروا اسم الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1342) ، وأبو داود (2599) ، والنسائي في «اليوم والليلة» (548) ، وأخرجه ابن حبان (2696).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2602) ، والترمذي (3446) ، والنسائي في «اليوم والليلة» (502) وأحمد (1/ 97) ، وابن حبان (2698) ورجاله رجال البخاري ومسلم.

عليها إذا ركبتموها كما آمركم ، ثم امتهِنوها لأنفسكم ، فإنما يحمل الله عز وجل][1] .
أبو لاس: هو محمد بن الأسود بن خَلَف.

الحديث الرابع: أخرج أحمد والدارمي وابن حبان بسند حسن عن أسامة بن زيد قال: أخبرني محمد بن حَمْزَة: أنه سَمِع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [على ظهْرِ كُلِّ بعير شيطانٌ ، فإذا ركبتموها فَسَمُّوا الله ـ عز وجل ـ ثم لا تقصِّرُوا عن حاجاتكم][2] .

الحديث الخامس: أخرج ابن ماجة في السنن بسند صحيح عن عبد الله بن سَرْجِسَ قال: [كان رسول الله ﷺ يقول (وفي رواية: يتعوذ) إذا سافر: اللهمَّ! إني أعوذ بكَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَر ، وكآبة المُنْقَلَب ، والحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ ، ودَعْوَةِ المظلومِ ، وسوء المنظر في الأهل والمال][3] .

وقوله: «وعثاء السفر» أي شدته ومشقته. «وكآبة المنقلب» أي الانقلاب. قال الخطابي: (معناه أن ينقلب إلى أهله كئيباًحزيناً ، لعدم قضاء حاجته ، أو إصابة آفة له). «والحور بعد الكور» أي النقصان بعد الزيادة ، وأصل الحور الرجوع. «وسوء المنظر»: المراد كل منظر يعقب النظر سوءاً.

15 ـ 20. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 221) ، والطبراني (22/ 334) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (10/ 131): (رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالتحديث في إحداها). وللحديث شواهد.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 494) ، والدارمي (2/ 285) ، وابن حبان (1703) ، وكذلك (2694) وإسناده حسن ، وله شاهد من حديث عقبة بن عامر ، أخرجه الطبراني (17/ 8781) وقال في «المجمع» (1/ 131): إسناده حسن.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3888) ـ كتاب الدعاء ، باب ما يدعو به الرجل إذا سافر ، وانظر صحيح ابن ماجة (3136) ، وصحيح أبي داود (2338) ، وروى مسلم نحوه.

سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله تعالى عن افتراء المشركين في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، وقولهم الملائكة بنات الله، ويكرهون ذلك لأنفسهم، ويَحْتَجُّون بالقدر على شركهم، والله يعلم مكرهم وكذبهم.

فقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾. قال مجاهد: (ولداً وبنات من الملائكة). وعن قتادة: (﴿جُزْءًا﴾ أي عِدْلاً). والمقصود: قالوا الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً. قال القرطبي: (عجَّب المؤمنين من جهلهم إذ أقروا بأن خالق السماوات والأرض هو الله ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً، ولم يعلموا أن من قدر على خلق السماوات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضد به أو يستأنس به لأن هذا من صفات النقص).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: 57].

3 ـ وقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: 21 ـ 22].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: [قال الله تعالى: كَذَّبَني ابنُ آدمَ ولمْ يكُنْ له ذلك، وشتمني ولم يَكُنْ له ذلك، فأمّا تكذيبُه إيايَّ فقوله: لنْ يعيدني كما بدأني، وليس أوَّلُ الخلق بأهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إعادته، وأما شَتْمه إيايَّ فقولُه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصَّمَدُ، لمْ أَلِدْ ولمْ أولَدْ، ولم يَكُنْ لي كفواً أحَدٌ][1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾. يعني الكافر الجاحد. قال الحسن: (يعدّ المصائب وينسى النعم). وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي مظهر الكفر.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4974) ـ كتاب التفسير ـ وكذلك (3193).

وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾. إنكار في صيغة التوبيخ. قال النسفي: (أي بل اتخذ، والهمزة للإنكار تجهيلاً لهم وتعجيباً من شأنهم حيث ادعوا أنه اختار لنفسه المنزلة الأدنى ولهم الأعلى).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: إذا بُشِّر أحدُ هؤلاء مما جَعلوه لله من البنات يأنفُ من ذلك غايةَ الأنَفَةِ، وتعلوه كآبة من سُوءِ ما بُشِّرَ به، ويتوارىٰ من القوم من خَجَله من ذلك، يقول تبارك وتعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتَنْسُبونه إلى الله عز وجل؟!). وعن قتادة: (﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي حزين).

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. قال ابن عباس: (يعني المرأة). وقال مقاتل: (لا تتكلم المرأة إلا وتأتي الحجة عليها). والمقصود: تركيب المرأة فيه نقصان، ويُكَمَّل نَقْصُها بلُبس الحُلي منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فعبارتها ضعيفة، فهل هذا النعت يُناسب أن يُنْسَبَ إلى جناب الله العظيم؟ قال النسفي: (أي أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته، وهو أنه ينشأ في الحلية، أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاناة الخصوم ومجاراة الرجال كان غير مبين ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان، وذلك لضعف عقولهن).

وقال القاسمي: (والمعنى: أومن كان كذلك جعلتموه جزءاً لله من خلقه، وزعمتم أنه نصيبه منهم؟).

قال إلكِيا الهرّاسيّ: (فيه دليل على إباحة الحليّ للنساء).

وسئل أبو العالية عن الذهب للنساء، فلم ير به بأساً، وتلا هذه الآية.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾. أي: وجعل المشركون ملائكة الله ـ الذين هم عنده يسبحونه ويقدسونه وله يسجدون ـ إناثاً، فقالوا هم بنات الله، جراءةً منهم على قيل الكذب، وقلة أدب مع ربهم عز وجل.

وقوله: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾. تجهيل لهم وتهكُّمٌ بهم. والمعنى: هل حضروا خلق الله لهم فوصفوهم بذلك نتيجة رؤيتهم إياهم وعلمهم بدقيق أمرهم؟!

وقوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾. تهديد ووعيد. والمعنى: سَتُكْتب شهادتهم على الملائكة بما هم مبرؤون عنه، وسَيُسْألون عنها يوم القيامة بمطالبتهم بإقامة براهينهم وحججهم، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾. قال مجاهد: (للأوثان). قال القرطبي: (يعني قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاء الرحمن على زعمكم ما عبدنا هذه الملائكة).

والمقصود: كان منطق المشركين أن لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فجمعوا بذلك بين أنواع كبيرة من الخطأ: أ ـ جعلهم لله ولداً. ب ـ دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. ج ـ عبادتهم لهم بلا دليل وإنما خبْط الجاهلية. د ـ احتجاجهم بالقدر على عبادتهم الفاسدة.

وقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾. قال قتادة: (أي ما لهم بقولهم: الملائكة بنات الله، من علم). والمقصود: ما لهم بصحة ما قالوه واحتجوا به من علم يُرجع إليه وإنما هو الكذب والادعاء.

وقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾. أي يكذبون ويتقوّلون. قال مجاهد: (﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: ما يَعْلَمُونَ قُدْرةَ الله على ذلك). وذلك أنهم زعموا أن الله أمرهم بتلك العبادة أو رضيها منهم.

21 ـ 25. **قوله تعالى**: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (22) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (23) ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (24) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)﴾.

في هذه الآيات: يقول سبحانه: أم آتينا هؤلاء المتخرصين القائلين لو شاء الرحمن ما عبدناهم كتاباً بحقيقة قولهم من قبل القرآن، أو من قبل قولهم وشركهم، فهم مستمسكون يعملون به؟! كلا بل حجتهم آباؤهم، شأن الأمم الهالكة قبلهم.

فقوله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾. إنكارٌ على المشركين عبادتهم دون دليل وبرهان. قال النسفي: (﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾ من

قبل القرآن أو من قبل قولهم هذا ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ آخذون عاملون).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾. احتجاج فاسد بمنهاج الآبائية، ولا سيما أن آباءهم لم يكونوا أهل رشد وصواب.

وعن مجاهد: (﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: مِلّة). قال ابن عباس: (وجدنا آباءنا على دين). وعن قتادة: (﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾: وإنا متبعوهم على ذلك).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾. تَسْلِيةٌ للنبي ﷺ وبيان أن تقليد الآباء داء قديم، فإنه ما أرسلنا ـ يا محمد ـ من نبي في أمة قبلك إلا قال متنعموها ـ ممن أترفتهم النعمة وأبطرتهم فلم يألفوا إلا الشهوات والملاهي فهم يعافون مشاق الدين وتكاليفه ـ إنا عهدنا آباءنا على طريقة في الدين وإنا على منهاجهم سالكون.

قال قتادة: (﴿مُتْرَفُوهَآ﴾: رؤساؤهم وأشرافهم). وقال مجاهد: (﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ بفعلهم). أي: وكذلك يا محمد فقد سلك مشركو قومك منهاج من قبلهم فلا تحزن عليهم.

وقوله: ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾. أي: قل لهم ـ يا محمد ـ أو لو جئتكم بأدل من سبيل الرشاد من ملة آبائكم؟

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. قال القرطبي: (قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى).

وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. أي: فانتقمنا منهم بألوان العذاب من قحط وقتل وخسف وغرق وسبي وغير ذلك، فانظر ـ يا محمد ـ كيف كان مآل من كذب الرسل. قال قتادة: (شرٌّ والله، أخذهم بخسف وغرق، ثم أهلكهم فأدخلهم النار).

26 ـ 35. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ

عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالى على إبراهيم ﷺ إمام الموحدين، فقد دعا قومه إلى الحق ثم فاصلهم على منهج التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم. وذمُّ الله المشركين من العرب الذين ضيّعوا ملة إبراهيم، وقد احتج سبحانه بهذه الآيات المكية على مشركي قريش سوء فهمهم للقدر، وأنه سبحانه وتعالى وحده قاسم الرزق والأجل، وأنَّ ما قدَّره سبحانه من الرزق بين عباده كان بالحكمة والعدل، ولو شاء بسط الرزق والمال للكافرين بطريقة تفتن العقل والقلب والنظر، ولكن رحمة بالمؤمنين ألا يفتنوا عن دينهم إذا رأوا أهل البغي وقد عجلت لهم الخيرات في الدنيا فيتركوا العمل، ويصيبهم العجز وحب الدنيا والكسل، ويتركوا العلم والجهاد والأمر بالمعرف والنهي عن المنكر ويجتاحهم الكلال، وإلا فإن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ومن أجل هذا أعطاها للكافر الذي دمَّره الأشر والبطر.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

قال قتادة: (كايدهم، يقول: إنني بريء مما تعبدون). وقال القاضي: (﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾: أي اذكر وقت قوله هذا، ليروا كيف تبرّأ عن التقليد وتمسّك بالدليل). و«بَرَاءٌ»: مصدر، أريد به معنى الوصف مبالغة، والمقصود: أراد إبراهيم ﷺ إظهار البراءة الكاملة من عبادتهم ومعبودهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾. قال النسفي: (استثناء منقطع، كأنه قال لكن الذي فطرني ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ يثبتني على الهداية).

وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾. قال مجاهد: (لا إله إلا الله). وقال قتادة: (شهادة أن لا إله إلا الله، والتوحيد لم يزل في ذريته من يقولها من بعده). وفي رواية قال: (التوحيد والإخلاص، ولا يزال في ذريته من يُوَحِّدُ الله ويعبده). وعن ابن عباس: (﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾: يعني من خلفه). قال مجاهد: (ولده). وقال السدي: (في

عقب إبراهيم آل محمد ﷺ). قال ابن شهاب: (العقب الولد، وولد الولد). وعن ابن زيد: (عقبه ذريته).

والمعنى: وجعل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كلمة التوحيد التي تكلم بها، وهي قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ كلمة مستمرة في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال قتادة: (أي يتوبون، أو يذَّكَّرون). قال القاسمي: (﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لكي يرجعوا إلى عبادته، ويلجؤوا إلى توحيده في سائر شؤونهم). وقال النسفي: (لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم والترجي لإبراهيم).

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾. أي: بل متعت ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين من أهل مكة وآباءهم من قبلهم بالحياة فلم أعاجلهم بالعقوبة على كفرهم حتى جاءهم الحق ـ أي الوحي العظيم ـ، ورسول مبين.

فالحق: القرآن وحجة الوحي البالغة، والرسول المبين: محمد ﷺ الذي يبيّن لهم ما بهم إليه حاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

قال السدي: (هؤلاء قريش قالوا للقرآن الذي جاء به محمد ﷺ). فاتهموا القرآن بالسحر وأعلنوا الجحود والكبر والعناد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

قال ابن عباس: (يعني بالعظيم: الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو ابن عُمير الثقفي، وبالقريتين: مكة والطائف).

فهم يريدون الحق في رؤسائهم وزعمائهم، هكذا أملت لهم عقولهم وأهواؤهم، فأجابهم الله عز وجل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ﴾. قال قتادة: (فتلقاه ضعيف الحيلة عيي اللسان وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه. قال الله جل ثناءه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ﴾ كما قَسَمَ بينهم صورهم وأخلاقهم تبارك ربنا وتعالى).

وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

أي: ورفعنا بعضهم بالغنى فوق بعض ليتخذ الغني الفقير في العمل. قال السدي: (يستخدم بعضهم بعضاً في السخرة). أو سبباً في المعاش.

وقوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. قال ابن جرير: (ورحمة ربك يا محمد بإدخالهم الجنة خير لهم مما يجمعون من الأموال في الدنيا).

ثم ذكر سبحانه ما قد يترتب على بسط المال وأسباب الزينة والترف لأهل الدنيا من الفساد الذي قد يؤذي المؤمنين ويفتنهم عن دينهم، فقال جل ذكره: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. قال ابن زيد: (لولا أن يختار الناس دنياهم على دينهم لجعلنا هذا لأهل الكفر).

أي: لولا أن يفتن المؤمنون فتنة لا يستقيم معها دينهم وإيمانهم: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ الآية.

قال قتادة: (السقف: أعلى البيوت). وهي السطوح. والمعارج: الدرج. قال السدي: (المعارج: المراقي). أي: ودَرَجاً عليها يصعدون فيظهرون على السقف.

وعن ابن عباس: (﴿وَمَعَارِجَ﴾ قال: معارج من فضة، وهي درج). قال: (درج عليها يصعدون إلى الغرف).

والمقصود: لولا أن يفتن المؤمنون لجعل الله لأهل الكفر لبيوتهم سقفاً ومصاعد من فضة عليها يصعدون إلى غرفهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾. قال ابن زيد: (الأبواب من فضة والسرر من فضة عليها يتكئون. يقول: على السرر يتكئون). أي: ولجعلنا كذلك لبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة عليها يتكئون.

وقوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾. قال ابن عباس: (وهو الذهب). قال القاسمي: (أي: ولجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً، أي زينة من ذهب وجواهر فوق الفضة).

وقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. إشارة إلى أن ذلك لا يدل على فضيلتهم، وإنما كل ما سبق ذكره من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة، والزخرف فوق ذلك، إنما هو من المتاع الزائل الذي يستمتع به أهل الدنيا إلى حين ثم يغادرونه إلى قبورهم ومعادهم.

وقوله: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾. قال قتادة: (خصوصاً). والمقصود: ويبقى جمال الدار الآخرة وبهاؤها وروائع بهجتها وزينتها خاصاً بالمتقين لا يحولون عنه ولا يزولون.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 15 ـ 16].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19].

وفي الصحيحين عن حذيفة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [لا تَلْبَسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صِحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة][1].

وفي جامع الترمذي ومستدرك الحاكم بسند صحيح لغيره عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: [لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء][2].

وفي مسند أحمد بإسناد قوي عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾][3].

36 ـ 45. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5426) ـ كتاب الأطعمة، وأخرجه مسلم في الصحيح (2067)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (5339).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2/ 52)، والحاكم (4/ 306). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (943).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 145)، وانظر السلسلة الصحيحة (414).

يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

في هذه الآيات: تسليطُ الله مردة الجن على ظلمة الإنس ببغيهم، وتنافر الفريقين يوم الحشر وقضاء الله النافذ ـ في نار جهنم ـ بِجَمْعِهِم، وسنةُ الله في تحميل الرسل مهمة البلاغ للعباد وبيده تعالى أمر هدايتهم، وتثبيت الله تعالى رسوله حتى يبقى على طريق المرسلين ويتأسىٰ بجهادهم.

فقوله: ﴿وَمَن يَعۡشُ﴾. أي يتعامى ويتغافل ويعرض. وقد قرأها ابن عباس وعكرمة «ومن يَعْشَ» بمعنى يعمى. فإنه في لغة العرب عَشِيَ يعشى عشاً إذا عَمِيَ، ورجلٌ أعشى وامرأة عشواء إذا كان لا يبصر. وركب فلان العشواء إذا خبط في أمره على غير بصيرة.

وهذه الآية تتصل بقوله سبحانه في أول السورة: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾. قال ابن عباس: (أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به). وقال قتادة: (والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته فكرره عليهم، ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك).

والمعنى: أي نواصل لكم الذكر، فمن يعش عن ذلك الذكر بالإعراض عنه إلى أقاويل المضلين وأباطيلهم ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾، أي يتحكم بفكره وفهمه وعقله وقلبه وحركته. قال ابن عباس: (أي ملازم ومصاحب). فيصادر الله بذلك جزءاً من حرية هذا العبد المتهاون بأمر الله بعد أن كرمه بإطلاقها، فيصير يشعر بالقيد والثقل وكأنه أسير حبيس، وكم سمع الناس عن أحوال ومعاناة مَنْ دخل الجني عليه في جسده، فأفسد له حركته وسكونه، وأفقده لذة الطعام والشراب والنكاح، وكم رأى الناس من بؤس حال من سلط الله عليه أعداءه، حتى بدا ذلك واضحاً بتراجع صحته

وعافيته ، وحتى تأثرت بذلك شهية الطعام والشراب .

إن ضريبة الابتعاد عن منهج الله وشرعه قاسية ومؤلمة ، فلا يظن ظانٌّ أنه يمكن أن يسعد ببعده عن رضوان ربه عز وجل ، بل هو غرور زائل ، وضوء آفل ، وسناد مائل ، يدعمه إبليس وأعوانه بعض الشيء بتسليط الله لهم ، إلى أن يأتي حين العذاب ونزول الفضائح والآلام .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

فقد ذكر الشياطين سبحانه بلفظ الجمع بقوله : ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ لأن «وَمَنْ» في قوله : ﴿ وَمَن يَعْشُ ﴾ في معنى الجمع .

قال ابن جرير : (ـ أي ـ : وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الذين يعشون عن ذكر الله ، عن سبيل الحق ، فيزيّنون لهم الضلالة ، ويكرّهون إليهم الإيمان بالله ، والعمل بطاعته ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ يقول : ويظن المشركون بالله بتحسين الشياطين لهم ما هم عليه من الضلالة ، أنهم على الحق والصواب) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ .

أشار سبحانه إلى لحظة العذاب بقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ أي الكافر يوم القيامة ، وهذا على قراءة قراء الكوفة والبصرة ، وهي قراءة حفص وأبي عمرو ، وأما على قراءة قراء الحجاز فهي ﴿جاءانا﴾ أي هو وقرينه . وقد جُعلا في سلسلة واحدة ، فيقول الكافر : ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، كما قال جل ذكره : ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ . وقيل : بعد المشرق والمغرب . قال القرطبي : (﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ أي فبئس الصاحب أنت ، لأنه يورده إلى النار . قال أبو سعيد الخدري : إذا بُعِثَ الكافِر زوّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ .

أي : فأنتما مشتركان في العذاب . قال مقاتل : (لن ينفعكم الاعتذار والندم اليوم ، لأن قرناءكم وأنتم في العذاب مشتركون ، كما اشتركتم في الكفر) .

فإن الله سبحانه يعطي فرصاً للذكرى في هذه الحياة ، فمن أخذها أخذ بحظ وافر حسن ، ومن أهملها سلط عليه سبحانه شيطاناً يوجه حركته ، ويوحي إلى فكره وعقله ، ويوسوس في قلبه ألواناً من الفواحش والموبقات والكبائر والعقوق والشرك بالله ، وغير ذلك مما يسخط الله سبحانه ، ويوعد عليه في الآخرة نيرانه .

وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: أفأنت تسمع ـ يا محمد ـ من قد أصمه الله عن استماع حججه، أو تهدي من قد أعمى الله قلبه عن إبصار سبيله ـ سبيل الحق والنجاة والسعادة ـ أو تهدي من كان في جور عن سبيل الرشاد. والآية تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من عناد قومه وإصرارهم على كفر الجاهلية.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾. أي: ولو ذهبت أنت فلا بد الانتقام نازل بهم. قال السدي: (كما انتقمنا من الأمم الماضية). وقال النسفي: (﴿ فَإِمَّا ﴾ دخلت ما على إن توكيداً للشرط، وكذا النون الثقيلة في ﴿ نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ أي نتوفينك قبل أن ننصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ أشد الانتقام في الآخرة).

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾. قال السدي: (فقد أراه الله ذلك وأظهره عليه). قال ابن كثير: (أي: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله ﷺ حتى أقرَّ عينه من أعدائه، وحَكَّمَهُ في نواصيهم، ومَلَّكَهُ ما تضمَّنته صياصيهم ـ أي حصونهم ـ).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي بردة عن أبيه مرفوعاً: [النُّجومُ أَمَنَةٌ للسَّماء، فإذا ذَهَبَتِ النجوم أتى السماءَ ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبْتُ أنا أتى أصحابي ما يُوعَدُون، وأصحابي أمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون][(1)].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾. قال قتادة: (أي الإسلام). قال القرطبي: (﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ ﴾ يريد القرآن، وإن كذب به من كذب، فـ ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يوصّلك إلىٰ الله ورضاه).

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: إن القرآن شرف لك). قال ابن زيد: (أو لم تكن النبوة والقرآن الذي أنزل على نبيه ﷺ ذكراً له ولقومه).

والمقصود: إن هذا القرآن شرف لك ـ يا محمد ـ ولقومك من قريش، فإنه نزل

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2531) ـ كتاب فضائل الصحابة. باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة. وأخرجه أحمد (4/ 398 ـ 399)، وأبو يعلى (7276).

بلغتهم وعلى رجل منهم ، فاحتاج كل مسلم من أهل اللغات إلى لسانهم ليفهم هذا الدين كما نزل.

وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾. قال الفرّاء: (أي عن الشكر عليه). قال ابن جرير: (يقول: وسوف يسألك ربك وإياهم عما عملتم فيه).

وقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾. قال قتادة: (يقول: سل أهل التوراة والإنجيل: هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد أن يوحِّدوا الله وحده؟).

والمقصود: إن جميع الرسل دعوا إلى دعوتك يا محمد: «لا إله إلا الله» ، وهي إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينه نبي ، والأنبياء أولاد علّات (وفي رواية: إخوة من علات) أُمهاتم شتى ، ودينهم واحد][1].

46 ـ 56. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3442) ، (3443) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه مسلم (2365) ـ كتاب الفضائل. باب فضائل عيسى عليه السلام.

تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

في هذه الآيات: قصةُ موسى عليه الصلاة والسلام، مع الطاغية فرعون رأس الكفر والطغيان، الذي أشرك بالله وطغى وأفسد في الأرض حتى أذاقه الله وجنوده الخزي والغرق واللعنة والحرمان.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الآيات.

تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه. فإن موسى عليه السلام قال لفرعون كما قلت لقومك: إني رسول الله إليكم، فسخروا كما سخر هؤلاء. قال النسفي: (ما أجابوه به عند قوله إني رسول رب العالمين محذوف دلّ عليه قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يسخرون منها ويهزؤون بها ويسمونها سحراً).

وقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ﴾. قال القرطبي: (أي كانت آيات موسى من كبار الآيات، وكانت كل واحدة أعظمَ مما قبلها).

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال قتادة: (أي يتوبون، أو يذكرون). قال ابن جرير: (وذلك كأخذه تعالى ذكره إياهم بالسنين ونقص من الثمرات، وبالجراد، والقمل، والضفادع والدم).

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾. قال مجاهد: (لئن آمنا لَيُكْشَفَنّ عنا العذاب). والمقصود: ادع لنا ربك بما أخبرنا عن عهده إليك، إنا إن آمنا كشف عنا، فسله يكشف عنا.

وأما مناداتهم له بالساحر ففيه أكثر من تأويل:

1 ـ نادَوْهُ بما كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم.

2 ـ قال ابن عباس: (﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً

يوقِّرُونه ، ولم يكن السحر صفة ذم). أي كانوا يسمون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم.

3 ـ وقيل: المقصود يا أيها الذي غَلَبَنا بسحره.

وقوله: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾. قال قتادة: (قالوا يا موسى: ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾. قال قتادة: (أي يغدرون). أي: فدعا موسى ربه فكشف سبحانه العذاب فنقض القوم العهد الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا.

وقيل: قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إخبار منهم عن أنفسهم بالإيمان، فلما كشف عنهم العذاب ارتدوا.

وقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. قال قتادة: (قد كانت لهم جنات وأنهار ماء. قال: كانت جناناً وأنهاراً تجري من تحت قصوره). والمقصود: نادى فرعون في قومه يا قوم أليس لي ملك مصر فلا ينازعني فيه أحد، وأنهار النيل تجري من تحت قصوري ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وقوتي وضَعْف موسى؟!

قال ابن جرير: (﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أيها القوم ما أنا فيه من النعيم والخير، وما فيه موسى من الفقر وعيّ اللسان؟! افتخر بملكه مصر عَدُوّ الله وما قد مكّن له من الدنيا استدراجاً من الله له).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾. قال السدي: (قال: بل أنا خير من هذا). وعن سفيان: (﴿مَهِينٌ﴾: حَقير). وقال قتادة: (يعني: ضعيف). وقال أبو جعفر: (يعني لا مُلْك له ولا سلطان ولا مال). وعن السدي: (﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يُفهم). وقال قتادة: (عييّ اللسان). وقال سفيان: (يعني في لسانه شيء من الجَمْرَةِ حينَ وضعها في فيه وهو صغير)[1].

والمقصود: أراد فرعون استعراض قوته وجبروته أمام قومه واستضعاف موسى. قال

(1) قد دعا موسى ربه «واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي» فذهب عنه ما يجد، وإنما أراد فرعون إظهار موسى بكل نقيصة وقد كذب، فهو الناقص خِلقةً وخُلقاً، وموسى البار الراشد الصادق.

ابن كثير: (وهذا الذي قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كَذِبٌ واختلاقٌ، وإنما حَمله على هذا الكفرُ والعنادُ، وهو ينظرُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ بعين كافرة شَقِيَّةٍ، وقد كان موسى ـ عليه السلام ـ من الجلالةِ والعظمةِ والبهاء في صورة يَبهر أبصار ذَوي الألباب).

وقوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: أقلبة من ذهب). قال مجاهد: (كانوا إذا سوّروا رجلاً سوّروه وطوّقوه بطوق من ذهب علامة لسيادته). فكان ذلك عادة الوقت وزِيّ أهل الشرف. فأراد فرعون القول: هلا ألقى ربّ موسى عليه أساورة من ذهب إن كان صادقاً!

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾. قال قتادة: (أي متتابعين). وقال مجاهد: (يمشون معاً). وقال السدي: (يقارن بعضهم بعضاً). وقال ابن عباس: (يعاونونه على من خالفه). قال القرطبي: (والمعنى: هلاّ ضم إليه الملائكة التي يزعم أنها عند ربه حتى يتكثّر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه، فيكون ذلك أَهْيَبَ في القلوب). فأوهم عدو الله قومه أن الأبهة والعظمة في الزي والمرافقة لا بد منها لصدق رسل الله كما هو حال رسل الملوك، وغفل الشقي أن تأييد الله تعالى لموسى بجنوده التي لا يعلمها غيره وإمداده ببعض الآيات كالعصا واليد البيضاء أبلغ من تلك الأبهة الزائفة التي اغتر بها ملوك الدنيا.

وقوله: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾. قال ابن الأعرابي: (المعنى فاستجهل قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفة أحلامهم وقلّة عقولهم).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾. أي خارجين عن طاعة الله.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾. قال ابن عباس: (يقول: أسخطونا)، أو قال: (أغضبونا). وقال قتادة: (أغضبوا ربهم).

وقوله: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: انتقمنا منهم بعاجل العذاب الذي عجلناه لهم، فأغرقناهم جميعاً في البحر).

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ﴾. قال أبو مِجلَز: (﴿سَلَفًا﴾ لمن عمل عملهم، ﴿وَمَثَلًا﴾ لمن يعمل عملهم). وقال مجاهد: (﴿سَلَفًا﴾ إخبار لأمة محمد ﷺ، ﴿وَمَثَلًا﴾ أي عبرة لهم). وقال: (سلفاً لكفار قومك يتقدّمونهم إلى النار). وقال قتادة: (﴿سَلَفًا﴾ إلى النار ﴿وَمَثَلًا﴾ عِظةً لمن يأتي بعدهم).

والمقصود: جعل الله تعالى فرعون وقومه الذين اتبعوه على الكفر والطغيان

﴿سَلَفًا﴾ يتقدمون الناس يوم القيامة إلى النار ثم يتبعهم الكفار ، ومنهم كفار قومك ـ يا محمد ـ هم تَبَعٌ لفرعون وجنوده بالأثر ، و﴿وَمَثَلًا﴾ أي عبرة لمن سيأتي بعدهم لعلهم ينزجرون عن طريقتهم ويتحولون إلى متابعة طريق الرسل .

57 ـ 65. قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥﴾ .

في هذه الآيات: ردُّ الله تعالى على قريش في قياسهم الفاسد من تشبيه الأنبياء والملائكة بالأصنام غير العاقلة ، وأنه تعالى لو شاء لأفنى البشر وجعل بدلاً منهم ملائكة يخلفونهم ، وأن خروج عيسى بن مريم آخر الزمان آية من آيات اقتراب الساعة ، وأنه دعا وسيدعو إلى توحيد الله وهو بريء من شرك قومه والذين يدّعون الانتساب له .

أخرج الإمام أحمد والطبراني بنحوه بسند حسن عن عاصم بن أبي النَّجود ، عن أبي رَزِين ، عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصاري ، عن ابن عباس قال: [لقد علمت آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط ، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها ، أمْ لم يفطنوا فيسألوا عنها ، ثم طفق يُحَدِّثنا ، فلما قام تَلاوَمْنا ألا نكون سألناه عنها فقلتُ: أنا لها إذا راح غداً ، فلما راح الغد ، قلت: يا ابن عباس! ذكرتَ أمس أنَّ آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط ، فلا تدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها ، أم لم يفطنوا لها! فقلت: أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم ، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير. وقد علمت قريش أن

النصارى تعبد عيسى بن مريم ، وما تقول في محمد[1]. فقالوا: يا محمد ، ألست تزعُمُ أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً ، فلئن كنت صادقاً فإنَّ آلهتهم كما تقول ، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾. قال: قلت: ما يصِدُّون؟ قال: يضجّون ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة][2].

وفي لفظ الطبراني: (فإن كنت صادقاً فإنها لكآلهتهم).

وقوله: ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يضجّون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال. ومعناه يعرضون ، وقال ابن عباس: (يضحكون).

وقد ردّ الله عليهم هذا القياس الفاسد من تشبيه الأنبياء والملائكة بالأصنام غير العاقلة ، فقال في الآية بعدها: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. وأكّد سبحانه حماية لمكانة وكرامة نبيّه عيسى عليه الصلاة والسلام أن عيسى ما دعا إلى عبادة نفسه بل دعا إلى عبادة الله جل ثناؤه ، فقال سبحانه يحكي قوله في سورة مريم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. كما أكده في سورة الزخرف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ، بعد أن عاب على قريش الجدل والثرثرة فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ، إذ كانوا عرباً فصحاء ، يدركون أن الآية السابقة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ موجهة إليهم وإلى ما يعبدون مما لا يعقل ، والحديث لم يكن عن عيسى أصلاً ولا عن الملائكة.

وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ﴾. أي: آلهتنا خير أم عيسى؟. قال السدي: (خاصموه وقالوا إن كل مَن عُبد من دون الله في النار ، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير ، فأنزل الله تعالى[3]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101]).

---

(1) هكذا في المسند وتفسير ابن كثير ، وأما في مجمع الزوائد: (وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى بن مريم وما يقول محمد) ـ وهذا أوضح.

(2) أخرجه أحمد (2921) ، والطبراني (12740) ، والواحدي (740). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (7/ 104): فيه عاصم بن بهدلة ، وهو ثقة ، لكنه سيئ الحفظ ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وانظر تفسير الشوكاني (2238) ، وكذلك: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ سورة الزخرف ، آية (57).

(3) سبق ذكر أسباب نزول الآية (101) من سورة الأنبياء ، بإسناد صحيح.

وقال قتادة: (﴿أَمْ هُوَ﴾ يعنون محمداً ﷺ). وفي قراءة ابن مسعود «آلهتنا خيرٌ أمْ هذا». وهو يقوي قول قتادة، فهو استفهام تقرير في أن آلهتهم خير.

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. أي: ما أرادوا بذلك التمثيل الفاسد إلا الجدل والخصومة.

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما ضَلَّ قومٌ بعد هُدىً كانوا عليه إلا أُورِثوا الجدل. ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾][(1)].

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾. يعني عيسى ﷺ، أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. قال قتادة: (آية لبني إسرائيل). وقال ابن كثير: (أي: دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾. أي: لو شاء الله أفنى البشر وجعل بدلاً منهم ملائكة يخلفونهم في الأرض، أو يخلف بعضهم بعضاً. قال السدي: (يخلفونكم فيها). وقال مجاهد: (يعمرون الأرض بدلاً منكم). وقال ابن عباس: (يخلف بعضهم بعضاً). وقال قتادة: (يخلف بعضُهم بعضاً، كما يخلفُ بعضكم بعضاً).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾. قال ابن عباس: (خروج عيسى بن مريم). وفي رواية: (نزول عيسى بن مريم). وقال مجاهد: (آية للساعة خروج عيسى بن مريم قبل يوم القيامة). وقال قتادة: (نزول عيسى بن مريم علم للساعة: القيامة).

ومن ذهب أن المقصود القرآن، أو ما بعث به عيسى ـ عليه السلام ـ من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسقام، فقد أبعد في التأويل، بل قد صح في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد عن ابن عباس أن المقصود بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة. ويؤيد ذلك القراءة الأخرى: «وإنه لَعَلَمٌ للساعة» أي أمارة ودليل على اقترابها.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3253)، وابن ماجة (48)، وأحمد (5/ 252)، والحاكم (2/ 448)، والطبري (30938)، وغيرهم.

وفي التنزيل نحو ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم، حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الآية][1].

وفي صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: [فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقيّ دمشق بين مهروذتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه مثل جُمان كاللؤلؤ..][2]. وقوله: «بين مهروذتين» أي يلبس ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران. ذكره النووي.

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أوس بن أوس، عن النبي ﷺ قال: [ينزل عيسى بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق][3].

وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾. قال السدي: (تشكون فيها). أي لا تشكوا فيها أنها واقعة لا محالة.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾. أي فيما أخبركم به. قال النسفي: (أي واتبعوا هداي وشرعي أو رسولي، أو هو أمر لرسول الله ﷺ أن يقوله).

وقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. أي: هذا طريق قويم إلى الله، يوصل إلى جنته ورضوانه.

وقوله: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. أي عن اتباع الحق واجتناب الآثام.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. أي: إنه لكم عدو ظاهر العداوة يدعوكم لهلاككم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3448)، كتاب أحاديث الأنبياء، وأخرجه مسلم في الصحيح (155) ـ كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ...

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 197 ـ 198). انظر مختصر صحيح مسلم (2048).

(3) حديث صحيح. انظر تخريج فضائل الشام (22 ـ 23)، (25 ـ 26)، وصحيح الجامع (8025).

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾. قال قتادة: (أي بالإنجيل).

وقوله: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾. قال السدي: (النبوّة).

وقوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾. قال مجاهد: (من تبديل التوراة). وقال الزجاج: (المعنى لأبين لكم في الإنجيل بعض الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة). قال مجاهد: (ويبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه). وقيل: يبين لهم الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. قال القرطبي: (أي اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده، وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلـٰهاً أو ابن إلـٰه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. أي: هذا الذي أدعوكم إليه من إفراد الله تعالى بالعبادة والتعظيم هو الصراط السوي الذي لا اعوجاج فيه، وما سواه معوج لا يوصل سالكه إلى النجاة.

وقوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾. قال قتادة: (يعني ما بَيْنَهم).

وفيه قولان محتملان:

أ ـ قال السدي: (اليهود والنصارى). أي خالف بعضهم بعضاً.

ب ـ فرق النصارى من النُّسْطُورية والملكية واليعاقبة، اختلفوا في عيسى. فقالت النسطورية: هو ابن الله. وقالت اليعاقبة: هو الله. وقالت الملكية: ثالث ثلاثة أحدهم الله. قاله الكلبي ومقاتل.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾. قال السدي: (من عذاب يوم القيامة). أي: فويل للذين ظلموا حيث قالوا في عيسى ما كفروا به من عذاب الله المؤلم الموجع يوم الحساب.

66 ـ 73. قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ

عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: تخويفُ الله تعالى عباده يوم القيامة يوم يخزي الله المجرمين ، ويتخلى الأخلاء عن بعضهم إلا المتقين ، فهم في سعادة وسرور يتنعّمون في روضات الجنات آمنين .

فقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (يقول تعالى : هل ينتظرُ هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، أي : فإنها كائنة لا محالةَ وواقعةٌ ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستَعِدِّين . فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها ، فحينئذ يندمونَ كلَّ الندم ، حيث لا ينفعُهم ولا يدفعُ عنهم) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قال ابن عباس : (فكل خُلَّة هي عداوة إلا خُلَّة المتقين) . وقال مجاهد : (فكل خُلّة على معصية الله في الدنيا متعادون) .

والأخلاء : جمع خليل . والمقصود : إنه ستنقطع في ذلك اليوم كل صداقة وصحابة وخلة كانت بين المتخالين في غير ذات الله ، وستنقلب عداوة ومقتاً إلا خلة المتحابين في الله فإنها الخلة الباقية .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [إنَّ الله يقول يوم القيامة : أَيْنَ المتحابُّونَ بِجَلالي ، اليوم أَظِلُّهم في ظِلِّي ، يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلِّي][(1)] .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

قال النسفي : (هو حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذ) .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [يُنادي

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2566) ـ كتاب البر والصلة . باب فضل الحب في الله تعالى .

مُنَادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبداً ، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أبداً][1] .

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ .

أي آمنت قلوبهم وأيقنت بواطنهم ، وانقادت لامتثال أمر الله جوارحهم وظواهرهم .

وقوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ . قال ابن عباس: (تحبرون: تكرمون). وقال مجاهد: (تسرّون). وقال قتادة: (أي تنعمون). وقال الحسن: (تفرحون) .

والمقصود: يقال لهم ادخلوا الجنة ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ المسلمات في الدنيا. وقيل: أنتم وقرناؤكم من المؤمنين. وقيل: أنتم وزوجاتكم من الحور العين. فإنكم تكرمون فيها وتنعمون وتسرون وتتلذذون وتفرحون ، يقع ذلك منكم على القلوب والجوارح .

وقوله: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ . قال ابن جرير: (يطاف عليهم فيها بالطعام في صحاف من ذهب ، وبالشراب في أكواب من ذهب) .

وفي الصحيحين من حديث حذيفة ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة][2] .

قال الجوهري: (الصحفة كالقصعة والجمع صِحاف. وقال: الكوب كوز لا عروة له ، والجمع أكواب). وقال الكسائي: (أعظم القصاع الجَفْنَة ، ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة ، ثم الصحفة تشبع الخمسة ، ثم المِئْكلة تشبع الرجلين والثلاثة ، ثم الصُّحَيْفة تشبع الرجل). والصحيفة الكتاب والجمع صحف وصحائف .

وعن مجاهد: (﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾: إنها الآنية المدورة الأفواه). قال السدي: (هي التي لا آذان لها). وقال الأخفش: (الأكواب الأباريق التي لا خراطيم لها) .

وقوله: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ . أي في الجنة

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2837) ـ كتاب الجنة ونعيمها. باب في دوام نعيم أهل الجنة .
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5426) ، (5837) ، وأخرجه مسلم (2067) ، وغيرهما .

ما تتمناه النفس من طيب الطعم والريح وما تلذ به الأعين من حسن المنظر ، في نعيم دائم لا يزول.

قال سعيد بن جبير : (﴿ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ النظر إلى الله عز وجل).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [قال الله عز وجل : أعْدَدْت لعبادي الصالحين ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشر][1].

وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

قال ابن جرير : (يقال لهم : وهذه الجنة التي أورثكموها الله عن أهل النار الذين أدخلهم جهنم بما كنتم في الدنيا تعملون من الخيرات).

وقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾. أي : ولكم من جميع أنواع الفاكهة ما تختارون ، لتتم عليكم بذلك النعمة بعد تلذذكم بالطعام والشراب.

قال ابن عباس : (﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ : هي الثمار كلها ، رطبها ويابسها).

74 ـ 83. **قوله تعالى :** ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات : شقاءُ المجرمين في نار جهنم نار الجحيم ، فلا يُفَتَّرُ عنهم العذاب ولا يموتون فيستريحون ، ونادوا خازن النار ليتوسط لهم إلى ربّه في القضاء عليهم فأجابهم بأنهم ماكثون ، فقد كانوا على الكفر بالله والمكر بالحق وأهله يصبحون ويمسون ، فها هو اليوم الذي كانوا يوعدون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2824) ـ كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾.

أصل الفتور الضعف، أي لا يخفف عن المجرمين عذاب جهنم وهم فيه ماكثون.

وقوله: ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾. قال قتادة: (آيسون: مستسلمون). أي وهم في حالة إياس من كل خير.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. أي: وما ظلمناهم بالعذاب ولكن هم ظلموا أنفسهم بالشرك والإصرار على المعاصي والآثام. قال ابن كثير: (﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحُجَج عليهم وإرسال الرسُل إليهم، فكذّبوا وعَصَوا، فَجُوزُوا بذلك جزاء وفاقاً وما ربك بظلام للعبيد).

وقوله: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾. مالك: خازن جهنم، ناداه أهل النار: ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أي: ليقبِضْ أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه.

وفي صحيح البخاري عن عطاء، عن صَفْوانَ بنِ يَعْلى، عن أبيه قال: [سمعت النبي ﷺ يقرأ على المِنْبرِ: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾][1].

وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾. هو جواب مالك لهم حين سألوه الموت والخلاص.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: 36].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى: 11 ـ 13].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا صارَ أَهْلُ الجنَّةِ إلى الجَنَّةِ وأَهْلُ النار إلى النار جِيءَ بالموت حتى يُجْعَلَ بين الجنة والنار، ثم يُذْبَحُ، ثم يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنة لا مَوْتَ، يا أهلَ النار لا مَوْتَ، فيزداد أهلُ الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزدادُ أهلُ النار حُزناً إلى حُزْنِهم][2].

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾. أي: لقد أقمنا عليكم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4819) ـ كتاب التفسير. سورة الزخرف، آية (77).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6548) ـ كتاب الرقاق، وكذلك (6544)، ورواه مسلم.

العذر بحجة الوحي وبيان الرسل ، ولكن سجاياكم لا تَقْبَل الحق ولا تحبه ، بل تألف الباطل وتأنس به ، فلوموا أنفسكم على ما فرطتم وقدمتم لآخرتكم.

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ . قال مجاهد : (أراد كَيْدَ شَرٍّ فكدناهم). أو قال : (إن كادوا شراً كدنا مثله).

وقال قتادة : (أم أجمعوا أمراً فإنا مجمعون). وقال ابن زيد : (أم أحكموا أمراً فإنا محكمون لأمرنا).

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 50].

2 ـ وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق : 15 ـ 16].

وفي الصحيحين عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالى ليُملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفلته][1].

وفي صحيح الترمذي عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [إذا أراد الله بعبده الخيرَ عجلَ له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشَّرَ أمسك عنه حتى يُوافى به يوم القيامة][2].

وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾ . أي : إسرارهم في أنفسهم وعلانيتهم في مناجاتهم بينهم.

وقوله : ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ . قال السدي : (الحفظة).

قال القرطبي : (﴿ بَلَىٰ ﴾ نسمع ونعلم ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي الحفظة عندهم يكتبون عليهم).

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ . فيه أكثر من تأويل :

1 ـ قال مجاهد : (قل إن كان لله ولد في قولكم ، فأنا أول من عبد الله وَوَحَّدَه وكذّبكم).

2 ـ قال ابن عباس : (يقول : لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ـ كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (2583) ـ كتاب البر والصلة. ورواه ابن ماجة والترمذي وغيرهم. انظر صحيح الجامع (1818).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1953) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1220).

3 ـ وقال قتادة: (هذه كلمة من كلام العرب ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ أي إن ذلك لم يكن، ولا ينبغي).

4 ـ قال السدي: (لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً، ولكن لا ولد له).

قلت: والقول الرابع أقرب للسياق، والمقصود لو فُرض هذا فأنا أول من يعظم ذلك الولد كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، فالشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4].

وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. قال قتادة: (أي يكذبون). والآية تنزيه من الله تعالى لنفسه عما يصفه به الظالمون، أي: تعالى وتَقَدَّس سبحانه عن الولد، فهو فرد صمد، لا نظير له، ولم يكن له كفواً أحد، وهو رب السماوات والأرض ورب العرش والكل محتاج إليه، فقير إلى رحمته وفضله.

وقوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾. قال السدي: (يوم القيامة). قال النسفي: (﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ في باطلهم ﴿ وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم ﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي القيامة، وهذا دليل على أن ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب).

84 ـ 89. **قول تعالى:** ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ العبودية لله سواء في أهل السماء أو في أهل الأرض فهو الملك وإليه أمر الساعة وكل إليه راجعون، ولا يملك أحد الشفاعة إلا بإذنه فأنى يصرفون. إنهم يقرون لله بالربوبية ومع ذلك يشركون به في عبادتهم فسوف يعلمون.

فعن قتادة: (﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ قال: يُعبد في السماء،

ويُعبد في الأرض). قلت: فإنه سبحانه لم يقل: (وهو الله في السماء وهو الله في الأرض)، فإن لفظ الإلـه في لغة العرب لا تعني إلا المعبود والمألوه والمطاع. فيكون المعنى للمتبصر في لغة العرب: (وهو الذي في السماء معبود وفي الأرض معبود). فالملائكة في عبادة مستمرة لا يفترون. وكذلك المؤمنون في الأرض يتقلبون بين أصناف العبادة في كل وقت وحين.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾. قال ابن جرير: (الحكيم في تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء، العليم بمصالحهم).

وقوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

تبارك: تفاعل من البركة. قال ابن كثير: (أي استقرَّ له السلامةُ من العيوب والنقائص، لأنه الربُّ العَلِيُّ العظيمُ، المالك للأشياء، الذي بيده أزمَّةُ الأمورِ نقضاً وإبراماً).

وقوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾. أي وقت قيامها، فلا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. أي للحساب، لنوال الثواب، ونكال العقاب. فيجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾. قال مجاهد: (عيسىٰ وعزير، والملائكة). أي لا يملك من دُعي من الأصنام والأوثان وغيرهم أن يشفعوا عند الله.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. قال سعيد بن جبير: (ـ المعنى ـ ولا يملك هؤلاء [1] الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة. قال: وشهادة الحق لا إله إلا الله). قال قتادة: (الملائكة وعيسىٰ وعزير قد عُبدوا من دون الله، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة).

وخلاصة المعنى كما قال الحافظ ابن كثير: (﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أي: لكن مَن شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعتُه عنده بإذنه له).

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله من

(1) المراد عيسى وعزير والملائكة ونحوهم.

قومك: من خلقهم؟ ليقولنّ: الله خلقنا ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ فأيُّ وجه يصرفون عن عبادة الذي خلقهم، ويحرمون إصابة الحق في عبادته).

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

قال قتادة: (هذا قول نبيكم عليه الصلاة والسلام يشكو قومه إلى ربه). قال مجاهد: (فأبرّ الله عز وجل قول محمد ﷺ).

وفي لفظ: ﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ تأويلان ـ على قراءة النصب ـ قراءة قراءمكة والبصرة. أي: «وقيلَه».

التأويل الأول: العطف على قوله: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾. أي: ونسمع قيله يا رب.

التأويل الثاني: أن يقّدر فِعل. أي: «وقال قيلَه».

وأما على القراءة بالكسر: «وقيلِه» ـ قراءة قراء الكوفة ـ فالتأويل العطف كما يلي: «وعنده علم الساعة وعلم قيله».

قال القرطبي: (في ﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ ثلاث قراءات: النصب، والجرّ، والرفع. فأمّا الجرّ فهي قراءة عاصم وحمزة. وبقية السبعة بالنصب. وأما الرفع فهي قراءة الأعرج وقتادة وابن هُرْمُز ومسلم بن جُندب. فمن جرّ حمله على معنى: وعنده علم الساعة وعلم قيله. ومن نصب فعلى معنى: وعنده علم الساعة ويعلم قيلَه، وهذا اختيار الزجاج. وقال الفراء والأخفش يجوز أن يكون «وقيله» عطفاً على قوله ﴿ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ﴾).

وقوله: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ﴾. أَمْرٌ بالإعراض عنهم وتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحية لهم. أي: أعرض عن هؤلاء المشركين من قومك ـ يا محمد ـ ولا تجاوبهم بمثيل سيئ كلامهم بل تألفهم واصفح عنهم فِعلاً وقولاً. قال القاسمي: (﴿ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ﴾ أي: لكم أو عليكم. أو أمري سلام. أي متاركة، فهو سلام متاركة لا تحية).

وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾. تهديد ووعيد. أي سيعلمون قريباً إذا نزل بهم بأس الله ووعده، وأعلى دينه وأولياءه، وشرع لهم الجهاد والجلاد، وانتشروا في الأرض ودخل الناس في دين الله أفواجاً، كيف يكون الخزي عليهم والذل يحيط بهم.

وعن قتادة: (﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يُعزي نبيّه ﷺ، قال: اصفح عنهم، ثم أمره بقتالهم).

وقال ابن جرير: (﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما يلقون من البلاء والنكال والعذاب على كفرهم).

تم تفسير سورة الزخرف

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً.

2 ـ على ظهر كل بعير شيطان ، فإذا ركبتموها فسمّوا الله ـ عز وجل ـ ثم لا تقصِّروا عن حاجاتكم.

3 ـ لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقىٰ كافراً منها شربة ماء.

4 ـ ينزل عيسىٰ بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق.

5 ـ إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظِلِّي ، يوم لا ظِلّ إلا ظِلّي.

6 ـ يجاء بالموت يوم القيامة فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت.

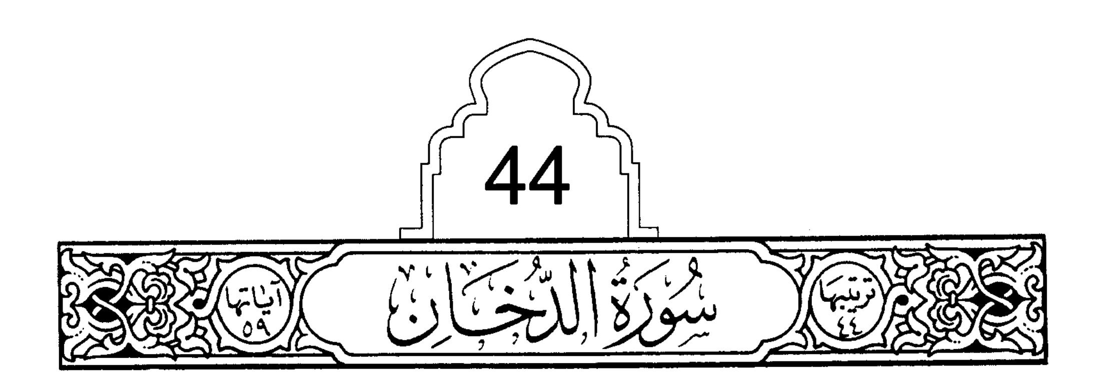
7 ـ إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشَّر أمسك عنه حتى يوافى به يوم القيامة.

8 ـ ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عند الله بإذن الله.

9 ـ ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ أمر بالإعراض عنهم وتوديعهم ، وليس تحية لهم.

10 ـ الأمر بالصفح كان أول الإسلام ، فلما شرع الجهاد صار هو منهاج السلام.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية في الغالب[1] ، وعدد آياتها (59).

ما ورد في ذكرها:

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر: [أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبَلَ ابنِ صَيَّادٍ حتىٰ وجده يلعب مع الصبيان عند أُطُمِ بني مَغَالَةَ ، وقد قارب ابنُ صياد يومئذ الحُلُمَ ، فلم يشعر حتىٰ ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده ثم قال رسول الله ﷺ لابن صياد: أتشهد أني رسول الله؟ فنظرَ إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسولُ الأمِّيين ، فقال ابن صياد لرسول الله ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ فرفضَهُ رسول الله ﷺ ، وقال: آمنت بالله وبرسله ، ثم قال رسول الله ﷺ: ماذا ترىٰ؟ قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذبٌ ، فقال له رسول الله ﷺ: خُلِّطَ عليك الأمر. ثم قال له رسول الله ﷺ: إني قد خبأتُ لك خبيئاً. فقال ابن صياد: هو الدُّخُ. فقال له رسول الله ﷺ: اخسأ فلن تَعْدُوَ قَدْرَك][2].

وقوله: «الدُّخ» يعني سورة الدخان ، وكان قد أضمر ﷺ لابن صياد آية الدخان: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يهتد ابن صياد من الآية إلا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان إذا ألقىٰ الشيطان إليهم بقدر ما يخطف قبل أن يدركه الشهاب.

(1) قال القرطبي: (مكية باتفاق ، إلا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ [الدخان: 15]).

(2) حديث صحيح. رواه مسلم (8/ 192 ـ 193). وانظر مختصر صحيح مسلم (2044) ـ كتاب الفتن ، باب: في قصة ابن صياد ، في أثناء حديث طويل.

وفي مسند البزّار ومعجم الطبراني عن زيد بن حارثة: [أن رسول الله ﷺ - قال لابن صياد: «إني قد خَبأت خَبْأ فما هو؟» - وخبأ له رسول الله ﷺ - سورة الدخان - فقال: هو الدُّخُّ، فقال: «اخسأ، ما شاء الله كان». ثم انصرف][1].

موضوع السورة

تهديد الكافرين المعاندين للمرسلين
بدخان الدنيا ودخان نار الجحيم

- منهاج السورة -

1 - انتصار من الله تعالىٰ للقرآن العظيم، الذي نزل في ليلة القدر من شهر رمضان الكريم.

2 - تضييق الله حياة المشركين في مكة بالدخان والجهد والقحط لعلهم يرجعون.

3 - كشف الله العذاب عن القوم حين دعوه، فلما غدروا أعقبهم يوم بدر يوم البطشة الكبرىٰ، والعذاب الأدنىٰ.

4 - تسلية الله تعالىٰ رسوله ﷺ بذكر خبر موسىٰ عليه السلام مع الطاغية فرعون.

5 - غرق فرعون وجنوده، ومغادرتهم الجنات والعيون، ليرثها من بعدهم بنو إسرائيل.

6 - إنكار مشركي العرب البعث بعد الموت و الحساب، ومطالبتهم بإحضار الآباء وتعجيل الثواب أو العقاب.

7 - التقريع على المشركين بأنهم ليسوا أقوىٰ من قوم تُبَّعٍ والأمم السالفة المتجبرة التي كذبت بالحساب، فنزل بها انتقام الله وعاجل العقاب.

8 - تقرير الله تعالىٰ حكمته في الخلق، أنها للجِدّ والعبادة لا للهزل واللعب.

---

(1) متن صحيح. أخرجه البزار (3399) والطبراني (4666)، وقال الهيثمي في «المجمع» (12562): (فيه زياد بن الحسن، ضعفه أبو حاتم، ووثقه ابن حبان). لكن للحديث شواهد كثيرة منها الحديث الذي قبله في صحيح مسلم.

9 ـ تأكيد جمع الله الخلائق ليوم الفصل حيث لا يغني حميم ولا قريب ، ولا ينجو إلا من رحم الله وجاء بقلب منيب.

10 ـ نَعْتُ طعام المشركين بأنه من شجرة الزقوم ، فهو يغلي في البطون كغلي الحميم.

11 ـ الأمر بإدخال الطغاة إلى وسط الجحيم ، وأن يصب على رأس أحدهم من الحميم. ثم يقال له توبيخاً: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

12 ـ نعْتُ مقام المتقين في جنات النعيم ، وطعامهم ولباسهم ونكاحهم وقد وقاهم الله عذاب الجحيم.

13 ـ تسلية النبي ﷺ بهذا البيان والذكر الحكيم ، ووعده بالنصر القريب علىٰ القوم الكافرين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 8. **قوله تعالىٰ:** ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: نزولُ القرآن الكريم في ليلة القدر من شهر رمضان، وهي ليلة خير من ألف شهر، يُفْصَل فيها من اللوح المحفوظ كل أمر محكم لا يتبدل، رحمة من الله الواحد الأحد رب العالمين.

فقوله تعالىٰ: ﴿حمٓ﴾. هو كسابقه في مفهوم الحروف المقطعة أوائل السور. وأنه يقتضي الإعجاز.

وقوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾. انتصار لهذا القرآن عقب تلك الحروف. فهو الكتاب الواضح في آياته، البين في دلالاته وأحكامه ومعانيه.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾. هي: ليلة القدر، في شهر رمضان. كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]. وكما قال جل ذكره: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185].

قال قتادة: (أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيّه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة).

وفي سنن ابن ماجة بسند حسن عن أنس بن مالك قال: دخل رمضان. فقال رسول الله ﷺ: [إنّ هذا الشَّهْرَ قَدْ حَضَرَكُمْ وفيه لَيْلَةٌ خَيْرٌ من أَلْفِ شَهْر. مَنْ حُرِمَهَا فقد

حُرِمَ الخيرَ كُلَّه. ولا يُحْرَمُ خَيْرها إلا مَحْرومٌ][1].

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾. قال ابن كثير: (أي: مُعلِمين الناسَ ما ينفعُهم ويضُرُّهم شرعاً، لِتَقومَ حُجّة الله على عباده).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾. أي: يُفْصَل في هذه الليلة من اللوح المحفوظ كل أمر محكم لا يتبدل ولا يتغيّر، فينزل إلى الكَتَبَةِ ما سيكون في السَّنة من الآجال والأرزاق والأحوال الهامة.

قال ربيعة بن كلثوم: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر، أفي كل رمضان هي؟ قال: (نعم والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي كل رمضان، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، يقضي الله كلَّ أجل وخلق ورزق إلى مثلها). وفي رواية: (فيها يقضي الله كل أجل وأمل ورزق إلى مثلها).

وعن عمر مولىٰ غفرة قال: (يقال: ينسخ لملك الموت من يموت ليلة القدر إلى مثلها، وذلك لأن الله عزّ وجل يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ وقال: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ قال: فتجد الرجل ينكح النساء ويغرس الغرس واسمه في الأموات).

وعن مجاهد: (قوله: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾. قال: في ليلة القدر كلّ أمر يكون في السنة إلى السنة: الحياة والموت، يقدر فيها المعايش والمصائب كلها).

وقوله: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾. أي: كل ما يكون وَيُقَدَّر تلك الليلة فبإذن الله وعلمه. قال ابن عيسىٰ: (هو ما قضاه الله في الليلة المباركة من أحوال عباده). وقوله: ﴿ أَمْرًا ﴾ في محل نصب حال، أو في محل نصب على الاختصاص.

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾. قال القاسمي: (أي مرسلين إلى الناس رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، رحمة منه تعالىٰ بهم، لمسيس الحاجة إليه).

وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾. أي: إنما أرسل الله الرسل رحمة بالعباد لاستقامة أمور دنياهم وأخراهم. وقوله: ﴿ رَحْمَةً ﴾ في محل نصب حال. وقيل: مفعول لأجله، أي: أرسلناه للرحمة.

---

(1) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (1644) ـ كتاب الصيام. باب ما جاء في فضل شهر رمضان. انظر صحيح سنن ابن ماجة (1333).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. أي: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

﴿رَبِّ﴾ بدل من ﴿ربك﴾. والمعنىٰ: هو رب السماوات والأرض وما بينهما. ومقصود الشرط: إن كان إقراركم لله بالربوبية عن علم وإيقان، فإنه هو الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل رحمة بكم، وإنه هو السميع لدعاء عباده وقيلهم العليم بما يصلح أحوالهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي: هو خالق العالم، فلا يجوز أن يشرك به غيره ممن لا يقدر على خلق شيء. و﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مالككم ومالك من تقدّم منكم. واتقوا تكذيب محمد لئلا ينزل بكم العذاب).

9 ـ 16. **قوله تعالىٰ**: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تضييقُ الله الخناق على مشركي قريش بالدخان والجهد والقحط حتىٰ لجؤوا إلى رسول الله ﷺ يناشدونه بالرحم أن يسأل ربه رفع العذاب، فكشفه تعالىٰ ثم تمادوا فأخزاهم يوم بدر بأشد العقاب.

فقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾. أي: بل هؤلاء المشركون من قريش في شك يمترون ولا يوقنون. قال النسفي: (وإن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن بل قول مخلوط بهزء ولعب).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآيات.

أخرج البخاري ومسلم عن مُسلِم بن صَبيح، عن مسروق قال: قال عبد الله: [إنما

كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتىٰ أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرىٰ ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال: فَأُتي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله ، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، قال: لمضر؟ إنك لجريء ، فاستسقىٰ فسقوا ، فنزلت: ﴿ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾. فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ قال: يعني يوم بدر].

وفي رواية لمسلم: [جاء إلى عبد الله رجل فقال: تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه ، يفسِّر هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ قال: يأتي الناس يوم القيامة دخان فيأخذ بأنفسهم حتىٰ يأخذهم منه كهيئة الزكام. فقال عبد الله: مَنْ عَلِم عِلْماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا علم له به: الله أعلم. إنما كان هذا فذكره].

وفي رواية: [فجعل الرجل ينظرُ إلى السماء ، فيرىٰ ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهْدِ ، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، فَأُتِي رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله ، استسق الله لِمُضَرَ ، فإنها قد هَلَكَت. فاستسقىٰ لهم فَسُقُوا ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾. قال ابن مسعود: فيكشِفُ العذابَ عنهم يومَ القيامة؟! فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم ، فأنزل الله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ ، قال: يعني يوم بدر. قال ابن مسعود: فقد مضىٰ خمسةٌ: الدخان ، والرومُ ، والقمرُ ، والبطشة ، واللِّزام][1].

وأخرجه الطبراني بسند صحيح عن مسروق قال: [دخلنا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ عند أبواب كِنْدَةَ ، فإذا رجلٌ يقصُّ على أصحابه: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يومَ القيامة ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام ، قال: فأتينا ابنَ مسعود فذكرنا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4821) ، ومسلم (2798) ، والترمذي (3251) ، والنسائي في «التفسير» (501) ، (503).

ذلك له ، وكان مُضْطجعاً فَفَزِع فقعد ، وقال: إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: 86] ، إنَّ مِنَ العِلم أن يقولَ الرجلُ لما لا يعلَم: الله أعلم. سأحدِّثكم عن ذلك ، إنَّ قُرَيْشاً لما أبطأَتْ عن الإسلام واستَعْصَتْ على رسول الله ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسِني يوسُف ، فأصابهم من الجَهد والجُوع حتىٰ أكلوا العظامَ والمَيتة ، وجعلوا يرفَعونَ أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان][1] .

وقد عدّ النبي ﷺ الدخان في الآيات التي تكون قبل قيام الساعة كما في حديث حُذيفة بن أَسِيدٍ الغفاري ـ في صحيح مسلم ومسند أحمد ـ قال: [اطَّلَعَ النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكرُ ، فقال: ما تَذْكُرون؟ قالوا: نَذْكُرُ الساعة ، قال: إنها لَنْ تقومَ حتىٰ تَرَوْنَ قبلها عَشْرَ آيات. فذكر: الدُّخان ، والدّجال ، والدّابة ، وطلوعَ الشمس مِنْ مَغْرِبِها ، ونُزولَ عيسىٰ بن مريم ﷺ ، ويأجوجَ ومأجوجَ ، وثلاثةَ خُسوفٍ: خَسْفٌ بالمَشْرِق ، وخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ ، وخَسْفٌ بجزيرة العرب ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخْرُجُ من اليمن ، تطرُدُ الناس إلى مَحْشَرِهم][2] .

قال ابن مسعود: [خمسٌ قَدْ مَضَيْنَ: الدُّخَانُ ، واللِّزامُ ، والرُّوم ، والبَطْشَةُ ، والقَمَرُ][3] .

وفي صحيح مسلم عن أبي بن كعب ، في قوله عز وجل: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ ﴾ [السجدة: 21]. قال: [مصائبُ الدنيا ، والرومُ ، والبَّطْشَةُ ، أو الدُّخان][4] ـ شُعْبَةُ هو الشّاك في البطشة أو الدخان ـ.

وقوله: ﴿ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ ﴾. أي: يتغشاهم ويَعُمُّهم. ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ ـ تقريع لهم وتوبيخ ـ. أي يقول الله لهم: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴾ .

هو قول قريش للنبي ﷺ: إنْ كشف الله عنّا هذا العذاب آمنا بك وأسلمنا معك. قال

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبري (31043) ، وإسناده صحيح.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2901) ـ كتاب الفتن ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة. ورواه أحمد (4/ 6) ، وابن أبي شيبة (15/ 163) ، وأخرجه الحميدي (827).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2798) ح (41) ـ كتاب صفات المنافقين. باب الدخان.
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2799) ـ كتاب صفات المنافقين ، الباب السابق.

قتادة: (العذاب هنا الدخان). وقال النقاش: (الجوع). وكلا المعنيين وارد ولا تناقض، فقد اجتمع عليهم الجهد والجوع والدخان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾. أي: من أي وجه يتذكرون وقد تولوا عن رسول الله ﷺ والقرآن والحجج.

قال ابن عباس: (أي متىٰ يتّعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد تولّيهم عن محمد ﷺ وتكذيبهم إياه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾.

قال مجاهد: (تولوا عن محمد عليه الصلاة والسلام وقالوا معلم مجنون).

قال النسفي: (كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ أي: وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الاذّكار من كشف الدخان، وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من الآيات والبينات من الكتاب المعجز وغيره، فلم يذكروا وتولوا عنه وبهتوه بأنّ عَدّاساً غلاماً أعجمياً لبعض ثقيف هو الذي علمه، ونسبوه إلى الجنون).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾.

أي: إنا سنكشف عنكم العذاب الذي أنزلناه بكم زماناً قليلاً أو كشفاً يسيراً، ولكنكم سرعان ما تعودون إلى كفركم وغيكم وتنسون فضل ربكم.

قال ابن مسعود: (فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية) ـ رواه مسلم[1].

وقوله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾.

قال ابن مسعود: (البطشة الكبرىٰ: يوم بدر). قال ابن جرير: (فعادوا، فبطش بهم جل ثناؤه بطشته الكبرىٰ في الدنيا فأهلكهم قتلاً بالسيف).

17 ـ 33. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2798) ـ وقد مضىٰ بتمامه.

بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

في هذه الآيات: تسليةُ الله تعالىٰ رسوله ﷺ بذكر خبر موسىٰ عليه السلام مع الطاغية فرعون، وتكذيب القوم بالوحي والنبوة حتىٰ دكّهم الله بالهلاك وتركوا الجنات والعيون، وأورثها الله بني إسرائيل بعد أن نجّاهم، وأكرمهم بالتوراة والآيات ومحّص إيمانهم وابتلاهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: ولقد اختبرنا قبل مشركي قومك يا محمد قوم فرعون، وهم قبط مصر، وبعثنا فيهم موسىٰ عليه الصلاة والسلام. قال قتادة: (قوله: ﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ قال: موسىٰ عليه السلام، ووصفه جل ثناؤه بالكرم لأنه كان كريماً عليه، رفيعاً عنده مكانُهُ، وقد يجوز أن يكون وصفه بذلك لأنه كان في قومه شريفاً وسيطاً).

وقوله: ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ﴾.

قال قتادة: (يعني به بني إسرائيل، قال لفرعون: علام تحبس هؤلاء القوم، قوماً أحراراً اتخذتهم عبيداً، خلّ سبيلهم).

والآية كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: 47].

وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾. قال ابن جرير: (أمين على وحيه ورسالته التي أوعدنيها إليكم).

وقوله: ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾. قال ابن عباس: (لا تفتروا على الله). وقال قتادة: (أي: لا تبغوا على الله).

وقال ابن كثير: (أي لا تَسْتَكْبِروا اتباعَ آياته، والانقياد لِحُجَجه والإيمانِ ببراهينه، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: 60]).

وقوله: ﴿ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾. قال قتادة: (أي: بعذر مبين).

والمراد: الآيات البينات والأدلة الساطعات والحجج الظاهرات التي أكرم الله بها موسىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴾. قال ابن عباس: (هو الرَّجم باللسان، وهو الشّتم). وقال قتادة: (الرجم بالحجارة). والمقصود: إني أعوذ بالله ربي وربكم أن تصلوا إلي بسوء بقول أو فعل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾. قال قتادة: (أي فخلوا سبيلي). وقال مقاتل: (أي دعوني كَفافاً لا لِيَ ولا عَلَيّ). والمقصود: كفوا أذاكم عني ولا تتعرضوا لي ودعوا الأمر مسالمة بيني وبينكم حتىٰ يحكم الله بيننا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾.

أي: فلما طال مُقامه فيهم يقيم حجج الله عليهم، ولم يظهروا إلا العناد والاستكبار والإجرام، دعا عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ﴾ [يونس: 88 ـ 89].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾.

في الكلام محذوف تقديره: فأجابه ربه في دعوته، وأمره أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم متجاوزاً فرعون وإذنه، كما قال جل ذكره: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: 77].

قال النسفي: (﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي: دبّر الله أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده، فينجي المتقدمين ويغرق التابعين).

وقوله: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾. الرّهو: السير السهل. قال ابن عباس: (﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾: كهيئته وامضِه). وقال مجاهد: (طريقاً يَبَساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجعُ، اتركه حتىٰ يرجعَ آخرُهم). والمعنىٰ: لما جاوز موسىٰ ببني إسرائيل البحر، أراد أن يضرب بعصاه البحر ليعود كما كان، حتىٰ يصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم، فأمره الله بتركه ساكناً وطمأنه بأن لا يخاف دركاً ولا يخشىٰ، وبأن فرعون وجنوده في عداد الغرقىٰ، وهو قوله: ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾. ﴿كَمۡ﴾: للتكثير. أي: كم تركوا من بساتين وعيون ماء، كالأنهار والآبار، كانوا ينعمون بخيراتها فأهلكهم الله ومنعهم من الاستمرار في النعيم، وصيّرهم إلى حياة الهلاك والجحيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾. أي: وكم تركوا من زروع وثمار مختلفة، ومساكن أنيقة وأماكن حسنة كانوا يستمتعون بالمقام فيها. قال مجاهد: (﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾: المنابر). وقال قتادة: (﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾: أي حسن).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾. قال قتادة: (ناعمين).

قال ابن كثير: (أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا، ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولىٰ على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل).

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾. قال قتادة: (يعني بني إسرائيل).

وهو كقوله جل ثناؤه: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: 59]. وكقوله جل ذكره: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾.

قال الحسن: (فما بكىٰ عليهم الملائكة والمؤمنون، بل كانوا بهلاكهم مسرورين).

قال القاسمي: (﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ فيه تهكّم بهم وبحالهم، المنافية

لحال من يعظم فقده. فيقال فيه: بكت عليه السماء والأرض. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: مؤخّرين بالعقوبة. بل عوجلوا بها، زيادة سخط عليهم).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. أي: من استعباد فرعون وقتله أبناءهم. قال قتادة: (بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من العذاب، إنه كان جباراً من المشركين. قال القرطبي: (وليس هذا عُلُوّ مَدْح بل هو عُلُوٌّ في الإسراف، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 4]. وقيل: هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال قتادة: (أي اختيروا على أهل زمانهم ذلك، ولكل زمان عالم). أي: اختار الله بني إسرائيل على عالم ذلك الزمان، فخلّصهم من الغرق وأورثهم الأرض بعد فرعون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾. قال قتادة: (أنجاهم الله من عدوهم، ثم أقطعهم البحر، وظلّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنّ والسلوىٰ). وقال ابن زيد: (﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ قال: اختبار يتميز به المؤمن من الكافر). وقال: (ابتلاؤهم بالرخاء والشدة، ثم قرأ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]).

والمقصود: اختبرهم الله تعالىٰ بالآيات المعجزات، والخوارق البينات، والحسنات والسيئات، ليميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

34 ـ 37. **قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إنكارُ مشركي العرب البعث بعد الموت والحساب، وتحديهم بإحضار الآباء وتعجيل ذلك الثواب أو العقاب، فهل هم أقوىٰ من قوم تُبَّعٍ والأمم السالفة المتجبرة التي دكّها العذاب؟!

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ .

قال قتادة: (قد قال مشركو العرب: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي: بمبعوثين). يقال: أنشر الله الموتىٰ ، ونشرهم إذا بعثهم.

والمعنىٰ: أن هؤلاء مشركي قومك يا محمد يكذبون بالنشور بعد الموت والثواب والعقاب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ . خطاب من المشركين لمن يعدهم النشور من رسول الله ﷺ والمؤمنين.

قال النسفي: (أي إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتىٰ يكون دليلاً على أن ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتىٰ حق).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ .

أي: أهم خير في القوة والمنعة أم قوم تبّع الحميري ومن مضىٰ قبلهم من الأمم القوية المتجبرة دمّرهم الله ودكّ عروشهم بإجرامهم وكفرهم بالبعث والحساب.

قال قتادة: (ذُكر لنا أن تُبَّعاً كان رجلاً من حمير ، سار بالجيوش حتىٰ حير الحيرة ، ثم أتىٰ سمرقند فهدمها. وذُكر لنا أنه كان إذا كتب كتبَ باسم الذي تسمّىٰ وملك برّاً وبحراً وصحاً وريحاً. وذُكر لنا أن كعباً كان يقول: نُعِتَ نَعْتَ الرَّجُل الصالح ذمَّ الله قومه ولم يذمه. وكانت عائشة تقول: لا تسبّوا تُبَّعاً ، فإنه كان رجلاً صالحاً).

وقوم تبّع ـ هم سبأ ـ أهلكهم الله وخرّب بلادهم وشرّدهم في البلاد ، وفرقهم شذَر مذَر ، وقد شبههم الله في إنكارهم للمعاد بقريش ، فقد كانوا عرباً من قحطان ، وهؤلاء عربٌ من عدنان. وقد كانت حِمير ـ وهم سبأ ـ كلما ملَكَ فيهم رجلٌ سَمَّوه تُبَّعاً ، كما يقال: كسرىٰ لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم ، وفرعون لمن ملك مصر كافراً ، والنجاشي لمن ملك الحبشة ، ونحو ذلك.

ولكن يبدو أن تبعاً أسلم فجاءه المدح في السنة الصحيحة وبقي الذم لقومه. فقد

أخرج الإمام أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً: [لا تَسُبُّوا تُبَّعاً ، فإنه كان قدْ أَسْلَمَ][1] .

وأخرجه الحاكم بسند صحيح على شرط الشيخين عن عائشة أنها قالت: [كان تُبَّعٌ رجلاً صالحاً ، ألا ترىٰ أن الله عز وجل ذمّ قومه ولم يذمّه؟][2] .

وله شاهد مرسل جيد أخرجه عبد الرزاق قال: أخبرنا بكار بن عبد الله قال: سمعت وهب بن منبه يقول: [نهىٰ رسول الله ﷺ الناس عن سبّ أسعد ، وهو تُبَّع. قلنا: يا أبا عبد الله! وما كان أسعد؟ قال: كان على دين إبراهيم ﷺ][3] .

وفي سنن أبي داود ومستدرك الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما أدري تُبَّعٌ ألعيناً كانَ أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبيّاً كان أم لا؟ وما أدري الحدود كفاراتٌ أم لا؟][4] .

وقد وقع في «المستدرك» لفظ (أنبياً) بدل (ألعيناً) ويبدو أنه خطأ من بعض نسّاخ «المستدرك» والصواب (ألعيناً) .

قال ابن عساكر عقب الحديث: (وهذا الشك من النبي ﷺ كان قبل أن يبين له أمره ، ثم أخبر أنه كان مسلماً ، وذاك فيما أخبرنا. . . ثم ساق الحديث السابق: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان أسلم») .

وبنحوه قول الهيثمي: (يحتمل أنه ﷺ قاله في وقت لم يأته فيه العلم عن الله ، ثم لما أتاه قال ما رويناه في حديث عبادة وغيره) . يعني قوله ﷺ: « . . . ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له . . » أخرجه الشيخان وغيرهما .

---

(1) أخرجه أحمد (5/ 340) ، والطبراني في «الأوسط» (ص 368 ـ مجمع البحرين) ، وله شواهد تقويه . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2423) .

(2) أخرجه الحاكم (2/ 450) ، وقال: صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

(3) أخرجه عبد الرزاق من مرسل وهب بن منبه. وبكار بن عبد الله ـ هو اليمامي ـ قال الذهبي: «ما علمت به بأساً». قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (ج 5/ص 549): أخرجه ابن عساكر . فهو شاهد مرسل جيد .

(4) أخرجه أبو داود (4674) ـ دون الجملة الثالثة ، وأخرجه الحاكم (1/ 36) ، وعنه البيهقي (8/ 329) ، وابن عساكر في «التاريخ» (3/ 251/ 1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2217) ، وهو حديث صحيح على شرط الشيخين .

38 ـ 42. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

في هذه الآيات: تقريرُ الله تعالىٰ حكمته في الخلق للجدّ والعبادة لا للهزل واللعب، وتأكيدُه الفصل لجميع الخلائق في يوم الفصل حيث لا يغني حميم ولا قريب، ولا ينجو يومئذ إلاّ من رحم الله وجاء بقلب منيب.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾. قال مقاتل: (غافلين). وقال الكلبي: (لاهين). والآية إخبارٌ عن كمال عدله وحكمته سبحانه في غاية الخلق، وعن تنزيهه نفسه عن اللهو والعبث والباطل.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: 27].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 115 ـ 116].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالىٰ: [قال الله عز وجل: يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن عبد الله قال: [نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله! لو اتخذنا لك وِطاءً، فقال: ما لي

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 17)، وأخرجه أحمد (5/ 160) ـ في أثناء حديث طويل.

وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استَظَلَّ تَحْتَ شجرة ، ثمَّ راحَ وتركها][1] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن جرير: (ما خلقنا السماوات والأرض إلا بالحق الذي لا يصلح التدبير إلا به. لم نخلق الخلق عبثاً بأن نحدثهم فنحييهم ما أردنا ، ثم نفنيهم من غير الامتحان بالطاعة والأمر والنهي، وغير مجازاة المطيع على طاعته ، والعاصي على المعصية. . . ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أنَّ الله خلق ذلك لهم ، فهم لا يخافون على ما يأتون من سخط الله عقوبة ، ولا يرجون على خير إن فعلوه ثواباً لتكذيبهم بالمعاد).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . قال قتادة: (يوم يُفصَلُ فيه بين الناس بأعمالهم). فيوم الفصل ﴿ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . أي: يوم يجمع الله الأولين والآخرين ثم يفصل بينهم: فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ ﴾ الأول. والموْلى: هو الوليّ ، وهو الناصر والمعين.

قال قتادة: (انقطعت الأسباب يومئذ بابن آدم ، وصار الناس إلى أعمالهم ، فمن أصاب يومئذ خيراً سعد به آخر ما عليه ، ومن أصاب يومئذ شراً شقي به آخر ما عليه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

قال النسفي: (أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الغالب على أعدائه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لأوليائه).

43 ـ 50. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: نَعْتُ طعام المشركين في نار الجحيم ، إنه من شجرة الزقوم طعام

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (4109) ، والترمذي ـ أبواب الزهد. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1936).

يغلي في البطون كغلي الحميم ، ويؤمر بإدخال صاحبه إلى وسط الجحيم ، ثم يصب على رأسه من ماء الحميم ، ويقال لصاحبه استهزاء : ذق إنك أنت العزيز الكريم .

فقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ .

قال القرطبي : (شجرة الزقوم : الشجرة التي خلقها الله في جهنم وسمّاها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها ، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحار . وشبَّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل ، وهو النُّحاس المذاب) .

وفي لغة العرب : أثم الرجل إثماً ومأثماً إذاوقع في الإثم ، فهو آثم وأثيم وأثوم .

وعن يحيى بن سلام : (الأثيم : هو المشرك المكتسب للإثم) .

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس : [أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 102] قال رسول الله ﷺ : لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشَهم ، فكيف بمن يكون طعامه][1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

قال مجاهد : (خذوه فادفعوه) . وقال قتادة : (﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ إلى وسط النار) . وأصل العَتْل : أن تأخذ بتلابيب الرجل فتجرّه لتذهب به إلى حبس أو بليّة . فيقال يوم القيامة للزبانية خذوا هذا الأثيم فجرّوه وسوقوه إلى داخل جهنم .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ .

قال ابن جرير : (ـ يقول ـ : ثم صبوا على رأس هذا الأثيم من عذاب الحميم يعني من الماء المسخّن) . وهو كقوله تعالىٰ : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ [الحج : 19 ـ 20] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ . استهزاء واستخفاف وتوبيخ وإهانة وانتقاص . أي : قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ . قال ابن عباس : (أي لست بعزيز ولا كريم) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس . انظر تخريج : «مشكاة المصابيح» (5683) ، وصحيح الجامع الصغير (5126) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴾. أي: إن هذا العذاب ـ معشر الكفار ـ اليوم، هو الذي كنتم تشكون به في الدنيا فتختصمون فيه ولا توقنون بحدوثه، فها هو اليوم يمس جلودكم ويلفح وجوهكم فذوقوه وأيقنوا.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الطور: 13 ـ 15].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴾ [الرحمن: 43 ـ 44].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالعبد يومَ القيامة فيقول له: ألمْ أجعلْ لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسَخَّرْت لك الأنعام والحَرْثَ، وتَركْتُكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ فكنت تظنّ أنّك مُلاقِيَّ يَوْمكَ هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني][1].

قال أبو عيسىٰ: (ومعنىٰ قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب، وكذا فسّر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ ﴾ [الأعراف: 51] قالوا: معناه: اليوم نتركهم في العذاب).

51 ـ 59. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٥٧ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩ ﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ مقام المتقين بعد نَعْت مقام المجرمين، فالمتقون في جنات وعيون ولباس من حرير ويجلسون متقابلين، وقد زوجهم ربهم بالحور العين، فهم

(1) حديث صحيح. انظر صحيح الترمذي (1978) ـ أبواب صفة القيامة ـ وأصله في صحيح مسلم.

يدعون ألوان الفاكهة آمنين ، فلا موت بعد اليوم وقد وقاهم الله عذاب الجحيم ، وذلك هو الفضل من الله والفوز العظيم. فانتظر يا محمد مآل القوم المكذبين.

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾. قال قتادة: (إي والله ، أمين من الشيطان والأنصاب والأحزان).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾. ترجمة عن المقام الأمين ، فهم في بساتين الخضرة والجمال وبين عيون الماء. قال ابن جرير: (والجنات البساتين ، والعيون: عيون الماء المطرد في أصول أشجار الجنات). قال ابن كثير: (وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقّوم ، وشرب الحميم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾. السندس: ما رقّ من الديباج ، والإستبرق: ما غلظ منه.

قال عكرمة: (الإستبرق: الديباج الغليظ). وقال الزجاج: (هما نوعان من الحرير). فالسندس: رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ، والإستبرق: ما يلبس من الحرير على أعالي القماش ، وله بريق ولمعان.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ [الدهر: 21].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ ﴾ [الكهف: 31].

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: [أهدىٰ أكيدر[1] دومة إلى النبي ﷺ جبة من سندس ، فتعجب الناس من حسنها ، فقال: لمناديل سعد في الجنة أحسن من هذا][2].

وفي الصحيحين أيضاً من حديث البراء قال: [أهدي لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلوا يعجبون من لينه فقال رسول الله ﷺ: تعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا][3].

---

(1) أي أميرها.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2615) ، (3248) ، وأخرجه مسلم (2469).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5836) ، وانظر (3802) ، وأخرجه مسلم (2468).

وقوله: ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾. أي: على السرر، ينظر بعضهم إلى بعض، ولا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾. قال مجاهد: (أنكحناهم حوراً. قال: والحور: اللاتي يحار فيهن الطرف باد مُخُّ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرىٰ الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد، وصفاء اللون).

وعن قتادة: (﴿بِحُورٍ عِينٖ﴾: بيضاء عيناء). وفي رواية: (بيض عين). والعين: جمع عيناء، وهي العظيمة العينين من النساء.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: 72 ـ 74].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: 58].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَحُورٌ عِينٞ ۝٢٢ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ [الواقعة: 22 ـ 23].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: في الصحيحين وسنن ابن ماجة والترمذي عن أنس، أنّ رسول الله ﷺ قال: [لَغَدْوة في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خَيْرٌ من الدنيا وما فيها، ولقابُ قوسِ أحدِكم أو موضِعُ يدِه في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو أنّ امرأة من نِساء أهل الجنة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأتْ ما بينهما ريحاً، ولَنَصيفُها ـ أي خمارها ـ على رأسها خير من الدنيا وما فيها][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن داود بن عامر بن أبي وقاص عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: [لو أنَّ ما يُقِلُّ ظفُرٌ مما في الجنة بدا لتَزَخْرَفَتْ له ما بين خوافق السماوات والأرض، ولو أنَّ رجلاً مِنْ أهل الجنة اطّلَعَ فبَدا أساوِرُهُ لطَمَسَ ضوءَ الشمس كما تطمسُ الشمسُ ضوء النجوم][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني وأبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الشيخان، وابن ماجة (2757)، وانظر صحيح الترمذي (1345).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2061)، وتخريج: «مشكاة المصابيح» (5637).

قط ، إن مما يغنين : نحن الخيِّرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرن بقُرَّةِ أعيان][1] .

وله شاهد في الروض النضير من حديث أنس ولفظه : [إن الحور العينَ لتغنين في الجنة يقلن : نحن الحور الحسان ، خبئنا لأزواج كرام] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ . قال ابن كثير : (أي : مهما طلبوا من أنواع الثمار أُحضِرَ لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ، بل يحضرُ إليهم كلما أرادوا) .

وقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

قال ابن جرير : (ـ أي ـ لا يذوق هؤلاء المتقون في الجنة الموت بعد الموتة الأولىٰ التي ذاقوها في الدنيا) . وهذا الاستثناء يؤكد النفي ، فهو استثناء منقطع ، والمقصود : انعدام الموت في الآخرة ، واستمرار سعادة أهل الجنة .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [يُؤتىٰ بالموت كهيئة كَبْشٍ أمْلَحَ فينادي مُنادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئِبُّونَ ويَنْظُرون فيقول : هل تَعْرِفونَ هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشرَئِبُّون ويَنْظُرون فيقول : هَلْ تعرفونَ هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموتُ ، وكُلُّهم قد رآه ، فيذبَحُ ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلودٌ فلا موتَ ، ويا أهل النار خلودٌ فلا مَوْتَ][2] .

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [ينادي مُناد : إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تبأسوا أبداً][3] .

وفي مسند البزار ومعجم الطبراني بسند حسن عن جابر قال : [قيل يا رسول الله ،

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «الأوسط» ، وأبو نعيم في «الحلية» . انظر صحيح الجامع الصغير (1557) ، وكذلك (1598) للشاهد بعده .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4730) ـ كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (2849) ـ كتاب الجنة ونعيمها ، وانظر الحديث (2850) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2837) ـ كتاب الجنة ونعيمها ، باب في دوام نعيم أهل الجنة .

هل ينام أهل الجنة؟ قال: لا ، النوم أخو الموت][1].

وفي رواية الطبراني: [النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون].

وفي رواية لغيره: [النوم أخو الموت ، ولا ينام أهل الجنة].

وقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾. نور على نور ، وفضل على فضل ، فقد جمع لهم سبحانه بين الخلود في الجنان ، وتحريم أجسامهم عن النيران ، لتقر عيونهم وقلوبهم.

وقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾. قال القرطبي: (أي فعل ذلك بهم تفضّلاً منه عليهم).

وفي الصحيحين والمسند من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لن يُدْخِلَ أحداً منكم عملُه الجنة ، ولا يُنجيه من النار ، قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة. فسدّدوا وقاربوا وأبشروا ، واغدوا وروحوا ، وشيء من الدُّلْجة ، والقَصْد القَصْد تبلغوا . واعلموا أن أحبَّ العمل إلى الله أدومُه وإنْ قلَّ][2].

وفي لفظ ابن ماجة: [قاربوا وسدّدوا. فإنّه ليس أحَدٌ مِنكم بِمُنْجيه عَمَلُه. قالوا: ولا أنت؟ يا رسول الله! قال: ولا أنا. إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. أي: غاية السعادة والربح العظيم والفوز الكبير ، فإن الفرح بدخول الجنة والنجاة من النار لمن أعظم الفرح ، ولا ينافسه إلا الحصول على رضوان الله فلا يسخط أبداً ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم فلا يبأس بعده أبداً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. قال قتادة: (أي هذا القرآن). وقال ابن زيد: (القرآن ، ويسرناه: أطلق به لسانه).

والمقصود: إنما أنزلناه قرآناً عربياً فصيحاً سهلاً واضحاً بأفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ، وسهّلنا ذكره وتلاوته على لسانك وعلى من يقرؤه لعلهم يتعظون ويتفهّمون وينزجرون.

---

(1) حديث حسن. أخرجه البزار (3517) ، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (923) ، وأبو نعيم في «الحلية» (7/ 90) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1087).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 48) ، ومسلم (8/ 140) ، وأحمد (2/ 264) ، والسياق لمسلم. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3386) ـ كتاب الزهد. باب التوقي على العمل.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾. قال النقاش: (أي: انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت). وقال ابن جرير: (فانتظر أنت يا محمد الفتح من ربك والنصر على هؤلاء المشركين بالله من قومك من قريش، إنهم منتظرون عند أنفسهم قهرك وغلبتك بصدّهم عما أتيتهم به من الحق من أراد قبوله واتباعك عليه).

والآية تسلية للنبي ﷺ من الله عما يلقاه من عناد قومه وتكذيبهم، وحمل بشائر النصر له والظفر عما قريب.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: 21].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: 51].

أخرج الخطيب في «التاريخ»، والديلمي بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النَّصر مع الصَّبر، والفرجُ مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسراً، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً][1].

تم تفسير سورة الدخان
بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287)، والديلمي (4/ 111 ـ 112)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2382).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ أنزل القرآن كله في ليلة القدر ، وهي ليلة مباركة خير من ألف شهر.

2 ـ مَنْ حُرِمَ خير ليلة القدر فقد حُرم أعظم الخير ، ولا يُحرم خيرها إلا محروم.

3 ـ من علامات الساعة : الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسىٰ بن مريم ﷺ ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، ونار تخرج من اليمن.

4 ـ البطشة الكبرىٰ : يوم بدر ، والعذاب الأدنىٰ : مصائب الدنيا ، والعذاب الأكبر : عذاب الآخرة.

5 ـ الابتلاء بالرخاء والشدة ، وبالاختبار يميز الله الخبيث من الطيب.

6 ـ لا تسبّوا تُبّعاً ، فإنه كان قد أسلم ، وكان على دين إبراهيم عليه السلام.

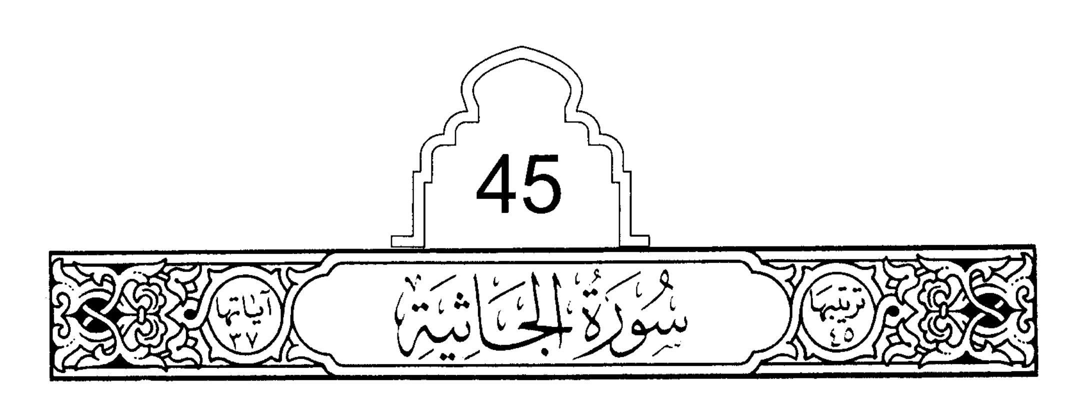
7 ـ ما الدنيا في الآخرة إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.

8 ـ لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه!؟.

9 ـ ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ : استهزاء واستخفاف وتوبيخ وإهانة وانتقاص.

10 ـ النوم أخو الموت ، وأهل الجنة لا ينامون.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (37) .

موضوع السورة

مخالفة الله بين المؤمنين والفاسقين
ومشهد الأمم وهي جاثية لنيل الجزاء يوم الدين .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ ثناء الله على كتابه المسطور ، وإظهار بديع آياته في كونه المنشور .

2 ـ تهديدُ الله المعاندين لآياته المستكبرين ، وتوعده لهم بعذاب الهون في نار الجحيم .

3 ـ امتنان الله على عباده تسخيره لهم البحر وما في السماوات والأرض لعلهم يشكرون .

4 ـ ترغيب المؤمنين بالعفو والصفح حتىٰ يأتي أمر الله المبين ، وكل نفس بما كسبت رهينة ثم إلى ربكم ترجعون .

5 ـ إخبار الله تعالىٰ عن فضله ونعمه على بني إسرائيل ، ومقابلة بعضهم نعمه بالبغي والظلم .

6 ـ امتنان الله تعالىٰ على رسوله ﷺ بهذه الشريعة المليئة بالحكم والعلم ، وأمره ـ تعالىٰ ـ له بمخالفة أهل الشرك والظلم .

7 ـ مخالفة الله تعالىٰ بين المؤمنين والفاسقين في الدارين ، وختمه ـ تعالىٰ ـ على أسماع وقلوب أهل الهوىٰ ، وطمس أبصارهم عن الهدىٰ .

8 ـ نَسْبُ المشركين المصائب والموت إلى الدهر ، وإنكارهم البعث من القبور والحشر .

9 ـ إثباتُ الملك لله والخسارة على المبطلين ، وكل أمة جاثية يوم القيامة لتدعىٰ إلى كتابها وليظهر الحق واليقين .

10 ـ إخبار الله عن افتراق الأمم يوم القيامة فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالىٰ:** ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٣) وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٥)﴾.

في هذه الآيات: انتصار الله تعالىٰ لكتابه العظيم، فهو كتابه المعجز في آياته المسطور، يقابله آيات كبيرة في هذا الكون المنشور، فالسماوات والأرض والمخلوقات والدواب والليل والنهار والحياة والموت والرياح آيات عظيمة تدل على عظمته ـ تعالىٰ ـ أصحاب العقول.

فقوله تعالىٰ: ﴿حمٓ﴾ كسابقه، يفيد التحدي والإعجاز، فإن هذا القرآن المعجز للجن والإنس مؤلف من جنس هذه الأحرف التي يتخاطب العرب بها.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾. انتصار لهذا القرآن المنزل من الله العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبير شؤون خلقه وفي قدره وشرعه وجميع تصريفه.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قال ابن جرير: (إن في السماوات السبع اللاتي منهن نزول الغيث، والأرض التي منها خروج الخلق أيها الناس لأدلة وحججاً للمصدقين بالحجج إذا تبينوها ورأوها).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وفي خلقكم وخلق ما تفرّق في الأرض من دابة تدّب عليها من غير جنسكم آيات وعبر لقوم يوقنون بحقائق الأمور فيقرون بمدلولاتها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قال ابن كثير: (واختلاف الليل والنهار، في تعاقُبهما دائِبينَ لا يَفتُران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالىٰ من السَّحاب من المطر في وقْتِ الحاجة إليه، وسَمَّاه رِزقاً لأنَّ به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، أي: بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء. وقوله عز وجل: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾، أي: جَنوباً وشمالاً، ودَبوراً وصَباً، بَحْرية وبَرِّية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو لِلِّقاح، ومنها ما هو غذاءُ الأرواح، ومنها ما هو عقيمٌ لا ينتج. وقال سبحانه وتعالىٰ أولاً: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهو تَرَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلىٰ).

وعن قتادة: (﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ قال: تصريفها إن شاء جعلها رحمة، وإن شاء جعلها عذاباً).

وفي التنزيل نحو ذلك: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

أخرج الطبراني في «الأوسط»، واللالكائي في «السنة» بسند حسن لشواهده، عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: [تفكروا في آلاءِ الله، ولا تفكروا في الله عز وجل][1].

وله شاهد عند أبي نعيم بسند حسن من حديث ابن عباس بلفظ: [تفكروا في خلقِ الله، ولا تفكروا في الله][2].

وشاهد آخر عنده عن عبد الله بن سلام مرفوعاً بلفظ: [لا تفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله، فإن ربَّنا خلقَ ملكاً، قدماه في الأرض السابعة السفلىٰ، ورأسه قد جاوز

(1) حديث حسن لغيره. أخرجه الطبراني في «الأوسط» (6456)، واللّالكائي في «السنة» (1/ 119 ـ 1 ـ 2)، والبيهقي في «الشعب» (1/ 75). وانظر السلسلة الصحيحة (1788).

(2) حديث حسن. انظر «الحلية» لأبي نعيم (6/ 66 ـ 67)، وصحيح الجامع الصغير (2973).

السماء العُليا ، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ست مئة عام ، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ست مئة عام ، والخالق أعظم من المخلوق][1] .

6 ـ 11 . **قوله تعالىٰ** : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : تهديدُ الله تعالىٰ ـ بعد تعريفه بآياته الكبيرة ـ كل أفاك أثيم ، يُصِرُّ على الكبر والعناد والاستهزاء بالدين ، وقد توعده الله وأمثاله من المشركين عذاب الجحيم .

فقوله : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ . قال النسفي : (إشارة إلى الآيات المتقدمة ، أي : تلك الآيات ﴿ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾) . قلت : بل آيات القرآن كلها حجج وبراهين على وحدانية الله وقدرته .

وقوله : ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ . قال القرطبي : (أي بالصدق الذي لا باطل ولا كذب فيه) .

وقوله : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ . قال القاسمي : (أي بعد آياته ودلائله الباهرة . وتقديمُ اسم الله للمبالغة والتعظيم) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ . قال ابن كثير : (أي : أفاكٍ في قوله كذّاب ، حلاف مَهين أثيم في فعله وقيله ، كافر بآيات الله) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول : يسمع آيات كتاب الله تُقرأ عليه ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ على كفره وإثمه فيقيم عليه ، غير تائب منه ، ولا راجع عنه ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ علىٰ ربه أن يذعن لأمره ونهيه

(1) إسناده حسن في الشواهد. أخرجه أبو نعيم في الحلية (6/ 66 ـ 67) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ج (4) ص (396) عقب الحديث (1788) .

﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يقول: كأن لم يسمع ما تلي عليه من آيات الله بإصراره على كفره ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يقول: فبشر يا محمد هذا الأفاك الأثيم الذي هذه صفته بعذاب من الله له. ﴿ أَلِيمٍ﴾ يعني موجع في نار جهنم يوم القيامة).

وقوله: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾. قال النسفي: (إذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها ﴿ ٱتَّخَذَهَا﴾ اتخذ الآيات ﴿ هُزُوًا﴾).

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. أي: سيقابلهم الله لقاء استهزائهم بآياته بعذاب يهينهم ويؤلمهم ويذلهم في نار جهنم.

وقوله: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾. قال ابن عباس: (أي أمامهم). أي من وراء ما هم عليه من التكبر على الحق والاستهزاء بآيات القرآن جهنم.

وقوله: ﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا﴾. أي: من الأموال والأولاد ومتاع الحياة الدنيا. كقوله تعالىٰ: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المجادلة: 17].

وفي صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع. فيقال له: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: كذبت، قد أردت منك أهون من هذا، وأنت في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك، فيؤمر به إلى النار][1].

وقوله: ﴿ وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾. يعني: من الأوثان والأصنام والطواغيت والرؤساء، فكل هؤلاء لا يستطيعون نصر أنفسهم يوم القيامة فضلاً عن نصر أتباعهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿ هَٰذَا هُدًى﴾. مبتدأ وخبر، يعني القرآن. قال ابن عباس: (يعني كل ما جاء به محمد ﷺ).

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾. أي: جحدوا آياته وحججه ودلائله. ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾. أي: لهم عذاب من أوجع العذاب أليم. والرجز هو أشد العذاب.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (8/ 134). انظر مختصر صحيح مسلم (1955) ـ كتاب صفة القيامة. باب: في كثرة العرق يوم القيامة.

12 ـ 15. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ اللهُ تعالىٰ على عباده تسخيره البحر لهم للمنافع والركوب لعلهم يشكرون، وتسخيره لهم ما في السماوات وما في الأرض لعلهم يتفكرون، وترغيب المؤمنين بالعفو والصفح حتىٰ يأتي أَمْرُ الله المبين، فكل نفس بما كسبت رهينة ثم إلى ربكم ـ معشر العباد ـ ترجعون.

فقوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾.

فيه ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، بأن سخّر لهم البحر بما فيه، والسفن تجري فيه بأمره. قال ابن كثير: (فإنه هو الذي أمر البحر أن يحملها).

وقوله: ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾. أي: في الأسفار والتجارات والمكاسب والمعايش.

قال النسفي: (بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري).

وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. أي: ما ذلله لكم عبر البحر، إما من داخله أو من العبور فوقه بالخيرات والأمتعة من الأقاليم النائية والأقطار المتباعدة.

وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾.

أي: من النجوم والجبال، والشجر والدواب والبحار والأنهار، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصىٰ من فضله وحده. قال القرطبي: (﴿ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾ يعني أن ذلك فعله وخلقه وإحسانٌ منه وإنعام).

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. قال القاسمي: (أي: في آيات الله وحججه وأدلته، فيعتبرون بها ويتفكرون).

وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. قال مجاهد: (لا يبالون نِعَم الله، أو نِقم الله. وهذه الآيات منسوخة بأمر الله بقتال المشركين).

والمقصود: كان الأمر من الله للمؤمنين ابتداء الإسلام أن يصفحوا عن أذىٰ المشركين ويصبروا على تماديهم، من باب التأليف لهم، فلما أصَرُّوا على العناد ورضي الله عن إعداد المؤمنين شرع لهم الجلاد والجهاد. قال أبو صالح: (نسختها التي في الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾). وقال ابن زيد: (هؤلاء المشركون، وقد نسخ هذا وفرض جهادهم والغلظة عليهم).

وعن قتادة: (﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قال: نسختها ما في الأنفال: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وفي براءة: ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أمر بقتالهم حتىٰ يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله).

وقوله: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾. أي: ليجزي بالمغفرة قوماً مخصوصين بصبرهم على أذىٰ أعدائهم مقابل إحسانهم. فتنكير ﴿قَوْمًا﴾ على المدح لهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: من عمل بطاعة الله فانتهىٰ إلى أمره وانزجر لنهيه فإنما يخص بذلك الخير نفسه ويقدمها لسعادتها، ومن أساء في عمله وأسخط ربه فإنما يرتد ذلك على نفسه فيقدمها لشقاوتها، والمرجع إلى الله تعالىٰ لتوضع الأعمال على الميزان بين يديه. قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8].

وأخرج الحاكم بسند جيد عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام، قال: [يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب: لِمَنْ يزن هذا؟ فيقول الله تعالىٰ: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][1].

16 ـ 20. **قولــه تعالــىٰ:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 586)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبارُ الله تعالىٰ عن فضله ونعمه على بني إسرائيل ومقابلة بعضهم نعمه بالبغي والظلم، وامتنانُ الله على رسوله ﷺ بشريعة غراء فيها الحكم والعلم، وأمْره تعالىٰ نبيّه بالثبات على الحق ومخالفة أهل الشرك والإثم.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾.

قال ابن جرير: (الكتاب: يعني التوراة والإنجيل. والحكم: يعني الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التي لم تنزل في الكتاب. والنبوة: يقول: وجعلنا منهم أنبياء ورسلاً إلى الخلق).

وقوله: ﴿ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾. أي: من المآكل والمشارب. قال القرطبي: (أي: الحلال من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام. وقيل: يعني المَنّ والسَّلوىٰ في التّيه).

وقوله: ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾. أي على عالَمِي زمانهم.

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾. قال ابن كثير: (أي: حُجَجاً وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج).

وقوله: ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾. أي: فما حصل الاختلاف بينهم إلا بعد قيام حجة الله البالغة عليهم، وإنما كان ذلك طلباً للرياسات ورغبة في المناصب الدينية الواهية، لأنها كانت على حساب الحق.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

أي: إن ربك ـ يا محمد ـ سيفصل بينهم يوم الحساب بالحق، فينصر المحق ويخذل المبطل، ويكشف البغي والحسد وطلب الرياسة في الدين على حساب الحق. وفي الآية تحذير لهذه الأمة أن تسلك في دينها مسلك بني إسرائيل.

وقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾. قال ابن عباس: (يقول: على هدىً من الأمر وبينة). وقال قتادة: (والشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنهي فاتبعها ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾).

وقال ابن زيد: (﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ قال: الشريعة: الدين. وقرأ: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾. قال: فنوح أولهم وأنت آخرهم).

وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. أي: ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون.

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾. أي: فهؤلاء ـ يا محمد ـ لن يغنوا عنك لو اتبعتهم من عقاب الله وسخطه، والكلام يتوجه للأمة من بعد نبيها لتحمل الدين بقوة ولا تمضي وراء أهواء الجاهلين والظالمين.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾.

أي: وإن الظالمين بعضهم أنصار بعض، والله يلي من اتقاه. قال النسفي: (وما أبين الفضل بين الولايتين). وقال ابن كثير: (﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ ﴾، أي: وماذا تُغني عنهم وَلاَيَتُهُم لبعضهم بعضاً، فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهَلاكاً، ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾. وهو تعالىٰ يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات).

وقوله: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾. قال ابن زيد: (القرآن. هذا كله إنما هو في القلب. قال: والسمع والبصر في القلب. وقرأ: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾. وليس ببَصر الدنيا ولا بسمعها).

قال الزمخشري: (جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع، بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل روحاً وحياة). أي: فهو تشبيه بليغ ﴿ وَهُدًى ﴾ أي: من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي: من العذاب لمن آمن وأيقن ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي: يطلبون اليقين ـ ذكره القاسمي.

21 ـ 23. **قوله تعالىٰ:** ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: مخالفةُ الله تعالىٰ بين المؤمنين والفاسقين في الدارين ، وخلقُه تعالىٰ السماوات والأرض بالحق ثم الحساب في الآخرة وهم لا يظلمون ، وختمُ الله على أسماع وقلوب أهل الهوىٰ ، وطمس عيونهم وأبصارهم عن الهدىٰ .

فقوله : ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ ﴾ .

الاجتراح : الاكتساب . قال قتادة : (لقد تفرق القوم في الدنيا ، وتفرقوا عند الموت ، فتباينوا في المصير) .

والمقصود : هل من اجترح السيئات واكتسب الآثام وكذب الرسل وعبد غير الله كمن صدق الله الإيمان والعمل الصالح؟! كلا لا يستوون في أحوال محياهم ومماتهم .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ [القلم : 35 ـ 36] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر : 20] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴾ [السجدة : 18] .

وفي الصحيحين والمسند عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : [إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ[1] ويستره فيقول : أتعرف ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : نعم أي ربِّ ، حتىٰ قرَّره بذنوبه ، ورأىٰ في نفسه أنه قد هلك ، قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطىٰ كتاب حسناته . وأما الكفار والمنافقون فينادىٰ بهم على رؤوس الخلائق : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود : 18]][2] .

---

(1) أي : حفظه وستره .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2441) ، وأخرجه مسلم (2768) ، وأخرجه أحمد (2/ 74) .

وعن مجاهد: (﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ قال: المؤمن في الدنيا والآخرة مؤمن، والكافر في الدنيا والآخرة كافر). وقال ليث: (بعث المؤمن مؤمناً حياً وميتاً، والكافر كافراً حياً وميتاً).

وقال إبراهيم بن الأشعث: (كثيراً ما رأيت الفُضيل بن عياض يردّد من أول الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرها، ثم يقول: ليت شعري! من أي الفريقين أنت؟ وكانت هذه الآية تسمىٰ مبكاة العابدين لأنها محكمة).

وقرأ قراء المدينة والبصرة ﴿سواءٌ﴾ بالرفع على أنها خبر مقدم، وأما قراء الكوفة فقرؤوها ﴿سواءً﴾ بالنصب على الحال من مفعولي نجعل، والقراءة بالنصب أشهر.

وقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: ساء ما ظنُّوا بنا وبِعَدْلِنا أن نُساوِيَ بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وفي هذه الدار).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قال ابن جرير: (فلم يخلق الله السماوات والأرض للظلم والجور ولكن خلقناهما للحق والعدل. ومن الحق أن نخالف بين حكم المسيء والمحسن في العاجل والآجل).

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾. قال ابن عباس: (ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان). وقال قتادة: (لا يهوىٰ شيئاً إلا ركبه لا يخاف الله). قال النسفي: (أي: هو مطواع لهوىٰ النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلٰهه).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعاً لعلمه فيومه يوم صالح).

وقال الأصمعي: سمعت رجلاً يقول:

إن الهوان هو الهوىٰ قلب اسمه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوىٰ فقال: هَوانٌ سرقت نونه، فأخذه شاعر فنظمه وقال:

نونُ الهوان من الهَوىٰ مسروقةٌ فإذا هَوِيت فقد لقيت هوانا

وقال آخر:

إن الهوىٰ لهو الهوان بعينه فإذا هويت فقد كسبت هوانا
وإذا هويت فقد تعبّدك الهوىٰ فاخضع لحبِّك كائنا من كانا

وقال عبد الله بن المبارك:

ومن البلايا للبلاء علامة ألا يُرىٰ لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحرّ يشبع تارةً ويجوعُ

وفي مسند البزار، وكتاب «الحلية» ـ لأبي نعيم ـ بسند حسن في الشواهد، عن أنس مرفوعاً: [ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ منجياتٌ، فقال: ثلاثٌ مهلكاتٌ: شحٌّ مطاع، وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسه. وثلاثٌ مُنْجيات: خشيةُ الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنىٰ، والعدل في الغضب والرضا][1].

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. قال ابن عباس: (أضله الله في سابق علمه).

والمقصود: خذله الله تعالىٰ عن محجة الطريق، وإصابة التوفيق، وسبيل الرشاد، لعلمه بحبه الغي ومعاندة الحق وتعظيم نفسه وهواه.

وقيل: أضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه، وهذا المعنىٰ يقتضي الأول.

وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾.

قال القرطبي: (أي: طبع على سمعه حتىٰ لا يسمع الوعظ، وطبع على قلبه حتىٰ لا يفقه الهدىٰ. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: غطاء حتىٰ لا يبصر الرشد).

والمقصود: خذله الله حتىٰ لا يسمع ما ينفعه، ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يبصر حجة الوحي ليستضيء بها، بل انقلب تعظيم هواه على سمعه وبصره وقلبه فانعطب ذلك منه ليبقىٰ غارقاً في مستنقع جهله وشهواته.

---

(1) صحيح بشواهده. أخرجه البزار (80)، وأبو نعيم (2/ 343)، والقضاعي (325، 326، 327)، والديلمي (2475). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1802).

وقوله: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

قال ابن جرير: (فمن يوفقه لإصابة الحق، وإبصار محجة الرشد بعد إضلال الله إياه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس، فتعلموا أن من فعل الله به ما وصفنا فلن يهتدي أبداً).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: 5].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: 34].

قلت: والآية دليل على المرتبة الثانية من مراتب الضلال. فإن مراتب الضلال ثلاث:

1 ـ الضياع والانحراف.

2 ـ الترك والإهمال والتناسي والخذلان.

3 ـ الهداية إلى النار يوم القيامة.

فمن ضيَّع هداية الدلالة والإرشاد ـ هداية الرسل ـ وأصرَّ على معاندة الحق وتعظيم الهوىٰ والشهوات، وقع في الإهمال والخذلان: عقوبة الله تعالىٰ له.

وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][1].

24 ـ 26. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 89 ـ 90). وانظر مختصر صحيح مسلم (1990) ـ كتاب الفتن. باب: عرض الفتن على القلوب ونكتها فيه. وقوله: «مجخياً» ـ أي: منكوساً.

ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: نَسْبُ المشركين المصائب والموت إلى الدهر، وتنطعهم بإنكار البعث من القبور بعد الموت إلى مشهد الحشر.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بسند رجاله رجال الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾. قال: فيسبون الدهر، فقال الله تبارك وتعالىٰ: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار](1).

وعن مجاهد: (﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ قال: الزمان). قال قتادة: (قال ذلك مشركو العرب: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلا العمر). والمقصود: يقولون ما يهلكنا فيفنينا إلا مرّ الليالي والأيام وطول العمر، إنكاراً منهم أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم ويهلكهم.

وفي الصحيحين عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [قال الله تعالىٰ: يسُب ابنُ آدم الدهرَ وأنا الدهرُ، بيدي الليل والنهار](2).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لا تُسَمُّوا العِنَبَ الكَرْمَ، ولا تقولوا: خَيْبَةَ الدهر، فإن الله هو الدَّهْرُ](3).

والآية إخبارٌ عن قول الدَّهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، فلقد أنكروا البعث ونسبوا النوازل ـ ومنها الموت ـ إلى الدهر.

قال سبحانه في سورة النحل: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: 38 ـ 39].

فهدّدهم سبحانه عاقبة ما يحلفون كذباً وزوراً وافتراء على الله بغير علم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبري (31207)، وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6181) كتاب الأدب، وأخرجه مسلم (2246) (1)، وأخرجه الطبري (25/ 152)، وابن حبان (5714).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6182) ـ كتاب الأدب، باب: لا تَسُبّوا الدهر.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. قال ابن جرير: (ما هم إلا في ظن من ذلك وشك، يخبر عنهم أنهم في حيرة من اعتقادهم حقيقة ما ينطقون من ذلك بألسنتهم).

وجاء عن الشافعي وأبي عبيد وبعض الأئمة في تفسير قوله ـ عليه السلام ـ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»: (كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شِدَّة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدَّهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويَسُبُّونه، وإنما فاعلُها هو الله تعالىٰ، فكأنهم إنما سَبُّوا الله ـ عزَّ وجل ـ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهِيَ عن سبِّ الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالىٰ هو الدّهر الذي يعنونه ويَسنُدون إليه تلك الأفعال). ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير واستحسنه ثم قال: (وقد غَلِطَ ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهريّة في عَدِّهم الدهرَ من الأسماء الحسنىٰ، أخذاً من هذا الحديث!).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات الله وقوارع الوحي التي يستدل بها على قدرته تعالىٰ علىٰ إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرّقها ما كان منهم إلا أن قالوا: أحْيوا آباءنا إن كنتم صادقين في حجتكم.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. ردٌّ من الله تعالىٰ على هزالهم. قال النسفي: (﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فيها عند انتهاء أعماركم ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يبعثكم يوم القيامة جميعاً، ومَنْ كان قادراً على ذلك كان قادراً على الإتيان بآبائكم ضرورة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في الجمع).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي: حقيقة قدرة الله وهوان أمر البعث عليه، لإعراضهم عن التفكر في آياته وعظيم مخلوقاته التي تدل على جبروته وعظمته وهيمنته.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [يقبض الله

الأرض ويطوي السماوات بيمينه ، ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض؟][1] .

وفيه أيضاً عن عبد الله قال: [جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمدُ ، إنا نجِدُ أنّ الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إِصبع ، والشَّجر على إِصْبَع ، والماء والثّرىٰ على إصبع ، وسائرَ الخلائقِ على إصبع ، فيقول: أنا الملِكُ ، فضحك النبي ﷺ حتىٰ بَـدَتْ نواجذُهُ تصديقاً لقول الحَبْرِ ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الزمر: 67]][2] .

27 ـ 29 . **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إثباتُ الملك لله والخسارة على المبطلين يوم الدين ، وكل أمة تكون يومئذ جاثية ثم تدعىٰ إلى كتابها للفصل وظهور الحق واليقين .

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

قال القرطبي: (﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ خلقاً وملكاً). وقال ابن جرير: (﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: ويوم تجيء الساعةُ التي يُنْشِرُ الله فيها الموتىٰ من قبورهم ، ويجمعهم لموقف العرض ، ﴿ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ يقول: يغبن فيها الذين أبطلوا في الدنيا في أقوالهم ودعواهم لله شريكاً ، وعبادتهم آلهة دونه بأن يفوز بمنازلهم من الجنة المحقون ، ويبدلوا بها منازل من النار كانت للمحقين ، فجعلت لهم بمنازلهم من الجنة ، ذلك هو الخسران المبين).

وقوله: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ ﴾ . أي: من هَوْلِ ذلك اليوم .

والأمة هنا: أهل كل ملة ، وفي تأويل ﴿ جَاثِيَةًۚ ﴾ أكثر من قول:

1 ـ قال مجاهد: (مستوفزة). قال سفيان: (المستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله). وقال الضحاك: (ذلك عند الحساب).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4812) ـ كتاب التفسير. وانظر الحديث (7382).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (481) ـ كتاب التفسير. باب قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ . وانظر الأحاديث (7414) ، (7415) ، (7451) ، (7513).

2 ـ قال ابن عباس: (مجتمعة). قال الفراء: (المعنىٰ: وترىٰ أهل كل دين مجتمعين).

3 ـ قال عكرمة: (متميزة). قال: (جاثية متميزة على ناحيتها، وليس على الركب).

4 ـ قال مُؤَرِّج: (خاضعة، بلغة قريش).

5 ـ قال الحسن: (باركة على الركب). وأصل الجَثْو: الجلوس على الركب.

قلت: ويبدو أن الجثو على الركب يكون عند الحساب، فإنه إذا جيء بجهنم تزفر لا يبقىٰ أحد إلا جثا على ركبتيه من شدة الهول ورهبة الموقف.

ويؤيد هذا ما رواه الترمذي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة قال: حدثني رسول الله ﷺ: [إن الله تبارك وتعالىٰ إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكُلُّ أمة جاثية، فأول من يدعىٰ رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال...] الحديث(1).

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾. قال يحيىٰ بن سلام: (إلى حسابها). وقال مقاتل: (إلى كتابها الذي كان يستنسخ لها فيه ما عملت من خير وشر). وقال مجاهد: (ما كتبت الملائكة عليها). والراجح أنه كتاب أعمالها. قال النسفي: (إلى صحائف أعمالها).

والآية كقوله تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: 69].

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. أي: اليوم يوم الجزاء، تجازون بأعمالكم خيرها وشرها. كما قال سبحانه: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13]، وكقوله جل ثناؤه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

وفي صحيح الحاكم عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام، قال: [يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب! لِمن يَزِنُ هذا؟ فيقول الله تعالىٰ: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك](2).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي والحاكم. انظر صحيح الترغيب (1/ 20) ص (13 ـ 15) ـ كتاب الإخلاص (الترهيب من الرياء). وأصل معناه في صحيح مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 586)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

فهو ميزان دقيق ذو كفتين ، عالي الحساسية والدقة ، يعطي الوزن الدقيق الصحيح لكل عمل حسب قيمته وظروف القيام به ، فهو يزن أعمالاً صالحة هي عند الله أثقل من الجبال ، كما يزن أعمالاً فاسدة هي عند الله ضخمة الأثقال.

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ .

قال ابن عباس: (هو أم الكتاب فيه أعمال بني آدم. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ قال: نعم ، الملائكة يَسْتَنْسِخون أعمال بني آدم).

أخرج الآجري في «الشريعة» بإسناد صحيح عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ أوَّلَ شيءٍ خَلَقَهُ الله عَزَّ وجَلَّ: القلمُ ، فأَخَذَهُ بيمينِه ـ وكلتا يديه يمينٌ ـ قال: فكتبَ الدنيا وما يكونُ فيها من عملٍ معمولٍ: بَرٌّ أو فجورٍ ، رَطْبٍ أو يابسٍ ، فأحصاه عندَه في الذِّكر ، ثم قال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فهل تكونُ النسخةُ إلا مِنْ أمْرٍ قد فُرِغَ منه][1].

30 ـ 37. قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن افتراق الأمم يوم القيامة إلى فريقين: أما أهل الإيمان والعمل الصالح على منهاج النبوة فهم أهل رحمة الله يدخلهم في جنته برحمته ،

(1) إسناده صحيح. أخرجه الآجري في «الشريعة» (321 ـ 322) ، وللحديث شواهد كثيرة. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (3136).

وأما أهل الكفر والاستكبار والاستهزاء بالساعة والحساب، فسينالهم أشد الخزي وأسوأ العقاب.

فقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ﴾. أي: الجنة. قال ابن جرير: (يعني في جنته برحمته).

وفي الصحيحين والمسند من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله تبارك وتعالىٰ للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي][1].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾. أي: ذلك هو الظفر البين الواضح والفوز الكبير.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً: أما قُرِئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم عند سماعها).

وقوله: ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾. قال القرطبي: (أي: مشركين تكسبون المعاصي).

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ ﴾.

أي: وإذا قال المؤمنون لهؤلاء المشركين إن وعد الله بالجزاء حق والساعة آتية لا شك في وقوعها قلتم أي شيء الساعة، أحق هي أم باطل؟!

وقوله: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾. قال المُبرِّد: (ـ التقدير ـ: إن نحن إلا نظن ظناً).

والمعنىٰ: قالوا: إن نتوهم وقوعها إلا توهّماً، أي مرجوحاً لا يقين فيه.

وقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾. أي: وما نحن بمتأكدين ولا بمتحققين من أمر الساعة، وإنما الغالب في ذلك الظن.

وقوله: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾. قال القاسمي: (أي قبائح أعمالهم، أو عقوبات أعمالهم السيئات).

وقوله: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾. قال النسفي: (ونزل بهم جزاء استهزائهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4850) ـ كتاب التفسير، وأخرجه مسلم (2846)، وأحمد (2/ 450)، والترمذي (2561)، وابن حبان (72) ـ في أثناء حديث طويل.

وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾. قال ابن عباس: (نترككم). وهو كقوله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ [51]. قال الترمذي: (معناه: اليوم نتركهم في العذاب).

وقوله: ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾. أي: كما أهملتم العمل ليومكم هذا وتعاملتم معه بالشك والظن ولزمتم أهواءكم وشهواتكم، فإنا نعاملكم اليوم معاملة الناسي لكم في نار جهنم.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: [قالوا: يا رسول الله! هلْ نرىٰ ربَّنا يوم القيامة؟ قال: هل تُضَارّون في رؤية الشَّمس في الظهيرة، ليست في سَحابة؟ قالوا: لا، قال: فهل تُضارّون في رؤية القمر ليلةَ البدر، ليس في سحابة؟ قالوا: لا، قال: فوالذي نفسي بيده! لا تُضارُّون في رؤية ربكم إلا كما تُضارّون في رؤية أحدهما، قال: فيلقىٰ العَبْدَ فيقولُ: أيْ فُلْ[1]! ألم أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لك الخيلَ والإبلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بلىٰ، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أَنْسَاكَ كما نَسيتني][2].

وبنحوه رواه الترمذي وقال: (ومعنىٰ قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب).

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾. قال ابن جرير: (وما لكم من مستنقذ ينقذكم اليوم من عذاب الله، ولا منتصر لكم ممن يعذبكم فيستنقذ لكم منه).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾. قال ابن كثير: (أي: إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حُجج الله عليكم سِخرِيّاً، تسخَرون وتستهزئون بها).

وقوله: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾. أي: وخدعتكم زينة الدنيا وزخارفها فاطمأننتم لها.

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾. أي: فاليوم لا يخرجون من النار

---

(1) معناه يا فلان، وهو ترخيم على خلاف القياس.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2968) ـ كتاب الزهد، وانظر صحيح سنن الترمذي (1978).

ولا يطلب منهم العتبىٰ والاعتذار ، ولا يؤذن لهم بالرجوع إلى الدنيا لاستئناف الطاعة والاستغفار.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: فلله الحمد على نعمه وأياديه عند خلقه ، فإياه فاحمدوا أيها الناس فهو المالك المتصرف في السماوات والأرض رب العالمين.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قال مجاهد: (يعني السلطان).

قال القرطبي: (﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال).

أخرج البخاري في «الأدب المفرد» ، ومسلم في الصحيح ، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: [العِزُّ إزارُه ، والكبرياءُ رِداؤُه ، فَمَنْ ينازعني عَذَّبْتُه][1].

وفي لفظ عند مسلم: [قال الله تعالىٰ: الكبرياء رِدائي ، والعِز إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عذَّبته][2].

ورواه أحمد وأبو داود بلفظ: [قال الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار].

ورواه الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه عز وجل قال: [الكبرياء ردائي ، فمن نازعني ردائي قصمته][3].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾. أي: وهو القوي القاهر لكل شيء ، الذي لا يُغالب ولا يمانع ، الذي عزّ كل شيء وقهر أعداءه بنقمته منهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2620) ـ كتاب البر والصلة ، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» (552) ، وأخرجه أبو داود (4090) ، وابن ماجة (4174) ، وأحمد (2/ 414).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 35 ـ 36) ، وانظر مسند أحمد (2/ 248) ، لما بعده ، وكذلك (2/ 414 ، 427) ، وسنن أبي داود (4090).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 61) ، وقال: صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني في السلسلة الصحيحة ، عقب الحديث (541).

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾. أي: في أقواله وأفعاله وشرعه وتصريف شؤون خلقه وقضائه وقدره.

وافق الفراغ من تفسير هذه السورة ـ سورة الجاثية ـ ظهر يوم الأحد ثامن عشر جمادىٰ الآخرة عام 1426 هـ، بمنزلنا بدمشق الشام ـ قدسيا ـ.

وتم ذلك
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ تفكروا في آلاء الله وخلقه ، ولا تفكروا في الله عز وجل .

2 ـ أيام الله : نعم الله ، أو نِقَمُ الله .

3 ـ يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت .

4 ـ منهاج النبوة واحد ، والشرائع تختلف ، وشريعة نبينا محمد ﷺ ناسخة لكل الشرائع قبلها .

5 ـ الهوىٰ إلٰه الكفار ، فالكافر اتخذ دينه بغير هدىٰ من الله ولا برهان .

6 ـ مراتب الضلال : أ ـ الضياع والانحراف . ب ـ الترك والخذلان . ج ـ الهداية يوم القيامة إلى النار .

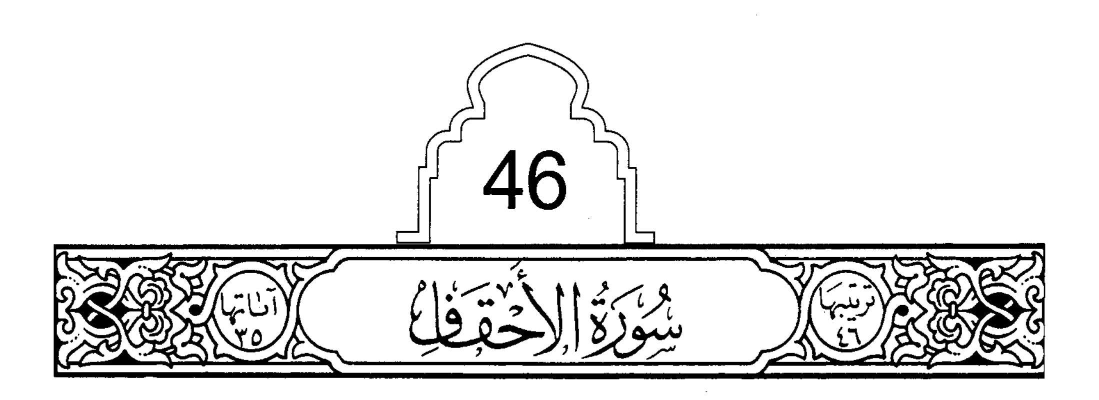
7 ـ قال الله تعالىٰ : يؤذيني ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار .

8 ـ الجثو على الركب عند الحساب ، من شدة هول جهنم ورهبة العقاب .

9 ـ أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب القدر ، وما هو كائن إلى الأبد .

10 ـ قال الله تعالىٰ : الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (35) .

موضوع السورة

خبر إهلاك أهل الأحقاف المكذبين
وتهديد قريش بمصير الأمم الهالكين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ انتصار الله تعالىٰ للقرآن الكريم ، وإثبات الخلق للسماوات والأرض وما بينهما بالحق ، وتقريع المشركين في عبادتهم آلهة من دون الله الملك العظيم .

2 ـ اتهام الكفار الحق بالسحر ، وافتراؤهم على سيد البشر ، وتجرد الرسول من علم الغيب وتحذير قومه مغبة الاستمرار على الكبر .

3 ـ قَرْعُ النبي ﷺ يَهود المكر بحجة الله البالغة ، واعتزاز بعض المشركين بالإفك والباطل ، وثناء الله على المخلصين له المستقيمين على منهاجه ووعدهم جنات النعيم .

4 ـ الوصية بالإحسان إلى الوالدين ، وتأمل نعم الله عند الأربعين ، وسؤال العبد ربه إصلاح حاله وذريته وعونه على العمل الصالح .

5 ـ ارتباط الشرك بالعقوق هو الخسران المبين ، ومشهد الخزي والذل أمام نار جهنم للكافرين.

6 ـ خبر عاد مع نبيّهم هود عليه الصلاة والسلام ، وعاقبة التكذيب الهلاك بالريحِ العاتية ليذوقوا مغبة الشرك والكبر والآثام.

7 ـ تهديد قريش أن ينزل بها ما نزل بالأمم المكذبة السالفة ، ولم تنفعهم الأموال والحصون والأولاد ، ولم ينتفعوا بالأسماع والأبصار والأفئدة.

8 ـ إهلاك القرىٰ حول مكة مشهد لقريش للاعتبار ، وما نفعتهم آلهتهم ساعة الاضطرار.

9 ـ خبر لقاء رسول الله ﷺ مع فريق من الجن ، ورجوع القوم إلى قومهم ينذرونهم.

10 ـ التقريع على منكري البعث والمعاد ، والتصوير لمشهد الخزي والهوان للكفار أمام جهنم ، وحثّ النبي ﷺ على الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 6. **قوله تعالىٰ:** ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالىٰ على نفسه وكتابه، وخلقه السماوات والأرض بالحق والكفار في غفلة عن أمره، وتقريع الله المشركين في عبادتهم آلهة ضعيفة من دونه.

فقوله تعالىٰ: ﴿حمٓ﴾ ـ مفهومه التحدي والإعجاز، شأن الحروف المقطعة التي سبقت في أوائل بعض السور. أي: هذا القرآن من جنس هذه الأحرف، ومع ذلك لا يستطيع أحد مهما أوتي من البلاغة والفصاحة أن يعارضه بمثله.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ـ انتصار لهذا القرآن وثناء عليه، فهو الكتاب المعجز المنزل من الله العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في تدبيره وشرعه وقدره.

وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. قال ابن جرير: (ما أحدثنا السماوات والأرض فأوجدناهما خلقاً مصنوعاً، وما بينهما من أصناف العالم إلا بالحق. يعني: إلا لإقامة الحق والعدل في الخلق).

وقوله: ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾. قال ابن عباس: (يعني القيامة). وهو الأجل الذي تنتهي إليه السماوات والأرض. وقيل: إنه الأجل المضروب لكل مخلوق.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾. قال ابن كثير: (أي: لاهُونَ عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتابٌ وأرسل إليهم رسولٌ، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غِبَّ ذلك).

وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾.

أي: قل ـ يا محمد ـ لمشركي قومك أرأيتم أوثانكم وآلهتكم التي تدعون من دون الله، عرفوني أي مكان استقلوا بخلقه من الأرض؟!

وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾. أي: أم لهم شركة مع الله في خلق السماوات.

وقوله: ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا ﴾. قال النسفي: (أي من قبل هذا الكتاب وهو القرآن، يعني أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك، وما من كتاب أنزل من قبله من كتب الله إلا وهو ناطق بمثل ذلك، فائتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله).

وقوله: ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾. أي: أو بقية من علم ثابت من علوم الأولين يؤكد صحة منهجكم.

ومن أقوال المفسرين في هذه الآية:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قال: خط، كان يخطه العرب في الأرض).

قال ابن عياش: (الخط: هو العيافة).

2 ـ قال مجاهد: (﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾: أو أحدٍ يأثُر علماً). وقال العوفي عن ابن عباس: (أو بيِّنَةٍ من الأمر). وقرأ بعضهم: ﴿أو أَثَرة من علم﴾، أي: أو عِلم صحيح يأثرونه عن أحد ممن قبلهم.

3 ـ عن قتادة: (﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ قال: خاصة من علم). وقال أبو بكر بن عياش: (بقية من علم).

وكل هذه الأقوال متقاربة متكاملة مفادها أن الأثارة: هي البقية من العلم الذي ثَبَتَ في كتب الأولين ، فطالبهم الله تعالىٰ بإخراج مثل هذه الوثيقة التي تدل على صحة النهج الذي هم عليه ، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ .

توبيخ للمشركين لقبح اختيارهم في عبادتهم من لا يستحيب إذا دعي ، ولا يسمع إذا نودي. قال القرطبي: (﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي لا أحد أضل وأجهل ﴿مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهي الأوثان. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون ، فأخرجها وهي جماد مخرج ذكور بني آدم ، إذ قد مثّلتها عبدتها بالملوك والأمراء التي تُخدم).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ .

أي: وإذا حشر الناس يوم القيامة كان المعبودون من الأصنام والطواغيت والشياطين أعداء الكفار الذين صرفوا لهم العبادة ، وتبرؤوا من عبادتهم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: 81 ـ 82]. أي: سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم.

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [إذا كان يوم القيامة أذَّنَ مؤذن: لِيَتَّبِعْ كل أمة ما كانت تعبد. فلا يبقىٰ أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتىٰ إذا لم يَبْقَ إلا مَنْ كان يَعْبد الله بَرٌّ أو فاجِرٌ وغُبّراتُ أهْلِ الكتاب ، فَيُدْعىٰ اليَهودُ ، فيقال لهم: ما كنتم تَعْبدون؟ قالوا: كُنّا نَعْبُدُ عُزيراً ابنَ الله ، فَيُقال لهم: كذبتم ما اتَّخَذَ اللهُ من صاحبةٍ ولا وَلَدٍ ، فماذا تبغون؟ فقالوا: عَطِشنا رَبَّنا فاسْقِنا ، فَيُشارُ ألا تَرِدون! فَيُحْشَرون إلى النار كأنها سرابٌ يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضاً فيتساقطون في النار ، ثم يُدْعىٰ النَّصارىٰ فيُقال لهم: ما كنتم تَعبدون؟

قالوا: كُنّا نَعْبُدُ المسيحَ ابن الله ، فيُقال لهم: كَذَبْتُم ما اتَّخَذَ الله من صاحِبة ، فيقال لهم: ماذا تَبْغُون؟ فكذلك مِثْلَ الأوّل . . . .] الحديث[1] .

7 ـ 9. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ .

في هذه الآيات: اتهامُ الكفار الحق بالسحر ، وافتراؤهم الكذب على سيد البشر ، وبلاغ الرسول المبين لقومه ينذرهم مغبة الاستمرار على الكبر.

فقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ ـ يعني القرآن. قال النسفي: (﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ جمع بينة ، وهي الحجة والشاهد ، أو واضحات مبينات).

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. قال القاسمي: (أي: بادهوه بالجحود أول ما سمعوه ، من غير إجالة فكر ، ولا إعمال روية).

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ .

المعنىٰ: أم يقولون تقوّله محمد ، ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على سبيل الفرض ، فإنكم لا تقدرون دفع عذاب الله عني ، فكيف أفتري على الله لأجلكم.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ﴾. قال مجاهد: (أي تقولونه). وقيل: (تخوضون فيه من التكذيب). قال القرطبي: (والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع). وفي التنزيل: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ ـ أي دفعتم.

وقوله: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ﴾. تهديد ووعيد ، وترهيب شديد. ونصب ﴿شَهِيدًۢا﴾ على التميز. والمقصود: كفىٰ بالله أن يعلم صدقي ويشهد أنكم مبطلون مكذبون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4581) ـ كتاب التفسير ، في أثناء حديث طويل ، وانظر كذلك الحديث (22) ـ كتاب الإيمان ، ورواه مسلم في الصحيح (1/ 118).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. أي: الغفور لمن تاب وأناب إلى طاعته، الرحيم بعباده المؤمنين الطائعين.

وقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾. قال ابن عباس: (يقول: لست بأول الرسل). وفي رواية: (ما كنت أول رسول أرسل). قال ابن كثير: (أي: لستُ بأول رسول طَرَقَ العالم، بل قد جاءت الرسلُ من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظيرَ له حتىٰ تستنكِروني وتستبعدوا بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله قبلي جيمعَ الأنبياء إلى الأمم.

وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾. قال الحسن: (أما في الآخرة فمعاذَ الله قد علم أنه في الجنة، ولكن قال: لا أدري ما يُفعل بي ولا بكم في الدنيا، أُخرَجُ كما أُخرِجَت الأنبياءُ قبلي؟ أم أُقتَلُ كما قُتلت الأنبياء من قبلي؟ ولا أدري أيُخْسَفُ بكم أو تُرمَون بالحجارة؟).

وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾. أي: قل لهم ـ يا محمد ـ: ما أتبع في دعوتي لكم وفي عملي وقولي إلا وحي الله الذي يوحيه إلي.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. قال القاسمي: (أي منذر عقاب الله على كفركم به، أبان لكم إنذاره وأبان لكم دعاءه إلى ما فيه صلاحكم وسعادتكم).

10 ـ 14. **قوله تعالىٰ**: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآيات: قَرْعُ النبي ﷺ يهود المكر بحجة الله البالغة، واعتزاز بعض المشركين بالإفك والباطل، وثناء الله على المخلصين له المستقيمين على منهاجه ووعده لهم جنات النعيم وحسن المستقر.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والطبراني والحاكم وابن حبان، بسند على شرط

الشيخين عن عوف بن مالك قال: [انطلق النبي ﷺ يوماً وأنا معه حتىٰ دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيد لهم، فكرهوا دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود، أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه. قال: فسكتوا فما أجابه منهم أحد، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد، ثم ثَلَّثَ فلم يجبه أحد. فقال: أبيتم، فو الله إني لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا النبي المصطفىٰ آمنتم أو كذبتم، ثم انصرف وأنا معه، حتىٰ إذا كدنا نخرج نادىٰ رجل من خلفنا: كما أنت يا محمد. قال: فأقبل فقال ذلك الرجل: أي رجل تعلموني يا معشر اليهود؟ قالوا: والله ما نعلم أنه كان فينا رجل أعلم بكتاب الله منك ولا أفقه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدّك قبل أبيك. قال: فإني أشهد له بأنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة. قالوا: كذبت، وردّوا عليه قوله وقالوا فيه شراً. قال رسول الله ﷺ: كذبتم لن يقبل قولكم، أما آنفاً فتثنون عليه من الخير ما أثنيتم، ولما آمن كذبتموه وقلتم فيه ما قلتم فلن يقبل فيه قولكم. قال: فخرجنا ونحن ثلاثة، رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام. وأنزل الله عز وجل فيه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾][1].

وقد صح إسلام عبد الله بن سلام قبل ذلك، ولكنه ربما كان يخفي إسلامه.

وفي الصحيحين والمسند عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه قال: [ما سمعت النبيَّ ﷺ يقولُ لأحدٍ يمشي على الأرض: إنَّه مِنْ أَهْلِ الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: 10] الآية][2].

ومعنى الآية: قل ـ يا محمد ـ لهؤلاء الكافرين بالقرآن، أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله قد أنزله عليّ حقاً وكفرتم به، وشهد بصدقه شاهد منكم ومن أكابر علمائكم

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (ج 6) (ص 25)، والطبراني ورجاله رجال الصحيح، وانظر صحيح ابن حبان (7163)، ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي. والأصح أنه على شرط مسلم. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الأحقاف، آية (10).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3812) ـ كتاب مناقب الأنصار. وأخرجه مسلم (2483)، وأخرجه أحمد (1/ 169)، والنسائي (148)، وابن حبان (7163).

فآمن واستكبرتم عن الإيمان فما ظنكم أن الله صانع بكم؟! إن الله لا يوفق للهداية القوم الظالمين.

قال النسفي: (﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الضمير للقرآن، أي مثله في المعنىٰ، وهو ما في التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن: من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك. ويجوز أن يكون المعنىٰ: إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني من عند الله).

وعن مسروق: (﴿فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ قال: فآمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتُم أنتم بنبيكم وكتابكم). أي: فآمن عبد الله بن سلام بنبيه وكتابه ثم صدق بمحمد ﷺ والوحي الجديد معه، وكفرتم أنتم باستكباركم.

فائدة: قد تكون هذه الآية مدنية مستثناة من السورة، لأن إسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة، وقد تكون الآية نزلت قبل ذلك بمكة من باب الإخبار قبل الوقوع والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾.

قال قتادة: (قال ذاك أناس من المشركين: نحن أعز، ونحن، ونحن، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان، فإن الله يختص برحمته من يشاء).

والمقصود: ذهب المشركون في ضلالهم أن القرآن لو كان خيراً ما سبقهم إليه عمار وبلال وصهيب وخباب وأمثالهم من المستضعفين والعبيد والإماء، فقد أبرق لهم الشيطان أن لهم وجاهة عند الله ومكانة يفضلهم بها بما هو لائق. وكذبوا فيما ذهبوا إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53]. قال ابن كثير: (أي: يَتَعَجَّبُونَ كيف اهتدىٰ هؤلاء دوننا. ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة: هو بِدْعةٌ، لأنه لو كان خيراً لسبقونا إليه، لأنهم لم يتركُوا خصلةً من خِصَال الخير إلا وقد بادروا إليها).

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

قال ابن جرير: (ـ يقول ـ: وإذ لم يبصروا بمحمد وبما جاء به من عند الله من الهدىٰ فيرشدوا به الطريق المستقيم فسيقولون هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ أكاذيب من أخبار الأولين قديمة).

والمقصود: هروب من الحق بمحاولة الانتقاص من القرآن وأهله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾ [الفرقان: 5]. وهذا من الكبر والعجب الذي يسخط الله تعالىٰ.

وفي الصحيحين عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر][1].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مِثقالُ ذرةٍ من كِبر. فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطرُ الحق وغَمْطُ الناس][2].

وقوله: ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ ﴾.

أي: ومن قبل هذا القرآن كتاب موسىٰ (التوراة) أنزلناه إماماً لبني إسرائيل يأتمون به ويهتدون بهديه ورحمة لهم.

وقوله: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا ﴾. أي: وهذا القرآن أنزلناه يصدق كتاب موسىٰ، ويؤكد أن محمداً ـ ﷺ ـ نبي مرسل ـ وهو بلسان عربي فصيح مبين.

وقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾. أي: لينذر هذا القرآن من كفر وطغىٰ، ويبشر من أحسن وأناب.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ الذي لا إله غيره ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ على تصديقهم بذلك فلم يخلطوه بشرك ولم يخالفوا الله في أمره ونهيه ﴿ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ من فزع يوم القيامة وأهواله ﴿ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: هؤلاء الموصوفون بما سبق من صدق التعظيم لله والاستقامة على منهج الحق هم أهل الجنة ينعمون فيها ولا يرحلون عنها، فأعمالهم سبب لنيل رحمة الله وسبوغها عليهم. ونصب ﴿ جَزَآءَۢ ﴾ على المصدر.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 507 ـ 508)، (10/ 408)، وأخرجه مسلم في الصحيح (2853)، من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (91)، وأبو داود (4091)، وأخرجه الترمذي (1999).

15 ـ 16. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

في هذه الآيات: وصيةُ الله الإنسان الإحسان إلى والديه، وحثّه إذا بلغ أربعين سنة تأمّل آلاء الله وشكر نعمه عليه، وسؤال الله تعالىٰ إصلاح حاله وذريته ومباشرة العمل الصالح الذي يرضيه.

فقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

التوصية: الأمر: والحُسْن ضد القبح، وقوله: ﴿حُسْناً﴾ ـ هو كذلك في قراءة قراء المدينة والبصرة. وأما في قراء الكوفة ﴿إِحْسَٰنًا﴾.

والإحسان خلاف الإساءة. والآية عطف على إخلاص العبادة والتعظيم لله.

فكثيراً ما يعطف سبحانه بين الوصية بإقامة التوحيد وإخلاص العبادة له وبين الوصية ببر الوالدين وحسن صحبتهما والحنوّ عليهما.

ففي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: 23].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14].

ومن صحيح السنة العطرة في ذلك أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي بَكْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ (ثلاثاً)، قالوا: بلىٰ يا رسول الله! قال: الإشراك بالله، وعقوق

الوالدين ـ وجلس وكان متكئاً ـ ألا وقول الزور ، ما زال يكررها حتىٰ قلت: ليته سكت][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» وأكثر أصحاب السنن بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو قال: [جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يبايعُهُ على الهجرة ، وترك أبويه يبكيان ، فقال: ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما][2] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند حسن عن أبي مُرَّة ، مولىٰ أم هانئ بنت أبي طالب: [أنه ركب مع أبي هريرة إلى أرضه بـ «العقيق» فإذا دخل أرضه صاحَ بأعلى صوته: عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أمَّتاه! تقول ، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، يقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً. فتقول: يا بنيّ! وأنتَ ، فجزاك الله خيراً ورضي عنك كما بررتني كبيراً][3] .

وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾. قال قتادة: (يقول: حملته مشقة ، ووضعته مشقة). وقرأ أهل المدينة والبصرة: ﴿كَرْهاً﴾ ، وأهل الكوفة ﴿كُرْهًا﴾.

وقال الحسن: (حملته في مشقة ، ووضعته في مشقة). قال مجاهد: (مشقة عليها). قال ابن كثير: (أي: قاست بسببه في حال حَمْلِهِ مشقةً وتعباً ، من وِحَام وغَثَيَانٍ وثِقَلٍ وكَرْب ، إلى غير ذلك مما ينال الحوامِلَ من التعب والمشقة ، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ، أي: بمشقة أيضاً من الطَّلق وشِدَّته).

وقوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. أي: مدة حمله وفطامه ثلاثون شهراً. والفِصالُ: الفِطام.

قال ابن عباس: (إذا حملت تسعة أشهر أرضعت إحدىٰ وعشرين شهراً ، وإن حملت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً).

وفي الأثر عن عثمان أنه أتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقضي عليها

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في كتاب الأدب (5976) ، وأخرجه في «الأدب المفرد» (15) ، ورواه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ ح (143) ـ باب الكبائر وأكبرها.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (13) ـ باب جزاء الوالدين. وأخرجه أبو داود ـ كتاب الجهاد ـ وكذلك النسائي ـ كتاب البيعة على الجهاد. ورواه ابن ماجة (2782) ـ كتاب الجهاد. باب الرجل يغزو وله والدان. انظر صحيح ابن ماجة (2242).

(3) حسن الإسناد. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (14). انظر: «صحيح الأدب المفرد» (11).

بالحدّ ، فقال له عليّ رضي الله عنه: ليس ذلك عليها ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ ، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: 233] فالرضاع أربعة وعشرون شهراً والحمل ستة أشهر ، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدّها.

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾. أي قوي وشبَّ وارتجل. قال ابن عباس: (أشدّه: ثلاث وثلاثون سنة ، واستواؤه أربعون سنة ، والعذر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون). وعن الشّعبي قال: (الأشدّ: الحلم إذا كتبت له الحسنات وكتبت عليه السيئات). والأول أشبه في مفهوم الأشد من الحلم ، فإن الأشد هو غاية القوة والاستواء ، فالثلاث والثلاثون أشبه.

وقوله: ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾. أي: تناهىٰ عقله واكتمل فهمه وكمل حلمه ، فهو سن الاستقرار في رسوخ المفاهيم. وروى الأعمش عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لمسروق: متىٰ يُؤخذ الرجل بذنوبه؟ قال: (إذا بَلَغْتَ الأربعين فَخُذْ حِذْرَكَ). قال ابن جرير: (﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾: ذلك حين تكاملت حجة الله عليه ، وسير عنه جهالة شبابه ، وعرف الواجب لله من الحق في بر والديه).

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ ﴾. أي: ألهمني. ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ ـ أي شكر نعمتك. فأن أشكر: في موضع نصب على المصدر. ووزعت الرجل على كذا: إذا دفعته عليه.

وقوله: ﴿ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾. قال القرطبي: (أي ما أنعمت به عليَّ من الهداية ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ﴾ بالتحنن والشفقة حتىٰ ربّياني صغيراً. وقيل: أنعمت عليّ بالصحة والعافية وعلى والديّ بالغنىٰ والثروة).

وقوله: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾. أي: ووفقني في المستقبل لاستقبال العمل الصالح الذي ترضاه.

وقوله: ﴿ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ﴾. أي: اجعلهم هداة للإيمان والعمل الصالح. قال سهل بن عبد الله. (المعنىٰ اجعلهم لي خَلَفَ صدق ، ولك عبيدَ حق).

وقال أبو عثمان: (اجعلهم أبراراً لي مطيعين لك). وقال ابن عطاء: (وفقهم لصالح أعمال ترضىٰ بها عنهم). وقال محمد بن علي: (لا تجعل للشيطان والنفس والهوىٰ عليهم سبيلاً).

وفي التنزيل نحو ذلك من دعاء المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: 74].

وفي سنن أبي داود وابن ماجة بإسناد صحيح عن ابن عمر قال: [لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني وَدُنْياي وأهلي ومالي، اللهم استُرْ عَوْرَتي وآمِنْ روعاتي، اللهم احفظني من بين يَدَيَّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغْتال من تحتي][1].

وقوله: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. أي: إني رجعت من ذنوبي السالفة، وإني لك بالطاعة من الخاضعين.

قال ابن عباس: (﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: رجعت عن الأمر الذي كنت عليه).

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: هؤلاء الموصوفون بما سبق هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا من صالحات الأعمال، ويصفح عن سيئات أعمالهم فلا يعاقبهم عليها.

وقوله: ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾. قال النسفي: (ومحله النصب على الحال، على معنىٰ: كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم). وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنىٰ «مع» ـ أي: مع أصحاب الجنة، والمعنىٰ واحد.

وقوله: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ ـ نصب لأنه مصدر مؤكد لما قبله.

والتقدير: وعد الله أهل الإيمان والعمل الصالح أن يتقبل أحسن أعمالهم ويتجاوز عن سيئاتهم وعد الصدق.

وقوله: ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾. قال القرطبي: (في الدنيا على ألسنة الرسل، وذلك الجنة).

17 ـ 20. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (5074)، وابن ماجة (3871). انظر صحيح أبي داود (4239).

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: قصة ارتباط الشرك بالعقوق، وعاقبة ذلك من الخسران المبين. وتصوير مشهد الخزي والذل أمام نار جهنم للكافرين.

فعن الحسن: (﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ قال: هو الكافر الفاجر العاقّ لوالديه، المكذب البعث). قال النسفي: (أفّ: وهو صوت إذا صوّت به الإنسان علم أنه متضجر، كما إذا قال حس علم أنه متوجع، واللام للبيان، أي هذا التأفيف لكما خاصة ولأجلكما دون غيركما).

والعقوق من أكبر الكبائر، وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي التنزيل: قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23].

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج النسائي وأحمد وابن حبان بإسناد جيد عن سالم بن عبد الله عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث. وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطىٰ][1].

الحديث الثاني: أخرج الدارمي والنسائي والبخاري في «التاريخ الصغير» بسند حسن في الشواهد عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، (ولا ولد زنية)][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» عن عروة قال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24]: [لا تمتنع من شيء أحبّاه][3].

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾. قال قتادة: (أن أبعث بعد الموت).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي (1/ 357)، وأحمد (2/ 134)، وابن خزيمة في «التوحيد» (235)، وابن حبان (56). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (674).

(2) أخرجه الدارمي (2/ 112)، والنسائي (2/ 332)، والبخاري في «التاريخ الصغير» (124) ـ والزيادة له ـ وأحمد (2/ 201)، وهو حسن لشواهده.

(3) صحيح الإسناد. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (9). باب لين الكلام لوالديه.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾. أي: وقد مضت قرون من الأمم قبلي فهلكوا فلم يبعث منهم أحد.

وقوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: ووالداه يستصرخان الله عليه ويسألانه له الهداية، ويستغيثان عليه أن يؤمن بالله ويقرّ بالبعث وأن وعد الله صدق وحق.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ـ أي: فيجيب عدو الله والديه مستنكراً خروجه من قبره بعد موته فيقول: ما هذا الذي تقولانه إلا ما سطّره الأولون من الناس من الأباطيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾. قال ابن كثير: (أي: دخلوا في زُمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة).

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾. قال ابن زيد: (درج أهل النار يذهب سفالاً، ودرج أهل الجنة يذهب علواً). والمقصود: لكل أعدّ الله من الثواب أو العذاب حسب عمله ومقابل ما قدّم. قال القرطبي: (﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي ولكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجن والإنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم).

وقوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. أي: ولينالوا جزاء أعمالهم فلا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

قال النسفي: (عرضهم على النار تعذيبهم بها). وقيل: دنوّهم منها ينظرون إليها. والمعنىٰ: ذكِّرْهم ـ يا محمد ـ يوم يكشف الغطاء فيقرّبون من النار وينظرون إليها، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: لقد استوفيتم لذائذكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فما بقي لكم من اللذائذ شيء لاستيفائكم إياها.

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾. قال مجاهد: (الهوان). أي: فاليوم تذوقون عذاب النار الذي يهينكم ويخزيكم.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. قال ابن جرير: (بما كنتم تتكبرون في الدنيا على ظهر الأرض على ربكم، فتأبون أن تخلصوا له العبادة).

وقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾. أي وبما كنتم تصرون عليه من الفسق والمعاصي وتعاطي المنكرات والموبقات والآثام.

21 ـ 25. **قوله تعالىٰ:** ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذه الآيات: خبر عاد قوم هود عليه السلام، وقد جاءهم بالوحي ينذرهم مغبة الشرك والآثام، فكذبوه فأخذهم الله بريح عاتية تدمر المساكن وتقلع الرجال والخيام.

فقوله: ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ ـ تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من أذىٰ قومه وعنادهم.

وعادٌ هم قوم هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ والأخوة هنا أخوة النسب. قال القرطبي: (كان أخوهم في النسب لا في الدين).

وقوله: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾. أي اذكر يا محمد لقومك قصة عاد الذين كانوا يسكنون الأحقاف وقد قهروا أهل الأرض بقوتهم. والأحقاف: ديار عاد، وهي الرمال العظام، جمع حِقف، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلاً. قال عكرمة: (الأحقاف: الجبلُ والغار). وقال قتادة: (ذُكر لنا أن عاداً كانوا حيّاً باليمن أهلَ رملٍ مُشرِفين على البحر بأرض يقال لها: الشِّحْر).

قال ابن إسحاق: (كانت منازل عاد وجماعتهم، حيث بعث الله إليهم هوداً. الأحقاف: الرمل فيما بين عُمان إلى حَضْرموت فاليمن كله، وكانوا مع ذلك قد فشَوا في الأرض كلها، قهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

قال الضحاك: (لن يبعث الله رسولاً إلا بأن يعبد الله). قال ابن كثير: (يعني: وقد أرسَلَ الله تعالىٰ إلى مَنْ حول بلادهم في القرىٰ مُرسَلين ومُنذِرين، كقوله عز وجل:

﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ [البقرة: 66]، وكقوله جل وعلا: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [فصلت: 13 ـ 14]).

وقوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. أي يقول هود لقومه: إني أخاف عليكم بإصراركم على عبادة غير الله عذاب يوم تعظم فيه الأهوال والشدائد، وهو يوم القيامة.

وقوله: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾. قال ابن زيد: (لتزيلنا). أي: أجابوه قائلين: أجئتنا لتصدنا وتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟.

وقوله: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. إخبار عن استعجالهم العقوبة والعذاب، استهتاراً واستبعاداً من وقوع ذلك. قال ابن زيد: (﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ من العذاب على عبادتنا ما نعبد من الآلهة ﴿ إِن كُنتَ ﴾ من أهل الصدق في قوله وعداته).

وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾. أي: قال هود لقومه عاد: إنما العلم بمجيء ما أعدكم من العذاب على كفركم عند الله، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالة ربي إليكم.

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾. قال ابن جرير: (﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ مواضع حظوظ أنفسكم فلا تعرفون ما عليها من المضرّة بعبادتكم غير الله، وفي استعجال عذابه).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ ﴾. العارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء. والمقصود: فلما رأوا العذاب مستقبلهم ظنوا أنه عارضٌ ممطر، فاستبشروا وفرحوا بقدوم الغيث وقد كانوا مُمْحِلِين محتاجين إلى المطر.

وقوله: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي: بل القادم هو ريح شديدة تحمل الدمار والهلاك. قال ابن عباس: (أوّل ما رأوا العارض قاموا فمدّوا أيديهم، فأوّل ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، ولهم أنين).

وقوله: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾. قال ابن عباس: (أي كل شيء بُعثت إليه).

قال النسفي: (تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجمّ الكثير، فعبّر عن الكثرة بالكلية ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ رب الريح).

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾. أي: هلكوا وبادوا عن آخرهم، ولم يبق يظهر إلا آثار بيوتهم ومعالم ديارهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾. أي: مثل هذا العقاب وذلك الخراب والدمار نعاقب القوم المشركين المستكبرين الآثمين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 6 ـ 8].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: 41 ـ 42].

وفي صحيح السنة المطهرة من آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله ﷺ إذا رأىٰ مَخيلةً في السماء أقْبَل وأدْبَر، ودخَلَ وخَرَج، وتغيّرَ وجهه، فإذا أمطرت السماءُ سُرِّيَ عنه فعَرَّفَتْهُ عائشةُ ذلك، فقال النبي ﷺ: ما أدري لعلّه كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ الآية][1].

الحديث الثاني: أخرج مسلم وأبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: [كان النبي ﷺ إذا عَصَفَت الريح قال: اللهم! إني أسألك خَيْرَها، وخَيْرَ ما فيها، وخَيْرَ ما أُرسِلتْ به، وأعوذُ بك من شَرِّها، وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسلت به. قالت: وإذا تَخَيَّلَت السماءُ، تَغَيَّرَ لونُه، وخرَجَ ودخَلَ، وأقْبَل وأدْبَر، فإذا مَطَرَتْ سُرِّيَ عنه، فَعَرَفت ذلكَ عائشةُ، فسألتُهُ فقال: لعلّهُ يا عائِشَةُ! كما قال قوم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3206) ـ كتاب بدء الخلق، وكذلك (4829). وانظر صحيح مسلم (899) ـ كتاب صلاة الاستسقاء.

عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾][1].

الحديث الثالث: أخرج أحمد في المسند بسند صحيح عن عائشة: [أنّ رسول الله ﷺ كان إذا رأىٰ ناشئاً في أفق من آفاق السماء، تَرَكَ عمله وإن كان في صلاته، ثم يقول: اللهمّ، إني أعوذُ بك من شرّ ما فيه. فإن كشفه الله حمد الله، وإن أمطَرَت قال: اللهم صيباً نافعاً][2].

الحديث الرابع: خرّج مسلم في صحيحه عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: [نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَت عَادٌ بالدَّبُور][3].

والصَّبا: ريح الشمال، والدّبور: ريح الجنوب.

26 ـ 28. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: الخطاب لقريش ليعلموا أن الأمم السالفة التي أهلكها الله بكفرها كانوا أشد منهم في البنيان والحصون، وأكثر منهم في الأموال والأولاد، فلم يزكوا نعمة الأسماع والأبصار والأفئدة فنزل بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وكذلك القرىٰ التي حول مكة ممن أهلك الله أهلها ما نفعتهم آلهتهم وما كانوا يفترون.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾. قال قتادة: (أنبأكم أنه أعطىٰ القوم ما لم يعطكم). أي: لقد مكّنَ الله الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأجسام والحصون والأولاد مالم يعط قريشاً مثله.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (899) ح (15) ـ كتاب صلاة الاستسقاء. وانظر سنن أبي داود (5098)، (5099)، وسنن الترمذي (3254).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 190)، وله شواهد كثيرة.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (900) ـ كتاب صلاة الاستسقاء. باب في ريح الصبا والدبور.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا ﴾ يسمعون به مواعظ ربهم، وأبصاراً يبصرون بها حجج الله، وأفئدة يعقلون بها ما يشرّهم[1] وينفعهم ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ يقول: فلم ينفعهم ما أعطاهم من السمع والبصر والفؤاد إذ لم يستعملوها فيما أعطوها له، ولم يعملوها فيما ينجيهم من عقاب الله، ولكنهم استعملوها فيما يقرّبهم من سخطه ﴿ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ يقول: إذ كانوا يكذبون بحجج الله وهم رسُله، وينكرون نبوتهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يقول: وعادَ عليهم ما استهزؤوا به، ونزل بهم ما سخروا به فاستعجلوا به من العذاب، وهذا وعيد من الله جل ثناؤه لقريش، يقول لهم: فاحذروا أن يحلّ بكم من العذاب على كفركم بالله وتكذيبكم رسله، ما حلّ بعاد، وبادروا بالتوبة قبل النقمة).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾. قال ابن كثير: (يعني أهل مكّة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حَولها كعادٍ، وكانوا بالأحقاف بِحَضْرَموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سَبَأٌ وهم أهلُ اليمن، ومَدْين وكانت في طريقهم ومَمَرِّهم إلى غَزَّة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضاً).

وقوله: ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ ﴾. قال ابن زيد: (بيّناها). ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ـ قال: (يقول: ليرجعوا عما كانوا عليه مقيمين من الكفر بالله وآياته).

وقوله: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ﴾.

قال القرطبي: (﴿ فَلَوْلَآ ﴾ بمعنىٰ هلاّ، أي هلاّ نصرهم آلهتهم التي تقرّبوا بها بزعمهم إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: 18] ومنعتهم من الهلاك الواقع بهم).

والمقصود: الاحتجاج على قريش في منهاج عبادتهم. أي: لو كانت آلهتكم تنفع لنفعت من قبلكم وأنقذتهم من بأس الله حين نزل بهم.

وقوله: ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾. قال القاسمي: (أي غابوا عن نصرهم، وامتنع أن

---

(1) في لغة العرب: «شِرّة الشباب» ـ حِرْصه ونشاطه. و«أشِرّاء» كأشِدّاء.

يستمدوا بهم ، امتناع الاستمداد بالضال ، ففي ﴿ضَلُّواْ﴾ استعارة تبعية).

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾. قال النسفي: (﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم وضلالهم عنهم ، أي: وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب).

29 ـ 32. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: خبرُ لقاء رسول الله ﷺ مع فريق من الجن ـ وقد حيل بينهم وبين استراق السمع من السماء ـ فاستمعوا القرآن وأنصتوا له ورجعوا إلى قومهم منذرين.

فإلىٰ تفصيل ذلك:

إنّ الجن كما أثبت الله سبحانه كائنات مستترة عن أنظار البشر ، قال جل ذكره: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27]. ثم إن الله قد أعطاهم قدرة على التجسم والظهور بأشكال شتىٰ.

ولقد رأىٰ نفر منهم رسول الله ﷺ بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وكانوا قد حيل بينهم وبين خبر السماء وأرسلت علهيم الشهب ، فلما وجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي صلاة الفجر وهو يقرأ القرآن فاستمعوا فعرفوا ما الأمر الذي حدث وكان سبب منعهم من استراق السمع.

قال سعيد بن جبير: (لما بعث النبي ﷺ حُرست السماء ، فقال الشيطان: ما حرست إلا لأمر قد حدث في الأرض. فبعث سراياه في الأرض فوجدوا النبي ﷺ قائماً يصلي صلاة الفجر بأصحابه بنخلة وهو يقرأ ، فاستمعوا حتىٰ إذا فرغ ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ إلى قوله ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾).

وأصل ذلك في الصحيحين عن ابن عباس قال: [انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين. فقالوا ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الأمرالذي حدث ، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء. قال: فانطلق الذين توجّهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن تسمعوا له ، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: 1 ـ 2]. وأنزل الله عز وجل على نبيّه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾][1].

ولم ير رسول الله ﷺ الجن هذه المرّة ولم يقرأ عليهم القرآن ، وإنما آذنته بهم شجرة بأنهم حاضرون ، ثم أوحي إليه خبرهم وما كان من أمرهم.

فقد أخرج البخاري في صحيحه: [عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقد سئل: من آذَنَ[2] النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: إنه آذنت بهم شجرة][3].

وفي مستدرك الحاكم ودلائل النبوة للبيهقي بسند صحيح عن عاصم بن زرّ عن عبد الله قال: [هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة ، فلما سمعوه أنصتوا قالوا: صه. وكانوا تسعة أحدهم زوبعة ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ . . .﴾ الآية إلى: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾][4].

وذات يوم جاء وفد من الجن إلى رسول الله ﷺ فدعوه للاجتماع بهم وكان معسكراً خارج مكة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4921) ـ كتاب التفسير ، وكذلك أخرجه برقم (773). ورواه مسلم (449/ 149) ، والترمذي (3323) ، وأحمد (1/ 252).

(2) أي أعْلَمَ.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود. انظر صحيح البخاري (فتح الباري 7/ 171) ، وصحيح مسلم بشرح النووي (4/ 171).

(4) حديث صحيح. أخرجه البيهقي في «الدلائل» (2/ 228) بإسناد حسن. ورواه الحاكم في المستدرك ، من حديث عاصم بن زرّ عن عبد الله.

فقد أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: [كنا مع رسول الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ ، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقلنا استُطير أو اغتيل. فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قِبَل حراء ، فقلنا يا رسول الله! فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فقال: أتاني داعي الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم][1].

وعن عاصم عن زِر: (﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ قالوا: صَهْ). قال قتادة: (قد علم القوم أنهم لن يعقلوا حتىٰ ينصتوا). وهذا أدبٌ منهم.

وعن ابن عباس: (﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ يقول: فلما فرغ من الصلاة). أو من القراءة وتلاوة القرآن.

قال ابن جرير: (﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: انصرفوا منذرين عذاب الله على الكفر به).

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾. أي: قالوا لقومهم: إنا سمعنا قرآناً أنزل من بعد موسىٰ ـ عليه السلام ـ يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله.

وقوله: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾. أي: يرشد إلى الصواب والسداد في منهاج الإيمان ويدل على ما فيه لله رضا.

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾. أي: ويرشد إلى طريق لا اعوجاج فيه وهو طريق الإسلام.

والمقصود: يهدي إلى منهاج الإيمان ويدل على طريق امتثال أعماله وأحكامه.

وقوله: (﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾. قال ابن كثير: (فيه دلالة على أنه تعالىٰ أرسل محمداً ـ ﷺ ـ إلى الثقلين الإنس والجن حيثُ دعاهمُ إلى الله تعالىٰ ، وقرأ عليهم السورةَ التي فيها خطاب الفريقين ، وتكليفهم ووعدُهم ووعيدُهم ، وهي سورة الرحمن).

أخرج الترمذي والحاكم بسند حسن عن جابر رضي الله عنه قال: [خرج

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (4/ 168 ـ 170).

رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم «سورة الرحمن» من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال: لقد قرأتها ، سورة «الرحمن» على الجِنّ ليلةَ الجِنِّ ، فكانوا أَحْسَنَ مَرْدوداً منكمُ ، كنتُ كُلَّما أتيت على قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، قالوا: لا بشيءٍ من نعمِكَ ربَّنا نكذِّبُ ، فلكَ الحمد][1].

وقوله: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. قال ابن جرير: (يتغمد لكم ربكم من ذنوبكم فيسترها لكم ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته إياكم عليها. . . . وينقذكم من عذاب موجع إذا تبتم من ذنوبكم ، وأنبتم من كفركم إلى الإيمان بالله وبداعيه).

وذهب أبو حنيفة أن لا ثواب للجن إلا النجاة من النار لهذه الآية ، وهو مذهب بعيد مردود. قال مالك والشافعي وابن أبي ليلىٰ وأبو يوسف ومحمد: (لهم الثواب والعقاب). وقال الضحاك: (الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون). واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: 74]. قال ابن كثير: (وأحسن منه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 46 ـ 47]. فقد امتنَّ تعالىٰ على الثقلين بأن جعل جزاءَ مُحْسِنِهِم الجنة ، وقد قابلت الجنّ هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس ، فقالوا: ولا بشيء من آلائك ربَّنا نكذب ، فلك الحمد. فلم يكن تعالىٰ ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم ، وأيضاً فإنه إذا كان يُجازي كافرهم بالنار ـ وهو مقامُ عَدْلٍ ـ فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة ـ وهو مقامُ فَضْل ـ بطريق الأولىٰ والأحرىٰ).

وقوله: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾. أي: لا يفوت الله ولا يسبقه ، بل قدرة الله تناله وتشمله.

وقوله: ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾. أي: وليس له أنصار وأعوان يمنعونه من عذاب الله وحلول نقمته.

وقوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. تهديد وترهيب. أي: ومن أعرض عن داعي الحق واستكبر على الله ورسله فقد خاض في أوحال الضلال البين العاقبة.

---

(1) حسن لشواهده. أخرجه الترمذي في «سننه» (2/ 234) ، والحاكم (2/ 473) ، وأخرجه البزار (221 ـ 222 زوائد) ، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (2150).

33 ـ 35. **قوله تعالىٰ:** ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (34) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)﴾.

في هذه الآيات: التقريع على منكري البعث قصة الخلق لهذه السماوات الكبيرة والأرض الواسعة الفسيحة، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس والله على كل شيء قدير. والتصوير لمشهد الخزي والهوان للكفار أمام جهنم. والتسلية للنبي ﷺ بِحَثِّه على الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾. قال القرطبي: (الرؤية هنا بمعنىٰ العلم. ومعنىٰ ﴿وَلَمْ يَعْيَ﴾ ـ لم ـ يَعْجِز ويَضْعف عن إبداعهن).

أي: أو لم يعلم هؤلاء الذين ينكرون بعث الأجساد يوم القيامة خلق السماوات والأرض دون لغوب ولا ممانعة. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38]. وكقوله تعالىٰ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57].

وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ـ ﴿بَلَىٰ﴾: جواب للنفي. قال ابن جرير: (بلىٰ يقدر الذي خلق السماوات والأرض على إحياء الموتىٰ. . . . لأن من عجز عن ذلك فضعيف فلا ينبغي أن يكون إلـٰهاً من كان عما أراد ضعيفاً).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

أي: ذَكِّرهم يا محمد يوم يعرض المكذبون بالبعث على النار فيشرفون عليها وقد دنت منهم ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً: أليس هذا العذاب هو الذي كذبتم به في الدنيا؟ فيجيبون من فورهم: بلىٰ وربنا.

وقوله: ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. أي: فذوقوا إذن جزاء كفركم وجحودكم.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾. قال عطاء الخراساني: (نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد ﷺ). وقال ابن زيد: (كل الرسل كانوا أولي عزم لم يتخذ الله رسولاً إلا كان ذا عزم، فاصبر كما صبروا).

قلت: والمشهور الأول، وهو أن أولي العزم من الرسل: نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، وخاتم الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقد ورد تخصيصهم بالذكر مرتين في القرآن، مرة في سورة الأحزاب، ومرة في سورة الشورىٰ: قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

وقال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورىٰ: 13].

قال ابن كثير: (وقد يحتمل أن يكونَ المرادُ بأولي العزم جميع الرسل، وتكون «مِنْ» في قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم).

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾. قال مقاتل: (بالدعاء عليهم). وقيل: في إحلال العذاب بهم، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة. كقوله تعالىٰ: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: 11]. وكقوله تعالىٰ: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: 17].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾. قال يحيىٰ: (من العذاب). وقال النقاش: (من الآخرة).

وقوله: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ﴾. أي في الدنيا حتىٰ جاءهم العذاب.

وقال النقاش: (في قبورهم حتىٰ بعثوا للحساب). وقيل: نسّاهم هول ما عاينوا من العذاب طول لبثهم في الدنيا.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 46].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: 45].

وقد مثَّلَ النبي ﷺ مكثه في الدنيا كساعة من نهار ، يرحل بعدها ويتركها.

فقد أخرج الترمذي والحاكم بسند صحيح عن علقمة عن عبد الله مرفوعاً: [مالي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها][1].

وله شاهد عند ابن حبان وأحمد عن عكرمة عن ابن عباس: [أنّ رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثرَّ في جنبه فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: مالي وللدنيا؟! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها][2].

وقوله: ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ ـ فيه تأويلان محتملان:

التأويل الأول: البلاغ بمعنىٰ التبليغ. قال الحسن: (أي هذا القرآن بلاغ). فرفع ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ على إضمار مبتدأ ، ويؤيد هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ [إبراهيم: 52]. وقوله: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 106].

التأويل الثاني: أي إن ذلك اللُّبْث بلاغ. قال ابن عيسىٰ. فيوقف على هذا على ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ وعلى ﴿ نَّهَارٍ ﴾ ـ ذكره القرطبي.

وقوله: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾. قال ابن عباس: (أي الخارجون عن أمر الله). وعن قتادة: (لا يهلك الله إلا هالكاً مشركاً). وهذا من كمال عدله سبحانه فإنه لا يعذب بالنار إلا من استحق الإهانة والعذاب ، ومن ثمَّ فلا يهلك على الله إلا هالك.

أخرج الحاكم وأحمد بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: [مرَّ النبي ﷺ بأناس من أصحابه ، وصبي بين ظهراني الطريق ، فلما رأت أمه الدواب خشيت على ابنها أن يوطأ ، فسعت والهة ، فقالت: ابني! ابني! فاحتملت ابنها ، فقال القوم: يا نبي الله!

---

(1) أخرجه الترمذي (2/ 60) ، والحاكم (4/ 310) ، وأحمد (1/ 391 ، 441) ، وكذلك ابن ماجة (2/ 526) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (439).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2526) ، والحاكم (4/ 309 ـ 310) ، وأحمد (1/ 301) ، ورواه البيهقي كما في «الترغيب» (4/ 114) ، وانظر: «الصحيحة» (440).

ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار ، فقال رسول الله ﷺ: لا والله ، لا يُلقي اللهُ حبيبَهُ في النار][1] .

تم تفسير سورة الأحقاف
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 177) ، وأحمد (3/ 104) ، (3/ 235) ، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني في «الصحيحة» (2407).

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ إذا كان يوم القيامة أذَّنَ مؤذن: ليتبع كل أمة ما كانت تعبد. فلا يبقىٰ أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار.

2 ـ أهل النار كل عُتُلّ جَوّاظ مستكبر. وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون.

3 ـ إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطرُ الحق وغَمْطُ الناس.

4 ـ أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور.

5 ـ أشد العمر: ثلاث وثلاثون، واستواؤه: أربعون، والعذر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون.

6 ـ لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر.

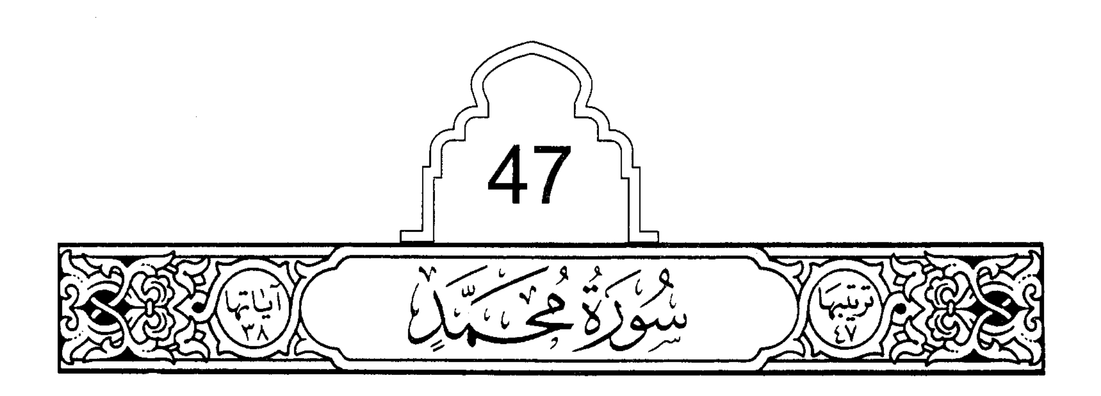
7 ـ الأحقاف: ديار عاد، وهي الرمال العظام، جمع حِقف، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلاً.

8 ـ كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خَيْرَها، وخيرَ ما فيها، وخيْرَ ما أُرسلت به. وأعوذُ بك من شرها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أرسلت به.

9 ـ كان رسول الله ﷺ إذا أمطرت قال: اللهم صَيِّباً نافعاً.

10 ـ مثل المكوث في الدنيا: كراكب ظلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها. ولا والله، لا يلقي الله حبيبَه في النار.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وتسمى سورة القتال ، وعدد آياتها (38) .

موضوع السورة

انتصار للمؤمنين أتباع محمد عليه الصلاة والسلام
ووعيد شديد للمنافقين والكافرين أعداء محمد اللئام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ تهديد لكفار مكة الذين يصدون عن الدين الحق بالغرق في العمى والضلالات. ووعد للمؤمنين المتبعين رسولهم بتكفير السيئات ورفع الدرجات .

2 ـ الحث على الإجهاز على العدو في المعركة ، والوعد الجميل للذين قتلوا في سبيل الله .

3 ـ تأكيد سنة الله بنصر المؤمنين الصادقين ، وخذلان الكافرين المعاندين.

4 ـ تنبيه الكافرين لرؤية مصير أمثالهم عبر الزمان ، والله تعالى عدو للكافرين وهو ولي أهل الإيمان ، وقد وعدهم الحياة الرغدة الناعمة في الجنان.

5 ـ الكفار يتمتعون ويأكلون كالأنعام ، ومصيرهم إلى الشقاء والحرمان والعذاب بالنيران.

6 ـ كما لا يستوي أهل البصيرة واليقين مع أهل الهوى وتزيين الشياطين ، كذلك لا يستوي أصحاب الجنة في روضات النعيم مع أصحاب النار في دركات الجحيم.

7 ـ نَعْتُ المنافقين بقسوة قلوبهم واتباع أهوائهم ، والثناء على المؤمنين بحسن إسلامهم وزيادة إيمانهم.

8 ـ تأكيد اقتراب الساعة فقد ظهر بعض أشراطها ، والأمر بالعلم بلا إله إلا الله سر النجاة وسعادة الدارين.

9 ـ تمني المؤمنين نزول تشريع الجهاد ، وجبن بعضهم عند نزول فرض القتال.

10 ـ التحذير من التولي وما يعقبه من الفتنة في الدين وتقطيع الأرحام ، والضلوع في الظلم والآثام.

11 ـ الأمر بتدبر القرآن ، وفهم ما فيه من المعاني والأحكام.

12 ـ نَعْتُ حال المجرمين عند النزع والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بما أسخطوا الله وكرهوا رضوانه فأخزاهم وأحبط أعمالهم.

13 ـ مَكْرُ الله تعالى بالمنافقين وفضحهم ، وسنة الله في ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم.

14 ـ تهديدٌ للكافرين ، ووعد لهم بالخذلان والحرمان. وحث للمؤمنين على طاعة الله ورسوله ، ووعد لهم بالنصر والإكرام.

15 ـ تنبيهُ المؤمنين إلى غرور هذه الحياة الدنيا التي تشغل عن الإيمان ، والجهاد والإنفاق والإحسان. والتلميح بالعقاب والاستبدال ، إن تولى أو ضعف الرجال.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 3. **قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ .

في هذه الآيات: تهديدٌ شديد لكفار مكة الذين يصدون عن الدين الحق بالغرق في الضلالات. ووعدٌ أكيد للمؤمنين المتبعين رسولهم بتكفير السيئات ورفع الدرجات.

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (نزلت في أهل مكة). أي: كفروا بآيات الله وجحدوا نبوة رسوله، وحالوا دون اختيار الناس الإيمان بالله ونبوة محمد ﷺ فصدوهم ووقفوا في طريقهم وبسطوا أيديهم نحوهم بالأذى.

وقوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. أي جعل أعمالهم ضلالاً على غير هدى وغير رشاد. قال ابن كثير: (أبْطَلها وأَذْهَبَها ولم يَجْعَل لها ثواباً ولا جزاءً، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. قال ابن عباس: (الأنصار). قلت: بل الآية بعمومها تشمل المهاجرين والأنصار ومن مضى على منهاجهم في الإيمان والامتثال.

وقوله: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾. قال سفيان الثوري: (لم يخالفوه في شيء). والآية من باب عطف الخاص على العام، وفيها دليل أنه لا يستقيم الإيمان دون إقامة مفهوم شهادة: أن محمداً رسول الله. قال النسفي: (﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ وهو

القرآن ، وتخصيص الإيمان بالمنزل على رسوله من بين ما يجب الإيمان به لتعظيم شأنه).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ . جملة اعتراضية مؤكدة أن القرآن المنزل على محمد هو الحق ، أو أن دين محمد هو الحق الناسخ لجميع الأديان قبله .

وقوله: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ . أي ما مضى من ذنوبهم وخطاياهم قبل الإيمان .

وقوله: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ . قال ابن عباس: (أمرهم) . وقال مجاهد: (شأنهم) . وقال قتادة: (أصلح حالهم) . وكلها متقاربة . والبال: كالمصدر مثل الشأن لا يعرف منه فعل ، ولا جمع له إلا لضرورة الشعر فيقال: (بالات) .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إذا عَطَسَ أحَدُكُم فليقل: الحمدُ لله ، وليقل له أخوه ـ أو صاحِبُهُ ـ: يَرْحَمُكَ الله ، فإذا قال له: يرحَمُكَ الله ، فليقل: يهديكم الله ويُصْلِحُ بالكم][1] .

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ .

أي: ذلك الإضلال والهدى ، وإبطال أعمال الكفار ، والتجاوز عن سيئات الأبرار ، إنما يرجع إلى سوء اختيار أهل الضلال ، وحسن امتثال المؤمنين الأخيار . قال مجاهد: (الباطل: الشيطان) . وقيل: (الباطل: الشرك ، والحق: التوحيد والإيمان) . قال ابن جرير: (أما الكافرون فأضللنا أعمالهم ، وجعلناها على غير استقامة وهدى ، بأنهم اتبعوا الشيطان فأطاعوه ، وهو الباطل . وأما المؤمنون فكفرنا عنهم سيئاتهم وأصلحنا لهم حالهم بأنهم اتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم وهو محمد ﷺ) .

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ . قال القرطبي: (أي كهذا البيان الذي بُيِّن يُبَيِّنُ الله للناس أمر الحسنات والسيئات) .

قال الزمخشري: (فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟ قلت: في أن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين . أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين) .

والمقصود: يشبه الله للناس في هذا القرآن الأشباه ، فيلحق بكل قوم من الأمثال أشكالاً ، وبكل سبيل ووجهة يوليها الناس أوصافاً وأحوالاً .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6224) ـ كتاب الأدب ، باب: إذا عطسَ كيفَ يُشَمَّتُ؟ .

4 ـ 9. **قوله تعالى:** ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: الحثُّ على إتقان الضرب والإجهاز على العدو في القتال والتقييد المحكم للأسرى، والوعد بجميل الأجر والعطاء للمجاهدين الذين قتلوا في سبيل الله، وتأكيد سنة الله بنصر المؤمنين الصادقين، وخذلان الكافرين المعاندين للوحي والمرسلين.

قال ابن جرير: (﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بالله ورسوله من أهل الحرب فاضربوا أعناقهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم فصاروا في أيديكم أسرى ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ فشدوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم فيهربوا منكم. فإذا أسرتموهم بعد الإثخان فإما أن تَمُنُّوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضاً حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل).

وقد ادّعى بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة براءة: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: 5].

قلت: والحق أنها محكمة غير منسوخة لإمكان اجتماع حكميهما من جهة، ولا دليل يصرح بالنسخ من جهة أخرى.

فإن كان الحال نهوضاً من غربة وضعف إلى عز وشوكة، كان الأَوْلى قتل أئمة الكفر الذين يقعون في الأسر، كما جاء الدرس في ذلك يوم بدر، حيث قال تعالى معاتباً: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: 67]. وأما إن كان الحال

فتحاً ونصراً ، واستمراراً على قهر الأعداء وعزاً ، فللحاكم النظر في المصلحة الشرعية في أمر من وقع في الأسر.

قال الشافعي: (الإمام مُخَيَّرٌ بين قتله أو المن عليه ، أو مفاداته أو استرقاقه أيضاً). وإليه ذهب مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم من التابعين ، وهو مذهب ابن عمر وابن عباس وفعل الخلفاء الراشدين.

وأصل ذلك من هدي وسيرة النبي ﷺ في مواقف كثيرة ، منها:

الموقف الأول: إطلاقه ثُمامة بن أُثال الحنفي.

ففي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة قال: [بعث رسول الله ﷺ خَيْلاً قِبلَ نَجْدٍ ، فجاءت بِرَجُلٍ مِنْ بني حَنيفةَ يُقالُ له: ثُمَامَةُ بن أُثَال ، سَيِّدُ أهل اليمامة ، فرَبطوه بسارِيَةٍ من سَواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ماذا عِندك يا ثُمامة؟! فقال: عندي يا محمدُ! خَيْرٌ ، إنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَم ، وإنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ علىٰ شاكِرٍ ، وإنْ كنتَ تريدُ المال فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئت ، فتركه رسول الله ﷺ ، حتى كان بَعْدَ الغَدِ ، فقال: ما عِندك يا ثمامَةُ؟! قال: ما قُلْتُ لك: إنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكر ، وإن تَقْتُل تَقْتُل ذا دمٍ ، وإن كنت تريدُ المال فسل تُعْطَ منه ما شئت؟ فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغَدِ ، فقال: ماذا عِندك يا ثمامَةُ؟! فقال: عِندي ما قُلْتُ لكَ: إن تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكرٍ ، وإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دَمٍ ، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئت ، فقال رسول الله ﷺ: «أَطْلِقوا ثُمامة». فانطلق إلى نَخْلٍ قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، يا محمدُ! والله! ما كان على الأرض وَجْهٌ أبغضَ إليَّ مِنْ وجهك ، فقد أصبح وجْهُكَ أحَبَّ الوجوه كُلِّها إلي ، والله! ما كان مِنْ دِينٍ أبغَضَ إليَّ من دينك ، فأصبح دينُك أحبَّ الدين كلِّه إليَّ. . .] الحديث[1].

الموقف الثاني: قتله ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط يوم بدر بعد أسرهما. فقد كان النضر بن الحارث حامل لواء المشركين يوم بدر ، وكان من أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ بمكة ، ومن أشد الناس كيداً للإسلام والمسلمين ، ومن أكابر المجرمين في ذلك الزمان ، فتوقف النبي ﷺ في طريق عودته من معركة بدر في

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (469) ، ومسلم (1764) ، وأبو داود (2679) ، وأخرجه النسائي (1/ 109 ـ 110) ، وأحمد (2/ 453) ، وابن حبان (1239).

الصفراء وأمر بالنضر بن الحارث فأخرج من بين الأسرى ، ثم أمر علياً رضي الله عنه فتقدم وضرب عنقه .

ثم مضى عليه الصلاة والسلام ، حتى إذا بلغ عرق الظبية توقف وأمر بعقبة بن أبي مُعيط فَسُحِبَ من بين الأسرى ، ـ وهو الذي انبعث ليلقي سلاة الشاة على رأس رسول الله ﷺ يوم كان يصلي عند الكعبة ، وانبعث مرة أخرى فحاول خنق النبي ﷺ وهويصلي فجاء أبو بكر وهو يبكي فرده عنه ، وانبعث مرة ثالثة بأمر أبي بن خلف ليشتم النبي ﷺ ويبصق في وجهه بمجلسه ـ فأمر النبي عاصم بن ثابت الأنصاري فضرب عنقه .

وفي سنن أبي داود بسند جيد عن مسروق: [عن عبد الله بن مسعود ـ أن النبي ﷺ لما أراد قتل عقبة بن أبي معيط قال: من للصبية؟ قال: النار][1] .

الموقف الثالث: إطلاقه لثمانين من رجال قريش حاولوا الغدر أثناء كتابته عقد الحديبية .

ففي صحيح مسلم عن أنس قال: [لما كان يوم الحديبية هبط علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح ، من قِبَل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم فأخذوا: قال عفان: فعفا عنهم ، ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: 24]][2] .

ومواقف كثيرة أخرىٰ ، كأخذه ﷺ من سلمة بن الأكوع جارية فدى بها أناساً من المسلمين ، ومنّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على سَبْي هوازن ، وغير ذلك من المواقف التي حفلت بها سيرته العطرة ومنهاجه في السياسة الشرعية .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ . قال النسفي: (أثقالها وآلاتها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع ، وقيل: أوزارها آثامها ، يعني حتى يترك أهل الحرب وهم المشركون شركهم بأن يسلموا ، وحتى لا يخلو من أن يتعلق بالضرب والشد أو بالمن والفداء ، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي رحمه الله أنهم لا يزالون على ذلك أبداً إلى أن لا يكون حرب مع المشركين وذلك إذا لم يبق لهم شوكة) .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2686) ـ كتاب الجهاد ، في أثناء حديث أطول.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1808) ـ كتاب الجهاد والسير. وانظر تفصيل ذلك في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (2/ 1008).

وعن مجاهد: (﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال: حتى يخرج عيسى بن مريم فيسلم كل يهودي ونصراني وصاحب ملة، وتأمن الشاة من الذئب، ولا تقرض فأرة جِراباً، وتذهب العداوة بين الأشياء كلها، ذلك ظهور الإسلام على الدين كله).

وعن قتادة: (حتى لا يكون شرك). وهو كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 193]. وكل ما سبق من المعاني يحتمله البيان الإلـهي.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾. قال قتادة: (إي والله بجنوده الكثيرة، كلّ خلقه له جند، ولو سلط أضعف خلقه لكان جنداً).

و﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: أي الأمر ذلك فلو شاء تعالى لانتقم منهم بعقوبة عاجلة، وكفاكم ذلك كله.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾. أي: ولكنه تعالى شرع فرض الجهاد لقتال الأعداء ليختبر صدقكم وثباتكم في حراسة هذا الدين.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: 142].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: 16].

3 ـ وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 14 ـ 15].

أخرج الحاكم بسند جيد عن عبادة بن الصامت مرفوعاً: [عليكم بالجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى، فإنه باب من أبواب الجنة، يُذْهِبُ الله به الهَمَّ والغَمَّ][1].

ورواه عبد الله بن أحمد بلفظ: [وجاهدوا في الله القريب والبعيد، في الحضر

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 74 ـ 75)، وانظر مسند أحمد (5/ 326)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1941)، وانظر ما بعده.

والسفر ، فإن الجهاد باب من الجنة ، إنه ينجي صاحبه من الهم والغم][1] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ . أي : والذين استشهدوا في سبيل الله فلن يذهب أعمالهم ، بل يضاعفها وينميها ويبارك فيها ، وربما استمر أجر بعضها إلى يوم القيامة . وفي ذلك أحاديث :

الحديث الأول : روى مسلم في صحيحه عن سلمان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [رِباطُ يَوْمٍ وليلةٍ خَيْرٌ من صيام شَهْرٍ وقيامه ، وإنْ مات ، جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه ، وأَمِنَ الفتّان][2] .

الحديث الثاني : أخرج مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ قال : [يُغفر للشهيد كلُّ ذنب ، إلا الدَّين][3] .

وفي رواية : [القتل في سبيل الله يُكَفِّر كُلَّ شيء ، إلا الدَّين] .

الحديث الثالث : أخرج أحمد والترمذي وابن ماجة بسند حسن عن المِقدام بن مَعدِ يَكرِب الكنديَ قال : قال رسول الله ﷺ : [للشهيد عند الله سَبْعُ خصال : يُغْفَرُ له في أوَّل دَفْعَةٍ من دمه ، ويرى مَقعدَهُ من الجنة ، ويُحلَّى حُلَّةَ الإيمان ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمَن من الفزع الأكبر ، ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ويَشْفَعُ في سبعين إنساناً من أهلِ بيتِهِ][4] .

وقوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ . أي : سيهديهم إلى الجنة ويصلح شأنهم ويسعد أحوالهم . وهذه هي المرتبة الرابعة من مراتب الهداية كما جاء في القرآن والسنة . فإن مراتب الهداية أربع :

1 ـ هداية عامة للخلق .

---

(1) أخرجه عبد الله بن أحمد (5/ 330) ، وانظر مسند أحمد (5/ 316) ، وابن عساكر (8/ 428/ 1) ، وكذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة (1942) ، وإسناده جيد .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1913) ـ كتاب الإمارة . باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1886) ـ كتاب الإمارة . باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه ، إلا الدين . وانظر للرواية الأخرى (1886) ح (120) .

(4) حديث حسن . أخرجه أحمد (4/ 131) ، والترمذي (1663) ، وابن ماجة (2799) ـ لكن بلفظ «ست خصال» بدل «سبع خصال» . وانظر صحيح الجامع (5058) .

2 ـ هداية الدلالة والإرشاد.

3 ـ هداية التوفيق والإلهام.

4 ـ هداية إلى الجنة في الآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: 9]. وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: 24].

وعن مجاهد: (﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ قال: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً).

وقال ابن عباس: (هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم).

يروي البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن نبيَّ الله ﷺ قال: [إذا خَلَصَ المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، يتقاصُّونَ مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أذن لهم بدخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا][1].

وله شاهد في المسند من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة][2].

وقوله: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾. قال مجاهد: (يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم لا يخطئون، كأنهم سكانها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحداً). وقال ابن زيد: (بلغنا عن غير واحد قال: يدخل أهل الجنة الجنة، ولهم أعرف بمنازلهم فيها من منازلهم في الدنيا التي يختلفون إليها في عمر الدنيا. قال: فتلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾).

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. سنة عظيمة يمضي عليها أهل حراسة الدين، فينعمون بتأييد الله لهم وتثبيت أقدامهم وقهر أعدائهم. والمعنى: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار، ويثبت أقدامكم عند

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2440) ـ كتاب المظالم. باب قصاص المظالم.

(2) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (3/ 13)، وكذلك (3/ 74)، ورواه البخاري بنحوه.

القتال ، وعلى الإسلام ، وعلى الصراط. كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]. فإن الجزاء من جنس العمل: الصبر على الجهاد وإقامة الدين ، يعقبه النصر والتأييد والتمكين.

أخرج الخطيب في «التاريخ» بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعاً: [النَّصْرُ مع الصَّبْر ، والفَرَجُ مع الكَرْبِ ، وإنَّ مع العُسْر يُسراً ، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً][1].

وعن قتادة: (﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ لأنه حق على الله أن يعطي من سأله ، وينصر من نصره).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾. قال ابن زيد: (شقاء لهم).

وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. أي: أحبطها وأبطلها. قال ابن جرير: (جعل أعمالهم معمولة على غير هدى ولا استقامة ، لأنها عملت في طاعة الشيطان لا في طاعة الرحمن).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تَعِسَ عبد الدينار والدرهم والقَطيفة والخَميصة ، إنْ أُعطي رضي ، وإن لم يُعْطَ لم يَرْضَ][2].
وفي رواية: [تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. أي: هذا الإضلال وذلك الإتعاس إنما كان مقابل كراهيتهم لما أنزل الله من الكتب والشرائع ، وتعظيمهم للأوثان والطواغيت والشهوات ، فقابلهم الله بإبطال وإحباط جميع الأعمال. قال القاسمي: (﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي من الحق ، وشايعوا ما ألفوه من الباطل. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كعبادتهم لأوثانهم ، حيث لم تنفعهم ، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً).

قلت: بل إن جميع أعمال الكافر تحبط يوم القيامة حتى ما كان منها في وجوه الخيرات ، ما دام لم يكن يريدُ تعظيم أمر الله وإقامته.

ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله لا يَظْلم مؤمناً حسنةً ، يُعْطِي بها في الدنيا ويَجْزي بها في الآخرة ، وأمّا الكافر فَيُطْعَمُ بحسنات

(1) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287) ، والديلمي (4/ 111 ـ 112) ، وانظر مسند أحمد (1/ 307) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2382).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2886) ، (2887) ـ كتاب الجهاد والسير ، وله تتمة.

ما عمِلَ بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة ، لم تكن له حسنة يجزى بها][1] .

وقوله : «ما عمل بها لله في الدنيا» ـ أي ما كان يظهر أنها من أعمال البر والمعروف والخير ، ولكنه مع كفره بالله وكراهيته لشرعه وأمره لم تنفعه إلا في الدنيا ، فقد حَمَلَهُ على فِعْلها دوافع الرياسة والظهور أو العطف والإنسانية ، فجازاه الله بمثل نِيّتِهِ من زينة هذه الحياة الفانية ، وأما الآخرة فهي عند الله للمؤمنين المخبتين.

10 ـ 13 . **قوله تعالى** : ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تنبيهُ الكافرين لرؤية مصير أمثالهم عبر الزمان ، فالله تعالى عدو للكافرين وهو ولي أهل الإيمان ، وقد وعدهم الحياة الرغدة الناعمة في الجنان ، وأما الكافرون فيتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، ومصيرهم في الدنيا إلى الخزي والخذلان ، وفي الآخرة إلى العذاب في النيران.

فقوله : ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ . وعيد وتهديد. أي: أولم يسر هؤلاء المنكرون المكذبون في الأرض سفراً فيروا ما نزل بمن مضى ممن كفر ، فكانوا يسافرون إلى الشام فيرون نقمة الله بأهل حجر ثمود ، ويسافرون إلى اليمن فيبصرون ما حلّ بسبأ ، فإنهم إن لم يتعظوا فالدمار قادم ، شأن من سبقهم ، فلهم أمثالها.

وقوله : ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ . قال مجاهد: (مثل ما دُمرت به القرون الأولى وعيد من الله لهم).

وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ . أي : ذلك بأن الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808) ، كتاب صفات المنافقين ، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة ، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا.

وليّ المؤمنين وناصرهم ، وأن الكافرين لا ينصرهم أحد من الله .

وفي صحيح البخاري من حديث البراء ـ في أواخر معركة أحد حين قال أبو سفيان: اعْلُ هبل ـ فقال النبي ﷺ: أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجَلُّ. قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزّى لكم. فقال النبي ﷺ: أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: [قولوا: اللهُ مولانا ولا مولى لكم][1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

بشائر النصر للمؤمنين في الآخرة ، بعد تحقيق وعد النصر لهم في الدنيا. فلهم في الدنيا الشوكة والنصر والتمكين ، وهم في الآخرة في بساتين التكرمة والنعيم ، تجري تحت أشجارها وبيوتها الأنهار.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾. قال القرطبي: (﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا كأنهم أنعام ، ليس لهم همّة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما في غدِهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتّع).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يأكل المسلم في مِعىً واحد ، والكافر يأكُلُ في سَبْعَةِ أمعاءٍ][2].

وقوله: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾. أي: والنار مقام لهم ومنزل يوم جَزائِهم.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾. يعني مكة. قال النسفي: (أي: وكم من قرية أشد قوة من قومك الذين أخرجوك أي كانوا سبب خروجك ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ أي فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم).

أخرج ابن جرير بسنده إلىٰ ابن عباس: [لما خرج النبي ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: اللهم أنتِ أحبّ البلاد إلى الله ، وأنت أحبّ البلاد إليّ ، ولولا المشركون أهْلُك أخرجوني لما خرجت منك][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4043) ـ كتاب المغازي. باب غزوة أحد.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5396) ـ كتاب الأطعمة ، وابن ماجة (3256) من حديث أبي هريرة ، وأخرجه مسلم (2062) من حديث أبي موسى.

(3) أخرجه الطبري (31372) عن ابن عباس ، وفي إسناده ضعيف هو حسين بن قيس ، وفي المتن: «فنزلت الآية». وأما أصل المتن فصحيح دون ذكر سبب النزول.

14 ـ 15. **قوله تعالى:** ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: لا يستوي أهل البصيرة واليقين، وأهل الهوى وتزيين الشياطين. وكذلك لا يستوي أصحاب الجنة ذات المياه واللبن والعسل والخمر والنعيم، وأصحاب النار ذات الحميم والجحيم.

فقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. قال ابن كثير: (أي: على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل في كتابه من الهُدى والعلم، وبما جَبَله الله عليه من الفطرة المستقيمة).

وقوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾. أي: كمن أراه الشيطان عمله حسناً، فهو مقيم عليه. قال القرطبي: (﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي ما اشتهوا. وهذا التزيين من جهة الله خلقاً. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاءً ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكافر، أي زيّن لنفسه سوء عمله وأصرّ على الكفر).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: 19].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: 18].

3 ـ وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122].

أخرج الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: [إنَّ الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضَلّ][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 176)، (2/ 197)، وابن حبان (1812)، والحاكم (1/ 30)، والترمذي (2/ 107) نحوه. وانظر السلسلة الصحيحة (1076).

وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. قال عكرمة: (أي: نعتُها).

وقوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: غير متغيّر). وقال قتادة: (غير مُنتن). وفي لغة العرب: أسِنَ الماء ـ أي تغير ريحُه.

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾. قال ابن جرير: (لأنه لم يحلب من حيوان فيتغير طعمه بالخروج من الضروع، ولكنه خلقه الله ابتداء في الأنهار).

والمقصود: لبن يجري في الأنهار، وهو في غاية البياض والحلاوة والدُّسومة.

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾. قال ابن القيم: (نفى الله عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو والإنزاف وعدم اللذة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: 47].

2 ـ وقال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: 19].

3 ـ وقال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: 46].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ شَرِبَ الخمرَ في الدنيا ثُمَّ لم يَتُبْ منها حُرِمَها في الآخرة][(1)].

وقوله: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾. آفة العسل عدم التصفية، كما آفة الخمر تغير لذته ومذاقه مع الوقت، وآفة اللبن تغير طعمه مع الزمن، وآفة الماء أنه يصبح آسناً من طول المكث، فقد انتفت كل هذه الآفات.

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ في الجنة بحرَ الماء، وبحرَ العسل، وبحرَ اللبن، وبحرَ الخمر، ثم تشقق الأنهار بعد][(2)].

قلت: وهذه الأنهار تتفجر من أعلى الجنة، ثم تنحدر نازلة لتمر تحت قصور وبيوت ومساكن المؤمنين، في منظر رائع خلاب.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5575) ـ كتاب الأشربة، وبنحوه الحاكم (4/ 141)، ورواه مسلم وأحمد والنسائي وابن ماجة. انظر صحيح الجامع (6186) ـ (6187).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 5)، والترمذي (2571)، وإسناده حسن.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تتفجّر أنهار الجنة](1) .

وله شاهد عند الترمذي والحاكم بسند صحيح لشواهده ، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: [الجنة مئة درجة ، ما بين كُلِّ دَرَجَتيْن مسيرة مئة عام ، والفردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة ، والعرش من فوقها ، وإذا سألتم الله تبارك وتعالى ، فاسألوه الفردوس](2) .

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ . ﴿مِن﴾ زائدة للتأكيد ، والمعنى: وجميع أنواع وأصناف وألوان الثمار والفاكهة متوفرة لضيافتهم وهي رَهْنُ إشارتهم .

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: 41 ـ 43] .

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: 55] .

3 ـ وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: 52] .

قال ابن القيم رحمه الله: (تضمنت النصوص أن لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوى وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء ، وأما المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر) .

وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ . نور على نور ، وسرور فوق سرور ، فإن رضىٰ الرحمن أعلى هذه اللذات ، وأهنؤها على القلب والنفس والمشاعر . كما قال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 21] . وكقوله جل ثناؤه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4/ 14) ، (9/ 101) ، وأحمد (2/ 335) ، (2/ 339) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (398) .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي (3/ 326) ، والحاكم (1/ 80) ، وأحمد (5/ 316) ، وكذلك (5/ 321) ، والسياق له . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (922) .

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة : 72].

وفي الصحيحين والمسند عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ، فيقولون: لَبَّيْك رَبَّنا وسَعْدَيك ، فيقول: هل رضيتُمْ؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لمْ تُعْطِ أحداً مِنْ خلقِك؟ فيقول: أنا أعطيكم أَفْضَل من ذلك ، قالوا: يا ربِّ وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني فلا أسخَطُ عليكم بَعْدَهُ أبداً][1] .

وقوله: ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾. أي: فهل يستوي أصحاب النعيم وأهل الجحيم ، أصحاب المنازل والدرجات وأهل الهوي في الدركات. قال الفرّاء: (المعنى: أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار). وقال الزجاج: (أي: أفمن كان على بينة من ربه وأعطي هذه الأشياء كمن زُيِّنَ له سوء عمله وهو خالد في النار). وقال ابن كيسان: (مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم؟! ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم؟!).

وقوله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا﴾. أي: حاراً شديد الحرارة والغليان ، يشوي الوجوه والأمعاء ويمزق الأبدان.

وقوله: ﴿فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾: أي: فَمَزَّقَ بِغَلَيانه وَفَوَرانه الأمعاءَ والأحشاءَ ، عياذاً بالله من حال أهل النار.

16 ـ 19 . قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ المنافقين بقسوة قلوبهم وخفة عقولهم واتباع أهوائهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6549) ـ كتاب الرقاق ، وكذلك (7518) ـ كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم (2829) ـ كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها. ورواه أحمد.

والثناء على المؤمنين بحسن إسلامهم وزيادة إيمانهم. وتأكيد اقتراب الساعة فقد ظهر بعض أشراطها. والأمر بالعلم بلا إله إلا الله سر النجاة والسعادة في الدارين.

فقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾. إخبار عن المنافقين في غبائهم وقساوة قلوبهم وعقولهم. قال ابن زيد: (هم المنافقون، والذين أوتوا العلم الصحابة رضي الله عنهم). قال النسفي: (هم المنافقون كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له بالاً تهاوناً منهم، فإذا خرجوا قالوا لأولي العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء).

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. أي: أولئك الذي ختم الله على قلوبهم فأقفلها. قال القاسمي: (أي فلا يدخلها الهدى لإبائهم عنه).

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾. أي ومضوا خلف آرائهم وشهواتهم، فلا فهمٌ صحيح. ولا قصد صحيح، وإنما هو ركوب الفتن والأهواء.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾. قال ابن كثير: (أي: والذين قصدوا الهداية وفّقهم الله تعالى لها فهداهم إليها، وثبّتهم عليها وزادهم منها).

وقوله: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾. أي: ألهمهم طريق التقوى والرشد والفلاح. قال الربيع: (آتاهم الخشية). وقال السدي: (ثواب تقواهم في الآخرة). وقال مقاتل: (وفقهم للعمل الذي فرض عليهم). وقال ابن زيد: (بيّن لهم ما يتقون). وقال عطية: (ترك المنسوخ والعمل بالناسخ). وقال الماوردي: (ترك الرخص والأخذ بالعزائم). قلت: وكلها تفاسير متقاربة متكاملة.

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾. قال قتادة: (قد دنت الساعة ودنا من الله فراغ العباد). وعن ابن زيد: (أشراطها: آياتها). أي: فهل ينظرون أن تأتيهم الساعة فجأة، فقد بدت أماراتها وعلاماتها، وهو وعيد للكفار.

وعن الحسن: (علامات الساعة انشقاق القمر والدخان). وعن الكلبي: (كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام). وعن الحسن البصري قال: (بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: 1].

2 ـ وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1].

4 ـ وقال تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ [النجم: 56 ـ 57].

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد قال: [رأيت رسول الله ﷺ قال بإصبعه هكذا، بالوسطى والتي تليها: بُعثت أنا والساعة كهاتين][1].

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: [أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّتين حتى رأوا حراءً بينهما][2].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله قال: [والبطشة الكبرى يوم بدر، فقد مضت الدخان والبطشة واللِّزام وآيةُ الروم][3].

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾. قال قتادة: (يقول: إذا جاءتهم الساعة أنى لهم أن يتذكروا ويعرفوا ويعقلوا؟). وقال: (أنى لهم أن يتذكروا أو يتوبوا إذا جاءتهم الساعة). وقال ابن زيد: (لا ينفعهم عند الساعة ذكراهم).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: 23].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [سبأ: 52].

وفي سنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم بسند حسن عن أنس بن مالك مرفوعاً: [يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أرسلت فيه السفن لجرت][4].

وفي لفظ الحاكم عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ أهلَ النار

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6503)ـ كتاب الرقاق. وأخرجه كذلك (6504) من حديث أنس. وكذلك رواه مسلم (2951)، والترمذي (2214).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (فتح الباري 7/ 182)، وكتابي: السيرة النبوية (1/ 258).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1007) ـ كتاب الاستسقاء، في أثناء حديث طويل.

(4) حسن لغيره. أخرجه ابن ماجة (4324) ـ باب صفة النار. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3491). وأخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (ق 12/ 1).

لَيَبْكون ، حتى لو أُجريت السُّفُن في دموعهم ، لجرت ، وإنهم لَيَبْكون الدَّم ـ يعني ـ مكان الدمع][1] .

وقوله: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ . أمر بالعلم قبل العمل ، وتنبيه لشرف العلم ، وأشرف العلوم علوم شهادة أن لا إله إلا الله .

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: (ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم. وقال: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [الحديد: 20 ـ 21] وقال: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ [الأنفال: 28]. ثم قال بعد: ﴿ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ [التغابن: 14] وقال تعالى: ﴿ ۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ [الأنفال: 41]. ثم أمر بالعمل بعد).

وفي صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلا الله دخل الجنة][2] .

وقوله: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ . قال القرطبي: (يحتمل وجهين: أحدهما ـ يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب. الثاني ـ استغفر الله ليعصمك من الذنوب). وقيل: الخطاب له والمراد به الأمة. قلت: والأفضل من ذلك أن يقال: ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح ، وذنوبنا مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر .

وقوله: ﴿ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ . أي: وسل ربك غفران ذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء ، فإن ذلك بركة وخير لك ولهم .

وفي السنة الصحيحة روائع في آفاق هذه المعاني ، منها :

الحديث الأول: أخرج الطبراني بسند حسن عن عبادة ، عن النبي ﷺ قال: [من استغفر للمؤمنين والمؤمنات ، كتبَ الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة][3] .

الحديث الثاني: أخرج الشيخان وابن حبان من حديث أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ كان يقول: [اللهم اغفر لي خطيئتي وجَهلي ، وإسرافي في أمري ،

---

(1) أخرجه الحاكم (4/ 605) ، ورجاله ثقات. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679) .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (26) ـ كتاب الإيمان ، ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع (6428) .

(3) حديث حسن. أخرجه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (10/ 210) وقال الهيثمي: «وإسناده جيد». وانظر صحيح الجامع الصغير (5902) .

ومَاأنت أعلَمُ به مني ، اللهم اغفر لي هزْلي وجِدِّي ، وخطئي وعَمْدِي ، وكُلُّ ذلك عندي][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام البخاري والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكْثَرَ من سبعين مَرَّةً][2] ،

ولفظ الترمذي عن أبي هريرة: [﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فقال النبي ﷺ: إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة].

وله شاهد في صحيح مسلم من حديث الأغَرِّ بن يسار المُزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يا أيها الناسُ! توبوا إلى الله ، فإني أتوبُ إلى الله في اليوم مئة مرة][3] . وفي لفظ: [إنَّه ليُغانُ على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة].

وقوله: «لَيُغانُ على قلبي»: يعني ما يتغشى القلب. وقيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه ، فإذا فتر عنه أو غفل عنه عدّ ذلك ذنباً واستغفر منه.

الحديث الرابع: أخرج أحمد ومسلم ـ واللفظ له ـ عن عاصم عن عبد الله بن سَرْجِسَ قال: [رأيتُ النبي ﷺ وأكلتُ معه خُبْزاً ولَحْماً ، أو قال: ثريداً ، قال: فقلت له: أَسْتَغْفَرَ لكَ النبي ﷺ؟ قال: نعم ، ولَكَ ، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: 19]][4] .

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾. قال ابن عباس: (متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في الآخرة). وقال السدي: (متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في قبوركم). قال ابن جرير: (يقول: فإن الله يعلم متصرفكم فيما تتصرفون فيه في يقظتكم من الأعمال ، ومثواكم إذا ثويتم في مضاجعكم للنوم ليلاً).

قلت: والبيان الإلـهي المعجز يحتمل كل هذه المعاني ، فلا وجه لرفض أيّ منها.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6398) ، ومسلم (2719) ، وابن حبان (957).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 85) ، وأخرجه الترمذي (3255) ـ في السنن.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2702) ح (42) ، وكذلك ح (41) ـ كتاب الذكر والدعاء.
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2346) ـ كتاب الفضائل ، وأحمد (5/ 82) ، والترمذي (23).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60].

2 ـ وقال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 6].

3 ـ وقال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: 5].

أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: [فرغَ الله عز وجل إلى كل عبد من خمسٍ: مِنْ أجَلِهِ، ورزقِهِ، وأثرِهِ، ومضجعه، وشقي أو سعيد][1].

وله شاهد عند ابن عساكر من حديث أنس بلفظ: [فرغ الله من أربع: من الخَلْقِ، والخُلُق، والرِّزقِ، والأجل][2].

20 ـ 23. **قوله تعالى**: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالى عن تمني المؤمنين نزول تشريع الجهاد، فلما أنزل الله فرض القتال وأحكامه وجد كثير من الناس في قلوبهم الخوف والجبن من لقاء الأعداء، وإنما النجاة كل النجاة بالصدق مع الله في القول والعمل وعند اللقاء، وإلا فالفتنة في الدين وتقطيع الأرحام، والضلوع في الظلم والآثام.

فقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾. قال ابن زيد:

---

(1) حديث صحيح. انظر تخريج «السنة» ـ لابن أبي عاصم ـ (303 ـ 309)، ورواه أحمد وغيره.

(2) حديث صحيح. انظر تخريج «السنة» (303 ـ 309) من حديث أنس ـ عند ابن عساكر ـ وكذلك صحيح الجامع الصغير (4079)، وله شواهد كثيرة.

(هؤلاء المنافقون طبع الله على قلوبهم فلا يفقهون ما يقول النبي ﷺ). وقال قتادة: (كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين).

والمعنى كما قال ابن جرير: (ويقول الذين صدقوا الله ورسوله: هلا نزلت سورة من الله تأمرنا بجهاد أعداء الله من الكفار. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ مُّحۡكَمَةٌ﴾ يعني: أنها محكمة بالبيان والفرائض ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله وضعف ينظرون إليك يا محمد ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ خوفاً أن تغزيهم وتأمرهم بالجهاد مع المسلمين، فهم خوفاً من ذلك وتجنُّباً عن لقاء العدو ينظرون إليك نظر المغشي عليه الذي قد صرع. وإنما عني بقوله ﴿مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ من خوف الموت).

والآية كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةًۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٌ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

قال ابن القيم رحمه الله: (ولما كان جهادُ أعداءِ الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «المجاهد مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ في طاعة الله، والمهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نهى الله عنه»[1]. كان جهادُ النفس مُقَدَّماً على جهاد العدو في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يجاهدْ نفسه أولاً لِتَفْعَلَ ما أُمِرَتْ به، وتترك ما نُهيت عنه، ويحارِبْها في الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه في الخارج، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله، بل لا يمكنه الخروجُ إلى عدوِّه، حتى يُجاهد نفسَه على الخروج)[2].

وقوله: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾. قال قتادة: (هذا وعيد، فأولى لهم، ثم انقطع الكلام فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌۚ﴾). وفي رواية: (وعيد كما تسمعون).

وعن مجاهد: (﴿طَاعَةٌ وَقَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌۚ﴾ قال: أمر الله بذلك المنافقين. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ قال: إذا جدّ الأمر).

---

(1) أخرجه أحمد (6/ 21) من حديث فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: [ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب] وسنده جيد، وصححه ابن حبان (25)، والحاكم (1/ 11)، ووافقه الذهبي. انظر تحقيق زاد المعاد ـ الأرناؤوط ـ ص (6) ـ المجلد الثالث.

(2) انظر: «زاد المعاد» (3/ 5 ـ 6) ـ ابن قيم الجوزية ـ تحقيق الأرناؤوط.

وعن قتادة: (﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. يقول: طواعية الله ورسوله، وقول معروف عند حقائق الأمور خير لهم).

قال ابن كثير: (ثم قال مشجعاً ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، أي: وكان الأولى بهم أن يَسمعوا ويُطيعوا، أي: في الحالة الراهنة، ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: جَدَّ الحال، وحضر القتال، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلصُوا له النية، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾).

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾. قال قتادة: (يقول: فهل عسيتم كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطّعوا الأرحام، وعَصَوا الرحمن).

والمقصود: فهل عسيتم بإدباركم ونكولكم عن الجهاد، والصبر على مجالدة الأعداء، لحفظ الدين وحراسته في الأرض، أن تعودوا إلى ما كنتم عليه أيام الجاهلية من سفك الدماء، وقطع الأرحام، والإفساد في البلاد، وظلم العباد.

وفي السنة الصحيحة روائع من الأحاديث في آفاق ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [خَلَقَ الله الخلقَ، فلما فَرَغَ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن ـ عزَّ وجلَّ ـ، فقال: مَه! فقالت: هذا مقامُ العائذِ بكَ من القطيعة، فقال تعالى: ألا ترضينَ أن أصِلَ من وَصَلَكِ، وأقطعَ من قَطَعَكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاك. قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي وأحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ـ يبلغُ به النبي ﷺ ـ قال: [الراحمون يَرحمهم الرحمن، ارحمُوا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء، والرَّحِمُ شُجْنَةٌ من الرحمن، مَنْ وصلها وصلتُه، ومن قَطَعها بَتَّتُه][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4830)، (4831)، (4832). وأخرجه مسلم (2554)، وأحمد (2/ 330)، وابن حبان (441).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4941)، والترمذي (1924)، وأحمد (2/ 160).

الحديث الثالث: أخرج أحمد وأبو داود بسند صحيح من حديث عبد الرحمن بن عوف قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: [قال الله عزَّ وجلَّ: أنا الرحمنُ، خلقتُ الرحم وشققتُ لها اسماً من اسمي، فمن يَصِلها أصِلْهُ، ومن يقطعْها أقطعْهُ فأبُتُّه][1].

الحديث الرابع: أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ سَرَّه أن يُبسَطَ له في رزقِه، وأن يُنْسَأ له في أثره، فليصِل رحمه][2].

الحديث الخامس: أخرج البخاري وأحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الرحمَ مُعَلَّقَةٌ بالعرش، وليس الواصِلُ بالمكافِئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعت رَحِمه وَصَلَها][3].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾.

قال القرطبي: (﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحق. ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي قلوبهم عن الخير). وقال النسفي: (﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن استماع الموعظة ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ عن إبصارهم طريق الهدى).

24 ـ 28. قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تنبيهُ الله تعالى عباده إلى تَدَبُّرِ القرآن وَفَهْمِ ما فيه من المعاني والأحكام. وتحذيرٌ من الإعراض عنه واتباع ما يسوله الشيطان، ونَعْتٌ لحال المجرمين

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 194)، وأبو داود (1694)، والترمذي (1907).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5985) ـ كتاب الأدب، وكذلك (5986) من حديث أنس.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5991)، وأحمد (2/ 193)، وأبو داود (1697).

عند الفراق والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بما أسخطوا الله وكرهوا رضوانه فأخزاهم وأحبط أعمالهم.

فعن قتادة: (﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ إذن والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله ، لو تدبّره القوم فعقلوه ، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عند الله). قال القرطبي: (﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا عن الإسلام. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أي بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون). قال النسفي: (ونكرت القلوب لأن المراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك ، والمراد بعض القلوب وهي قلوب المنافقين ، وأضيفت الأقفال إلى القلوب لأن المراد الأقفال المختصة بها ، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح ، نحو الرّين والختم والطبع).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾. قال قتادة: (يقول: زَيَّنَ لهم). قال ابن عباس: (هم أهل النفاق).

والمعنى: إن الذين رجعوا إلى الكفر وفارقوا الإيمان من بعد ما أكرمهم الله بحجج الحق وأنار لهم سبيل النجاة ، إنما زَيَّن لهم صنيعهم ذلك الشيطان وحسَّنه لهم.

وقوله: ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾. أي: غرّهم وخدعهم بما اقترح عليهم.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾. قال القاسمي: (﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ قَالُواْ ﴾ أي المنافقون ﴿ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي في بعض أموركم ، أو ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد ، والتظاهر على الرسول ، أو الخروج معهم إن خرجوا ، كما أوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ [الحشر: 11] وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادّونهم).

قلت: والآية ردٌّ على المترخصين اليوم من التجمعات الإسلامية الجلوس في المحافل التي يحكم بها بالشرائع الوضعية يدّعون الانتصار لبعض شعائر الإسلام حيث يخسرون غالباً بالأصوات.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾. أي ما يخفون ويبيّتون، وما يداهنون به أهل الكفر ويمكرون. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ [النساء: 81].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾.

تخويف وتهديد، وتذكير ووعيد. قال ابن كثير: (أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وَتَعَصَّت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقَهْرِ والضَّرب).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ [الأنفال: 50].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ـ أي بالضرب ـ ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93].

وفي المسند وسنن أبي داود بإسناد صحيح من حديث البراء مرفوعاً: [وإن العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد، سود الوجوه، معهم المسوح[1] من النار، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتقطع معها العروق والعصب] الحديث[2].

وأخرج ابن ماجة نحوه من طريق أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي

(1) جمع المِسح، وهو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للبدن.
(2) أخرجه أحمد (4/ 287 ـ 288)، (4/ 295 ـ 296)، وأبو داود (2/ 281)، وأخرجه الحاكم (1/ 37 ـ 40)، وهو حديث صحيح.

ذميمةً ، وأبشري بحميم وغسَّاق ، وآخرَ من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج][1] .

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾. أي: إنما تفعل بهم الملائكة ذلك من الإهانة والضرب عند النزع مقابل ما كانوا عليه مما يسخط الله وكرهوا رضاه تعالى ، فأبطل ثواب أعمالهم فلم تنفعهم حتى لو اشتملت على بعض الخير الظاهر.

29 ـ 31. **قوله تعالى**: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: مَكْرُ الله تعالى بالمنافقين وفضحهم ، وإظهار علامات لنبيِّه تميزهم وتكشفهم ، وسنة الله في ابتلاء المؤمنين ، وتمييز المجاهدين والصابرين والصادقين.

فقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ . قال ابن عباس: (هم أهل النفاق ، وقد عرّفه إياهم في براءة فقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ ﴾ وقال: ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ ﴾).

وقال ابن زيد: (هؤلاء المنافقون ، والذي أسروا من النفاق هو الكفر). والأضغان: هو ما يُضمر من المكروه. قال الجوهري: (الضغن والضغينة: الحقد). قال السدي: (﴿ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ قال: غِشَّهم). وقال ابن عباس: (حسدهم). وقال قُطْرب: (عدوانهم). وكلها متقاربة متكاملة. قال القرطبي: (والمعنى: أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام).

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ ﴾ . قال ابن زيد: (هؤلاء المنافقون وقد أراه الله إياهم). والمقصود: ولو نشاء ـ يا محمد ـ لعرّفناكهم فلعرفتهم بعلاماتهم.

وقوله: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ . أي في فحواه ومعناه. واللَّحن: ما عُرِفَ

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4262) ـ كتاب الزهد. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3437) ، وكذلك صحيح الجامع (1964).

بالمعنى ولم يُصَرِّح به. قال الرازي: (اللّحن: الخطأ في الإعراب. ولحنَ له: قال له قولاً يفهمه عنه ويخفى على غيره).

وفي صحيح البخاري من حديث أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: [إنكم لتختصمون إليّ ولعلَّ بعضكم أَلحَنُ بحجته من بعض][1]. أي أمضى بها في العرض والجواب لقوته على تصريف الكلام.

والمقصود: لقد ظهر للنبي ﷺ من العلامات ما يعرف به أهل النفاق، فقد بدا ذلك واضحاً له من أعمالهم وما انفلت على ألسنتهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾. قال ابن جرير: (لا يخفى عليه العامل منكم بطاعته والمخالف له، وهو مجازي جميعكم عليها).

وقوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾. أي: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي حتى يتميز المجاهدون والصابرون. قال ابن عباس: (أخبر الله سبحانه المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرهم بالصبر، وبشّرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ثم أخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب نفوسهم فقال: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ فالبأساء: الفقر، والضراء: السقم، وزلزلوا بالفتن وأذى الناس إياهم).

ومفهوم: ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ﴾ حتى نميّز، كما قال ابن عباس. وقال علي رضي الله عنه: (حتى نرى). قال القرطبي: (وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلم المجاهدين علم شهادة، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة).

وقوله: ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾. قال النسفي: (أسراركم). والمقصود: نختبرها ونظهرها. قال إبراهيم بن الأشعث: (كان الفُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا).

32 ـ 35. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2680) ـ كتاب الشهادات، وانظر كذلك (2458).

بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

في هذه الآيات: تهديدٌ شديد ووعيدٌ أكيد للكافرين الذين حاربوا الله ورسوله، وصدوا عن سبيله. وحثٌّ للمؤمنين على طاعة الله وطاعة رسوله وتعظيم هديه. وَوَعْدٌ للكافرين بالخذلان والحرمان، وللمؤمنين بالنصر والتمكين ومعية الرحمان.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. قال ابن كثير: (يُخبر تعالى عمن كفر وصَدَّ عن سبيل الله، وخالفَ الرسولَ وشاقَّه، وارتدَّ عن الإيمان من بعد ما تَبيَّن له الهدى: أنه لن يَضُرَّ الله شيئاً، وإنما يضرُّ نفسَه ويخسَرُها يوم مَعادِها، وسَيُحْبِطُ الله عمله فلا يثيبُه على سالِفِ ما تقدَّم من عَمَلِه الذي عَقَّبه بردّته مِثقَالَ بعوضةٍ من خَيرٍ، بل يحبطه ويمحَقُه بالكليّة، كما أن الحسنات يذهبن السيئات).

وقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

قال قتادة: (من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سَيِّئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشّر، وإنّ الشّر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها). وقال الحسن: (﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾: أي حسناتكم بالمعاصي). وقال الزُّهْرِي: (بالكبائر). وقال ابن جريج: (بالرياء والسمعة). وقال مقاتل: (بالمَنّ). وكلها متقاربة، والمقصود: إن من الآثام والمعاصي والمخالفات الشرعية، ما يبطل الطاعات والقربات والموافقات الإيمانية، فليحذر العبد من الوقوع فيما يبطل العمل. قال أبو العالية: (كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن الذين أنكروا توحيد الله وصدّوا من أراد الإيمان بالله وبرسوله عن ذلك، ففتنوهم عنه وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من ذلك، ثم ماتوا

وهم على ذلك من كفرهم. . . فلن يعفو الله عما صنع من ذلك ، ولكنه يعاقبه عليه ويفضحه به على رؤوس الأشهاد).

وقوله: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ ﴾. الوهن: الضّعف. والسَّلم: الصُلح. قال مجاهد: (﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ ﴾: لا تضعفوا). وقال قتادة: (أي لا تكونوا أولى الطائفتين تصرع). أو قال: (لا تكونوا أولى الطائفتين صرعت لصاحبتها ودعتها إلى الموداعة ، وأنتم أولى بالله منهم والله معكم).

وقوله: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾. قال مجاهد: (الغالبون). وقيل: (وأنتم الأعلون في الحجة). وقيل: (وأنتم أعلم بالله منهم). وقيل: (المعنى: وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال).

قلت: والآية تدل على منع الميل إلى الصلح أو مهادنة الكفار إن لم يكن بالمسلمين حاجة لذلك ، والقرار للحاكم المسلم ، كما بسطت ذلك في كتابي: السياسة الشرعية على منهج الوحيين القرآن والسنة الصحيحة ، فلله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾. أي بنصره وتوفيقه وتأييده ، وهو بشارة عظيمة بالظفر. وقوله: ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾. قال مجاهد: (لن ينقصكم). وقال ابن عباس: (لن يظلمكم أجور أعمالكم). والمقصود: وأنتم الغالبون أيها المؤمنون والله مؤيدكم بنصره ، ولن يبطل أعمالكم أو يسلبها أو ينقصها بل يوفيكم ثوابها وأضعافاً مضاعفة منها.

36 ـ 38. **قوله تعالى**: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تنبيهُ المؤمنين إلى غرور هذه الحياة الدنيا التي تشغل عن الإيمان والجهاد ، والإنفاق في سبيل الله. والتلميح بالعقاب والاستبدال ، إن تولى أو ضعف الرجال.

فقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾. قال القاسمي: (أي فلا تدعكم الرغبة في الحياة إلى ترك الجهاد).

وقوله: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾. أي: إنما يعود نفع الإيمان والتقوى عليكم، والله غني عنكم ولا يطلب منكم شيئاً، وكذلك يعود إنفاق الأموال بالكامل عليكم لاستغنائه ـ تعالى ـ المطلق، فإن في الصدقات مواساة للفقراء ودفعاً لأحقاد صدورهم ونهوضاً بأحوال البلاد والعباد، وفي بذل الأموال للجهاد شوكة لكم في الأرض ودفع لغائلة الشرور والفساد.

وقوله: ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ ﴾. ﴿ فَيُحْفِكُمْ ﴾: أي فيجهدكم بالمسألة، ويلحّ عليكم بطلبها. ففي لغة العرب: أحفى فلان إذا أكثر الطلب والمسألة. قال الزمخشري: (الإحفاء المبالغة، وبلوغ الغاية في كل شيء. يقال: «أحفاه في المسألة» إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح).

فالمعنى: إن يجهدكم ـ تعالى ـ بالمسألة ويلح عليكم بطلبها منكم تبخلوا بها وتمنعوها، ضَنّاً منكم بها، ولكنه عَلِمَ ضعفكم في ذلك فلم يفعل.

وقوله: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴾. أي أحقادكم، وكراهتكم لدينٍ يستهلك أموالكم. قال قتادة: (قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان).

وقوله: ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾. أي: ها أنتم أيها المؤمنون تدعون للنفقة في جهاد أعداء الله ونُصرة دينه فمنكم من يبخل بالنفقة.

وقوله: ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾. أي: ومن يبخل فإنما ينقص من أجره، ويعود وبال البخل عليه.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾. قال ابن زيد: (ليس بالله تعالى ذكره إليكم حاجة، وأنتم أحوج إليه).

وقوله: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾. قال قتادة: (يقول: إن توليتم عن كتابي وطاعتي أستبدل قوماً غيركم. قادر والله ربنا على أن يهلكهم، ويأتي من بعدهم من هو خير منهم). قال الطبري: (﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾: أي في البخل بالإنفاق في سبيل الله).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: 39].

2 ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: 54].

ومن روائع السنة الصحيحة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»، والطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية» بسند حسن لغيره عن ابن عمر مرفوعاً: [إنّ لله أقواماً يختصُّهم بالنعم لمنافع العباد، ويقرهم فيها ما بذلوها، فإذا منعوها نزَعَها منهم، فحولها إلى غيرهم][(1)].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [تلا رسول الله ﷺ هذه الآية يوماً: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾. قالوا: ومن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: هذا وقومه][(2)].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة أنه قال: [قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله: إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: وكان سلمان بجنب رسول الله ﷺ، قال: فضرب رسول الله ﷺ فَخِذَ سلمان وقال: «هذا وأصحابه. والذي نفسي بيده لو كان الإيمانُ مَنُوطاً بالثُّريَّا لتناولَهُ رجالٌ مِنْ فارِسَ»][(3)].

تم تفسير سورة محمد ـ سورة القتال ـ
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
الأربعاء 28 ـ جمادى الآخرة ـ 1426 هـ
الموافق 3 ـ آب ـ 2005 م

---

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (رقم ـ 5)، والطبراني في «الأوسط» (5295)، وأبو نعيم في «الحلية» (6/ 115)، (10/ 215)، وانظر السلسلة الصحيحة (1692).

(2) حديث صحيح. انظر سنن الترمذي (2598) ـ كتاب التفسير ـ سورة محمد ﷺ. آية (38).

(3) حديث صحيح. رواه الترمذي في سننه في كتاب التفسير عند هذه الآية. انظر صحيح سنن الترمذي (2599)، وفي الصحيحين الشطر الأخير منه.

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ أَمَرَ الله تعالى بالقتال في سبيله حتى يكون الدين كله لله. فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب الجهاد حتى يكون الدين كله لله.

2 ـ عليكم بالجهاد في سبيل الله ، فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغمّ.

3 ـ القتل في سبيل الله يُكَفِّر كُلَّ شيء إلا الدَّين.

4 ـ أهل الجنة أعرف بمنازلهم ومساكنهم وأزواجهم إذا دخلوا الجنة من أهل الدنيا بدنياهم ومساكنهم وأحوالهم.

5 ـ تعس عبد الدنيار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أُعْطِيَ رضي ، وإنْ لم يُعْطَ لم يَرْضَ. تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش.

6 ـ الكافر يطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها.

7 ـ يأكل المسلم في مِعىً واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء.

8 ـ مَنْ شرِبَ الخمرَ في الدنيا ثم لم يَتُبْ منها حُرِمَها في الآخرة.

9 ـ في الجنة بحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر اللبن ، وبحر الخمر.

10 ـ أكبر سعادة على الجوارح هي النظر إلى وجه الله الكريم ، وأعظم سعادة على النفس والقلب رضوان الله العظيم.

11 ـ يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم.

12 ـ من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة.

13 ـ من استغفر للمؤمنين والمؤمنات ، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة.

14 ـ فرغ الله من أربع : من الخَلْقِ ، والخُلُقِ ، والرِّزقِ ، والأجل .

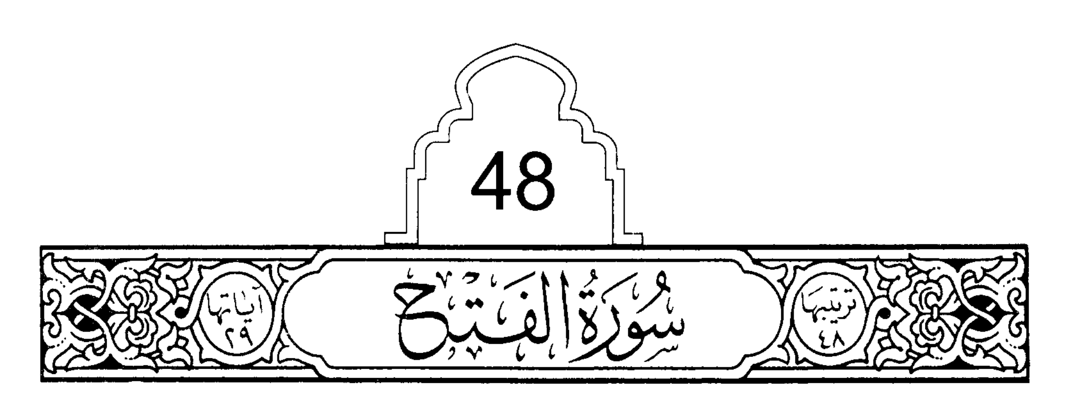
15 ـ الرحم معلقة بالعرش ، من يصلها يصله الله ، ومن يقطعها يقطعه .

16 ـ روح الكافر إذا سحبها ملك الموت تقطع معها العروق والعصب .

17 ـ التحذير من الميل إلى الصلح أو مهادنة الكفار إن لم تظهر المصلحة الشرعية .

18 ـ إن لله أقواماً يختصهم بالنعم لمنافع العباد ، فإذا منعوها حَوَّلها إلى غيرهم .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (29) .

فضائلها وما ورد في ذكرها :

لقد وَرَدَ في ذكر فضلها وأسباب نزولها وموضع ذلك أحاديث :

الحديث الأول: أخرج أحمد والشيخان عن حبيب بن أبي ثابت قال: [أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله تعالىٰ! فقال عليّ: نعم. فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم ، فلقد رأيتنا يوم الحديبية ـ يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ـ ولو نرىٰ قتالاً لقاتلنا ، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل ، أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ، قال: بلىٰ ، قال: ففيم أعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟! فقال: يا ابن الخطاب ، إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً ، فرجع متغيضاً فلم يصبر حتىٰ جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: يا ابن الخطاب! إنه رسول الله ولن يضيّعه الله أبداً ، فنزلت سورة الفتح][1] .

وفي رواية مسلم: [فنزل القرآن على رسول الله ﷺ فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه ، فقال: يا رسول الله أوَ فتح هو؟ قال: نعم ، فطابت نفسه].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4844) ـ كتاب التفسير ، و(3182) ـ كتاب الجزية والموادعة ، وصحيح مسلم (1784) في السير ، ومسند أحمد (4/ 325) ، وتفسير الطبري (31460) ، والصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي.

الحديث الثاني: أخرج ابن جرير والحاكم بسند رجاله ثقات عن مجمع بن جارية رضي الله عنه قال: [أقبلنا مع رسول الله ﷺ من الحديبية حتى بلغ رسول الله ﷺ كراع الغميم، فإذا الناس يرسمون نحو رسول الله ﷺ، فقال بعض الناس لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ، فقال لبعض الناس فحركنا حتى وجدنا رسول الله ﷺ عند كراع الغميم واقفاً، فلما اجتمع عليه الناس قرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. فقال بعض الناس: أو فتح هو؟. قال: والذي نفسي بيده إنه لفتح][1].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه: [أنّ رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمرُ بن الخطاب يسير معهُ ليلاً، فسأله عمرُ بن الخطاب عن شيء فلم يُجِبْهُ رسولُ الله ﷺ، ثم سألَهُ فلمْ يُجِبْهُ، ثم سأله فلم يُجِبْهُ، فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر (وفي رواية: ثكلتك أمُّك يا عمر)، نَزَرْتَ ـ أي: أحرجت وضيّقت ـ رسولَ الله ﷺ ثلاثَ مرات كُلُّ ذلك لا يجيبُك. قال عمر: فَحَرَّكْتُ بعيري ثم تقدَّمْتُ أمامَ الناس، وخَشيت أن يُنْزَلَ فيَّ القرآنُ، فما نَشِبْتُ أن سَمِعْتُ صارخاً يَصْرُخُ بي، فقلت: لقد خشيتُ أن يكونَ نزلَ فيَّ قُرآنٌ، فجئت رسول الله ﷺ، فَسَلَّمْتُ عليه فقال: لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورةٌ لَهِيَ أحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَتْ عليه الشمسُ، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾][2].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أنس: [أنها نزلت على النبي ﷺ مرجِعَهُ من الحديبية، وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة، وقد حيل بينهم وبين مساكنهم، ونحروا الهدي بالحديبية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى قوله ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. قال: لقد أنزلت عَليَّ آيتان هما أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً. قال: فلما تلاهما قال رجل: هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بيّن لك ما يفعل بك فما يفعل بنا؟ فأنزل الله عز وجل الآية التي بعدها ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية][3].

الحديث الخامس: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن معاوية بن قُرَّة عن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم في «المستدرك» (2/ 459) بسند صحيح، وانظر: تفسير الطبري (31463) ـ سورة الفتح، آية (1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4833) ـ كتاب التفسير، و(4177) ـ كتاب المغازي.

(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (3/ 122)، (3/ 134)، (3/ 153)، وصحيح البخاري (4172)، وصحيح مسلم (1786). وانظر صحيح سنن الترمذي (2601).

عبد الله بن مُغَفَّل قال: [قرأَ النبي ﷺ يَوْمَ فتح مكة سورة الفتح فَرَجَّعَ فيها. قال معاوية: لو شئت أن أَحْكي لكم قراءة النبي ﷺ لفَعَلْتُ][1].

موضوع السورة

الفتح المبين للرسول ﷺ والمؤمنين، والخزي والعذاب على المنافقين والكافرين

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ نزول الفتح المبين يوم الحديبية، والبشرىٰ للنبي ﷺ بالمغفرة التامة، والهداية إلى الصراط المستقيم، والنصر والتأييد والتمكين.

2 ـ إنزال الله تعالىٰ الطمأنينة على المؤمنين، ووعدهم على صدقهم البيعة جنات النعيم.

3 ـ الوعيد الشديد على المنافقين والمشركين، بالخذلان والعقاب وصلي الجحيم.

4 ـ تأكيد الرسالة للنبي الكريم، والثناء على المبايعين الصادقين، ووعدهم على صدقهم الأجر العظيم.

5 ـ كشف المنافقين وفضحهم، وتوعد المعاندين إنزال العذاب الأليم بهم.

6 ـ الله تعالىٰ ملك السماوات والأرض، يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء.

7 ـ فضح المنافقين في حرصهم على المغانم، ودعوتهم لاختبار الصدق القادم.

8 ـ إعذار الله الأعمىٰ والأعرج، والمريض وذي الحرج، ووعده تعالىٰ المخبتين جنات النعيم، والمكذبين عذاب الجحيم.

9 ـ تثبيت الله أهل البيعة تحت الشجرة، وتمهيد الفتح القريب لهم، ووعده تعالىٰ المغانم الكثيرة تكون خاصة بهم.

10 ـ سنة الله تعالىٰ في إذلال الكافرين وإلقاء الرعب في قلوبهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4835) ـ كتاب التفسير، وكذلك (4281)، وأخرجه مسلم (794)، وأبو داود (1467)، وأحمد (4/ 54 ـ 85)، وغيرهم.

11 ـ امتنانه تعالىٰ على المؤمنين بصرف كيد المشركين عنهم ، ورد كيدهم في نحورهم .

2 ـ إثبات كفر طغاة مكة الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام ، والتنبيه أن الجهاد لا يكون إلا عند تميز الصفوف ، وذكر فضل الله على المؤمنين في حمايتهم .

13 ـ تأكيد الله تعالىٰ لرسوله بالرؤيا دخول المسجد الحرام مع أصحابه ، ووعده لرسوله الذي أرسله بالهدىٰ والدين الحق الظهور التام على أعدائه .

14 ـ إثبات الرسالة للنبي عليه الصلاة والسلام ، ونَعْتُ أصحابه الغرّ الكرام ، وذكر صفتهم في التوراة والإنجيل والقرآن .

15 ـ وعده تعالىٰ المؤمنين بالنصر والمغفرة ، والظهور على الطغاة الجبابرة .

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 3. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

في هذه الآيات: قضاءُ الله تعالىٰ بجعل بيعة الرضوان يوم الحديبية الفتح المبين. وامتنانه تعالىٰ على رسوله بالمغفرة التامة والهداية إلى الصراط المستقيم. والنصر الأكيد والتأييد والتمكين.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. قال قتادة: (قضينا لك قضاء مبيناً. قال: والفتح القضاء). وقال مجاهد فيها: (نحرُه بالحديبية وحَلْقُه). وقال جابر: (ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية).

وفي صحيح البخاري عن شعبة قال: [سمعت قتادةَ عَنْ أنسٍ رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحديبية][1].

وكذلك أخرجِ البخاري في صحيحه عن البراء قال: [تعدّون أنتم الفتح فتحَ مكة، وقد كان فَتْحُ مكةَ فَتْحاً، ونحن نَعُدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية][2].

يروي ابن جرير بإسناده عن الشعبي قال: (نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بالحديبية، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يصبه في غزوة، أصابَ أن بويعَ بيعة الرضوان، وغُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخّر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهَدْيِ محله، وأطعموا نخل خيبر، وفرح المؤمنون بتصديق النبي ﷺ، وبظهور الروم على فارس).

وقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. خصوصيةٌ لرسول الله ﷺ وتشريف كبيرٌ له، فهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، وأموره كلها منسجمة مع طاعة الله وتعظيم دينه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4834) ـ كتاب التفسير، وانظر كذلك (4172).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4150)، (4151) ـ كتاب المغازي، من حديث البراء.

وفي صحيح مسلم ـ في حديث الشفاعة ـ عن أبي هريرة مرفوعاً: [فيأتوني فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترىٰ إلى ما نحن فيه] الحديث[1].

وفي صحيح سنن الترمذي عن أنس قال: [أنزلت على النبي ﷺ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية، فقال النبي ﷺ: «لقد نَزَلَتْ عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ مما على الأرض». ثم قرأها النبي ﷺ عليهم] ـ وقد مضىٰ أصله بتمامه.

وقوله: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾. قال ابن جرير: (بإظهاره إياك على عدوك، ورفعه ذكرك في الدنيا، وغفرانه ذنوبك في الآخرة).

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. أي: ويرشدك طريقاً قويماً لا اعوجاج به.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. قال النسفي: (قوياً منيعاً لا ذل بعده أبداً). أي: وينصرك الله ـ يا محمد ـ على من ناوأك وحاربك نصراً أكيداً يحمل العز والشوكة لك وللمؤمنين معك بعد الجهاد والصبر.

وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: [ما نقصَتْ صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله][2].

وأخرج الخطيب في «التاريخ»، والديلمي بسند صحيح عن أنس مرفوعاً: [النَّصْرُ مع الصَّبر، والفرجُ مع الكرب، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً، وإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً][3].

4 ـ 7. قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 127 ـ 129)، وهو في مختصر صحيح مسلم برقم (92)، ورواه البخاري وأحمد وغيرهما. وانظر «تخريج الطحاوية» (41) للروايات المختلفة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2588) ـ كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، وأخرجه الترمذي (2029)، وأحمد (2/ 235)، وابن حبان (3248).

(3) حديث صحيح. أخرجه الخطيب في «التاريخ» (10/ 287)، والديلمي (4/ 111 ـ 112).

عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالىٰ بإنزاله الطمأنينة على قلوب المؤمنين، وبوعدهم على صدقهم مبايعة النبي ﷺ جنات النعيم. والوعيد الشديد على المنافقين والمشركين وتأكيد صليهم الجحيم.

فقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. قال ابن عباس: (السكينة: الرحمة). وفي رواية عنه: (﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ أي: جعل الطمأنينة). وقال قتادة: (الوقار في قلوب المؤمنين). والمقصود: أصحاب النبي ﷺ الذين استجابوا لله ولرسوله وصدقوا ما عاهدوا عليه، وبايعوا يوم الحديبية منقادين لحكم الله ورسوله.

وقوله: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾. دليل على زيادة الإيمان وأنه غير ثابت، وقد استدل بهذه الآية الإمام البخاري رحمه الله على أن الإيمان يزيد وينقص، وروىٰ في الباب عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عديٍّ بن عديٍّ: (إن للإيمان فرائضَ وشرائعَ وحدوداً وسُنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبيّنها لكم حتىٰ تعملوا بها، وإنْ أمُت فما أنا على صحبتكم بحريص)[1].

والمقصود: لما انقاد المؤمنون الأوائل لحكم الله ورسوله أنزل في قلوبهم الطمأنينة ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ ﴾. قال الربيع بن أنس: (خشيةً مع خشيتهم). وقال الضحاك: (يقيناً مع يقينهم).

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾. أي: أنصار ينتقم بهم ممن يشاء من أعدائه. قال ابن عباس: (يريد الملائكة والجن والشياطين والإنس).

قال ابن كثير: (﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾، أي: ولو أرسلَ عليهم مَلَكاً واحداً لأباد خَضْراءهم، ولكنه تعالىٰ شَرَعَ لعباده المؤمنين الجهادَ والقتالَ، لما له في ذلك

---

(1) ذكره البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه: «باب: قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس. وهو قول وفعل، ويزيد وينقص». انظر مختصر صحيح البخاري ص (6 ـ 7) ـ الألباني.

من الحكمة البالغة والحجّةِ القاطعة ، والبراهين الدامغة ، ولهذا قال جلت عظمته: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾) .

وقوله : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ .

أخرج الإمام أحمد من حديث أنس ـ في نزول سورة الفتح مرجعه ﷺ من الحديبية وأصحابه يخالطون الحزن والكآبة ـ قال رسول الله ﷺ: [لقد أنزلت عليَّ آيتان هما أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً. قال: فلما تلاهما قال رجل: هنيئاً مريئاً يا رسول الله قد بيّن لك ما يفعل بك فما يفعل بنا؟ فأنزل الله عز وجل الآية التي بعدها ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾][1] .

ورواه البخاري عن أنس أيضاً: [﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ قال: الحديبيةُ ، قال أصحابه: هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾][2] .

وقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

خلود في الجنان بعد تكفير الذنوب والسيئات ، هو بحق أعظم الخيرات والمسرّات .

وقوله : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ ﴾ .

قال القرطبي : (﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ أي: بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين ، وبأن يسلط النبيّ عليه السلام قَتْلاً وأَسْراً واسترقاقاً. ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ ﴾ يعني ظنهم أن النبي ﷺ لا يرجع إلى المدينة ، ولا أحد من أصحابه حين خرج إلى الحديبية ، وأن المشركين يستأصلونهم. كما قال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [الفتح: 12]) .

وقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ ﴾ . أي: بالتعذيب في الدنيا بمختلف أنواع الوقائع ، كالقتل والسبي والأسْر والإهانة والإذلال ، وفي الآخرة بعذاب النار .

وقوله : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴾ . أي: وسخط الله عليهم فلا سبيل إلى سعادة

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (3/ 122) ، (3/ 134) ، (3/ 153) ، وانظر صحيح مسلم (1786) .
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4172) ـ كتاب المغازي ، وانظر كذلك (4834) .

قلوبهم ، وطردهم من رحمته فلا سبيل إلى دخول جنته .

وقوله : ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ . أي : وجعل مصيرهم في الآخرة جحيماً وسعيراً ، وقد ساءت جهنم مستقراً ومقيلاً .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

قال النسفي : (﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيدفع كيد من عادىٰ نبيه عليه السلام والمؤمنين بما شاء منها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ غالباً فلا يرد بأسه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبّر) .

8 ـ 10 . قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ .

في هذه الآيات : إرسالُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ بالبشارة للمؤمنين والنذارة للكافرين . وثناؤه تعالىٰ على الصادقين المبايعين ووعدهم على ذلك الأجر العظيم .

فقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ . قال قتادة : (شاهداً على أمته على أنه قد بلغهم ، ومبشراً بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً من النار) .

وقوله : ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ . الخطابُ لرسول الله ﷺ ولأمته .

وقوله : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ . فيه تأويلان ممكنان حسب عودة الضمائر :

التأويل الأول : الضمير ـ الهاء ـ يعود إلى الله تعالىٰ . فيكون المعنىٰ : ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تؤيدوا دينه وتقروه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي : تعظموه . وقيل : (أي تثبتوا له صحة الربوبية وتَنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك) ـ حكاه القشيري .

التأويل الثاني : الضمير ـ الهاء ـ يعود إلى الرسول ﷺ .

قال ابن عباس : («ويعزّروه» يعني الإجلال ، «ويوقّروه» يعني التعظيم) . وهي في قراءة أبي جعفر المدني وأبي عمرو بن العلاء بالياء : (ليؤمنوا ، ويعزروه ويوقروه ، ويسبحوه) . وأما عامة القراء فقراءتهم بالتاء ، وهو الأشهر .

وعن الضحاك : (﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ كل هذا تعظيم وإجلال) .

وعن قتادة: (﴿ويُعزروه﴾ ينصروه ﴿ويوقروه﴾ أمر الله بتسويده وتفخيمه).

وعن عكرمة: (﴿ويعزروه﴾ قال: يقاتلون معه بالسيف). قال ابن جرير: (ومعنىٰ التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصرة والمعونة ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال. فأما التوقير: فهو التعظيم والإجلال والتفخيم).

قلت: التعزير ينصرف هنا إلى تعظيم هديه ﷺ ومتابعته بالنصر والجهاد، والتوقير ينصرف إلى حسن الأدب عند لقائه، وندائه بالرسالة والنبوة لا بالاسم والكُنية ـ والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. الضمير راجع إلى الله سبحانه وتعالىٰ بلا خلاف. وفيه تأويلان متكاملان:

التأويل الأول: تسبيحُه بالتنزيه له سبحانه من كل قبيح.

التأويل الثاني: هو فعل الصلاة التي فيها التسبيح. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: غُدْوة وعَشِياً. ـ حكاه القرطبي.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾.

أي: إن الذين يبايعونك ـ يا محمد ـ بالحديبية، إنما هم ببيعتهم لك يبايعون الله تعالىٰ.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية من أصحابك على أن لا يفرّوا عند لقاء العدو، ولا يولُّوهم الأدبار ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ يقول: إنما يبايعون ببيعتهم إياك الله، لأن الله ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك).

قال: (وفي قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وجهان من التأويل: أحدهما: يد الله فوق أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيّه ﷺ، والآخر: قوة الله فوق قوتهم في نُصرة رسوله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نُصرته على العدو).

وقال الحافظ ابن كثير: (قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: هو حاضر معهم يَسْمع أقوالهم ويرىٰ مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالىٰ هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ، كقوله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ

ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]).

قلت: والآية دليل على إثبات صفة اليد لله تعالىٰ، بل له سبحانه يدان كلتاهما يمين. قال تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: 75]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: 64].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا][(1)].

وقوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ﴾. أي: فمن نقض البيعة ـ يا محمد ـ فلم ينصرك وخالف ما وعد ربه فإنما يعود وبال نقضه عليه.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ـ أي ثواباً جزيلاً. قال قتادة: (وهي الجنة).

وقوله: ﴿عَلَيْهُ﴾ ـ قال أهل العربية: الياء هنا حاجز غير حصين، أي: تحفظ حركة اللام لتضم الهاء بعدها نحو قولنا: (كتابَهُ، قلمَهُ). فاعتبروا الياء غير موجودة، وهذا فيه تفخيم لفظ الجلالة، وأما ﴿عَلَيْهِ الله﴾ فهو رقيق. فهي عملية إيقاعية ترتيلية تفيد التفخيم، وتدل على نسبة العهد إلى الله العظيم كما تنسب أمراً إلى صاحبه فتقول: (كتابهُ، مكتبهُ) الذي يدل على التوقير والتعظيم.

وهذه البيعة تسمىٰ بيعة الرضوان، وكانت تحت شجرة سَمُرٍ بالحديبية، فإلىٰ ذكر أخبار تلك البيعة من السيرة والسنة الصحيحة.

لقد خرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين غُرَّة ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، واصطحب معه زوجته أم سلمة، وقصد بخروجه العمرة، وساق أمامه الهدي الكثير، الذي سيذبح في مكة ويطعم منه فقراؤها، وأخرج معه ألفاً وأربع مئة رجل، في تظاهرة عجيبة تفوح منها مشاعر التعظيم للبيت العتيق، وتُبْطِلُ خُطا رجالها دعاية قريش وإفكها ضد المسلمين بأنهم لا يقرون بحرمة الكعبة. وقد توقع النبي ﷺ تصدي قريش

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1827)، كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر.. ورواه أحمد والنسائي. انظر صحيح الجامع (1949).

له أو محاولة قتاله ، فخرج بأكبر عدد من المسلمين ، وقد حملوا سلاحهم ليكونوا مستعدين لأسوأ الأحوال.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن المِسْور بن مَخْرمة ومروان بن الحكم قالا: [خرج رسول الله ﷺ عامَ الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً ، وساق معه الهدي سبعين بدنة](1).

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن البراء قال: [كنا مع النبي ﷺ أربعَ عشرَة مئة ، والحديبية بئر..](2).

وكذلك خرّج البخاري عن جابر قال: [قال لنا رسول الله ﷺ يومَ الحديبية: أنتم خيرُ أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربع مئة ، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة](3).

والحديبية تبعد عن مكة اثنين وعشرين كيلاً ، وسميت بها الغزوة لمنع قريش لهم دخول مكة فيها.

ولما وصل المسلمون إلى ذي الحُليفة صلوا فيها وأحرموا منها بالعمرة:

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي الزبير: [أنه سمع جابراً يُسْأَلُ: هل بايع النبي ﷺ بذي الحليفة؟ فقال: لا ، ولكن صلى بها ولم يبايع عند شجرة إلا الشجرة التي بالحديبية](4).

وفي ذي الحليفة بعث رسول الله ﷺ بسر بن سفيان الخزاعي الكعبي عيناً له إلى مكة.

أخرج ذلك الإمام البخاري عن المِسْور بن مخرمة ومروان بن الحكم يزيد أحدهما على صاحبه قالا: [خرج النبي ﷺ عامَ الحديبية في بِضْعَ عَشْرَةَ مئةٍ من أصحابه ، فلما أتىٰ ذا الحُليفة قَلَّدَ الهدي وأشْعَرَهُ وأحرم منها بِعُمرة ، وبعث عيناً له من خزاعة](5).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (4/ 323) بسند حسن.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4150) ـ كتاب المغازي. وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين ـ القرآن والسنة الصحيحة (2/ 977 ـ 984) ـ لتفصيل البحث.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4154) ـ كتاب المغازي.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1856) ـ كتاب الإمارة. باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال. وبيان بيعة الرضوان تحت الشجرة.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4179) ـ كتاب المغازي.

ثم مضىٰ رسول الله ﷺ يقود أصحابه حتىٰ بلغ بهم عُسْفان على ثمانين كيلاً من مكة ، فأتاه عينه الخزاعي بخبر قريش وجمعها الجموع لصدّه ومن معه عن دخول مكة ، وأخبره بأن خالد بن الوليد قد خرج بخيل قريش إلى كراع الغميم التي تبعد أربعاً وستين كيلاً عن مكة لاستطلاع الموقف وليكونوا طليعة القتال والمباغتة.

فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث المسور السابق قال: [وسارَ النبي ﷺ حتىٰ إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عَيْنُهُ قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك. فقال: أشيروا أيها النّاسُ عليَّ! أترون أن أميل إلى عيالهم وذراريِّ هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين. قال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تُريد قَتْلَ أحد ولا حَرْبَ أحد فتوجّه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه. قال: امضوا على اسم الله][1].

ثم صلىٰ رسول الله ﷺ بأصحابه بعسفان صلاة الخوف وذلك عندما علم بقرب خيل خالد والمشركين ، وهي أول صلاة خوف صلاها عليه الصلاة والسلام ، فكان بدء تشريعها في عُسفان من أرض الحديبية. وقد باغت الوحي بهذا التشريع العظيم فرسان خالد ومن معه من المشركين ، الذين وقفوا مشدوهين لصلاة يحمل الرجال فيها السلاح ويكونون فريقين: فريق في السجود وفريق يتابع الحراسة.

ثم تحرك رسول الله ﷺ بسرعة فسلك طريقاً وعرة عبر ثنية المرار وهي مهبط الحديبية ، وأخذ يشد عزائم أصحابه ليصعدوها مسرعين. وقد أراد النبي ﷺ بهذه الحركة المفاجئة أن يغير طريقه لئلا يصطدم مع خالد بن الوليد وخيالة المشركين.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه ، قالا: [خرج رسول الله ﷺ زمنَ الحديبية ، حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي ﷺ: إن خالدَ بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد ، حتىٰ إذا هُمْ بقترة الجيش فانطلق يركض نذيراً لقريش..][2].

فما إنْ شعر خالد بمباغتة النبي ﷺ وبحركة الالتفاف السريعة التي قام بها ، إلا طار

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4179) ـ كتاب المغازي.
(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (2731) ، (2732) ـ كتاب الشروط.

إلى مكة نذيراً ، لتخرج معه قريش وتعسكر في بَلْدَح وهو واد بمكة ، ولتنزل على الماء الذي هناك ، مسابقةً بذلك إليه جيش المسلمين. ولكن ما إن اقترب النبي ﷺ من الحديبية حتىٰ بركت ناقته ، حبسها حابس الفيل ، فعدل ﷺ عن دخول مكة إلى أقصىٰ الحديبية.

وفي هذه الأثناء كانت قريش تفور غلياناً ، تخشىٰ من نزول مَذَلَّةٍ جديدة بها ، فهي وإن كان المسلمون قد جاؤوا مسالمين ما يريدون إلا زيارة البيت الحرام ، إلا أنها كانت تخاف أن يتحدث العرب أن محمداً دخل عليهم عنوة وهم ينظرون ، ولذلك بدأت ترسل الوفود والمفاوضين.

وكان رسول الله ﷺ قد بعث خرّاش بن أمية الخزاعي ، ثم أراد بعث عمر بن الخطاب ولكنه عدل عنه إلى عثمان بن عفان ـ كما روىٰ أحمد من حديث المسور ـ: [فدعا عمر ليبعثه إلى مكة ، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنه جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته ، . . . فانطلق عثمان حتىٰ أتىٰ أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به ، فقال: ما كنت لأفعل حتىٰ يطوف به رسول الله ﷺ. قال: فاحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل][1].

وهنا دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة تحت الشجرة.

قال ابن إسحاق: (فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ ، قال حين بلغَه أن عثمان قد قُتِلَ: لا نبرح حتىٰ نناجِزَ القوم ، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة).

فقام الأصحاب رضوان الله عليهم يبايعون رسول الله ﷺ على الثبات والصبر وألا يفروا عند القتال حتىٰ يأذن الله بنصر من عنده أو يموتوا دون ذلك.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن يزيد بن أبي عبيد قال: [قلت لسلمة بن

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 324) ، وانظر سيرة ابن هشام (3/ 308) وإسناده حسن.

الأكوع: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت][1]. وفي رواية: (على الصبر).

وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: [لم نبايع رسول الله ﷺ على الموت، وإنما بايعناه على ألا نفرّ][2]. وفي رواية، قال: [كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعَ مئة، فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سَمُرَةٌ، وقد بايعناه على أن لا نَفِرَّ ولم نبايعه على الموت].

وقد ضرب رسول الله ﷺ لعثمان بيده إذ كان محبوساً وقال: هذه يد عثمان، هذه لعثمان.

أخرج ذلك الإمام البخاري عن ابن عمر قال: [فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة. فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنىٰ: هذه يد عثمان، فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان][3].

ولكن في هذه الأثناء رجع عثمان إلى المسلمين بعدما أنجزوا بيعة الرضوان، ورأت قريش إرسال بعض الرسل للتفاوض مع النبي ﷺ، فأرسلت عروة بن مسعود الثقفي، ثم أرسلت الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، ثم أرسلت مكرز بن حفص، ثم أرسلت سهيل بن عمرو الذي كتب الصلح.

فإلىٰ ذكر كامل القصة كما روى الإمام البخاري وأحمد وأبو داود في السنن.

روى البخاري في كتاب الشروط من صحيحه عن مَعْمَر عن الزهري قال: أخبرني عروة بنُ الزبير، عن المِسْوَرِ بن مَخْرَمَةَ ومَرْوان بن الحكم، يُصَدّق كُلُّ واحد منهما حديث صاحِبِه، قالا: [خرج رسول الله ﷺ زمنَ الحديبية في بضعَ عَشْرَةَ مئة من أصحابه، فلما أتىٰ ذا الحُلَيفة قَلَّدَ الهدي وأشعره، وأحرم منها بِعُمرة وبَعَثَ عيناً له من خُزاعة، وسارَ حتىٰ إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينُه فقال: إنّ قريشاً جمعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيشَ، وهم مقاتلوكَ وصادُّوك ومانعُوكَ. فقال: أشيروا أيّها الناسُ عليَّ، أَترونَ أن نَميل على عيالهم، وذراريّ هؤلاء الذين يريدون أن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4169) ـ كتاب المغازي. وانظر للرواية الثانية ـ كتاب الجهاد والسير ـ حديث رقم (2958). وكتابي: السيرة النبوية (2/ 995) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1856) ـ كتاب الإمارة. والسَّمُرة: نوع من شجر الطلح.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4066) في الصحيح ـ كتاب المغازي.

يصُدُّونا عن البيت؟ ـ وفي لفظ: أترون أن نميل على ذراريِّ هؤلاء الذين أعانوهم ـ فإن يأتونا كان الله قد قَطَعَ عُنُقاً من المشركين وإلا تركناهم محزونين. وفي لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محرُوبين، وإن نجوا يكن عُنُقاً قطَعها الله، أم ترون أن نؤمَّ البيت فمن صَدّنا عنه قاتلناه». فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجْتَ عامِداً لهذا البيت لا نُرِيد قتل أحد ولا حَرباً، فتوجَّه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن». وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله تعالىٰ». حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إنّ خالد بن الوليد في خيلٍ لقريش طليعة، فخذوا ذاتَ اليمين». فوالله ما شَعَر بهم خالد حتىٰ إذا هم بقَتَرة الجيش، فانطلق يركضُ نذيراً لقُريش، وسارَ النبي ﷺ حتىٰ إذا كان بالثنيَّةِ التي يُهبَطُ عليهم منها بركت به راحلتُه، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فألَحّت، فقالوا: خَلأت القَصْواء، خَلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بِخُلُق، ولكن حَبَسها حابس الفيل. ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطَّة يُعَظِّمونَ فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتىٰ نزل بأقصىٰ الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس حتىٰ نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتىٰ صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعْدادَ مياهِ الحديبية ومعهم العوذُ المطافِيلُ وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجِيءْ لقتالِ أحد ولكِنّا جِئْنا مُعْتَمرين، وإنَّ قريشاً قد نَهَكَتْهُمُ الحربُ وأضَرَّت بهم فإن شاؤوا مادَدْتُهم مُدَّةً ويُخَلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظْهَرْ فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناسُ فعلوا وإلا فَقَدْ جَمُّوا، وإنْ هُم أبَوْا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتىٰ تنفرد سالفتي، ولَيُنْفِذَنَّ الله أمرَهُ. فقال بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهم ما تقول. قال: فانطلق حتىٰ أتىٰ قريشاً، قال: إنَّا قدْ جِئْناكم مِن هذا الرجل وسمِعْناه يقول قَوْلاً، فإن شِئتم أن نَعْرِضَهُ عليكم فَعلْنا. فقال سفهاؤُهم: لا حاجةَ لنا أن تُخْبِرنا عنه بشيء، وقال ذو الرأي مِنهم: هاتِ ما سَمِعْته يقول، قال: سمِعْتُه يقولُ كذا وكذا، فحدَّثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عُرْوةُ بن مَسْعود فقال: أيْ قومِ، ألَسْتُم بالوالد؟ قالوا: بلىٰ، قال: أو ألَسْتُ بالولد؟ قالوا: بلىٰ، قال: فهل تَتَّهموني؟ قالوا: لا، قال: ألَسْتُمْ تعلمونَ أني استَنْفَرْتُ أهل عُكاظ

فلما بَلَّحُوا عليَّ جِئتكم بأهلي وولدي ومَنْ أطاعني؟ قالوا: بلىٰ ، قال: فإنَّ هذا قد عَرَضَ لكم خُطَّةَ رُشْدٍ ، اقْبلوها ودعوني آتِه ، قالوا: ائْتِه ، فأتاه فَجَعَل يُكَلِّمُ النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحواً مِنْ قَولِهِ لِبُدَيل ، فقال عُروةُ عند ذلك: أيْ محمد ، أرأيتَ إن اسْتَأْصَلْتَ أمر قومِكَ ، هلْ سمعتَ بأحَدٍ من العرب اجتاحَ أهلَهُ قبلكَ؟ وإن تكُن الأخرىٰ ، فإني والله لأرىٰ وجوهاً ، وإني لأرىٰ أشواباً من الناس خليقاً أن يَفِرُّوا ويَدَعوك. فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امْصُصْ بَظْرَ اللاتِ ، أنَحْنُ نَفِرُّ عنه ونَدَعُهُ؟ فقال: مَنْ ذا؟ قالوا: أبو بكر ، قال: أما والذي نفسي بيدِهِ لوْلا يَدٌ كانت لك عندي لمْ أَجْزِكَ بها لأجبتُكَ ، قال: وجَعَلَ يُكَلِّمُ النبي ﷺ فَكُلَّما تكلَّمَ كَلِمَةً أخذَ بلحيَتِهِ والمغيرة بنُ شعبة قائمٌ على رأس النبي ﷺ ومَعَهُ السَّيْفُ وعليه المِغْفَر. فكلّما أهوىٰ عروةُ بيده إلى لحيةِ النبي ﷺ ضرَبَ يده بِنَعْلِ السَّيف وقال له: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رسول الله ﷺ ، فرفع عُرْوَةُ رأسَهُ فقال: مَنْ هذا؟ قال: المغيرة بن شُعْبَةَ ، فقال: أيْ غُدَرُ ، ألَسْتُ أسْعَىٰ في غَدْرَتِكَ؟ وكان المغيرةُ صَحِبَ قَوْماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم ، فقال النبي ﷺ: أَمَّا الإسلامَ فأقْبَلُ ، وأما المالَ فلستُ منه في شيءٍ. ثم إنَّ عُرْوةَ جعلَ يَرْمُقُ أصحابَ النبي ﷺ بِعَيْنَيهِ ، قال: فو الله ما تَنَخَّمَ رسولُ الله ﷺ نُخامَةً إلا وقعت في كفِّ رجُلٍ منهم فدلكَ بها وَجْهَهُ وجِلْدَه ، وإذا أمَرَهُم ابْتَدَرُوا أمْرَهُ ، وإذا توضَّأَ كادوا يقتتلون على وَضُوئه ، وإذا تكلّموا خَفَضُوا أصواتَهم عندَه ، وما يُحِدُّونَ إليه النَّظَرَ تعظيماً له. فرجَعَ عروةُ إلى أصحابِهِ فقال: أي قَوْمِ ، والله لقدْ وَفَدْتُ على الملوكِ وَوَفَدْتُ على قيصرَ وكِسْرىٰ والنَّجاشي ، والله إنْ رأيتُ ملكاً قطُّ يُعَظِّمُهُ أصحابُه ما يُعَظِّمُ أصْحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّداً ، والله إنْ يتنَخَّم نُخامةً إلا وقعتْ في كفّ رجلٍ منهم فَدَلَكَ بها وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وإذا أَمَرَهُمْ ابتدروا أمْرَهُ ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تَكَلَّموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون النَّظر إليه تعظيماً له ، وإنَّه قد عَرَضَ عليكم خُطَّة رُشدٍ فاقبلوها ، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتِه ، فقالوا: ائْتِه ، فلما أشرفَ على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: هذا فلانٌ وهوَ مِنْ قوم يُعَظِّمُونَ البُدْنَ فابعثوها له. فبعثَت لهُ ، واستقبَلَهُ الناسُ يُلَبُّون ، فلما رأىٰ ذلك قال: سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت ، فما رجَعَ إلى أصحابِهِ قال: رأيتُ البُدنَ قَدْ قُلِّدَتْ وأُشْعِرَت ، فما أرىٰ أن يُصَدُّوا عن البيت ، فقام رجُلٌ منهم يقال له: مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ ، فقال: دعوني آتِه ، فقالوا: ائْتِهِ ، فلما أشرفَ عليهم قال النبي ﷺ: هذا مِكْرَزٌ وهو رجلٌ فاجِرٌ ، فجعل يكلِّم النبي ﷺ فبينما هو

يُكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال مَعْمَرٌ: فأخبرني أيوب عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: قد سَهُلَ لكم من أمْرِكُم. فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتُب بينَنا وبينكُم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال النبي ﷺ اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سُهيلٌ: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هِيَ، ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنتَ تكتُبُ، فقال المسلمونَ: والله لا نكتُبُها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم. ثم قال: هذا ما قاضىٰ عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنّا نعلمُ أنك رسول الله ما صَدَدْناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمدُ بنُ عبد الله، فقال النبي ﷺ: والله إني لرسولُ الله وإن كذبتموني، اكتُب: محمدُ بنُ عبد الله ـ قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألونني خُطَّة يُعظمون فيها حُرُمات الله إلا أعطيتهم إيّاها» ـ فقال له النبي ﷺ: علىٰ أن تُخَلُّوا بينَنا وبين البيتِ فنطوفَ به. فقال سهيل: والله لا تتحَدَّثُ العربُ أنّا أُخِذْنا ضُغْطَةً، ولكن ذلكَ من العام المقبل، فكتَبَ، فقال سُهَيْلٌ: وعلى أنه لا يأتيكَ مِنّا رجلٌ ـ وإن كان على دينك ـ إلا رَدَدْتَهُ إلينا. قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُرَدُّ إلىٰ المشركين وقد جاءَ مُسْلِماً؟ فبينما هم كذلكَ إذْ دَخَلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سهيل بن عمرو يَرْسُفُ في قُيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتىٰ رمىٰ بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا يا محمد أوَّلُ مَنْ أقاضِيكَ عليه أن ترُدَّهُ إليَّ، فقال النبي ﷺ: إنا لم نَقْضِ الكتابَ بَعْدُ. قال: فوالله إذن لَمْ أُصالِحْكَ على شيء أبداً. قال النبي ﷺ: فَأَجِزْه لي، قال: ما أنا بِمجيزٍ ذلك لك. قال: بلىٰ فافعل، قال: ما أنا بفاعلٍ، قال مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أجَزْناهُ لك، قال أبو جندل: أي مَعْشَرَ المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مُسْلِماً؟ ألا ترونَ ما قَدْ لَقِيتُ؟ وكان قد عُذِّبَ عذاباً شديداً في الله. قال عمر بن الخطاب: فأتيتُ نبيَّ الله ﷺ فقلت: ألست نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلىٰ، قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلىٰ، قلت: فَلِمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله ولسْتُ أعْصيه، وهو ناصري. قلتُ: أوليسَ كنت تَحدَّثُنَا أنّا سنأتي البيتَ فنطوفُ به؟ قال: بلىٰ، فأخْبَرْتُكَ أنّا نأتيه العامَ؟ قال: قلتُ: لا، قال: فإنَّكَ آتيه ومُطَوِّفٌ به. قال: فأتيتُ أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيَّ الله حَقّاً؟ قال: بلىٰ، قُلْتُ: أَلَسْنا على الحق وعَدُوُّنا على الباطلِ؟ قال: بلىٰ، قلتُ: فَلِمَ نُعطي الدنيَّةَ في ديننا إذن؟، قال: أيها الرجلُ، إنه رسول الله ﷺ وليس يَعْصي ربَّهُ وهو ناصِرُهُ، فاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ فوالله إنَّهُ على الحق، قلت: أليسَ كان يُحَدِّثُنا أنا سنأتي البيتَ فنطوِّفُ به؟ قال: بلىٰ،

أفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تأتيه العام؟ قلتُ: لا ، قال: فإنَّكَ آتيه ومُطَوِّفٌ به.

قال الزُّهري: قال عمر: فَعَمِلْتُ لذلك أعمالاً. قال: فلمّا فرغ من قَضِيَّةِ الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قُوموا فانْحَروا ثم احْلِقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتىٰ قال ذلك ثلاثَ مَرّات ، فلمّا لم يَقُمْ منهم أَحَدٌ دَخلَ على أُمِّ سَلَمَةَ فذكرَ لها ما لقِيَ من الناس فقالت أمّ سلمة: يا نبي الله ، أتحِبُّ ذلك؟ اخْرُجْ ثم لا تُكَلِّم أحداً منهم كَلِمةً ، حتىٰ تَنْحَرَ بُدْنَكَ ، وتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ ، فخرج فلم يُكَلِّم أحداً منهم حتىٰ فعل ذلك ، نَحَرَ بُدْنَهُ ، ودعا حالِقَهُ فَحَلَقَهُ ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجَعَل بعضهم يَحْلِقُ بَعْضاً حتىٰ كادَ بَعْضُهم يَقْتُلُ بَعْضاً غَمّاً. ثم جاءه نِسْوَةٌ مؤمناتٌ ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحنة: 10] حتىٰ بلغ: ﴿ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشِّرك ، فتزوج إحداهُما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرىٰ صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة. فجاءه أبو بصير رجل من قريش. . ـ][1]. وسيأتي تمام القصة عند تفسير الآية: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ إن شاء الله.

11 ـ 14. **قوله تعالىٰ:** ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: فَضْحُ سلوك المنافقين وكَشْفُ كَذِبِ قلوبهم ، وتَوَعُّد الله من لا يؤمن به وبرسوله إنزال عذابه المؤلم بهم ، فالله تعالىٰ هو الملك يغفر لمن يشاء

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2731) ـ (2732) ـ كتاب الشروط ، وأخرجه أبو داود (2756) وأحمد (4/ 323 ـ 328) ، وابن حبان (4872) مطولاً.

ويعذب من يشاء وهو الغفور للمؤمنين الرحيم بهم.

فقوله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ ﴾.

قال مجاهد: (أعراب المدينة جهينة ومزينة، استتبعهم لخروجه إلى مكة، قالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاؤوه، فقتلوا أصحابه فنقاتِلهم! فاعتلوا بالشغل) ـ وهو حسن مرسل.

فلقد استنفر رسول الله ﷺ أثناء خروجه الأعراب الضاربين حول المدينة كمزينة وجهينة ونحوهم من أهل البوادي للخروج معه، فاعتذروا إليه بهذه الطريقة الهزيلة التي سجَّلها القرآن في حقهم وعابها عليهم، إذ كان الدافع لذلك جبناً وجدوه في صدورهم، لقد رأوا فيها عمرة محفوفة بالمخاطر.

لقد ظنوا أن الفرار أجدىٰ، وأن الاعتذار إلى النبي ﷺ سهل، فيما لو قُدِّر وعاد منتصراً، ففضحهم الله وذمَّهم في قرآن يُتلىٰ.

وقوله: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: قل لهؤلاء الأعراب الذين يسألونك أن تستغفر لهم لِتخلُّفِهِم عنك: إن أنا استغفرت لكم أيها القوم، ثم أراد الله هلاككم أو هلاك أموالكم وأهليكم، أو أراد بكم نفعاً بتثميره أموالكم وإصلاحه لكم أهليكم، فمن ذا الذي يقدر على دفع ما أراد بكم من خير أو شر والله لا يعازّه أحد، ولا يغالبه أحد).

والقراءة المشهورة ﴿ضَرًّا﴾ بالفتح، وهي خلاف النفع، وهي قراءة قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين، في حين قرأها بالضم ﴿ضُرًّا﴾ عامة قراء الكوفة، وهي بمعنىٰ البؤس والسَّقم.

وقوله: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾. تهديد ووعيد، أي: فيجازيكم عليه.

وقوله: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾. قال قتادة: (ظنوا بنبي الله ﷺ وأصحابه أنهم لن يرجعوا من وجههم ذلك، وأنه سيهلكون، فذلك الذي خلفهم عن نبي الله ﷺ).

قال القرطبي: (﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي النفاق. ﴿ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وهذا التزيين من

الشيطان، أو يخلق الله ذلك في قلوبهم. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أن الله لا ينصر رسوله).

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾. قال مجاهد: (هالكين). وقال قتادة: (فاسدين لا يصلحون لشيء من الخير). قلت: والبور في لغة العرب: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه. وقوم بور: هَلْكىٰ ـ حكاه الرازي والجوهري.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾.

قال ابن كثير: (أي: من لم يُخلِص العمل في الظاهر والباطن لله فإنَّ الله تعالىٰ سَيُعَذِّبُهُ في السعير، وإن أظهرَ للناس ما يعتقدون خِلاف ما هو عليه في نفس الأمر).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: ولله سلطان السماوات والأرض فهو الحاكم الملك المتصرف في شؤون ما خَلق، فلا أحد يقدر على دفع أمره ـ معشر المنافقين ـ إن أراد تعذيبكم أو العفو عنكم. فبادروا بالتوبة من تَخَلُّفِكم عن رسول الله ﷺ فإن الله يغفر للتائبين وهو الغفور الرحيم.

15 ـ 17. قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: فَضْحُ الله تعالىٰ المنافقين في هَمِّهم جمع الغنائم رغم التكذيب بالحق والرسول الكريم، وتوجيه الله رسوله لدعوتهم لاختبار قادم يُكْشَفُ فيه أهل الصدق من الكاذبين. وإعذار الله الأعمىٰ والأعرج والمريض ووعده المخبتين لله

ورسوله جنات النعيم ، والمعرضين المكذبين عذاب الجحيم.

فقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: سيقول لك ـ يا محمد ـ المخلفون عن صحبتك إذا سرت معتمراً ، إذا انطلقت وأصحابك إلى ما أفاء الله عليكم ـ مما وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر ـ ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾. قال ابن جرير: (إلى خيبر فنشهد معكم قتال أهلها. . . يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية). قال مجاهد: (تخلفوا عن الخروج إلى مكة ، فلما خرج النبي ﷺ وأخذ قوماً ووجّه بهم قالوا ذَرُونا نتّبعكم فنقاتل معكم).

وقوله: ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾. أي: من قبل الرجوع من الحديبية ومن قبل سؤالكم الخروج إلى مغانم خيبر.

قال قتادة: (أي إنما جعلت الغنيمة لأهل الجهاد ، وإنما كانت غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية ليس لغيرهم فيها نصيب).

قال ابن كثير: (أمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك معاقبةً لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله تعالىٰ قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يَشْرَكُهم غيرُهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غيرُ ذلك شرعاً وقدراً).

وقوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾. قال ابن زيد: (أَنْ نُصيب معكم غنائم).

وقوله: ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. قال القرطبي: (يعني لا يعلمون إلا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً ، وهو ترك القتال).

وقوله: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾.

اختلف المفسرون في المقصود من قومٍ في هذه الآية على أقوال:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أهل فارس). وقال عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ: (فارس والروم). وعن كعب قال: (الروم). وعن مجاهد: (هم أهل الأوثان).

2 ـ وقال عكرمة: (هوازن وثقيف). وقال قتادة: (هي هوازن وغطفان يوم حنين). وفي رواية قال: (فدُعوا يوم حنين إلى هوازن وثقيف ، فمنهم من أحسن الإجابة ورغب في الجهاد).

3 ـ وعن الزهري ، قال: (بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب). وفي رواية عنه قال: (لم يأت أولئك بعد).

4 ـ وقال مجاهد: (هم رجال أولو بأس شديد ، ولم يعيّن فرقة) ـ واختاره ابن جرير ـ وهو الأقرب والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ﴾. قال ابن كثير: (يعني يُشرَعُ لكم جِهادهم وقتالُهم ، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ، ولكم النصرة عليهم ، أو يُسلِمون فيدخُلُون في دينكم بلا قتال بل باختيار).

وقوله: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾. أي: فإن تخبتوا لأمر الله وتنفروا للجهاد وقتال أعداء هذا الدين فلكم الأجر الجزيل بِعِزِّ الدنيا وسعادةِ الآخرة ، وإن تتخلفوا كما فعلتم يوم المسير إلى مكة ـ زمن الحديبية ـ فإن عذاب الله نازل بكم.

وقوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾.

قال قتادة: (عذر الله أهل العذر من الناس). قال الضحاك: (يعني في القتال). وقال ابن زيد: (في الجهاد في سبيل الله). أي: ليس على الأعمىٰ ضيق ولا المريض ولا الأعرج في شهود الحرب للعلل بهم. قال المهايميّ: (﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾: وإن أمكنه القتال بإحساس صوت مشي العدوّ ، ومشي فرسه ، لكن يصعب عليه حفظ نفسه عنه. ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ﴾ أي: وإن أمكنه القتال قاعداً ، لكن لا يمكنه الكرّ والفرّ ، ولا يقوىٰ قوة القائم. ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾ أي: فإنه وإن أمكنه الإبصار والقيام ، فلا قوة له في دفع العدوّ ، فضلاً عن الغلبة عليه).

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

قال القاسمي: (أشار تعالىٰ إلى أن هؤلاء ، وإن فاتهم الجهاد لا ينقص ثوابهم إذا أطاعوا الله ورسوله). يعني: الأعمىٰ والأعرج والمريض.

وعموم الآية يفيد أن من يطع الله ورسوله فيجيب إلى حرب أعداء الله يدخله جنات النعيم ، ومن يتخلف يعذبه بالخزي والمذلّة في الدنيا ، ثم في الآخرة في عذاب الجحيم.

18 ـ 19. قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ ﴾.

في هذه الآيات: لقد علم الله في نفوس المؤمنين من أصحاب الشجرة صدق قلوبهم ونياتهم ، وإخلاصهم في الوفاء بما ذهبوا إليه وتعاقدوا معك عليه يا محمد ، فأمدّهم بتثبيت من عنده ، وملأ قلوبهم صبراً وطمأنينة ، ثم أثابهم بصدق عزائمهم ونياتهم فتحاً في القريب العاجل ، عوضهم به سبحانه مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم أهلها ، فأنزل سبحانه فتحاً قريباً أتحف به حياتهم وأظهر به شوكتهم وبسط به نفوذهم في الأرض ، وسمعت بهم فيه ملوك الدنيا من فارس والروم ، ألا وهو الإجهاز على يهود المكر في خيبر.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن جابر بن عبد الله: [في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ قال جابر: بَايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت][1].

وعن قتادة: (﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: الصبر والوقار).

قال ابن جرير: (فأنزل الطمأنينة ، والثبات على ما هم عليه من دينهم وحُسن بصيرتهم بالحق الذي هداهم الله له).

وقوله: ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾. أي: ثم أثابهم سبحانه بصدق عزائمهم ونياتهم ، فتحاً قريباً يفرحون به ويأنسون بآفاقه. قال قتادة: (بلغني أنها خيبر). قال ابن كثير: (﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾: وهو ما أجرىٰ الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم. وما حصَلَ بذلك من الخير العام والمستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم ، وما حَصَلَ لهم من العزِّ والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1294) ـ أبواب السِّير عن رسول الله ﷺ. باب ما جاء في بيعة النبي ﷺ ، ورواه مسلم دون الآية.

20 ـ 24. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: وَعْدُ الله تعالىٰ عباده المؤمنين المغانم الكثيرة عقب الحديبية، وكشف سنته تعالىٰ في إذلال الكافرين وإلقاء الرعب في قلوبهم، وامتنانه تعالىٰ على المؤمنين بصرف كيد المشركين عنهم ومكرهم.

فعن مجاهد: (﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ قال: المغانم الكثيرة التي وعدوا: ما يأخذونها إلى اليوم).

وقوله: ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾. قال ابن عباس: (يعني صلح الحديبية). وقال مجاهد: (عجل لكم خيبر). وقال ابن زيد: (يوم خيبر).

وقوله: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾. قيل: هم اليهود كفَّ الله أيديهم عن عيال الذين ساروا من المدينة مع رسول الله ﷺ إلى مكة. قال قتادة: (كفَّ أيدي الناس عن عيالهم بالمدينة). وقال في رواية: (عن بيوتهم، وعن عيالهم بالمدينة حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر، وكانت خيبر في ذلك الوجه). قال ابن كثير: (﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أي: لم يَنَلْكُم سوءٌ مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال. وكذلك كفَّ أيديَ الناس الذين خلفتموهم وراء أَظْهُركم عن عيالِكم وحريمكم).

وقوله: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾. قال ابن جرير: (وليكون كفه تعالىٰ ذكره أيديهم عن عيالهم آية وعبرة للمؤمنين به، فيعلموا أن الله هو المتولي حياطتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم، ويتقوا الله في أنفسهم وأموالهم وأهليهم بالحفظ وحُسن الولاية ما كانوا مقيمين على طاعته منتهين إلى أمره ونهيه).

وقوله: ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾. أي طريقاً قويماً لا اعوجاج فيه، مبناه على

الثقة بالله الذي يحفظكم ويختار لكم ما فيه مصلحة دنياكم وآخرتكم ، وإن كرهتموه في الظاهر فإنه : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة : 216].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ .

أي : ونصر آخر وفتح جديد وغنيمة أخرىٰ لم تكونوا تقدرون عليها ، ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ بأن أعدّها لكم وحفظها لوقتها فهو على كل شيء قدير. قال القرطبي : (ومعنىٰ : ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ : أي أعدّها لكم ، فهي كالشيء الذي قد أحيط به من جوانبه ، فهو محصور لا يفوت ، فأنتم وإن لم تقدروا عليها في الحال فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم. وقيل : ﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ على أنها ستكون لكم ، كما قال : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق : 12]. وقيل : حفظها الله عليكم ، ليكون فتحها لكم).

وقد اختلف في تحديد هذه الغنيمة على أقوال :

قال ابن عباس : (فارس والروم). وقال مجاهد : (ما فتحوا حتىٰ اليوم). وفي رواية : (هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة). وقال قتادة : (كنا نحدث أنها مكة) ـ واختاره ابن جرير ـ والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

بشرىٰ من الله سبحانه لعباده المؤمنين ، بأنهم أصبحوا في حالة شوكة وتمكين ، فلو قاتلكم بعد هذا الفتح والنصر المعجل الكفار لولوكم أعجازهم في الحرب مدبرين ، فعل المنهزم الذليل ، ثم لا يجدون من يواليهم على حربكم وينصرهم عليكم.

وقوله تعالىٰ : ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ .

أي : هذه سنّته تعالىٰ التي مضت في الفريقين : أهل الإيمان وأهل الكفر ، فإنه ما تقابل الكفر والإيمان في مشهد إلا زلزل الله الكافرين ونصر المؤمنين ، كما كان ذلك يوم بدر حين رضي سبحانه عن فئة الإيمان المستضعفين ، فسلّطهم على رقاب المشركين ، وأعلىٰ بهم راية الحق والدين.

وقوله وتعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ .

امتنان من الله سبحانه على النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم أن صرف أيدي المشركين وغدرهم وأذاهم عنهم فلم ينالوا منهم ، وكذلك صرف أيدي المؤمنين عن

المشركين عند المسجد الحرام فلم يحصل قتال، بل صان الفريقين لما فيه خير المسلمين وجميل عاقبتهم.

وقد جاء في أسباب نزول هذه الآيات أحاديث كثيرة:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، عن أنس قال: [لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قِبَل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم فأخذوا. قال عفان: فعفا عنهم ونزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾][1].

فقد تخلل كتابة العقد ـ يوم الحديبية ـ بعض الغدر من قريش وبعض الطيش من شبابها، إلا أن الصحابة رضوان الله عليهم تمكنوا من الإحاطة بهم بسرعة، وأحضروهم بين يدي رسول الله ﷺ أذلاء صاغرين، فهؤلاء كانوا ثمانين رجلاً أرادوا أخذ معسكر المسلمين غرّة، فأُسروا وجيء بهم إلى رسول الله ﷺ فعفا عنهم وأذن بإطلاقهم.

ثم خرج هجوم آخر مفاجئ من ثلة من شباب قريش أثناء الحوار الذي دار بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو، فما رأىٰ المسلمون إلا وثلاثون شاباً يَنْقَضُّون عليهم بأسلحتهم، فحرك النبي ﷺ شفتيه بدعاء سريع إلى الله، فأخذ الله بأسماعهم، ووثب الصحابة فأسروهم، وتفصيل ذلك في الحديث الآتي:

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح، عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: [كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالىٰ في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: اكتب باسم الله الرحمن الرحيم، فأخذ سهيل بيده وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: اكتب باسمك اللهم ـ وكتب ـ هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة. فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف. فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. قال: فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1808) ـ كتاب الجهاد والسير. قصة الحديبية.

وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله تعالىٰ بأسماعهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم. فقال رسول الله ﷺ: هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟ فقالوا: لا ، فخلّىٰ سبيلهم ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾][1].

ثم حصل غدر ثالث من المشركين بعد إبرام الصلح وقد اختلط المسلمون بالمشركين وجلسوا معاً تحت الشجر في بطن الوادي.

فعن قتادة قال: (ذكر لنا أن رجلاً يقال له ابن زنيم اطلع على الثنية من الحديبية ، فرماه المشركون بسهم فقتلوه ، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً فأتوا باثني عشر من الكفار فقال لهم: هل لكم علي عهد؟ هل لكم عليّ ذمة؟ قالوا: لا ، فأرسلهم ، وأنزل الله تعالىٰ في ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾).

وهذا الذي ذكره قتادة يشهد له الحديث الآتي:

الحديث الثالث: روىٰ مسلم في صحيحه عن سلمة قال: [ثم إنَّ المشركين راسلونا الصلح حتىٰ مشىٰ بعضنا في بعض ، واصطلحنا. قال: وكنت تبيعاً لطلحة بن عبيد الله أسقي فرسه ، وأحُسُّهُ وأخدِمُهُ وآكل من طعامه ، وتركتُ أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله ﷺ. قال: فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرةً فكسحت شوكها فاضطجعت في أصلها. قال: فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، فأبغضتُهُم فتحولت إلى شجرة أخرىٰ وعلقوا سلاحهم واضطجعوا ، فبينما هم كذلك إذ نادىٰ مناد من أسفل الوادي يا للمهاجرين! قُتِلَ ابن زُنَيم. قال: فاخترطت سيفي ثم شَدَدْتُ على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذتُ سلاحهم فجعلته ضِغثاً في يدي ، قال: ثم قلت: والذي كرَّمَ وجْهَ محمد لا يَرْفَعُ أحد منكم رأسه إلا ضَرَبْتُ الذي فيه عيناه. قال: ثم جِئتُ بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ. قال: وجاء عمّي عامِرٌ برجل من العَبَلاتِ يُقال له مِكْرَزٌ يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مُجَفَّفٍ في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: دعوهم يكن لهم بَدْءُ الفجور وثناه ، فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 87) ، ورجاله رجال الصحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (1807) ـ كتاب الجهاد ، باب غزوة ذي قرد. وأخرجه أحمد في المسند (4/ 52 ـ 54).

ويبدو أن هذه الآية من سورة الفتح قد نزلت في هذه الحوادث جميعها ، ومن ثَمَّ فلا مانع من تعدد أسبابها ، كما لم يكن عند طغاة مكة مانع من تكرار الغدر مرة تلو الأخرىٰ ، وفي كل مرة كان الله يذيقهم الذل والخزي والصغار.

الحديث الرابع: أخرج البخاري في صحيحه عن المسور ومروان قالا: [.. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة ، فجاءه أبو بصير رجلٌ من قريش وهو مسلم ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، فقالوا: العهدَ الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به ، حتىٰ بلغا ذا الحُليفة فنزلوا يأكلون من تَمْرٍ لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرىٰ سَيْفَكَ هذا يا فلانُ جيداً ، فاسْتَلَّه الآخر فقال: أجل والله إنه لجيّد ، لقد جَرَّبْتُ به ثم جَرَّبْتُ. فقال أبو بصير: أرني أنظرْ إليه ، فأمكنه منه ، فضربه حتى بَرَدَ ، وَفَرَّ الآخر حتىٰ أتىٰ المدينة ، فدخل المسجد يعْدو ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأىٰ هذا ذُعْراً ، فلما انتهىٰ إلى النبي ﷺ قال: قُتِل والله صاحبي وإني لمقتول. فجاء أبو بصير ، فقال: يا نبي الله قد والله أوفىٰ الله ذِمَّتَكَ ، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: وَيْلُ أمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيَرُدُّه إليهم ، فخرج حتىٰ أتىٰ سِيفَ البحر. قال: ويَنْفَلِتُ منهم أبو جندل بنُ سُهَيل ، فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتىٰ اجتمعت منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون بِعيرٍ خرجت لقريشٍ إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريشٌ إلى النبي ﷺ تُناشِدُه بالله والرَّحم لَمَّا أَرْسَلَ ، فَمَنْ أتاه فهو آمن ، فأرسل النبي ﷺ إليهم ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتىٰ بلغ ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وكانت حميَّتُهم أنهم لم يقروا أنه نبيّ الله ولم يقروا بـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وحالوا بَيْنَهم وبين البيت][1].

25 ـ 26. **قوله تعالىٰ**: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (2731) ، وكذلك (2732) ـ كتاب الشروط.

كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات كفر طغاة مكة الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام بقصد العمرة وقد ساقوا الهدي، وإثبات أن الجهاد لا يكون إلا عند تميّز الصفوف، فقد منع الله نبيّه ﷺ من دخول مكة عنوة دخول الفاتحين، لوجود مؤمنين مستضعفين، الأمر الذي قد ينالهم به الأذىٰ لو فعلوا ذلك. وامتنان الله تعالىٰ على رسوله وعلى المؤمنين إنزاله السكينة على قلوبهم، وحمايتهم بكلمة التقوىٰ وهو أعلم بأحوالهم وما يصلح أمرهم.

فعن قتادة: (﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾. أي: محبوساً).

وقوله: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾. أي: وصدوا الهدي وكان سبعين بدنة عن وصوله إلى محلّه ليذبح ويطعم منه فقراء مكة. قال النسفي: (﴿مَحِلَّهُۥ﴾ مكانه الذي يحل فيه نحره، أي يجب، وهذا دليل على أن المحصر محل هديه الحرم، والمراد المحل المعهود وهو منىٰ). وقال الشافعي: (الحرم). قلت: ولا شك أن مكة كلها منحر، وفجاجها منحر، ولكن الله بفضله جعل ذلك الموضع ـ حين أحصر نبيّه والمؤمنون ـ محلاً.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: [نَحَرْنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البَدَنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة][1].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: [اشتركنا مع النبي ﷺ في الحج والعمرة، كُلُّ سَبْعَةٍ في بَدَنَةٍ، فقال رجل لجابرٍ: أَيُشْتَرَكُ في البَدَنَةِ ما يُشْتَرَكُ في الجَزُور؟ قال: ما هي إلا مِنَ البُدن].

قال: وحضر جابر الحديبية قال: [نَحَرْنا يومئذ سَبْعين بَدَنَةً، اشتركْنا كُلُّ سَبْعةٍ في بَدَنَةٍ][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1318) ـ كتاب الحج. ومالك (2/ 486)، وأخرجه أبو داود (2809)، والترمذي (904)، وابن ماجة (3132)، وابن حبان (4006).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1318) ح (353 ـ 354)، من حديث جابر.

وفي صحيح البخاري عن المِسْور رضي الله عنه: [أنَّ رسول الله ﷺ نَحَر قبل أن يَحْلِقَ وأمر أصحابه بذلك][1].

وفيه عن كَعْب بن عُجْرَةَ قال: [وقف عليَّ رسولُ الله ﷺ بالحديبية ورأسي يَتَهافَتُ قَمْلاً، فقال: يُؤْذيكَ هَوَامُّكَ؟ قلتُ: نَعَمْ، قال: فاحلِقْ رأسَكَ. قال: فِيَّ نَزَلتْ هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ [البقرة: 196] إلى آخرها. فقال النبي ﷺ: صُمْ ثلاثةَ أيام، أو تَصَدَّق بِفَرَقٍ بَيْن سِتَّةٍ، أو نُسُكٍ مما تَيَسَّر][2].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قال قتادة: (فكان بها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، فكره الله أن يُؤذَوا أو يوطَؤُوا بغير علم، فتصيبكم منهم معرة بغير علم).

وفي قوله: ﴿مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. قال ابن زيد: (إثم بغير علم). وقال ابن إسحاق: (والمعرّة: هي المفعلة من العُرّ، وهو الجرب، وإنما المعنىٰ: فتصيبكم من قِبَلهم معرة تعرُّون بها، يلزمكم من أجلها كفارة قتل الخطأ، وذلك عتق رقبة مؤمنة، من أطاق ذلك، ومن لم يطق فصيام شهرين).

فكان من الحكمة والحال هذه ألا يدخل المسلمون مكة عنوة، لئلا يقع مسلموها المستضعفون في الضيق والأذىٰ بسبب محاولة قريش استخدامهم دريئة تنتقم من المسلمين بهم، وتنزل نقمتها وحقدها عليهم.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ولولا رجال من أهل الإيمان ونساء منهم أيها المؤمنون بالله أن تطؤوهم بخيلكم ورجلكم لم تعلموهم بمكة، وقد حبسهم المشركون بها عنكم، فلا يستطيعون من أجل ذلك الخروج إليكم فتقتلوهم).

قلت: ومن هنا ندرك حجم المصيبة التي تنزل ببعض الأقليات المسلمة المبعثرة في أرجاء المعمورة والتي أسلمت يوماً بفضل الله نتيجة للفتوحات الإسلامية التي طالت تلك البلاد عبر التاريخ، وذلك عندما تحاول تلك المجموعات الاستقلال عن حكومات تلك البلاد باللجوء إلى العنف والقتال، وهي تعيش متفرقة داخل تلك

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1811) ـ كتاب المُحْصر. باب النحر قبل الحلق في الحَصر.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1815) ـ كتاب المُحْصَر. وانظر كذلك (1814).

البلاد ، فينالها عند ذلك من الشر والتشريد ما لا يعلمه إلا الله ، وكان أولىٰ بهؤلاء وأمثالهم ، أن يصبروا على بناء جماعة الحق في واقعهم ، ويصقلوا هذا البناء بالصدق واليقين والعمل الصالح والصبر على منهاج النبوة في التغيير ، حتىٰ يأذن الله لهم بحال فيه نصرهم متىٰ رضي عن دينهم وامتثالهم ، أو يأذن لهم بالهجرة إلى حيث يعز فيه سبحانه أهل العزائم من الطائفة المنصورة ، وأما عند الفوضىٰ واختلاط الصفوف فلا يوجد جهاد حتىٰ تتضح راية الحق وتتميز من راية الباطل.

وقوله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾. أي: ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء قبل أن تدخلوها.

وقوله: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾. قال القُتبي: (أي تميّزوا). وقال الكلبي: (لو تفرّقوا). وقال الضحاك: (لو زال المؤمنون من بين أظهر الكفار لعذب الكفار بالسيف).

وقوله: ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أي: لو تميز مشركو مكة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات الذين لم تعلموهم ، لَسَلَّطَ الله المؤمنين على المشركين بالقتل أو الأسر أو نوع آخر من العذاب الآجل.

وقوله: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾.

الحمية: فعِيلة ، وهي الأنَفَة. قال الزُّهْري: (حَمِيَّتُهم أنفتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة والاستفتاح بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، ومنعهم من دخول مكة).

وقال ابن بحر: (حمِيّتُهم عصبيّتُهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالىٰ ، والأنفة من أن يعبدوا غيرها).

وقيل: (﴿حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ إنهم قالوا: قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا في منازلنا ، واللات والعزىٰ لا يدخلونها أبداً) ـ ذكره القرطبي.

وقد مضىٰ في حديث البخاري عن المسور ومروان قالا: [وكانت حميّتهم أنهم لم يقروا أنه نبيُّ الله ، ولم يقروا بـ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وحالوا بينهم وبين البيت][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2731) ـ (2732) ـ كتاب الشروط.

قلت: وكل ما سبق ذكره داخل في مفهوم الحمية ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي تمسك بها المشركون واستندوا إليها.

وقوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فأنزل الله الصبر والطمأنينة والوقار على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين حين أظهر الكفار حمية الجاهلية.

وقوله: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. قال ابن عباس: (شهادة أن لا إله إلا الله، فهي كلمة التقوىٰ. يقول: فهي رأس التقوىٰ). وقال عطاء الخراساني: (لا إله إلا الله محمد رسول الله). وعن مجاهد: (﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال الإخلاص). وفي رواية: (كلمة الإخلاص). وقال سعيد بن جبير: (﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله، والجهاد في سبيله). وعن عروة، عن المسور قال: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له). وقيل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قلت: ويجمع هذه الأقوال (شهادة أن لا إله إلا الله) فإن إقامة هذه الشهادة بلوازمها وشروطها يجمع منهاج التقوىٰ.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه، عن النبي ﷺ: [﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال: (لا إله إلا الله)](1).

وقوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾. قال قتادة: (وكان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها: أي التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله).

وقال أبو السعود: (﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا﴾ أي: متصفين بمزيد استحقاق لها). وقال القاسمي: (﴿وَأَهْلَهَا﴾ أي: المستأهل لها).

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾. أي: يعلم حق كل شيء، فيسوقه إلى مستحقه. فهو يعلم المستحق للخير من المستحق للشر.

27 ـ 28. **قوله تعالىٰ:** ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2603) ـ كتاب لتفسير، سورة الفتح ـ آية (26).

فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: تأكيدُ الله تعالىٰ لرسوله بالرؤيا دخول المسجد الحرام مع أصحابه آمنين محلقين ومقصرين. ووعده تعالىٰ رسوله الذي أرسله بالهدىٰ والدين الحق الظهور التام على الكافرين.

فقوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾.

قال قتادة: (أُري في المنام أنهم يدخلون المسجد الحرام، وأنهم آمنون محلقين رؤوسهم ومقصرين).

فقد كان رسول الله ﷺ أُري في منامه أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر بذلك أصحابه وهو بالمدينة، فلما خرجوا عام الحديبية ظنوا تحقق الرؤيا هذا العام، فلما ظهر من الأمر ما ظهر وكان الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء.

ففي صحيح البخاري من حديث المسور ومروان: [قال عمر رضي الله عنه: فأتيت نبيَّ الله ﷺ فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: بلىٰ. قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: بلىٰ. قلتُ: فلِمَ نُعطي الدنيّة في ديننا إذن؟ قال: إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري. قلت: أولستَ كنت تُحَدِّثنا أنا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: بلىٰ، أفأخبرتك أنّا نأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومُطَّوِفٌ به][1].

فجاءت الآية لتحقيق الخبر وتوكيده: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾. أي: آمنين حال دخولكم، ثم تحلقون أو تقصرون حال إتمام مناسككم.

فإنه ما إنْ هَلَّ هلال ذي القعدة، وهو الشهر الذي صدّ فيه المشركون المسلمين عن المسجد الحرام، إلا تهيأ النبي ﷺ للخروج إلى مكة لقضاء العمرة، ووافق ذلك السنة السابعة للهجرة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2731)، (2732)، وأخرجه أبو داود (2765)، وأحمد (4/ 323 ـ 328)، وابن حبان (4872) مطولاً.

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: (قال سليمان التَّيمي: لما رجع رسول الله ﷺ مِنْ خَيبر، بعث السرايا، وأقام بالمدينة حتىٰ استهل ذو القعدة، ثم نادىٰ في الناس بالخروج)[1].

وقال الحاكم: (أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوىٰ النساء والصبيان)[2].

قال ابن هشام: (واستعمل على المدينة عُويف بن الأضبط الديلي).

ثم خرج رسول الله ﷺ في أصحابه وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، وما إن بلغَ ذا الحليفة إلا أحرم للعمرة ولبّىٰ، فلبىٰ المسلمون معه، وكانوا قد خرجوا بسلاحهم خشية غدر قريش، فقد أمرهم رسول الله ﷺ أن يكونوا مستعدين للطوارئ ومتهيئين لأسوأ الظروف والأحوال.

قال موسىٰ بن عقبة: (حتىٰ إذا بلغ يأجُجَ[3] وضع الأداة كُلَّها، الحَجَفَ والمِجَانَّ، والنَّبْلَ والرِّماح، ودخلوا بسلاح الراكب السيوف).

وقد أراد بذلك رسول الله ﷺ التزام العهد الذي كتبه مع قريش قبل عام.

ففي صحيح الإمام البخاري عن البراء، قال: [لما اعتمر النبي ﷺ في ذي القَعْدة فأبىٰ أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتىٰ قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام... فكتب: هذا ما قاضىٰ محمدُ بنُ عبدِ الله لا يُدْخِلُ مكةَ السلاحَ إلا السيفَ في القِرَاب، وأن لا يخرُجَ من أهلها بأحد إن أراد أن يتبَعَهُ. وأن لا يَمْنَعَ من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيم بها][4].

فأبقىٰ المسلمون أسلحتهم غير السيوف خارج الحرم، وخلف عليها رسول الله ﷺ أوس بن خولى الأنصاري في مئتي رجل، ومضىٰ داخلاً على ناقته القصواء، وقد أحدقت به طائفة من المسلمين متوشحي السيوف وهم يلبون.

---

(1) انظر: «زاد المعاد» (3/ 370) ـ ابن قيم الجوزية. وكتابي: السيرة النبوية (2/ 1185).

(2) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (7/ 500). وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (2/ 1185) لمزيد من التفصيل.

(3) موضع على ثمانية أميال من مكة. والخبر ذكره ابن القيم في «زاد المعاد» (3/ 370 ـ 371).

(4) حديث صحيح. رواه البخاري (2699) ـ كتاب الصلح. وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (2/ 1186) لمزيد من التفصيل.

يروي البخاري عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: [لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله ﷺ][1].

ومضىٰ الموكب الرهيب أمام أعين المشركين الذين جلسوا على جبل قعيقعان شمال الكعبة ينظرون إلى المسلمين ، وكانوا قد أشاعوا في قومهم فقالوا: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمىٰ يثرب ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالرَّمَل في الطواف لإظهار القوة.

فقد أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس قال: [قَدِمَ رسولُ الله ﷺ وأصحابُه فقال المشركون: إنه يَقْدُم عليكم وَفْدٌ وَهَنَتْهُم حُمّى يثرب (وفي رواية لمسلم: ولقوا منها شدة) ، وأمرهم النبي ﷺ أن يَرْمُلُوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا ما بين الركنين (وفي رواية مسلم: ليرىٰ المشركون جَلَدهم) ، ولم يَمْنَعْهُ أن يأمُرَهُم أن يَرْمُلوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم][2].

وفي رواية: [لما قدم النبي ﷺ لعامِه الذي استأمن قال: ارْمُلُوا ليرىٰ المشركون قوتهم ، والمشركون من قِبَل قُعَيْقِعان].

ورواه الإمام أحمد بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عباس: [أن قريشاً قالت: إنّ محمداً وأصحابه قد وهنتهم حمى يثرب ، فلما قدم رسول الله ﷺ لعامه الذي اعتمر فيه قال لأصحابه: ارمُلوا بالبيت ثلاثاً ليرىٰ المشركون قوتكم ، فلما رملوا قالت قريش: ما وهنتهم][3].

ثم أمر أصحابه فقال: اكشفوا عن المناكب واسْعَوا في الطواف ، فامتثلوا الأمر بالاضطِباع ، فكشفوا المناكب اليمنىٰ وأبقوا طرف الرداء على اليسرىٰ. ثم دخل مكة من قبل الثنية التي تطلعه على الحجون وهو يلبي ، حتىٰ استلم الركنَ بمِحجنِه ثم طاف وطاف المسلمون.

وقد مضىٰ يومئذ عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه بين يدي رسول الله ﷺ متوشحاً بالسيف يرتجز بقوة وشجاعة ، وينزل شعره الأصيل على قلوب المشركين كالسهام.

قال موسىٰ بن عقبة: (فوقف أهل مكة: الرجالُ والنساءُ والصبيانُ ، ينظرون إلى

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4255) ـ كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4256) ـ كتاب المغازي ، باب عمرة القضاء. ورواه مسلم.
(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (1/ 306) ، وكتابي: السيرة النبوية (2/ 1187) لتفصيل البحث.

رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يطوفون بالبيت ، وعبد الله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشحاً بالسيف يقول:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله قد أنزل الرحمن في تنزيله
في صُحُفٍ تُتلىٰ على رسوله يا رب إني مؤمن بقِيله
إني رأيت الحق في قَبوله اليوم نَضْرِبْكُمْ على تأويله
ضَرْباً يُزيل الهامَ عن مقيلِه ويُذْهِل الخليل عن خليله

قال: وتغيَّبَ رجال من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ حَنَقاً وغيظاً ، فأقام رسولُ الله ﷺ بمكة ثلاثاً)[1] .

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أنس: [أنَّ النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء ، وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضَرْباً يزيل الهام عن مقيله ويُذهل الخليل عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة ، بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ: خَلِّ عنه يا عُمَرُ فلهي أَسْرَعُ فيهم من نضح النَّبْل][2] .

ومضىٰ رسول الله ﷺ بأصحابه يرمل بهم حتىٰ أتمّ ثلاثة أشواط من الطواف لها رهبة وهيبة، وحقّق ما أراد من إظهار القوة حتىٰ اكتأب المشركون ، ثم تابع الأشواط ماشياً.

روىٰ مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: [فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمّىٰ قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلدُ من كذا وكذا][3] .

ولما انتهىٰ رسول الله ﷺ من الطواف سعىٰ بين الصفا والمروة ، فكانت حركته ضمن موكب أصحابه تنزل على نفوس المشركين كوقع الحديد.

يروي البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: [إنما سعىٰ النبي ﷺ بالبيت وبين الصفا والمروة لِيُرِيَ المشركين قوته][4] .

(1) انظر: «زاد المعاد» (3/ 371) ، وسيرة ابن هشام (2/ 371) مرسلاً.
(2) أخرجه الترمذي في الأدب (2847) وقال: حسن صحيح غريب. وله شواهد كثيرة تقويه.
(3) حديث صحيح. رواه مسلم (1266) ح (240) ، كتاب الحج ، باب استحباب استلام الركنين اليمانيين في الطواف ، دون الركنين الآخرين.
(4) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (3/ 376) ، وكذلك (7/ 392).

ولما فرغ من السعي قال وهو على المروة: هذا المنحر ، وكل فجاج مكة وطرقها منحر ، وكان قد وقف الهدي عند المروة فأمر بنحرها.

يروي الإمام مالك في الموطأ ، قال: [حدثني يحيىٰ عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال بمنىٰ: هذا المنحر وكل منىٰ منحر. وقال في العمرة: هذا المَنْحَرُ ، يعني المروة ، وكل فجاج مكة وطُرقها مَنْحَرٌ][1].

فنحر عند المروة ، ثم حلق وقلّده بذلك المسلمون ، ثم بعث ناساً من أصحابه إلى يأجج ليقيموا على السلاح ويأتي الآخرون ليقيموا مناسكهم ، ففعلوا. فلما مضىٰ الأجل أرسلت قريش إلى عليّ أن قل لصاحبك أن اخرج فقد مضىٰ الأجل.

يروي البخاري عن البراء قال: [فلما دخلها ومضىٰ الأجل أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضىٰ الأجل][2].

وكان عند دخوله ﷺ قد بعث جعفر بن أبي طالب إلى ميمونة بنت الحارث يخطبها إليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها العباس من رسول الله ﷺ ، فلما طلبوا منه الخروج قال لهم ـ كما يروي ابن إسحاق وموسىٰ بن عقبة ـ: (وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه. قالوا: لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا ، فخرج رسول الله ﷺ وخلَّف أبا رافع مولاه على ميمونة ، حتىٰ أتاه بها بسَرِف)[3].

فخرج رسول الله ﷺ بأصحابه وقد منّ الله عليه بالعمرة وإظهار الشوكة ، ولكن ما إن خرج إلا تبعته ابنة حمزة تناديه يا عم ، فحملتها فاطمة ، واختصم فيها علي وزيد وجعفر ، فقضىٰ بها النبي ﷺ لخالتها.

أخرج ذلك الإمام البخاري عن البراء قال: [فخرج النبي ﷺ فتبعتْه ابنةُ حمزة تنادي: يا عمّ. فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ، قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي ، وقال جعفر: ابنةُ عمي وخالتُها تحتي ، وقال زيد: ابنة أخي. فقضىٰ بها النبي ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم. وقال لعلي: أنت مني وأنا منك ، وقال لجعفر: أَشْبَهْتَ خَلْقي

---

(1) حديث صحيح. رواه مالك في الموطأ. وانظر صحيح سنن أبي داود (1705 ـ 1707).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2699) ـ كتاب الصلح.

(3) انظر سيرة ابن هشام (2/ 372). و«سرف» موضع قرب التنعيم.

وخُلُقي. وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا][1].

ثم خرج رسول الله ﷺ، وخلَّف أبا رافع مولاه على ميمونة حتىٰ أتاه بسرف، فبنىٰ بها رسول الله ﷺ هناك، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة في ذي الحجة.

وسميت هذه العمرة عمرة القضاء، لأن ذلك مشتق من المقاضاة وهي المصالحة التي كانت يوم الحديبية مع قريش. قال ابن القيم: (ومنها أنَّ المُحْصَرَ لا يجب عليه القضاءُ، لأنه ﷺ أمرهم بالحلق والنحر، ولم يأمر أحداً منهم بالقضاء، والعمرة من العام القابل لم تكن واجبة، ولا قضاء عن عُمرة الإحصار، فإنهم كانوا في عمرةِ الإحصار ألفاً وأربع مئة، وكانوا في عمرة القضية دون ذلك، وإنما سُمِّيت عمرةَ القضية والقضاء، لأنها العمرة التي قاضاهم عليها، فأُضيفت العُمرة إلى مصدر فعله)[2].

وتحقّق وعد الله لنبيّه والمسلمين، كما أخبرهم قبل عام في القرآن النازل من سورة الفتح: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. قال ابن هشام: (يعني خيبر).

وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [اللهم ارحم المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: اللهم ارحم المحلقين. قالوا: والمقصرين يا رسول الله! فلما كانت الرابعة قال: والمقصرين][3].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾. قال ابن كثير: (أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، فإنّ الشريعة تَشْتَمِلُ على شيئين: عِلْمٍ وعَمَلٍ، فالعلم الشرعي صحيح، والعمل الشرعيّ مقبول، فإخباراتُها حقٌّ وإنشاءاتها عدلٌ).

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. أي: على جميع الأديان ومناهج أهل الأرض.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾. قال الحسن: (شهد على نفسه أنه سيظهر دينه). والتقدير: وكفاه الله شهيداً. و﴿شَهِيدًا﴾ تمييز أو حال.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2699) ـ كتاب الصلح. وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (2/ 1190 ـ 1197) لتفصيل البحث.

(2) انظر: «زاد المعاد» (3/ 306 ـ 307)، وكتابي: السيرة النبوية (2/ 1026، 1191).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1727) ـ كتاب الحج، ورواه مسلم وأكثر أهل السنن.

قال القاسمي: (﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان أو الفتح أو المغانم كائن).

29. **قوله تعالىٰ:** ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآية: إثبات الرسالة للنبي عليه الصلاة والسلام، ونَعْتُ أصحابه الغرّ الكرام، وذِكْرُ صفتهم في التوراة والإنجيل والقرآن، وَوَعْدُهُ تعالىٰ عباده المؤمنين بالنصر والمغفرة والظهور على الطغاة اللئام.

فقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ﴾. إثبات للنبوة والرسالة بكلام جامع بديع.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾. إخبار عن صفة أتباعه عليه الصلاة والسلام، فهم أولو بأس وشدة عند مجالدة الكافرين، وأولو رحمة ورأفة بين بعضهم بعضاً. قال قتادة: (﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ ألقىٰ الله في قلوبهم الرحمة بعضهم لبعض). والآية كقوله تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54]. قال ابن كثير: (وهذه صفةُ المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً بَرّاً بالأخيار، غَضُوباً عَبُوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾ [التوبة: 123]).

وفي الصحيحين والمسند عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: [ترىٰ المؤمنين في تراحُمهم وتوادِّهم وتعاطُفهم كمَثَلِ الجَسَدِ إذا اشتكىٰ عُضْواً تداعىٰ له سائر جسدِه بالسَّهر والحُمَّى][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6011) ـ كتاب الأدب، وأخرجه مسلم (2586) ـ كتاب البر والصلة، ورواه أحمد في المسند (4/ 270).

وفي الصحيحين والمسند وجامع الترمذي عن أبي موسىٰ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [«المؤمِنُ للمؤمِنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً»، وشبك بين أصابعه][1].

وقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

قال قتادة: (يقول: تراهم ركعاً أحياناً لله في صلاتهم سجداً أحياناً ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: يلتمسون بركوعهم وسجودهم وشدتهم على الكفار ورحمة بعضهم بعضاً، فضلاً من الله، وذلك رحمته إياهم بأن يتفضّل عليهم فيدخلهم جنته ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾ يقول: وأن يرضىٰ عنهم ربهم).

فوصفهم الله تعالىٰ بكثرة العمل وكثرة الصلاة، التي هي عمود الدين، وخير موضوع. كما أخرج الطبراني بسندحسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [الصلاةُ خيرُ موضوع، فمن استطاع أن يَستكثِرَ فَلْيَسْتَكْثِر][2].

كما وصفهم باحتساب ثواب الأعمال عند الله، وأملهم بذلك الجنة وما فيها من الملذات والخيرات والرزق الوفير، ورضوان من الله أكبر من كل شيء.

ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [إنَّ الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لَبَّيْكَ ربَّنا وسَعْدَيْكَ والخيرُ في يَدَيْكَ، فيقول: هَلْ رضيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ يا رب وقد أعْطَيتنا ما لمْ تُعْطِ أحداً مِنْ خَلْقِكَ؟ فيقول: ألا أُعْطيكم أَفْضَلَ من ذلك؟ فيقولون: يا ربِّ، وأيُّ شَيْءٍ أفضلُ مِنْ ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضواني فلا أسْخَطُ عليكم بعده أبداً][3].

وقوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾. فيه أقوال متقاربة متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة). وقال عطية: (مواضع السجود من وجوههم يوم القيامة أشد وجوههم بياضاً). وقال مقاتل: (النور يوم القيامة). وقال الحسن: (بياضاً في وجوههم يوم القيامة).

2 ـ وقال مجاهد، عن ابن عباس: (أما إنه ليس بالذي ترون، ولكنه سيما الإسلام

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2446) ـ كتاب المظالم، باب نَصْر المظلوم، ورواه مسلم (2585)، والترمذي (1928)، وأحمد (4/ 405)، وابن حبان (231).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في الأوسط. انظر تخريج الترغيب (1/ 145)، وصحيح الجامع الصغير (3764) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7518) ـ كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة.

وسَحْنته وسَمْته وخشوعه). وقال مجاهد: (الخشوع والتواضع).

3 ـ وعن شمر عن عطية قال: (تهيّج في الوجه من سهر الليل).

وقال سعيد بن جبير: (ثرىٰ الأرض، وندىٰ الطهور). وقال عكرمة: (هو أثر التراب). وقال السدي: (الصلاة تُحَسِّنُ وجوههم). وقال بعض السلف: (من كَثُرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار). وقال بعضهم: (إنَّ للحسنة نوراً في القلب، وضياءً من الوجه، وسَعَةً في الرزق، ومَحَبَّةً في قلوب الناس).

والخلاصة: أنَّ لكثرة السجود علامة إشراق في الوجه، وقد تمَيّز الصحابة رضوان الله عليهم بتلك السمة الباهرة لكثرة ما هم فيه من الصلاة وطول السجود والقيام. قال الإمام مالك: (بلغني أن النصارىٰ كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بَلَغنا).

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الهَدْيَ الصالحَ والسَّمتَ الصالحَ والاقتصاد جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة][1].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. أي: بهذه الأوصاف الرفيعة ذُكروا في التوراة.

وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾. أي: ومثلهم في إنجيل عيسىٰ كزرع أخرج نباته فهو يترعرع بكثرة مذهلة.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾: سنبله حين يتسلع نباته عن حباته). وقال قتادة: (أخرج نباته. قال: هذا مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل، قيل لهم: إنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، منهم قوم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر). وقال مجاهد: (﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾: ما يخرج بجنب الحقلة فيتم وينمىٰ). وقال ابن زيد: (أولاده، ثم كثرت أولاده).

وأما قوله: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ يعني: فقواه. قال مجاهد: (فشده وأعانه). وقال ابن زيد: (﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: اجتمع ذلك فالتفّ، وكذلك المؤمنون خرجوا وهم قليل ضعفاء، فلم

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (1/ 296)، وأبو داود في السنن (4776) ـ كتاب الأدب، باب في الوقار. انظر صحيح سنن أبي داود (3996).

يزل الله يزيد فيهم ، ويؤيدهم بالإسلام ، كما أيَّد هذا الزرع بأولاده ، فآزره ، فكان مثلاً للمؤمنين).

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ .

أي: فلما آزره سبحانه غلظ ذلك الزرع فاستوىٰ على سوقه (والسوق: جمع ساق) فصار هذا الزرع الذي استغلظ وصلب وحسن نباته يعجب الذين زرعوه وبذلوا الجهد في بذاره وتثبيت جذوره ، وهو مثل يراد به النبي ﷺ والرعيل الأول الذين كانوا أساس هذه الدعوة ، فما زالوا في جهاد وعراكٍ وبذل وتضحية حتىٰ أنشأ الله بهم جيلاً ضخماً وجيشاً كبيراً ليغيظ بهم الكفار.

قال ابن زيد: (﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ قال: يعجب الزرّاع حُسنه ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالمؤمنين ، لكثرتهم ، فهذا مثلهم في الإنجيل).

ذكر الخطيب ـ أبو بكر ـ عن أبي عروة الزبيريّ من ولد الزبير قال: (كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ حتى بلغ ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ . فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية).

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: [لا تَسُبُّوا أصحابي ، فَلَوْ أنَّ أحدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما بَلَغ مُدَّ أحَدِهم ولا نصيفَهُ][1] .

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ . قال النسفي: (لأن الكفار إذا سمعوا بما أعد لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك). و﴿من﴾ في قوله ﴿مِنْهُم﴾ لبيان الجنس. والمعنىٰ: وعد الله هؤلاء الأخيار من الصحابة الذين آمنوا وعملوا الصالحات مغفرة لذنوبهم وثواباً عظيماً ورزقاً كريماً ينعمون به في الآخرة ، وعْدُ صِدق لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر ، ومن أصدق من الله قيلاً.

تم تفسير سورة الفتح

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

الاثنين 4 ـ رجب ـ 1426 هـ

الموافق 8ـ آب ـ 2005 م

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3673) ـ كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ. ورواه مسلم نحوه.

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ الفتح المبين بيعة الرضوان يوم الحديبية.

2 ـ النَّصْرُ مع الصَّبر، والفرجُ مع الكرب، وإنّ مع العسر يسراً.

3 ـ إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمان، وكلتا يديه يمين، الذي يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا.

4 ـ كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، وكانت بيعة على الصبر أو الموت.

5 ـ البور في لغة العرب: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه، وقوم بور: هلكىٰ.

6 ـ تجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، في النحر.

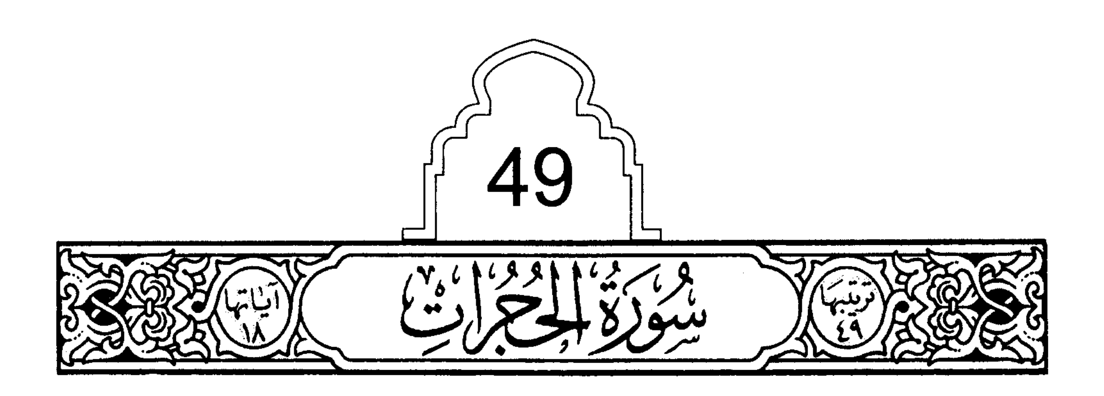
7 ـ السُّنَةُ الرَّمَلُ في الأشواط الثلاثة الأولىٰ من طواف العمرة أو الحج.

8 ـ المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُهُ بعضاً. ومثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمّىٰ.

9 ـ الصلاة خير موضوع، فمن استطاع أن يستكثِر فليستكثر.

10 ـ إنّ الهدي الصالحَ والسَّمت الصالح والاقتصاد جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (18).

موضوع السورة

ذمُّ مناداة الرسول من وراء الحُجرات
وتوجيه المؤمنين لأحسن الأخلاق والعادات

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ ذِكْرُ بعض الآداب في مخاطبة النبي ﷺ ، كخفض الصوت والتبجيل والاحترام.

2 ـ ذمّ بعض الأعراب في سوء مناداتهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتوجيههم لِحُسْنِ الأدب الذي عليه الأصحاب الكرام.

3 ـ توجيه المؤمنين للتثبت من صحة الأخبار ، لئلا يقعوا في الندم أو ظلم الأخيار.

4 ـ امتنان الله تعالى على المؤمنين بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وبأن حبَّبَ إلى قلوبهم الحق والإيمان.

5 ـ الأمر بالمبادرة بالإصلاح بين المؤمنين ، والأخذ على يد المخطئ والله يحب المقسطين.

6 ـ تأكيد الأخوة بين المؤمنين ، وتحريم السخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة للمسلمين.

7 ـ الدعوة للتعارف وحفظ الأنساب ، والتميز يكون بالتقوى لا بالأحساب.

8 ـ الفرق بين الإسلام والإيمان عند التخصيص ، فالمؤمنون برهنوا على صدقهم ويقينهم بالجهاد بالأموال والأنفس وبذل الغالي والنفيس.

9 ـ المنُّ لله وحده في هداية عباده للإيمان ، فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمان.

10 ـ الله تعالى هو المتفرد بعلم الغيب ، وهو البصير بدقائق أعمال العباد بلا ريب.



بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ 3. **قوله تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)﴾.

في هذه الآيات: ذكر بعض الآداب التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون في معاملتهم رسول الله ﷺ كالتوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، وخفض الصوت عن صوته عليه الصلاة والسلام.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. قال ابن عباس: (لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة). وقال: (نُهوا أن يتكلّموا بين يدي كلامه). وقال مجاهد: (لا تَفْتَاتُوا[1] على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيَ الله تعالى على لسانه). وقال الضحاك: (لا تقضوا أمراً من دون الله ورسوله من شرائع دينِكم). وقال ابن زيد: (لا تقطعوا الأمر دون الله ورسوله).

أخرج البخاري عن ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبرهم: [أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أَمِّرْ القعقاع بن معبد بن زرارة. فقال عمر: بل أمِّر الأقرعَ بن حابس. قال أبو بكر: ما أراد إلا خلافي. قال عمر: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ـ حتى انقضت][2].

---

(1) افتات الكلام: أي ابتدعه، كذا في كلام العرب.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4847)، والواحدي (752) من حديث عبد الله بن الزبير.

والخلاصة: قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أصل في وجوب الانقياد لرسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وعدم الخروج على منهاجه برأي أو تأويل أو شبهة.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. أي: وخافوا الله أيها المؤمنون أن تتجاوزوا حدودكم وتتقدموا على قول نبيكم وسنته ونهجه، فإن الله سميع لأقوالكم عليم بأعمالكم وبكل شيء.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية. أدب رفيع آخر أدَّبَ الله تعالى به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم فوق صوت نبيهم ﷺ في حضرته.

أخرج البخاري والترمذي عن نافع بن عمر، عن أبي مُلَيْكَةَ قال: [كادَ الخَيِّران أن يَهْلِكا، أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ رَفَعا أصواتَهُما عند النبي ﷺ حين قَدِمَ عليه ركبُ بني تميم، فأشار أحدُهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخرُ برجُل آخَر ـ قال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خِلافي. قال: ما أردتُ خِلافَكَ. فارتفعت أصواتُهما في ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الآية. فما كان عمرُ يُسمِعُ رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهِمَه، ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر رضي الله عنه][(1)].

وفي صحيح البخاري عن موسى بن أنس عن أنس بن مالك: [أن النبي ﷺ افتقد ثابتَ بن قيس فقال رجلٌ: يا رسول الله، أنا أعلمُ لك عِلْمَهُ. فأتاه فوجده في بيته مُنكِّساً رأسَهُ، فقال له: ما شأنُكَ؟ فقال: شَرٌّ، كان يَرْفَعُ صَوْتَهُ فوقَ صوتِ النبي ﷺ، فقد حَبِطَ عَمَلُهُ، فهو من أهل النار، فأتى الرجلُ النبيَّ ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا ـ قال موسى: فرجَعَ إليه المَرَّةَ الآخِرَةَ ببشارةٍ عظيمة فقال: اذهب إليه فقُل له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنَّكَ من أهل الجنة][(2)].

ورواه أحمد على شرط الشيخين عن ثابت، عن أنس قال: [لما نزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ـ وكان ثابت بن قيس بن الشمَّاسِ رفيعَ الصوتِ فقال: أنا الذي كنتُ أرفَعُ صوتي على

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4845)، والترمذي (3266)، والنسائي (8/ 226) عن ابن أبي مليكة عن ابن الزبير. وقوله «ولم يذكر ذلك عن أبيه» المراد جده لأمه أسماء.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4846) ـ كتاب التفسير، وانظر كذلك (3613).

رسول الله ﷺ حَبِطَ عملي ، أنا من أهل النار. وجلسَ في أهله حزيناً ، ففقدَه رسول الله ﷺ فانطلقَ بعض القوم إليه فقالوا له: تَفَقَّدك رسول الله ﷺ مالك؟ قال: أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجْهَرُ له بالقول ، حَبِطَ عملي ، أنا من أهلِ النار. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال. قال: لا ، بل هو من أهل الجنة. قال أنس: فكُنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة. فلما كان يومُ اليمامة كان فينا بعضُ الانكشاف ، فجاءَ ثابتُ بن قَيس بن شمَّاس وقد تَحَنَّطَ ولبِسَ كفَنَهُ ، فقال: بئسما تُعَوِّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قُتِلَ][1].

وقوله: ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾. قال مجاهد: (لا تنادوه نداء ، ولكن قولاً ليناً يارسول الله). وعن قتادة قال: (كانوا يجهرون له بالكلام ، ويرفعون أصواتهم ، فوعظهم الله ، ونهاهم عن ذلك).

وقال الضحاك: (هو كقوله: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: 63]. نهاهم الله أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً ، وأمرهم أن يشرِّفوه ويعظِّموه ويدعوه إذا دعوه باسم النبوة).

وقوله: ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾. قال ابن كثير: (أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشيةَ أن يغضبَ من ذلك ، فيغضب الله تعالى لِغَضَبِهِ ، فَيُحبِطَ الله عملَ من أغضبه وهو لا يدري).

أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الرجل ليتكلَّمُ بالكلمةِ لا يَرى بها بأساً ، يَهْوي بها سَبْعين خريفاً في النار][2].

وأخرج الترمذي وابن ماجة بإسناد صحيح عن بلال بن الحارث المزني صاحب رسول الله ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنَّ أحَدَكُم ليتكلَّم بالكلمة من رضوان الله ما يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ فيكتبُ اللهُ له بها رضوانه إلىٰ يوم يَلْقاهُ ، وإنَّ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 137) ، وإسناده على شرط البخاري ومسلم. ورواه مسلم نحوه (119) ح (187) ـ (188).
(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (3970) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (1884).

أحدَكُم ليتكلّمُ بالكلمة من سَخَطِ الله ما يَظُنُّ أنْ تبلُغَ ما بَلَغَتْ فيكتب الله عليه بها سَخطَهُ إلى يوم يلقاه][1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

قال ابن عباس: (طهّرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى). وقال قتادة: (أخلص الله قلوبهم فيما أحبّ). وقال الأخفش: (اختصها للتقوى).

والمعنى: إن الذين يخفضون أصواتهم في مجلس رسول الله ﷺ تعظيماً له أولئك الذين أخلص الله قلوبهم فيما أحب، وجعلها أهلاً ومحلاً لاستقرار التقوى. ثم إنه في الآخرة ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

4 ـ 5. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: نعْتُ سوء أدب بعض الأعراب القساة في مناداتهم النبي عليه الصلاة والسلام، وتوجيههم لحسن الأدب الذي عليه الصحابة الكرام.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. ذمٌّ من الله عز وجل لبعض الأعراب الأجلاف الذين كانوا ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحُجرات، وهي بيوت نسائه، يرفعون أصواتهم وينادون: يا محمد اخرج إلينا، والحجرات: جمع حجرة، والمراد البيت.

أخرج الترمذي والنسائي بسند صحيح عن البراء: [في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنَّ حَمْدي زيْنٌ وذَمِّي شينٌ. فقال: ذاك الله عز وجل][2].

وأخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن الأقرع بن حابس: [أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحُجُرات فقال: يا محمد ـ وفي

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (3969)، وانظر صحيح سنن الترمذي (1888) ـ أبواب الزهد، باب ما جاء في قِلَةِ الكلام.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع (3267)، والنسائي في «التفسير» (535)، والطبري (31676)، (31677)، وإسناده حسن صحيح.

رواية: يا رسول الله ـ فلم يُجبه ، فقال: يا رسول الله ﷺ ، إنَّ حَمْدي لَزينٌ. وإنَّ ذَمِّي لَشينٌ. فقال: ذاك الله ـ عزَّ وجلّ ـ][1].

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. إرشاد منه سبحانه إلى الأدب الذي كان ينبغي أن يتأدب به هؤلاء الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات. قال القرطبي: (أي لو انتظروا خروجك لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم. وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه ، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. توجيه منه سبحانه إلى التوبة والإنابة لتكفير الزلل والعيوب ، فإنه تعالى يغفر ويستر وهو الغفور السِّتير.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن يعلى بن أمية ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى حَيِيٌّ ستير ، يحب الحياء والسِّتر][2].

6 ـ 8. **قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)﴾.

في هذه الآيات: توجيهُ الله تعالى عباده المؤمنين للتثبت من صحة الأخبار ، لئلا يقعوا في الندم أو الظلم للمؤمنين الأخيار ، وامتنانُه تعالى عليهم بهذا النبي المختار.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾. أَمْرٌ بالتثبّت في خبر الفاسق وعدم اعتماده إلا بعد التحقق منه. وقد نزلت هذه الآية في الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق.

فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند حسن عن عيسى بن دينار قال: حدثني أبي

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 488) ، (6/ 393) ، والطبري (31679) ، والطبراني (878) وإسناده على شرط البخاري ومسلم ، وصرح أبو سلمة بالتحديث عن الأقرع.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4012). وانظر صحيح سنن أبي داود (3387).

أنه سمع الحارثَ بن ضِرار[1] الخُزاعي يقول: [قدِمْتُ على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام ، فَدَخلتُ فيه وأقررتُ به. ودعاني إلى الزكاة فأقررتُ بها ، وقلت: يا رسولَ الله ، أرجِعُ إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداءِ الزكاة ، فمن استجاب لي جمعتُ زكاتَه. ويُرسِلُ إليَّ رسولُ الله رسولاً لإِبَّان كذا وكذا لِيأتِيَكَ ما جمعتُ من الزكاة. فلما جمعَ الحارثُ الزكاةَ ممن استجاب له ، وبلغ الإبَّانُ الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعثَ إليهِ ، احتبسَ عليه الرسول فلم يأتِهِ ، فظن الحارِثُ أنه قد حدثَ فيه سَخْطَةٌ من الله ورسوله ، فدعا بِسَرَوَاتِ قومه فقال لهم: إن رسولَ الله ﷺ كان وَقَّتَ لي وقتاً يُرسِلُ إليَّ رسوله لِيقبضَ ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ الخُلْفُ ، ولا أرى حَبْسَ رسولِه إلا مِنْ سَخْطَةٍ. فانطلقوا فنأتيَ رسول الله ﷺ. وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليدُ حتى بلغ بعضَ الطريق فَرِق ـ أي: خاف ـ فرجَع فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله ، إنَّ الحارثَ منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله ﷺ البعثَ إلى الحارث ، وأقبل الحارثُ بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصلَ عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا: هذا الحارثُ. فلما غشيهم قال لهم: إلى مَنْ بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إنّ رسول الله ﷺ بعثَ إليكَ الوليدَ بن عُقبة ، فزعم أنك منعتَه الزكاة وأردت قتله. قال: لا ، والذي بعثَ محمداً بالحق ما رأيته بَتَّةً ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: منعتَ الزكاة وأردتَ قتل رسولي؟ قال: لا ، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلتُ إلا حين احتَبَسَ عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله ، قال: فنزلت الحجرات: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ إلى هذا المكان ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾][2].

قلت: ويبدو أن سبب تصرف الوليد بن عقبة بتلك الطريقة هو سماعه بخروجهم للقائه ، فظنهم يريدون قتله ، وإنما أرادوا استقباله. فلنستمع لرواية ابن إسحاق وفيها تفصيل لما حدث ، وتصلح شاهداً للحديث السابق.

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان: [أن رسول الله ﷺ بعث إليهم بعد

(1) هو والد جويرية التي تزوجها رسول الله ﷺ ، وكان لزواجه منها الأثر الكبير في تأليف قلوب قومها.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 279) و(3/ 488) ورجاله ثقات إلا دينار الكوفي مقبول ، لكن له شواهد كثيرة تقويه إلى الحسن لغيره. وأخرجه الطبراني (878).

إسلامهم الوليدَ بن عقبة بن أبي معيط ، فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم هابهم ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره أن القوم قد همّوا بقتله ، ومنعوه ما قِبَلهم من صدقتهم ، فأكثر المسلمون في ذكر غَزْوهم ، حتى همَّ رسول الله ﷺ بأن يغزوهم ، فبينا هم على ذلك قدمَ وفدُهم على رسول الله ﷺ ، فقالوا: يا رسول الله ، سمعنا برسولك حين بعثته إلينا ، فخرجنا إليه لِنُكْرِمَه ، ونؤدّي إليه ما قِبَلنا من الصدقة ، فانشمر راجعاً ـ أي جدّ وأسرع بالرجوع ـ ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله ، والله ما جئنا لذلك ، فأنزل الله تعالى فيه وفيهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ . . . إلى آخر الآية][1].

وقوله: ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ . قال ابن جرير: (فتبينوا لئلا تصيبوا قوماً برآء مما قذفوا به بجناية بجهالة منكم فتندموا على إصابتكم إياهم).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [إياكم والظَّنَّ ، فإن الظَّنَ أكذَبُ الحديث ، ولا تحسَّسُوا ، ولا تجسَّسُوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغَضُوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً][2].

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ . أي: واعلموا ـ معشر المؤمنين ـ أن فيكم رسول الله فاحذروا أن تفتروا الكذب بين يديه فإن الله يخبره أخباركم ويعرفه أنباءكم. ولو كان رسول الله ﷺ يعمل في الأمور بآرائكم ويطيعكم فيما تقولون له لنالكم بذلك «العنت» أي الشدة والمشقّة.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي نضرة قال: [قرأ أبو سعيد الخدري: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ . قال: هذا نبيكم يوحى إليه. وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لَعَنِتوا ، فكيف بكم اليوم][3].

وقول: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ . أي: حسَّن الإيمان في قلوبكم فآمنتم وأقبلتم على الحق. قال القرطبي: (هذا خطاب للمؤمنين المخلصين الذين لا يكذبون النبي ﷺ ولا يخبرون بالباطل ، أي جعل الإيمان أحبّ الأديان

---

(1) انظر سرية ابن هشام (2/ 296) ، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (871 ـ 873).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2563) ـ كتاب البر والصلة. باب تحريم الظن والتجسس. . .
(3) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي (2607) ـ كتاب التفسير ـ سورة الحجرات ـ آية (7).

إليكم ، ﴿ وَزَيَّنَهُۥ﴾ بتوفيقه ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي حسّنه إليكم حتى اخترتموه).

وقوله: ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ ﴾ . قال ابن عباس: (يريد به الكذب خاصة). وقيل: كل ما خرج عن الطاعة. قال النسفي: (﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ وهو تغطية نعم الله وغمطها بالجحود ﴿ وَٱلْفُسُوقَ﴾ وهو الخروج عن محجة الإيمان بركوب الكبائر ﴿ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ وهو ترك الانقياد بما أمر به الشارع).

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ . الرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه ، من «الرشادة» وهي الصخرة. قال القاسمي: (﴿ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الموصوفون بمحبة الإيمان ، وتزينه في قلوبهم ، وكراهتهم المعاصي ﴿ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾» أي السالكون طريق الحق).

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والنسائي في «الكبرى» بسند صحيح عن عُبيد الله بن رفاعة عن أبيه قال: [لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ: استووا حتىٰ أثني على ربي ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال: اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسطَ لما قبضت ، ولا هادي لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك النعيمَ يوم العَيْلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدّون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق][1] .

وقوله تعالى: ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ . قال ابن كثير: (أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ، أي:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 424) ، ورجاله رجال الصحيح. وأخرجه النسائي في «الكبرى» (10445) ، وانظر كتابي: السيرة النبوية (2/ 740) لتفصيل الموقف.

عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، حكيم في أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره).

9 ـ 10. **قوله تعالى**: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالى عباده المبادرة بالإصلاح بين المسلمين الباغين بعضهم على بعض ، والأخذ على يد المخطئ منهم حتى يفيء إلى أمر الله والله يحب المقسطين ، ويحب المؤمنين أن يكونوا إخوة متسامحين متراحمين.

فقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أنس رضي الله عنه قال: [قيل للنبي ﷺ: لو أَتَيْتَ عَبْدَ الله بنَ أُبيٍّ ، فانطَلَقَ إليه النبي ﷺ ورَكِبَ حماراً فانطلق المسلمون يمشون معه ـ وهي أرض سَبِخَةٌ ـ فلما أتاه النبي ﷺ فقال: إليك عني ، والله لقد آذاني نتنُ حمارِكَ ، فقال رجل من الأنصار مِنهم: والله لحِمارُ رسولِ الله ﷺ أطْيَبُ ريحاً منكَ ، فَغَضِبَ لعبد الله رَجُلٌ من قَوْمِهِ فشتما[1] فغضِبَ لِكُلٍّ واحد منهما أصحابُهُ ، فكانَ بينهما ضَرْبٌ بالجريد والنِّعال والأيدي ، فبلغنا أنها نزلت ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9]][2].

وروى البخاري عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ليس الكذَّابُ الذي يُصلح بين الناس فَيَنْمي خيراً أو يقولُ خيراً][3].

وقد جاء فضل الإصلاح بين المسلمين في أحاديث كثيرة ، منها:

---

(1) أي شتم كل واحد منهما الآخر ، وفي رواية في غير الصحيحين (فشتمه).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2691) ـ كتاب الصلح ، وأخرجه مسلم (1799) ، وأحمد (3/ 157) ، (3/ 219) ، وأخرجه أبو يعلى (4083).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2692) ـ كتاب الصلح. باب: ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس.

الحديث الأول أخرج البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه: [أنَّ أهْلَ قُباءٍ اقتتلوا حتى تَرَامَوْا بالحجارة، فَأُخْبِرَ رسولُ الله ﷺ بذلك فقال: اذهبوا بنا نُصْلِحْ بَيْنَهُم][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [كُلُّ سُلامى من الناس عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يوم تطلُعُ فيه الشمس، يَعْدِلُ بين الناس صدقة][2].

الحديث الثالث: أخرج أحمد والبخاري وأبو داود عن أبي بَكْرَةَ: أن رسول الله ﷺ خَطَبَ يوماً ومعه على المنبر الحسنُ بن علي، فجعل ينظرُ إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: [إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ، ولَعَلَّ الله أن يُصْلِحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين][3].

وقد أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة، وحجز به الفتنة أن تستمر لستأصل شوكة المسلمين.

وقوله: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾.

قال ابن عباس: (فإن الله سبحانه أمر النبي ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحقّ على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقرّوا بحكم الله).

وفي الصحيحين وسنن الترمذي ـ واللفظ له ـ عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: [انْصُر أخاكَ ظالماً أو مظلوماً، قيل: يا رسول الله نصرته مظلوماً! فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تكفُّهُ عن الظُّلْمِ، فذاكَ نَصْرك إيّاه][4].

وقوله: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾.

أي: فإن رجعت الفئة الباغية ونزلت عند حكم الله فأصلحوا بينهما بالإنصاف

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2693) ـ كتاب الصلح. وانظر كذلك الحديث (684).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2707) ـ كتاب الصلح. وانظر كذلك (2891)، (2989).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2704)، وأبو داود (4662)، وأحمد (5/ 44)، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2443)، (2444)، (6952)، وأخرجه مسلم نحوه، وانظر صحيح سنن الترمذي (1839) ـ أبواب الفتن، باب (59).

والعدل وميزان القسط ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ أي: فيجازيهم أحسن الجزاء.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ المقسطين، عند الله، على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكِلْتا يَدَيْهِ يمين، الذين يَعْدِلون في حُكْمهم وأهْلِيهم وما وَلُوا][1].

وله شاهد عند النسائي بسند جيد عن عبد الله بن عمرو ـ أيضاً ـ أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمن، بما أقسَطُوا في الدنيا][2].

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾. أي: جميع المؤمنين إخوة في الدين.

وقوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. قال ابن جرير: (ومعنى الأخوين في هذا الموضع: كل مقتتلين من أهل الإيمان).

والمعنى: احرصوا ـ أيها المؤمنون ـ على سلامة صرح الأخوّة بينكم، فأصلحوا بين المختصمين، وخافوا الله بإقامة العدل والقسط لتنالكم رحمته ومغفرته.

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث كثيرة في آفاق هذا المعنى، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: [المسلمون كَرَجُلٍ واحِدٍ، إن اشتكى عَيْنُهُ، اشتكى كُلُّهُ، وإن اشتكى رأسُهُ، اشتكى كُلُّهُ].

وفي لفظ: [مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عُضْوٌ، تداعى له سائِرُ الجسد بالسَّهر والحُمَّى][3].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمِنُ للمؤمِن كالبُنيان، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1827) ـ كتاب الإمارة، وأخرجه النسائي في «الكبرى» (6/ 300)، وأحمد (2/ 159)، (2/ 203)، وابن حبان (4485).

(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي (5917 ـ 3/ 460)، وإسناده صحيح.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2586) ح (66)، ح (67) ـ كتاب البر والصلة.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2446)، ومسلم (2585)، والترمذي (1928)، وأخرجه أحمد في المسند (4/ 405) من حديث أبي بردة.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد عن سهل بن سعد الساعدي يحدِّثُ عن رسول الله ﷺ قال: [إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألَمُ المؤمن لأهل الإيمان كما يألَمُ الجَسَدُ لما في الرأس][1].

الحديث الرابع: أخرج مسلم وأبو داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْ عَبْدٍ مُسْلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بِمثل][2].

11 ـ 12. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (11) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (12)﴾.

في هذه الآيات: توجيهٌ من الله العظيم عباده المؤمنين ، لاجتناب عادات القوم الفاسقين ، من السخرية فيما بينهم واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة وغير ذلك من العادات التي تسخط الله ، والله غفور رحيم.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾. نهي عن السخرية بالناس أو احتقارهم والاستهزاء بهم. قال ابن جرير: (إن الله عمَّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية ، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره ولا لذنب ركبه ولا لغير ذلك).
قال ابن كثير: (فإنه قد يكون المحتقر أعظمَ قدراً عند الله تعالى وأحبَّ إليه من الساخر منه المحتقِر له ، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ ، فنصَّ على نَهْي الرجال ، وعطفَ بنهي النساء).

---

(1) حسن لغيره. أخرجه أحمد في المسند (5/ 340) ، وإسناده حسن في الشواهد.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2732) ـ كتاب الذكر والدعاء ، وأخرجه كذلك (2733) ، ورواه أبو داود في السنن (1534) من حديث أبي الدرداء.

قال القرطبي: (﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السّخرية منهم أكثر).

ومن صحيح السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث ، منها:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً: [الكبر بطرُ الحق وغَمْطُ الناس][1]. والمراد احتقارهم واستصغارهم.

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عائشة قالت: [حَكَيت للنبي ﷺ رجلاً ، فقال: ما يسرني أني حَكَيت رجلاً وأن لي كذا وكذا. قالت فقلت: يا رسول الله ، إن صفية ـ وقالت بيدها ـ هكذا ، يعني أنها قصيرة. فقال: لقد مزجت بكلمةٍ لو مُزج بها البحر لمزج][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني وابن عساكر بسند جيد عن شقيق قال: [لبّى عبد الله رضي الله عنه على الصفا ، ثم قال: يا لسان قل خيراً تغنم ، اسكت تسلم ، من قبل أن تندم ، قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذا شيء أنت تقوله أم سمعته؟ قال: لا ، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: أكثر خطايا ابن آدم في لسانه][3].

وقوله: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾. قال مجاهد: (لا تطعنوا). وقال قتادة: (ولا يطعن بعضكم على بعض).

قلت: واللمز في لغة العرب العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها. ورجل لَمّاز ولُمَزَة: أي عيّاب. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾.

قال الطبري: (اللَّمْزُ باليد والعين واللسان والإشارة. والهَمْزُ لا يكون إلا باللسان). وقوله: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، فمن قتل مسلماً كأنما قتل نفسه ، لأن المؤمنين كنفس واحدة. فيكون المعنى: ولا يعب بعضكم بعضاً.

وقوله: ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾. أي: لا تداعوا بالألقاب. قال أبو جعفر: (والنبز

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (91) ـ كتاب الإيمان ـ باب تحريم الكبر وبيانه. وأخرجه أبو داود في السنن (4091) ، والترمذي (1999).

(2) حسن صحيح. أخرجه الترمذي (2502) ، (2503) ، ورجاله رجال الصحيح.

(3) حديث صحيح. أخرجه الطبراني (3/ 78/ 1 ـ 2) ، وابن عساكر (15/ 389/ 1) ، وإسناده على شرط مسلم. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (534).

واللقب بمعنى واحد ، يجمع النبز: أنبازاً ، واللقب ألقاباً). قال ابن عباس: (التنابز بالألقاب أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها ، وراجع الحق ، فنهى الله أن يعير بما سلف من عمله). وقال ابن زيد: (تسميته بالأعمال السيئة بعد الإسلام زان فاسق).

أخرج أحمد وابن ماجة بسند صحيح عن أبي جَبيرَة بن الضحاك قال: [فينا نزلت ، معشر الأنصار: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. قدم علينا النبي ﷺ ، والرجل منا له الاسمان والثلاثة. فكان النبي ﷺ ، ربما دعاهم ببعض تلك الأسماء. فيقال: يا رسول الله! إنه يغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾][1].

واختار ابن جرير أن الآية عامة في كل تلاعب بالألقاب يسيء إلى الآخرين فقال: (والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة ، وعمّ الله بنهيه ذلك ولم يخصص به بعض الألقاب دون بعض ، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه أو صفة يكرهها).

وقوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾. الاسم هنا بمعنى الذكر والصفة ، والتقدير: بئس الذكر اللامزين والمتنابزين أن يذكروا بالفسق بعد الإيمان. قال النسفي: (وقوله بعد الإيمان استقباح للجمع بين الإيمان وبين الفسق الذي يحظره الإيمان).

وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. قال القرطبي: (﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ أي عن هذه الألقاب الذي يتأذى بها السامعون ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

تحذير من الله سبحانه عباده المؤمنين من بعض الظن ، لما قد يترتب عليه من ظلم وضياع حقوق أو إساءة وغيبة ، في حين أذن لهم بظن الخير ، أن يظن بعضهم ببعض خيراً ، كما قال سبحانه في سورة النور: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾. فتوجه النهي في آية الحجرات إلى ظن الشر والسوء.

قال ابن عباس: (نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن شراً). فإن ظن المؤمن بأخيه المؤمن الشر لا الخير فقد أثم ، لأن الله نهاه عن فعل ذلك.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 260) ، وأبو داود (4962) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (330) ، وابن ماجة (3741). وانظر صحيح ابن ماجة (3015).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [إياكم والظنَّ ، فإن الظَّنَ أكذب الحديث][1].

وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. قال ابن عباس: (نهى الله المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن). وقال مجاهد: (خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله). وقال قتادة: (هل ترون ما التجسس أو التجسيس؟ هو أن تتبع ، أو تبتغي عيب أخيك لتطلع على سره).

والتجسُّس: البحث عما يُكتم عنك ، والتحسّس: طلب الأخبار والبحث عنها. والتجسّس يطلق غالباً في الشر ، ومنه الجاسوس. وأما التحسّس فيكون غالباً في الخير ، كما قال تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 87]. وقد يستعمل كل منهما في الشرِّ.

كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تحاسَدُوا ، ولا تباغضوا ، ولا تَحَسَّسُوا ، ولا تجسَّسُوا ، ولا تناجشوا ، وكونوا عباد الله إخواناً][2].

وفي لفظ: [لا تهجُروا ولا تدابروا ، ولا تحسَّسوا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً].

قال الأوزاعي: (التجسّس: البحث عن الشيء. والتحسّس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون ، أو يتسَمَّع على أبوابهم. والتدابُر: الصَّرْمُ)[3].

ومن صحيح السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» ، وأبو داود في السنن بسند صحيح عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إنّك إن اتَّبَعْتَ عَوْرات الناس أفْسَدْتَهم أو كِدْتَ أنْ تُفْسِدَهم][4].

الحديث الثاني: أخرج أحمد وأبو داود والحاكم بسند رجاله ثقات عن جبير بن

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2563) ـ كتاب البر والصلة. باب تحريم الظن والتجسس. . .
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2563) ح (30) ـ كتاب البر والصلة. وكذلك ح(29).
(3) رواه ابن أبي حاتم عنه. انظر تفسير ابن كثير عقب الحديث (6235) ـ سورة الحجرات.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (248) ، وأبو داود (4888) ، والطبراني (19/ 890) ، وأبو نعيم (6/ 118) ، وصححه ابن حبان (5760).

نفير ، وكثير بن مرّة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الأمير إذا ابتغى الرِّيبَةَ في الناس أفسَدَهم][1] .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن زيد بن وهب قال: [أُتِيَ ابن مسعود فقيل: هذا فلان تَقْطُرُ لحيته خمراً! فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسّس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذْ به][2] .

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ . نهي عن الغيبة ، وهو أن تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه][3] .

وفي لغة العرب: اغتابه اغتياباً إذا وقع فيه ، والاسم الغِيبة ، وهي ذكر العَيْبِ بظهر الغيب. قال الحسن: (الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغِيبة والإفك والبهتان. فأما الغِيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه. وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه). وعن شعبة: قال لي معاوية ـ يعني ابن قُرّة ـ: (لو مَرَّ بك رجل أقطع ، فقلت هذا أقطع كان غِيبة).

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه المعاني في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمِشُونَ وجوههم وصدورهم ، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم][4] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 4) ، وأبو داود (4889) ، وصححه الحاكم (4/ 378) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (4089).

(2) صحيح الإسناد. أخرجه أبو داود في السنن (4890) ـ كتاب الأدب. باب في النهي عن التجسّس. انظر صحيح أبي داود (4090).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2589) ، وأبو داود (4874) ، وأحمد (2/ 384) ، والترمذي (1934) ، والدارمي (2/ 297) ، وابن حبان (5758) ـ (5759).

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4878) ، (4879) وإسناده قوي. وصححه الأرناؤوط في جامع الأصول (8/ 6215) ، وله شواهد.

الحديث الثاني: أخرج الحاكم وأبو داود بسند صحيح في الشواهد عن المستورد أن النبي ﷺ قال: [من أكلَ برجل مسلم أكلة، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن اكتسى برجل مسلم ثوباً، فإن الله يكسوه مثله في جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة، فإن الله يقوم به مقام سمعة يوم القيامة][1].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن عائشة قالت: [قلت للنبي ﷺ: حَسْبُكَ من صَفِيَّةَ كذا وكذا! ـ تعني قصيرة ـ فقال: «لقد قلتِ كَلِمَةً لو مُزجت بماء البحر لَمَزَجَتْه». قالت: وحكَيْت له إنساناً فقال ـ ﷺ ـ «ما أحِبُّ أني حكيتُ إنساناً وإنَّ لي كذا وكذا»][2].

الحديث الرابع: أخرج الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» ـ بإسناد صحيح ـ عن أنس بن مالك قال: [كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار، وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما، فناما، فاستيقظا، ولم يُهَيِّئ لهما طعاماً، فقال أحدهما لصاحبه: إن هذا ليوائم نوم بيتكم، فأيقظاه فقالا: ائت رسول الله ﷺ فقل له: إنَّ أبا بكر وعمر يقرئانك السلام، وهما يستأدمانك. فقال: أقرهما السلام، وأخبرهما أنهما قد ائتدما! ففزعا، فجاءا إلى النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله! بعثنا إليك نستأدمك، فقلت: قد ائتدما. فبأي شيء ائتدما؟ قال: بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لَحْمَهُ بين أنيابكما ـ يعني لحم الذي استغاباه ـ. قالا: فاستغفر لنا، قال: هو فليستغفر لكما][3].

فائدة: الغيبة تباح عند تحقق المصلحة الشرعية، وذلك في ستة أحوال جمعها الشيخ كمال الدين بن أبي شرف بقوله:

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرّف ومحذّر

ومجاهر فسقاً ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

---

(1) صحيح لطرقه. أخرجه الحاكم (4/ 127 ـ 128)، وبنحوه أبو داود (4881)، والبخاري في «الأدب المفرد» (240). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (934).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4875)، والترمذي (2502)، وإسناده على شرط مسلم.

(3) أخرجه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (186)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2608). وقال الألباني: إسناده صحيح.

وتفصيل ذلك مع أدلته في كتابي: «منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن»، فلله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. فيه بيان من الله سبحانه أن أكل لحم المؤمن بغيبته حيّاً، كأكل لحمه بعد مماته ميتاً. قال ابن عباس: (حرم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء، كما حرّم المَيْتَة). وقال قتادة: (كما أنت كاره لو وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حي).

أخرج الترمذي وابن حبان بسند حسن عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: [يا معشرَ من آمنَ بلسانه ولمْ يُفضِ الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عَوْراتِهم، فإنه من يَتَّبع عورات المسلمين يَتَّبع الله عَوْرَته، ومن يَتَّبع الله عَوْرَتَهَ يَفْضَحْهُ ولو في جوف رحْلِه. قال: ونظر ابن عُمر يوماً إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظمَ حرمتك، وللمؤمن أعظمُ حرمةً عند الله منك][1].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾. أي: فاتقوا الله في إخوانكم ـ معشر المسلمين ـ ولا تتبعوا العورات أو تتجسسوا، والله يتوب على من تاب، ويرحم عباده المنيبين. قال ابن جرير: (﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾: إن الله راجع لعبده إلى ما يحبه إذا رجع العبد لربه إلى ما يحبه منه، رحيم به بأن يعاقبه على ذنب أذنبه بعد توبته منه).

13. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾.

في هذه الآية: دعوة الله عباده للتعارف وحفظ الأنساب وتبادل الخيرات والخبرات، وإنماالتميز بالتقوى والحرص على الطاعات، والله عليم بعباده خبير بمن استحق منهم رفع الدرجات.

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾. يعني آدم وحواء. قال مجاهد: (خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾). والمقصود: أَنَّ أصولكم واحدة، من أبويكم آدم وحواء، أو من ماء ذكر من الرجال، وماء أنثى من النساء، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب.

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2032)، وابن حبان (5763)، وإسناده حسن.

ويُنسب إلى عليّ رضي الله عنه من الشعر:

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدمُ والأمُّ حوّاء
نفس كنفس وأرواحٌ مشاكلةٌ	وأعظمٌ خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهمُ من أصلهم حسبٌ	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنّهم	على الهُدى لمن استهدى أدِلاّء
وقَدْرُ كلِّ امرئٍ ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال سيماء
وضدُّ كل امرئٍ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾. أي: لينسب الرجل إلى أبيه وأمه وقومه، فلا تختلط الأنساب. قال ابن عباس: (الشعوب الجمهور، مثل مضر. والقبائل الأفخاذ). وقال مجاهد: (الشعوب البعيد من النسب، والقبائل دون ذلك). وقيل: الشعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفَخِذ. وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها، فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة.

قال ابن جرير: (﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾: وجعلناكم متناسبين، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريباً. ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقربة تقربكم إلى الله، بل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي أشدكم اتقاء له وخشية بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتاً، ولا أكثركم عشيرة).

وقال النسفي: (﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ أي إنما رتبكم على شعوب وقبائل ليعرف بعضكم نسبَ بعض). قال مجاهد: (جعلنا هذا لتعارفوا، فلان بن فلان من كذا وكذا).

قلت: ومعرفة الأنساب تفيد في صلة الأرحام، وهي محبة في الأهل ومثراة في المال. فقد أخرج الترمذي ورجاله ثقات عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [تعَلَّموا من أنسابكم ما تَصلون به أرحامَكُم، فإنَّ صِلَةَ الرحم مَحَبَّةٌ في الأهل، مَثْراةٌ في المال، مَنْسَأةٌ في الأثَر][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1979)، والحاكم (4/ 161)، وأحمد (2/ 374) وله شواهد كثيرة. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (276).

وله شاهد عند أبي داود الطيالسي في «مسنده» قال: حدثنا إسحاق بن سعيد قال: حدثني أبي قال: [كنت عند ابن عباس ، فأتاه رجل فسأله : من أنت؟ قال: فَمَتَّ له برحم بعيدة ، فألان له القول ، فقال: قال رسول الله ﷺ: اعرفوا أنسابكم ، تصلوا أرحامكم ، فإنه لا قرب بالرحم إذا قطعت ، وإن كانت قريبة ، ولا بعد لها إذا وصلت ، وإن كانت بعيدة][1].

ورواه البخاري في «الأدب المفرد» بنحوه وزاد: [وكل رحم آتية يوم القيامة أمام صاحبها ، تشهد له بصلة إن كان وصلها ، وعليه بقطيعة إن كان قطعها].

وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. أَصْلٌ في ميزان التفاضل بين الناس. والمقصود: إنما تفاضلكم أيها الناس عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله لا ينظر إلى صُوركم وأموالكم ، ولكِنْ ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم][2].

وفي لفظ: [إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صُوركم ، ولكن يَنْظُرُ إلى قلوبكم]. وفي لفظ: (التقوى هاهنا) ـ ويشير إلى صدره ـ ثلاث مرار.

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: [سُئِل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: أكرمُهم عند الله أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: فأكرم الناس يوسف نبيُّ الله ، ابنُ نبيِّ الله ، ابن نبي الله ، ابن خليلِ الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك؟. قال: فَعَنْ معادنِ العرب تسألوني؟ قالوا: نعم! قال: فخيارُكم في الجاهلية خيارُكم في الإسلام إذا فَقِهُوا][3].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوامٌ يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فَحْمُ جَهَنَّمَ ، أوْ ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعَلِ الذي يُدَهْدِهُ الخِراءَ بأنْفِه. إنَّ الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفَخْرَها

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (2757) ، وأخرجه الحاكم (4/ 161) وهو على شرط مسلم. وانظر: «الأدب المفرد» للبخاري (73).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2564) ح (34) ـ كتاب البر والصلة. وكذلك ح (33). باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3353) ـ كتاب أحاديث الأنبياء. وكذلك (3374).

بالآباء. إنما هو مؤمنٌ تقيٌّ، أو فاجِرٌ شقيٌّ. الناس كلُّهم بنو آدمَ، وآدمُ خُلِقَ من التراب][1]. وفي لفظ: [مؤمن تقي، وفاجر شقيّ. والناس بنو آدم، وآدم من تراب].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر: [أنّ رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة. فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّةَ الجاهلية وتعاظُمها بآبائِها، فالناس رجلان: رَجُلٌ بَرٌّ تقيٌّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقِيٌّ هَيِّنٌ على الله. والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من التراب، قال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾»][2].

وله شاهد عند أبي نعيم في «الحلية» (3/ 100) عن جابر قال: [خَطبنا رسول الله في أوسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: يا أيها الناس! إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمرَ إلا بالتقوىٰ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، ألا هل بلّغتُ؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله! قال: فيبلغ الشاهد الغائبَ].

الحديث الخامس: أخرج الترمذي بسند صحيح عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: [الحَسَبُ: المالُ. والكرمُ: التقوى][3].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾. أي عليم بشؤون عباده وبأتقاهم وأكرمهم عنده، خبير بأمورهم وجميع مصالحهم، لا تخفى عليه خافية.

14 ـ 18. قوله تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ

(1) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (3100) ـ آخر أبواب وأحاديث الجامع.
(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2608)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2700).
(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2609) ـ كتاب التفسير ـ سورة الحجرات ـ آية (13).

صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: التمييز بين الإسلام والإيمان ، فالمؤمنون هم الذين صدقوا الله اليقين ، وبرهنوا على صدقهم بالجهاد بالأموال والأنفس لحفظ وحراسة الدين ، والله تعالى له المَنُّ بالهداية على عباده المؤمنين ، وهو المتفرد بعلم الغيب والبصير بأعمال العاملين.

فقوله : ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ . إنكار على الأعراب ادّعاءهم مقام الإيمان أَوَّل ما دخلوا الإسلام. فإن الإيمان أخصّ من الإسلام ـ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ـ. وحقيقة الإيمان الإقرار بالقلب والتصديق بالعمل ، وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبي ﷺ في الظاهر.

وفي صحيح مسلم من حديث عمر ـ أن جبريل عليه السلام حين طلع بصورة رجل ـ [قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وتقيمَ الصلاةَ ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت. قال: فعجبنا له ، يسأله ويصدّقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك] الحديث(1).

فسأل جبريل عليه السلام عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان مترقياً من الأعم إلى الأخص ثم للأخصّ منه.

وفي الصحيحين والمسند عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: [أعطى رسول الله ﷺ رجالاً ولم يُعْطِ رجلاً منهم شيئاً ، فقال سعد: يا رسول الله ، أعطيتَ فلاناً وفلاناً ولم تُعْطِ فلاناً شيئاً ، وهو مُؤمنٌ؟ فقال النبي ﷺ: أو مُسْلِمٌ ـ حتى أعادها سعد ثلاثاً ، والنبي ﷺ يقول: أو مسلمٌ ـ ثم قال النبي ﷺ: إني لأعطي رجالاً وأدع مَن هو أحبُّ إليَّ منهم فلا أعطيه شيئاً مخافة أن يكَبّوا في النار على وُجوههم](2).

ففرّق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن ، مما يؤكد أن الإيمان أخصّ من الإسلام.

وهذا يدل مع الآية السابقة أن المقصود تأديب هؤلاء الأعراب الداخلين حديثاً في

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8) ـ كتاب الإيمان. ح (1) ، وانظر الحديث (9).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (27) ، ومسلم (150) ، وأبو داود (4683) ، وأحمد (1/ 167) ، وأخرجه النسائي (8/ 103 ـ 104).

الإسلام لئلا يدّعوا مقام من سبقهم وصار في سجل أهل الإيمان ، ولا دليل على أنهم كانوا منافقين كما ذهب البخاري وغيره.

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾. قال ابن كثير: (قوم ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصُل لهم بعد ، فأُدِّبُوا وأُعْلِمُوا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لَعُنِّفُوا وفُضِحوا ، كما ذُكِرَ المنافقون في سورة براءة).

وقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾. قال مجاهد: (﴿لَا يَلِتْكُم﴾: لا ينقصكم). قال ابن زيد: (إن تصدقوا إيمانكم بأعمالكم يقبل ذلك منكم).

والمقصود: إنْ تخلصوا الطاعة لله ولرسوله لا ينقصكم ربكم من أجور طاعتكم شيئاً.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أي لمن أطاعه وتاب إليه من سالف ذنوبه ، فأنيبوا إليه أيها الأعراب، واستغفروا ذنوبكم، واسلكوا سبيل الإيمان بصدق تنلكم رحمته سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾. تعريف بحقيقة أهل الإيمان. قال القاسمي: (أي لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به من وحدانية الله ونبوّة نبيّه ، وألزموا نفوسهم طاعة الله ، وطاعة رسوله ، والعمل بما وجب عليهم من فرائض الله بغير شك في وجوب ذلك عليهم).

وقوله: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. أي: وأضافوا إلى ما سبق مجاهدة المشركين ببذل أموالهم ومهجهم في سبيل الله ، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾. قال ابن زيد: (صدقوا إيمانهم بأعمالهم).

والمقصود: هؤلاء هم المتصفون بهذه الأعمال: من أعمال القلب واللسان والجوارح هم الذين صدقوا في ادّعاء الإيمان ، لظهور أثر الصدق على جوارحهم ، وتصديق أفعالهم وأقوالهم.

وقوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾. أي بما أنتم عليه من الطاعة والامتثال لمعالم الدين. قال ابن جرير: (هذا تقدم من الله إلى هؤلاء الأعراب بالنهي عن أن يكذبوا ويقولوا غير الذي هم عليه في دينهم. يقول: الله محيط بكل شيء عالم به ، فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم ، فينالكم عقوبته ، فإنه لا يخفى عليه شيء).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾. أي: والله الذي تعلّمونه أنكم مؤمنون هو علاّم جميع ما في السماوات والأرض لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا يخفى عليه شيء، وهو بكل شيء عليم.

وقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾. المنّ: ذكر الأيادي تعريضاً للشكر، والمعنى: أيمُنّ عليك ـ يا محمد ـ هؤلاء الأعراب بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم؟!

وقوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. أي: قل لهم ـ يا محمد ـ لا تمنوا عليّ بإسلامكم، فإن المنّة لله عليكم بأن هداكم لطريق الإيمان، إن صح زعمكم أنكم مؤمنون. كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: [يا معشرَ الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرِّقين فألّفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟. قالوا: الله ورسوله أمَنّ][1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. تأكِيدٌ لعلمه المطلق سبحانه وتعالى بأحوال جميع مخلوقاته، وما غاب في أرجاء أرضه وسماواته، وبصره بأعمال عباده، فلا يخفى عليه شيء.

تم تفسير سورة الحجرات

بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه

الخميس 7 ـ رجب ـ 1426 هـ

الموافق 11 ـ آب ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4330) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم ـ كتاب المغازي.

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً ، يهوي بها سبعين خريفاً في النار.

2 ـ إنّ الله تعالى حَيِيٌّ ستير ، يحب الحياء والسِّتر.

3 ـ إياكم والظنّ ، فإنَّ الظَّنَ أكذبُ الحديث ، ولا تحسَّسُوا ، ولا تجسَّسُوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً.

4 ـ ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينْمي خيراً أو يقول خيراً.

5 ـ إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمان ، بما أقسطوا في الدنيا.

6 ـ المسلمون كرجل واحد ، إن اشتكى عينُه ، اشتكى كُلُّه ، وإن اشتكى رأسه ، اشتكى كُلُّه.

7 ـ ما مِنْ عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولكَ بِمثل.

8 ـ الكبر بطرُ الحق وغمطُ الناس. وأكثر خطايا ابن آدم في لسانه.

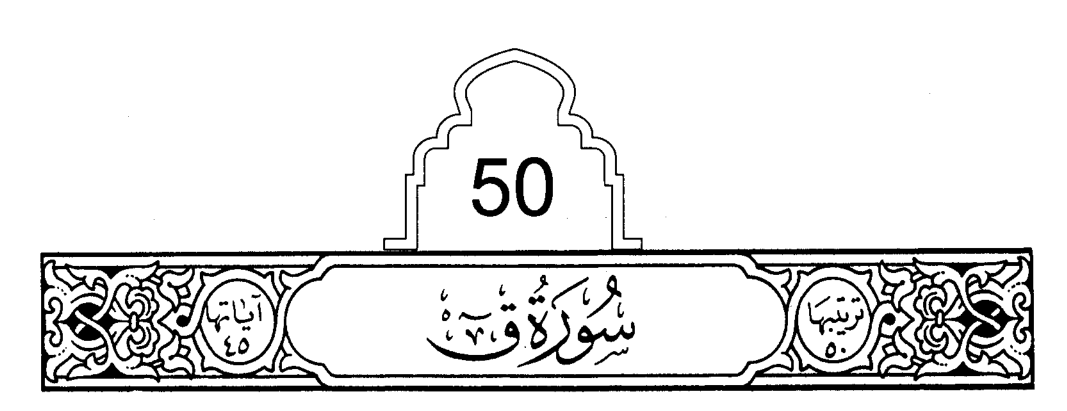
9 ـ لا قرب بالرحم إذا قطعت ، وإن كانت قريبة ، ولا بعد بها إذا وصلت ، وإن كانت بعيدة. فاعرفوا أنسابكم ، تصلوا أرحامكم.

10 ـ إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم. وخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهوا.

11 ـ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

12 ـ المؤمن يجاهد بسيفه وماله ونفسه ولسانه. والإيمان قول وعمل. والقول: قول اللسان وقول القلب. والعمل عمل اللسان والقلب والجوارح.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (45) .

فضائلها وما ورد في ذكرها :

لقد ورد في ذكر هذه السورة الكريمة وفضلها أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أُمِّ هشام بنتِ حارثةَ بنِ النعمانِ قالت: [لقد كان تَنُّورُنا وتنُّورُ رسول الله ﷺ واحِداً ، سنتين أو سَنَةً وبعضَ سَنة ، وما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ ، يقرؤها كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ على المِنْبَرِ ، إذا خطَبَ الناس][1] .

وفي لفظ: [ما حَفِظت «ق» إلا مِنْ فِي رسول الله ﷺ يَخْطُبُ بها كل جُمُعَة] .

الحديث الثاني: أخرج مالك وأحمد ومسلم عن عبيد الله بن عبد الله: [أنّ عمرَ بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يَقْرَأُ به رسولُ الله ﷺ في الأضحىٰ والفطر ؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾][2] .

الحديث الثالث: أخرج مسلم في الصحيح ، وأحمد في المسند ، عن جابر بن

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (873) ح (51) ، (52) ـ كتاب الجمعة .

(2) حديث صحيح. أخرجه مالك (1/ 180) ، ومسلم (891) ، وأحمد (5/ 217) ، وأبو داود (1154) ، والترمذي (534) ، والنسائي (3/ 183) ، وابن ماجة (1282) .

سَمُرَةَ: [أنَّ النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾. وكانت صلاتُه، بَعْدُ، تخفيفاً][1].

وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات، والأول أرجح، وبه جاء النصّ الصحيح عن أصحاب رسول الله ﷺ كما في الحديث الآتي.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند يرقىٰ للحسن عن عثمان بن عبد الله بن أوس الثقفي عن جده أوس بن حذيفة قال: [كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ أسلموا من ثقيف من بني مالك، أنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلىٰ العشاء الآخرة انصرف إلينا ولا نبرح حتىٰ يحدثنا ويشتكي قريشاً ويشتكي أهل مكة، ثم يقول: لا سواء، كنا بمكة مستذلين ومستضعفين، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال، الحرب علينا ولنا، فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتىٰ طال ذلك علينا بعد العشاء، قال: قلنا ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: طرأ عَلَيَّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتىٰ أقضيه، قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تُحَزِّبُون القرآن؟ قالوا: نحزّبُه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدىٰ عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتىٰ يختم][2].

وبيانه «ثلاث سور»: البقرة وآل عمران والنساء. «وخمس سور»: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. «وسبع سور»: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحِجْر، والنحل. «وتسع سور»: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. «وإحدىٰ عشرة سورة»: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، وألم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. «وثلاث عشرة سورة»: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (458)، كتاب الصلاة، وأحمد (5/ 91)، وأخرجه ابن أبي شيبة (1/ 353)، وابن حبان (1816)، والطبراني في الكبير (1929).

(2) أخرجه أحمد (4/ 9)، (4/ 343)، وانظر سنن أبي داود (1/ 321 ـ 322). وكذلك كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (3/ 1437 ـ 1438) لتفصيل الخبر، وهو حديث حسن.

والجاثية ، والأحقاف ، والقتال ، والفتح ، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل ويبدأ بـ «ق» حتىٰ نهاية المصحف.

موضوع السورة

القرآن هو الكتاب الجامع المجيد
لقصة الإنسان والوعد والوعيد

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ وصْفُ القرآن بالمجيد ، وتوبيخ المشركين في إنكارهم البعث والوعد والوعيد.

2 ـ علم الله تعالىٰ بما تنقص الأرض من الأجساد في القبور ، والكافرون غافلون ماضون في عتو ونفور.

3 ـ تنبيه الله تعالىٰ على آياته البديعة في الخلق ، وإنزال الماء والإحياء بعد الموت.

4 ـ تهديدُ كفار قريش أن ينزل بهم مصير المكذبين ، وتقريع لهم في إنكارهم البعث والحساب يوم الدين.

5 ـ إعلامُ الله عن خلقه الإنسان ، وعلمه بوساوس نفسه ، وقربه تعالىٰ منه وكتابة الملكين.

6 ـ إخبار الله تعالىٰ عن قصة النهاية: الموت ، فالقبر ، فالبعث ، فالحساب.

7 ـ إحضار القرين الموكل بالإنسان كتاب عمله معه إلى مشهد الحشر ، وصدور أمر الجبار عز وجل بإلقاء الكافر في النار ، واختصام القرين من الجن مع صاحبه.

8 ـ استعداد جهنم لاستقبال الكفار والفجار ، واقتراب الجنة من أهلها الأبرار.

9 ـ صدور الأمر من الله بدخول المؤمنين الجنة بسلام ، لهم فيها ما لذّ وطاب مما أُعِدَّ لقوم كرام.

10 ـ تنبيه كفار قريش لمصير الأمم قبلهم ، وخلق الله السماوات والأرض في ستة أيام ، وتوجيه النبي ﷺ للصبر والتسبيح والسجود والقيام.

11 ـ تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من التكذيب ، بذكر مشهد البعث والحشر الرهيب.

12 ـ أمر الله تعالىٰ نبيَّه ﷺ بالتذكير بالقرآن ، ففيه الذكرىٰ لمن أراد النجاة من النيران.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالىٰ:** ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالىٰ على القرآن بوصفه بالمجيد، وتوبيخ المشركين في إنكارهم المعاد وانغماسهم في الضلال البعيد، والله تعالىٰ يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم وعنده كتاب حفيظ.

فقوله: ﴿قٓ ۚ﴾ ـ هو كأشباهه من الحروف التي ذكرت في أوائل السور.

وقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾. قال سعيد بن جبير: (الكريم). قال القرطبي: (﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي الرفيع القدر).

وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم. قال ابن كثير: (وهو إثبات النبوّة، وإثباتُ المعاد، وتقريره وتحقيقُه).

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

أي: تعجبوا أن أرسل الله إليهم بشراً منهم من بني آدم، ولم يأتهم ملك برسالة من عند الله، فقالوا هذا شيء عجيب.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾. تَعَجُّبٌ آخر من الكافرين من المعاد وبعث الأجساد.

قال الضحاك: (قالوا: كيف يحيينا الله، وقد صرنا عظاماً ورفاتاً، وضللنا في الأرض). قال النسفي: (﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ مستبعد مستنكر).

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾. قال ابن عباس: (يقول: ما تأكل الأرض من

لحومهم وأبشارهم وعظامهم وأشعارهم). وقال قتادة: (ما تأكل الأرض منهم إذا ماتوا).

والمقصود: أنَّ الله تعالىٰ قد علم ما تأكل الأرض من لحومهم وعظامهم في قبورهم ، وكيف تتفرق أبدانهم كل ساعة حتىٰ يبعثهم.

وقوله: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾. قال الضحاك: (ما أكلت الأرض منهم ونحن عالمون به ، وهم عندي مع علمي فيهم في كتاب حفيظ). وقال أبو السعود: (أي حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، أو محفوظ من التغيّر). وفيه تأكيد لعلمه تعالىٰ بدقائق الأشياء وثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾. أي: بل كذبوا بما هو أكبر من ذلك ، النبوّة والقرآن العظيم المعجز. قال الزمخشري: (إضراب أتبع الإضراب الأول ، للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق ، الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات ، في أول وهلة من غير تفكّر ولا تدبّر. وكونه أفظع ، للتصريح بالتكذيب من غير تدبر بعد التعجب منه).

وقوله: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾. قال ابن عباس: (المريج: الشيء المنكر).

أو قال: (يقول: مختلف). وفي رواية: (هم في أمر ضلالة). وقال سعيد بن جبير: (ملتبس). وقال قتادة: (ملتبس عليه أمره).

فالمعنىٰ: فهم في أمر مختلف مضطرب ملتبس منكر عليهم خلاله ونعوته.

6 ـ 11. قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات: تنبيهُ المشركين إلى آيات الله البديعة الدالة على قدرته العجيبة ، كخلق السماء والكواكب ، ومَدّ الأرض وإرساء الجبال ، وخلق الأزواج من النبات ،

وإنزال الماء المبارك وإنبات الجنات والحبّ والنخل الباسقات ، وإحياء الأرض الميتة وكذلك الخروج للحشر بعد الممات.

فقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾.

أي: أفلم ينظر مكذبو البعث إلىٰ السماء فوقهم كيف أُحكم بناؤها وُزينت بالكواكب والنجوم ومالها من صدوع ولا فتوق. قال مجاهد: (﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ يعني من شقوق). وقال غيره: (فُتوق). وقال غيره: (صُدوع). والمعنىٰ متقارب. والآية كقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ [الملك: 3].

وقوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾. أي: بسطناها ودحوناها. ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾، وهي الجبال. جعلها الله ثوابت رست في الأرض لئلا تميد بأهلها وتضطرب.

وقوله: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾. قال ابن زيد: (هو الحسن المنظر).

والمقصود: وأنبت الله في الأرض من كل صنف من أصناف النبات والزروع والثمار ما يسر الناظرين.

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾. قال قتادة: (﴿ تَبْصِرَةً ﴾: نعمة من الله يبصرها العباد ﴿ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي مقبل بقلبه إلى الله).

وقال مجاهد: (﴿ تَبْصِرَةً ﴾: بصيرة، ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ قال: مجيب).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾.

أي: وأنزل الله من السماء مطراً مباركاً فأنبت به سبحانه بساتين وحدائق والزرع المتصف بالحب المستفاد بادخاره. قال قتادة: (﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ هذا البرّ والشعير). وقال مجاهد: (الحنطة). قال القرطبي: (التقدير: وحبّ النبت الحصيد وهو كل ما يحصد. وقيل: كل حبٍّ يُحْصَد ويُدّخر ويُقْتات).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾. باسقات: حال، والباسقات: الطوال. قال ابن عباس: (﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ ﴾ قال: النخل الطوال، ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ يقول: بعضه على بعض).

والمقصود: وأنبت الله بالماء النخل طوالاً شاهقات ﴿ لَّهَا طَلْعٌ ﴾ ـ وهو أول ما يخرج من ثمر النخل ـ متراكب قد نُضِّد بعضه على بعض في شكل بديع.

وقوله: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾. قال ابن جرير: (يقول: أنبتنا بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء هذه الجنات، والحبّ والنخل قوتاً للعباد، بعضها غذاء، وبعضها فاكهة ومتاعاً).

وقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾. أي: وأحيينا بهذا الماء المبارك النازل من السماء بلدة قد أجدبت وقحطت، فهي هامدة لا زرع فيها ولا نبت.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾. أي: كذلك كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فإنه يخرجكم من قبوركم أحياء بعد موتكم وفنائكم.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث عبد الله بن عمرو، قال رسول الله ﷺ: [ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغىٰ ليتاً ورفع ليتاً ـ أي: أمال صفحة عنقه ـ وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه ـ أي: يصلحه ويطينه ـ فيصعق، ثم لا يبقىٰ أحد إلا صعق، ثم يرسل الله تعالىٰ مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون][1].

12 ـ 15. قوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: تهديدُ الله تعالىٰ كفار قريش أن ينزل بهم ما نزل بأمثالهم من المكذبين، وتقريع لهم في إنكارهم المعاد والبعث للحساب يوم الدين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2940)، وأحمد في المسند (2/ 166).

فقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾. أي قبل كفار العرب الذين يكذبون محمداً ﷺ. فعذبهم الله تعالىٰ بالغرق العام والطوفان الكبير.

وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾. قال مجاهد: (﴿الرَّسِّ﴾: بئر).

والمقصود: أصحاب البئر الذين ذكروا في سورة الفرقان وأهلكهم الله بتكذيبهم.

وقوله: ﴿وَثَمُودُ﴾. وهم قوم صالح، الذين عقروا الناقة واستكبروا فأهلكوا بالصيحة.

وقوله: ﴿وَعَادٌ﴾. وهم قوم هود، أهلكوا ـ لما كذبوا ـ بالريح الصرصر العاتية.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾. أي: هو وقومه الذين دكهم الله بالغرق في اليمّ.

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾. قال ابن كثير: (وهم أمته الذين بُعِثَ إليهم من أهل سَدُومَ ومعاملتها في الغور، وكيف خسف الله تعالىٰ بهم الأرضَ، وأحالَ أرضَهم بُحَيرةً منتنةً خبيثةً، بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحقّ).

وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾. وهم قوم شعيب عليه السلام. قال قتادة: (والأيكة: الشجر الملتف).

وقوله: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾. أهل أوثان كانوا يعبدونها باليمن، وقد مضىٰ تفصيل خبرهم في سورة الدخان.

وقوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾. قال النسفي: (أي كل واحد منهم ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ لأنَّ من كذّب رسولاً واحداً فقد كذبّ جميعهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فوجب وحلّ وعيدي، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم).

وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾. تقريع لمشركي قريش إذ قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾. قال ابن عباس: (يقول: لم يعينا الخلق الأول). وقال مجاهد: (أفعيي علينا حين أنشأناكم خلقاً جديداً فتمتروا بالبعث).

والمقصود: أَفَأَعْجزنا ابتداء الخلق حتىٰ أنتم تشكون في قدرتنا على الإعادة، والإعادة أسهل عادة من المرة الأولى.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78 ـ 79].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالىٰ: يَشْتِمُني ابنُ آدمَ، وما ينبغي له أن يَشْتِمني، ويكذِّبُني وما ينبغي له. أما شتمُه فقوله: إنّ لي ولداً، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني][1]. وفي لفظ: [وليس أوّلُ الخلق بأهون عليّ من إعادته].

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: في شك من البعث).

16 ـ 22. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾.

في هذه الآيات: إعلامُ الله تعالىٰ عن خلقه الإنسان وعلمه بوساوس نفسه، وقربه تعالىٰ منه، وكتابة الملكين دقائق قوله وعمله. وإخبار منه تعالىٰ عن قصة النهاية ابتداءً بسكرة الموت، ثم النفخ في الصور للقيام من القبر، ثم مجيء كل نفس يسوقها الملك إلى أرض المحشر لبدء الحساب.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾. إخبار عن كمال إحاطته تعالىٰ بأحوال الإنسان وتقلبات نفسه. قال ابن جرير: (يقول: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تحدِّثُ به نفسه فلا يخفىٰ علينا سرائره وضمائر قلبه).

ولكنه من حلمه سبحانه وكرمه فإنه قد تجاوز عن حديث العبد نفسه ما لم يقل أو يعمل.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3193)، كتاب بدء الخلق. وانظر الحديث (4974).

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله تجاوزَ عن أمتي ما حَدَّثت به أنْفُسُها ما لم تَعْمل أو تتكلّم][1].

وفي لفظ: [إن الله تجاوز لأمتي عما وسْوَسَتْ ـ أو حدَّثتْ ـ به أنْفُسَها ما لم تعْمل به أو تكَلَّم].

قال قتادة: (إذا طلّق في نفسه فليس بشيء).

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. قال ابن كثير: (يعني ملائكته تعالىٰ أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه). والوريد: حبل العاتق الممتد من ناحية الحلق إلى العاتق ، وهما وريدان عن يمين وشمال.

وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.

قال مجاهد: (﴿الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ ملكان يتلقيان عملك: أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك). قال الحسن: (حتىٰ إذا متّ طُوِيت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14] عَدَلَ والله عليك من جعلك حسيبَ نفسك).

قال النسفي: (التلقي: التلقن بالحفظ والكتابة ، والقعيد: المقاعد ، كالجليس بمعنىٰ المجالس ، وتقديره: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين ، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه).

والمقصود: يقول جل ذكره ـ ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه حين يتلقىٰ الملكان الحفيظان ما يتلفظ به فيجعلانه في صحيفة أعماله ـ.

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ صاحِبَ الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ ، فإن ندمَ واستغفر الله منها ألقاها ، وإلا كتبت واحدة][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (5269) ، كتاب الطلاق ، وكذلك (6664) ، كتاب الأيمان والنذور ، باب إذا حَنِثَ ناسياً في الأيمان.

(2) حديث حسن. رواه الطبراني في «الكبير» (ق 25/ 2) ، والبيهقي في «الشعب» (2/ 349/ 1) ، وأبو نعيم في «الحلية» (6/ 124) ، وانظر السلسلة الصحيحة (1209).

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾.

قال ابن عباس: (يكتب كُلَّ ما تَـكَلَّم به من خير أو شرٍّ ، حتىٰ إنه ليكتُب قوله: أكلتُ ، شربتُ ، ذهبتُ ، جِئتُ ، رأيتُ ، حتىٰ إذا كان يوم الخميس عُرِض قولهُ وعمله ، فأقِرَّ منه ما كان فيه من خيرٍ أو شرٍّ ، وأُلقي سائره).

وفي «الرقيب» ثلاثة أقوال:

1 ـ المتبع للأمور.

2 ـ الحافظ ـ قاله السدّي.

3 ـ الشاهد ـ قاله الضحاك.

وفي «العتيد» قولان:

أ ـ الحاضر الذي لا يغيب.

ب ـ الحافظ المُعَدُّ إما للحفظ وإما للشهادة. قلت: وكل هذه المعاني متقاربة ، مفادها أن الإنسان ما يلفظ من قول إلا لديه ملك يرقب عمله ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي حاضر حافظ.

وقوله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾. أي: غمرته وشدته. قال القرطبي: (فالإنسان ما دام حَيّاً تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالىٰ وعده وأوعده).

وفي صحيح البخاري عن عائشة قالت: [إنَّ رسول الله ﷺ كان بَيْنَ يديه رَكْوَةٌ ـ أو عُلْبَةٌ فيها ماء ـ فجعل يُدْخِلُ يدَهُ في الماء فَيَمْسَحُ بها وَجْهَهُ ويقول: «لا إله إلا الله ، إن للموت سَكرات». ثم نَصَبَ يَدَهُ فجعل يقول: «في الرفيق الأعلىٰ» ، حتىٰ قُبِضَ ومالَتْ يَدُه][1].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾. قال ابن جرير: (هذه السكرة التي جاءتك أيها الإنسان بالحق هو الشيء الذي كنت تهرب منه ، وعنه تروغ).

و ﴿ مَا ﴾ في قوله ﴿ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ لها وجهان من التأويل:

1 ـ ﴿ مَا ﴾ موصولة ، أي ذلك الذي كنت منه تحيد ، أي تبتعد وتهرب.

2 ـ ﴿ مَا ﴾ نافية ، والتقدير: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحَيْد عنه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6510) ، كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت.

وكلا المعنيين حق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾.

أي: ونفخ في الصور نفخة البعث ليقوم الناس لرب العالمين، ذلك اليوم الذي وعده الله الكفار أن يعذبهم وينتقم منهم فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾.

قال ابن عباس: (السائق من الملائكة، والشهيد شاهد عليه من نفسه).

وقال الضحاك. (السائق الملك، والشهيد العمل). وقيل: ملك يسوقُه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله.

وفي صحيح مسلم عن أنس قال: [كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: هل تدرون ممَّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربَّه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلىٰ. فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني. فيقول: كفىٰ بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيخْتَمُ على فيه، ويقال لأركانه انْطقِي، فتنطق بأعماله، ثم يُخَلَّىٰ بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل][1]. أي أجادل وأدافع وأخاصم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾.

أي: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عايَنْتَ اليوم أيها الإنسان من الأهوال والشدائد، فكشفنا عنك غطاءك فجلينا ذلك لك وأظهرناه لعينيك حتىٰ رأيته وعاينته فزالت الغفلة عنك، فأنت اليوم نافذ البصر تبصر بقوة كالحديد، فأنت اليوم في أرض المحشر وقد صار عالم الغيب ذلك أمامك عالم شهادة.

قال ابن عباس: (﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال: الحياة بعد الموت). وقال قتادة: (عاين الآخرة).

23 ـ 29. قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 217). كتاب التوبة وقبولها وسعة رحمة الله وغير ذلك. باب: في شهادة أركان العبد يوم القيامة بعمله. وانظر مختصر صحيح مسلم (1933).

عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

في هذه الآيات: إحضار القرين الموكل بالإنسان كتاب عمله معه إلى مشهد الحشر، وصدور الأمر من الجبار عز وجل بإلقاء الكافر في جهنم ذات الشرر، واختصام القرين من الجن مع صاحبه وكلاهما واقع تحت ذلك الأمر.

فقوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾. قال قتادة: (الملك). قال ابن زيد: (هذا سائقه الذي وُكِّلَ به). والراجح أنه الملك الموكل بعمل ابن آدم، فهو القرين الذي لا يفارقه إلا عند الموت، فيأتي يوم القيامة يشهد عليه بما عمل.

وقوله: ﴿هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾. قال ابن جرير: (هذا الذي هو عندي معدّ محفوظ).

والمقصود: يقول القرين: هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت معه ديوان عمله الذي هو عندي قد كتبت فيه عمله، فهو معدّ محفوظ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾. قال ابن كثير: (الظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عَرْصَةِ الحساب، فلما أدّىٰ الشهيدُ عليه، أمرهما الله تعالىٰ بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير. ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿عَنِيدٍ﴾: معانِدٌ للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك).

وقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾. قال قتادة: (هو الزكاة المفروضة). والراجح أن المعنىٰ أعم من ذلك، فهو مناع للحقوق التي عليه من برٍّ وصلة وصدقة، لا يؤدي ما وجب عليه فيها.

وقوله: ﴿مُعْتَدٍ﴾. قال قتادة: (في منطقِه وسيرته وأمره). قلت: والاعتداء يشمل الظلم في اللسان والجوارح، فاللسان فيه البذاء والفحش، واليد فيها الإقتار والإسراف والسطوة، والرِّجْلُ فيها المشي في الباطل، إلى غير ذلك من أشكال الاعتداء.

وقوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾. قال قتادة: (أي شاك). فهو شاك في أمره ودينه، مريب لمن نظر في أمره وحاله.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. أي أشرك بالله فعبد معه غيره.

وقوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾. تأكيد للأمر الأول.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يَخْرُجُ عُنُقٌ من النار يوم القيامة له عَيْنان تُبْصِران، وأُذُنان تَسْمعان، ولِسانٌ ينطِقُ، يقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بكل جَبّارٍ عنيد، وبكل مَنْ دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصوِّرين][1].

وقوله: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾. قال ابن عباس: (قرينه شيطانه).

وقال مجاهد: (الشيطان قُيِّضَ به). وقال ابن زيد: (قال قرينه من الجن: ربنا ما أطغيته، تبرأ منه).

والمقصود: يتبرأ شيطان الكافر يوم القيامة من أن يكون هو الذي أضلّه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾. قال النسفي: (أي ما أوقعته في الطغيان ولكنه طغىٰ واختار الضلالة على الهدىٰ).

والآية تشبه الآية الأخرىٰ في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22].

فالشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر ويوسوس للعبد حتىٰ يقع في الإثم ثم يتبرأ منه يوم القيامة.

أخرج ابن حبان في صحيحه من حديث أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إذا أصبح إبليس بثَّ جنوده، فيقول: مَنْ أضلَّ اليوم مسلماً ألبسته التاج، فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ طلق امرأته فيقول: أوشك أن يتزوج. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ عقَّ والديه فيقول: يوشك أن يبرَّهما. ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى أشرك،

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2574). انظر صحيح سنن الترمذي (2083)، أبواب صفة جهنم. باب صفة النار.

فيقول: أنت أنت ، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتىٰ قتل ، فيقول: أنت أنت ويُلْبِسُه التاج][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾.

قال ابن عباس: (إنهم اعتذروا بغير عذر ، فأبطل الله حجتهم ، وردّ عليهم قولهم).

وقال ابن زيد: (يقول: قد أمرتكم ونهيتكم ، قال: هذا ابن آدم وقرينه من الجن).

والمقصود: يردّ الله اعتذار الإنسيّ وقرينه من الجن عن الكفر والطغيان ـ فلا يقبل من ذلك شيئاً ـ يقول: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب ، وقامت عليكم الحجج البينات والبراهين القاطعات ، ومضىٰ زمان التوبة والإنابة من الآثام والسيئات.

وقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾. قال مجاهد: (يعني قد قضيت ما أنا قاضٍ).

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. أي لا أعاقب إلا من استحق العقاب بذنبه وإصراره.

30 ـ 35. قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾.

في هذه الآيات: استعدادُ جهنم لاستقبال الكفار والفجار ، واقتراب الجنة من أهلها الأبرار ، وصدور الأمر بدخولهم الجنان بسلام ، ولهم فيها ما يختارون من الملذات التي أعدت لقوم كرام.

فقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

إِخْبارٌ منه تعالىٰ عن استقبال جهنم يوم القيامة لكل ما يُلقىٰ فيها ، وقد وعد تعالىٰ بملئها وهي تقول: هل من مزيد. وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ.

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه ـ في كتاب التفسير عند هذه الآية ـ عن

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (رقم 65) ، وإسناده صحيح رجاله كلهم ثقات رجال البخاري. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1280) ، وأصل معناه في صحيح مسلم.

أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [يُلقىٰ في النار وتقول: هل مِنْ مَزيد ، حتىٰ يَضَعَ قَدَمَهُ فتقول: قَطْ قَطْ][1].

ورواه في كتاب التوحيد بلفظ: [لا يزال يُلقىٰ فيها وتقول: هل من مَزيدٍ ، حتىٰ يَضَعَ فيها ربُّ العالمين قَدَمَهُ فينزوي بعضها إلى بعض ، ثم تقول: قَدْ قدْ ، بِعِزَّتك وكرمِكَ ، ولا تزال الجنة تَفْضُلُ حتىٰ ينشِئَ الله لها خَلْقاً فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الجنة][2].

ولفظ الترمذي: [لا تزال جهنم تقول: هَلْ مِن مزيدٍ ، حتىٰ يضعَ فيها ربُّ العِزَّةِ قَدَمَهُ فتقول: قَطْ ، قط ، وعِزَّتِكَ ، ويُزوي بَعْضُها إلى بعض].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [تحاجَت الجَنَّةُ والنار ، فقالت النارُ: أُوثِرتُ بالمتكبِّرين والمُتَجَبِّرين ، وقالت الجنة: مالي لا يدخُلني إلا ضُعفاء الناس وسقَطُهم ؟ قال الله تبارك وتعالىٰ للجنة: أنتِ رحمتي أرْحَمُ بكِ مَنْ أشاءُ من عبادي ، وقال للنار: إنما أنْتِ عذابٌ أُعذِّبُ بكِ مَنْ أشاءُ مِن عبادي ، ولكل واحِدَةٍ منهما مِلْؤُها ، فأمّا النار: فلا تَمْتَلِئُ حتىٰ يَضَعَ رِجْلَهُ فتقول: قَطْ قَطْ قَطْ ، فهنالِكَ تمتَلِئُ ويُزوىٰ بَعْضُها إلى بَعْض ، ولا يَظْلِمُ الله عزَّ وجلَّ مِنْ خلقِهِ أحداً. وأما الجنة: فإن الله عزّ وجل يُنْشِئُ لها خَلْقاً][3].

الحديث الثالث: أخرج مسلم في الصحيح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: [احْتَجَّت الجنة والنارُ ، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبِّرون. وقالت الجنة: فيَّ ضُعفاء الناس ومساكينهم. فقضىٰ بينهما ، فقال للجنة: إنما أنت رحمتي ، أرحمُ بك مَنْ أشاء مِن عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي ، أعذِّبُ بكِ من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤُها][4].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾. قال قتادة: (يقول: وأدنيت).

أي: قُرِّبت من المتقين يوم القيامة مكاناً غير بعيد ، أو شيئاً غير بعيد ، فكل آتٍ قريب.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4848) ، كتاب التفسير ، باب قوله: «وتقول هل من مزيد».

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7384) ، كتاب التوحيد ، وانظر الحديث (4848). ورواه مسلم بنحوه (2848) ، والترمذي (3272) ، وأحمد (3/ 134) ، (3/ 141).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4850) ، كتاب التفسير.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2847) ، وانظر نحوه مسند أحمد (3/ 13) ، (3/ 134).

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ . أي: هذا الثواب والإكرام إنما هو خاص لكل رجّاع إلى ذكر الله ، حافظ لحدوده ، مُعَظِّم لدينه. قال ابن عباس: (﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ قال: لكل مُسَبِّح). وقال مجاهد: (الأواب: المسبّح). وقال الحكم بن عُتَيبة: (هو الذاكر الله في الخلاء). وقال مجاهد في رواية: (الذي يذكر ذنوبه فيستغفر منها). وقال التيمي: (سألت ابن عباس عن الأوّاب الحفيظ قال: حفظ ذنوبه حتىٰ رجع عنها). وقال قتادة: (﴿ حَفِيظٍ ﴾ : حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته). قال ابن جرير: (هو حفيظ لكل ما قَرَّبَهُ إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سَلَفت منه للتوبة منها والاستغفار).

وقوله: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ . أي: من خاف الله في سرّه في الدنيا حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل.

وقوله: ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ . قال قتادة: (أي منيب إلى ربه مقبل).

قلت: وبين الخشية والإنابة صلة من النسب. فالإنابة أثر رفيع للخشية ، وتعني الرجوع والإحسان. قال الحسن: (عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمناً).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة ـ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ـ قال رسول الله ﷺ: [ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضت عيناه][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [عَيْنان لا تَمَسُّهُما النّار: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشية الله ، وعَيْنٌ باتت تحرس في سبيل الله][2].

ورواه الطبراني من حديث أنس بلفظ: [عَيْنان لا تَريان النارَ: عينٌ بَكَتْ وجَلاً من خشية الله ، وعينٌ باتت تكلأ في سبيل الله].

وقوله: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ . يعني الجنة. قال قتادة: (سَلِمُوا من عذاب الله عز وجل ، وسَلَّم عليهم ملائكة الله).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1423) ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة باليمين ، ورواه مسلم.
(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1338) ، أبواب فضائل الجهاد ، باب فضل الحرس في سبيل الله عز وجل. وانظر صحيح الجامع (3990) لرواية الطبراني.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾. قال قتادة: (خلدوا والله، فلا يموتون، وأقاموا فلا يظعنون، وَنَعِمُوا فلا يبأسون).

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أَبَداً، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعموا فلا تَبْأسوا أبداً][1].

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾. أي: من ألوان الملذات وأصناف المسرّات، فمهما طلبوا وجدوا، ومهما خطر في بالهم أحضر بين أيديهم.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمِنُ إذا اشتهىٰ الولَدَ في الجنة، كان حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وسنُّهُ في ساعةٍ كما يشتهي][2].

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. قال النسفي: (على ما يشتهون، والجمهور على أنه رؤية الله تعالىٰ). وقال القرطبي: (﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ مِنْ النعم مما لم يخطر على بالهم).

36 ـ 40. قوله تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تنبيه كفار قريش إلى مصير الأمم قبلهم ممن أسرف وكذّب، وإثبات الله تعالىٰ خلقه السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام دون تعب أو نصب. وتوجيهه تعالىٰ نبيّه ﷺ إلى الصبر والتسبيح والسجود أطراف النهار وآناء الليل فهو خير له وأطيب.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2837)، كتاب الجنة ونعيمها. باب في دوام نعيم أهل الجنة.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2077)، أبواب صفة الجنة. ورواه ابن ماجة في السنن (4338)، والدارمي (2/ 337)، وأبو يعلىٰ (1051).

فقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: وكثيراً أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قريش من القرون هم أشد من قريش الذين كذبوا محمداً).

وقوله: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾. قال ابن عباس: (أثّروا فيها). وقال مجاهد: (ضربوا في الأرض). وقال قتادة: (فساروا في البلاد). أي ابتغاء الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها، والخطاب لقريش.

وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾. أي: فهل كان لهم بتنقّبهم في البلاد وضربهم في أرجاء الأرض وجمعهم الأموال والمكاسب من معدل عن الموت، ومنجىً من الهلاك، ومفرّ من قضاء الله وقدره الذي حاق بهم نتيجة تكذيبهم الرسل؟!

والمحيص مصدر حاص عنه يحيص حَيْصاً وحُيوصاً ومَحيصاً ومَحاصاً وحيصاناً، أي: عَدَلَ وحادَ. ويقال: ما عنه محيص أي مَحيد ومَهْرب.

والمقصود: حاصرهم العذاب حين نزل بهم فما استطاعوا الحَيْص والمحيد والمهرب منه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾. أي: إن فيما ذكر في هذه السورة من الحقائق والأخبار لتذكرة وموعظة.

وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾. أي: لبٌّ يعَي به. وقال مجاهد: (عَقْلٌ). أي عقل يتدبر به، وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة.

قلت: والأولىٰ أن يقال ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: واع يفقه العبر، ويفهم آفاق موعظة هذا الوحي العظيم، فإن عمىٰ القلب هو أشد العمىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. قال قتادة: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي من هذه الأمة، يعني بذلك القلب: القلب الحي). وقال ابن زيد: (قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم).

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. أي أصغى إلى المواعظ وقلبه شاهد غير غافل ولا ساه. قال الضحاك: (العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد، يقول غير غائب).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

قال ابن عباس: (وما مسنا من نصب). وقال سفيان: (من سآمة).

واللغوب: التعب والإعياء، والآية في تقرير المعاد وإثبات إحياء الموتىٰ وبعثهم بطريق الأولىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: 33].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. قال النسفي: (أي على ما يقول اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه، أو على ما يقول المشركون في أمر البعث، فإن من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم).

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

قال ابن زيد: (قبل طلوع الشمس: الصبح، وقبل الغروب: العصر).

أخرج البخاري في صحيحه عن جرير قال: [كنّا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلةً ـ يعني البَدْرَ ـ فقال: إنكم سَتَرَون رَبَّكم كما تَرَوْنَ هذا القَمَر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾][(1)].

قال ابن كثير: (وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء، ثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر، وقيامُ الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حَوْلاً، ثُمَّ نُسِخَ في حَقِّ الأمَّةِ وجوبُه. ثم بعد ذلك نسخَ الله تعالىٰ ذلك كُلَّه ليلةَ الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن صلاةُ الصبحِ والعصر، فهما قبل طلوعِ الشمس وقبل الغروب).

قلت: والمقصود تسلية الله تعالىٰ نبيّه ﷺ عما يلقاه من تكذيب المشركين، ليستعين بالله عليهم بالتسبيح في هذين الوقتين الكبيرين، فإنهما وقتان ينشغل عنهما كثير من الناس ويغفلون عن أهميتهما.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (554)، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، وكذلك أخرجه برقم (573)، ورواه أحمد (4/ 362)، وابن حبان (7443).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال أبو الأحوص: (هو تسبيح الله تعالىٰ في الليل).

2 ـ قال مجاهد: (﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾: من الليل كله). أي صلاة الليل كله.

3 ـ عن ابن عباس: (أنها ركعتا الفجر).

4 ـ عن ابن زيد: (﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال: العتمة). يعني صلاة العشاء الآخرة.

وفي التنزيل نحو ذلك، قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: 79].

وفي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ تَعَارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحْدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله، ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دَعا استُجيبَ، فإنْ توضأ وصَلّىٰ قُبِلت صَلاتُه][1].

وقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾. قال ابن عباس: (هو التسبيح بعد الصلاة).

وقيل: (هما الركعتان بعد المغرب). روي ذلك عن عمر وعلي وابن عباس وأبي هريرة وأبي أمامة، وأثر ذلك عن مجاهد وقتادة. ولا مانع من اجتماع القولين.

وفي الصحيحين عن وَرَّاد مولىٰ المغيرة بن شُعبة قال: كتب المغيرةُ إلى معاوية بن أبي سفيان: [أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول في دُبر كل صلاة إذا سَلَّمَ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانِعَ لما أعطيتَ، ولا مُعْطي لما مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ][2].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: [جاء فُقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذَهب أهلُ الدُّثور بالدرجات العُلاَ والنَّعيم المقيم. فقال: وما ذاك؟ قالوا: يُصَلّون كما نُصَلّي، ويصومون كما نصومُ، ويتصدَّقون ولا نتصَدَّق،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1154) كتاب التهجد، ورواه أبو داود (5060)، والترمذي (3411) من حديث عبادة بن الصامت.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6330)، كتاب الدعوات، وأخرجه مسلم (593)، وأحمد (4/ 250)، وأبو داود (1505)، والنسائي (3/ 71). وقوله: «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» أي: لا ينفع ذا الغنى منك غنىً، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة.

ويُعتِقون ولا نُعتِق ! قال: أفلا أُعَلِّمُكُم شيئاً إذا فعلتموه سَبَقْتُم مَنْ بعدكم ، ولا يكون أحدٌ أفضلَ منكم إلا مَنْ فَعَلَ مثل ما فعلتم ؟ تُسَبِّحُون وتحمدون وتكبرِّون دُبُرَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين. قال: فقالوا: يا رسولَ الله ، سمِعَ إخوانُنا أهلُ الأموالِ بما فعلنا ، ففعلوا مثله. قال: ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء][1].

41 ـ 45. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تسليةُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ عما يلقاه من تكذيب قومه بذكر ساعة البعث من القبور لمشهد الحشر ، ثم القيام بين يدي الجبار لفصل الأمر. وأمره تعالىٰ له بالتذكير بالقرآن ففيه الذكرىٰ لمن أراد خير المستقر.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾. قال كعب: (ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء). وقال قتادة: (كنا نحدّث أنه ينادىٰ من بيت المقدس من الصخرة وهي أوسط الأرض).

قلت: والأَوْلى عدم تحديد المكان الذي ينادىٰ منه ما دام لم يقم دليل قوي للاحتجاج. فيكون المعنىٰ كما قال ابن جرير: (واستمع يا محمد صيحة يوم القيامة يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب).

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾. قال ابن كثير: (يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾. أي: ذلك يوم خروج أهل القبور من قبورهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾. أي: هو الذي يحيي الأموات

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (595) ، كتاب المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة ، وبيان صفته. والدثور: واحدها دثر ، وهو المال الكثير.

ويميت الأحياء ، فله سبحانه بدء الخلق وإعادته ، وإليه مصير جميع الخلائق .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ﴾ . أي : يوم تصدّع الأرض عنهم فيخرجون منها سراعاً . كما قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : 52] . وكقوله جل ذكره : ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : 8] . فنصبت ﴿ سِرَاعًاۚ ﴾ على الحال .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً : [ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغىٰ ليتاً ورفع ليتاً ـ أي : أمال صفحة عنقه ـ وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه ـ أي : يصلحه ويطينه ـ فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعالىٰ مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون][1] .

وفي صحيح مسلم وسنن أبي داود ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [أنا سَيد ولد آدمَ يوم القيامة ، وأول من ينشقّ عنهُ القبر ، وأولُ شافع ، وأولُ مشفع][2] .

ولفظ أبي داود : [أنا سَيِّد ولد آدم ، وأوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عنه الأرض ، وأَوَّلُ شافع ، وأوَّلُ مُشَفَّعٍ] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ . قال القاسمي : (أي ذلك الإخراج لهم جمع في موقف الحساب ، علينا سهل بلا كلفة) .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان : 28] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر : 50] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : [قال الله تعالىٰ : كَذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكنْ له ذلك ، وشتَمَني ولم يكنْ له ذلك ، فأما تكذيبه إيايَ

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (2940) ، وأحمد في المسند (2/ 166) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2278) ، كتاب الفضائل ، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق . وأخرجه أبو داود (4673) ، كتاب السنة ، باب في التخيير بين الأنبياء .

فقوله: لن يُعيدني كما بدأني ، وليس أوَّلُ الخلقِ بأَهْوَنَ عليَّ من إعادتِه ، وأما شَتْمُه إياي فقوْلُه: اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصَّمد ، لم أَلِدْ ولم أُوْلَد ، ولم يُكنْ لي كفُواً أحَدٌ][1].

وقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾. تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد لمشركي قريش الذين يكذبون بالبعث وينكرون قدرة الله على ذلك ، ويفترون الكذب على الله ورسوله.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾. أي: وما أنت ـ يا محمد ـ بمسلط ومسيطر عليهم لتقهرهم على الإيمان.

وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾. أي: إنما أنت ـ يا محمد ـ منذر ، تبلغ رسالة ربك ، وتنذر من يخاف وعيد الله الذي أوعد به من تكبر وطغىٰ ، فإنه سينتفع بذلك.

تم تفسير سورة «ق»
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
بعد عودتي من العمرة
يوم الاثنين 25 ـ رجب ـ 1426 هـ
الموافق 29 ـ آب ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4974) ، كتاب التفسير ، وانظر كذلك (3193).

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ كان رسول الله ﷺ يقرأ «ق» كل يوم جمعة على المنبر ، إذا خطب الناس.

2 ـ «المجيد» وصف من أوصاف الفخامة لهذا القرآن العظيم. وهو يعني الرفيع القدر الكريم.

3 ـ استبعد الكفار بشرية النبي كما استبعدوا البعث ، فنبههم الله أن الذي قدر أن يخلق الكون قادر على البعث.

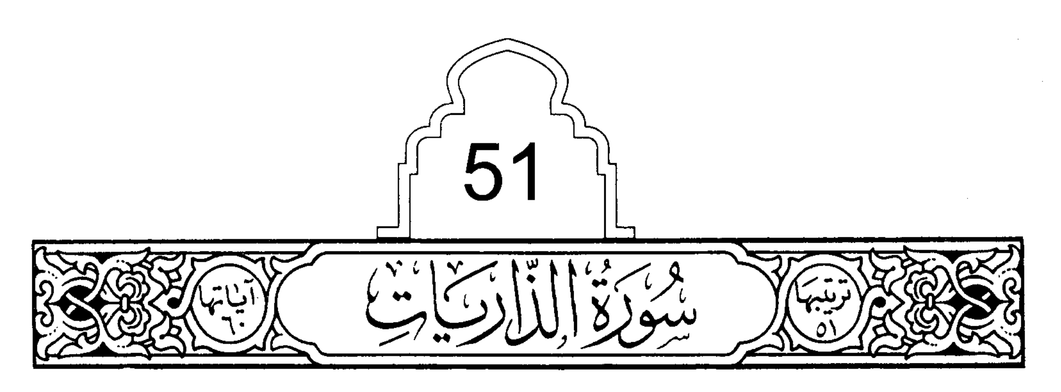
4 ـ الملائكة أقرب للإنسان من حبل الوريد إليه ، وله قرين ملكي يأمره بالخير ، وآخر جني يأمره بالشر.

5 ـ الكل مؤمن مستبصر يوم القيامة ، لكن لا ينفع ذلك ، وجهنم تسأل المزيد.

6 ـ أنعم النعيم في الجنة رؤية وجه الله الكريم.

7 ـ كانت الصلاة المفروضة ثنتين الفجر والعصر ، ثم شرعت خمس صلوات.

8 ـ أول من تنشق عنه الأرض النبي ﷺ ، وهو أَوَّلُ شافِعٍ وأول مُشَفَّع.



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (60).

موضوع السورة

الإقسام بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات
على إهلاك الطغاة والمجرمين في النار في الدركات

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إقسام الله تعالى بالرياح والسحب والسفن والملائكة على وقوع المعاد ومشهد الحساب.

2 ـ إقسام الله تعالى بالسماء المحبوكة أن المشركين في مذاهب شتى من الهوى والضلال.

3 ـ وصف المجرمين وهم أمام النار يفتنون ، ويقال لهم ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون.

4 ـ نَعْتُ حال المتقين في جنات النعيم ، فلقد كانوا أهل جهاد وبذل وقيام ، واستغفار بالليل والناس نيام.

5 ـ تنبيه الله عباده على آيات في الآفاق والأنفس قَدَّرها ، وعلى سنن الرزق التي كتبها.

6 ـ ذِكْرُ خبر إبراهيم عليه السلام ، مع ضيوفه من الملائكة الكرام.

7 ـ قصة إهلاك قوم لوط المجرمين ، ونجاة لوط ومن معه من المؤمنين.

8 ـ قصة إهلاك الطغاة الآثمين ، من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم من المجرمين.

9 ـ قدرة الله العجيبة في الخلق ، والشرك أعظم الذنوب ، والرسول نذير مبين.

10 ـ تشابه سلوك المكذبين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وغاية الخلق عبادة الله الرزاق ذي القوة المتين ، وويل للكفرة من يومهم الذي يوعدون.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 14. **قوله تعالى:** ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)﴾.

في هذه الآيات: قَسَمٌ من الله تعالى بالرياح والسحب والسفن والملائكة على وقوع المعاد، ومشهد الحساب. وقَسَمٌ منه تعالى بالسماء المحبوكة الأخّاذة أن المشركين في مذاهب شتى من الهوى والضلال والآثام، مصروفون عن الحق واليقين والإيمان، ملعونون في تكذيبهم بيوم الدين، وقريباً يكونون أمام نار جهنم يفتنون، ويقال لهم تقريعاً: هذا الذي كنتم به تستعجلون.

فقوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾. قال مجاهد: (الرياح). أي: والرياح التي تذرو التراب ذرواً. وعن خالد بن عُرعرة قال: (قام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال: «ما الذاريات ذرواً»؟ فقال: هي الريح). رواه بسنده ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾. الوِقْر: كالحمل وزناً ومعنى. والمقصود: السحب التي تحمل وقرها من الماء. قال القاسمي: (﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أي السحب الحاملة للأمطار المنبتة للزروع والأشجار لإفادة الحبوب والثمار).

وقوله تعالى: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾. قال مجاهد: (السفن). أي: فالسفن التي تجري في البحار جرياً سهلاً يسيراً.

وقوله تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾. قال مجاهد: (الملائكة ينزلها بأمره على من يشاء). قال النسفي: (أقسم بالرياح فبالسحاب التي تسوقه فبالفلك التي تجريها بهبوبها

فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعها).

فهذه الآيات قسم من الله تعالى على وقوع المعاد، ويؤكد ذلك الآيات التي تليها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾. جواب القسم، و﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية، والموعود البعث. أي إن أمر البعث بعد الموت للحساب والجزاء لخبر صدق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾. الدين: الجزاء. قال مجاهد: (الحساب). وقال قتادة: (﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ وذلك يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم). أي: إن ذلك الحساب والجزاء كائن يوم القيامة لا محالة.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن معاذ بن جبل مرفوعاً: [تعلمون المعادَ إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإقامةٌ لا ظعنَ فيه، وخلودٌ لا موت، في أجسادٍ لا تموت][(1)].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾. الحبيكة في كلام العرب الطريقة في الرّمل ونحوه، وجمع الحِباك «حُبُك». قال الفرّاء: (الحُبُك: تكَسُّر كل شيء كالرَّمل إذا مرت به الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرّت به الريح). قال الحسن: (﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾: حبكت بالخلق الحسن، حبكت بالنجوم). وقال سعيد بن جبير: (ذات الزينة). وعن ابن عباس: (ذات البهاء والجمال والحُسن والاستواء).

قال ابن كثير: (فإنها من حُسنها مرتفعةٌ شفَّافَةٌ صفيقةٌ، شديدةُ البناء، مُتَّسِعة الأرجاء، أنيقَةُ البَهاء، مُكَلَّلةٌ بالنجوم الثوابت والسيَّارات، مُوَشَّحَةٌ بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات).

وقال بعض علماء الفلك: (الحبك جمع حبيكة، بمعنى محبوكة، أي: مربوطة. فمعنى ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض بحبال من الجاذبية، فإن كل حبيكة مجموعة من الكواكب المتجاذبة. فالآية الشريفة نص على تعدّد المجاميع وعلى الجاذبية التي يزعم الإفرنج أنهم مكتشفوها. وعليه، فهي إحدى معجزات القرآن العلمية).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾. قال قتادة: (مصدق بهذا القرآن ومكذب).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 83)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (10/ 396) بنحوه، وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1668).

وقال ابن زيد: (يتخرصون يقولون هذا سحر، ويقولون هذا أساطير، فبأي قولهم يؤخذ). والمقصود: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل لفي قول متخالف متناقض مضطرب، لا يلتئم ولا يجتمع، يعكس ألوان الهوى من قلوبكم.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾. أي: يصرف عن الإيمان والقرآن من صرف الله قلبه عن الحق. قال الحسن البصري: (يصرف عن هذا القرآن من كَذَّبَ به). قال ابن جرير: (يصرف عن الإيمان بهذا القرآن من صرف، ويدفع عنه من يُدْفع، فَيُحْرَمُه).

والمقصود: يؤفك عن القرآن أو الرسول أو الإقرار بأمر القيامة من هو في سابق علم الله مأفوك ـ مصروف ـ عن الحق، لتعظيمه الهوى والشهوات.

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾. قال ابن عباس: (لُعن المرتابون)، أو قال: (الكهنة). وقال مجاهد: (الذين يتخرصون الكذب ـ قال ـ: الذين يقولون: لا نُبْعث ولا يوقنون). وقال قتادة: (أهل الظنون). وقال ابن زيد: (القوم الذين كانوا يتخرصون الكذب على رسول الله ﷺ، قالت طائفة: إنما هو ساحر، والذي جاء به سحر. وقالت طائفة: إنما هو شاعر، والذي جاء به شعر، وقالت طائفة: إنما هو كاهن، والذي جاء به كهانة، وقالت طائفة: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 5] يتخرصون على رسول الله ﷺ).

وخلاصة المعنى: هلك أهل الغِرَّة والظنون، الذين يتجاوزون دلائل اليقين، إلى الأخذ بالهوى والتخمين.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾. قال ابن عباس: (في غفلة لاهون). وقال أيضاً: (في ضلالتهم يتمادون). وقال قتادة: (في غمرة وشبهة). والغمرة: ما ستر الشيء وغطاه، و﴿سَاهُونَ﴾: أي غافلون. فالمعنى: الذين هم في الكفر والشك غارقون، وعن أمر الآخرة لاهون غافلون.

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾. قال مجاهد: (يقولون متى يوم الدين، أو يكون يوم الدين). أي: فهم يسألون متى يوم الحساب استهزاء واستبعاداً وشكاً في القيامة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. قال ابن عباس ومجاهد: (يُعَذَّبون كما يفتن الذهب على النار). وقال عكرمة وسفيان الثوري: (يفتنون: يُحرقون).

وأصل الفتنة الاختبار ، ومنه قولهم : فتنت الذهب أي أحرقته بغية اختباره . ونصب «يومَ» بفعل محذوف تقديره «يقع» ـ دلّ عليه السؤال .

وقوله تعالى : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

أي : يقال لهم : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ قال مجاهد : (حريقكم) . وقال قتادة : (ذوقوا عذابكم) . وقال ابن عباس : (تكذيبكم) . قال ابن جرير : (﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ : هذا العذاب الذي توفونه اليوم هو العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا) . وإنما يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً .

15 ـ 23 . **قوله تعالى** : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : نَعْتُ حال المتقين ، في جنات النعيم ، فلقد كانوا في جهاد وبذل وقيام ، واستغفار بالأسحار والناس نيام . وتنبيه الله تعالى عباده على آيات في الآفاق وفي أنفسهم ، وسنن الرزق الذي ضمن وصوله إليهم .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ . قال ابن جرير : (إن الذين اتقوا الله بطاعته واجتناب معاصيه في الدنيا في بساتين وعيون ماء في الآخرة) .

وقوله : ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ ﴾ . قال ابن عباس : (أي عاملين بالفرائض) . وعن الضحاك : (﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ ﴾ : أي ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات) . ونصب ﴿ ءَاخِذِينَ ﴾ على الحال من قوله : ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ مما يرجح أن المراد : المتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم من النعيم والسرور والغبطة . وهو اختيار ابن كثير ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ . قال ابن عباس : (المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم) . وقال القرطبي : (﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ أي قبل دخولهم الجنة في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بالفرائض) .

وقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ فيه تأويلان حسب وقوع ﴿مَا﴾ من الإعراب:

التأويل الأول: ﴿مَا﴾ نافية. فالتقدير: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه[1]. قال ابن عباس: (لم تكن تمضي عليهم ليلةٌ إلا يأخذون منها ولو شيئاً). وقال مطرِّف ابن عبد الله: (قَلَّ ليلةٌ تأتي عليهم لا يُصَلّون فيها لله ـ عزَّ وجل ـ ، إمّا من أوّلها وإمّا من أوسَطِها). وقال مجاهد: (قَلَّ ما يَرقُدون ليلة إلى الصباح لا يتهجّدون). وقال قتادة عن أنس بن مالك: (﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ قال: يتيقظون يصلون ما بين هاتين الصلاتين، ما بين المغرب والعشاء). وفي لفظ: (كانوا يصلون في ما بين المغرب والعشاء) ـ ذكره الترمذي. وقال أبو جعفر الباقر: (كانوا لا ينامون حتى يُصَلّون العتمة).

التأويل الثاني: ﴿مَا﴾ مصدرية. والتقدير: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم. قال الحسن البصري: (كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقلّه، ونشِطوا فمَدّوا إلى السَّحر، حتى كان الاستغفار بِسَحَر).

قلت: وكلا التأويلين سالك منسجم مع مفهوم قيام الليل، فإن خير القيام هو بعد نوم النصف الأول من الليل، ثم يستيقظ الثلث وينام السدس، فهو نوم قليل لِتَقَطُّعِهِ، كما قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16].

ومن كنوز صحيح السنة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو، أنّ رسول الله ﷺ قال: [أحبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صلاةُ داودَ عليه السلام، وأحَبُّ الصيام إلى الله صيامُ داودَ، وكان ينامُ نِصْفَ الليل، ويقومُ ثُلثه، وينام سُدسه، ويصوم يوماً ويُفطر يوماً][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في الصحيح عن حفصة، عن رسول الله ﷺ قال: [نِعْمَ الرَّجُل عَبْدُ الله لو كان يُصَلّي من الليل. فكان بَعْدُ لا ينام من الليل إلا قليلاً][3].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن عبد الله بن سلام قال: [لما قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة انجفَلَ الناسُ إليه، فكنتُ فيمن انجفلَ، فلما رأيتُ

(1) أصل الهجوع النوم ليلاً، و﴿يَهۡجَعُونَ﴾: أي ينامون. والتَّهْجاع: النومة الخفيفة.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (1131) ـ كتاب التهجد، باب من نام عند السَّحَر.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (1122) ـ كتاب التهجد، باب فضل قيام الليل.

وجَهه عرفتُ أن وجهَهُ ليس بوجهِ رَجُلٍ كذّاب ، فكان أولُ ما سمعته يقول: يا أيها الناس أطعموا الطعامَ ، وصِلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بِسَلامٍ][1].

الحديث الرابع: أخرج الترمذي بسند حسن عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ في الجنة لَغُرَفاً يُرى ظُهورُها من بُطونها وبطونُها مِنْ ظهورِها. فقام إليه أعرابي فقال: لِمَنْ هي يا نبيَّ الله؟ قال: هيَ لِمَنْ أطابَ الكلامَ ، وأطعَمَ الطعامَ ، وأدامَ الصيامَ ، وصلّى لله بالليل والناس نيام][2].

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾. قال مجاهد: (يصلون). وقال الحسن: (مدّوا في الصلاة ونشِطوا حتى كان الاستغفار). قال ابن زيد: (السَّحَرُ هو السدس الأخير من الليل).

قلت: ولا شك أن أفضل أوقات الاستغفار والدعاء هو في السَّحر في الثلث الآخر من الليل ، فإن كان الاستغفار والدعاء في سجود صلاة الليل كان أقرب وأفضل.

ففي الصحيحين والمسند ومعظم السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: [يَنزل ربنا تبارك وتعالى كُلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا حين يَبْقى ثُلُثُ الليل الآخِرُ يقول: مَنْ يدعوني فأستجيبَ لهُ؟ مَنْ يَسْألني فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرني فأغفِرَ لَهُ؟][3]. وفي رواية: (حتى يطلعَ الفجر).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن عمرو بن عبسة ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [أقربُ ما يكون الربُّ من العبدِ في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أنْ تكونَ مِمّن يذكر الله في تلك الساعةِ فكن][4].

وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾. ثناء عليهم بإقامة أمر الإنفاق والصدقة والزكاة ، بعد وصفهم بإقامة الصلاة. ومن أقوال المفسرين في هذه الآية:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2485) ، وابن ماجة (3251) ، والحاكم (3/ 13).

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2051) ـ أبواب صفة الجنة ـ باب ما جاء في صِفة غُرف الجنة. ورواه أحمد وابن حبان من حديث أبي مالك الأشعري ، وقد مضى.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1145) ـ كتاب التهجد ، وكذلك (6321) ، (7494) ، وأخرجه مسلم (758) ، وأبو داود (1315) ، والنسائي (480) ، وابن ماجة (1366) ، وأخرجه أحمد في مسنده (2/ 267) ، وابن حبان في صحيحه (920).

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات. انظر صحيح سنن الترمذي (2833).

1 ـ قال ابن عباس: (السائل: الذي يسأل الناس، والمحروم: الذي ليس له في الإسلام سهم وهو محارَف). قال الضحاك: (المحروم: هو المُحارَفُ الذي لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك). وقال إبراهيم: (هو المحارَفُ الذي ليس له أحد يعطف عليه أو يعطيه شيئاً).

2 ـ قال الزهري: (السائل: الذي يسأل، والمحروم: المتعفف الذي لا يسأل). قال قتادة: (السائل الذي يسأل بكفه، والمحروم المتعفف، ولكليهما عليك حق يا ابن آدم).

3 ـ قال ابن زيد: (المحروم: المصاب ثمره وزرعه).

واختار ابن جرير أنه الذي قد حُرم الرزق واحتاج، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره، فصار ممن حرمه الله ذلك، وقد يكون بسبب تعففه وتركه المسألة، ويكون بأنه لا سهم له في الغنيمة لغيبته عن الوقعة.

وفي الصحيحين وسنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئاً، ولا يَفْطِنونَ به فيعطونه][1].

وفي رواية: [ولكن المسكين المتعفف]. وزاده مسدّد في حديثه: [ليس له ما يستغني به، الذي لا يسأل ولا يعلم بحاجته فيتصدق عليه فذاك المحروم][2].

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾. قال قتادة: (معتبر لمن اعتبر). وقال: (إذا سار في أرض الله رأى عبراً وآيات عظاماً).

قال ابن كثير: (﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أي: فيها من الآيات الدّالة على عَظَمَةِ خالِقها وقُدرته الباهرة، مما قد ذَرَأَ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والقِفارِ والأنهار والبحار، واختلاف ألسنةِ الناس وألوانِهم، وما جُبِلُوا عليه من الإرادات والقُوى، وما بينهم من التفاوُتِ في العقول والفُهوم والحركاتِ، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحِكَم في وضعِ كل عضو من أعضائهم في

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4539)، كتاب التفسير، وكذلك (1476) ـ كتاب الزكاة. وأخرجه مسلم (1039) ح (102) ـ كتاب الزكاة. وأخرجه أبو داود (1631).

(2) حديث صحيح ـ دون قوله: «فذاك المحروم» فإنه مقطوع من كلام الزهري. انظر صحيح سنن أبي داود (1437)، كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة؟ وحد الغنى.

المحل الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ . قال عبد الله بن الزبير : (سبيل الخلاء والبول) . وقال ابن زيد : (فينا آيات كثيرة : هذا السمع والبصر واللسان والقلب ، لا يدري أحد ما هو أسود أو أحمر ، وهذا الكلام الذي يتلجلج به ، وهذا القلب أي شيء هو ، إنما هو مضغة في جوفه ، يجعل الله فيه العقل ، أفيدري أحد ما ذاك العقل ، وما صفته ، وكيف هو؟) . وقال قتادة : (من تفكَّر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولُيِّنَت مَفاصِلهُ للعبادة) . فيكون المعنى كما قال ابن جرير : (وفي أنفسكم أيضاً أيها الناس آيات وعبر تدلكم على وحدانية صانعكم وأنه لا إله لكم سواه) .

وقوله : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ فيه أقوال متقاربة ومتكاملة :

1 ـ قال الضحاك وسعيد بن جبير : (الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق) . قال سعيد بن جبير : (كل عين قائمة فإنها من الثلج) .

2 ـ وعن الحسن : أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : (فيه والله رزقكم ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم) .

3 ـ وقال سفيان الثوري : (﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ أي عند الله في السماء رزقكم) . وقال ابن كيسان : (يعني وعلى ربّ السماء رزقكم ، نظيره : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ [هود : 6]) . وقيل : المعنى وفي السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب .

4 ـ وقال أهل المعاني : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ معناه : وفي المطر رزقكم ، سمى المطر سماء لأنه من السماء ينزل .

وقوله : ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ فيه أقوال متكاملة :

1 ـ قال مجاهد : (يعني من خير وشر) . وقال غيره : (من خير خاصة) . وقيل : (الشر خاصة) .

2 ـ قال ابن عباس : (﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ : يعني الجنة) .

3 ـ قال الضحاك : (﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الجنة والنار) .

4 ـ قال ابن سيرين : (﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من أمر الساعة) .

وقوله : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : إنّ

الذي قلت لكم أيها الناس: إن في السماء رزقكم وما توعدون لحق، كما حق أنكم تنطقون). وقال القرطبي: (أكَّدَ ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحقٌّ، ثم أكّده بقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ وخصّ النطق من بين سائر الحواس، لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه، كالذي يُرى في المرآة، واستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها، والدويّ والطنين في الأذن، والنطق سالم من ذلك). ثم ذكر قول بعض الحكماء: (كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره).

24 ـ 30. **قوله تعالى**: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ خبر إبراهيم عليه السلام، مع ضيوفه من الملائكة الكرام، وإلقائهم إليه البشرى ولزوجته بقدوم الغلام، وتعجّب الزوجة الفاضلة وهي عجوز عقيم من تلك البشرى ولكنه قضاء الله الذي يعلو كل أمر أو عُرف أو كلام.

فقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾. قال النسفي: (تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول الله ﷺ وإنما عرفه بالوحي).

وقوله: ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾. أي من الملائكة. قيل: هم جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صورة شباب حِسان، عليهم مهابة عظيمة.

وقوله: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾. قال مجاهد: (أكرمهم إبراهيم، وأمر أهله لهم بالعجل حينئذ). وقيل: لأن إبراهيم عليه السلام وسارة خدماهم بأنفسهما ـ ذكره ابن جرير. وقيل: المكرمين عند الله ـ ذكره القرطبي، وكلا المعنيين حق.

وقوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ﴾. أي عليكم سلام، أو أمري سلام، أو ردّي لكم سلام. قال ابن كثير: (﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ الرفع أقوى وأثبتُ من النصب، فَرَدُّهُ

أفضلُ من التسليم ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: 86] ، فالخليل اختار الأفضل).

وقوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾. أي غرباء لا نعرفكم. قال أبو العالية: (أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض). وقيل: خافهم ، يقال: أنكرته إذا خفته. ورُفِعَ ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ بإضمار أنتم.

وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾. قال الزجاج: (أي عدل إلى أهله). والمقصود: انسَلَّ إلى أهله ورجع في خِفية مسرعاً ليحضر لهم ضيافة ، وهذا من أدب المضيف.

وقوله: ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾. أي فجاء ضيفه بعجل مشوي قد أنضجه شيّاً.

وقيل: جاء لهم من خيار ماله. وفي الآية الآخرى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: 69]. أي: مشوي على الرَّضْف.

وقوله: ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾. أي: أدناه منهم ليأكلوا منه فلم يأكلوا.

وقوله: ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾. قال ابن كثير: (تَلَطُّفٌ في العبارة وعَرْضٌ حَسَنٌ. وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعُرون بسرعة ، ولم يمتَنَّ أوّلاً فقال: نأتيكم بطعام؟. بل جاء به بسُرعَةٍ وخَفاءٍ ، وأتى بأفضَل ما وجَدَ من ماله ، وهو عِجْلٌ فَتِيٌّ سَمين مَشْويٌّ ، فقرّبه إليهم ، لم يضَعْهُ ، وقال اقتربوا ، بل وضَعَهُ بين أيديهم ، ولم يأمُرهم أمراً يَشُقُّ على سامِعه بصيغةِ الجَزْم ، بل قال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، على سبيل العَرْض والتَّلَطُّف ، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضّل وتُحسِن وتتصدّق فافعَل).

وقوله: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾. أي: فأضمر منهم مخافة ، وأحسّ منهم في نفسه خوفاً حين لم يأكلوا طعامه. وقوله: ﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾. أي: لما رأوا ما بإبراهيم من الخوف أعلموه أنهم ملائكة الله ورسله وبَشَّرُوه بولد يولد له من سارة زوجته. وهذا مبسوط في سورة هود ، في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾. أي: فاستبشرت بهلاكهم ، لفرط كبرهم وعتوهم وتمردهم على الله تعالى ، فعند ذلك زادتها الملائكة بشرى ثانية: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: 70 ـ 70]. فأضاف البشرى هنا لها ، وأضافها في هذه السورة لإبراهيم بقوله: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ

عَلِيمٍ﴾ ، ولا شك أن البشارة تشملها لأن الولد منهما ، ومع ذلك فكل منهما كما سبق مبشر بغلام عليم: أي يبلغ ويكمل علمه.

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾. قال ابن عباس: (في صيحة). وقال قتادة: (أي أقبلت في رنة). والمقصود: أقبلت في صَرْخَة وعَيْطَة ورنة من العجب.

وقوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾. قال ابن عباس: (لطمت). وقال السدي: (لما بشّر جبريل سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ضربت جبهتها عجباً). وقال سفيان: (وضعت يدها على جبهتها تعجباً). والمقصود: ضربت بيدها على جبينها تعجباً، كما تتعجَّبُ النساء من الأمر الغريب.

وقوله: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾. قال الضحاك: (لا تلد). أي: كيف ألد وأنا عجوز، وقد كنت في حال الصِّبا عقيماً لا أحبَلُ؟ والعقيم: التي لا تلد.

وقوله: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾. أي: فلا تشكّي في أمر الله وبشارته.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾. أي: إنه ـ تعالى ـ هو الحكيم في تصريفه شؤون خلقه، العليم بمصالحهم وما تستحقونه أنتم أهل البيت من الكرامة.

31 ـ 37. قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآيات: قصة إهلاك قوم لوط المجرمين، ونجاة لوط ومن معه من المؤمنين، وجعل الله تعالى ذلك آية للذين يخافون العذاب الأليم.

فقوله تعالى: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. أي: فما شأنكم أيها المرسلون. قال النسفي: (أي فما شأنكم وما طلبتكم وفيم أرسلتم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أرسلتم بالبشارة خاصة أو لأمر آخر أو لهما).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾. يعنون قوم لوط، الذين أجرموا لكفرهم بالله وإصرارهم على استباحة ما يسخطه.

وقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً﴾. أي مُعَلَّمة. قال ابن عباس: (المسوّمة: الحجارة المختومة، يكون الحجر أبيض فيه نقطة سوداء، أو يكون الحجر أسود فيه نقطة بيضاء). قلت: والله تعالى أعلم بتفصيل ذلك.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾. قال ابن كثير: (أي: مُكتتبةً عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه). والمقصود: أنها حجارة من طين خُصِّصَت للقوم المتعدين حدود الله الكافرين به، ليرميهم بها تعالى من السماء.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ـ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ـ قال ابن جرير: (فأخرجنا من كان في قرية سدوم، قرية قوم لوط من أهل الإيمان بالله، وهم لوط وابنتاه).

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. قال قتادة: (لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم الله، ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله).

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. قال القرطبي: (أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم). وقال ابن كثير: (أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنَّكال وحجارة السِّجِّيل، وجعلنا مَحَلَّتَهُم بُحيرةً منتنةً خبيثةً، ففي ذلك عبرةٌ للمؤمنين، الذين ﴿يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾).

38 ـ 46. قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٣٩ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۝٤٢ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۝٤٣ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ۝٤٥ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٤٦﴾.

في هذه الآيات: قصةُ إهلاك الطغاة الآثمين، من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم من المجرمين، وجعل الله تعالى ذلك آية للذين يخافون العذاب الأليم.

فقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. قال قتادة: (بعذر مبين). قال الفراء: (هو معطوف على قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾).

والمقصود: أي وتركنا أيضاً في قصة موسى آية كبيرة ، إذ أرسلناه إلى فرعون بحجة بالغة ودليل باهر قاطع ، فأصَرَّ على الكفر والكبر ، فدكّه وجنوده العذاب.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾. أي أعرض عن الإيمان بجموعه وأجناده وغروره وسطوته. قال مجاهد: (﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ بعضده وأصحابه). وقال قتادة: (غلب عدو الله على قومه). وقال ابن زيد: (بجموعه التي معه). وأصل الركن الجانب والناحية التي يعتمد عليها ويتقوى بها.

وقوله: ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾. أي: قال فرعون لموسى معرضاً متكبراً: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾. أي: فحملناه وجنوده الذين تابعوه على الكفر فألقيناهم في البحر فغرقناهم فيه.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. أي: وفرعون في ذلك مليم ، يعني قد أتى ما يُلام عليه من الفعل ، وهو الكفر والعناد. قال قتادة: (أي مليم في نعمة الله. مليم في عباد الله).

وقوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾. أي: وكذلك فقد تركنا في قصة عاد عبرة لمن تدبر وتأمل ، إذ أرسلنا عليهم ريح العذاب مقابل عنادهم وإصرارهم على الكفر. قال ابن عباس: (الريح العقيم: الريح الشديدة التي لا تُلقح شيئاً. لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب). وقال مجاهد: (ليس فيها رحمة ولا نبات ولا تلقح نباتاً).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [نُصِرْت بالصَّبا ، وأهلِكَت عادٌ بالدَّبُور][1].

وقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾. أي مما تفسده الريح. ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾. قال مجاهد: (كالشيء الهالك). وقال ابن عباس: (كالشيء الهالك البالي).

أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي وائل ، عن رجل من ربيعة قال: [قدمت المدينة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، فذكرت عنده ، وافد عاد. فقلت: أعوذ بالله أن أكون مثل وافد عاد. فقال رسول الله ﷺ: «وما وافِدُ عادٍ؟» قال: فقلت: على الخبير بها سقطت: إن عاداً لما أقحطت بعثت قيلاً ، فنزل على بكر بن معاوية بن وائل فسقاه

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3205) ـ كتاب بدء الخلق ، وكذلك (1035) ، وكذلك أخرجه (4105) ، ورواه مسلم في الصحيح (900) ، وقد مضى.

الخمر وغنته الجرادتان ، ثم خرج يريد جبال مهرة فقال: اللهم إني لم آتك لمريض فأداويه ، ولا لأسير فأفاديه ، فاسق عبدك ما كنت مسقيه ، واسق معه بكر بن معاوية ـ يشكر له الخمر الذي سقاه ـ فرفع له سحابات فقيل له: اختر إحداهن ، فاختار السوداء منهن ، فقيل له: خذها رماداً رمدداً ، لا تذر من عاد أحداً ، وذكر أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر هذه الحلقة ـ يعني حلقة الخاتم ـ ثم قرأ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾][1] .

وقوله: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾. أي: وكذلك فقد تركنا في قصة ثمود عبرة وآية لمن يستفيد من الذكرى والآيات والعبر. ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: عيشوا متمتعين بالدنيا إلى وقت الهلاك الذي ضرب عليكم وهو ثلاثة أيام كما في سورة هود: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65] ، فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكرة النهار.

وقوله: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾. أي: استكبروا عن امتثاله. قال مجاهد: («فعتوا»: عَلَوْا). وقال ابن زيد: (العاتي: العاصي التارك لأمر الله).

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾. أي: العذاب. قال الحسن بن واقد: (كلّ صاعقة في القرآن فهو العذاب). قال النسفي: (وكل عذاب مهلك صاعقة).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾. أي إليها ، فإنها نزلت بهم نهاراً.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾. أي من نهوض. قال قتادة: (يقول: ما استطاع القوم نهوضاً لعقوبة الله تبارك وتعالى).

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾. أي ممتنعين من العذاب. قال قتادة: (ما كانت عندهم من قوة يمتنعون بها من الله عز وجل).

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ فيه تأويلان:

التأويل الأول: أي وفي قوم نوح كذلك عبرة وآية. وهذا منسجم مع قراءة حمزة والكسائي وأبي عمرو: «وقومِ نوحٍ»بالكسر.

التأويل الثاني: أي وأهلكنا قوم نوح كذلك حين طغوا من قبل. وهذا منسجم مع قراءة أكثر القراء بالنصب: «وقومَ نوح».

---

(1) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2611) ـ كتاب التفسير ـ سورة الذاريات ، آية (42).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. أي: خارجين عن طاعة الله، مخالفين أمره ورسوله.

47 ـ 51. قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١)﴾.

في هذه الآيات: تنبيه الله تعالى عباده لقدرته العجيبة في الخلق لعلهم يتذكرون، فإن المرجع إليه والحساب بين يديه وإنما الرسول نذير مبين، والشرك أعظم الذنوب عند الله لو كانوا يعلمون.

فقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾. قال ابن عباس: (بقوة). أي رفعناها وجعلناها سقفاً محفوظاً بقوة.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. قال ابن جرير: (ـ أي ـ: لذو سعة بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرة عليه). وقال ابن زيد: (أوسعها جل جلاله).

وقد قرّر علم الفلك الحديث بأن السماء لازالت في اتساع دائم، سواء في تكوين مدن نجومية جديدة باستمرار، أو في تباعد هذه المدن النجومية باستمرار.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾. أي: بسطناها وجعلناها فراشاً للمخلوقات ليتمتعوا بها.

وقوله: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾. أي: فنعم الماهدون نحن لهم. والجمع في اللفظ يفيد التعظيم. والتمهيد: البسط والتسوية والإصلاح.

وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾. قال ابن كثير: (أي: جميع المخلوقات أزواج: سماءٌ وأرضٌ، وليلٌ ونهارٌ، وشمسٌ وقمرٌ، وبرٌّ وبحرٌ، وضياءٌ وظلامٌ، وإيمانٌ وكفرٌ، وموتٌ وحياةٌ، وشقاءٌ وسعادةٌ، وجنةٌ ونارٌ، حتى الحيوانات والنباتات). وقال القرطبي: (﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ لتعلموا أنّ خالق الأزواج فرد، فلا يقدّر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء، إذ هو عز وجل وتر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]).

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. أي: لتعلموا أن الخالق تعالى واحد لا شريك له، فيستوجب ذلك عليكم إفراده بالتعظيم والعبادة.

وقوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾. أي: فاهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته، وذلك بالإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. أي: إني لكم من الله نذير بيّن النذارة أنذركم عقابه.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. أي: فاحذروا أن تشركوا به شيئاً، فإن الشرك مدعاة لعقابه. قال أبو السعود: (وفيه تأكيد لما قبله من الأمر بالفرار من العقاب إليه تعالى، لكن لا بطريق التكرير ـ كما قيل ـ بل بالنهي عن سببه، وإيجاب الفرار منه).

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. أي: قد أبان النذارة وصدقكم التحذير.

52 ـ 60. قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تشابهُ سلوك الأمم في تكذيب المرسلين، وإنما على الرسول الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين، وغاية الخلق الخضوع لله والصدق في العبودية والله هو الرزاق ذو القوة المتين. وويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون.

فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من ردّ قومه وتكذيبهم للوحي والنبوة. قال القرطبي: (أي كما كذّبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم).

وقوله: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾. أي: فهل أوصى قريشاً بالتكذيب آباؤهم الماضون فقبلوا

ومضوا على طريقة أسلافهم؟!. قال قتادة: (أوصى أولاهم أخراهم بالتكذيب؟). وفي رواية عنه: (أي: كان الأول قد أوصى الآخر بالتكذيب).

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: لكن هم قومٌ طُغاةٌ، تشابهت قلوبُهم، فقال متأخِّرهم كما قال متقدِّمهم).

وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾. قال مجاهد: (فأعرض عنهم). ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾. قال ابن جرير: (فما أنت يا محمد بملوم، لا يلومك ربك على تفريط كان منك في الإنذار، فقد أنذرت وبلغت ما أرسلت به).

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قال القاسمي: (﴿وَذَكِّرْ﴾ أي عظهم ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من قدّر الله إيمانه، أو الذين آمنوا، فإنهم المقصودون من الخلق، لا مَنْ سواهم، إذ هم العابدون).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. فيه بيان سرّ السعادة في الدنيا والآخرة، فإن إفراد الله تعالى بالعبادة هو أصل كل خير وصلاح للعباد في الدارين. وعن ابن عباس: (﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: إلا ليقروا بالعبودة طوعاً وكرهاً). وقال ابن جريج: (إلا ليعرفون). وقال الربيع: (﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: أي: إلا للعبادة). وقال عكرمة: (إلا ليعبدون ويطيعون، فأثيب العابد وأعاقب الجاحد).

وقوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾. إخبار منه تعالى أنه غير محتاج إلى عباده، بل هم الفقراء المحتاجون إلى رحمته ورزقه وفضله. قال النسفي: (﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾: ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم أو واحداً من عبادي). وقال ثعلب: (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾: أن يطعموا عبادي، وهي إضافة تخصيص).

قلت: والآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132]. فربط العبادة بمفهوم الرزق، فإن الشيطان يهمّ بالعبد كلما حاول تفريغ جزء من وقته لأهله، فجاءت الآية تطمئن المؤمن أن الصبر على تعليم الأهل والولد الحق والصلاة وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله لا يؤخر من الرزق شيئاً.

وكذلك جاء الربط في آية الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. فربط العبادة مرة أخرى بالرزق، فلا يظن ظان أن تخصيص جُلّ الوقت لإخلاص العبادة لله وطلب العلم

والجهاد يقلل الرزق أو يفوت الفرص ، بل هو المطلوب أولاً قبل أمور الدنيا.

ومن كنوز السنة الصحيحة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: يروي الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في السنن ، بسند صحيح عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي في الجامع بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأَسُدَّ فقرك ، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أَسُدَّ فقرك][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة وابن حبان بسند صحيح عن زيد بن ثابت مرفوعاً: [من كانت الدنيا همَّه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة][3].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾. قال ابن عباس: (يقول: الشديد). أي: إن الله هو الرزاق خلقه المتكفل بأرزاقهم وأقوالهم ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي الشديد القوي.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الله قال: [أقرأني رسول الله ﷺ: «إني أنا الرّزاق ذو القوة المتين»][4].

وقوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾. أي نصيباً من العذاب. قال سعيد بن جبير: (سجلاً من العذاب). وقال الحسن: (دلواً مثل دلو أصحابهم). وقال قتادة: (عذاباً مثل عذاب أصحابهم). وأصل الذَّنوب في لغة العرب الدَّلو العظيمة ، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء ، فقيل للذَّنوب نصيب من هذا ـ حكاه القرطبي.

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح الترمذي (1911) ، وكذلك تخريج المشكاة (23) ، ورواه أحمد.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3/ 308) ، وابن ماجة (2/ 525) ، وابن حبان (2477) ، وأحمد (2/ 358) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1359).

(3) أخرجه ابن ماجة (2/ 524 ـ 525) ، وابن حبان (72) ، وإسناده صحيح رجاله ثقات.

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3993) ، والترمذي (2940). انظر صحيح أبي داود (3377) ، وصحيح الترمذي (2343) ، وهذه قراءة شاذة.

وقوله: ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾. أي: فلا يستعجلوا وقوعه بهم، فإنه واقع بهم يوماً لا محالة. قال ابن عباس: (يقول: للذين ظلموا عذاباً مثل عذاب أصحابهم فلا يستعجلون).

وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾. تهديد ووعيد، وتقريب لما هو آت وكل آت قريب. قال القاسمي: (أي أوعدوا فيه نزول العذاب بهم، ماذا يلقون فيه من البلاء والجهد. و«اليوم» إما يوم القيامة، أو يوم بدر).

تم تفسير سورة الذاريات
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
صبيحة السبت 30 ـ رجب ـ 1426 هـ
الموافق 3 ـ أيلول ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الذاريات: الريح ، والحاملات وقراً: السحاب. والجاريات يسراً: السفن. والمقسمات أمراً: الملائكة.

2 ـ الكفار يفتنون أمثالهم من أهل النار.

3 ـ في مال الأغنياء حق معلوم ، للسائل والمحروم.

4 ـ من تفكر في خلق جسمه علم أنه خلق للعبادة.

5 ـ آداب الضيافة العالية في تصرف إبراهيم ﷺ مع ضيوفه.

6 ـ استحالت أرض أهل المعصية قوم لوط بحيرة منتنة.

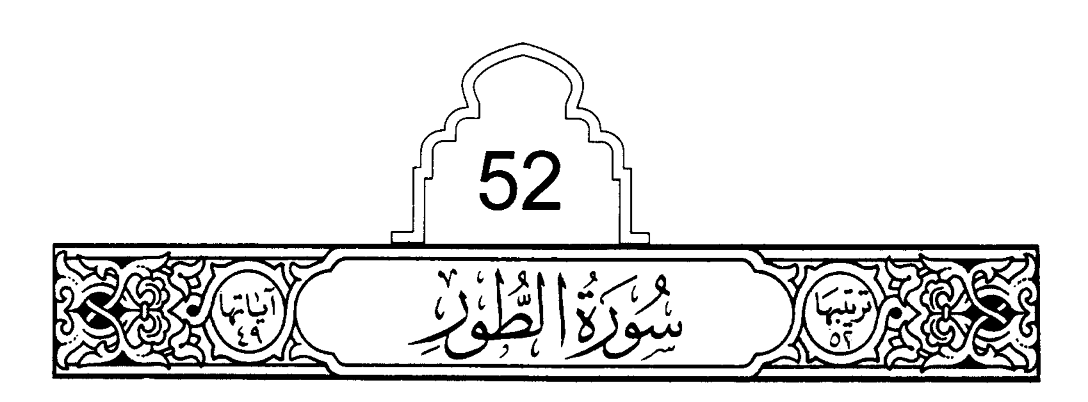
7 ـ خلق الله من كل شيء زوجين اثنين فهل يستحق العبادة غيره!

8 ـ العبادة سبب خلق المخلوقات جميعاً.

9 ـ مَنْ كانت الآخرة هَمَّه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة.

10 ـ لو أنّكم توكلون على الله تعالى حقّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (49).

فضائلها وما ورد في ذكرها:

لقد جاء ذكر هذه السورة الكريمة في حديثين اثنين من صحيح السنة العطرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأكثر أهل السنن عن محمد بن جُبَير بن مُطْعم ، عن أبيه قال: [سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسنَ صوتاً ـ أو: قراءة ـ منه][1] . وفي رواية ابن ماجة: [قال جبير: فلما سمعته يقرأ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ كاد قلبي يطير].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن إلا الترمذي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: [شكوتُ إلى رسول الله ﷺ ، أني أشتكي ، فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة. قالت: فطفت ورسول الله ﷺ ، حينئذ يُصلي إلى جنب البيت ، وهو يقرأ بـ: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾][2] .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (765) ، (3050) ، ومسلم (463/ 174) ، وأخرجه أبو داود (811) ، والنسائي (987) وفي «التفسير» (549) ، وابن ماجة (832).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (464) ، (1619) ، (4853) ، ومسلم (1276/ 258) ، وأبو داود (1882) ، وأخرجه النسائي (2925) ، وفي «التفسير» (548) ، ورواه ابن ماجة.

موضوع السورة

الإقسام بالطور والكتاب وبديع المخلوقات
أن عذاب الله واقع بالكافرين أصحاب الموبقات

منهاج السورة

1 ـ إقسامُ الله تعالى ببديع مخلوقاته الدالة على عظمته أن عذابه واقع بالكافرين.

2 ـ نَعْتُ أهوال يوم الحساب، وإحضار جهنم أمام أعين المجرمين لبدء العقاب.

3 ـ الصبر وعدمه على المشركين في النار سواء، ليذوقوا يومئذ سوء العقاب.

4 ـ نَعْتُ حال المتقين في جنات النعيم، وتذكرهم نعمة الله عليهم أن وقاهم عذاب الجحيم.

5 ـ الأمر بالبلاغ المبين، والانتصار للرسول الكريم، والتوبيخ لسلوك المعاندين.

6 ـ التقريع من الله على المشركين، وفضح مكر أهل النفاق أعداء الدين.

7 ـ كشف طغيان المشركين، وتكذيبهم بحقائق الأمور واليقين، وانقلاب المكر على الماكرين.

8 ـ حث الله تعالى رسوله الكريم، على التزام الصبر والاستعانة بالتسبيح وصلاة الليل حتى يأتي نصر الله المبين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 16. **قوله تعالى:** ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾.

في هذه الآيات: يُقسم الله تعالى ببديع مخلوقاته الدالة على عظمته وقدرته وجبروته أن عذابه واقع بالكافرين، يوم تمور السماء وتسير الجبال وتُحضر جهنم أمام أبصار المجرمين، فيقال لهم: اصلوها فالصبر وعدمه سواء إنما هذا جزاء المستكبرين.

فقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ﴾. قال مجاهد: (الجبل بالسريانية). قال ابن كثير: (فالطُّور هو: الجبلُ الذين يكونُ فيه أشجارٌ، مثل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى، وأرسل منه عيسىٰ. وما لم يكن فيه شجرٌ لا يسمىٰ طوراً، إنما يقال له: جبلٌ).

وقوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾. قال مجاهد: (صحف). وقال قتادة: (المسطور: المكتوب).

قال القرطبي: (﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ أي مكتوب، يعني القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: 77 ـ 78]. وقيل: يعني سائر الكتب المنزلة على الأنبياء).

وقوله تعالى: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾. قال مجاهد: (الرقّ: الصحيفة). والمنشور:

المبسوط. قال القاسمي: (أي: وكتاب سطِّر في ورق منشور يقرأ على الناس جهاراً. و«الرقّ» الصحيفة أو الجلد الذي يكتب فيه).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾. أي الذي يعمر بكثرة غاشيته من الملائكة، وقد صحّ الخبر عن رسول الله أنه في السماء السابعة.

ففي الصحيحين من حديث قتادة عن أنس بن مالك، عن مالكِ بن صَعْصَعة ـ في حديث الإسراء ـ قال رسول الله ﷺ: [فأتينا السماء السابعة، قيل: مَنْ هذا؟ قيل: جِبْريل، قيل: من معك؟ قيل: محمّدٌ، قيل: وقد أُرسل إليه؟ مَرْحباً به ولنِعْمَ المجيءُ جاءَ، فأتيتُ على إبراهيم فَسَلَّمْتُ عليه فقال: مَرْحَباً بك من ابنٍ ونبيّ، فَرُفِعَ لي البيتُ المعمورُ فسألتُ جبريلَ فقال: هذا البَيْتُ المَعْمورُ يُصَلّي فيه كُلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ إذا خرجوا لمْ يعودوا إليه آخِرَ ما عليهم][1]. وفي ورواية: [ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه].

وعن ابن عباس: (﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾: هو بيت في السماء حِيالَ الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه).

والمقصود: أنه بيت في السماء السابعة يطوف به الملائكة كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، فهو كعبةُ أهل السماء السابعة. قال ابن كثير: (ولهذا وُجِدَ إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ مُسْنِداً ظهره إلى البيت المعمور، لأنه باني الكعبة الأرضيّة، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماءٍ بيتٌ يتعبَّدُ فيه أهلُها، ويُصلّون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيتُ العزّة، والله أعلم).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾. قال سماك عن خالد بن عُرْعُرة عن علي رضي الله عنه ـ سأله رجل عن السقف المرفوع؟ ـ فقال: (السماء) ـ رواه ابن جرير. وقال ابن زيد: (سقف السماء). وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32]. وقال الربيع بن أنس: (هو العرش). يعني أنه سقف لجميع المخلوقات، والبيان يحتمله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾. قيل المُوقد، وقيل المملوء.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3207) ـ كتاب بدء الخلق، وأخرجه مسلم (1/ 148) وكذلك (164/ 264) من حديث قتادة عن أنس به.

قال مجاهد: (﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ الموقد). وكذلك قال ابن زيد وقرأ: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال: (أوقدت). وقال قتادة: (﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ الممتلئ). وبالجمع بين القولين: هو ممتلئ اليوم وسيسجر ـ أي يوقد ـ يوم القيامة ناراً.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ جواب القسم. فالواو الأولى للقسم والبواقي للعطف، وهذا جواب القسم ـ أي: إن عذاب ربك ـ يا محمد ـ لنازل حالّ بالكافرين به يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾. أي: ليس لهم من دافع يدفع عنهم ذلك العذاب إذا نزل بهم، أو ينقذهم منه.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾. المَوْرُ: التحرك. قال ابن عباس: (تتحرك تحريكاً). وقال: (هو تَشَقُّقها). وقال مجاهد: (تدور دوراً). وقال الضحاك: (يموج بعضها في بعض). والمقصود: استدارتها وتحريكُها لأمر الله، وموج بعضها في بعض.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾. أي: تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا، فتذهب فتصير هباء مُنْبثاً، وتُنْسَفُ نسفاً. كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: 88]. وكقوله جل ذكره: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ [الواقعة: 4 ـ 6].

وقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾. أي: فويل للمكذبين في ذلك اليوم من بأس الله وغضبه وعذابه الذي سينزل بهم. والوَيْل: كلمة تقال للهالِكِ تنذره بالهلاك.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ ـ أي في غفلة ولهو واستهزاء بالدين ـ. قال ابن جرير: (الذين هم في فتنة واختلاط في الدنيا يلعبون غافلين عما هم صائرون إليه من عذاب الله في الآخرة).

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾. أي يدفعون إليها ويساقون لها مهانين. قال ابن عباس: (يدفع في أعناقهم حتى يردوا النار). وقال: (يدفعون فيها دفعاً). وقال قتادة: (يزعجون إليها إزعاجاً). قال الضحاك: (الدعّ: الدفع والإرهاق).

وقوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾. أي: تقول لهم الزبانية تقريعاً وتوبيخاً: هذه النار التي كنتم تجحدون أمرها وتنكرون صِليّها، فهي الآن على مرأىٰ أعينكم قريبة من أجسامكم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. توبيخ لا استفهام. أي: يقال لهم: هل هذا الذي وردتموه سحر أم أنتم لا تعاينونه ولا تبصرونه!؟

وقوله: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾. أي: ادخلوها لتغمركم فذوقوا حرّها وألمها على أجسادكم.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾. أي: إنما الصبر وعدمه عليكم سواء، فلا محيدَ لكم عنها ولا نجاة ولا خلاص.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. تعليل الخلود فيها وتجرّع سعيرها. أي: ما تجزون إلا أعمالكم، وما قدّمتم لأنفسكم من التكذيب بالوحي والنبوة وتعظيم الهوىٰ والشهوات.

17 ـ 28. **قوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعْتُ حال المتقين في جنات النعيم، فهم في الطعام والشراب والنكاح والملذات والتكريم، ويطوف عليهم غلمان في الخدمة كأنهم اللؤلؤ المكنون، وهم في اللقاء يتذكرون نعمة الله عليهم فيحمدونه أن وقاهم من عذاب الجحيم.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾. عَطْفٌ بذكر حال السعداء، بعد ذكر مآل الأشقياء. فهؤلاء في الروضات وبساتين النعيم، في الوقت الذي صُرف فيه أهل الشقوة إلى صِليّ الجحيم.

وقوله: ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾. قال ابن جرير: (عندهم فاكهة كثيرة). يقال: رجل فاكه أي ذو فاكهة، ورجل تامر أي عنده تمر. وقرأ الحسن وغيره: «فَكِهين» بغير ألف، ومعناه: معجبين ناعمين. يقال: فِكِهَ الرجلُ فهو فَكِهٌ إذا كان طيب النفس مزاحاً. قال ابن كثير: (﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾، أي: يتفكَّهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكِلَ ومشارِبَ وملابِسَ ومساكِنَ ومراكِبَ وغير ذلك).

وقوله: ﴿ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾. أي: ويضاف إلى ذلك التفكه في ألوان النعيم، نعمة جليلة عظيمة وهي زحزحته إياهم عن دخول الجحيم، فإن ذلك لمن الفوز العظيم.

وقوله تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. قال القرطبي: (الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر). أي: ويقال لهم: كلوا واشربوا لا تخافون فيما تأكلون وتشربون أذىً ولا غائلة، ولا تجدون ما يعكّر أو ينغِّصُ، فهذا جزاء رفيع أعمالكم وحسن امتثالكم لأوامر ربكم عز وجل.

وقوله: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾. أي: متكئين على نمارق سرر موصولة بعضها إلى بعض. و﴿ سُرُرٍ ﴾ جمع سرير. والآية وصف بديع لاطمئنان أهل الجنة في منازلهم.

وقوله: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾. أي: وقرناهم بالحور عظام الأعين حسانها.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾.

أخرج البزار وابن عدي بسند صحيح عن ابن عباس رفعه إلى النبي ﷺ: [إنّ الله لَيَرْفَعُ ذُرِّيَةَ المؤمن إليه في درجته، وإنْ كانوا دونَه في العمل، لِتَقَرَّ بهم عَيْنُهُ، ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ الآية، ثم قال: وما نَقَصْنا الآباء بما أعْطَيْنا البنين][1].

قلت: وهذا تفضّل لطيف من الباري عز وجل على عبده الصالح، أنْ لَمَّ له شَمْلَ أسرته فجمعهم إليه في مستقره في الآخرة وإن كانوا دونه في العمل، ليأنس بهم ويسعد

(1) حديث صحيح. أخرجه البزار (ص 221)، وابن عدي (ق 270/ 1)، والبغوي في «التفسير» (8/ 82 ـ منار)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2490).

بحضورهم حوله ، وهذا لا ينقصه من تضاعف أجره لقاء رفيع أعماله شيئاً.

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا ربِّ ، أنَّىٰ لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك][1]. وفي لفظ: [إنّ الرجل لترفعُ درجته في الجنة ، فيقول: أنّى لي هذا. فيقال: باستغفار ولدك لك].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال: [إذا مات ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلا من ثلاثٍ: صَدَقةٍ جاريةٍ ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له][2].

وقوله: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾. إخبار عن مقام العدل بعد مقام الإحسان.

قال القاسمي: (﴿ كُلُّ ٱمْرِيِٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي بما عمل من خير أو شر مرتهن به ، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، وإنما يعاقب بذنب نفسه).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾. أي: وزدناهم على ما هم فيه من جميل المقام ما لَذّ وطاب من ألوان الفاكهة واللحوم.

وقوله تعالى: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾.

أي: ويتعاطون ـ إضافة لما سبق من الملذات ـ كأساً من الخمر الذي لا يصدر عن صاحبه هذيان أو فاحش من القول أو الفعل ـ كما هو حال شربة الخمر في الدنيا ـ.

قال ابن عباس: (﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ يقول: لا باطل فيها). وقال مجاهد: (لا يستبّون).

وقال قتادة: (لا لغو فيها ولا باطل ، إنما كان الباطل في الدنيا مع الشيطان).

قال ابن جرير: (﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾: ولا فعل فيها يُؤثم صاحبه).

فنزّه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وما يصدر عنها من أذىٰ: كصداع الرأس ، وذهاب العقل ، ووجع البطن ، ونهوض إلى الفواحش والآثام.

ففي معجم الطبراني «الكبير» و«الأوسط» بسند حسن عن ابن عباس مرفوعاً:

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 509) ، وابن ماجة (3660) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (12/ 44/ 1) ، وإسناده حسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1598).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1631) ـ كتاب الوصية. باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته.

[الخمر أمّ الفواحش ، وأكبرُ الكبائر ، مَنْ شربها وقعَ على أمِّه وخالتِهِ وعمّته][1].
فانتفىٰ عن خمر الآخرة كل هذه الآثار الشيطانية ، وبقيت المتعة واللذة في صورتها البديعة.

وقوله تعالى : ﴿ ۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾. الغلمان : الخدم من الأطفال. والمكنون : المصون. والمقصود : إخبار عن الخدم والحشم لأهل الجنة أنهم في الحسن والبياض كاللؤلؤ المكنون ـ المصون ـ في الصدف ، لشدة حسنهم وبهائهم ونظافتهم وروعة مظهرهم ولباسهم.

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾. قال ابن كثير : (أي : أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحادثُ أهلُ الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم).

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾. قال ابن جرير : (قال بعضهم لبعض : إنا أيها القوم كنا في أهلنا في الدنيا مشفقين خائفين من عذاب الله وجلين أن يعذبنا ربنا اليوم).

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾. قال ابن زيد : (عذاب النار).
أي : فامتن الله علينا أن نجانا من عذاب النار وأدخلنا الجنة برحمته وفضله.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

قال ابن عباس : (البر : اللطيف). قال النسفي : (﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل لقاء الله تعالى والمصير إليه ـ يعنون في الدنيا ـ ﴿ نَدْعُوهُ ۖ ﴾ نعبده ولا نعبد غيره ، ونسأله الوقاية ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ﴾ المحسن ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ العظيم الرحمة الذي إذا عُبد أثاب وإذا سئل أجاب).

29 ـ 34. قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني (رقم 11372) ، (11498) ، ورواه في «الأوسط» (3285) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1853).

تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

في هذه الآيات: الأمر بالبلاغ المبين، والانتصار من الله تعالى لرسوله الكريم، والتوبيخ لسلوك المنافقين والمعاندين.

فقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾. أَمْرٌ مِنَ الله نبيّه ﷺ بالبلاغ والبيان، وتبرئة له من اتهام أهل الكفر والفجور والبهتان. والكاهن: الذي يتصل بالجان الذي يسترق الكلمة من خبر السماء، والمجنون: الذي يتخبطه الشيطان من المَسّ. فالمعنىٰ كما قال ابن جرير: (فلست بنعمة الله عليك بكاهن تتكهن، ولا مجنون له رئيّ يخبر عنه قومه ما أخبره به، ولكنك رسول الله والله لا يخذلك).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾. أي: بل يقول لك المشركون يا محمد: هو شاعر ننتظر أن تنزل به حادثة متلفة من حوادث الدهر المهلكة، فنتخلص منه بموت أو مصيبة. قال مجاهد: (﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: حوادث الدهر). وقال ابن عباس: (يتربصون به الموت). والمنون: الموت.

وعن قتادة: (قال ذلك قائلون من الناس: تربصوا بمحمد ـ رسول الله ﷺ ـ الموت يكفيكموه، كما كفاكم شاعر بني فلان، وشاعر بني فلان).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾. أي: قل لهم ـ يا محمد ـ: انتظروا وترقبوا فإني منتظر معكم، وستعلمون من سيكون له النصر والعاقبة في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَآ﴾. أي: أتأمر عقول المشركين وأحلامهم ـ وكانوا يعدون في الجاهلية أهل الأحلام ـ أن يقولوا لمحمد ﷺ ما يقولون من رميه بالسحر والشعر والجنون؟! إن هذا لشيء عجيب، إذ يقولون ما يعلمون أنه كذب وزور.

وقوله: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. قال مجاهد: (بل هم قوم طاغون). أي: ولكنهم في حقيقة الأمر قوم معاندون متكبرون ما حملهم على ما قالوه إلا الكبر والطغيان.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾. أي: أم يقول هؤلاء المشركون: إنّ محمداً تقوّل هذا القرآن من عند نفسه واختلقه؟!

وقوله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾. تكذيب لدعواهم. أي: إنما حملهم على ذلك القول كفرهم بالحق الذي جاءهم من عند ربهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾. أي: فليأتوا بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم إن كانوا صادقين في دعواهم أن محمداً افتراه، فهم أهل الفصاحة والإتقان للعربية وفنونها!!. إنهم لن يستطيعوا ذلك ولو اجتمع لهم فصحاء الجن والإنس، بل لن يستطيعوا أن يأتوا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله.

35 ـ 43. **قوله تعالى**: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذه الآيات: تتابع التقريع من الله تعالى على المشركين، في كشف تناقضات طريقهم واتباع الهوى والشياطين، وفضح مكرهم وما هم عليه من العداء لهذا الحق المبين.

فقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾. إثبات للربوبية ومطالبة بمقتضاها: توحيد الألوهية. قال ابن جرير: (أَخُلِقَ هؤلاء المشركون من غير شيء، أي من غير آباء ولا أمهات فهم كالجماد لا يعقلون ولا يفهمون لله حجة. ـ وقيل: المعنى: أم خلقوا لغير شيء ـ أم هم الخالقون هذا الخلق، فهم لذلك لا يأتمرون لأمر الله ولا ينتهون عما نهوا عنه لأن للخالق الأمر والنهي).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾. إنكار على المشركين شركهم بالألوهية، مع إقرارهم لله بالربوبية. قال النسفي: (﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فلا يعبدون خالقهما ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي لا يتدبرون في الآيات فيعلموا خالقهم وخالق السماوات والأرض). وقال القاسمي: (﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي بوعيد الله، وما أعد لأهل الكفر به من العذاب في الآخرة، فلذلك فعلوا ما فعلوا).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾. أي: أم بأيديهم خزائن رزقه فهم لاستغنائهم معرضون؟! أم هم الجبابرة المتسلطون فهم لذلك على الله يستكبرون!

أخرج البخاري في الصحيح عن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعم عن أبيه رضي الله عنه قال: [سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور، فلما بلغَ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير][1].

وكان جُبير بن مطعم قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداءِ الأسارىٰ، وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه لهذه الآيات من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾. أي: أم لهم مرقاة إلى السماء إلى الملأ الأعلى فيرتقون يستمعون من الوحي، فهم متمسكون بما حصل من الإقرار لهم على منهاجهم!؟

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. أي: فليأت الذي يستمع لهم بحجّة تبين أنها حق، يُثْبت فيها ما يدّعون.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾. قال القرطبي: (سَفَّهَ أحلامهم توبيخاً لهم وتقريعاً. أي أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن، ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث).

والآية إنكار على المشركين نسبهم البنات إلى الله وجعلهم الملائكة إناثاً عبدوهم مع الله، واختيارهم الذكور لأنفسهم أنفة وكبراً.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾. قال قتادة: (يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجراً يُجْهدهم فلا يستطيعون الإسلام). وقال ابن زيد: (أسألتهم على هذا أجراً فأثقلهم الذي يَبْتَغِىٰ أخذه منهم).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾. أي: أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون منه ويخبرون الناس بما لهم وما عليهم، وما كان وما يكون وما هو كائن؟! أي: ليس

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4854) ـ كتاب التفسير، وكذلك أخرجه (765)، (3050)، وانظر صحيح مسلم (463).

الأمر كذلك ، فلا يعلم الغيب إلا الله الذي وجب على العباد الخضوع لأمره وتعظيمه وحده لا شريك له .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ . أي : بل يريد هؤلاء ـ يا محمد ـ الكيد والمكر بك وبدينك ، والحال أنهم هم المكيدون الممكور بهم فأحكم ثقتك بالله وتوكلك عليه .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . تأكيد الإنكار على المشركين عبادتهم غير الله ، ثم تنزيه الله نفسه عن الند والشريك سبحانه وتعالى عما يشركون .

44 ـ 49 . **قوله تعالى :** ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (47) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (49) ﴾ .

في هذه الآيات : كَشْفُ شِدَّة طغيان المشركين ، فهم يكذبون بحقائق الأمور واليقين ، وسينقلب المكر عليهم من حيث لا يشعرون . وحَثٌّ من الله تعالى لرسوله بالتزام الصبر والاستعانة بالتسبيح وصلاة الليل حتى يأتي نصر الله المبين .

فقوله : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : قطعاً) . والكسف : جمع كِسْفة . وقوله : ﴿ مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ . أي : عليهم . ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ . قال النسفي : (يريد أنهم لشدة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا هذا سحاب ﴿ مَّرْكُومٌ ﴾ قد ركم أي جمع بعضه على بعض يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب) .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ . أي : فدع هؤلاء المشركين ـ يا محمد ـ حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يهلكون ، وهو يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ . أي : يوم لا يجدي الكيد والمكر الذي استخدموه في الدنيا لبغيهم وكفرهم وشهواتهم ، ولا هم ينصرهم ناصر فيستقيد لهم ممن عذّبهم وعاقبهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . توعد لهم بعذاب

في دار الدنيا قبل عذاب الآخرة. قال ابن زيد: (دون الآخرة في هذه الدنيا ما يعذبهم به من ذهاب الأموال والأولاد). وعن مجاهد: (﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ قال: الجوع). وعن البراء: (﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ قال: عذاب القبر). وعن قتادة أن ابن عباس كان يقول: (إنكم لتجدون عذاب القبر في كتاب الله ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾).

وعموم هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: 21]. قال ابن كثير: (﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي: نُعَذِّبهم في الدنيا ، ونبتليهم فيها بالمصائب ، لعلهم يرجعون وينيبون فلا يفهمون ما يُراد بهم ، بل إذا جَلَّىٰ عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه).

وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ . أي: فاصبر ـ يا محمد ـ لحكم ربك وأمره وما يلحقك من أذىٰ قومك ولا تبالهم ، فإنك تحت كلاءتنا ورعايتنا وحفظنا. قال ابن جرير: (﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ : فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك ونحن نحوطك ونحفظك فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين).

وقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ . فيه أقوال متكاملة:

القول الأول: حين قيامك من كل نوم. فعن أبي الأحوص: (﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ قال: سبحان الله وبحمده. ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال: من كل منامة ، يقول حين يريد أن يقوم: سبحانك وبحمدك). واختار ابن جرير بأن المعنى: (وصل بحمد ربك حين تقوم من منامك وذلك نوم القائلة ، وإنما عنىٰ صلاة الظهر).

القول الثاني: حين القيام لصلاة الليل أو النهار. قال ابن زيد: (﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ : إذا قام لصلاة من ليل أو نهار. وقرأ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ قال من نوم). وعن الضحاك قال: (إذا قام إلى الصلاة قال: سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ولا إله غيرك).

القول الثالث: حين القيام لمغادرة المجلس. فعن مجاهد: (﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال: من كل مجلس). وقال الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص: (﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال: إذا أراد الرجلُ أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك).

قال عطاء: (يقول: حين تقومُ من كل مجلس ، إن كنت أحسنت ازددتَ خيراً ، وإن كان غيرَ ذلك كان هذا كفارةً له).

قلت: ولا مانع من تعميم القيام سواء كان من نوم أو مجلس أو لصلاة في الليل أو النهار، وقد ورد في السنة الصحيحة ما يؤيد ذلك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: ربِّ اغفر لي ـ أو قال: ثم دَعَا ـ استُجِيب له، فإن عزَمَ فتوضأ ثم صلّىٰ تُقبلت صلاتُه][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والنسائي ورجاله ثقات عن أبي بَرْزَةَ الأسلمي قال: [كان رسول الله ﷺ يقول بأخَرَةٍ إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنتَ، أستغفرك وأتوب إليك». فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقولُ قولاً ما كنتَ تقولُه فيما مضىٰ؟! قال: «كفارة لما يكون في المجلس»][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ جَلَسَ في مَجْلِسٍ فكثُرَ فيه لَغَطُهُ فقال قبل أن يقوم من مَجْلِسِه ذلك: سُبْحانك اللهم وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنْتَ، أستغفرك وأتوبُ إليك. إلا غُفِرَ له ما كان في مجلِسِه ذلك][3].

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: [كان رسول الله ﷺ، إذا قام من الليل كبَّر ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك، ولا إله غيرك» ثم يقول: «لا إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «الله أكبر كبيراً» ثلاثاً «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» ثم يقرأ][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1154)، وأبو داود (5060)، والترمذي (3414)، وأخرجه النسائي (861)، وابن ماجة (3878)، ورواه أحمد.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4859)، والنسائي (10259) ـ ورجاله ثقات.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3433) ـ أبواب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه. انظر صحيح الترمذي (2730)، ورواه ابن حبان (594)، والحاكم (1/ 536).

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (775) ـ في الصلاة. انظر صحيح سنن أبي داود (701).

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾. أي ومن الليل فعظم ربك ـ يا محمد ـ بالتلاوة والصلاة والعبادة. كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: 79].

وفي سنن أبي داود عن عاصم بن حميد قال: [سألت عائشة: بأي شيء كان يفتتح رسول الله ﷺ قيام الليل؟ فقالت: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبْلك، كان إذا قام كبّر عَشْراً، وحمد الله عشراً، وسَبَّحَ عشراً، وهَلَّلَ عَشْراً، واستغفر عشراً، وقال: «اللهم اغفر لي، واهدني، وارزقني، وعافني» ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة][1].

وقوله: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾. الراجح هما الركعتان قبل صلاة الفجر توافقان جنوح النجوم للغيبوبة، أو فريضة الفجر.

قال ابن عباس: (هما السجدتان قبل صلاة الغداة).

وقال ابن زيد: (يعني حين تدبر النجوم للأفول عند إقبال النهار). وعن الضحاك: (﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: صلاة الغداة) ـ يعني صلاة الصبح المكتوبة ـ واختاره ابن جرير.

قال الزمخشري: (وقرئ «وأَدْبار» بالفتح، بمعنى في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت).

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: [لَمْ يَكُنِ النبي ﷺ على شيْءٍ من النَّوافِلِ أشَدَّ مِنْهُ تعاهُداً على ركعتي الفَجْر][2].

وفي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [ركعتا الفجر خَيْرٌ من الدنيا وما فيها][3].

وفي رواية عنها عن النبي ﷺ أنه قال في شأن الركعتين عند طلوع الفجر: [لَهُما أَحَبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً].

(1) حسن صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (766). وانظر صحيح أبي داود (693).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1169) ـ كتاب التهجد، ورواه مسلم (723) ح(94).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (725) ح(96)، (97) ـ كتاب صلاة المسافرين.

وفي صحيح مسلم أيضاً عنها قالت: [ما رأيت رسول الله ﷺ في شيء من النوافل، أَسْرَعَ مِنْه إلى الركعتين قبل الفجر][1].

تم تفسير سورة الطور
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
الثلاثاء 3 ـ شعبان ـ 1426 هـ
الموافق 6 ـ أيلول ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (724) ح (95)، الكتاب السابق. باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما.

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ كان يقرأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صلاة المغرب بالطور.

2 ـ يوقد البحر ناراً تتأجج يوم القيامة.

3 ـ المتقون فاكهون في الجنة متقابلون ، ويرفع درجات الابن بأبيه وبالعكس.

4 ـ لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، فكل نفس بما كسبت رهينة.

5 ـ يحمد أهل الجنة ربهم أن وقاهم عذاب السموم.

6 ـ يزعمون القرآن مفترى؟!! قل: هاتوا سورة مثله.

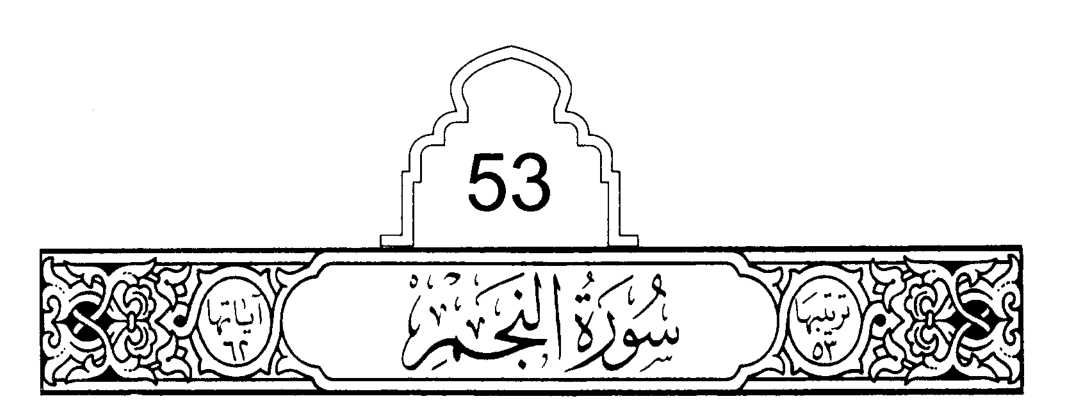
7 ـ الله خالق كل شيء والكافرون يعبدون سواه.

8 ـ من أراد بالإسلام كيداً فسيرجع الله كيده في نحره.

9 ـ التسبيح عند افتتاح الصلاة والقيام من النوم والقيام من المجلس.

10 ـ ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (62).

ما ورد في ذكرها:

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله قال: [أول سُورة أُنزلت فيها سَجْدة «والنجم» ، قال: فَسَجَد رسول الله ﷺ وسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ ، إلا رجلاً رأيته أخذ كَفّاً من تُرابٍ فَسَجَد عليه ، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافراً ، وهو أمية بن خلف][1].

وفي لفظ مسلم: [غَير أن شيخاً أخذ كفاً من حَصَىً أو تراب فرفعه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: لقد رأيته بَعْدُ قُتِلَ كافراً].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن النبي سجد بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس][2].

موضوع السورة

الإقسام بالنجم على حدث المعراج العظيم
وتقريع الكافرين والثناء على المؤمنين

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1067) ، (1070) ، (3853) ، وأخرجه مسلم (576) ، وأبو داود في السنن (1406) ، وأخرجه أحمد في المسند (1/ 401).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (1071) ـ كتاب الكسوف ، وكتاب سجود القرآن.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إقسام الله تعالى بالنجم تأكيداً لحدث المعراج ، ورؤية الآفاق والآيات العظيمة.

2 ـ رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية عند سدرة المنتهى.

3 ـ تحقير المشركين وأصنامهم ، وتسفيه عقولهم وفساد محاكماتهم.

4 ـ إثبات الأولى والآخرة لله العظيم ، وكذلك الشفاعة لا تكون إلا بعد إذنه الكريم.

5 ـ تقريع على الكافرين وصفهم الملائكة بنات الله ، وأمر الله رسوله الإعراض عن المشركين ، وهو سبحانه وتعالى أعلم بالمهتدين ، وبمن أصرّ على الضلال المبين.

6 ـ إثبات الملك والحساب لله رب العالمين ، والثناء على الأطهار المؤمنين المتقين.

7 ـ ذمُّ أهل الإعراض والكبر ، وتأكيد استقلال كل واحد بما عليه من الإثم والوزر ، والله تعالى لا يضيع لأحد ما استحقه من الأجر.

8 ـ إثبات أمر الخلق والفرح والحزن والحياة والموت لله العظيم ، وتأكيد إهلاكه ـ تعالى ـ عبر الزمان القوم الظالمين.

9 ـ محمد ﷺ نذير كمن سبقه من الرسل ، والقرآن نذير كالكتب قبله وهو كلام رب البشر.

10 ـ تأكيد اقتراب الساعة والناس في لهو وغفلة ، وأولى بهم أن يلتفتوا لما ينجيهم من السجود لله وتعظيمه وحده.

❏ ❏ ❏

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 18. قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾.

في هذه الآيات: تأكيد الله تعالى حدث المعراج بإقسامه بالنجم، وتتابع الآيات في ذلك كالقوارع تخرق العقول والقلوب، وتفسد على أصحاب النزعة المادية حياتهم، وتنذر الأمة من مغبة تحكيم الفلسفة والرأي ومعارضة الوحي، فإن الوحي قوة فتاكة إذا سلطها الله سبحانه على أمة فإنها لا تبقي ولا تذر.

فقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾. قال مجاهد: (إذا سقطت الثريا مع الفجر). وهو قسم من الله تعالى. قال الشعبي: (الخالق يُقسِمُ بما شاء من خَلْقِه، والمخلوق لا ينبغي له أنْ يُقسم إلا بالخالق). وقال الضحاك: (﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا رُمي به الشياطين). وهو قول يحتمله التأويل ومفهوم رجم الشياطين بالأشهب الثاقبة. وقيل: المقصود الزهرة ـ حكاه السدي، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ جواب القسم. فقد أقسم سبحانه بمخلوق عظيم يراه الناس ويبصرونه عظيماً، ليؤكد أمراً كبيراً جليلاً، وهو أن هذا النبي ما حاد عن الحق ولا زال عنه، ولا تركه لحظة إلى خرافات الأولين وهذيانات القاصين والمشعوذين.

والضال هو السالك في الجهالة يخبط في طريقه بغير علم ، والغاوي: هو العالم بالحق ، العادِلُ عنه قصداً إلى غيره. قال ابن كثير: (فنزه الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسولَه وشرْعَه عن مشابهة أهل الضّلال كالنّصارى وطرائِق اليهود ، وعن عِلم الشيء وكتمانِه والعمل بخلافه ، بل هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسَّداد).

وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾. أي ما ينطق عن هواه ، فليس في قوله غاية لمصلحة أو غرض أو شهوة.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾. قال قتادة: (يوحي الله تبارك وتعالى إلى جبرائيل ، ويوحي جبريل إلى محمد ﷺ).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

3 ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 32].

وفي صحيح السنة العطرة من آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح عن أبي رافع ـ وغيره ـ رفعه قال: [لا ألفِيَنَّ أحدَكُم مُتكئاً على أريكَتِهِ يأتيه أمْرٌ مما أمَرْتُ به أو نَهَيْتُ عنه فيقول: لا أدري. ما وَجَدْنا في كتاب الله اتَّبَعْناه][1].

وأبو رافع: هو مولى النبي ﷺ ، واسمه: أَسْلَمُ.

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: [ألا هَلْ عسى رجُلٌ يَبْلُغُهُ الحديثُ عني وهو مُتَّكِئٌ على أريكته ، فيقول: بَيْننا وبينكم كتابُ الله ، فما وَجَدْنا فيه حلالاً استَحْلَلْناه ، وما وجدنا

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (13) ، وكذلك الترمذي. انظر صحيح سنن الترمذي (2145).

فيه حراماً حَرَّمناه ، وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ الله ﷺ كما حرَّم الله][1] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد والحاكم بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [تركت فيكم شيئين ، لن تضلوا بعدهُما ، كِتابَ الله ، وسنتي ، ولن يَتَفَرَّقا حتى يردا عليَّ الحوض][2] .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود وأحمد بسند قوي عن عبد الله بن عمرو قال: [كنتُ أكتبُ كلَّ شيء أسْمَعُهُ من رسول الله ﷺ أريدُ حِفْظَه ، فنهتني قريشٌ فقالوا: إنَّكَ تكتبُ كُلَّ شيء تسمعه من رسول الله ، ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلَّمُ في الغضب والرضا ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فأومأ بأصبعه إلى فيه ، فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ، ما يخرج منهُ إلا حقّ][3] .

الحديث الخامس: أخرج أحمد بسند حسن عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال: [قيل يا رسول الله ، إنك تداعبنا! قال: إني لا أقول إلا حقاً][4] .

الحديث السادس: أخرج البزار بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شكَّ فيه][5] . وفي لفظ: [ما قلت لكم قال الله فلن أكذبَ على الله] .

وقوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ . قال قتادة: (يعني جبريل) . والقوى: جمع قوة ، فإن جبريل ـ عليه السلام ـ قد آتاه الله خلقاً عجيباً وقوة مذهلة .

وقوله تعالى: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ . قال ابن عباس: (ذو منظر حسن) . وقال قتادة: (ذو خلق طويل حسن) . وقال ابن زيد: (ذو قوة ، المِرَّة: القوة) . وقال ابن جرير: (عني بالقوة: صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات) . وقوله: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ أي ارتفع واعتدل .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (12) . وانظر صحيح سنن الترمذي (2146) .

(2) حديث حسن . أخرجه أحمد (3/ 14) ، والحاكم وغيرهما . وانظر السلسلة الصحيحة (1761) .

(3) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (3646) ، كتاب العلم ، باب في كتابة العلم ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 192) وإسناده قوي ، وله شواهد .

(4) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (2/ 360) ، وإسناده حسن ، وله شواهد .

(5) حديث حسن . أخرجه البزار في المسند . وانظر المجمع (837) من حديث ابن عباس ، وإسناده حسن ، وله شواهد .

ومنه ما روى أبو داود في السنن بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرّة سوي][1]. أي لا تحل الصدقة لغني ولا لصحيح سوي قوي.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. أي: فاستوى هذا الشديد القوي جبريل ومعه محمد ـ عليهما السلام ـ بالأفق الأعلى. قال الربيع: (السماء الأعلى، يعني جبريل عليه السلام). وقال عكرمة: (والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح). وقال مجاهد: (هو مطلع الشمس). وقال قتادة: (هو الذي يأتي منه النهار). والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾. قال الربيع: (هو جبريل عليه السلام). أي: ثم دنا جبريل من رسول الله ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: فزاد في القرب، والتدلي هو النزول بقرب الشيء.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾. قال مجاهد: (حيث الوتر من القوس). أي: فكان جبريل عليه السلام قريباً من النبي ﷺ على قدر قوسين أو أدنى من ذلك يعني: أو أقرب منه.

وفي الصحيحين وسنن الترمذي عن عبد الله بن مسعود: [في قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قال فيها كلها: رأى جبريل عليه السلام له ست مئة جناح][2].

وفي لفظ الترمذي: [﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ قال: رأى رسول الله جبرائيل في حلة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض].

وفي الصحيحين أيضاً عن مسروق قال: [قلت لعائشة: فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قالت: ذاك جبريل عليه السلام، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنما أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسَدَّ الأفق][3].

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (1634)، في السنن. انظر صحيح سنن أبي داود (1439)، ورواه أحمد وغيرهما. انظر صحيح الجامع (7128).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4857) ـ كتاب التفسير، ورواه مسلم. وانظر صحيح سنن الترمذي (2617) ـ كتاب التفسير.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3235) ـ كتاب بدء الخلق، وانظر صحيح مسلم (177)، والنسائي في «التفسير» (428).

وفي جامع الترمذي عن الشعبي قال: [لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسأله عن شيء فكبّر حتى جاوبته الجبال. فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم. فقال كعب: إنّ الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين. قال مسروق: فدخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربّه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قَفَّ[1] له شعري. قلت: رُويداً، ثم قرأت ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فقالت: أين تذهب بك؟ إنما هو جبريل. من أخبرك أن محمداً رأى ربّه أو كتم شيئاً مِمّا أمر به أو يعلم الخمس التي قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فقد أعظم الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين، مرّة عند سدرة المنتهى، ومرّة في أجياد[2] له ست مئة جناح، قد سدّ الأفق][3].

ويؤكد هذا ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي ذر قال: [سألت رسولَ الله ﷺ هل رأيتَ ربك؟ قال: نورٌ أنّى أراه][4].

وكذلك ما جاء فيه من حديث أبي موسى قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفِضُ القسطَ ويرْفعُه، يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حجابُه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه][5].

وأمّا ما روى مسلم عن ابن عباس: (﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾. قال: رآه بفؤاده مرتين). فموقوف على ابن عباس، وهو من اجتهاده الخاص، وحديث عائشة مرفوع صريح أنه لم يره وما ينبغي لأحد أن يرى الله سبحانه في الدنيا.

وقد وقفت على رواية رائعة عند ابن ماجة من حديث أبي هريرة، وذلك عند سؤال الملكين في القبر بعد الدفن، قال رسول الله ﷺ: [فيجلس الرجل الصالح في قبره،

(1) أي قام من الفزع.
(2) موضع أسفل مكة.
(3) أخرجه الترمذي (3278) وفيه ضعف، لكن يشهد له خبر عائشة في الصحيحين. فقد أخرجه البخاري (4612)، (4855)، ومسلم (177)، والنسائي في «التفسير» (428).
(4) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1/ 161)، وفتح الباري (8/ 610 ـ 611).
(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم (179) ـ كتاب الإيمان ـ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

غيرَ فزع ولا مشعوف[1] ، ثم يقال له: فيمَ كنتَ؟ فيقول: كنتُ على الإسلام. فيقال له: ما هذا الرجل؟ فيقول: محمد رسول الله ﷺ جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه ، فيقال له: هل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله ، فيفرج له فرجةٌ قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله تعالى ، ثم يفرج له فرجة قبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له: هذا مقعدك ، ويُقال له: على اليقين كُنْتَ ، وعليه مُتَّ ، وعليه تُبْعثُ إن شاء الله. . .][2].

فيسأله الملكان عن أصول دينه التي لا تكون النجاة إلا بإقامتها وتعظيمها ، ومن تلك الأسئلة: هل رأيت الله؟ فيجيب الرجل الصالح بدين المرسلين المؤمنين: ما ينبغي لأحد أن يرى الله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾. أي: أوحى إلى عبده ورسوله أموراً من الدين ، وأطلعه على أمور كثيرة:

أولا: أوحى إليه شرع الصلاة:

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أنس ـ في الإسراء ـ: [. . . وأوحى الله إليّ ما أوحى ، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي ، فقلت: يا رب! خفف على أمتي فحطّ عني خمساً ، فرجعت إلى موسى فقلت: حطّ عني خمساً. قال: إنّ أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فسله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال: يا محمد! إنهن خمس صلوات كلَّ يوم وليلة ، لكل صلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، من همَّ بحسنة فلم يعملها كُتِبَت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً. ومَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً ، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فَسَلْهُ التخفيف. فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه][3].

---

(1) الشعف: شدة الفزع والقلق.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4268) ـ كتاب الزهد. باب ذكر القبر والبلى. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (3443) ، وصحيح الجامع (1964).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (162) ـ كتاب الإيمان ، في ختام حديث الإسراء.

ثانياً: أوحى له خواتيم سورة البقرة ومغفرة الكبائر للمؤمنين:

فكان فيما أوحى الله لنبيّه ﷺ ليلة الإسراء خواتيم سورة البقرة، وأخبره بمغفرة المقحمات لمن يموت من أمته لا يشرك بالله شيئاً.

فقد روى مسلم في صحيحه عن عبد الله قال: [لما أُسري برسول الله ﷺ انتُهِيَ به إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيقبض منها. قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: فراش من ذهب. قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أُعطي الصلوات الخمس، وأعطي خوايتم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات][1].

ثالثاً: سمع صريف الأقلام وكتابة الملائكة أعمال العباد.

فقد أخرج الإمام البخاري من حديث ابن عباس وفيه: [ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة... فرجعت فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يُبَدَّلُ القول لديّ][2].

رابعاً: دخل الجنة ورأى نهر الكوثر فيها، ورأى في أصل سدرة المنتهى أنهاراً أربعة تفجّر منها.

ففي صحيح البخاري عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [بينما أنا أسيرُ في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قبابُ الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربُّك، فإذا طينُه مِسْكٌ أذفَرُ][3]. والأذفر هو الشديد الرائحة.

وكذلك أخرج البخاري عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ قال: [فرُفِعَ لي البيتُ المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور يُصلي فيه كُلَّ يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخِرَ ما عليهم، ورُفِعَت لي سِدْرَةُ المنتهى فإذا نَبقُها كأنه قلال وورقُها كأنه آذان الفيول، في أصلها أربعة أنهار: نهران

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (173) ـ كتاب الإيمان. وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (1/ 377 ـ 381) لتفصيل البحث.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري ـ [فتح الباري (1/ 458) ـ (3/ 492)] من حديث ابن عباس.
(3) حديث صحيح. انظر: (فتح الباري ـ شرح صحيح البخاري ـ (8/ 731)).

باطنان ونهران ظاهران ، فسألت جبريل : فقال : أما الباطنان ففي الجنة ، وأما الظاهران النيل والفرات][1] .

خامساً: رأى النار وأبصر فيها عذاب الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم ، وعذاب خطباء القول الذين لا يمتثلونه بالعمل.

فقد أطلع الله نبيّه عليه الصلاة والسلام على صور من العذاب لأعمال تورد النار كالغيبة والنميمة والقذف والزنا والربا ، وكذلك أراه صوراً من عذاب من يدّعي الطهارة ويعلمها للناس من خطباء هذه الأمة الذين يعملون على خلاف ما يقولون.

ففي المسند بإسناد صحيح من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [لما عرج بي ربي عز وجل ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم][2] .

وروى البيهقي بسند حسن من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [أتيتُ ليلة أُسري بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت وفَتْ ، فقلت يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به][3] .

سادساً: رأى عن يمين آدم أهل الجنة ، وعن يساره أهل النار.

فقد خرّج البخاري من حديث أنس: [. . . فلما فُتِحَ علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسْوِدة ، وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل يساره بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظرَ قِبَل شماله بكى][4] .

فصدقه المؤمنون بكل ما ذكره لهم وعلى رأسهم الصديق رضي الله عنه ، وقد سُمِّيَ

---

(1) حديث صحيح. انظر (صحيح البخاري ـ فتح الباري (7/ 201 ـ 202)).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 224) ، وأبو داود (4878). وانظر: «الصحيحة» (533).
(3) حديث حسن. رواه البيهقي عن أنس. انظر صحيح الجامع الصغير (128).
(4) حديث صحيح. انظر: صحيح البخاري ـ فتح الباري (1/ 458) ، (3/ 492) ، (6/ 374) ـ.

بذلك من يومئذ ، في حين كذبته قريش وسخر من الحدث المشركون.

ففي صحيح البخاري عن جابر ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [لما كذبني قريش قمتُ في الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس ، فطفِقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه][1].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾. قال عبد الله بن مسعود: (رأى جبريل عليه السلام له ست مئة جناح) ـ رواه البخاري ومسلم كما سبق بتمامه. وعن قتادة: (﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ قال: رأى جبريل في صورته التي هي صورته. قال: وهو الذي رآه نزلة أخرى).

وقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾. قال ابن جرير: (أفتجادلون أيها المشركون محمداً على مايرى مما أراه الله من آياته).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾. ﴿نَزْلَةً﴾ مصدر في محل نصب حال ، والتقدير: ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى. قال القرطبي: (فقوله: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ يعود إلى محمد ﷺ ، فإنه كان له صعودٌ ونزول مراراً بحسب أعداد الصلوات المفروضة ، فلكل عَرْجَةٍ نزلة. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي ومحمد عند سدرة المنتهى وفي بعض تلك النزلات). وقال النسفي: (﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة أخرى من النزول. أي: نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه فرآه عليها وذلك ليلة المعراج).

وفي الصحيحين والمسند وجامع الترمذي عن مسروق قال: [كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ ، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أوّلُ هذه الأمة سألَ رسول الله ﷺ عنها ، فقال: إنما ذاك جبريل. لم يرَهُ في صورته التي خُلِقَ عليها إلا مرَّتين. رآه مُنْهبِطاً من السماء إلى الأرض ، سادّاً عظمُ خَلْقِهِ ما بينَ السماء والأرض][2].

وقوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. السدرة: شجرة النبق في السماء السابعة ، والمنتهى بمعنى موضع انتهاء علوم الخلائق. قال كعب: (إنها سدرة في أصل العرش ، إليها ينتهي علم كل عالم ، مَلك مقرّب أونبيّ مرسل ، ما خلفها غيب لا يعلمه إلا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4710) ـ كتاب التفسير. وكذلك (3886) ، ورواه مسلم.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4612) ، (4855) ، ومسلم (177/ 287) ، والترمذي (3068) ، والنسائي في «التفسير» (428 ـ 429) ، وأحمد (6/ 241).

الله). وقال في رواية أخرى: (إليها ينتهي علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم، ولذلك سميت سدرة المنتهى، لانتهاء العلم إليها). وقال الضحاك: (لأنه ينتهي إليها كل شيء من أمر الله لا يعدوها).

وفي صحيح البخاري من حديث مالك بن صعصعة مرفوعاً: [ورُفعت لي سِدرةُ المنتهى، فإذا نبقها كأنه قلال، وورقها كأنه آذان الفيول في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران] الحديث(1).

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله قال: [لما أسري برسول الله ﷺ انْتُهِيَ به إلى سِدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيقبض منها](2).

وقوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾. قال النسفي: (أي الجنة التي يصير إليها المتقون، وقيل: تأوي إليها أرواح الشهداء).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾. أي رآه إذ يغشى السدرة ما لا يحيط به الوصف من الروعة والجمال والحسن. وهو تعظيم وتكثير لما يغشاها.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله السابق: [قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: فراش من ذهب].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس: [فلما غشيها من أمر الله ما غَشِيَ تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يَنْعَتَها من حُسْنِها](3).

وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. أي ما مال بصر محمد ﷺ يَعْدِل يميناً وشمالاً عما رأى، ولا جاوز ما أُمِرَ به. قال محمد بن كعب القرظي: (﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ قال: رأىٰ جبرائيل في صورة الملك).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾. قال عبد الله بن مسعود: (رأى جبريل عليه السلام له ست مئة جناح)(4). قال ابن زيد: (جبريل، رآه في خلقه الذي يكون به في السماوات قدر قوسين من رسول الله ﷺ فيما بينه وبينه). وقال ابن جرير: (﴿لَقَدْ رَأَىٰ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري. انظر: فتح الباري (7/ 201 ـ 202)، وقد مضى بتمامه.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (173) ـ كتاب الإيمان. وقد مضى بتمامه قبل صفحات.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (162) ـ كتاب الإيمان، في أثناء حديث الإسراء الطويل.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4857)، كتاب التفسير، في أثناء حديث. ورواه مسلم.

﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: لقد رأى محمد هنالك من أعلام ربه وأدلته الأعلام والأدلة الكبرى).

قلت: وقد سبق ذكر الآيات الكبيرة التي رآها نبينا ﷺ ليلة المعراج: كدخوله الجنة ورؤيته نهر الكوثر فيها، ورؤيته الأنهار الأربعة التي في أصل سدرة المنتهى تتفجّر منها، ورؤيته النار وعذاب بعض أهلها، ورؤيته الأسودة عن يمين آدم وشماله: نسمُ بنيه من أهل الجنة وأهل النار، إضافة إلى سماعه صريف الأقلام وكتابة الملائكة أفعال العباد، إلى غير ذلك من الآيات الكبيرة التي أطلع الله عليها نبينا ﷺ في تلك الليلة.

19 ـ 26. قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تحقيرٌ للمشركين وأصنامهم، وتصغيرٌ لعقولهم وفساد حكمهم ومنهاجهم، وإثبات الأولى والآخرة لله العظيم، الذي لا يستطيع ابتداء الشفاعة لديه رسول أو ملك كريم، إلا من بعد أن يأذن الله العزيز الحكيم.

فقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾. تقريع من الله سبحانه بالمشركين في اتخاذهم الأصنام والأوثان، وعبادتها من دون الرحمن، وتخصيص البيوت لها مضاهاة بكعبة أهل الإسلام.

قال ابن كثير: (وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيتٌ بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فِناءٌ مُعَظَّمٌ عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون بها على مَنْ عداهم من أحياء العرب بعد قريش).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ قال: [كان اللّات رجُلاً يَلُتُّ سَوِيقَ الحاجِّ][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4859)، كتاب التفسير، سورة النجم، آية (19).

قال ابن جرير: (كان قد اشتقوا اسم اللات من اسم الله ، فقالوا اللات يعنون مؤنثة منه) ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وأما العُزّى فمشتقة من العزيز. وكانت شجرة عليها بناءٌ كبيرٌ وأستارٌ بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، وكانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد: (لنا العزّى ولا عزّى لكم). فقال رسول الله ﷺ: [قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ حَلَفَ فقال في حَلِفِهِ: واللاّت والعُزّىٰ ، فليقل: لا إله إلا الله][1]. والمقصود ما يكون من ذلك من زلة اللسان على عادة الجاهلية.

وفي المسند وصحيح ابن حبان بإسناد على شرط مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: [حَلَفْتُ باللات والعُزَّى ، فقال لي أصحابي: بئسَ ما قلتَ! قُلْتَ هُجراً! فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال: قُل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمدُ ، وهو على كل شيء قدير. وانفث عن شِمالك ثلاثاً وتَعَوَّذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم لا تَعُدْ][2].

وأما «مَنَاة» فكانت تُعظِّمها خزاعة والأوس والخزرج في الجاهلية ، وكانوا يهلون منها للحج إلى الكعبة. قال البخاري: (قال سفيان: مَناةُ بالمُشَلَّلِ مِنْ قُدَيْدٍ). قال: (وقال مَعْمَرٌ عن الزهري ، عن عُروة ، عن عائشة: كان رجالٌ من الأنصارِ مِمَّنْ كانَ يُهِلُّ لمناة ، ـ ومناةُ صَنَمٌ بين مكةَ والمدينة ـ قالوا: يا نبي الله ، كنّا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيماً لمناة)[3].

وقد خرّج البخاري في صحيحه عند تفسير هذه الآية: ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ عن عروة: قلت لعائشة رضي الله عنها: فقالت: [إنما كان مَنْ أَهَلَّ لِمَناة الطّاغِيَة التي بالمُشَلَّلِ لا يطوفون بين الصَّفا والمَرْوَةِ ، فأنزل الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4860) ، كتاب التفسير ، وكذلك (6107). ورواه مسلم في الصحيح (5/ 1647) ، وأبو داود (3247) ، والترمذي (1545) ، والنسائي (3775) وفي «التفسير» (566) ، ورواه ابن ماجة (2096).

(2) أخرجه أحمد (1/ 183) ، (1/ 186 ـ 187) ، والنسائي (3776) ، (3777) ، وفي «التفسير» (565) ، وابن حبان (4365) ، وإسناده على شرط مسلم ، ويشهد لأصله ما قبله.

(3) أخرجه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ، عقب الحديث (4861). وانظر كذلك (1643).

شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 158] فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون][1].

وهذه الثلاثة هي من أشهر الطواغيت التي كانت العرب تعظمها كتعظيم الكعبة، وهناك غيرها. قال ابن إسحاق: (وقد كانت العربُ اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوتٌ تُعَظِّمُها كتعظيم الكعبة، بها سَدَنَةٌ وحُجَّابٌ، وتُهدي لها كما يُهدى للكعبة، وتطوفُ بها تطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضلَ الكعبة عليها، لأنها كانت قد عرفت أنها بيتُ إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومسجدُه، فكانت لقريش وبني كنانة العُزَّى بنخلة، وكانت سدنتها وحُجَّابُها بني شيبان من سُلَيم حلفاء هاشم)[2].

قلت: وقد بعث رسول الله ﷺ سرية في أعقاب فتح مكة لخمس ليال بقين من رمضان أَمَّرَ عليها خالد بن الوليد إلى العُزّى ليهدمها ـ كما يروي ابن سعد في الطبقات ـ في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهوا إليها، فهدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فإنك لم تَهْدِمْها فارجع إليها فاهدمها. فرجع خالد وهو مُتَغَيِّظٌ فَجَرَّد سيفَه، فخرجت إليه امرأة عجوز عُريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السَّادِنُ يصيح بها، فضربها خالد فجزلها باثنتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: نعم تِلك العُزَّى، وقد أَيِسَتْ أن تُعْبَدَ في بلادكم أبداً. وكانت بِنَخْلة ـ على يوم من مكة ـ، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظمَ أصنامِهم، وكان سدنَتُها بني شيبان[3].

ثم بعث رسول الله ﷺ سعدَ بن زيد الأشهلي إلى مناة ـ كما يروي ابن سعد في الطبقات ـ، وكانت بالمُشَلَّل عند قُديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعندها سادِنٌ، فقال السَّادِنُ: ما تُريد؟ قلتُ: هَدْمَ مَناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعدٌ يمشي إليها، وتخرُجُ امرأةٌ عُريانة سوداءُ، ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتَضْرِبُ صَدْرها، فقال لها السَّادِنُ: مناة دونك بعضَ عُصَاتك، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم، ومعه أصحابه فهدمه، وكسروه، ولم يجدوا في خزانته شيئاً[4].

وأما اللات فكانت لثقيف بالطائف ـ كما يروي ابن إسحاق في السيرة ـ وكان سدنتها

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4861)، كتاب التفسير، سورة النجم ـ آية (20).
(2) انظر سيرة «ابن هشام» (4/ 62)، وتفسير ابن كثير ـ سورة النجم ـ آية (20 ـ 21).
(3) انظر: طبقات ابن سعد (2/ 145 ـ 146)، وكتابي: السيرة النبوية (3/ 1281 ـ 1282).
(4) انظر: ابن سعد في «الطبقات» (2/ 146 ـ 147)، وكتابي: السيرة النبوية (3/ 1282).

وحُجابها بني مُعَتِّب ، وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صَخْر بن حَرب ، فهدماها وجَعلا مكانها مسجدَ الطائف.

وبذلك أزيلت أكبر مراكز الوثنية في جزيرة العرب ، وأُجهز على قلاعها الخرافية ومنشآتها الأسطورية ، لتسطع على الأرض من جديد شمس دين الإسلام دين الحق والتوحيد ، وهي تشع فوق أرجاء مكة وربوعها ، ومنها تمتد إلى أرجاء المعمورة ، وهي تحمل إلى البشرية النور والأمن والتوحيد والإيمان ، بعدما عانت البشرية زمناً طويلاً من ظلام الشرك والكفر والظلم والطغيان ، وليدخل الناس في دين الله أفواجاً.

وقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾. أي: جعلكم لله البنات ولكم البنين قسمة جائرة. من ضازه يضيزه إذا ضامه.

وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾. إنكار على المشركين إحداثهم الكذب والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ، ما أنزل الله بها حجة ولا مستند لهم بذلك إلا تعظيم آبائهم لها وحسن ظنهم بآبائهم وما تهوى نفوسهم ، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾. أي: ولقد جاءهم من الله الوحي والنبوة فكذبوا واتبعوا أهواءهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾. أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له ، وما كل من زعم أنه مهتد يكون كذلك ، فالأمر لله تعالى مالك الدارين.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾. أي: إذا كان أمر الشفاعة هكذا في حق الملائكة المقربين فكيف بالأصنام المذمومة؟ قال القرطبي: (هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقرّبه إلى الله تعالى ، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: 23].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [أما أهل النار الذين هم

أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحما أُذِنَ بالشفاعة] الحديث[1] .

فالحديث يثبت أن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله تعالى بذلك ، وهذه الشفاعة لأهل الكبائر دون الشرك ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

وفي معجم الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال : [صنفان من أمتي لن تنالَهما شفاعتي : إمام ظلوم غشوم ، وكل غال مارق][2] .

27 ـ 30 . **قوله تعالى** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : تقريع على الكفار الذين لا يصدقون بالبعث في الدار الآخرة تسميتهم الملائكة تسمية الإناث بقولهم : هم بنات الله ، وأمْرٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بالإعراض عن الكافرين ، فإن الله هو أعلم بالمهتدين وبمن أصرَّ على الضلال المبين .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ . إنكار على المشركين تسمية الملائكة كتسمية الأنثى ، وزعمهم الفاسد أنها بنات الله كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : 19] . قال النسفي : (﴿ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ لأنهم إذا قالوا للملائكة بنات الله فقد سمّوا كل واحد منهم بنتاً وهي تسمية الأنثى) .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ ﴾ . أي ومالهم بما يَدَّعُون من مستند

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1/ 118) ، وانظر تفصيل البحث في كتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (2/ 752 ـ 759) .

(2) حديث حسن . رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ـ قال الهيثمي في «المجمع» (5/ 235) : (ورجال الكبير ثقات) . وهو في الأوسط (1/ 197/ 2) حسن لغيره . وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (4/ 1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (471) .

علم ، وإنما هو الظن. ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ . أي: ولا يجدي الظن ولا يقدّم لأهله نفعاً ، ولا يقوم مقام الحق شيئاً.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [إياكم والظَّن ، فإنَّ الظَّنَ أَكْذَبُ الحديث][1] .

وقوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ . أي: فدع ـ يا محمد ـ من أعرض عن الحق ، ولم يُعَظِّم ربّه عز وجل ، ويعلي ذكره فوق كل شيء.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ . قال ابن جرير: (يقول: ولم يطلب ما عند الله في الدار الآخرة ، ولكنه طلب زينة الحياة الدنيا ، والتمس البقاء فيها).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ . أي: العلم بأحوال الدنيا ومداخل أمورها غاية ما وصلوا إليه.

وفي التنزيل نحو ذلك ، قوله جل ذكره: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: 7]. قال الفراء: (﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ صَغّرهم وازدرى بهم ، أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة).

أخرج ابن حبان في «صحيحه» ، وكذلك البيهقي ، بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يبغض كل جعظري جواظ ، سخاب في الأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا ، جاهل بأمر الآخرة][2] .

والجَعْظَري: الفظ الغليظ المتكبر ، والجوّاظ: الجموع المنوع. والسخاب: كالصخاب ، وهو كثير الضجيج والخصام. وفي رواية ذكرها ابن الأثير: (خُشب بالليل ، سُخُب بالنهار). أي: إذا جنّ عليهم الليل سقطوا نياماً كأنهم خشب ، فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا وتسابقوا إليها حرصاً وشحاً وطمعاً.

وللحديث شاهد صحيح عند الحاكم في «تاريخه» عن أبي هريرة مرفوعاً: [إنّ الله تعالى يبغض كلَّ عالمٍ بالدنيا ، جاهِلٍ بالآخرة][3] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2563) ـ كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظن والتجسس ـ.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1957 ـ موارد) ، والبيهقي (10/ 194).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم والديلمي بإسناد صحيح. انظر صحيح الجامع (1875) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (195).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

أي: إن ربك ـ يا محمد ـ هو أعلم بمن حاد عن دينه وأخطأ سبيل الهدى والنجاة، ممن هو قد أصاب قصد السبيل وسلك سبيل النجاة، وكل ذلك سابق في علم الله تعالى.

31 ـ 32. **قوله تعالى**: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾.

في هذه الآيات: إثبات الملك والحساب لله رب العالمين، وثناء على المجتنبين الكبائر والفواحش من المؤمنين، والله تعالى هو أعلم بالمتقين.

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾. أي هو المالك ـ سبحانه ـ المتصرف في هذا الكون، الحاكم بين عباده، فمثيب للمحسنين ومعاقب للآثمين. قيل اللام في ﴿لِيَجْزِىَ﴾ لام العاقبة. قال القرطبي: (أي ولله ما في السماوات وما في الأرض، أي وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسيء ومحسن، فللمسيء السوءى وهي جهنم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة). وقال النسفي: (﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ بالمثوبة الحسنى وهي الجنة، أو بسبب الأعمال الحسنى. والمعنى أن الله عز وجل إنما خلق العالم وسوى هذا الملكوت ليجزي المحسن من المكلفين والمسيء منهم إذ الملك أهل لنصر الأولياء وقهر الأعداء).

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾. قيل: الكبائر ما أوعد الله عليه النار، والفواحش ما شرع فيها الحد. واللمم: الصغائر. وقيل: كبائر الإثم الشرك لأنه أكبر الآثام، والفواحش: الزنى. ثم استثنى استثناء منقطعاً: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ قال الشعبي: (كل ما دون الزنى). وقال ابن مسعود وأبو سعيد الخدري وحذيفة ومسروق: (إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة).

أخرج ابن جرير بسند جيد عن ابن عباس: (﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، قال هو الرجلُ يُلِمُّ بالفاحشة ثم يتوب).

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ـ أيضاً ـ: [﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾. قال: قال النبي ﷺ:

إن تَغْفِـــر اللهـــمَّ تغفـــر جَمَّـــا وأَيُّ عَبْـــدٍ لـــك لا أَلَمَّـــا][1]

قال مجاهد: (هو الذي يأتي بالذنب ثم لا يعاوده).

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: [ما رأيت شيئاً أَشْبَهَ باللَّمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: إنَّ الله كَتَبَ على ابن آدمَ حَظَّهُ من الزِّنا، أدركَ ذلكَ لا مَحالَةَ، فزِنا العينِ: النَّظَرُ، وزِنا اللسانِ: المَنْطِقُ، والنَّفْسُ تتمنَّى وتَشْتَهي، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك كُلَّهُ ويُكذِّبُهُ][2].

وفي رواية لمسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [كُتِبَ على ابنِ آدمَ نصيبُهُ من الزِّنى، مُدْرِكٌ ذلك لا مَحالَةَ، فالعينان زِناهُما النَّظَر، والأُذُنان زِناهما الاستماعُ، واللسانُ زناه الكلام، واليَدُ زناها البَطْشُ، والرِّجْلُ زناها الخُطا، والقلبُ يهوى ويتمنّى، ويُصَدِّق ذلك الفرجُ ويُكذِّبُه].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾. أي: لمن تاب من ذنبه واستغفر ـ قاله ابن عباس. فرحمته تعالى وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، وفي التنزيل: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يَحْكي عن ربه عز وجل قال: [أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً، قال: اللهمَّ! اغْفِر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أَذْنَبَ عَبْدي ذَنْباً، عَلِمَ أَنَّ له رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ، ويأخُذُ بالذَّنب، ثم عادَ فأذْنَبَ، فقال: أيْ ربِّ! اغفِر لي ذَنْبي، فقال تباركَ وتعالى: عبدي أَذْنَبَ ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ له ربّاً يغفِرُ الذَّنْبَ، ويأخذُ بالذَّنْبِ، ثُمَّ عاد فأذْنَبَ، فقال: أي ربِّ! اغفر لي ذَنْبي، فقال تبارك وتعالى: أَذْنَبَ

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2617) ـ عند تفسير هذه الآية، ورواه الحاكم (2/ 469)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6243) ـ كتاب الاستئذان، ورواه مسلم (2657) ـ كتاب القدر، ورواه عبد الرزاق في «التفسير» (3037).

عبدي ذنباً ، فَعَلِمَ أنَّ له رباً يغفِرُ الذَّنب ، ويأخذ بالذَّنبِ ، اعمل ما شِئتَ فقد غفرت لك][1].

وفي صحيح مسلم ـ أيضاً ـ عن أبي هريرة ، أنّ رسول الله ﷺ قال: [لو يَعْلَمُ المؤمِنُ ما عِنْدَ الله من العقوبةِ ، ما طمِعَ بجنَّتِهِ أحَدٌ ، ولوْ يَعْلَمُ الكافِر ما عِند الله من الرَّحمة ، ما قَنِطَ من جَنَّتِهِ أحَدٌ][2].

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾. قال ابن زيد: (حين خلق آدم من الأرض ثم خلقكم من آدم).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ الله خَلَقَ آدمَ من قُبْضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدمَ على قَدْرِ الأرض ، فجاءَ مِنْهم الأحْمَرُ ، والأبيضُ ، والأسودُ ، وبين ذلك ، والسَّهْلُ ، والحَزْنُ ، والخبيثُ ، والطَّيِّبُ][3].

فالمعنى: هو تعالى ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ـ أي: بصير بأحوالكم وما يصدر عنكم ، فهو يعلم ما يقع منكم في سابق علمه قبل أن يخلقكم ، فقد أنشأ أباكم من الأرض ثم استخرج ذريته من صلبه فقسمهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، وابن حبان في «صحيحه» ، والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي ، وكان من أصحاب النبي ﷺ ، مرفوعاً: [إنّ الله عز وجل خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال على مواقع القدر][4].

وأخرج أبو يعلى في «مسنده» بسند صحيح لغيره عن أنس مرفوعاً: [إنّ الله عز وجل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2758) ـ كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب ، وإن تكررت الذنوب والتوبة. قال عبد الأعلى ـ أحد الرواة ـ: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: «اعمل ما شئت».

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2755) ـ كتاب التوبة. باب في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها تغلب غضبه.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 406) ، والترمذي وقال حسن صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2355) ، ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (327) ، (385).

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 186) ، وابن حبان (1806) ، والحاكم (1/ 31) وسنده صحيح.

قبض قبضة فقال: في الجنة برحمتي، وقبض قبضة فقال: في النار ولا أبالي][1].

وقوله: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾. أي: وهو ـ تعالى ـ أعلم بأحوالكم حين أنتم حمل لم تولدوا ولم تخرجوا من بطون أمهاتكم.

أخرج الإمام مسلم في الصحيح عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ الله تعالى وكَّلَ بالرحم ملكاً يقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب شقي أو سعيد؟ ذكر أو أنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتبُ كذلك في بطن أمه][2].

وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾. قال زيد بن أسلم: (يقول: فلا تبرئوها). قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: فلا تشهدوا لأنفسكم بأنها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي).

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾. أي: الله أعلم ـ يا محمد ـ بمن خاف مقام ربه وعظّم شرعه وحرص بصدق على النجاة من عقابه.

وفي التنزيل نحو ذلك:

ـ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

ومن صحيح السنة المطهرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: [سَمَّيْتُ ابنتي بَرَّةَ، فقالتْ لي زينبُ بِنْتُ أبي سَلَمَةَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُزكُّوا أنْفُسَكم، اللهُ أعْلَمُ بأهل البِرِّ مِنكُم». فقالوا: بِمَ نُسَمِّيها؟ قال: سَمُّوها زَيْنَبَ][3].

ورواه مسلم عن أبي هريرة: [أنّ زينبَ كان اسْمُها بَرَّة، فقيل: تُزَكِّي نَفْسَها، فسَمّاها رسول الله ﷺ زينب][4].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرة عن

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (171/2)، وابن عدي في «الكامل» (66/2)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (47)، (48).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2646) ـ كتاب القدر، وانظر كذلك (2645)، ورواه أحمد.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2142) ح (19) ـ كتاب الآداب، وكذلك ح (18).
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2141) ـ كتاب الآداب. باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما.

أبيه قال: [أثنى رجلٌ على رَجُلٍ عند النبي ﷺ فقال: «وَيْلَكَ ، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحبك» ، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ مِراراً. ثم قال: مَنْ كان مِنكم مادِحاً أخاه لا مَحالةَ فَلْيَقُل: أَحْسِبُ فُلاناً والله حَسيبُهُ ، ولا أُزَكِّي على الله أحداً ، أَحْسِبُه كذا وكذا ، إنْ كان يعلمُ ذلك منْه][1].

الحديث الثالث: روىٰ مسلم وأبو داود والترمذي عن هَمّام ، قال: جاء رجل فأثنى على عثمان في وجهه ، فأخذ المقداد بن الأسود تراباً فحثا في وجهه ، وقال: قال رسول الله ﷺ: [إذا لقيتُم المَدَّاحين فاحْثُوا في وجوههم التراب][2].

33 ـ 41. قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ أهل الإعراض والكبر ، وتقرير أنه لا يحمل أحدٌ عن أحد الإثم والوزر ، والله تعالى لا يضيع لأحد استحقاقه من الثواب والأجر.

فقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾. ذمٌّ من الله لمن تولى عن طاعته فلا صدّق ولا صلى ، ولكن كذّب وتولى. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: أفرأيت يا محمد الذي أدبر عن الإيمان بالله ، وأعرض عنه وعن دينه).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾. أي أطاع قليلاً وأنفق ثم انقطع وأمسك وبخل. قال ابن عباس: (أطاع قليلاً ثم قطعه). وقال مجاهد: (﴿ وَأَكْدَىٰٓ ﴾: انقطع عطاؤه). وقال قتادة: (أعطى قليلاً ، ثم قطع ذلك). قال القرطبي: (وأصل «أَكْدى» من الكُدْية ، يقال لمن حَفَر بئراً ثم بلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حَفْر: قد أكدى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتَمِّم ، ولمن طلب شيئاً ولم يبلغ آخره). وقال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2662) ـ كتاب الشهادات ، وأخرجه مسلم (3000) ح (65) وأبو داود (4805) ، وأحمد (5/ 41) ، (5/ 45) ، وابن حبان (5766).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3002) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (339) ، وأبو داود (4804) ، والترمذي (2393) ، وابن ماجة (3742) ، وأحمد (5/ 6).

الكسائي: (أَكْدى الحافرُ وأَجبل إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبلاً فلا يمكنه أن يَحفِر).

وقوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾. قال ابن كثير: (أي: أعندَ هذا الذي قد أمسكَ يده خشية الإنفاق، وقَطَعَ معروفَه، أعندهُ علمُ الغيب أنه سينفد ما في يده، حتى أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عِياناً؟! أي: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسكَ عن الصَّدقة والمعروف والبرِّ والصلة بُخلاً وشُحّاً وهَلَعاً).

فالآية ذمٌّ لسلوك أهل البخل والشح الذين لا يثقون بإخلاف الله الرزق لهم عقب الصدقات والإنفاق في سبيل الله.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: 39].

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16].

3 ـ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: 8 ـ 11].

وفي صحيح مسلم عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][1].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله، عنه أن النَّبيَ ﷺ قال: [ما مِنْ يوم يُصْبحُ العِبادُ فيه إلا مَلكانِ ينزلانِ فيقول أحدهما: اللهم أعط مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخرُ: اللهم أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً][2].

وفي معجم الطبراني ومسند أبي يعلى بسند حسن من حديث بلال مرفوعاً: [أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً][3].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾. أي: أم لم يخبر بما في التوراة التي أنزلها الله سبحانه على موسى.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2578) ـ كتاب البر والصلة.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1442) ـ كتاب الزكاة. وأخرجه مسلم (1010)، وغيرهما.
(3) حديث حسن. أخرجه الطبراني (1020)، وأبو يعلى (6045)، وأبو نعيم في «الحلية» (2/ 280)، وحسن إسناده الهيثمي في «المجمع» (3/ 126).

وقوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾. أي: وبما في صحف إبراهيم الذي أحسن الوفاء لله، وأخلص الانقياد والطاعة. قال ابن عباس: (﴿وَفَّىٰٓ﴾ لله بالبلاغ). وقال سعيد بن جبير: (بلَّغ جميع ما أُمِرَ به). وقال قتادة: (﴿وَفَّىٰٓ﴾ طاعة الله، وأدّى رسالته إلى خلقه). وقول قتادة شامل لما سبق في تأويل هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. بيان من الله سبحانه لما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى، أنّ وزر كل نفس إنما هو عليها لا يحمله عنها أحد. كما قال جل ذكره: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: 11].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: [قال رسول الله ﷺ حين أُنْزِلَ عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]: يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المُطَّلِب! لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنكَ من الله شيئاً. يا صَفِيَّةُ! عَمَّةَ رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً. يا فاطمةُ! بنت رسول الله سليني ما شِئت، لا أغني عنك من الله شيئاً][1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. أي: أو لم يُنبأ كذلك أنه لا يجازى عامل إلا بعمله، فكما لا يُحْمَلُ عليه وِزْرُ غيره، كذلك لا يأخذ من الأجر إلا من كسبه وسعيه.

وقد ثبت انتفاع العبد من عمل غيره بأمور:

1 ـ دعاء المسلم له، إن توفرت فيه شروط القبول.

ففي التنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: [دعوةُ المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملكٌ مُوكَّل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكَّلُ به: آمين ولك بمثل][2].

وفي صحيح أبي داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: [كان النبي ﷺ إذا فرغ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (206) ـ كتاب الإيمان، وانظر كذلك الحديث (204) منه.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 86) ـ كتاب الدعاء. باب: الدعاء للمسلم بظهر الغيب.

من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل][1] .

2 ـ **قضاء وليِّ الميت صومَ النذر عنه.**

ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: [مَنْ مات وعليه صيام ، صامَ عنه وليُّه][2] .

وأخرج أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنه: [أن امرأة ركبت البحر فَنَذَرتْ ، إنِ الله تبارك وتعالى أنجاها أن تصوم شهراً ، فأنجاها الله عز وجل ، فلم تَصُم حتى ماتت ، فجاءت قرابَةٌ لها (إما أختُها أو ابنتُها) إلى النبي ﷺ ، فذكرت ذلك له ، فقال: أرأيتُك لو كان عليها دَيْنٌ كنتِ تَقْضِينَه؟ قالت: نعم. قال: فدينُ الله أحق أن يُقضى ، فاقض عن أمِّك][3] .

قال أبو داود في «المسائل» (96): (سمعت أحمد بن حنبل قال: لا يُصام عن الميت إلا في النذر).

3 ـ **قضاء الدَّين عنه من أي شخصٍ ولياً كان أو غيره.**

فقد أخرج الحاكم بسند صحيح من حديث جابر قال: [مات رجل ، فغسلناه ، وكفَّناه وحَنَّطْناهُ ، ووضعناه لرسول الله ﷺ حيث توضع الجنائز ، عند مقام جبريل ، ثم آذنا رسول الله ﷺ بالصلاة عليه ، فجاء معنا ، فتخطّى خُطاً ، ثم قال: لعل على صاحبكم ديناً؟ قالوا: نعم ديناران ، فتخلّف ، فقال له رجل منا يُقال له أبو قتادة: يا رسول الله هما عليّ ، فجعلِ رسول الله ﷺ يقول: هما عليك وفي مالك ، والميت منهما بريء؟ فقال: نعم ، فصلّى عليه][4] .

4 ـ **الأعمال الصالحة من الولد الصالح.**

فإنّ لوالديه مثلَ أجره ، دون أن يَنقُصَ من أجره شيء ، لأن الولد من سعيهما وكسبهما ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: 39].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 70)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (107) ص (156).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (3/ 155) ـ كتاب الصيام. باب: قضاء الصيام عن الميت ، من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما. انظر صحيح سنن أبي داود (2829).

(4) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 58) ، وانظر: «أحكام الجنائز» (17) ص (16).

وقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه][1].

وله شاهد في المسند وبعض السنن عنها بلفظ: [إنّ أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم].

ومن تلك الأعمال الصدقة والصيام والعتق ونحوه لأحاديث ، منها:

أ ـ أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: [أنّ رجلاً قال: إنّ أمي افْتُلِتَت نفسُها ـ أي ماتت فجأة ـ ولم تُوص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، فهل لها أجرٌ إن تصدّقت عنها ولي أجر؟ قال: نعم ، فتصدق عنها][2].

ب ـ أخرج مسلم في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: [أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ: إنّ أبي مات وترك مالاً ولم يُوص ، فهل يكفِّر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم][3].

ج ـ أخرج أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو: [أنّ العاصَ بن وائل السَّهمي أوصى أنْ يُعْتَقَ عنه مئةُ رقبة ، فأعتق ابنهُ هشام خمسين رقبة ، وأراد ابنه عمرو أن يُعتق عنه الخمسين الباقية ، قال: حتى أسأل رسول الله ﷺ ، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ أبي أوصى أن يُعتق عنه مئة رقبةٍ ، وإنَّ هشاماً أعتق عنه خمسين ، وبقيت عليه خمسون ، أفأعتِقُ عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: (إنّه لو كان مسلماً فأعتقتم أو تصدَّقتم عنه ، أو حَجَجْتُم عنه بلغه ذلك) وفي لفظ: (فلو كان أَقَرَّ بالتوحيد فصُمت وتصدّقت عنه نفعه ذلك)][4].

فائدة: كل الأحاديث تفيد أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصية منهما ، ويصل إليهما ثوابُها. قال الشوكاني: (فيخصَّص بهذه الأحاديث عمومُ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد ، وقد ثبت أن ولد الإنسان من سعيه فلا حاجة إلى دعوى

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (3013) ، وللشاهد بعده (3015) ، ورواه أحمد.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 198) ، وأخرجه مسلم (3/ 81) ، وغيرهما.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (5/ 73) ، وانظر تفصيل البحث في كتابي: أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (2/ 1224 ـ 1229).
(4) حديث حسن. أخرجه أبو داود في الوصايا (2/ 15) ، وانظر «أحكام الجنائز» ص (173).

التخصيص ، وأما من غير الولد فالظاهر من العموميات القرآنية أنه لا يصلُ ثوابُهُ إلى الميت ، فيوقَفُ عليها ، حتى يأتي دليلٌ يقتضي تخصيصها)[1].

وقد استنبط الشافعي رحمه الله من الآية: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ أن القراءة لا يصل إهداءُ ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم. ذكره الحافظ ابن كثير في «التفسير» ثم قال: (ولهذا لم يندبُ إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حَثَّهم عليه)

وقال العزّ بن عبد السلام: (ومن فعل طاعة لله تعالى ، ثم أهدى ثوابها إلى حيّ أو ميت ، لم يُنْتقل ثوابُها إليه ، إذ ﴿ لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ فإن شَرَعَ في الطاعة ناوياً أن يقع عن الميت لم يقع عنه ، إلا فيما استثناه الشرعُ كالصدقة والصوم والحج)[2].

5 ـ الآثار الصالحة والصدقات الجارية يخلفها الميت.

ففي التنزيل: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ [يس: 12].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة أشياء: إلا من صدقة جارية ، أو علمٍ يُنْتفَعُ به ، أو ولدٍ صالح يدعو له][3].

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته ، علماً علَّمَهُ ونشره ، وولداً صالحاً تركه ، ومُصْحَفاً ورَّثَهُ ، أو مسجداً بناهُ ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقُهُ من بعد موته][4].

والخلاصة: يصل إلى الميت من الحي: الدعاء ، وصوم النذر من الولي ، وقضاء الدين ، وأعمال الصلاح من الولد الصالح ، والحج عنه حالة وصيته بذلك ، وينتفع بالآثار الصالحة والصدقات الجارية التي خلفها ، وأما العبادات البدنية كالصلاة والصوم وقراءة القرآن والذكر فالراجح عدم وصولها ، وبه قال الشافعي ومالك وكثير من العلماء المحققين رحمهم اللهُ جميعاً.

---

(1) انظر: «أحكام الجنائز» ص (173) ـ نقلاً عن «نيل الأوطار» للشوكاني.
(2) المرجع السابق ص (174) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1228 ـ 1229).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (5/ 73) ـ كتاب الوقف. وانظر مختصر صحيح مسلم (1001).
(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (242). انظر صحيح سنن ابن ماجة (198).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾. بشارة للمؤمن ونذارة للكافر. أي: وأن نتائج سعيه سيراها في صحيفته يوم القيامة، ثم ينال أوفر الجزاء وأتمّه وأعدله، إن خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ. قال النسفي: (أي يرى هو سعيه يوم القيامة في ميزانه، ثم يجزى العبد سعيه ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾). قال القاسمي: (أي يجزى سعيه جزاءً وافراً لا يبخس منه شيئاً).

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال: [ليس أحد يحاسَبُ يومَ القيامة إلا هلك. قلت: أوليس يقول الله ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب يهلك][1].

وفي الصحيحين أيضاً عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: [ما منكم أحدٌ إلا سيكلمه ربه، ليس بينَه وبينَه ترجمان، ولا حجابٌ يَحْجُبُهُ، فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قَدَّم من عمله، وينظُرُ أشأمَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النارَ تلقاء وجهِه، فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرة][2].

وفي صحيح الحاكم بسند جيد عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: [يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت. فتقول الملائكة: يا رب: لِمَنْ يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][3].

42 ـ 55. **قوله تعالى**: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح(4939)، وأخرجه مسلم (2876).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6539) ـ كتاب الرقاق. وأخرجه مسلم (1016) ـ كتاب الزكاة.
(3) أخرجه الحاكم (4/ 586) وسنده جيد. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ أمر الخلق والفرح والحزن والحياة والموت لله العظيم، وتأكيد إهلاكه ـ تعالى ـ عبر الزمان القوم الظالمين.

فقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾. أي المعاد، وانتهاء جميع الخلق إليه. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: وأن إلى ربك يا محمد انتهاء جميع خلقه ومرجعهم، وهو المجازي جميعهم بأعمالهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم).

أخرج الحاكم ـ والطبراني بنحوه ـ بسند صحيح لشواهده، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: [قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ: تعلمونَ المعادَ إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإقامةٌ لا ظعن فيه، وخلودٌ لا موت، في أجسادٍ لا تموت][1].

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾. أي خلق الضحك والبكاء، والفرح والحزن، فأضحك وأفرح من شاء، وأبكى وأحزن من شاء.

وقال عطاء بن أبي مسلم: (﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ يعني أفرح وأحزن، لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء). وقال الحسن: (أضحك الله أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار). وقال ذو النون: (أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته). وقيل لعمر: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: (نعم! والإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي).

أخرج البخاري في «الأدب المفرد»، والبيهقي في «شعب الإيمان» ـ بإسناد صحيح على شرط مسلم ـ عن أبي هريرة قال: [خرج النبي ﷺ على رهط من أصحابه يضحكون ويتحدّثون، فقال: «والذي نفسي بيده! لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم

---

(1) أخرجه الحاكم (1/ 83)، ورواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» بنحوه كما ذكر الهيثمي في «المجمع» (10/ 396). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1668).

كثيراً». ثم انصرف ﷺ وأبكى القوم، وأوحى الله عز وجل إليه: يا محمدُ! لِمَ تُقَنِّطُ عبادي؟ فرجع النبي ﷺ فقال: أبشروا، وسدِّدُوا، وقاربوا][1].

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة مرفوعاً: [إن الكافر يزيدُه اللهُ ببكاءِ أهلِه عذاباً، وإنَّ الله لهو أضحك وأبكى، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: 18]][2].

وأخرج الحاكم على شرط الشيخين عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ أهلَ النار ليَبْكون، حتى لو أُجريت السُّفُنُ في دموعهم، لجرت، وإنهم ليبكون الدَّم! ـ يعني ـ مكان الدَّمْعِ][3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾. قال ابن بحر: (خلق الموت والحياة، كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2]). وقيل: قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: أمات الكافر بالكفر، وأحيا المؤمن بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122] الآية. وقال ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36] ـ حكاه القرطبي. وبنحو ذلك قول عطاء: (أمات بعدله وأحيا بفضله). وقيل: (أمات الآباء وأحيا الأبناء). وقيل: (أنام وأيقظ). وقيل: (أمات في الدنيا وأحيا للبعث).

قلت: وجميع ما سبق مما يحتمله التأويل، فإن مفهوم الحياة والموت سواء في الأبدان أو النفوس والقلوب بيده سبحانه وتعالى، فهو يحيي ويميت وإليه المصير.

أخرج البخاري وابن ماجة عن حذيفة قال: [كان رسول الله ﷺ، إذا انتبه من الليل، قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشور][4].

وفي لفظ عند البخاري: [كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: اللهم باسمك أحيا وأموت]. وفي رواية من حديث أبي ذر بلفظ: [باسمك نموتُ ونحيا].

---

(1) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (254)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 22/ 1058)، وابن حبان في «صحيحه» (1/ 162/ 113). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3194).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (928) ـ كتاب الجنائز. باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه.

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 605)، وله شاهد عند ابن ماجة (4324)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (ق 12/ 1). وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1679).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7394) ـ (7395)، كتاب التوحيد، ورواه ابن ماجة في السنن (3880) ـ كتاب الدعاء، باب ما يدعو به إذا انتبه من الليل.

وأخرج أحمد وابن حبان بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال: [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضَلَّ][1].

فالنور: هو نور الوحي الذي به تحيا القلوب ، نور النبوة والرسالات. والظلمة: هي ظلمة الطباع والجهل والأهواء التي تميت القلوب ، ظلمة الخضوع للغرائز والشهوات.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾. أي: ابتدع إنشاء الزوجين وجعل كلاً منهما زوجاً للآخر.

وقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾. أي إذا تدفق في الرحم. يقال: مَنى وأَمْنى. قال عطاء: (مَنى الرجل وأمْنى من المَنِيّ ، وسميت مِنىً بهذا الإسم لما يُمنى فيها من الدماء أي يُراق). وقال أبو عبيدة: (تمنى: تُقَدَّر). والراجح الأول. قال القرطبي: (والنطفة الماء القليل ، مشتق من نَطَفَ الماءُ إذا قَطَرَ. ﴿تُمْنَىٰ﴾ تُصَبُّ في الرحم وتراق).

وفي التنزيل: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: 36 ـ 40].

وفي سنن ابن ماجة بسند حسن عن بسر بن جحّاش القُرَشي ، قال: بزق النبي ﷺ في كفه. ثم وضع أصبُعَه السبابة وقال: [يقول الله عز وجل: أنّى تُعْجِزُني ، ابنَ آدمَ! وقَدْ خلقتُكَ مِنْ مِثْل هذه. فإذا بَلَغَتْ نفسُكَ هذه (وأشار إلى حَلْقِه) قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ. وأنّى أوانُ الصَّدقة؟][2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾. أي إعادة الخلق في نشأة أخرى ، فإنه ـ تعالى ـ كما خلقَ البداءة فهو قادر على الإعادة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾. قال مجاهد: (﴿أَغْنَىٰ﴾: موَّل ، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أخْدَم). وقال ابن عباس: (﴿أَغْنَىٰ﴾ أعطى ، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أرضى). والعرب تقول: «أقناه» الله أي أعطاه ما يُقْتَنى من «القِنْية» والنَّشَب. «وأقناه» أيضاً: رضّاه. والقِنى: الرضا. ويقال: «أغناه الله وأقناه» أي أعطاه ما يَسْكُنْ إليه.

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 176) ، (2/ 197) ، وابن حبان (1812) ، والحاكم (1/ 30).
(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (2707) ـ كتاب الوصايا. انظر صحيح سنن ابن ماجة (2188).

وخلاصة المعنى كما ذكر القاسمي رحمه الله: (﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي أغنى من شاء بالمال. و«أقناه» أي جعل له قنية، وهو ما يدّخره من أشرف أمواله).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾. قال ابن عباس: (هو هذا النَّجمُ الوقَّاد الذي يُقال له: مِرزَمُ الجوزاءِ، كانت طائفة من العرب يعبدونه). قال النسفي: (هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر، وكانت خراعة تعبدها، فأعلم الله أنه رب معبودهم هذا).

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾. وهم قوم هود. وسميت الأولى لتقدمها في الزمان. وهم عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: 6 ـ 8]. وكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله تعالى وعلى رسوله، فدكهم الله بريح صرصر عاتية، سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة، وأما عاد الآخرة فهم من ولد عاد الأولى.

وقد أبعد النّجعة اليوم بعض المتعالمين حين سمّى ـ أمريكة ـ بعاد الثانية، فزعم أن تلك الأولى وهذه الآخرة، جَهْلاً بتفسير كتاب الله تعالى، واستخداماً للفلسفة والرأي بدل تتبع دقائق الوحي.

وقوله: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾. هم قوم صالح، أهلكهم الله بالصيحة لما ظلموا. قال ابن جرير: (يقول جل ذكره: ولم يبق الله ثمود فيتركها على طغيانها وتمرّدها على ربها مقيمة، ولكنه عاقبها بكفرها وعتوّها فأهلكها).

وقوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾. أي: وكذلك فقد أهلك سبحانه قوم نوح من قبل هؤلاء، فقد كانوا أشدَّ عناداً وغروراً وتمرداً من الذين من بعدهم. وفيه تسلية للنبيّ ﷺ وتعزية عما يلقاه من عناد قومه وكبرهم، فإن الله قد أهلك من كان أكفر منهم وأطغى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾. قال القرطبي: (يعني مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم، أي انقلبت وصار عاليها سافلها. يقال: أَفَكْته أي قلبته وصرفته. ﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء، رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض).

وقوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾. قال قتادة: (الحجارة). وقال ابن زيد: (الحجارة التي رماهم بها من السماء). وقوله: ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ تعظيم وتهويل لما صبّ عليها من

العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود ، كما قال جل ذكره: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: 173].

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾. قال النسفي: (﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أيها المخاطب ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكك بما أولاك من النعم أو بما كفاك من النقم ، أو بأي نعم ربك الدالة على وحدانيته وربوبيته تشكك).

56 ـ 62. قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: هذا محمد ﷺ ـ أيها الناس ـ نذير من جنس الرسل قبله الذين أنذروا قومهم ، كما أن هذا البيان نذير يشبه ما أُنذر به الأولون في الكتب المتقدمة. وتأكيد اقتراب الساعة والناس في لهو وغفلة ، وأولى بهم أن يلتفتوا لما ينجيهم من السجود لله وتعظيمه وحده.

فقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾. قال قتادة: (أنذر محمد ﷺ كما أنذرت الرسل من قبله). وقال: (إنما بعث محمد ﷺ بما بعث الرسل قبله). وقال أبو مالك: (﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ مما أنذروا به قومهم في صحف إبراهيم وموسى).

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: [إنَّ مثلي ومثلَ ما بعثني الله عز وجل به كمثل رجل أتى قومه ، فقال: يا قوم! إني رأيت الجيش بِعَيْنيَّ ، وإني أنا النذير العُرْيان][(1)].

وقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾. قال ابن عباس: (من أسماء يوم القيامة ، عَظَّمَهُ الله ، وحذّره عباده). وقال مجاهد: (﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ قال: اقتربت الساعة). فالمعنى: اقتربت القريبة ، وهي القيامة.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: لا يدفعُها إذن من دون الله أحدٌ ، ولا يَطَّلِعُ على عِلمها سواهُ).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2283) ـ كتاب الفضائل ، وهو جزء من حديث أطول.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾. إنكار على المشركين استماعهم القرآن ثم إعراضهم عنه وعجبهم أن يكون نزل على محمد ـ ﷺ ـ.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾. قال ابن جرير: (وتضحكون منه استهزاءً به، ولا تبكون مما فيه من الوعيد لأهل معاصي الله، وأنتم من أهل معاصيه).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾. قال ابن عباس: (هو الغناء بالحميرية، سمد لنا: غنّى لنا). وقال مجاهد: (هو الغناء، يقول أهل اليمن: سمد فلان إذا غنى). وقال الضحاك: (السُّمود: اللهو واللعب). وقال عكرمة، عن ابن عباس: (كانوا إذا سمعوا القرآن تَغَنَّوا ولعبوا). وقال الحسن: (﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾: غافلون).

والآية تشبه قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: 66 ـ 67]. قال سعيد بن جبير: (يسمرون بالليل يخوضون في الباطل). وقال مجاهد: (بالقول السَّيِئ في القرآن). وأصل السَّمر: الحديث بالليل.

والخلاصة: أنَّ كفار مكة لما طغوا أخذوا يَسْمُرون بالليل يتغنون بكلام فاحش يؤذي الله ورسوله، ويتمادون بلغو القول وهم يَهْذون ويلعبون ويطربون، فعَاب الله ذلك عليهم في هذه الآيات التي تحمل لهم التهديد والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴾. أي: فلربكم ـ أيها الناس ـ فاسجدوا مخبتين، وأخلصوا له العبادة والتعظيم. وذهب أبو حنيفة والشافعي إلى أن المراد سجود التلاوة، والأول أرجح.

وقد تقدّم أول السورة حديث الإمام البخاري عن ابن عباس: [أنّ النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس][1].

وله شاهد عند الدارقطني عن أبي هريرة أنه قال: [إنّ النبي ﷺ سجد في سورة النجم وسجدنا معه].

وروى الجماعة إلا ابن ماجة عن زيد بن ثابت قال: [قرأت على النبي ﷺ والنجم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (4862) ـ كتاب التفسير، سورة النجم، باب ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴾.

فلم يسجد فيها][1]. ورجّح الحافظ في الفتح أن الترك كان لبيان الجواز.

تم تفسير سورة النجم
بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّه وكرمه
الاثنين 9 ـ شوال ـ 1426 هـ
الموافق 12 ـ أيلول ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1072)، (1073)، ومسلم (577)، وأبو داود (1404)، و(1405)، والترمذي (576)، والدارمي (2/ 343)، وأحمد (5/ 186)، والنسائي (2/ 160).

دروس ونتـــائج وأحكـــام

1 ـ الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، أما المخلوق فلا يحق له أن يقسم إلا بالخالق.

2 ـ أمرُه ﷺ لابن عمرو بكتابة حديثه نَسْخٌ لأمره بعدم الكتابة.

3 ـ جبريل عليه السلام هو الذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، وحديثه ﷺ : «أتاني ربي في أحسن صورة» يعني في المنام ، ولم تثبت رؤية الله لأحد في الدنيا.

4 ـ أمر ﷺ بعض أصحابه فهدموا كل وثن في الجزيرة العربية.

5 ـ الظن المذموم هو ظن السوء ، واجتناب الكبائر يكفر الصغائر ، واستمرار الصغائر بريد للكبائر.

6 ـ النهي عن تزكية النفس والمدح في الوجه.

7 ـ الشافعي رحمه الله يفتي بعدم وصول قراءة القرآن للأموات.

8 ـ الذي خلق الإنسان من نطفة هو الذي يبعثه بعد موته.

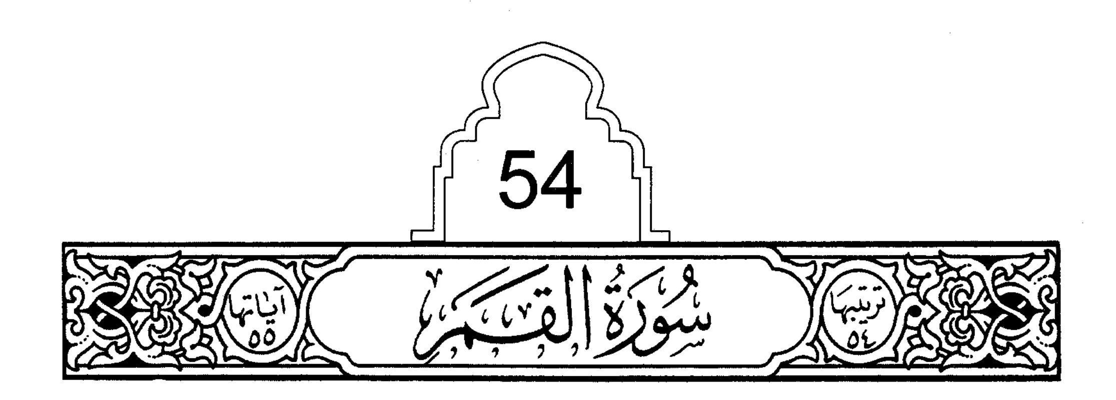
9 ـ إن الكافر يزيدُه الله ببكاء أهله عذاباً ، وإن الله لهو أضحك وأبكى.

10 ـ إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضلّ.

11 ـ لما قرأ النبي ﷺ ﴿فَاسْجُدُوا﴾ سجد ، فسجد المؤمنون والمشركون ، والجن والإنس.

12 ـ ترك السجود أحياناً ـ سجود التلاوة ـ يدل على عدم الوجوب.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (55).

روى مسلم في صحيحه عن عُبيد الله بنِ عبد الله ، أنَّ عُمرَ بن الخطاب سأل أبا واقد اللَّيْثي: ما كان يَقْرَأُ به رسولُ الله ﷺ في الأضحى والفِطْر؟ فقال: [كان يقرأ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾][1].

موضوع السورة

اقتراب الساعة وحادثة انشقاق القمر
وقصة تكذيب الأمم واتهام الحق بالسحر

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ التنبيه على اقتراب الساعة ، وحادثة انشقاق القمر ، ومقابلة المشركين ذلك الحدث بالسحر والتكذيب.

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (891) ، كتاب صلاة العيدين ، وأخرجه مالك (1/ 180) ، وأحمد (5/ 217) ، وأبو داود (1154) ، والترمذي (534) ، والنسائي (3/ 183) ، وابن ماجة (1282) ، وابن حبان (2820) من حديث أبي واقد الليثي.

2 ـ تسليةُ الله نبيّه بالإعراض عن المشركين ، الذين كذبوا بآية انشقاق القمر وكانوا بها كافرين ، والوعيد بنزول الانتقام منهم يوم الدين .

3 ـ قصة تكذيب الرسل منذ كذّب قوم نوح رسولهم ـ أول الرسل عليه الصلاة والسلام ـ ، فدعا على قومه حين استعصوا فأنزل الله بهم الانتقام . وجعل إهلاكهم آية باقية عبر الزمان .

4 ـ قصة تكذيب عاد رسولهم ، وإرسال الله عليهم الريح لاستئصالهم .

5 ـ قصة تكذيب ثمود رسولهم ، وإرسال الله عليهم الصيحة لإهلاكهم .

6 ـ قصة تكذيب قوم لوط رسولهم ، وتدمير الله قريتهم على رؤوسهم .

7 ـ قصة تكذيب آل فرعون رسولهم ، وانتقام الله منهم بإغراقهم .

8 ـ ليس كفار مكة ببعيد إهلاكهم إن تمادوا بالكفر شأن من سبقهم .

9 ـ سوء مصير المجرمين في عذاب الهون في الجحيم ، وكل شيء قدّره الله إلى يوم الدين .

10 ـ سعادة المؤمنين في روضات جنات النعيم ، يتنعمون بالملذات من الله المنعم الكريم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالى**: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: التنبيهُ على اقتراب الساعة للغافلين، وانشقاق القمر بمكة أمام أعين المشركين، ومقابلتهم ذلك بالتكذيب والاتهام بالسحر شأن الأولين المستكبرين.

فقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾. أي: قربت ودنت الساعة التي تقوم فيها القيامة. وهو كقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ [النجم: 57]. وكقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1]. وكقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1]. قال ابن جرير: (﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: هذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنوّ القيامة، وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون).

ومن كنوز السنة المطهرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: [رأيتُ رسولَ الله ﷺ قال بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام: بُعِثْتُ والساعة كهاتين][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد في المسند على شرط الشيخين عن إسماعيل بن عُبَيد الله قال: قدِم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك، فسأله: ماذا سَمِعْتَ من

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4936)، كتاب التفسير، وأخرجه مسلم (2950)، كتاب الفتن، ورواه أحمد في المسند (5/ 338).

رسول الله ﷺ يذكرُ به السَّاعة؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أنتم والسَّاعةُ كهاتين][1].

الحديث الثالث: أخرج الحافظ أبو بكر البزار بسند حسن عن قتادة، عن أنس: [أنّ رسول الله ﷺ خَطَبَ أصحابَه ذات يوم، وقد كادت الشَّمسُ أن تَغْرُبَ فلم يَبْقَ منها إلا شِفٌّ يسير، فقال: «والذي نفسي بيده ما بقيَ من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»، وما نرى من الشَّمس إلا يسيراً][2]. والشف اليسير: الشيء القليل.

وله شاهد عند الإمام أحمد عن ابن عمر قال: [كنا جلوساً عند النبي ﷺ والشمسُ على قُعَيقعانَ بعد العصر، فقال: ما أعمارُكم في أعمار من مَضى إلا كما بَقِيَ من النَّهار فيما مضى][3].

الحديث الرابع: روى مسلم في الصحيح عن خالد بن عُمَيْر العدوي قال: [خطبنا عُتْبَةُ بن غزوانَ، فحمدَ الله وأثنى عليه ثم قال: أمَّا بَعْدُ، فإنَّ الدنيا قد آذَنَتْ بِصُرْمٍ[4] ووَلّت حَذَّاءَ[5]، ولم يَبْقَ منها إلا صُبَابَةٌ[6] كَصُبابَةِ الإناءِ، يَتَصَابُّها صاحِبُها، وإنَّكم مُنْتَقِلون منها إلى دارٍ لا زوال لها، فانْتَقِلُوا بِخَيْرِ ما بِحضرتِكُم، فإنّه قد ذُكِرَ لنا أن الحجرَ يُلْقى من شَفَةِ جَهَنَّمَ، فيهوي فيها سبعين عاماً لا يُدْرِكُ لها قَعْراً، ووالله! لتُمْلأَنَّ، أفَعَجِبْتُم؟ ولقد ذُكِرَ لنا أنَّ ما بَيْنَ مِصْراعَيْنِ مِنْ مصاريعِ الجنة مَسيرةُ أربعين سنةً، وليأتِيَنَّ عليها يومٌ وهو كَظِيظٌ من الزِّحَام][7].

وقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾. أي: وانفلق القمر، وذلك أيام كان رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة. فإنه أمام إلحاح المشركين في رؤية معجزة حسية لتصديق النبوة، استجاب الله تعالى لذلك فأراهم آية انشقاق القمر نصفين حتى رأوا جبل حراء بينهما.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 223)، وإسناده على شرط البخاري ومسلم، وله شواهد.

(2) حديث حسن. أخرجه البزار كما في «المجمع» (10/ 311)، وذكره الذهبي في «الميزان» (8858) وقال: (قال ابن عدي: رأيت أحمد بن حنبل صحَّحَ هذه الرواية).

(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 116)، وإسناده حسن في الشواهد. وقعيقعان: جبل بمكة.

(4) الصرم: الانقطاع والذهاب.

(5) حَذّاء: مسرعة الانقطاع.

(6) صبابة: البقية اليسيرة من الشراب تبقىٰ في أسفل الإناء.

(7) حديث صحيح. رواه مسلم (2967)، كتاب الزهد، ورواه أحمد في المسند (4/ 174).

فقد أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه: [أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّتَين حتى رأوا حراءً بينهما][1].

وقد رواها الإمام البخاري أيضاً عن شاهد عيان وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: [انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بِمِنى فقال: اشهدوا، فذهبت فرقة نحو الجبل][2].

وقد بَيَّنَ الإمام الترمذي في جامعه ترافق ذلك مع نزول آية القمر، حيث روى عن أنس رضي الله عنه قال: [سألَ أهلُ مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ذاهب][3].

وكذلك فقد روى الترمذي وصفاً بديعاً للحدث عن ابن مسعود قال: [بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنى، فانشق القمر فلقتين: فلقة من وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اشهدوا» يعني: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾][4].

وأخرج الطبراني بسند حسن عن عكرمة، عن ابن عباس قال: [كُسِفَ القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: سُحِرَ القَمَرُ. فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إلى قوله﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾][5].

وقد أورده الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» وقال: (سنده جيد، وفيه أنه كسف تلك الليلة، فلعله حصل له انشقاق في ليلة كسوفه، ولهذا خفي أمره على كثير من أهل الأرض).

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

أي: وإن يبصر هؤلاء المشركون دليلاً وحجَّة وبرهاناً ساطعاً لا يقرون بالحق ولا ينقادون له، بل يعرضون ويتكبرون ويتهمون ما رأوه بالسحر الذاهب المضمحل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (فتح الباري 7/ 182)، وانظر صحيح الترمذي (2619) نحوه.
(2) حديث صحيح. انظر فتح الباري (6/ 631)، وصحيح مسلم بشرح النووي (7/ 143 ـ 144).
(3) حديث صحيح. انظر صحيح الترمذي (2620)، وصحيح البخاري (3637)، وصحيح مسلم (8/ 133) دون قوله: «فنزلت»، وقال البخاري: «فرقتين» بدل «مرتين»، وهي رواية مسلم.
(4) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2619)، كتاب التفسير، سورة القمر، وأصله في الصحيحين، وقد مضىٰ نحوه من حديث أنس وابن مسعود.
(5) حديث حسن. أخرجه الطبراني (11/ 11642)، ورجاله رجال الصحيح، وله شواهد.

الذي لا دوام له. قال مجاهد: (﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: ذاهب)، وهو من قولهم: مَرَّ الشيء واستمر إذا ذهب. وقال الضحاك: (محكم قوي شديد)، وهو من المِرَّة وهي القوة. والأول أرجح لورود النص فيه.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن جبير بن مطعم قال: [انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، حتى صار فرقتين، على هذا الجبل، وعلى هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقال بعضهم: لئن كان سحرنا، فما يستطيع أن يسحر الناس كلهم][1].

وأخرج البيهقي في «الدلائل»، والطيالسي بنحوه، عن مسروق، عن عبد الله قال: [انْشَقَّ القمرُ بِمَكَّةَ حتى صار فِرْقَتين، فقال كُفَّار قريش أهل مكة: هذا سِحْرٌ سَحَرَكم به ابنُ أبي كَبْشَةَ، انظروا السُّفَّار فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتُم فَهُوَ سِحْرٌ سَحَرَكُم به. قال: فَسُئِلَ السُّفَّار، قال: وقَدِموا من كل وجهٍ، فقالوا: رأيناه][2].

ولفظ الطيالسي: قال عبد الله بن مسعود: [انشَقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريشٌ: هذا سِحْرُ ابنِ أبي كبشة. قال: انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمداً لا يستطيعُ أن يسحَرَ الناس كُلَّهم. قال: فجاء السُّفَّار فقالوا ذلك][3].

والخلاصة: لقد علّل المشركون تلك الآية العظيمة بالسحر الذي كانوا عادة يفرون من الحقيقة بالاتهام به، فقد اتهموا الرسول ﷺ به من قبل، ولكنّ الله حاجَّهم بالمعجزات الحسية شأن الأمم قبلهم، ليحق عليهم ما حقَّ على الأمم الذين كذبوا وعاندوا من قبلهم.

وفي التنزيل: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59].

وتأويل الآية: أي كما أن معجزة صالح ﷺ لم تنفع في جلب ثمود إلى الإيمان، فإن المشركين من قريش لن تنفعهم معجزة يعطيها الله لمحمد عليه الصلاة والسلام،

(1) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي (2622)، كتاب التفسير، سورة القمر.
(2) حديث صحيح. أخرجه البيهقي في «الدلائل» (2/ 266)، وإسناده على شرط الصحيح. وأخرجه الطبري (32699) من وجه آخر، وإسناده على شرط الشيخين، وله طرق.
(3) حديث صحيح. أخرجه الطيالسي (295)، وإسناده على شرط البخاري ومسلم.

قياساً على عبر التاريخ والزمان ، وعلى سنة الأولين مع رسلهم عَبْرَ القرون والدهور والأيام.

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾.

أي: وكذّب هؤلاء المشركون من قريش ما جاءهم من آيات الله ، وقد عاينوا القمر وقد انفلق فلقتين ، وآثروا اتباع أهواء نفوسهم من التكذيب بما يثبت نبوة محمد ﷺ ، وكل أمر وعدهم الله أو قدّره كائن في وقته ، وسيثبت ويستقر عند ظهور العقاب والثواب.

وعن قتادة: (﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾: أي بأهل الخير الخير ، وبأهل الشر الشر). وقال ابن جريج: (مستقر بأهله). وقال مجاهد: (﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي: يوم القيامة). وقال السدي: (﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي: واقع).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾. أي: ولقد جاءهم في هذا القرآن من أخبار الأمم قبلهم وقصص هلاكهم عند تكذيبهم الرسل ، ما فيه عظة وعبرة لمن يعتبر. وعن مجاهد: (قوله: ﴿ مُزْدَجَرٌ ﴾ قال: منتهى).

وقوله: ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾. فيه أكثر من تأويل يناسب السياق:

1 ـ يعني القرآن ، وهو بدل من «ما» من قوله: ﴿ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾. حكاه القرطبي.

2 ـ هو حكمة ، أي خبر لمبتدأ محذوف. ﴿ بَالِغَةٌ ﴾: أي حكمة قد بلغت غايتها من الإحكام والتنزه عن الخلل ، ومن الاشتمال على البراهين السَاطعة والحجج التي كل منها كالجبل.

3 ـ جملة مستأنفة للتعجب من حالهم ، مع ما جاءهم مما يقود إلى الإيمان بادئ بدء ـ حكاه القاسمي ـ وقال: (وهو ما يفهم من تأويل ابن كثير. وعبارته ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ أي في هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله).

وقوله: ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾. النذر إما جمع نذير ، أو تكون بمعنى الإنذار. وهناك تأويلان حسب موقع «ما» من الإعراب:

1 ـ «ما» نافية. أي ليست تغني عنهم النذر. قال ابن جرير: (فليست تغني عنهم النذر ولا ينتفعون بها ، لإعراضهم عنها وتكذيبهم بها).

2 ـ «ما» ـ بمعنى «أنّى» ـ استفهام يفيد التوبيخ. قال القرطبي: (أي فأي شيء تغني

النذر عنهم وهم معرضون عنها). وقال ابن كثير: (يعني: أيُّ شيء تغني النذر عمَّن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149]. وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101]).

6 ـ 8. قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

في هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالى نبيّه ﷺ بالإعراض عن المشركين، وتَرَقُّبِ نزول الانتقام بهم يوم الدين، يوم هم على النار يفتنون.

فقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾. أي: فأعرض عن هؤلاء المشركين من قومك ـ يا محمد ـ الذين إن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سحر مستمر، وانتظر لهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾. قال ابن كثير: (إلى شيء مُنكَر فَظِيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال).

وقوله: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾. قال قتادة: (أي ذليلة أبصارهم). قال القرطبي: (الخشوع في البصر الخضوع والذلّة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذّل يتبين في ناظر الإنسان، قال الله تعالى: ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: 9]. وقال تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: 45]).

وقوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾. أي من القبور، واحدها جدث.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾. أي: كأنهم في انتشارهم ـ بعد خروجهم من قبورهم ـ وسعيهم إلى موقف الحساب جراد منتشر في الآفاق.

وقوله: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾. أي: مسرعين بنظرهم قِبَل داعيهم إلى ذلك الموقف الرهيب، فلا يخالفون ولا يتأخرون. قال قتادة: (﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾: أي عامدين إلى الداع). وقال النسفي: (مسرعين مادي أعناقهم إليه).

وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾. أي صعب شديد، عبوس قمطرير، كثير الأهوال والشدائد. قال ابن جرير: (وإنما وصفوه بالعسر لشدة أهواله وبلْباله). قال الله

تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٖ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٖ ﴾ [المدثر: 9 ـ 10].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فيومئذ تبعث الولدان شيباً، ويومئذ يكشف عن ساق][1].

9 ـ 17. **قوله تعالى**: ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٞ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٞ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنْهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونٗا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٖ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧ ﴾.

في هذه الآيات: قصة تكذيب الرسل منذ كَذَّبَ قوم نوح نبيهم عليه السلام، فلجأ إلى الله بالدعاء حين استعصوا فجاء الانتقام، وجعل سبحانه قصة إهلاكهم آية تتناقلها الأجيال على مرّ الزمان.

فقوله: ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ﴾. تهديد للمشركين من أهل مكة، وتسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من أذاهم وتكذيبهم.

وقوله: ﴿ وَقَالُواْ مَجْنُونٞ وَٱزْدُجِرَ ﴾. قال مجاهد: (استطير جنوناً). وقال مجاهد أيضاً: (استعر جنوناً). وقال ابن زيد: (اتهموه وزجروه وأوعدوه لئن لم يفعل ليكوننّ من المرجومين، وقرأ: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: 116]). وكلا المعنيين متوجه مناسب للسياق.

وقوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٞ فَٱنتَصِرْ ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: فدعا نوح ربه: إن قومي قد غلبوني، تمرّداً وعتوّاً، ولا طاقة لي بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2940)، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 166) في أثناء حديث طويل.

وقوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾. قال السدي: (هو الكثير).

والمقصود: فأجبنا نوحاً إذ دعانا مستغيثاً بنا فأرسلنا ماء السماء منهمراً متدفقاً يحمل للكافرين أهوال فيضان العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾. أي: وفجرنا ينابيع الأرض وعيون الماء ليلتقي ماء الأرض مع ماء السماء على أمر قَدْ قدَّره الله وقضاه.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾. الدُّسر: جمع دسار، والدّسار المسمار.

ومن أقوال المفسرين في ذلك:

1 ـ قال القرطبي: (الدّسُر: المسامير). وقال قتادة: (مساميرها التي شدّت بها). وقال ابن زيد: (الدُّسر: المسامير التي دُسرت بها السفينة، ضربت فيها، شدّت بها). واختار هذا المعنى ابن جرير.

2 ـ وقال مجاهد: (الدُّسر: أضلاع السفينة).

3 ـ وقال عكرمة: (هو صدرُها الذي يُضرب به الموج).

4 ـ وقال الضَّحاك: (الدسُر: طرفاها وأصلُها).

5 ـ وقال العوفي، عن ابن عباس: (هو كَلْكَلُها، أي صدرها).

قلت: وفي لغة العرب: الدُّسُر: خيوط تُشَدُّ بها ألواح السفينة، وقيل هي المسامير، فيكون المعنى الأول هو الأنسب في التأويل، وهو اختيار شيخ المفسرين الإمام ابن جرير.

وقوله: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾. قال سفيان: (بأمرنا). وقال ابن كثير: (أي: بأمرنا بمرأى منا وتحت حِفظنا وكَلاءتنا).

قلت: ولفظ العين في القرآن قد يفيد الصفة التي لا بد من إثباتها لله تعالى، وقد يفيد العناية والرعاية. فقوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: 39] يفيد الأمرين:

1 ـ إثبات العين لله تعالى.

2 ـ مفهوم الرعاية والحفظ والكلاءة. قال أبو نهيك: (ولتعمل على عيني). أي:

فكانت تربية موسى عليه السلام برعاية الله وحفظه. وكذلك قوله تعالى هنا في آية القمر: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾.

وقوله: ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾. قال مجاهد: (لمن كان كفر فيه). أو قال: (كفر بالله).

والمقصود: إنما غرّقنا قوم نوح ونجينا نوحاً: عقاباً من الله، وثواباً للذي جُحِد وكُفِر. فكان جزاء لقوم نوح على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح ﷺ في صبره وثباته وجهاده.

وقوله: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾. قال القرطبي: (يريد هذه الفعلة عبرةً. وقيل: أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذبون الرسل). قال البخاري: (قال قتادة: أبقى الله سفينة نوحٍ حتى أدركها أوائل هذه الأمة).

وقوله: ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾. أي: فهل من خائف مُتَّعِظ معتبر! قال ابن زيد: (المدّكر: الذي يتذكّر). وأصله مُذْتَكِر مُفْتَعِل من الذكر، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالاً لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الذال فيها.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن الأسود، عن ابن مسعود قال: [أقرأني رسول الله ﷺ: «فهل من مُدّكر». فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكِر أو مُذَّكِر؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ مدَّكِر][1].

وفي صحيح البخاري عن الأسود بن يزيد، عن عبد الله قال: [قرأت على النبي ﷺ: «فهل من مُذّكر». فقال النبي ﷺ: «فهل من مُدَّكِر»][2].

وكذلك روى البخاري عن الأسود، عن عبد الله قال: [كان رسول الله ﷺ يقرأ: «فهل من مدّكر»][3].

وفي الصحيحين عن أبي إسحاق: أنه سمِعَ رجلاً يسأل الأسودَ: «فهل من مدكر»، أو: «مُذّكر»؟ قال: [سمعت عبد الله يقرأ: «فهل من مدّكر». وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: «فهل من مدّكر» دالاً][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 395)، وإسناده على شرط البخاري ومسلم.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4874)، كتاب التفسير، سورة اقتربت الساعة.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4870)، كتاب التفسير، وانظر كذلك (3341).
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4871)، ومسلم (823) ح (280) (281)، ورواه أبو داود (3994)، والترمذي (2937)، والنسائي في «التفسير» (575).

وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾. قال ابن كثير: (أي: كيف كان عذابي لمن كَفَر بي وكَذَّب رُسُلي ولم يتَّعِظ بما جاءت به نُذُري؟ وكيف انتصرتُ لهم، وأخذت لهم بالثَّأر؟).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾. قال البخاري: (قال مجاهد: يَسَّرنا: هَوَّنَّا قِراءَته). وقال السدي: (يَسَّرنا تلاوته على الألسُن). وقال ابن زيد: (يسَّرنا: بَيَّنا). قال ابن عباس: (لولا أن الله يسَّره على لسانِ الآدميين ما استطاعَ أحدٌ من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل).

والمقصود: امتنان من الله تعالى على عباده أن سهَّل لفظ القرآن لهم، ويَسَّر فهم معناه، ليكون ذكرى لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شكوراً.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: 29].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: 97].

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [إن رسول الله ﷺ قال: أقرأني جبريلُ عليه السلام على حرف، فراجَعْتُه، فلم أزل أستزيدُهُ فيزيدني، حتى انتهى إلى سبعة أحرف][1].

قال ابن شِهاب: (بلغني أنَّ تلكَ السَّبْعَةَ الأحرف إنما هيَ في الأمرِ الذي يكونُ واحِداً، لا يخْتَلِفُ في حلالٍ ولا حرامٍ).

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. أي: فهل من متّعظٍ بهذا القرآن متذكر وعده ووعيده؟! قال محمد بن كعب القرظي: (فهل من مُنْزَجِرٍ عن المعاصي؟). قال البخاري: (وقال مطرٌ الورَّاقُ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قال: هلْ مِنْ طالبِ عِلْمٍ فيعانَ عليه؟).

ولقد تكرر في هذه السورة قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ للتنبيه والإفهام. قال القرطبي: (وقيل: إنّ الله تعالى اقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3219)، وأخرجه مسلم في الصحيح (819).

المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين ، فكان في كل قصة ونبأ ذكر للمستمع أن لو ادّكر ، وإنما كرّر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ لأن «هَلْ» كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم وجعلها حجة عليهم ، فاللام من «هَلْ» للاستعراض والهاء للاستخراج).

18 ـ 22. **قوله تعالى**: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار عن عاد قوم هود حين كذبوا رسولهم فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً ـ أي باردة شديدة ـ في يوم نحس عليهم ، مستمر عذابه لاتصال عذاب الدنيا بالآخرة. وكانت الريح ترفع أحدهم ثم تنكسه على أم رأسه ، وقد جعلها الله آية تتناقلها الأجيال إلى يوم القيامة.

فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾. قال ابن جرير: (يقول: فانظروا معشر كفرة قريش بالله كيف كان عذابي إياهم ، وعقابي لهم على كفرهم بالله ، وتكذيبهم رسوله هوداً ، وإنذاري بفعلي بهم ما فعلت من سلك طرائقهم ، وكانوا على مثل ما كانوا عليه من التمادي في الغيّ والضلالة).

وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾. قال ابن عباس: (ريحاً شديدة). وقال قتادة: (والصرصر: الباردة). وقال ابن زيد: (الصرصر: الشديدة).

وقوله: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾. أي في يوم شرّ وشؤم عليهم. قال قتادة: (النَّحس: الشؤم). وقال ابن زيد: (النّحس: الشّر ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ في يوم شرّ).

وقوله: ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾. قال قتادة: (يستمر بهم إلى نار جهنم). والمقصود: لقد نزل بهم العذاب في يوم شؤم فمازال يتتابع البلاء عليهم بعده إلى أن وافوا جهنم.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾. قال القرطبي: (﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للريح أي تَقْلَعهم من مواضعهم. قيل: قلعتهم من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها). والمنقعر: المنقطع من أصله. قال مجاهد: (كانت تقلعهم من الأرض ، فترمي بهم على رؤوسهم فتندقّ أعناقهم وتبين رؤوسهم عن أجسادهم).

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾. تهديد ووعيد لكفرة قريش ومن سار على منهاجهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. أي: ولقد سهلنا القرآن للادّكار والاتعاظ بما صرفنا فيه من الوعد والوعيد والمواعظ الكثيرة.

23 ـ 32. **قوله تعالى**: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارٌ من الله جَلَّ وعزَّ عن تكذيب ثمود نبيهم صالحاً ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وتطاولهم على الناقة بعقرها حتى نزل بهم من الله الانتقام، وقد جعل الله قصة إهلاكهم عبرة تتعاقب نقلها الأجيال على مر العصور والأزمان.

فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾. قال القرطبي: (هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبيهم، أو كذبوا بالآيات التي هي النذر).

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾. قال ابن كثير: (يقولون: لقد خِبْنا وخَسِرنا إن سَلَّمنا كُلُّنا قيادَنا لواحدٍ منا!). قال النسفي: (﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ كأن يقول إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر ونيران ـ جمع سعير ـ فعكسوا عليه، فقالوا: إن اتبعناك كنا إذن كما تقول. وقيل: الضلال الخطأ، والبعد عن الصواب. والسعر: الجنون). وقال قتادة: (﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾: في عناء وعذاب). أو قال: (في ضلال وعناء).

وقوله: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا﴾. استفهام بمعنى الإنكار. أي: أَخُصِّص بالرسالة من بيننا وفي آل ثمود من هو أكثر منه مالاً وأحسن حالاً.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾. أي بل هو كذاب بطر متكبر، حمله بطره وحرصه

على التعظُّم علينا على ادّعاء ذلك. والأشَرُ في لغة العرب: البَطَر.

وقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾. تهديد لهم ووعيد، على تطاولهم على نبي الله بالاتهام والتكذيب.

وقوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾. أي: إنا مختبروهم بالناقة فمخرجوها لهم من الهضبة كما سألوا امتحاناً لهم. قال ابن كثير: (أخرج الله تعالى لهم ناقةً عظيمة عُشَرَاء من صَخْرَةٍ صَمَّاءَ طِبقَ ما سألوا، لتكون حُجَّة الله عليهم في تصديق صالح ـ عليه السلام ـ فيما جاءهم به).

وقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾. أمر من الله تعالى لصالح ـ عليه السلام ـ بلزوم الصبر والمصابرة، فإن العاقبة والنصر سيكون له في الدارين. قال النسفي: (﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمري).

وقوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾. أي: يوم لهم ويومٌ للناقة. كقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: 155]. وقيل: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لأن العرب إذا أخبرت عن فعل جماعة بني آدم مختلطاً بهم البهائم، غلّبوا فعل بني آدم على فعل البهائم.

وقوله: ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾. قال مجاهد: (يحضرون بهم إلى الماء إذا غابت، وإذا جاءت حضروا اللبن). والشِّرب: الحظ من الماء. والمقصود: الناقة تحضرُ الماء يوم وردِها، وتغيب عنهم يوم وِردهم. قال ابن عباس: (كان يوم شِربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبناً وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلّه فلم تبق لهم شيئاً).

أخرج الإمام أحمد من حديث جابر قال: [لما نزلنا الحجْر في مغزى رسول الله ﷺ تبوك، قال: «أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا نبيّهم أن يبعث الله لهم ناقة، فبعث الله عز وجل إليهم الناقة، فكانت ترِدُ من ذلك الفجّ فتشرب ماءهم يوم وردها، ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غِبِّها»](1).

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾. أي: فنادى القوم صاحبهم ـ قدار ابن سالف أحيمر ثمود ـ فاجترأ على الإقدام على عقرها، وتعاطى الأمر العظيم غير

(1) أخرجه أحمد في المسند (3/ 296)، وصححه ابن كثير في «البداية والنهاية» (5/ 11).

مكترث لعاقبته، كما قال تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: 12 ـ 14].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾. أي: فكيف كان عذابي مقابل تكذيبهم وكفرهم! قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه لقريش: فكيف كان عذابي إياهم معشر قريش حين عذبتهم ألم أهلكهم بالرجفة. ونُذُر: يقول: فكيف كان إنذاري من أنذرت من الأمم بعدهم بما فعلت بهم وأحللت بهم من العقوبة).

وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾. يريد صيحة جبريل عليه السلام التي كان فيها هلاكهم.

وقوله: ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ قال: كالعظام المحترقة). وكأن المقصود: تمثيل هؤلاء القوم بعد هلاكهم وبلائهم بالشيء الذي أحرقه محرق في حظيرته.

2 ـ قال الضحاك: (المحتظر: الحظيرة تتخذ للغنم فتيبس، فتصير كهشيم المحتظر، قال: هو الشوك الذي تحظر به العرب حول مواشيها من السباع، والهشيم: يابس الشجر الذي فيه شوك ذلك الهشيم).

3 ـ قال سفيان: (الهشيم: إذا ضربت الحظيرة بالعصا تهشم ذاك الورق فيسقط. والعرب تسمي كل شيء كان رطباً فيبس هشيماً).

قلت: وكلها أقوال مُتقاربة مُتكاملة، يحتملها البيان الإلـهي المعجز. قال القاسمي: (﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أي كالشجر اليابس المتكسّر، الذي يتخذه من يعمل الحظيرة للغنم ونحوها. أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء. وقرئَ بفتح الظاء، اسم مكان. أي كهشيم الحظيرة، أو الشجر المتخذ لها. وهو تشبيه لإهلاكهم وإفنائهم، وأنهم بادوا عن آخرهم، لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا، كما يهمد وييبس الزرع والنبات بعد خضرة ورقه، وحسن نباته).

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾. أي: ولقد سهلنا القرآن للتلاوة والادّكار والاتعاظ بما فيه من قصص ومواعظ وعبر، فهل من متعظ أو معتبر!؟

33 ـ 40. قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تكذيب قوم لوط نبيَّهم عليه الصلاة والسلام، وإصرارهم على فاحشتهم وكفرهم حتى نزل بهم من الله أشد الانتقام، وقد جعل الله قصة إهلاكهم آية وعبرة إلى آخر الزمان.

فقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾. إخبار عن تكذيب قوم لوط نبيّهم، ومخالفته فيما نهاهم عنه من إتيانهم الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾. قال النّضر: (الحاصب الحصباء في الريح). وقال أبو عبيدة: (الحاصب الحجارة). وفي الصحاح: (والحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء وكذلك الحَصِبة). والمقصود: لقد أهلكهم الله هلاكاً متفرداً كما تفرّدوا بفاحشتهم فسبقوا إليها، وكان إهلاكهم أن أمر تعالى جبريل ـ عليه السلام ـ فرفع مدائنهم ثم قلبها عليهم، وأُتبِعت بحجارة من سجيل منضود، وهي الحاصب الذي أرسله عليهم.

وقوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾. قال القرطبي: (يعني من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه). والسَّحر هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر. قال الأخفش: (﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾: إنما أجراه لأنه نكرة، ولو أراد سَحَر يوم بعينه لما أجراه). وكذا قال الزجاج: (﴿بِسَحَرٍ﴾ إذا كان نكرة يُراد به سحَر من الأسحار).

وقوله: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾. قال ابن جرير: (والحاصب الذي حصبناهم به بسحر، بنعمة من عندنا: يقول: نعمة أنعمناها على لوط وآله، وكرامة أكرمناهم بها من عندنا).

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ . أي: كذلك يُثيب الله ويُجازي من أطاع وشكر.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ . أي: ولقد كان ـ لوط ـ أنذرهم بأس الله وحلول نقمته قبل نزول العذاب بهم ، فما التفتوا إلى إنذاره ، بل شكّوا بذلك وتماروا فيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ . قال ابن كثير: (وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكةُ: جبريلُ ، وميكائيل ، وإسرافيلُ في صورة شَبَاب مُردٍ حِسَانٍ مِحنةً من الله بهم ، فأضافَهُم لوطٌ ـ عليه السلام ـ وبعثتِ امرأتُه العجوزُ السَّوءُ إلى قومها ، فأعلمتهُم بأضياف لوط ، فأقبلوا يُهْرعون إليه من كل مكان ، فأغلقَ لوطٌ دونهم البابَ ، فجعلوا يحاوِلونَ كسرَ الباب ، وذلك عَشِيّة ، ولوطٌ ـ عليه السلام ـ يُدافِعُهم ويُمَانِعُهم دونَ أضيافه ، ويقول لهم: ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ يعني نِساءهم ، ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الحجر: 71] ، ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ ، أي: ليس لنا فيهن أرَبٌ ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: 79]. فلما اشتد الحالُ وأبَوا إلا الدخول ، خرج عليهم جبريلُ ـ عليه السلام ـ فضرب أعينهم بطَرف جناحه ، فانطمست أعينُهم. يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم يبقَ لهم عيون بالكُلِّية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسَّسُون بالحيطانِ ، ويتوعَّدُون لوطاً ـ عليه السلام ـ إلىٰ الصباح).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ . قال قتادة: (يقول: صبحهم عذاب مستقرّ ، استقرّ بهم إلى نار جهنم). وقال ابن زيد: (ثم صبّحهم بعد هذا ، يعني بعد أن طمس الله أعينهم ، فهم في ذلك العذاب إلى يوم القيامة).

وقوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ . أي: فذوقوا معشر قوم لوط عذاب الله وبأسه الذي أنذركموه رسولكم لوط عليه الصلاة السلام. قال القرطبي: (أي فقلنا لهم ذوقوا ، والمراد من هذا الأمر الخبر).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ . أي: ولقد سهّل الله هذا القرآن سواء للتلاوة أو للاتعاظ ، فهل من مُتّعِظ بما فيه من العبر وأخبار الأمم. والخطاب لقريش ثم هو يعمّ كل من جاء بعدهم ، ومضى على منهاجهم.

قال النسفي: (وفائدة تكرير ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أن يجدّدوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكاراً واتعاظاً ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً إذا سمعوا الحثّ على ذلك والبعث عليه).

41 ـ 46. **قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآيات: تكذيب آل فرعون رسولهم موسى عليه الصلاة والسلام، وتماديهم بالكفر والعناد حتى نزل بهم من الله الانتقام، وما كفار مكة ببعيد إهلاكهم إن أصروا على الكفر والعناد كبقية الأقوام.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾. إخبارٌ من الله عن استيفاء الحجة على آل فرعون، فجاءهم موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنِّذارة إن كفروا، وأيدهم الله تعالى بالآيات والمعجزات الباهرة.

وقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾. قال ابن جرير: (يقول جلّ ثناؤه: كذّب آل فرعون بأدلتنا التي جاءتهم من عندنا، وحججنا التي أتتهم بأنه لا إله إلا الله وحده كلها).

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. قال قتادة: (يقول: عزيز في نقمته إذا انتقم).

وقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾. أي: أكفاركم ـ معشر المشركين من قريش ـ خير من الذين تقدّم ذكر هلاكهم لما كفروا بالكتب وكذبوا الرسل؟! ألكم خصوصية تميّزكم منهم فتكفرون وتكذبون ثم تنجون؟!.

وقوله: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾. قال عكرمة: (يعني في الكتب). والمعنى: أم معكم ـ أيها المشركون ـ من الله براءة أقرّها في الكتب ألا ينالكم بعذاب ولا انتقام.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: يعتقدون أنهم يتناصرون، بعضهم بعضاً، وأنَّ جَمْعهم يُغني عنهم مَنْ أرادَهُم بسوءٍ).

وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾. إخبارٌ من الله سبحانه وتقريرٌ أنّ كفار قريش سيهزمون ويولون أدبارهم المؤمنين أثناء فرارهم مغلوبين صاغرين.

أخرج البخاري في الصحيح والنسائي في «التفسير» عن عكرمة، عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ قال ـ وهو في قُبَّةٍ يومَ بَدْر ـ: «اللهم إني أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللهم إنْ تَشَأْ لا تُعْبَدْ بعدَ اليوم». فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ يا رسولَ الله،

أَلْحَحْتَ على رَبِّكَ ، وهو يَثِبُ في الدِّرْعِ ، فخرج وهو يقول: «﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾»][1].

وفي رواية: [فخرج وهو يقول: «﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾»].

وقوله تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾. أي: ليس الأمر كما يزعم المشركون أنْ لا بعث لهم بعد مماتهم ، بل إن الساعة موعدهم للبعث والعقاب ، وستكون الساعة أدهى وأمرّ عليهم أضعافاً مضاعفة من هزيمة بدر.

أخرج البخاري عن يوسف بن ماهَكَ قال: [إنّي عِنْدَ عائشة أُمِّ المؤمنين قالت: لَقَدْ أُنْزِلَ على مُحَمّد ﷺ بِمَكّة ، وإني لجاريةٌ أَلْعَبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾][2].

47 ـ 55. **قوله تعالى**: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥ ﴾.

في هذه الآيات: سوء مصير المجرمين في عذاب الهون في الجحيم، فكل شيء قد قدّره الله منذ الأزل إلى يوم الدين ، وأما المؤمنون فهم في روضات الجنات يتنعمون في ألوان الملذات والنعيم.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾. قال قتادة: (في عناء). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن المجرمين في ذهاب عن الحق ، وأخذ على غير هدى ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ يقول: في احتراق من شدة العناء والنصب في الباطل). قال ابن كثير: (يخبرنا تعالى

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4875) ، (4877) ، كتاب التفسير ، وأخرجه كذلك برقم (2915) ، (3953). ورواه النسائي في «التفسير» (577).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4876) ، كتاب التفسير ، وانظر كذلك (4993).

عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق ، وسُعُرٍ مما هُم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كُلَّ من اتّصف بذلك من كافر وَمُبتدع من سائر الفرق).

وقوله : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ . تَقْرِيرٌ من الله العظيم لِمَا سيكون من مذلة وإهانة لتلك الوجوه التي أبت أن تسجد لله في الدنيا كبراً وعناداً.

وقوله : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ . أي : ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا أَلَم جهنم. فَمَسُّها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها. و«سَقَر» اسم من أسماء جهنم لا ينصرف ، لأنه اسم مؤنث معرفة ، وكذا لَظَى وجهنم.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ . إثبات قدر الله السابق لخلقه. كما قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: 2]. وكقوله جل ذكره: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : 1 ـ 3].

قال القرطبي : (الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قَدَّرَ الأشياء ، أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه ، فلا يحدث حدث في العالم العلويّ والسفليّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه ، سبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غيره ، كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القَدريّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: [جاء مشركُو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر ، فنزلت: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾][1].

وله شاهد عند البخاري في «خلق أفعال العباد» من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ في أهل القدر].

وفي سنن أبي داود بسند حسن عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [القَدَرِيّة مَجُوسُ هذه الأمة: إنْ مَرِضُوا فلا تعودوهم ، وإنْ ماتوا فلا تشهدوهم][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2656) ، والترمذي (2157) ، (3290) ، ورواه ابن ماجة (83) ، والواحدي (775). وانظر للشاهد: «خلق أفعال العباد» ص (19).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (4691) ، كتاب السنة. انظر صحيح سنن أبي داود (3925).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله كتبَ مقادير الخلائق قبل أن يخلُق السماوات والأرضَ بخمسين ألف سنة][1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾. تقرير لنفوذ مشيئته سبحانه في خلقه، فإنه إذا أراد أمراً كوَّنَهُ بقولة واحدة: كن فيكون، فإذا هو موجود حاصل قائم كسرعة اللمح بالبصر لا يبطِئُ ولا يتأخر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قال ابن زيد: (أشياعكم من أهل الكفر من الأمم الماضية، يقول: فهل من أحد يتذكر). والمقصود: كان في الأمم السالفة أمثالكم وأشباهكم من المكذبين للرسل فدمَّرناهم، فهل من معتبر بسنن الله في خلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾. قال الضحاك: (الكتب). والمقصود: لقد تمّ جمع كل أقوالهم وأعمالهم وتدوينها في الكتب التي بأيدي الملائكة ـ عليهم السلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾. قال ابن عباس: (يقول: مكتوب). وقال قتادة: (محفوظ مكتوب). قال القرطبي: (أي كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به، ومكتوب إذا فعله).

وفي التنزيل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

وفي المسند وسنن ابن ماجة وصحيح ابن حبان عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: [يا عائشة! إياك ومُحقَّرات الذنوب فإن لها من الله طالباً][2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾. قال النسفي: (﴿وَنَهَرٍ﴾ وأنهار، اكتفى باسم الجنس، وقيل: هو السعة والضياء ومنه النهار).

والمقصود: إخبار من الله تعالى عن حال المتقين يوم القيامة أنهم في ظلال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2653) ح (16)، والترمذي (2156)، وأحمد (2/ 169).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (6/ 70)، وابن ماجة في السنن (4243)، وأخرجه الدارمي (2/ 303)، وابن حبان (5568)، وإسناده على شرط البخاري.

وبساتين ، تتدفق عبرها الجداول والأنهار ، ويفوح فيها عبق الأزهار والرياحين. بعكس حال الأشقياء والمجرمين ، أهل الضلال والسعر وصلي الجحيم.

وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾. أي: في مجلس حق ومنبر نور ، لا لغو فيه ولا تأثيم.

وقوله: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾. أي: عند الملك العظيم ، ذي القدرة والجبروت والقوة المتين ، سبحانه وتعالى.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ المُقْسِطين ، عند الله ، على منابِرَ من نُور ، عن يمين الرحمن عزَّ وجَلّ ، وكِلْتا يديه يمينٌ ، الذين يَعْدِلُون في حُكْمهم وأهليهم وما وَلُوا][1].

وفي المسند للإمام أحمد بسند صحيح عن عبادة ، عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: حُقَّت محبتي للمتحابين فِيّ ، وحقت محبتي للمتواصلين فيّ ، وحقت محبتي للمتناصحين فيّ ، وحقت محبتي للمتزاورين فيّ ، وحقت محبتي للمتباذلين فيّ. المتحابّون فيّ على منابر من نور ، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء][2].

تم تفسير سورة القمر

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

ظهر الجمعة 13 ـ شعبان ـ 1426 هـ

الموافق 16 ـ أيلول ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1827) ، كتاب الإمارة. ورواه أحمد والنسائي وغيرهم.

(2) حديث صحيح. رواه أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرك. انظر: «تخريج الترغيب» (4/ 47) ، وصحيح الجامع الصغير (4197).

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ إخبار الله تعالى باقتراب قيام الساعة.

2 ـ ثبوت انشقاق القمر معجزة لرسول الله ﷺ ، ونزول الآية: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

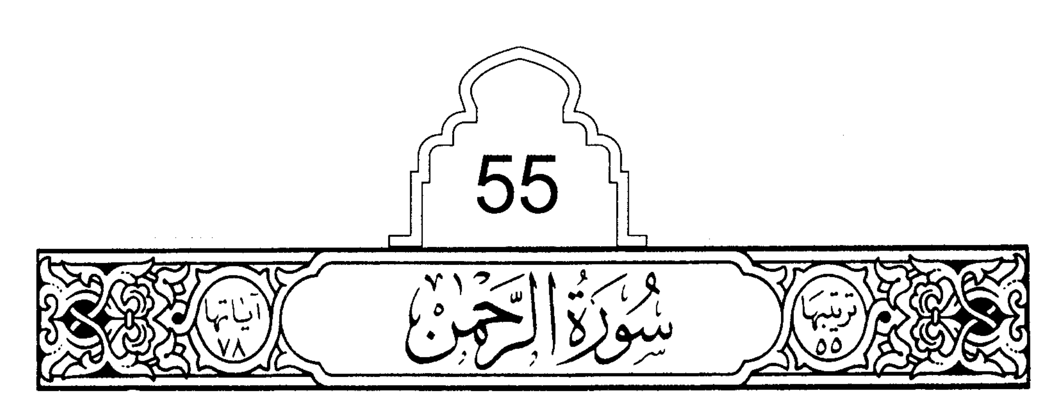
3 ـ يثأر الله لأنبيائه ممن كذبهم كقومي نوح وهود. فأهلك أحدهم بالطوفان والآخرين بالريح العاتية. وثأر لصالح بصيحة أردت ثمود هشيماً منثوراً. وثأر للوط من قومه فأصبحوا صرعى الدمار والأحجار. ويحذر قريشاً أن يحل بهم ما حل بمن مضى من الأمم المكذبة قبلهم.

4 ـ مجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، فلا تعودوهم ولا تشهدوهم.

5 ـ السعداء في جنات ونهر، والأشقياء في جحيم وسعر.

6 ـ المتحابون في الله على منابر من نور، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (78) .

قال المهايميّ : (سميت به لأنها مملوءة بذكر الآلاء الجليلة ، وهي راجعة إلى هذا الاسم) .

أخرج الترمذي والحاكم والبزار بسند حسن في الشواهد عن جابر رضي الله عنه قال : [خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم «سورة الرحمن» من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : لقد قَرَأْتُها ، سورة «الرحمن» على الجنِّ ليلةَ الجِنِّ ، فكانوا أحْسَنَ مَرْدوداً منكمُ ، كنتُ كُلَّما أتَيْتُ على قولِه : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، قالوا : لا بشيءٍ من نعمِكَ ربنَّا نكذِّبُ ، فلك الحمد][1] .

موضوع السورة

نِعَمُ الرحمان وآلاؤه الحسان

وحال السعداء وحال الأشقياء اللئام

---

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي في «سننه» (2/ 234) ، والحاكم (2/ 473) ، وله شاهد يتقوىٰ به عند ابن جرير (27/ 72) ، والبزار (ص 221 ـ 222) ، من زوائده ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2150) .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ امتنان الله على عباده بأجل النعم التي أكرمهم بها وهي القرآن ، ثم نعمة النطق والبيان.

2 ـ امتنانه تعالىٰ على العباد بنعمة الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء والميزان ، والأرض والفاكهة والنخل والحب والريحان.

3 ـ إثبات خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار.

5 ـ إظهار بعض الآيات البديعة في الخلق في الأنهار والبحار.

6 ـ إثبات الفناء لكل شيء والبقاء للواحد القهار ، وهو سبحانه كل يوم هو في شأن وله الكمال والجميع إليه بالافتقار.

7 ـ إثبات العجز لجميع الثقلين في مشهد الحشر بين يدي الرحمان ، والتحدي لهم أن يهربوا إن استطاعوا من الحساب والقصاص والميزان.

8 ـ تفطّر السماء يوم القيامة وذل المشهد على المجرمين ، ودنو جهنم من الكافرين.

9 ـ ذِكْرُ حالِ السعداء المقربين الأبرار ، بعد ذكر حال الأشقياء الفجار.

10 ـ ذِكْرُ حال أصحاب اليمين ، وما أعد الله لهم في جنات النعيم ، فتبارك الله رب العالمين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 13. قوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالى على عباده بالنعم الجليلة التي حَفَّهم بها وأعظمها القرآن، ثم نعمة النطق والكلام، ثم نعمة الأرض وما فيها من الفاكهة والنخل والحب والريحان.

فقوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾. قال قتادة: (نعمة والله عظيمة).

قال القاضي: (لما كانت السورة مقصورة على تعداد النعم الدنيوية والأخروية، صدّرها بـ ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ وقدّم ما هو أصل النعم الدينيّة وأجلّها، وهو إنعامه بالقرآن، وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين، ومنشأ الشرع، وأعظم الوحي، وأعز الكتب، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها، مصدق لنفسه، ومصداق لها).

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. قال قتادة: (الإنسان: آدم ﷺ).

وقال ابن زيد: (﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قال: البيان: الكلام). وقال الحسن: (يعني النُّطق). وقال قتادة: (علمه الله بيان الدنيا والآخرة، بين حلاله وحرامه، ليحتج بذلك على خلقه). وقال أيضاً: (تَبَيَّنَ له الخيرُ والشر، وما يأتي، وما يدع).

قال ابن كثير: (قول الحسن هاهنا أحسنُ وأقوىٰ، لأن السياقَ في تعليمه تعالىٰ القرآن، وهو أداءُ تلاوتِه، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخَلْقِ، وتسهيل خُروج

الحروف من مواضِعها من الحَلق واللِّسان والشفتين ، على اختلاف مخارجِها وأنواعِها) .

قلت: وعموم الآية يشمل تعليم الله الإنسان ما يحتاج إليه في أمر دينه ودنياه من بيان الحلال والحرام ، والمعايش والمنطق وغير ذلك . وهو اختيار شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير ـ رحمه الله .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ فيه أقوال متكاملة .

1 ـ قال ابن عباس : (بحساب ومنازل يرسلان) . وقال : (يجريان بعدد وحساب) .

وقال قتادة : (بحساب وأجل) . وقال : (يجريان في حساب) .

والمقصود: الشمس والقمر بحسبان ومنازل لها يجريان ولا يعدوانها .

2 ـ قال ابن زيد : (﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ قال : يحسب بهما الدهر والزمان ، لولا النهار والليل والشمس والقمر لم يدرك أحد كيف يحسب شيئاً . لو كان الدهر ليلاً كله ، كيف يحسب ، أو نهاراً كله كيف يحسب) .

3 ـ قال الضحاك : (﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ قال : بقدر يجريان) .

قلت: فجميع ما ذكر يدخل في مفهوم الآية ، فإن الشمس والقمر آيتان عظيمتان من آيات الله ، يجريان متعاقبين بحساب دقيق لا يضطرب ولا يختلف .

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : 40] .

2 ـ قال تعالىٰ : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : 96] .

والحسبان مصدر من قول القائل : حسبته حساباً وحسباناً ، وقيل : إنه جمع حساب .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذَرّ : [أن النبي ﷺ قال يوماً : أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنّ هذه تجري حتىٰ تنتهي إلى مستقرها تحت

العرش ، فتخرّ ساجدة ، فلا تزال كذلك حتىٰ يُقالَ لها : ارتفعي] الحديث[1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ . قال مجاهد : (﴿ وَٱلنَّجْمُ ﴾ نجم السماء) .

وقال السدي : (النجم : نبات الأرض) . والأول أصح . وأما الشجر فهو ما قام على ساق .

وفي التنزيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآية [الحج : 18] .

والمقصود: أن جميع نجوم السماء ونباتات الأرض تسجد طواعية لله العظيم ، فالكل منقاد له تعالىٰ وفيه إشارة لما ينبغي أن يكون عليه أمر الثقلين .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ . أي : والسماء رفعها سبحانه فوق الأرض ، ووضع العدل بين خلقه في الأرض . كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : 25] .

قال مجاهد : (﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ قال : العدل) .

قلت: فالميزان هو معيار التوازن في كل الأشياء وجميع المخلوقات ، وهو معيار إقامة منهج القسط في الأرض ، وقد احتج بعض علماء الأصول بهذه الآية على مشروعية القياس .

وجاء في كتاب : «توحيد الخالق»[2] ربطاً مع مفهوم هذه الآية : (اكتشف «نيوتن» أن في السماء قانوناً محكماً دقيقاً يحكم أجرام السماء هو قانون الجذب ، وأن محصلة هذا الجذب بين الكواكب هو الاتزان بينها ﴿ ٱلْمِيزَانَ ﴾ . ويعتبر اكتشاف الكوكبين «نبتون وبلوتو» نصراً للقانون الذي اكتشفه نيوتن ، فباستخدام ميزان الجذب حدّد الفلكيون مواقع لكوكب «أورانس» ولكن بواسطة الرصد وجدوا مواقعه مختلفة ، فافترض الفلكيون وجود كواكب أخرىٰ تؤثر بجذبها لأورانس ، وقد أمكن حساب مواقع الكوكب السيار «نبتون» في السماء من مقدار تأثيره على «أورانس» ، وحدد الاتجاه الذي شوهد فيه بعد تقدم وسائل الرصد ، تطبيقاً لقانون الجذب ، وبالمثل في هذا

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (159) ، كتاب الإيمان ، وهو جزء من حديث أطول .
(2) كتاب : «توحيد الخالق» ـ عبد المجيد الزنداني ـ ص (353 ـ 354) .

الميزان أمكن اكتشاف السيار الآخر «بلوتو» فهل فُهِم الآن معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾؟!).

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾. يعني: ألا تظلموا أو تبخسوا في الوزن، فقد خلق سبحانه السماوات والأرض بالحق والعدل، وهكذا يجب أن تكون الأشياء كلها قائمة بميزان الحق والعدل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾. قال ابن زيد: (نقصه، إذا نقصه فقد خَسَّره، تخسيره نقصه).

والمقصود: أقيموا منهاج الحكم بالقسط والعدل، كما أُمرتم بإقامة لسان الميزان بالعدل.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: للخلق). وقال: (كل شيء فيه الروح). وقال الحسن: (للخلق الجن والإنس). قال ابن كثير: (أي: كما رفَعَ السماء وَضَعَ الأرض ومَهَدَها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقِرَّ لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفةُ أنواعُهم وأشكالُهم وألوانُهم وألسنتهُم، في سائر أقطارها وأرجائها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾. أي: فيها فاكهة مختلفة الألوان والروائح والطعوم، والنخل من أشرفها وألذّها وأكثرها نفعاً. قال قتادة: (أكمامها: ليفها). قال النسفي: (﴿ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴾ هي أوعية الثمر، الواحد كِمّ بكسر الكاف، أو كل ما يُكَمّ أي يُغَطّى من ليفه وسعفه وكفُرّاه، وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجمّاره وجذوعه).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾. الحبّ: الحِنطة والشعير ونحوهما. والعَصْف: التِّبْنُ وورق الشجر والزرع. قال ابن عباس: (تِبْن الزرع وورقه الذي تَعصِفُه الرياح).

وقال سعيد بن جبير: (بَقْل الزرع أي أوّل ما ينبت منه). وقال ابن زيد: (الريحان: الرياحين التي توجد ريحها).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. قال قتادة: (يقول للجن والإنس: بأيِّ نِعم الله تكذّبان).

أي: فكيف تكذبون ـ معشر الثقلين ـ وهذه النعم العظيمة ترفلون بِظِلِّها وتنغمسون بملذاتها !

14 ـ 25. **قوله تعالىٰ:** ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذه الآيات: إثبات خلق الإنسان من الصلصال والجان من النار، وإظهار بعض الآيات البديعة في الخلق في الأنهار والبحار.

فقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾. أي من الطين اليابس الذي له صلصلة إذا حرّك ونقر كالفخار. قال ابن عباس: (﴿مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾: الطين اليابس). وقال عكرمة: (الصلصال: طين خُلط برمل فكان كالفخار). وقال مجاهد: (الصلصال: الترابُ اليابسُ الذي يُسمع له صلصلة فهو كالفخار). والفخار: هو الذي قد طُبِخَ من الطين بالنار.

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله خلق آدم من قُبْضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْرِ الأرض، فجاء منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبَيْنَ ذلك، والسَّهْلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ، والطَّيبُ][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾. أي من طرف لهبها. قال مجاهد: (اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت). وقال ابن عباس: (﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾: من لهب النار، من أحسنها). أو قال: (من خالصِ النار). قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، وهو ما اختلط بعضه ببعض، من بين أحمر وأصفر وأخضر، من قولهم: مَرِج أمر القوم: إذا اختلط).

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في «التفسير». انظر صحيح سنن الترمذي (2355).

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [خُلِقَت الملائكة من نورٍ ، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ ، وخُلِق آدمُ مما وُصِفَ لكم][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. أي: فبأي نعمة ربكما معشر الثقلين من هذه النعم تكذبان ؟

وقوله: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾. أي: مشرق الشمس في الشتاء ، ومشرقها في الصيف.

وقوله: ﴿ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾. يعني: مغربي الشمس في الصيف والشتاء.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: 9].

والمراد جنس المشارق والمغارب.

2 ـ قال تعالىٰ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المعارج: 40].

والمراد هنا اختلاف مطالع الشمس على مرور العام ، وبروزها للناس كل يوم من سمت في الأفق حسب تنقل الأيام.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. أي: فبأي هذه النعم والمصالح المستفادة من اختلاف هذه المشارق والمغارب للخلق من الجن والإنس تكذبان معشر الثقلين ؟!

وقوله تعالىٰ: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾. ـ مَرَج: خلّىٰ وأرسل. قال ابن عباس: (أي أرسلهما). وقال ابن زيد: (﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي منعهما أن يلتقيا ، بما جعل بينهما من البرزخِ الحاجز الفاصل بينهما).

قال ابن كثير: (والمرادُ بقوله: ﴿ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ ، المِلْحَ والحُلْوَ ، فالحُلْو هذه الأنهار السَّارحة بين الناس). وهو كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: 53].

وقوله تعالىٰ: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾. قال مجاهد: (بينهما حاجز من الله ، لا يبغي أحدهما على الآخر). وقال أيضاً: (لا يختلطان).

والمقصود: جعل الله بينهما حاجزاً من الأرض فلا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة ، ومن ثمّ فكل واحد منهما محفوظ في صفته وطبيعته.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2996) ، وأحمد (6/ 153) ، وابن حبان (6155).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. أي: فبأي نعم الله ـ معشر الجن والإنس ـ تكذبان من هذه النعم التي منها إرسال الأنهار والبحار وحفظها لما يستفاد منها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾. أي: يخرج من كليهما اللؤلؤ: وهو ما عظم من الدر، والمرجان: ما صغُر منه وحَسُنُ. قال قتادة: (اللؤلؤ: الكبار من اللؤلؤ، والمرجان: الصغار منه). وقال مرّة: (المرجان: جيد اللؤلؤ). أو قال: (اللؤلؤ العظام). وقيل: المرجان: الخرز الأحمر. وقيل غير ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. فيه امتنان من الله تعالى على عباده بنعمة هذه الحلية من اللؤلؤ والمرجان.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾. أي: وله ـ تعالى ـ السفن الجارية في البحار ـ المرفوعات القلاع ـ كالجبال. قال مجاهد: (ما رُفِعَ قلْعُهُ من السفن فهي مُنْشأَة، ومالم يُرْفَع قَلْعُهُ فليس بمنشأة). قال ابن جرير: (وقوله: ﴿ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ يقول: كالجبال، شبَّه السفن بالجبال، والعرب تسمي كل جبل طويل علماً).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. أي: فبأي نعم ربكما ـ معشر الثقلين ـ تكذبان من هذه النعم التي منها تسخيره السفن الجارية في مصالحكم وأسفاركم وتجاراتكم في الأنهار والبحار.

26 ـ 30. قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ الفناء لكل شيء والبقاء للواحد القهار، فهو سبحانه كل يوم هو في شأن وله الكمال والجميع إليه بالافتقار.

فقوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾. تقرير لفناء جميع الخلق من الجن والإنس، فكل مَنْ على ظهر الأرض هالك. قال قتادة: (أنْبأ بما خلق، ثم أَنْبأَ أنّ ذلك كُلَّه فانٍ).

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾. فيه إثبات صفة الوجه لله جل ثناؤه، وكما هو في الآية الآخرىٰ: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: 88]. فإنه مهما أُوِّلت به من كون المقصود ما ابتغي به وجهه ـ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ذاته ـ كما

ذهب بعض المفسِّرين ، فإن الآيتين تصرحان بصفة الوجه لله الكريم التي لا ينكرها إلا هالك.

وفي صحيح مسلم عن أبي موسىٰ قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات فقال: [إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُه ، يُرْفَعُ إليه عملُ الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور ، لو كشفَه لأحْرَقت سبحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بَصَرُهُ من خلقه][1].

قال ابن عباس: (﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء). قال ابن كثير: (وقد نَعَتَ تعالىٰ وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ، أي: هو أهل أن يُجَلَّ فلا يُعْصىٰ ، وأَنْ يُطاع فلا يُخالفَ ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: 28] ، وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: 10]).

وفي جامع الترمذي عن أنس مرفوعاً: [أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام][2]. أي: الزموا ذلك في الدعاء.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أي: فبأي نعم ربكما ـ معشر الثقلين ـ تكذبان.

قال القرطبي: (ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوي الأقدام. وقيل: وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب).

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. إخبار عن كمال غناه ، وافتقار الخلائق جميعاً إلى سؤاله ورحمته. قال ابن عباس: (أهل السماوات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونهما جميعاً). وقال ابن جريج: (وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض). وقال قتادة: (لا يستغني عنه أهل السماء ولا أهل الأرض ، يُحْيي حَيّاً ، ويُميت ميتاً ويربي صغيراً ، ويذل كبيراً ، وهو مَسْأل حاجات الصالحين ، ومنتهىٰ شكواهم ، وصريخ الأخيار). وعن ابن عباس أيضاً: (﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال: يعني مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة ، كل يوم هو في ذلك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (179) ، كتاب الإيمان ، وفي رواية: «حجابه النار» بدل «النور».
(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3524) ، وبنحوه الحاكم (1/ 498 ـ 499) ، وله شواهد.

وقوله: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾. قال عُبَيد بن عُمَير: (مِنْ شأنه أن يُجيبَ داعياً، أو يُعطِيَ سائلاً، أو يَفُكَّ عانياً، أو يَشْفِي سقيماً). وقال مجاهد: (كُلّ يوم هو يجيب داعياً، ويكشف كرباً، ويجيب مضطرّاً، ويغفر ذنباً).

أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي الدرداء، عن النبيّ ﷺ، في قوله تعالىٰ: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾. قال: [من شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْباً، ويُفَرِّجَ كَرباً، ويَرْفَعَ قَوْماً، ويَخْفِضَ آخرين][1].

ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» بلفظ: [في شأنه أن يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويجيب داعياً، ويرفع قوماً ويضع آخرين].

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. أي: فبأي نعمه تعالىٰ في صرفه إياكم ـ معشر الثقلين ـ في مصالحكم ومنافعكم تكذبان؟!

31 ـ 36. قوله تعالىٰ: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٦ ﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ العجز لجميع الثقلين في مشهد الحشر بين يدي الرحمان، وتحدّي الجبار جميع خلقه يومئذ أن يفلتوا من الحساب أو يهربوا من بين يديه ومن الحساب والقصاص والميزان.

فقوله تعالىٰ: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾. تهديد من الله لعباده ووعيد.

قال ابن عباس: (وَعيدٌ من الله تعالىٰ للعباد، وليسَ بالله شُغلٌ وهو فارغٌ).

وعن قتادة: (أنّه تلا: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ قال: دنا من الله فراغ لخلقه).

وقال ابن جريج: (﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾، أي: سنقضي لكم).

قال البخاري في «كتاب التفسير» من صحيحه: (﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾: سَنُحاسِبُكمْ،

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (202)، باب فيما أنكرت الجهمية، وانظر صحيح سنن ابن ماجة (167)، وانظر: «كتاب السنة» ـ ابن أبي عاصم ـ حديث (301)، وصحَّحَهُ الألباني.

لا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، وهو معروف في كلام العرب ، يُقال: لأتفرَّغَنَّ لك ، وما بِه شُغْلٌ ، يقول: لآخُذَنّكَ على غِرَّتِكَ).

والثقلان: الجن والإنس. كما في المسند وسنن أبي داود والنسائي من حديث البراء ـ في عذاب القبر ـ مرفوعاً: [فيضربه ضربة أخرىٰ ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين][(1)]. وفي روايه: (إلا الجنّ والإنس).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. قال ابن جرير: (فبأيّ نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعمها عليكم ، من ثوابه أهل طاعته ، وعقابه أهل معصيته تكذّبان ؟).

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾. هو من باب التحدّي وإثبات الذل والعجز للعباد يوم يُحاط بهم في الحشر لمشهد الحساب.

قال ابن كثير: (أي: لا تستطيعون هَرَباً من أمر الله وقدَره ، بل هو محيطٌ بكم ، لا تقدرون على التخلُّص من حُكمِهِ ، ولا النفوذِ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أُحِيطَ بكم. وهذا في مقام المحشر ، الملائكة مُحدِقَةٌ بالخلائق ، سبعُ صفوفٍ من كل جانب ، فلا يقدِرُ أحدٌ على الذهاب ﴿ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ ، أي: إلا بأمر الله ، ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: 10 ـ 12]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: 27]).

قلت: ولقد تَخَبَّطَ بعض المتشدقين اليوم من اعتبار الآية نصراً للعلم الحديث بكشوفاته واختراعاته المثيرة، فصرَفوا معنىٰ: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بالعلم، ووجهوا المعنىٰ إلى أنه بالعلم يمكن اختراق آفاق الفضاء وفهم حركة الكواكب والمجرات.

وهذا ليس موضوع البحث في الآية ، بل هو يناقضها ويعارضها حين ظنوا أنهم بالعلم خرجوا عن أقطار السماوات والأرض ، بل هم بكل ما أوتوا من قوة وعلم داخل أقطار السماوات والأرض. والآية حديث عن خبر المشهد في الحشر يوم القيامة ، وقد اجتمع الجن والإنس أمام ربهم في صعيد واحد ، فهو اليوم يتحداهم أن يفلتوا من قبضته بعدما انتشروا في أرجاء الدنيا يخوضون ويفسدون.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287 ـ 288) ، وأبو داود (2/ 281) ، والحاكم (1/ 37 ـ 40).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أي: فبأي نعم ربكما ـ معشر الجن والإنس ـ من نعمه الكثيرة التي منها التسوية بين جميعكم، لا يقدر أحد على خلاف أمره تكذبان ؟!

وقوله تعالىٰ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾. إثبات لكامل الإحاطة بالعباد ـ يوم الحشر ـ ومطلق العجز الذي ينزل بهم. فإن محاولة الفرار تعني الحرق بالنار والإحاطة باللهب. قال ابن عباس: (الشواظ هو لهب النار. ﴿وَنُحَاسٌ﴾: دخان النار). والعرب تسمي الدخان نحاساً. وقال الضحاك: (﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾: سَيْلٌ من نار. ﴿وَنُحَاسٌ﴾: سَيْلٌ من نحاس). وقال مجاهد: (النحاس: الصفر، يذاب فيصبّ على رؤوسهم).

وبكلا المعنيين فإن المقصود: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردّتكم الملائكة وزبانية العذاب بإرسال اللهب من النار والدخان أو النحاس المذاب عليكم لترجعوا، ومن ثمّ فلا تنتصران. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

37 ـ 45. **قوله تعالىٰ**: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾.

في هذه الآيات: تَفَطُّرُ السماء يوم القيامة وذل المشهد على المجرمين في أرض المحشر، ودُنُوُّ جهنم من الكافرين يخرج منها الشرر، ليطوفوا بين الحميم وبين الجحيم ويذوقوا جزاء الكفر والبطر.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾. يعني: يوم القيامة. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: فإذا انشقت السماء وتفطّرت، وذلك يوم القيامة، فكان لونها لون البرذون الورد الأحمر[1]).

(1) الورد الأحمر: الفرس الأحمر.

وقد ورد أمر تشقق السماء في القرآن في مواضع مختلفة :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان : 25] .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة : 16] .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق : 1 ـ 2] .

وأما ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ فهو الدّهن ، والمقصود : تصير السماء في صفاء الدهن .

وقيل : المعنىٰ تصير في حمرة الورد وجريان الدهن ، أي تذوب مع الانشقاق حتىٰ تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدُّهن لرقتها وذوبانها . ذكره القرطبي .

قال الحافظ ابن كثير : (﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ ، أي : تذُوب كما يذوب الدّرْدي والفضة في السَّبْكِ ، وتتلوّنُ كما تتلوَّنُ الأصباغ التي يُدهَنُ بها ، فتارةً حمراء وصفراءَ وزرقاءَ وخضراءَ ، وذلك من شدة الأمر وهَوْلِ يوم القيامة العظيم) .

وقوله تعالىٰ : ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . أي : فبأي قدرة ربكما معشر الثقلين على ما وصف لكم تكذبان ؟!

وقوله تعالىٰ : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ فيه أكثر من تأويل :

1 ـ قال مجاهد : (لا يسأل الملائكة عن المجرم ، يعرفون بسيماهم) .

2 ـ قال الحسن : (لا يسألون عن ذنوبهم ، لأن الله حفظها عليهم ، وكتبتها عليهم الملائكة) .

3 ـ قال أبو العالية : (لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم) .

4 ـ قال قتادة : (كانت المسألة قبل ، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم) .

قلت : ووجه الجمع بين هذه الأقوال في مفهوم هذه الآية ، وبين الآيات الدالة على صريح المساءلة يوم القيامة ، نحو قوله تعالىٰ : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات : 24] . وقوله : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر : 92 ـ 93] أنّ يوم القيامة يوم طويل وفيه مواطن كثيرة ، فيسألون في موطن ، ولا يسألون في آخر .

فتُحمل الآية هنا على الموطن الذي لا يؤذن لهم فيه بالاعتذار لوضوح جرائمهم وشهادة جوارحهم عليهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ

﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: 35 ـ 36]. كما لا يسأل أحد من مجرمي الإنس والجن عن ذنوب بعضهم لاكتمال السجلات بدقائق تلك الجرائم وتفاصيلها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: 78].

قال ابن القيم في «طريق الهجرتين»: (اختلف في هذا السؤال المنفيّ، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذ، ويسألون بعد إطالة الوقوف، واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم، ويريحهم من مقامهم ذلك. وقيل المنفيّ سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة. أي قد علم الله بذنوبهم، فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها) انتهىٰ.

وقد أفرد الإمام مسلم في صحيحه في كتاب التوبة باباً سمّاه: باب: تقرير النعم يوم القيامة على الكافر والمنافق. روىٰ فيه ـ ما يجمع معاني هذه الآية والآيات الأخرىٰ في مواقف الحساب ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [فيلقىٰ العَبْدَ فيقول: أي فُلْ ! ألم أكرِمْكَ وأسوِّدْك وأزوِّجْك وأسخِّر لك الخيل والإبل وأذَرْكَ ترأس وتربَعُ ؟ فيقول: بلىٰ أي ربِّ، قال: فيقول: أفَظَنَنْتَ أنك ملاقِيَّ ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقىٰ الثاني فيقول: أي فل ! ألم أكرِمْكَ وأُسَوِّدْكَ وأُزوِّجْكَ وأَسَخِّر لك الخيل والإبل، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتربَعُ ؟ فيقول: بلىٰ يا رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقىٰ الثالثَ فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنتُ بك وبكتابك وبرسلك، وصلّيتُ وصُمْتُ وتَصَدَّقْتُ، ويثنّي بخير ما استطاع، قال: فيقول: هاهنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكّر في نفسه من ذا الذي يشهد علي ؟ فيختَمُ على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطِقِي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليُعْذِر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يَسْخَطُ الله عليه](1).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أي: فبأي نعم ربكما معشر الجن والإنس في إقامة العدل فيكم والقصاص من المجرمين تكذبان !

وقوله: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾. قال الحسن: (سواد الوجه وزرقة الأعين).

والمقصود: يعرفون يومئذ بعلامات تدل على صفة الإجرام والشقاء فيهم، كما يعرف المؤمنون بالغرّة والتحجيل من الوضوء وآثار السجود.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 216)، كتاب التوبة وقبولها وسعة رحمة الله وغير ذلك.

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : 102].

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106].

قال ابن عباس : (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفُرْقَة).

وقوله : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ . أي : تأخذ الملائكة بنواصي المجرمين ، أي بشعور مقدم رؤوسهم ، وأقدامهم فيقذفونهم في النار. قال الضحاك : (يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره). وقيل : تسحبهم الزبانية إلى النار تارة بجرّهم من نواصيهم وتارة بجرّهم من أقدامهم . والنواصي جمع ناصية .

والمقصود : المبالغة في إهانة المجرمين والطغاة يوم القيامة .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . أي : فبأي نعم ربكما ـ معشر الثقلين ـ في فصل أهل الطاعة يوم القيامة عن أهل المعصية ، وإهانة المجرمين ، تكذبان ؟!

وقوله تعالىٰ : ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ . أي : يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً : هذه النار التي كنتم تجحدون ، فهي اليوم على مرأىٰ أبصاركم تنظرون .

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ . قال قتادة : (يطوفون مرة بين الحميم ومرة بين الجحيم ، والجحيم النار ، والحميم الشراب). وعن ابن عباس : (﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ ، أي : قد انتهىٰ غَلْيُه ، واشتد حَرُّه). فقوله : ﴿ ءَانٍ ﴾ أي : حار شديد الحرارة ، قد بلغ غايته في حرّه وحميمه ، واشتد غليانه . وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أَنَى .

وقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . قال القاسمي : (أي من عقوبته أهل الكفر به ، وتكريمه أهل الإيمان به).

46 ـ 61 . **قوله تعالىٰ** : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ

بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ حال السعداء الأبرار، بعد ذكر مآل الأشقياء الفجار، فهم يتنعمون بين الجنان والعيون، والفواكه والحور العين، وألوان الملذات الكثيرة، والنعم الجليلة الوفيرة.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾. قال ابن عباس: (وعد الله جل ثناؤه المؤمنين الذين خافوا مقامه، فأدّوا فرائضه الجنة). وقال مجاهد: (الرجل يهمّ بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركه، فله جنتان). قال القرطبي: (والمعنىٰ خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية. فـ ﴿مَقَامَ﴾ مصدر بمعنىٰ القيام. وقيل: خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [الرعد: 13]).

وأما الجنتان: فهما بستانان في عرض الجنة. قيل: إحدىٰ الجنتين منزله والأخرىٰ منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا. وقيل: إحدىٰ الجنتين جنته التي خلقت له وجنة ورثها. وقيل: إحدىٰ الجنتين مسكنه والأخرىٰ بستانه. وقيل: إن إحدىٰ الجنتين أسافل القصور والأخرىٰ أعاليها. ـ والله تعالىٰ أعلم.

قلت: وقد ثبت في صحيح السنة حديثان في آفاق معنىٰ هذه الآية.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي عِمْرانَ الجَوْنيّ عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: [جَنّتان من فِضّة، آنِيَتُهما وما فيهما، وجَنّتان مِنْ ذَهَبٍ آنيتُهما وما فيهما، وما بينَ القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رِداءُ الكِبْرِ على وَجْهِهِ في جنة عَدْن][1].

الحديث الثاني: أخرج النسائي في «التفسير»، وأحمد في المسند، بسند حسن،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4878)، كتاب التفسير. وأخرجه مسلم (180)، والترمذي (2528)، وابن ماجة (186)، وأحمد (4/ 411).

عن عطاء بن يسار ، قال: أخبرني أبو الدّرداء: [أنّ رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ . فقلت: وإنْ زنىٰ وإن سَرَقَ ؟ فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ . فقلت: وإنْ زنىٰ وإنْ سَرَقَ يا رسول الله ؟ فقال: وإنْ رغِمَ أنفُ أبي الدَّرداء][1] .

وله شاهد رواه ابن أبي عاصم في «السنة» عن عمرو بن الأسود قال: [خرج من منزله وخرج أبو الدرداء وهو يقول: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ ، فذكر عن النبي ﷺ: وإن زنىٰ وإن سرق] .

قال ابن كثير: (وهذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أدَلّ دليل على أن الجنَّ يدخُلون الجنة إذا آمنوا واتقوا) .

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . أي: فبأي نعم ربكما ـ أيها الجن والإنس ـ التي أنعم عليكم بإثابته المطيع منكم ما وُصف لكم من الجنان تكذبان ؟!

وقوله تعالىٰ: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ . الأفنان أغصان الشجر . فوصف سبحانه هاتين الجنتين بالأغصان النضرة يمسّ بعضها بعضاً ، وتحمل من ألوان الثمار وأنواعها النضيج البهيج .

فعن ابن عباس: (﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ قال: ذوَاتا ألوان) . وقال عكرمة: (ظلّ الأغصان على الحيطان) . وقال الضحاك: (﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ يقول: ألوان من الفاكهة) .

وقال مجاهد: (﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: ذواتا أغصان) .

والفَنَنُ في لغة العرب الغُصْن ، وجمعه الأَفْنان . والفنون الأنواع . والأفانين: الأساليب ، وهي أجناس الكلام وطرقه . ورجل متفنّن: أي ذو فنون . وافتَنّ الرجل في حديثه إذا جاء بالأفانين .

وخلاصة القول: أن أغصان هاتين الجنتين تحمل فنوناً من الملاذ ، وضروباً من الألوان ، في أصناف الفاكهة والثمار ، بهجة ونعمة لأهلها ، إضافة إلى ظلها المديد الذي يفيض بالأنس والطمأنينة .

---

(1) حديث حسن . أخرجه النسائي في «التفسير» (580) ، وأحمد (6/ 442) ، والطبري (33088) ، والبغوي (4189) من طرق ، وهذا إسناد على شرط الشيخين . ويشهد له ما رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (975) ، ورجاله ثقات .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ في الجنة لشجرة يسير الراكبُ الجوادَ أو المضمَّرَ السريعَ مئةَ عام ما يقطعها][1] .

وفي مسند أحمد وصحيح ابن حبان عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: [طوبىٰ شجرةٌ في الجنة ، مسيرة مئة عام ، ثيابُ أهل الجنة تخرُجُ من أكمامها][2] .

ويشهد له ما رواه ابن جرير عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ شجرة غرسها الله بيده ، ونفخ فيها من روحه بالحلي والحلل ، وإن أغصانها لتُرىٰ من وراء سور الجنة][3] .

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ . أي: فبأي نعم الله ـ معشر الثقلين ـ من إعداده هذا النعيم لأهل طاعته تكذبان ؟!

وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ . أي: وفي هاتين الجنتين عينا ماء تسرحان خلالهما لسقي تلك الأشجار ، وإخراج تلك الألوان من الثمار. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ !

وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ . قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: فيهما من كل نوع من الفاكهة ضربان ، فبأي آلاء ربكما التي أنعم على أهل طاعته من ذلك تكذبان).

وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ . أي: ويضطجع أهل الجنة في جلوسهم على فرش بطائنها من غليظ الديباج. قال عكرمة: (﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ قال: الديباج الغليظ). وقال أبو عِمران الجوني: (هو الديباج المَعْمول بالذهب ، فنَبَّهَ على شرف الظِّهارة بشرف البِطانة). وقال أبو إسحاق ، عن هُبيرة بن يَرِيم ، عن عبد الله بن مسعود قال: (هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظّواهر ؟).

قال ابن كثير: (وهذا من التنبيه بالأدنىٰ على الأعلىٰ).

وقوله: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ . قال ابن عباس: (يقول: ثمارها دانية).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6553) كتاب الرقاق ، ومسلم (2828) كتاب الجنة ونعيمها.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 71) ، وابن حبان (2625) ، وابن جرير في «التفسير» (13/ 101) ، وله شواهد. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1985).

(3) أخرجه ابن جرير ـ سورة الرعد ، آية (29). وفرات هذا قال ابن أبي حاتم (3/ 2/ 80) عن أبيه: «صدوق لا بأس به».

وقال قتادة: (لا يردّ أيديهم عنه بعد ولا شوك).

والمقصود: أن ثمر الجنة قريب من أهلها يتناولونه متىٰ شاؤوا وهم قعود على فرشهم، لا يفصلهم عنه ارتفاع أو شوك، ولا يحتاجون في تحصيله إلى تسلّق الشجر، بل تنحطّ الأغصان بحمولتها من الثمار أمام متناول أيديهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أي: فبأي نعم ربكما ـ معشر الجن والإنس ـ من هذه النعم الجليلة التي وصفها لكم مما أعدّه لأهله طاعته تكذبان ؟!

وقوله تعالىٰ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

أي: في هذه الفرش التي بطائنها من استبرق نساء غضيضات عن غير أزواجهن، قد قصر طرفُهن عن الرجال، فلا ينظرن إلا إلى أزواجهن ولا يرين شيئاً في الجنة أحسن منهم، لم يطأهن أحدٌ قبل أزواجهن من الإنس والجن، بل هم أبكار عُرُبٌ أتراب.

وعن قتادة: (﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ الآية، يقول: قُصِر طرفهن على أزواجهن، فلا يردن غيرهم). وعن ابن عباس: (﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ يقول: لم يُدْمهنّ إنس ولا جان). وقال مجاهد: (لم يمسّهن).

والآية دليل آخر صريح على دخول مؤمني الجن الجنة. قال أرطأةُ بن المنذر: (سُئِلَ ضمرةُ بن حَبيب: هل يدخل الجنُّ الجنّة ؟ قال: نعم، ويَنْكِحون، للجن جنِّيات، وللإنس إنسيّات).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أي: فبأي نعم الله عليكما ـ معشر الجن والإنس ـ مما وصف لكم تكذبان !.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾. قال السدي: (صفاء الياقوت وحسن المرجان). وقال قتادة: (شبّه بهن صفاء الياقوت في بياض المرجان).

وقال ابن زيد: (كأنهن الياقوت في الصفاء، والمرجان في البياض. الصفاء: صفاء الياقوتة، والبياض: بياض اللؤلؤ).

والآية: نَعْتٌ من الله سبحانه لنساء أهل الجنة للخطّاب من أهل الإيمان ليتقدموا لخطبتهن، فالمهر تقوىٰ الله وتعظيم أمره وحق الخوف منه.

وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر بعض الصفات البديعة لتلك النسوة في الجنة، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند عل شرط مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [للرَّجُلِ من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حُلّةً ، يُرىٰ مُخُّ ساقها من وراء الثياب][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ أنه قال: [لَرَوْحَةٌ في سبيل الله ، أو غَدْوَةٌ خَيْرٌ من الدنيا وما فيها ، ولقابُ قوسِ أحدكم من الجنة أو موضِعُ قِيدٍ ـ يعني سَوْطَهُ ـ خَيْرٌ من الدنيا وما فيها ، ولو أنَّ امرأةً من أهل الجنة اطّلعتْ إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأتْهُ ريحاً ، ولَنَصِيفُها ـ أي خمارها ـ على رأسها خَيْرٌ من الدنيا وما فيها][2] .

الحديث الثالث: أخرج مسلم في الصحيح عن إسماعيل بن عُلَيَّةَ قال: أخبرنا أيوبُ عن محمد ـ أي: ابن سيرين ـ قال: إمّا تَفاخَروا وإما تذاكَروا: الرجالُ في الجنة أكثرُ أم النساء ؟ فقال أبو هريرة: أَولمْ يَقُلْ أبو القاسم ﷺ: [إنَّ أوَّلَ زُمْرة تدخُلُ الجنة على صورة القمر ليلة البَدْر ، والتي تليها على أضوء كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماء ، لِكُلِّ امْرِئٍ منهم زوجتان اثنتان ، يُرَى مُخُّ سوقِهما مِنْ وراءِ اللَّحْمِ ، وما في الجنة عَزَبٌ][3] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . أي: فبأي مثل هذه النعم الموصوفة لكم من جميل الثواب ـ معشر الجن والإنس ـ تكذبان؟!

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ . قال قتادة: (عملوا خيراً فجوزوا خيراً). وقال ابن زيد: (ألا تراه ذكرهم ومنازلهم وأزواجهم ، والأنهار التي أعدّها لهم ، وقال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ حين أحسنوا في هذه الدنيا أحسنا إليهم أدخلناهم الجنة).

والمقصود: ليس من مقابل للإحسان في العمل في الدنيا إلا الإحسان في الثواب وحسن الاستقبال في الآخرة ، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

62 ـ 78. قوله تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 345) ، وإسناده على شرط مسلم ، وتفرّد به أحمد.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2796) ، كتاب الجهاد والسير ، ورواه أحمد (3/ 264).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2834) ، كتاب الجنة ونعيمها ، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، وصفاتهم وأزواجهم.

مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ حال أصحاب اليمين، وما أعدّ الله لهم في جنات النعيم، من الفاكهة والعيون والحور العين، فتبارك الله رب العالمين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾. أي: ومن دون تلك الجنتين السابقتين الذكر جنتان، هما دونهما في المنزلة والمرتبة والفضيلة، فالأوليان للمقرّبين، والأخريان لأصحاب اليمين. قال ابن زيد: (﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ هما أدنىٰ من هاتين لأصحاب اليمين).

وقال: (من دونهما في الفضل). قال ابن كثير: (والدليل على شرف الأوليَين علىٰ الأخريَين وجوه: أحدهما: أنه نَعَتَ الأُوليين قبل هاتين، والتقديم يَدُل على الاعتناء. ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني. وقال هناك: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، وهي الأغصان أو الفنون في الملاذِّ، وقال هاهنا: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي سوداون من شدة الريّ من الماء).

وتقدم في الصحيحين من حديث عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: [جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عَدْن][(1)].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أي: فبأي ألوان هذه النعم وهذا النعيم الموعود لأهل الجنة ـ معشر الثقلين ـ تكذبان ؟!.

وقوله تعالىٰ: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾. قال ابن عباس: (قد اسودَّتا من الخُضرة، من شدة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4880)، ومسلم (180)، والترمذي (2528)، ورواه أحمد في المسند (4/ 411).

الرِّيِّ من الماء). وقال قتادة: (خضراوان من الريّ ناعمتان). وقال: (إذا اشتدت الخضرة ضربت إلى السواد). وقال محمد بن كعب: (﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾: ممتلئتان من الخضرة).

والمقصود: إنهما جنتان تكاثفت الخضرة فيهما فانعكست بالنضارة في الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي: فبأي أمثال هذا النعيم الخلاب في جنان الله التي أعدّها للمتقين ـ معشر الثقلين ـ تكذبان ؟!.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾. قال ابن عباس: (أي فَيَّاضتان). وقال الضحاك: (أي: ممتلئتان لا تنقطعان). ولا شك أن الجري أقوىٰ من النَّضْخ، وهو الموصوف في أولىٰ الجنتين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾، فهاتان دونهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾. أي: وفي هاتين الجنتين فاكهة ونخل ورمّان. وقال في الجنتين السابقتين: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾، وهوَ أشمل. قال ابن كثير: (ولا شك أن الأولىٰ أعمّ وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكِهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تَعُمُّ. ولهذا فُسِّر قوله: ﴿ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرّره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرَفهما على غيرهما).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾.

خَيْرات: جمع خَيْرَةٍ، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلق الحسنة الوجه. وقيل: «خَيِّرات» بمعنىٰ خيرات فخفِّف. قال قتادة: (﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ يقول: في هذه الجنان خيرات الأخلاق، حسان الوجوه). وقال ابن زيد: (الخيرات الحسان: الحور العين).

قال الحكيم الترمذي ـ صاحب نوادر الأصول ـ: (فالخيرات ما اختارهنّ الله فأبدع خلقهن باختياره، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين). وقال القرطبي: (ثم قال: ﴿ حِسَانٌ ﴾ فوصفهن بالحسن، فإذا وصف خالق الحسن شيئاً بالحسن فانظر ما هناك).

يروي الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية» بسند حسن، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحدٌ قط، إنَّ مما يغنين: نحن الخيِّرات الحسان،

أزواج قوم كرام ، ينظرن بقرة أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمتنه ، نحن الآمنات فلا يخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنه][1].

وله شاهد في الروض النضير من حديث أنس ، ولفظه: [إن الحور العينَ لتغنين في الجنة يقلن: نحن الحور الحسان ، خبئنا لأزواج كرام].

وقيل: المراد بـ ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ خيرات كثيرة حسنة في الجنة ، والمعنىٰ الأول أرجح ، ويؤيده قوله تعالىٰ بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾. قال البخاري: (قال ابن عباس: ﴿حُورٌ﴾ سودُ الحدق. وقال مجاهد: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ محبوساتٌ ، قَصَرْنَ طَرْفَهُنَّ وأَنْفُسَهُنّ على أزواجهن). وقال الضحاك: (﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ المحبوسات في الخيام لا يخرجن منها). وقال ابن عباس: (﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾: بيوت اللؤلؤ). وقال الحسن: (الخيام: الدّر المجوف). قال ابن كثير: (هناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ، ولا شك أن التي قد قَصَرت طَرْفها بنفسها أفضلُ ممن قُصِرت ، وإن كان الجميع مُخدَّراتٍ).

وفي صحيح البخاري عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أنّ رسول الله ﷺ قال: [إنّ في الجنة خيمةً من لؤلؤةٍ مُجَوَّفَةٍ ، عَرْضُها سِتُّون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يَرون الآخرين ، يطوفُ عليهم المؤمنون][2].

وأخرجه مسلم بلفظ: [إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدةٍ مُجَوَّفةٍ ، طولها سِتّون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوفُ عليهم المؤمن فلا يرىٰ بعضُهم بعضاً][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. أي: فبأي ألوان النعيم والملاذ الموصوفة لكم ـ معشر الجن والإنس ـ مما أعدّه الله لأهل طاعته في الجنة تكذبان ؟!.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: لم يَمَسَّهن بنكاح فيدميهن إنس قبلهم ولا جان). قلت: وقد تقدم اللفظ نفسه في الجنتين الأوليين ، وزاد هناك في وصفهن: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ ، لينعت سبحانه زيادة التألق والحسن في جائزة السابقين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في المعجم الصغير والأوسط ، وأبو نعيم في الحلية. انظر صحيح الجامع (1557) ، وكذلك (1598) للشاهد بعده.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4879) ، كتاب التفسير. وانظر (3243).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2838) ح (24) ، والترمذي (2528) ، وأحمد (4/ 411).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾.

قال ابن عباس: (الرفرف: فضول المحابس والبسط). وقال قتادة: (﴿ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾: محابس[1] خضر). وقال العلاء بن بدر: (الرَّفرف على السرير، كهيئة المَحابس المتدلِّي). وقال عاصم الجَحْدري: (﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ يعني الوسائد). وقال سعيد بن جبير: (الرَّفرف رياض الجنة). قال النسفي: (﴿ عَلَىٰ رَفْرَفٍ ﴾ هو كل ثوب عريض وقيل الوسائد).

وأما قوله: ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾. قال ابن عباس: (العبقري: الزرابي). وقال مجاهد: (العبقري: الديباج). وقال الحسن: (هي بُسط أهل الجنة). وقال أبو العالية: (العبقري: الطنافس المُخْمَلَة، إلى الرّقة ما هي!). وقال القُتَيبي: (كل ثوب مُوَشًّىٰ عند العرب عبقري). وقال أبو عُبيدة: (هو منسوب إلى أرض يُعمل بها الوشي). وقال الخليل بن أحمد: (كُلّ شيء نفيس من الرِّجال وغير ذلك يسمّىٰ عند العرب عبقرياً). وقال ابن الأنباري: (إن الأصل فيه أن عَبْقَر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل).

وفي الصحيحين ـ نحو ذلك ـ من قول النبي ﷺ يصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [فأخذها ابنُ الخطاب، فَلَمْ أرَ عَبقرياً من الناس ينزعُ نَزْعَ عمر][2].

وفي رواية: [ثم أخذها عمر بن الخطاب من يد أبي بكر فاستحالت في يده غَرْباً، قلم أرَ عبقرياً من الناس يفرِي فَرْيَهُ]. قال أبو عمرو بن العلاء: (أي: رئيس قوم وجليلهم).

والخلاصة: أن أهل الجنة يتكئون على فرش ووسائد ناعمة، وبُسط منقوشة بديعة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾. أي: فبأي نعم الله ـ معشر الجن والإنس ـ من إغداقه ذلك النعيم والرخاء والزينة والنعومة في العيش لأهل كرامته في جنات الخلود تكذبان!

وقوله تعالىٰ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾.

أي: تبارك اسم ربك ـ يا محمد ـ ذي العظمة والكبرياء، والتفضل بالآلاء.

---

(1) المحابس: هي ما يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3664)، (7022)، ومسلم (2392)، وأحمد (2/ 368).

و﴿ تَبَٰرَكَ ﴾ تفاعل من البركة ، و﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ . قال ابن عباس : (يقول : ذو العظمة والكبرياء) . والمعنىٰ : تقدّس الله العظيم ، ذو الاسم الكريم ، فهو أهل أن يُجَلَّ فلا يُعصىٰ ، وأن يُشكر فلا يُكفر ، وأن يُذكر فلا يُنسىٰ .

وفي صحيح مسلم عن عائشة ، قالت : [كان النبي ﷺ ، إذا سَلَّمَ ، لمْ يَقْعُدْ ، إلا مِقدار ما يقول : اللهم ! أنت السلام ومنكَ السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام](1) .

وفي مسند أحمد بسند جيد عن ربيعة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ألِظّوا بذي الجلال والإكرام](2) . وفي رواية عند الترمذي وأبي يعلىٰ من حديث أنس : [ألِظّوا بياذا الجلال والإكرام](3) .

تم تفسير سورة الرحمن

بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه

الأربعاء 18 ـ شعبان ـ 1426 هـ

الموافق 21 ـ أيلول ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (592) كتاب المساجد ، ورواه أحمد (6/ 62) ، وأبو داود (1512) ، والنسائي (3/ 69) ، والترمذي (298 ـ 299) ، وابن ماجة (924) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (4/ 177) ، والنسائي في «التفسير» (583) ، والحاكم (1/ 498) وصححه ، ووافقه الذهبي ، وإسناده حسن . وله شواهد .

(3) حديث حسن . أخرجه الترمذي (3522) ، وأبو يعلىٰ (2733) ، وابن أبي شيبة (12/ 17) .

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ قرأ النبي ﷺ سورة الرحمن على وفد الجن المؤمن.

2 ـ خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار.

3 ـ آلاء الله تعالىٰ ونعمه على الإنس والجن لا تحصىٰ، وقليل من عباده الشكور.

4 ـ يقال للمجرمين يوم الحشر: انفذوا إن استطعتم من السماوات والأرض فراراً من هول المحشر والزحام، ومن الحساب والقصاص والميزان.

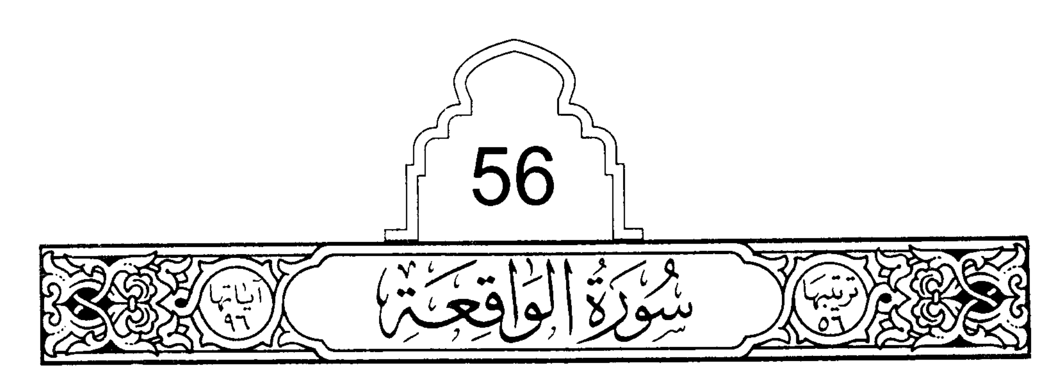
5 ـ المؤمنون يعرفون يوم القيامة بالغرة والتحجيل، والكفار يعرفون بسواد وجوههم.

6 ـ أعدّ الله للمؤمنين في الجنة فرش الإستبرق والثمار الدانية والحور العين الأبكار، ولا ثواب لمن أحسن واستقام على التوحيد إلا الجنة فهي منازل الأخيار.

7 ـ المقارنة بين الجنتين الأوليين والأخريين، تشير إلى سبق الأولين وعلو مقامهم في الغرف والفردوس يوم الدين.

8 ـ ألِظُّوا بياذا الجلال والإكرام، كما كان يفعل نبيكم عليه الصلاة والسلام.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (96) .

ما ورد في ذكرها :

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت. قال: [شَيَّبَتْني هُودٌ ، والواقِعةُ ، والمُرْسَلاتُ ، وعمَّ يتساءلون ، وإذا الشَّمس كُوِّرتَ][(1)] .

وأخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند على شرط مسلم ، عن سماك بن حَرْب ، أنه سَمِعَ جابر بن سَمُرةَ يقول: [كان رسول الله ﷺ يُصلي الصَّلوات كنحوٍ من صلاتِكم التي تُصَلُّونَ اليوم ، ولكنه كان يُخَفِّفُ ، كانت صلاته أخفَّ من صلاتكمٍ ، وكان يقرأ في الفجر «الواقعة» ونحوها من السور][(2)] .

موضوع السورة

واقعة القيامة وأصناف الناس في الدارين

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3297) ، كتاب التفسير ـ سورة الواقعة. وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2627) .

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 104) ، وإسناده على شرط مسلم .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ إثبات وقعة القيامة ، ونَعْتُ أهوال هذه الطامة.

2 ـ ورود الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: السابقون وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

3 ـ السابقون المقربون هم قليل في الأمم ، وقد أعدّ الله لهم في الجنة أجَلَّ النعم.

4 ـ أصحاب اليمين في الظلال والثمار والنعيم ، وهم جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين.

5 ـ أصحاب الشمال في الأشقياء يوم الدين ، في السموم والحميم وطعام الزقوم وعذاب الجحيم.

6 ـ امتنان الله علىٰ عباده بنعمة الخلق والنسل والزرع وماء الشرب ونار الوقود.

7 ـ إقسام الله تعالىٰ بمواقع النجوم ، أن القرآن العظيم في كتاب مكنون ، لا تصل إليه الشياطين ، وإنما الملائكة المقربون.

8 ـ وصف لحظة الغرغرة والفراق ، وعجز الحاضرين تخليص الروح من اللحاق.

9 ـ ذكر أصناف الناس عند الاحتضار ، فهم على ثلاثة أحوال.

10 ـ السابقون المقربون وأصحاب اليمين في جنات النعيم ، وأهل التكذيب بالحق في نار الجحيم.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 12. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾.

في هذه الآيات: إثباتُ وقعة القيامة ، ونَعْتُ أهوال هذه الطامة ، ووصف أصناف الناس في ورودهم وما هم عليه من الحال ، فهم السابقون وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾. أي: إذا نفخ في الصور وقامت القيامة. قال الضحاك: (﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾: يعني الصيحة). قال ابن عباس: (الواقعة والطامة والصاخة ، ونحو هذا من أسماء القيامة ، عظَّمَهُ الله ، وحذّره عباده).

قال ابن كثير: (الواقعة: مِن أسماء يوم القيامة ، سُمِّيت بذلك لتحقّق كونِها ووجودِها ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: 15]).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾. قال قتادة: (أي ليس لها مثنوية ، ولا رجعة ، ولا ارتداد). والكاذبة مصدر كالعاقبة والعافية.

والمقصود: ليس لحدوثها مانع يمنع وقوعها ، ولا صارف يصرفها ، ولا دافع يدفعها

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: 1 ـ 2].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: 47].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 73].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحبُ الصور قد التقمه وأصغىٰ سمعه وحنىٰ جبهته ينتظر متىٰ يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾. أي: خفضت أقواماً ربما كانوا في الدنيا أعزاء، فأردتهم في نار جهنم. ورفعت أقواماً ربما كانوا في الدنيا وضعاء، فأبلغتهم مساكن الأبرار في جنات النعيم.

قال قتادة: (﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ يقول: تخلّلت كل سهل وجبل، حتىٰ أسمعت القريب والبعيد، ثم رفعت أقواماً في كرامة الله، وخفضت أقواماً في عذاب الله).

وعن عكرمة قال: (خفضت وأسمعت الأدنىٰ، ورفعت فأسمعت الأقصىٰ. قال: فكان القريب والبعيد من الله سواء).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾. أي: إذا زلزلت الأرض زلزلة فحُرِّكت تحريكاً.

قال ابن عباس: (﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ يقول: زلزلها). وقال مجاهد: (زلزلت). وقال قتادة: (زلزلت زلزلة)، أو قال: (زلزلت زلزالاً).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾. قال ابن عباس: (يقول: فُتِّتَتْ فتّاً).

وقال ابن زيد: (صارت الجبال كما قال الله تعالىٰ: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: 14]).

والبسيسة عند العرب: الدقيق والسويق.

والمقصود: صارت الجبال كالدقيق المبسوس، وهو المبلول.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾. قال ابن عباس: (الهباء: الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً). وقال قتادة: (كيبيس الشجر، تذروه الرياح يميناً وشمالاً). وقال الحارث، عن علي رضي الله عنه: (﴿هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2431)، كتاب التفسير. انظر صحيح سنن الترمذي (2585).

كرهَج الغُبار يسطع ثم يذهب ، فلا يبقىٰ منه شيء). وقال عكرمة: (المُنْبَثُّ: الذي قد ذرته الريح وبثَّته).

والمقصود: زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها ، وصيرورتها كالعهن المنفوش كما أفاد ابن كثير رحمه الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾. أي أصنافاً ثلاثة ، كل صنف يشاكل ما هو منه ، كما يشاكل الزوج الزوجة. قال عثمان بن عبد الله بن سراقة[1]: (اثنان في الجنة وواحد في النار. يقول: الحور العين للسابقين ، والعُرُب الأتراب لأصحاب اليمين). وعن ابن عباس: (﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ قال: هي التي في سورة الملائكة: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾). وقال مجاهد: (﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ يعني فِرَقاً ثلاثة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾. بيان للأصناف الثلاثة. فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار. قاله السدي. والمشأمة هي الميسرة. وقال ابن جريج: (أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات ، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات).

وفي صحيح البخاري من حديث الإسراء عن أنس عن النبي ﷺ قال: [فلما فُتِحَ عَلَونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعدٌ علىٰ يمينه أَسْوِدة ، وعلىٰ يساره أَسْوِدة ، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل يساره بكىٰ. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظرَ قَبِل شماله بكىٰ][2].

وأما السابقون: فهم أهل السبق إلى الإيمان والعمل الصالح وحمل لواء الجهاد في سبيل الله في كل زمان ، لحراسة الدين وسياسة الدنيا به.

فقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ مبتدأ وخبر ، أي: السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله. ومن أقوال المفسرين في ذلك:

---

(1) هو ابن خالةِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ فتح الباري ـ (1/ 458 ، 3/ 492 ، 6/ 374).

1 ـ قال عثمان بن أبي سودة: (﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾: أولهم رواحاً إلى المساجد، وأسرعهم خفوقاً في سبيل الله).

2 ـ قال محمد بن سيرين: (هم الذين صلوا إلى القبلتين، دليله قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾).

3 ـ عن محمد بن كعب القُرظي قال: (إنهم الأنبياء).

4 ـ عن سعيد بن جبير قال: (السابقون إلى التوبة وأعمال البر، قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 133] ثم أثنىٰ عليهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 61]).

5 ـ عن ابن عباس قال: (إنهم أربعة: منهم سابق أمة موسىٰ وهو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق أمة عيسىٰ وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية، وسابقان في أمة محمد ﷺ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما).

6 ـ قال ابن جرير: (هم الذين سبقوا الناس أولاً إلى الإيمان بالله ورسوله).

قلت: والراجح عندي مما سبق أن السابقين هم حملة لواء الحق في كل زمان من كل أمة، الذين ربطوا مستقبلهم ومصيرهم بمستقبل هذا الحق وهذا الدين العظيم.

فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» وعنه الديلمي بسند جيد عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [في كل قرن من أمتي سابقون][1]. وفي رواية: [لكل قرن من أمتي سابقون]. وفي طريق آخر من حديث أنس بلفظ: [لكل قرن سابق].

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. تأكيد لحسن استقبالهم يوم القيامة من ربهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

13 ـ 26. قوله تعالىٰ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (1/ 8)، وعنه الديلمي (2/ 333) معلقاً. وإسناده جيد. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2001)، وانظر للشواهد والروايات الأخرىٰ صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5048)، (5047).

وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: السابقون المقربون هم قليل في الأمم ، وقد أعدّ الله لهم أجمل وأجَلَّ النعم ، فهم يتلذذون اليوم باللحم والفاكهة والشراب والحور وينعمون بأحسن العطاء والكرم .

فقوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ . فيه تفسيران اثنان :

التفسير الأول: قيل جماعة من الأمم الماضية وقليل من أمة محمد (ممن آمن بمحمد ﷺ) .

التفسير الثاني: قيل : (كلا الثلتين من أمة محمد ﷺ ، فمنهم من هو في أول أمته ، ومنهم من هو في آخرها) . روي ذلك عن أبي بكر رضي الله عنه .

والثلة في لغة العرب : من ثَلَلْتُ الشيء أي : قطعته . (والثلة : كالفرقة) .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ . قال ابن عباس : (منسوجة بالذهب) .

وقال عكرمة : (مشبكة بالدر والياقوت) . قلت : والوضن في كلام العرب : النسج المضاعف ، من وَضَنَ فلان الحجر والآجُرَّ إذا وضعه بعضه فوق بعض فهو موضون .

والمقصود: أن سرر السابقين في الجنة محكمة النسج والتشبيك .

وقوله تعالى : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ . أي : وجوه بعضهم إلى بعض ، ليس أحدٌ وراء أحد .

قال النسفي : (﴿ مُّتَّكِـِٔينَ ﴾ حال من الضمير في «علىٰ» ، وهو العامل فيها ، أي استقروا عليها متكئين ﴿ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ ينظر بعضهم في وجوه بعض ولا ينظر بعضهم في أقفاء بعض ، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق وصفاء المودة ، و﴿ مُتَقَٰبِلِينَ﴾ حال أيضاً) .

وقوله تعالىٰ : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ . أي : يخدمهم ويقوم على راحتهم وطلباتهم أطفال مُبَقّون أبداً على شكل الولدان لا يتحولون عنه ، وهم روعة في الأنس

والجمال. قال مجاهد: (﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: لا يموتون). وقال ابن جرير: (ولدان على سنّ واحدة، لا يتغيرون ولا يموتون).

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسند حسن عن أنس بن مالك قال: [سألت رسول الله ﷺ عن ذراري المشركين لم يكن لهم ذنوب يعاقبون بها فيدخلون النار، ولم تكن لهم حسنة يجازون بها فيكونون من ملوك الجنة؟ فقال النبي ﷺ: هم خدم أهل الجنة][1]. ورواه ابن مندة بنحوه عن أبي مالك بلفظ: [أطفالُ المشركين هم خَدَمُ أهل الجنة]. قال القرطبي: (والمقصود: أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة، والنعمة إنما تتم باحتفاف الخدم والولدان بالإنسان).

وقوله تعالىٰ: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾. الأكواب: جمع كوب، والمراد الآنية التي لا عُرىٰ لها ولا خراطيم، والأباريق: جمع إبريق، ولها عرىٰ وخراطيم. وسمّي الإبريق كذلك لأنه يبرق لونه من صفائه. والمعين الجاري من ماء أو خمر. قال قتادة: (﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر جارية).

والمقصود: أنّ الله سبحانه زادهم على سرورهم وهم على سررهم شراباً من الخمر الجارية من العيون، أو الظاهرة للعيون من المعاينة.

وقوله: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾. قال قتادة: (ليس لها وجع رأس).

والمراد: لا يعتري شاربها الصداع كما كان يعتري شارب خمر الدنيا، فإن الاسم واحد والطعم واللون واللذة شيء آخر.

وقوله: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾. قرأها قراء المدينة والبصرة بفتح الزاي «لا يُنْزَفون» أي: لا تنزف عقولهم. وقرأها قراء الكوفة بكسر الزاي: «لا يُنْزِفون» أي: لا ينفد شرابهم، وكلا المعنيين حق.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾. أي: ويطوف هؤلاء الولدان المخلدون على السابقين بألوان الفاكهة التي يشتهونها لأنفسهم ويتخيرونها من ثمار الجنة، وكذلك بلحم طير مما لذّ وطاب واشتهته الأنفس.

---

(1) صحيح لشواهده. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (6/ 308)، وبنحوه أبو يعلىٰ في «مسنده» (1011 ـ 1012)، والبزار (232). وبنحوه روىٰ ابن مندة في «المعرفة» (2/ 261/ 1)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1468).

روىٰ الحسن بن عرفة عن ابن مسعود مرفوعاً: (إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً)[1].

قال ابن القيم رحمه الله: (تضمنت النصوص أن لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوىٰ وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، وأما المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾. قرئ بالرفع والنصب والجر. أما الجر فقد قرأه حمزة والكسائي، وهو عندئذ معطوف على ﴿بِأَكْوَابٍ﴾. والمقصود: يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور. أو يكون معطوفاً على ﴿جَنَّٰتِ﴾، أي هم في جنات النعيم وفي حور. كأنه قال: وفي معاشرة حور ـ على تقدير حذف المضاف.

وقرأ الأشهب العقيلي والنخعي بالنصب، والتقدير: ويزوّجون حوراً عيناً.

والجمهور على الرفع، أي: وعندهم حور عين، وهو الأرجح، لأنه لا يُطاف عليهم بالحور.

والحور: جمع حَوْراء، وهي النقية بياض العين، الشديدة سوادها. والعين: جمع عيناء، وهي النجلاء العين في حُسْن.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾. أي: هنّ في صفاء بياضهن وروعة حسنهن، كاللؤلؤ المصون المحفوظ.

وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. أي: ثواباً لهم من الله تعالىٰ على أعمالهم التي كانوا عليها في الدنيا، وعوضاً من صبرهم على الطاعة والبر.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾. قال ابن عباس: (باطلاً ولا كذباً).

وقال مجاهد: (شتماً ولا مأثماً). واللغو من الكلام هو العبث الخالي من المعنىٰ، والتأثيم مصدر أثَّمْتَه، أي قلت له أثمت. قال محمد بن كعب: (﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي لا يؤثِّمُ بعضُهم بعضاً). والخلاصة: لا يكون فيها العبث من الكلام ولا الفاحش ولا ما يحمل القبح والإثم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾. قال ابن عباس: (أي يحيِّي بعضهم بعضاً). وقيل: تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عز وجل. ونصب ﴿قِيلًا﴾ بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أو هو

(1) إسناده جيد ـ كما ذكر الشيخ وائلي في كتابه: «صفة الجنة». طعام الجنة وشرابها (124).

استثناء منقطع ، والتقدير: لكن يقولون قيلاً أو يسمعون. و﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ منصوبان بالقول ، أي: إلا أنهم يقولون الخير. أو على المصدر ، أي: إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاماً. أو يكون وصفاً لـ ﴿قِيلًا﴾ ، والسلام الثاني بدل من الأول ، والمعنىٰ: إلا قيلاً يسلم فيه من اللغو ـ حكاه القرطبي.

قال ابن كثير: (﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ ، أي: لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً ، أي: غثّاً خالياً من المعنىٰ ، أو مشتملاً على معنىٰ حقير أو ضعيف ، كما قال: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: 11] ، أي: كلمة لاغية ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ، أي: ولا كلاماً فيه قُبح ، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ ، أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: 10] وكلامهم أيضاً سالمٌ من اللّغو والإثم).

27 ـ 40. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٣٨ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٠﴾.

في هذه الآيات: العطفُ على ذكر السابقين المقربين ، بذكر الأبرار أصحاب اليمين ، فهم ينعمون بالثمار والظلال والفاكهة والحور العين ، وهم جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾. أي: فما حال أصحاب اليمين؟ وكيف سيكون مآلهم؟ قال القرطبي: (والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه).

قلت: وأصحاب اليمين هم من أُخِذَ نحو اليمين ، وأعطي كتابه بيمينه يوم الحشر في أرض المحشر.

وقوله تعالىٰ: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾. أي في ثمر سدر موقّر حملاً لا شوك فيه. فإن السّدر ـ عادة ـ شجر له شوك ، وإنما قد خضد الله تعالىٰ شوكه في الجنة فجعل مكان كل شوكة ثمرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾. الطلح شجر عظام بأرض الحجاز ، واحدته

طلحة ، ومنضود : أي : متراكم الثمر . قال ابن عباس : (يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلىٰ من العسل) .

وقيل : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ هو الموز بعضه على بعض ، كما ذكر ابن عباس أيضاً . وكذلك في عُرف أهل اليمن ، فإنهم يسمون الموز الطلح .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ . أي : وظل دائم لا تنسخه الشمس فتذهبه .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [إن في الجنة لشجرةً يسير الراكب الجوادَ المضمَّرَ السريع في ظلها مئة عام ما يقطعها](1) . زاد ابن جرير في رواية عنده : (اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾) .

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [يقول الله : أعددت لعبادي الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطرَ على قلب بشر ، فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : 17] . وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ . وموضِعُ سَوْطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : 185]](2) .

وفيه بإسناد صحيح عن أنس أن النبي ﷺ قال : [إنّ في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها ، واقرؤوا إن شئتم : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾](3) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ . أي جارٍ لا ينقطع . قال الثوري : (يعني يجري في غير أخدود) . وأصل السّكب الصبّ . قال القرطبي : (أي وماء مصبوب يجري الليل والنهار في غير أخدود لا ينقطع عنهم . وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة ، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدَّلو والرِّشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا ، وهي الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار واطّرادها) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4881) ، ومسلم (2826) ، وأحمد (2/ 418) ، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (403) . وأخرجه الطبري (33378) وله طرق . وانظر صحيح الجامع (2121) .

(2) حديث حسن . انظر صحيح سنن الترمذي (2625) ، في أبواب التفسير ، سورة الواقعة .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح الترمذي (2626) ، وصحيح البخاري (4881) ، وقد مضىٰ نحوه .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾. أي: وهم في فاكهة وفيرة متنوعة الألوان والمذاق، ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم، بل هي مستمرة عبر فصول السنة المختلفة، لا انقطاع لها في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء، ولا يمنع مانع من شوك أو حائط أو بعد من تناولها، بل كما قال تعالىٰ: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 23]، وكما قال جل ذكره: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: 14].

وعن قتادة: (﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ قال: لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بُعْد).

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عباس قال: [خَسَفَت الشمس على عَهْد النبي ﷺ فَصَلّى فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تناوَلُ شيئاً في مَقامِكَ ثم رَأَيْناكَ تَكَعْكَعْتَ، فقال: إني أُرِيتُ الجنةَ فتناولتُ منها عُنقوداً ولو أَخَذْتُه لأكلتمْ منه ما بقيت الدنيا][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾. أي: عالية وطيئة ناعمة. قال النسفي: (﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعة القدر، أو نضدت حتىٰ ارتفعت، أو مرفوعة على الأسرة).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾. وصف لما أعدّ الله لهم من الأبكار وأجمل النساء. قال سعيد بن جبير يحدّث عن ابن عباس: (هن من بني آدم، نساءكن في الدنيا، ينشئهن الله أبكاراً عذارىٰ عرباً).

و ﴿عُرُبًا﴾: جمع عَرُوب، وهي المرأةُ المُتَحبِّبَةُ المتودِّدَةُ إلى زوجها. وكانت العرب تقول للمرأة إذا كانت حسنةَ التَبَعُّل: إنها لَعَرِبَة. وقوله: ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: على ميلاد واحد، وهو جمع «تِرْب» وهو ما كان من سِنٍّ واحدة. قال سعيد بن جبير: (العُرُب اللاتي يشتهين أزواجهنَّ). وقال ابن عباس: (العُرُب العواشق لأزواجهن، وأزواجهن لهن عاشقون).

قال الحافظ ابن كثير: (﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، جرىٰ الضميرُ على غير مذكورٍ، لكن لما دلَّ السياقُ، وهو ذِكرُ الفُرُشِ على النساء اللاتي يُضَاجَعْنَ فيها، اكتفىٰ بذلك عن ذكرهنَّ، وعاد الضميرُ عليهنّ).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (748)، كتاب الأذان، ورواه مسلم (907)، وأحمد (1/ 298)، وأبو داود (1189)، والنسائي (3/ 146 ـ 148)، ومالك (1/ 186 ـ 187).

وقوله تعالى: ﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾. أي: خُلِقْنَ لأصحاب اليمين، أو: ادُّخِرن لأصحاب اليمين. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: أنشأنا هؤلاء اللواتي وصف صفتهنّ من الأبكار للذين يؤخذ بهم ذات اليمين من موقف الحساب إلى الجنة). وقال القرطبي: (قيل: الحور العين للسابقين، والأتراب العرب لأصحاب اليمين).

وقال القاسمي: (﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ متعلق بـ «أنشأنا» أو «جعلنا» أو صفة لـ ﴿ أَبۡكَارًا ﴾ أو خبر لمحذوف، مثل هنّ). وقيل: ويجوز أن يكون قوله: ﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ متعلقاً بما قبله، وهو قوله: ﴿ أَتۡرَابًا ۝٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ أي: في أسنانهم.

وفي آفاق هذا المعنىٰ أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي زُرْعَة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ أوَّلَ زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البَدْرِ، والذين يلونهم على أشدِّ كوكب دُرِّيٍّ، في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوَّطونَ ولا يَتْفِلُونَ ولا يمتخِطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المِسْكُ، ومجامِرُهُم الأَلُوَّةُ، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم علىٰ خَلْق رَجُلٍ واحد، على صورة أبيهم آدم، سِتُّون ذراعاً، في السماء][1].

وفي رواية بالضم: (على خُلُقِ رجل واحد).

الحديث الثاني: أخرج أحمد بإسناد على شرط مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [يدخلُ أهل الجَنَّةِ الجنَّةَ جُرداً مُرداً بيضاً جِعَاداً مُكَحَّلين، أبناءَ ثلاثٍ وثلاثين، وهم على خَلْقِ آدم سِتُّونَ ذِراعاً في عَرْضِ سَبْعَةِ أذرُع][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بإسناد حسن عن معاذ بن جبل: أنّ رسول الله ﷺ قال: [يَدْخُلُ أهلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ جُرداً مُرداً مُكَحَّلينَ أبناء ثلاثٍ وثلاثين سنة][3].

وقوله تعالىٰ: ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾. أي: جماعةٌ من الأولين، وجماعة من الآخرين. وثلّة مرفوع على الابتداء، أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هم».

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3246)، ومسلم (2834)، وأحمد (316).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 295)، وإسناده على شرط الإمام مسلم.
(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (2545) بإسناد حسن في الشواهد.

والمقصود: لأصحاب اليمين ثُلّتان ـ **القول الأول**: ثلة من الأولين من الأمم الماضية، وثلة من الآخرين من هذه الأمة.

والقول الثاني: كلا الثلتين من أمة محمد ﷺ. قال القاسمي: (أي جماعة وأمة من المتقدمين في الإيمان، وممن جاء بعدهم من التابعين لهم بإحسان من هذه الأمة. والكثرة ظاهرة لوفرة أصحاب اليمين في أواخرهم دون السابقين). والله تعالىٰ أعلم.

41 ـ 56. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

في هذه الآيات: استكمال للمشهد يوم القيامة بذكر الفريق الثالث ـ فريق الشقاء ـ بعد ذكر الفريقين ـ السابقين وأصحاب اليمين ـ في السعداء. فهؤلاء أهل الشقوة في طعام الزقوم، وشراب الحميم، وعذاب الجحيم، والخذلان والحرمان من النعيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾. أي: فأيّ شيء هم أصحاب الشمال، وكيف ستكون أحوالهم في الدار الآخرة. قال قتادة: (أي ماذا لهم، وماذا أُعدّ لهم).

وقوله تعالىٰ: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾. تفسير ونعت لصفاتهم في ذلك اليوم.

والسموم: الهواء الحار، والحميم: الماء الساخن المغلي. قال القرطبي: (والسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن. والمراد هنا حرّ النار ولفحها. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ أي ماء حارٌّ قد انتهىٰ حرّه، إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر، فيجده حميماً حاراً في نهاية الحرارة والغليان).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾. قال ابن عباس: (هو ظل الدخان).

وقال ابن زيد: (ظل الدخان دخان جهنم).

والمقصود: أنهم يفزعون من شديد السَّموم إلى الظل فإذا هو ظل من يحموم، أي من دخان جهنم الأسود المحرق.

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: 29 ـ 34].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾. قال قتادة: (لا بارد المنزل، ولا كريم المنظر).

وعن الحسن: (ليس طيّب الهُبوب ولا حسن المنظر).

والمقصود: فزعوا إلى ظل ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ بل هو حار، لأنه من دخان شفير جهنم. ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي وما هو بعذب. وكل ما لا خير فيه فليس بكريم ـ كذا في كلام العرب.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾. هو سرّ بلوغهم ذلك المقام المهين، وذلك الخزي العظيم. فلقد استحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا مُتَنَعِّمِين بالحرام. قال ابن عباس: (﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ يقول: منعمين).

والمترف: المنعَّم. وقال السّدي: (﴿مُتْرَفِينَ﴾ أي مشركين).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال مجاهد: (يُصِرّون: يدمنون).

وقال ابن زيد: (الحنث العظيم: الذنب العظيم. قال: وذلك الذنب العظيم الشرك، لا يتوبون ولا يستغفرون).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾. أي قد جمعوا إلى الشرك الكفر بالبعث والحساب، وإنكار المعاد والقيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨﴾. استبعاد أكبر لبعث الآباء والأجداد.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾. أي: قل لهم ـ يا محمد ـ إن الأولين من آبائكم والآخرين منكم سيجمعون إلى عرصات القيامة لا نُغادر منهم أحداً. قال ابن كثير: (﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي مُؤَقَّت بوقت مُحَدَّد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص). قال القرطبي: (ومعنىٰ الكلام القَسَم، ودخول اللام في قوله تعالىٰ: ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ هو دليل القسم في المعنىٰ، أي إنكم لمجموعون قَسَماً حَقاً خلاف قسمكم الباطل).

وفي التنزيل نحو ذلك: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: 103 ـ 105].

أخرج الحاكم بسند صحيح عن عمرو بن ميمون الأودي قال: [قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بني أود! إني رسولُ رسولِ الله ﷺ: تعلمون المعادَ إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإقامةٌ لا ظعن فيه، وخلودٌ لا موت، في أجسادٍ لا تموت](1).

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: [ثم ينفخ في الصور.. ثم لا يبقىٰ أحدٌ إلا صعق، ثم يرسل الله تعالىٰ مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: أيها الناس! هلمّوا إلى ربكم ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾](2).

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾.

أي: ثم إنكم معشر الضالين عن الحق والهدىٰ، المكذبين بالبعث، مدعوُّون إلى طعام من شجر كريه المنظر، كريه الطعم، تملؤون منه بطونكم. قال ابن كثير: (وذلك أنهم يُقْبَضُون ويُسجَرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم، حتىٰ يملؤوا منها بطونهم).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. قال رسول الله ﷺ: [لو أنَّ قَطْرَةً من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه](3).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾. أي: ثم إنكم لشاربون على الزقوم ـ أو على الأكل ـ من الماء المغلي الذي قد اشتد غليانه. قيل: وهو صديد أهل النار. قال القرطبي: (أي يورثهم حَرَّ ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشاً فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميماً مُغْلى).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾. الهيم: الإبل العطاش التي لا تَرْوىٰ لداء

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (1/ 83)، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (1668).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2940)، وأحمد في المسند (2/ 166).
(3) حديث صحيح. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (5683)، وصحيح الجامع الصغير (5126).

يصيبها. قاله ابن عباس. وقال عكرمة: (هي الإبل المِراض). وقال الضحاك: (الهيم الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشاً شديداً). وواحدها أَهْيَم والأنثىٰ هَيْماء، ويقال لذلك الداء الهُيَام. وروي أيضاً عن ابن عباس: (فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء). قال المهدوي: (ويقال لكل ما لا يروىٰ من الإبل والرمل أهيم وهيماء). قال النسفي: (والمعنىٰ أنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم الذي هو كالمهل، فإذا ملؤوا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذي يقطع أمعاءهم، فيشربونه شرب الهيم، وإنما صح عطف الشاربين على الشاربين وهما لذوات متفقة، وصفتان متفقتان، لأن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما يشرب الهيم الماء أمر عجيب أيضاً، فكانتا صفتين مختلفتين).

وقوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾. تهكّم بهم. أي: هذا الموصوف هو رزقهم الذي يُعَدّ لهم، وهو ضيافتهم عند نزولهم عند ربهم في ذلك اليوم. قال القاسمي: (وفيه مبالغة بديعة، لأن النزل ما يعدّ للقادم عاجلاً إذا نزل، ثم يؤتىٰ بعده بما هو المقصود من أنواع الكرامة، فلما جعل هذا، مع أنه أمر مهول، كالنزل، دلّ علىٰ أن بعده ما لا يطيق البيان شرحه. وجعله نزلاً، مع أنه ما يكرم به النازل، متهكماً، كما في قوله:

وكنا إذا الجبارُ بالجيش ضافَنا ... جعلنا القنا والمُرْهفاتِ له نُزْلاً).

57 ـ 74. **قوله تعالىٰ:** ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً

وَمَتَٰعًا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: امتنانُ الله تعالىٰ على عباه بنعمة الخلق لهم ، وللماء الذي يعقب التناسل بينهم ، وللزرع وماء الشرب والنار التي يوقدون عليها طعامهم .

فقوله تعالىٰ : ﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ . تقرير من الله تعالىٰ للمعاد ، وتكذيب لأهل الزّيغ والإلحاد . الذين استبعدوا البعث بقولهم : ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ . قال ابن كثير : (﴿ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ ﴾ ، أي : نحن ابتدأنا خَلْقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذي قدر على البَدْأةِ بقادر على الإعادة بطريق الأَوْلىٰ والأحرىٰ ، فلهذا قال : ﴿ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ ، أي : فهلا تُصَدِّقون بالبعث !) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ . حجة أخرىٰ علىٰ المشركين منكري البعث والحساب ، فإن الله تعالىٰ متصف بالخلق دوماً وقد أنشأكم من ماء مهين . قال ابن جرير : (يقول تعالىٰ ذكره لهؤلاء المكذبين بالبعث : أفرأيتم أيها المنْكرون قُدرة الله على إحيائكم من بعد مماتكم النطف التي تمنون في أرحام نسائكم ، أأنتم تخلقون تلك أم نحن الخالقون) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ ﴾ الآية .

قال مجاهد : (﴿ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ﴾ : المستأخر والمستعجل) . قال القاسمي : (أي كتبنا علىٰ كل نفس ذوقَه . أي : ومن كان سبيله ذلك ، فشأنه أن يرهب من نزوله ، ويتأهّب لما يخوّف به من بعده . والجملة مقررة لما قبلها بإيذان أنهم في قبضة القدرة ، فلا يغترون بالإمهال ، بدليل ما قدره عليهم من الموت . وفي قوله تعالىٰ : ﴿ بَيۡنَكُمُ ﴾ زيادة تنبيه ، كأنه بين ظهرانيهم ، ثم أكّد ما قرره بقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴾ أي بمغلوبين ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ ﴾ أي بعد مهلككم ، فنجيء بآخرين من جنسكم ﴿ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ من صور وأشكال أخرىٰ ، فكيف نعجز عن إعادتكم ؟) .

وقوله : ﴿ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ . قال مجاهد : (في أي خلق شئنا) .

قال النسفي : (وعلى أن ننشئكم في خلق لا تعلمونها وما عهدتم بمثلها ، يعني أنا نقدر على الأمرين جميعاً : على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم ، فكيف نعجز عن إعادتكم !) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . قال مجاهد : (﴿ ٱلنَّشۡأَةَ

﴿ٱلْأُولَىٰ﴾: إذ لم تكونوا شيئاً). وقال قتادة: (هو خلق آدم). قال القرطبي: (﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي إذ خُلقتم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئاً. . . ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي فهلاّ تذكرون. وفي الخبر: عجباً كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الأخرىٰ وهو يرىٰ النشأة الأولى، وعجباً للمصدّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعىٰ لدار القرار).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾.

احتجاج آخر على منكري البعث والمعاد. أي: أخبروني عن أرضكم حين تطرحون فيها البَذْر، أأنتم تنبتونه زرعاً فيكون فيه السنبل والحبّ، أم ليس لكم إلا إلقاء البذر بعد شق الأرض، ثم الإنبات وإخراج الحب والسنبل علينا؟! إنكم تقرون لله بذلك، فيكف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟

أخرج ابن حبان في صحيحه، والبزار والطبري بسند حسن عن أبي هريرة قال: [قال رسول الله ﷺ: لا تقولنَّ: زَرَعْتُ ولكن قل: حرثتُ. قال أبو هريرة: ألم تسمع إلى قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾][1].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾.

أي: لو نشاء لجعلنا زرعكم هشيماً متكسراً، لا ينتفَعُ به في مطعم وغذاء، فظلتم تعجبون بحطامه وتندمون مما حلّ بكم.

فعن ابن عباس: (﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ قال: تعجبون). وقال عكرمة: (تلاومون).

وقال الحسن: (تندمون). وأصل التفكه في كلام العرب: التعجب أو التندم. قال الرازي: (و«تفكه» تَعَجَّبَ. وقيل: تَنَدَّم. قال الله تعالىٰ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تَنَدَّمون. وتفكَّهَ بالشيء تمتَّعَ به). وقوله: ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أصله: «فظَلَلْتُم» وحذفت اللام الأولىٰ للتخفيف.

وفي الآية تنبيه للمشركين على أمرين:

1 ـ ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه.

2 ـ ليعتبروا بذلك في أنفسهم، كما أنه يجعل الزرع حطاماً إذا شاء، وكذلك

---

(1) حديث حسن. أخرجه البزار (1289) «كشف» وابن حبان (5723)، والطبري (33492)، وأبو نعيم (8/ 267)، والبيهقي (6/ 138)، وفي «الشعب» (5217)، ورجاله ثقات.

يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا ـ حكاه القرطبي.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾. أي: لو جعلناه حُطاماً لظَلْتمُ تفكَّهونَ في المقالة، تُنَوِّعُون كلامَكُم، فتقولون تارةً: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾. أي مُلْقَون للشر معذبون لا يثبت لنا مال. ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي محدودون ـ لا حَظَّ لنا ـ.

فعن عكرمة: (﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ قال: إنا لمولَع بنا). وقال قتادة: (﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾: أي معذّبون). وقال مجاهد: (مُلْقون للشر). واختار ابن جرير أن معناه: إنا لمعذّبون، لأن الغرام عند العرب العذاب.

وعن مجاهد: (﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قال: حُورِفنا فحرمنا). والمحروم الممنوع من الرزق، أو هو ضد المرزوق ـ وهو المحارِف ـ. قال ابن جرير: (وقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ يعني بذلك تعالى ذكره أنهم يقولون: ما هلك زرعنا وأصبنا به من أجل ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ولكنا قوم محرومون، يقول: إنهم غير مجدودين، ليس لهم جَدّ[1]).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾.

قال ابن عباس: (المزن: السماء والسحاب). وقال ابن زيد: (المزن: السحاب اسمها).

والمعنىٰ: أفرأيتم أيها الغافلون هذا الماء الذي تشربون، أأنتم أنزلتموه من السحاب فوقكم إلى قرار الأرض، أم نحن منزلوه لكم.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾. الأجاج من الماء: هو ما اشتدت ملوحته.

والمقصود: لو شئنا جعلنا ذلك الماء النازل لكم من المزن ملحاً فلم تنتفعوا منه بشراب ولا غرس ولا زرع، فهلاّ شكرتم ربكم أن أنزله لكم عَذْباً تشربون وتنتفعون.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾. أي: أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقدح من الزناد، فتستخرجونها من أصلها. قال النسفي: (والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر، ويسمون الأعلى الزند والأسفل الزندة، شبهوهما بالفحل والطروقة).

وقوله تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾. أي: أأنتم خلقتم شجرتها أم نحن الخالقون لها ابتداء. قال ابن كثير: (أي: بل نحن الذين جعلناها مُودَعةً في

(1) أي حظ.

موضِعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما : المَرْخُ ، والأخرىٰ : العَفَار ، إذا أُخِذَ منهما غصنان أخضران فَحُكَّ أحدُهما بالآخر تناثَرَ مِن بينهما شَرَرُ النار) .

وقوله : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ . أي : نحن جعلنا نار الدنيا موعظة للنار الكبرىٰ في الآخرة . قال مجاهد : (﴿ تَذْكِرَةً ﴾ : للنار الكبرىٰ التي في الآخرة) .

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : أنّ رسول الله ﷺ قال : [نارُكُم جُزْءٌ مِنْ سبعين جُزْءاً من نار جهنم . قيل : يا رسول الله ، إنْ كانت لكافِيةٌ ، قال : فُضِّلَت عليهن بِتسعةٍ وستين جُزْءاً كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرّها][1] .

وقوله : ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ . قال ابن عباس : (المقوين : المسافرين) . وقال الضحاك : (أي منفعة للمسافرين ، سمّوا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر) .

وقال الفرّاء : (إنما يقال للمسافرين : مُقْوين إذا نزلوا القِيّ وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها) . وفي لغة العرب : منزلٌ قَوَاء : لا أنيس به ، وأَقْوَت الدار وقَوِيت إذا خلت من سكانها . وأقوىٰ الرجل إذا سافر ، أي نزل القَواء والقِيّ . وقال مجاهد : (﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ : للحاضر والمسافر ، لكل طعام لا يُصْلِحه إلا النار) . وقال أيضاً : (المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها) . وقال ابن زيد : (للجائعين في إصلاح طعامهم) .

قلت : ويبدو أن الآية تصلح للجميع ، لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير ، والعرب تقول : بات فلان القَواء وبات القفرَ إذا بات جائعاً على غير طُعْم . قال القشيري : (وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم ، لأن أهل البادية لا بد لهم من النار يوقدونها ليلاً لتهرب منهم السباع، وفي كثر من حوائجهم) .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ . أي : فنزه الله الذي خلق الأضداد : الماء العذب والماء الأجاج ، فجعل هذا في الأنهار وذاك في البحار ، وخلق النار فجعلها في الدنيا مصلحة للعباد ، وجعلها كذلك زاجراً لهم في المعاد .

فعظّم ربك ـ يا محمد ـ ونزهه عما أضافه إليه المشركون من الأنداد ، والعجز عن البعث يوم التناد .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3265) ، كتاب بدء الخلق . وانظر صحيح سنن الترمذي (2088) .

75 ـ 82. **قوله تعالىٰ**: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾.

في هذه الآيات: إقسامُ الله تعالىٰ بمواقع النجوم، أنّ القرآن العظيم في كتاب مكنون، لا تصل إليه الشياطين، وأنه تنزيل رب العالمين، فكيف يجحد بآيات الله بعد ذلك الجاحدون.

فقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: «لا» صلة، والمعنىٰ: فأقسم، بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ﴾. وهو قول أكثر المفسرين.

التأويل الثاني: «لا» بمعنىٰ «ألا» للتنبيه، والمراد التنبيه على فضيلة القرآن ليتدبروه، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعم المشركون.

التأويل الثالث: «لا» زائدة، والتقدير: أقسم بمواقع النجوم، ويكون جواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾. ذكره سعيد بن جبير.

التأويل الرابع: «لا» ليست زائدة، بل لها معنىٰ، وإنما يؤتىٰ بها في أول القسم إذا كان مُقْسَماً به على منفيّ. كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: [لا، والله ما مَسَّت يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة قطّ][1].

فتقدير الكلام في الآية: لا. أقسمُ بمواقع النجوم، ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم. قال الفراء: (هي نفي، والمعنىٰ: ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف ﴿أُقۡسِمُ﴾).

التأويل الخامس: «فَلأُقْسِم» بغير ألف بعد اللام، وهي قراءة الحسن، والتقدير: فلأنا أقسم بذلك.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2713)، ومسلم (1866)، وغيرهما.

قلت: وكل ما سبق محتمل يدل على وجوه الإعجاز الكثيرة لهذا القرآن العظيم، ويفيد أن المعنىٰ قَسَمٌ من الله عز وجل، الذي يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾. فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: بمنازل القرآن. قال ابن عباس: (نزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرق في السنين بعد. قال: وتلا ابن عباس هذه الآية: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: نزل متفرّقاً).

وقال عكرمة: (إن القرآن نزل جميعاً، فوضع بمواقع النجوم، فجعل جبريل يأتي بالسورة، وإنما نزل جميعاً في ليلة القدر). وعن مجاهد: (﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: هو محكم القرآن).

التأويل الثاني: مواقع النجوم: مساقطها ومغاربها. قال مجاهد: (﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: قال: في السماء، ويقال مطالعها ومساقطها). وقال قتادة: (﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أي مساقطها).

التأويل الثالث: مواقع النجوم: منازلها. قاله عطاء بن أبي رباح.

التأويل الرابع: مواقع النجوم: انتثارها وانكدارها. قال الحسن: (انكدارها وانتثارها يوم القيامة).

التأويل الخامس: هي الأنواء المعروفة في الجاهلية. قال الضحاك: (هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِرنا بِنَوْء كذا).

قلت: الراجح أن المراد مساقط النجوم ومغايبها في السماء، يدل على ذلك لفظ ﴿بِمَوَٰقِعِ﴾ وهو جمع موقع، والموقع المفعل: من وقع يقع موقعاً ـ وهو اختيار شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقَسَمٌ عظيمٌ، لو تعلمونَ عظمَتَه لَعَظَّمْتُم المُقسم به عليه).

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾. قيل: إن الهاء تعود على القرآن، أي إن القرآن لقسم عظيم، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: ما أقسم الله به عظيم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ ذكر المقسم عليه. قال القرطبي: (أي أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم، ليس

بسحر ولا كهانة ، وليس بمفترىٰ ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالىٰ معجزة لنبيّه ﷺ ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربهم ، وشفاء صدورهم ، كريم على أهل السماء ، لأنه تنزيل ربّهم وَوَحيْه. وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي غير مخلوق. وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور. وقيل: لأنه يُكرّم حافظه ، ويُعظّم قارئه).

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾. أي مصون عند الله محفوظ من الباطل.

قال ابن عباس: (الكتاب الذي في السماء). وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضاً: (هو اللوح المحفوظ).

وقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾. قال ابن عباس: (الكتاب الذي في السماء).

والمقصود: أن القرآن الذي في اللوح المحفوظ لا يمسّه إلا الملائكة المقربون ، ولا سبيل إلى أن يتناوله الشياطين. قال ابن زيد: (زعموا أن الشياطين تنزّلت به على محمد ، فأخبرهم الله أنها لا تقدر على ذلك ، ولا تستطيعه ، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا ، وهو محجوب عنهم ، وقرأ قول الله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: 211 ـ 212]).

فالحديث عن القرآن الكريم الذي في الكتاب المكنون ـ أي اللوح المحفوظ ـ عند الله تعالىٰ.

وهذه طائفة من أقوال المفسرين في ذلك:

1 ـ عن ابن عباس قال: (إذا أراد الله أن ينزل كتاباً نسخته السفرة ، فلا يمسه إلا المطهرون ، قال: يعني الملائكة).

2 ـ عن سعيد بن جبير: (﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: الملائكة الذين في السماء).

3 ـ عن أبي العالية: (﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: ليس أنتم ، أنتم أصحاب الذنوب).

4 ـ عن قتادة: (﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ ذاكم عند ربّ العالمين ، فأما عندكم فيمسه المشرك النجس ، والمنافق الرَّجِس).

قلت: وأما من ذهب إلى أن المراد منع المحدث أو الجنب أو الحائض من مسّ المصحف فإن الآية ليست في هذا السياق من جهة، والأحاديث في ذلك كلها ضعيفة من جهة أخرىٰ. ويدحضها قول النبي ﷺ: [المؤمن لا ينجس].

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة: [أنه لقي النبي ﷺ في طريق من طرق المدينة وهو جنب، فانْسَلَّ فذهب فاغتسل، فتفقّدَه النبي ﷺ، فلما جاء قال: أين كنت يا أبا هريرة؟ قال: يا رسول الله، لقيتَني وأنا جُنُبٌ فكرِهْتُ أن أجالسك حتىٰ أغتسل، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله، إن المؤمن لا ينجس][1].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن حذيفة، أنّ رسول الله ﷺ لقيه وهو جُنُبٌ، فحادَ عنه فاغْتَسل، ثم جاء فقال: كنتُ جُنُباً قال: [إن المُسْلِمَ لا ينجُس][2].

وفيه عن عائشة قالت: [كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانِه][3].

وأما ما رواه الإمام مالك في الموطأ عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزم: [أنّ في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لِعَمْرو بن حزم: أن لا يَمَسَّ القرآنَ إلا طاهر][4].

فمفهومه أن أهل القرآن هم أهل الطهارة، فأما المؤمن فلا ينجس، ومن ثمّ فلا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو.

ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عمر: [أن رسول الله ﷺ نهىٰ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو][5].

وقد روي عن أبي حنيفة جواز مسّ المحدث المصحف، وكذلك عن جماعة من السَّلف منهم ابن عباس والشَّعبي وغيرهما.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال جابر بن زيد: (القرآن من ذلك الكتاب).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (371)، كتاب الحيض. باب الدليل على أن المسلم لا ينجس.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (372)، كتاب الحيض. الباب السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (373)، كتاب الحيض. باب ذكر الله تعالىٰ في حال الجنابة وغيرها.

(4) حسن صحيح. أخرجه مالك في الموطأ (1/ 199)، ورواه أبو داود من حديث الزهري.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2990)، ومسلم (1869)، وأبو داود (2610)، وأحمد (2/ 7)، وابن حبان (4715)، وغيرهم.

قال ابن كثير: (أي: هذا القرآن منزَّلٌ من ربِّ العالمين، وليس هو كما يقولون: إنه سِحْرٌ، أو كَهانَةٌ، أو شِعْرٌ، بل هو الحق الذي لا مِرْيَةَ فيه، وليس وراءه حقّ نافع).

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾. قال ابن عباس: (يقول: مكذّبون غير مصدقين). وقال مجاهد: (تريدون أن تُمالِئوهم فيه، وتركنوا إليهم).

والمدهِنُ الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبِّه بالدهن في سهولة تليّنه وتغيره.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: أفبهذا القرآن الذي أنبأتكم خبره، وقصصت عليكم أمره أيها الناس أنتم تلينون القول للمكذّبين به، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. أي: وتجعلون شكركم لله تعالىٰ على امتنانه عليكم بالرزق والخير والعافية هو التكذيب والجحود والنكران!

قال الحسن: (بئسما أخذ قوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب به).

أو قال: (خسر عبد لايكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب).

يروي ابن جرير بسنده عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي رضي الله عنه: (﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: شكركم. قال: شكركم، تقولون مُطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا).

ثم روىٰ بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ قال: (ما مُطر الناس ليلة قطّ، إلا أصبح بعض الناس مشركين يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا. قال: وتجعلون شكركم أنكم تكذبون).

قلت: وهذان الأثران عن علي وابن عباس رضي الله عنهما يصلحان شاهدين للحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن ابن عباس قال: [مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر. قالوا: هذه رحمة، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فنزلت هذه الآية: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾][1].

والنازل هو قوله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، والباقي من الآيات نزل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (73)، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

بغير ذلك ، ولكن اجتمعا في وقت النزول ، فذكر الجميع من أجل ذلك ، كما ذكر النووي عن ابن الصلاح.

وقد ورد هذا المعنىٰ كذلك في الصحيحين من حديث زَيْد بن خالدٍ الجُهَنيّ قال: [صلّىٰ لنا النبي ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثْرِ سماءٍ كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: أصبح من عبادي مؤمِنٌ بي وكافر ، فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافرٌ بالكوكب ، وأما مَنْ قال: بِنَوْءِ كذا وكذا ، فذلك كافِرٌ بي ومؤمنٌ بالكوكب](1) .

83 ـ 87. **قوله تعالىٰ:** ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: وصفُ لحظة الغرغرة والفراق ، وعجز الحاضرين أمام المحتضر عن إنقاذ الروح من اللحاق.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ . أي: فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحلقوم عند الاحتضار ، والحلقوم ممر الطعام والشراب. كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: 26 ـ 30].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ . قال ابن عباس: (يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متىٰ تخرج نفسه). قال ابن كثير: (﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ ، أي: إلى المحتضر وما يُكابده من سكرات الموت). وقال القرطبي: (﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ أمري وسلطاني. وقيل: تنظرون إلى الميّت لا تقدرون له على شيء. وقيل: المعنىٰ فهلاّ إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه في جسده ، مع حرصكم على امتداد عمره ، وحبكم لبقائه. وهذا ردّ لقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (846) ، كتاب الأذان ، وكذلك (1038) ، وأخرجه مسلم (71) ، ومالك (1/ 192) ، وأحمد (4/ 117) ، وغيرهم.

إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]. وقيل: هو خطاب لمن هو في النزع، أي إن لم يك ما بك من الله فهلاّ حفظت على نفسك الروح).

وقوله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾. أي بالقدرة والعلم والرؤية. وقيل: بملائكتنا.

قال ابن جرير: (يقول: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم).

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾. أي: لا ترون حضور هؤلاء الملائكة. وقال النسفي: (﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾: لا تعقلون ولا تعلمون). أي قرب قدرة الله ورؤيته.

وفي سنن ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [الميِّتُ تَحْضُرُه الملائكة. فإذا كان الرجل صالحاً، قالوا: اخْرُجي أيتها النفس الطيِّبة! كانت في الجسد الطيِّب. . . . وإذا كان الرجل السوء قال: اخرُجي أيتها النفس الخبيثة! كانت في الجسد الخبيث] الحديث[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ﴾. أي: فهلاّ أرجعتم هذه الروح إلى جسدها ومنعتم مغادرتها إن كنتم غير محاسبين بأعمالكم.

قال ابن عباس: (﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾: يقول: غير محاسبين). وقال ابن زيد: (كانوا يجحدون أن يُدانوا بعد الموت، قال: وهو مالك يوم الدين، يوم يُدان الناس بأعمالهم، قال: يدانون: يحاسبون). وعن الحسن: (﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ غير مبعوثين يوم القيامة، ترجعونها إن كنتم صادقين). وقال أيضاً: (غير مصدقين أنكم تُدانون وتبعثون وتجزون، فردُّوا هذه النَّفس). وعن مجاهد: (﴿غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾: غير مُوقنين). وقال ميمون بن مهران: (غير معذبين مقهورين).

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. قال القاسمي: (أي في أنكم غير مسوسين، مربوبين مقهورين).

88 ـ 96. قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (4262)، كتاب الزهد. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3437).

مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذكر أصناف الناس عند الاحتضار، فهم على ثلاثة أحوال: السابقون المقربون، ثم يليهم أصحاب اليمين، وكلاهما في جنة النعيم. ثم أهل التكذيب بالحق أهل الجحيم.

فقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾. أي: فأما إن كان هذا المتوفّىٰ من السابقين المقربين الذين قَرَّبَهم الله من جواره في جنانه. ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: راحة ومستراح). وقال: (يعني بالريحان: المستريح من الدنيا).

وعن مجاهد: (﴿ فَرَوْحٌ ﴾ قال: راحة. ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ قال: الرزق). وقال سعيد بن جبير: (الرَّوْح: الفرح، والرَّيحان: الرزق). وقال الضحاك: (الرَّوح: المغفرة والرحمة، والرَّيحان: الاستراحة). وقال مجاهد أيضاً: (﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾: جنّةٌ ورَخاء). وقال قتادة: (فروحٌ ورحمة).

والخلاصة: إن كان المتوفىٰ من أهل القربات: الذين فعلوا الواجبات والمستحبّات، وتركوا المحرّمات والمكروهات وبعض المباحات، حصل له من جميع ما سبق ذكره من الرحمة والراحة، والرخاء والاستراحة، والفرح والسرور، والرزق الطيب الموفور، ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾.

أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن عائشة قالت: [سمعت النبي ﷺ يقرؤها: ﴿فرُوحٌ وريحان﴾][1]. أي برفع الراء.

وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [إنّ الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرُجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتىٰ تخرج][2].

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود والنسائي بسند صحيح من حديث البراء مرفوعاً:

---

(1) صحيح الإسناد. أخرجه أبو داود (3991)، والترمذي (2938)، والنسائي في «التفسير» (586)، وأحمد (6/ 64)، وأبو يعلىٰ (4515)، والحاكم (2/ 236).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4262) كتاب الزهد، وهو جزء من حديث أطول.

[فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره][1] .

وفي مسند أحمد ، عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك ، عن الزُّهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ قال: [إنما نَسَمةُ المؤمن طائرٌ يعلَقُ في شجر الجنة ، حتىٰ يَرْجِعَه الله إلى جسده يوم يَبْعثه][2] .

وأصل ذلك المعنىٰ في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ـ في شأن أرواح الشهداء ـ قال رسول الله ﷺ: [أرواحهم في جَوْف طَيْرٍ خُضْرٍ ، لها قناديلُ مُعَلَّقةٌ بالعرش تَسْرحُ من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل] الحديث[3] .

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ .

أي: وأما إن كان المتوفىٰ من أصحاب اليمين ، فإن الملائكة تبشره عند احتضاره أن سلامٌ عليك ، ورافقتك السلامة حتىٰ تلحق بأصحاب اليمين فإنك منهم ، وهم يسلمون عليك .

قال البخاري: (﴿ فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ : أي: مُسَلَّمٌ لكَ إنَّكَ من أصحاب اليمين ، وأُلْغِيَتْ إنَّ وهوَ مَعْناها ، كما تقول: أنْتَ مُصَدَّقٌ ، مسافِرٌ عَنْ قليل ، إذا كان قد قال: إني مسافرٌ عن قليلٍ ، وقد يكون كالدعاءِ له كقولِكَ: فَسَقْياً من الرجال. إنْ رَفَعْتَ ـ السّلامُ ـ فهو من الدعاء) .

وعن قتادة: (﴿ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ . قال: سَلِمَ من عذاب الله ، وسَلّمت عليه ملائكة الله) . وقال عكرمة: (تُسَلِّم عليه الملائكة ، وتخبرُه أنه من أصحاب اليمين) .
وهو كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: 30 ـ 32].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 287) ، وأبو داود (2/ 281) ، والنسائي (1/ 282) ، ورواه ابن ماجة (1/ 469) ، والحاكم (1/ 37 ـ 40).
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 455) ، ورجاله رجال الشيخين سوىٰ الشافعي ، وهو ثقة إمام.
(3) حديث صحيح. رواه مسلم (1887) من حديث ابن مسعود ، كتاب الإمارة ، في أثناء حديث طويل.

والشق الثاني من المعنىٰ ذكره النسفي حيث قال: (﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾. أي فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، أي يسلمون عليك، كقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾. أي: وأما إن كان المحتضر من أهل التكذيب بالحق، وأهل اتباع الهوىٰ والضلال، فإن الضيافة ستكون من الشراب المغلي الذي قد انتهىٰ حره، في أرجاء النار التي تغمره، فبئس الشراب وبئس الرزق وبئس المستقر.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾. قال مجاهد: (الخبر اليقين).

قال القرطبي: (أي هذا الذي قصصناه محض اليقين وخالصه. وجاز إضافة الحق إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما. قال المبرِّد: هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين، فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين. وعند البصريين: حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين. وقيل: هو توكيد).

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾. أي: فنزّه الله تعالىٰ عن النقائص والعيوب، فاذكره وعظّمه حق الذكر والتعظيم. قال القاسمي: (﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: نزهه عما يصفونه به من الأباطيل، وما يتفوهون به من الأضاليل، قولاً وعملاً).

أخرج الترمذي والنسائي بسند حسن عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ قال: سبحان الله العظيم وبحمده غُرِست له نخلةٌ في الجنّة](1).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم](2).

وفي صحيح سنن ابن ماجة عن حذيفة بن اليمان: [أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3464)، (3465)، والنسائي (827)، وابن حبان (826)، والحاكم (1/ 501)، وفيه عنعنة أبي الزبير، لكن له شاهد أخرجه الحاكم (1/ 512) من حديث أبي هريرة، وصححه، ووافقه الذهبي.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6406)، (6682)، (7563)، ومسلم (2694)، والترمذي (3467)، والنسائي (830)، وابن ماجة (3806)، وأحمد (2/ 232).

ركع: «سبحان ربي العظيم» ثلاث مَرَّات. وإذا سجد قال: «سبحان ربي الأعلىٰ» ثلاث مَرَّات][1].

تم تفسير سورة الواقعة
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
ظهر السبت 28 ـ شعبان ـ 1426 هـ
الموافق 1 ـ تشرين الأول ـ 2005 م

❑ ❑ ❑

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (882). انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (725)، وصحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (774).

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الناس ثلاثة أصناف : السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال .

2 ـ في كل أمة مؤمنة سابقون وأصحاب اليمين ، وخيرهم أمة محمد ﷺ .

3 ـ في الجنة فاكهة مختلفة ولحم طير وحور عين خصصت للمقربين .

4 ـ في الجنة سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود خصص لأهل اليمين .

5 ـ المؤمنات يُحْشَرن أبكاراً عُرُباً أتراباً ، في بهاء وجمال ، وحلاوة وظرافة .

6 ـ ذات الأزواج في الدنيا تختار أحسنهم أخلاقاً زوجاً لها في الجنة .

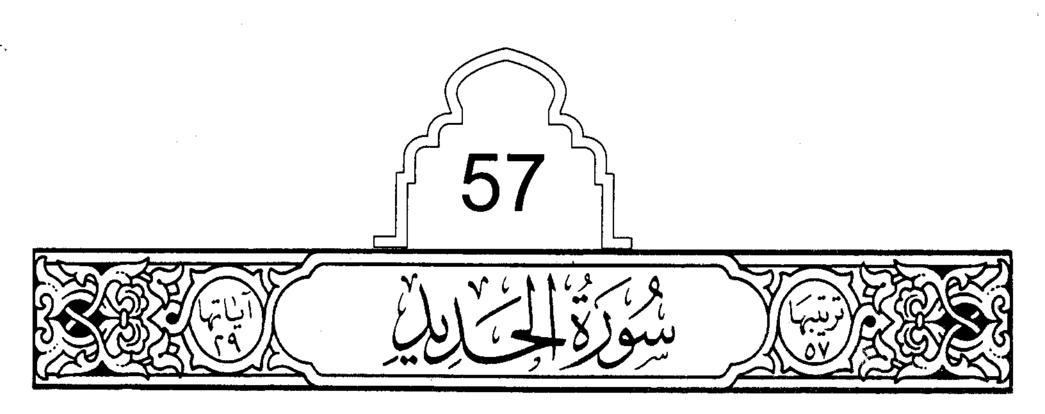
7 ـ أصحاب الشمال في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، وغسلين وزقوم .

8 ـ استبعاد المكذبين بالبعث إعادتهم يوم الحشر ، والله خلقهم من عدم فهو القادر على إخراج كل واحد منهم من القبر .

9 ـ الله تعالىٰ زرع لهم وأمطرهم ورزقهم ، فقابلوه بالكفر والنكران ، والجحود وعبادة الشيطان .

10 ـ المطهرون هم الملائكة البررة المقربون ، والسابقون لا خوف عليهم فهم الأبرار المقدمون ، وأصحاب اليمين يبشرون بالسلام والنعيم ، وأهل التكذيب يساقون إلى الحميم وقرار الجحيم .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (29) .

أخرج أبو داود والترمذي وأحمد والنسائي بسند حسن عن خالد بن مَعْدان ، عن ابن أبي بلال ، عَنْ عِرْباض بن سارية أنه حدّثهم : [أنّ رسول الله ﷺ كان يقرأ المُسَبِّحات قبل أن يرقد ، وقال : إنَّ فيهنَّ آيةً خيرٌ مِنْ ألفِ آية][1] .

قال القرطبي : (يعني بالمسبّحات : «الحديد» و«الحشر» و«الصَّف» و«الجمعة» و«التغابن») .

قال ابن كثير : (والآية المشارُ إليها في الحديث هي ـ والله أعلم ـ قولُهُ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾) .

موضوع السورة

نصر الله الأكيد ، بمنهاج النبوة والحديد

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ اشتراك جميع الكائنات بالتسبيح لله العظيم ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم .

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود (5057) ، والترمذي (3089) ، وأحمد (4/ 128) ، والنسائي في «اليوم والليلة» (713) ، (714) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (2333) .

2 ـ الدعوة إلى الإيمان بالله والإنفاق في سبيله ، وبيان الفرق بين السابقين إلى الإيمان والتابعين لهم بإحسان.

3 ـ نَعْتُ مشهد النجاة يوم القيامة للمؤمنين ، ومشهد الذل والخزي والهوان على المنافقين.

4 ـ استبطاءُ الله تعالىٰ الخشية في قلوب المؤمنين ، والله هو المحيي القلوب والأرض الميتة وهو أعلم بالمتقين.

5 ـ ثناء الله على الصدق والصديقين ، وبيان مصير الكفار والمكذبين.

6 ـ ذمُّ الله الدنيا واللهو واللعب وتفاخر الناس بالزائل الفاني ، وحثّه تعالىٰ عباده على التسابق إلى طلب المغفرة ومنازل أهل المعالي.

7 ـ تقدير الله المصائب والآلام ، ومآل أهل البخل إلى الخزي والخسران.

8 ـ إرسال الله تعالىٰ الرسل الكرام ، بالبينات والكتب والميزان ، ووعده تعالىٰ بالنصر والتأييد لأوليائه الصالحين الكرام

9 ـ إرسال الله نوحاً وإبراهيم عليهما السلام ، وجعل النبوة والكتاب في سلالتهما للمصطفين الكرام.

10 ـ ثناؤه تعالىٰ على عيسىٰ بن مريم وأتباعه الصادقين ، وذم أهل الابتداع والتنطع في الدين. وأمرُه تعالىٰ عباده المؤمنين أن يَصْدُقُوه التقوىٰ ومتابعة منهج رسوله الكريم ، فالفضل بيد الله وهو ولي الأتقياء المخبتين.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1 ـ 6. قوله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦﴾.

في هذه الآيات: تسبيحُ جميع الكائنات لله الملك العزيز الحكيم، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

فقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. إِخْبَارٌ من الله تعالىٰ عن اشتراك جميع ما في السماوات والأرض من الكائنات والحيوانات والنباتات في تنزيهه وتقديسه وتعظيمه. قال ابن عباس: (﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: صلّى لله ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ممن خلق من الملائكة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من شيء فيه رُوح أو لا رُوحَ فيه).

وفي التنزيل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44].

أخرج البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد في المسند، بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً ـ في ذكره ﷺ وصية نوح عليه الصلاة والسلام لابنه ـ: [آمرك بـ «لا إله إلا الله»، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت «لا إله إلا الله» في كفة، رجحت بهن «لا إله إلا الله»، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن «لا إله إلا الله». و«سبحان الله

وبحمده» فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق][1] .

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ . أي : وهو العزيز الذي قد عزّ وغَلَب كل شيء ، وقد خضع له كل شيء ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في شأنه كله : في خلقه وقدره وقوله وفعله وشرعه .

وقوله تعالىٰ : ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

أي : هو المالك ـ سبحانه ـ المتصرف بجميع خلقه في السماوات والأرض ، وعنده خزائن المطر والنبات وسائر الرزق ، يميت الأحياء في الدنيا ويحيي الأموات للبعث ، بل كل موت وحياة بإذنه وأمره ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وقوله : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ .

﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ : أي السابق للأشياء كلها . ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ : أي الباقي بعد الأشياء كلها . ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ : هو الذي ظهر فوق كل شيء وعلاه . ﴿وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ : هو المحتجبُ عن أبصار الخلائق . قال البخاري : (قال يحيىٰ : الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً) .

وفي صحيح مسلم عن سهيل قال : [كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : اللهم رب السماوات ورب الأرض وربّ العرش العظيم ، ربنا وربّ كل شيء فالق الحب والنوىٰ ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شرّ أنت آخذ بناصيته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدَّين ، وأغننا من الفقر . وكان يروي ذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ][2] .

ورواه أحمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم : [اللهم رب . . .] وذكره .

وقوله : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ . قال القاسمي : (أي تام العلم ، فلا يخفىٰ عليه شيء) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (548) ، وأحمد (2/ 169 ـ 170) ، وكذلك (2/ 225) ، والبيهقي في «الأسماء» (79) . وانظر السلسلة الصحيحة (134) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2713) ، ورواه أحمد في المسند (2/ 404) ، وإسناد صحيح .

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

إخبار عن خلقه تعالىٰ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم علوه على العرش بعد خلقهن.

ففي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: [خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابّ يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، في آخِر الخلق، في آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل](1).

قال شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير ـ رحمه الله: (﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: هو الذي أنشأ السماوات السبع والأرضين، فدبّرهن وما فيهنّ، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ على عرشه، فارتفع عليه وعلا).

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. أي: عدد ما يدخل فيها من حبٍّ وقَطْر، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: من زرع ونبات وثمار. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من البَرَدِ والأمطار، والثلوج والأقدار، وجميع الأحكام والأوامر والقضاء مع الملائكة الأبرار. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي من الأعمال مع الملائكة الأخيار.

وفي التنزيل:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10].

3 ـ وقال تعالىٰ: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسىٰ قال: [قام فينا رسول الله ﷺ بِخَمْسِ كلماتٍ فقال: إن الله عزَّ وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُه،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2789) ـ كتاب صفات المنافقين، باب ابتداء الخلق، وخلق آدم عليه السلام. ورواه أحمد، وأبو يعلىٰ في المسند (1/ 288).

يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قبل عملِ النهار ، وعملُ النهارِ قَبْلَ عَمَلِ الليل ، حجابه النور ، لو كشَفَهُ لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خَلْقِه][1].

وقوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ . أي : بصفاته : بسمعه وبصره وعلمه . ويؤكد ذلك آخر الآية : ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ففيه تفسير صفة المعية . قال ابن كثير : (أي : رقيبٌ عليكم ، شهيدٌ على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتُم ، من برّ أو بحر ، في ليلٍ أو نَهار ، في البيوت أو القِفار ، الجميعُ في علمه على السَّواء ، وتحت بصره وسَمْعِه ، فيَسْمَعُ كلامَكُم ، ويرىٰ مكانكم ، ويعلم سرَّكم ونجواكم ، كما قال : ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ . [هود : 5]. وقال : ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد : 10]. فلا إله غيره ولا ربَّ سواه).

وفي التنزيل نحو ذلك :

1 ـ قال تعالىٰ : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : 40]. معية الرعاية والنصر والتأييد .

2 ـ وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء : 15]. معية العلم والاطلاع .

3 ـ وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : 46]. معية صفتي السمع والبصر .

4 ـ وقال تعالىٰ : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة : 7]. قال الإمام البغوي الشافعي : (أي إلا هو رابعهم بالعلم).

وفي صحيح مسلم من حديث عمر ـ لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الإحسان ـ قال : [أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك][2].

وقوله تعالىٰ : ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ . تأكيد لما سبق ، فله سبحانه سلطان السماوات والأرض وما فيهن ، وأمره تعالىٰ نافذ بهن ، وإليه مصير أمور جميع خلقه ، وإليه مآلهم وحسابهم وثوابهم وعقابهم .

وقوله : ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ . أي : يدخل هذا في هذا ، ويطيل

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (179) ـ كتاب الإيمان . وفي لفظ : «حجابه النار» .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (8) ـ كتاب الإيمان ، وكذلك (9) ـ من حديث أبي هريرة .

أحدهما ويقصر الآخر. قال إبراهيم: (﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾: دخول الليل في النهار، ودخول النهار في الليل). وقال عكرمة: (قصر هذا في طول هذا، وطول هذا في قصر هذا). وقال الأعمش عن إبراهيم: (قصر أيام الشتاء في طول ليله، وقصر ليل الصيف في طول نهاره).

وقوله: ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾. أي: وهو ذو علم بسرائر عباده وما تضمره صدورهم، وما تحدثهم به أنفسهم من خير أو شر، فلا يخفىٰ عليه خافية.

7 ـ 11. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١ ﴾.

في هذه الآيات: دعوة الله عباده للإيمان به والإنفاق في سبيله، فهو الذي ينزل على عبده الآيات البينات ليخرج العباد من الظلمات إلى النور بإذنه. وبيان الفرق في الأجر بين من آمن وأنفق من بعد الفتح وبين من سبق إلى البذل والإيمان، ومضىٰ مبكراً في سبيل أهل الدرجات والإحسان.

فقوله: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: آمنوا بالله أيها الناس، فأقرّوا بوحدانيته وبرسوله محمد ﷺ فصدقوه فيما جاءكم به من عند الله واتبعوه).

وقوله: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾. حثٌّ على الإنفاق في سبيل الله، الذي هو من الدلائل على صدق الإيمان، ويشمل ذلك القربات إضافة إلى الزكوات.

قال الحسن: (﴿ مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم). قال القرطبي: (وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النوّاب

والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم).

وفي صحيح مسلم عن مطرِّفٍ ، عن أبيه قال: [أتيتُ النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: يقول ابنُ آدم: مالي ، مالي. قال: وهَلْ لكَ ، يا ابْنَ آدمَ! مِن مالِكَ إلا ما أكَلْتَ فأفْنَيْتَ ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ ، أو تَصَدَّقْتَ فأمْضَيْتَ][1].

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. ترغيب بالإيمان وحثّ على الإنفاق لما يعقب ذلك من الثواب الجزيل.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾. قال ابن كثير: (أي: وأيُّ شيءٍ يمنعكم الإيمان والرسولُ بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ، ويبيّن لكم الحُجَج والبراهين على صحّةِ ما جاءكم به؟).

والآية فيها حالان متداخلان: الأول ـ حال من معنىٰ الفعل في ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ والتقدير: وما لكم كافرين بالله. الثاني ـ واو الحال في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾. فيكون المعنىٰ. وأيّ عذر لكم في ألا تؤمنوا وقد أزيحت العلل ببلاغ الرسول. قال القرطبي: (﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ بيَّن بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع).

أخرج أحمد وأبو يعلىٰ بسند حسن عن ابن مُحَيْريز قال: قلت لأبي جمعة: حَدّثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ. قال: نعم. أحدّثك حديثاً جيّداً: [تَغَدَّينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجَرّاح ، فقال: يا رسول الله ، هل أحدٌ خيرٌ منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: نعم ، قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني][2].

وله شاهد رواه الحسن بن عرفة العبدي من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جده قال: [قال رسول الله ﷺ: أي الخَلْق أعجبُ إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة. قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ قالوا: فالنبيون. قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا: فنحن. قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ قال: فقال

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2958) ـ كتاب الزهد والرقائق. ورواه أحمد (4/ 24).

(2) حسن الإسناد. أخرجه أحمد (4/ 106) ، وأبو يعلىٰ (1559) ، والطبراني (3537) ، وصححه الحاكم (4/ 6992) ، وكذا الذهبي. وله شواهد.

رسول الله ﷺ: ألا إنَّ أعجب الخلق إليَّ إيماناً لَقَوْمٌ يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها][1].

وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ﴾. قال مجاهد: (هو الميثاق الأول الذي كان وهم في ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه). وقيل: الميثاق هنا بيعة الرسول ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: 7]. وقيل: أخذ الله ميثاقكم بما أودع فيكم من العقول، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول ـ والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. قال القاشاني: (أي إن بقي نور الفطرة والإيمان الأزليّ فيكم). وقال ابن جرير: (يقول: إن كنتم تريدون أن تؤمنوا بالله يوماً من الأيام، فالآن أحرىٰ الأوقات أن تؤمنوا لتتابع الحجج عليكم بالرسول وإعلامه ودعائه إياكم إلى ما قد تقرّرت صحته عندكم بالأعلام والأدلة والميثاق المأخوذ عليكم).

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

قال مجاهد: (من الضلالة إلى الهدىٰ). أي: هو الذي ينزل على رسوله القرآن المشتمل على الحجج الواضحات والدلائل الباهرات والبراهين القاطعات، ليخرجكم بهذه الآيات والمعجزات من ظلمات الهوىٰ والجاهلية والكفر إلى نور الحق واليقين والإيمان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. أي: وإن الله تعالىٰ رؤوف بعباده بإنزاله الكتب وإرساله الرسل لإنارة الطريق وإزاحة العلل وإزالة الشكوك والشبهات.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. توبيخ على ترك الإنفاق في سبيل الله. قال الشهاب: (هذا من أبلغ ما يكون في الحث على الإنفاق، لأنه قرنه بالإيمان أولاً لما أمرهم به، ثم وبّخهم على ترك الإيمان، مع سطوع براهينه، وعلى ترك الإنفاق في سبيل من أعطاه لهم، مع أنهم على شرف الموت، وعدم بقائه لهم إن لم ينفقوه. وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه، أعم من الجهاد وغيره. وقصر بعضهم إياه على الجهاد، لأنه فرده الأكمل، وجزؤه الأفضل، من باب قصر العام على أهم أفراده وأشملها، ولا سيما وسبب النزول كان لذلك).

---

(1) حسن لشواهده. انظر رواية البزار (3839) ـ «كشف»، والحاكم (2/ 85)، وأبي يعلىٰ (160)، من حديث عمر، وتفسير ابن كثير (370) ـ تحقيق المهدي.

والمقصود في الآية: أيّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وهذا الذي بين أيديكم من المال وغيره لا يدوم لكم ولا يبقىٰ، بل يرثه الله وكل شيء في السماوات والأرض، فما أجدر ـ والحال هذه ـ أن ينفق العبد في حياته، ويتخذه ذخراً يجده في صحيفته بعد مماته.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾. قال مجاهد: (آمن فأنفق، يقول: من هاجر ليس كمن لم يهاجر).

وعن قتادة: (﴿مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ قال: فتح مكة). وقال عامر الشعبي: (فصل ما بين الهجرتين فتح الحديبية، يقول تعالىٰ ذكره: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الآية). والجمهور على أن المراد بالفتح فتح مكة.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾. قال قتادة: (كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرىٰ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك). وفي الكلام حذف والتقدير: لا يستوي من أنفق قبل الفتح وقاتل مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل. قال القرطبي: (وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم، لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفِعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشقّ، والأجر على قدر النَّصب، والله أعلم).

وقال الإمام مالك: (ينبغي أن يُقَدَّمَ أهل الفضل والعزم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾).

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس قال: [كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلامٌ، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتُمونا بها؟ فبلغَنا أنّ ذلك ذُكر للنبي ﷺ فقال: دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثلَ أُحُدٍ ـ أو: مثلَ الجبالِ ـ ذهباً، ما بلغتم أعمالهم][1].

وهذه المشاجرة كانت أثناء غزو بني جَذيمة بعد فتح مكة، وذلك في شهر شوال سنة 8 هـ حين بعث رسول الله ﷺ سرية يقودها خالد بن الوليد فيها ثلاث مئة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار إلى بني جذيمة في يلملم جنوب مكة، يدعوهم إلى الإسلام، فلما وصل أرضهم ودعاهم إلى الدين الحق جعلوا يقولون صبأنا ويعنون

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 266)، وإسناده على شرط البخاري.

أسلمنا إذ لم يكن يحسنون أن يعبروا بمصطلحات الإسلام، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ويظن أنهم يخدعونه بقولهم صبأنا. فكان بين خالد وعبد الرحمن كلامٌ وشرٌّ في ذلك، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأنَّبَ خالداً بعدما تبرأ من فعله بقوله ـ كما روىٰ البخاري عن سالم عن أبيه ـ: [اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالدٌ مرتين][1]. ولكنه لم يعزله ولم يعاقبه إذ كان متأولاً.

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. قال قتادة: (الجنة). ونصب «كُلاًّ» على إيقاع الفعل عليه، والتقدير: (وعد الله كلاً الحسنى). يعني المنفقين قبل الفتح وبعده، وإن كانوا يتفاوتون في الثواب.

وفي التنزيل: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير][2]. فعطف بمدح الآخر حتىٰ لا يظن ظان أنه مذموم، وإنما سبقه الأول بالعمل والثواب والتفضيل.

وفي سنن النسائي وصحيح ابن حبان بسند حسن من حديث أبي ذر، وأبي هريرة مرفوعاً: [سَبَقَ درهمٌ مئة ألف دِرهم: رجلٌ له دِرْهمَان أخذَ أحدَهما فتصدَّق به، ورجلٌ له مالٌ كثير فأخذ منْ عُرضِه مئة ألف فتصدّق بها][3].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: فلخِبْرَتِه فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذاكَ إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجَهْدِ والقلة والضيق).

وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. قال زيد بن أسلم: (هو النفقة على الأهل). وقال عمر بن الخطاب: (هو الإنفاق في سبيل الله). والآية عامة في كل إنفاق

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (4339) ـ كتاب المغازي. وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (1321) لتفصيل البحث.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم (2664)، وأحمد (2/ 366)، وابن ماجة (79)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (623)، (624)، وابن حبان (5721)، (5722)، وغيرهم.

(3) حديث حسن، أخرجه النسائي (5/ 59)، وابن خزيمة (2443)، ورواه ابن حبان (3347).

خالص لوجه الله في أيّ وجه من وجوه البر والخيرات. والعرب تقول لكل من فعل فعلاً حسناً: قد أقرض، وسمي القرض قرضاً، لأن القرض أخرج لاسترداد البدل. والبدل هنا الأضعاف الكثيرة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: ما بين السبع إلى سبع مئة إلى ما شاء الله من الأضعاف. قال القشيري: (والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس، يبتغي به وجه الله دون الرياء والسُّمعة، وأن يكون من الحلال).

ومن كنوز السنة العطرة في ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أيُّ الصَّدقةِ أعْظَمُ أجْراً؟ قال: أنْ تَصدَّق وأنت صحيح شحيحٌ تَخْشىٰ الفَقْرَ، وتأمل الغنىٰ، ولا تمهل حتىٰ إذا بلغت الحُلقوم، قُلْتَ: لفلانٍ كذا ولِفلانٍ كذا، وقد كان لفلان][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد وابن حبان والطبراني والحاكم بسند صحيح عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك: [أن رجلاً قال: يا رسول الله! إنّ لفلان نخلة، وأنا أقيم نخلي بها، فمره أن يعطيني إياها حتىٰ أقيم حائطي بها. فقال له النبي ﷺ: «أعطها إياه بنخلة في الجنة». فأبىٰ، وأتاه أبو الدحداح فقال: بِعْني نَخْلَكَ بِحائطي. قال: ففعل. قال: فأتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني قد ابتعتُ النخلة بحائطي، فاجعلها له، فقال النبي ﷺ: «كم من عَذْق دَوّاح لأبي الدحداح في الجنة» ـ مراراً. فأتىٰ امرأته فقال: يا أم الدحداح! اخرجي من الحائط، فإني بعته بنخلة في الجنة. فقالت: قد ربحت البيع. أو كلمة نحوها][2].

والعَذْق: النخلة. والدوّاح: العظيم الشديد العلو، وكل شجرة عظيمة: دوحة. وفي رواية للحديث عند ابن سعد من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ: [ربَّ عَذْقٍ مُذَلَّلٍ لابن الدَّحداحة في الجنة].

وفي رواية لمسلم عن جابر بن سمرة قال: [صَلّىٰ رسول الله ﷺ على ابن الدَّحْداح،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1419) ـ كتاب الزكاة. وأخرجه مسلم (1032)، وأبو داود (2865)، والنسائي (5/ 86)، وابن ماجة (2706)، وأحمد (2/ 231).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 146)، وابن حبان (2271 ـ موارد)، والطبراني في «المعجم الكبير» (22/ 300/ 763)، والحاكم (2/ 20) بإسناد صحيح على شرط مسلم. وانظر لرواية ابن سعد: «صحيح الجامع» (3484). ولرواية مسلم: صحيح مسلم (965) ـ كتاب الجنائز.

ثم أُتِيَ بفرس عُرْيٍ فَعَقَلَهُ ـ أي حبسه ـ رجُلٌ فَرَكِبَهُ ، فجعل يتوقَّصُ ـ أي يتوثب به ، ونحن نَتَّبِعُه نَسْعىٰ خَلْفَهُ قال: فقال رجلٌ من القوم: إن النبي ﷺ قال: «كمْ من عِذْقٍ مُعَلَّقٍ ـ أو مُدَلّىٰ ـ في الجنة لابن الدَّحْداح ـ أو قال شعبة ـ: «لأبي الدحداح»].

وللحديث شاهد من رواية عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم قال: [لما نزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . .﴾ جاء ابن الدحداح . .][1]. وشاهد آخر عند ابن أبي حاتم عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ ، قال أبو الدّحداح الأنصاري: يا رسول الله! وإنَّ الله ليريد منَّا القرضَ؟ قال: نعم ، يا أبا الدّحداح! قال: أرِنِي يدَكَ يا رسول الله! فناولَه يدَه ، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائِطي ـ وله حائطٌ فيه ستُّ مئة نخلة ، وأمُّ الدَّحداح فيه وعيالُها ، قال: فجاء أبو الدَّحداح فناداها: يا أمَّ الدَّحداح! قالت: لبيك. فقال: اخرُجي ، قد أقرضْتُهُ ربي ـ عزَّ وجلّ ـ. وفي رواية أنها قالت له: ربح بَيْعُكَ يا أبا الدَّحداح! ونَقَلت منه متاعَها وصِبيانَها].

وقد ثبت كذلك في صحيح الترمذي عن أنس قال: [لما نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92] أو ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: 11] قال أبو طلحة ، وكان له حائط: يا رسول الله حائطي لله ، ولو استطعت أن أسِرَّه لم أعلنه ، فقال: «اجعله في قرابتك ، أو أقْرَبيك»].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبادُ فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدُهما: اللهم! أعْطِ منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر: اللهم! أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً][2].

ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ: [إنَّ مَلَكاً بباب من أبوابِ الجنة يقول: مَنْ يُقْرِضِ اليوم يُجْزَ غداً. ومَلَكٌ بباب آخر يقول: اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً

---

(1) انظر: «المصنف» (5/ 406 ـ 407) ، و«المعجم الأوسط» للطبراني (1/ 101/ 1/ 2052) ، وكذلك «تخريج مشكلة الفقر» (76 ـ 120) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2964) ، وتفسير ابن كثير ـ حديث رقم ـ (6622) ، لرواية ابن أبي حاتم ، وصحيح الترمذي (2396) لحديث أنس.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (1442) ـ كتاب الزكاة ، وأخرجه مسلم (1010) ـ كتاب الزكاة ، باب في المنفق والممسك. ورواه الطبراني وابن حبان بلفظ مشابه. انظر صحيح الترغيب (1/ 905) ـ كتاب الصدقات.

تلفاً]. ورواه الطبراني مثل ابن حبان ، إلا أنه قال: «بباب من أبواب السماء».

قال النووي في شرح مسلم: (قال العلماء: هذا في الإنفاق في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك ، بحيث لا يذم ، ولا يسمىٰ سرفاً ، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا).

وقوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾. أي: يعطيه ثوابه أضعافاً مضاعفة، قد تتجاوز سبع مئة الضعف.

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾. قال القاسمي: (أي: جزاء شريف جميل. والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كَمُّهُ ، زاد كيفُهُ).

12 ـ 15. قوله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: مشهدُ النجاة للمؤمنين والمؤمنات والفوز العظيم ، ومشهد الذل والخزي والهوان على المنافقين والمنافقات يوم الدين.

فقوله: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾. أي: قدّامهم. قال الحسن: (يعني على الصراط). وقال عبد الله بن مسعود: (على قَدْر أعمالهم يمرّون على الصِّراط، مِنهم مَنْ نورُه مثل الجبل ، ومنهم مَنْ نورُهُ مثل النخلة ، ومِنهم مَنْ نورُه مثلُ الرجل القائم، وأدناهم نوراً مَنْ نورُه في إبهامه يَتَّقِدُ مرَّةً ويَطْفَأُ مرَّة). رواه ابن جرير في «التفسير».

قلت: والآية تعمّ النور على الصراط وفي عموم الموقف في المحشر يوم القيامة. فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، ونعيم بن حماد في «زوائد الزهد» بسند صحيح لغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: [قال رسول الله ﷺ: «أنا أَوَّلُ مَنْ يُؤْذَنُ له بالسجود يومَ القيامة ، وأنا أوّلُ من يرفع رأسَه ، فأنْظُر بين يَدَيَّ ، فأعرفُ أمتي من بين

الأمم ، ومن خَلْفي مِثْلُ ذلك ، وعن يميني مِثلُ ذلك ، وعن شِمالي مِثلُ ذلك». فقال رجل: كيف تَعرف أمتَك يا رسولَ الله من بين الأمم ، فيما بين نوحٍ إلى أمّتك؟ قال: هم غُرٌّ مُحَجَّلون ، مِنْ أثَرِ الوُضوء ، ليس لأحد ذلك غيرهم ، وأعرفُهم أنهم يؤتون كُتُبَهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعىٰ بين أيديهم ذُرِّيَّتُهم][1].

وفي رواية عند ابن أبي حاتم والحاكم: [أعرِفهم ، مُحَجَّلُون من أثر الوضوء ، ولا يكونُ لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يُؤتون كُتُبهم بأيمانهم ، وأعرفُهم بسيماهم في وجُوههم ، وأعرِفُهم بنُورهم يسعىٰ بين أيديهم وذرِّيتهم].

وفي رواية عند ابن المبارك ويحيىٰ بن إسحاق: [وأعرفهم بنورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم].

وقوله: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾. قال الضحاك: (أي: وبأيمانهم كتبهم ، يقول الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ، وأما نورهم فهداهم). وقال الفراء: (الباء بمعنىٰ «في» ، أي: في أيمانهم. أو بمعنى «عن» أي: عن أيمانهم). قال مقاتل: (ليكون دليلاً لهم إلى الجنة).

قال النسفي: (﴿يَسْعَىٰ﴾ يمضي ﴿نُورُهُم﴾ نور التوحيد والطاعات ، وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ووراء ظهورهم ، فيجعل النور في الجهتين شعاراً لهم وآية ، لأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا ، وبصحائفهم البيض أفلحوا ، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون ، سعىٰ بسعيهم ذلك النور).

يروي الحاكم والبيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة ، إلى أن قال: فَيُعْطَوْن نورهم على قدر أعمالهم ، وقال: فمنهم من يعطىٰ نورَه مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطىٰ نوره فوق ذلك ، ومنهم من يُعْطىٰ نوره مثلَ النخلة بيمينه ، ومنهم من يعطىٰ دون ذلك بيمينه حتىٰ يكون آخر من يعطىٰ نوره على إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ مرة ، إذا أضاء قدَّم قدمه ، وإذا طفىء قام. قال: فيمر ويمرون على الصراط ، والصراط كحد السيف ، دَحْضٌ ، مزَلة ، فيقال لهم: امضوا

(1) صحيح لغيره. أخرجه أحمد (5/ 199) ، ونعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (112/ 376) ورواه الحاكم (2/ 478) وصحّحه ، وبيّض له الذهبي. وأقوىٰ الروايات رواية عبد الله بن المبارك ويحيىٰ بن إسحاق فهي الأصح ، والباقي لا يخلو من تخاليط ابن لهيعة كما أفاد الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (1/ 180) ـ كتاب الطهارة ص (188).

على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشدِّ الرَّجل ، يَرْمُلُ رَمَلاً ، فيمرون على قدر أعمالهم ، حتىٰ يمر الذي نوره علىٰ إبهام قدمه ، تخرُّ يدٌ ، وتعلق يد ، وتخرّ رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجَّانا منك بعد أن أراناك ، لقد أعطانا الله ما لم يُعطَ أحدٌ)[1] .

ويروي ابن جرير بسند مرسل جيد عن قتادة قال: (ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدنٍ أو ما بين المدينة وصنعاء ، ودون ذلك ، حتىٰ يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه»)[2] .

وقوله: ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ .

أي: ويقال لهم: بشراكم اليوم دخول جنات الخلود تجري من تحتها الأنهار ، ماكثين فيها أبداً ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وقوله: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ .

انظرونا: من النظر وهو الانتظار ، أي: أمهلونا وأخرونا لنستضيء من نوركم. قال ابن عباس وأبو أمامة: (يغشىٰ الناس يوم القيامة ظلمة ، ثم يعطون نوراً يمشون فيه). وقال ابن عباس: (بينما الناس في ظلمة ، إذ بعث الله نوراً ، فلما رأىٰ المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأىٰ المنافقون المؤمنين قد انطلقوا ، تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذٍ: انظرونا نقتبس من نوركم ، فإنا كنا معكم في الدنيا. قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا هنالك النور).

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي ، حدثنا عَبْدَة بن سُلَيمان ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا صفوان بن عمرو ، حدثني سُلَيم بن عامر قال: (خرجنا على جنازة في باب دِمَشْقَ ، ومعنا أبو أمامةَ الباهلي ، فلما صُلِّيَ على الجنازة وأخذوا في دفنِها ، قال أبو أمامة: أيها الناس! إنكم قد أصبحتُم وأمسيتُم في منزلٍ تَقْتَسِمُون فيه الحسناتِ

---

(1) رواه الحاكم والبيهقي بطوله. ورواه ابن جرير في «التفسير» (33616) ـ مختصراً. وهو موقوف على ابن مسعود ، ولكن مثل هذا التفصيل عادة يكون في حكم المرفوع.

(2) مرسل. أخرجه الطبري (33614) بسند جيد عن قتادة ، وكرره (33615) عنه به.

والسيئات ، وتُوشِكونَ أن تظعَنُوا منه إلى منزلٍ آخر ، وهو هذا ـ يُشير إلى القبر ـ بيتِ الوحدةِ ، وبيتِ الظلمةِ وبيتِ الدُّود ، وبيتِ الضيق ، إلا ما وسَّع الله ، ثم تنتقِلُون منه إلى مواطنِ يوم القيامة ، فإنكم في بعض تلكَ المواطِن حين يغشىٰ الناسَ أمرٌ من الله ، فَتَبْيَضُّ وجوه وتَسْوَدُّ وجوهٌ ، ثم تنتقلون منه إلى منزلٍ آخرَ فتغشىٰ الناسَ ظلمةٌ شديدةٌ ، ثم يُقْسَمُ النورُ فيُعطىٰ المؤمن نوراً ، ويُتْرَكُ الكافرُ والمنافق فلا يُعْطيان شيئاً . وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه ، قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ . . إلى قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ ، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضي الأعمىٰ بنور البصير ، ويقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ ، وهي خدعة الله التي خَدَعَ بها المنافقين حيث قال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: 142]. فيرجعون إلى المكان الذي قُسِم فيه النورُ ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضُرِبَ بينهم بسور له بابٌ ، ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ . . الآية. يقول سُلَيم بن عامر: فما يزال المنافق مغترّاً حتىٰ يُقسم النُّور ، ويُميِّز الله بين المؤمن والمنافق) ـ ذكره ابن كثير.

وقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ . قال مجاهد: (كالحجاب في الأعراف). وقال قتادة: (السور: حائط بين الجنة والنار).

وقوله: ﴿بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ . قال ابن زيد: (الجنة وما فيها). وقوله: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ . قال قتادة: (أي النار). قال النسفي: (﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط حائل بين شق الجنة وشق النار. ﴿لَّهُۥ﴾ لذلك السور ﴿بَابٌۢ﴾ لأهل الجنة يدخلون منه ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ باطن السور أو الباب وهو الشق الذي يلي الجنة ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ أي: النور أو الجنة ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ ما ظهر لأهل النار ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ من عنده ومن جهته ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ أي: الظلمة أو النار).

وقوله: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ . أي: نشهد معكم الصلوات ، ونحضر الجمعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونسهم جميعاً بالغزوات؟! قال القرطبي: (أي ينادي المنافقون المؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا ، يعني نصلي مثل ما تصلون ، ونغزو مثل ما تغزون ، ونفعل مثل ما تفعلون).

وقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ . أي: فأجابهم المؤمنون ﴿بَلَىٰ﴾ قد كنتم معنا في الظاهر.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ . قال مجاهد: (النفاق ، وكان المنافقون مع

المؤمنين أحياء يناكحونهم ، ويغشَوْنهم ، ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويُعْطَوْنَ النور جميعاً يوم القيامة ، فيطفأُ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويُمازُ بينهم حينئذ). وقال بعض السَّلف: (أي: فتنتُم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات).

وقوله: ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾. أي: بالمؤمنين الدوائر. قال قتادة: (يقول: تربَّصُوا بالحق وأهله). وقيل: أخّرتم التوبة وسوّفتم فيها.

وقوله: ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾. أي: شككتم في التوحيد والوحي والنبوة والبعث بعد الموت. قال قتادة: (يقول: وشككتم في توحيد الله ، وفي نبوة محمد ﷺ).

وقوله: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ أي: الأباطيل والآمال الكاذبة الواهية. قال ابن عباس: (الدنيا). وقال قتادة: (كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتىٰ قذفهم الله في النار). وقال أبو سنان: (هو قولهم سيُغْفَرُ لنا). وقيل: غرّهم طول الأمل. وقيل: هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم. وقال بلال بن سعد: (ذكرك حسناتِك ونسيانك سيئاتك غِرّة).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾. يعني حتىٰ نزل بكم الموت. وقيل: حتىٰ جاء نصر الله لنبيّه ﷺ والمؤمنين. وقال قتادة: (﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: إلقاؤهم في النار).

وقوله: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾. قال مجاهد: (أي الشيطان). وقرأ أبو حَيوة ﴿الغُرور﴾ بضم الغين يعني الأباطيل ، وهو مصدر. والقراءة بالفتح أشهر. قال ابن جرير: (يقول: وخدعكم بالله الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة من عقوبته ، والسلامة من عذابه).

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله رضي الله عنه قال: [خَطَّ النبي ﷺ خَطّاً مُرَبَّعاً ، وخَطَّ خَطّاً في الوسَط خارِجاً مِنْهُ ، وخَطَّ خُطُطاً صِغاراً إلى هذا الذي في الوسَطِ مِنْ جانِبه الذي في الوسط ، فقال: «هذا الإنسانُ ، وهذا أَجَلُه محيطٌ به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارجٌ أَمَلُهُ ، وهذه الخُطَطُ الصّغارُ الأعراضُ ، فإنْ أَخْطأه هذا نَهَشَهُ هذا ، وإنْ أخطأه هذا نهشَه هذا»][1].

وأخرج أحمد في المسند عن علي بن زيد: حدثني من سمع أبا هريرة يقول: قال

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6417) ـ كتاب الرقاق ، وانظر كذلك (6418).

رسول الله ﷺ: [يا ابن آدم! اعمل كأنك ترىٰ، وعُدَّ نفسك مع الموتىٰ، وإياك ودعوة المظلوم][1].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: [أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل][2]. وكان ابن عمر يقول: [إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك].

وقوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. قال قتادة: (يعني المنافقين، ولا من الذين كفروا). أي: لو افتدىٰ أحدهم من العذاب بملء الأرض ذهباً ما نفعه. قال القرطبي: (أيأسهم من النجاة).

وقوله: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾. أي: مثواكم ومسكنكم الذي خُصِّص لمستقركم يوم القيامة النار.

وقوله: ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾. أي: هي أولىٰ بكم من كل منزل، فهي تناسب إصراركم على الكفر والنفاق والارتياب. والمولىٰ في كلام العرب: من يتولىٰ مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازماً للشيء.

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. أي: ساءت مرجعاً ومستقراً ومصيراً. قال ابن جرير: (يقول: وبئس مصير من صار إلى النار).

16 ـ 17. قوله تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: استبطاءُ الله تعالىٰ الخشية في قلوب المؤمنين، إنه تعالىٰ هو المحيي القلوب والأرض الميتة وهو أعلم بالمتقين.

---

(1) حديث حسن في الشواهد. أخرجه أحمد في المسند (2/ 343)، وانظر «الحلية» (3/ 301).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 195)، وأحمد نحوه (2/ 24)، (2/ 41)، وأبو نعيم في «الحلية» (3/ 301)، وابن عدي في «الكامل» (73/ 2).

فقوله: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾. قال ابن عباس: (تطيع قلوبهم).

قال ابن كثير: (يقول تعالىٰ: أما آنَ للمؤمنين أن تخشع قلوبُهم لذكر الله، أي: تلينُ عند الذِّكر والموعظة وسَمَاع القرآن، فتفهَمُه وتنقادُ له وتسمعُ له وتُطيعُه).

يروي ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن المبارك قال: حدثنا صالح المرّي، عن قتادة، عن ابن عباس أنه قال: (إن الله استبطأ قُلوب المهاجرين فعاتبَهُم على رأس ثلاثَ عشرةَ من نزول القرآن، فقال: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية).

وفي صحيح مسلم عن عونِ بن عبد الله، عن أبيه، أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه قال: [ما كان بَيْنَ إسْلامنا وبَيْن أنْ عاتَبَنا الله بهذه الآية: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ إلا أرْبَعُ سِنينَ][1].

ورواه ابن ماجة عن أبي حازم، أن عامر بن عبد الله بن الزبير أخبره، أنّ أباه أخبره: [أنَّهُ لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية، يعاتبهم الله بها إلا أربع سنين ﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾][2].

وفي معجم الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: [أولُ شيء يُرفَعُ منْ هذه الأمة الخشوع، حتىٰ لا ترىٰ فيها خاشعاً][3].

وقوله: ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾. قال ابن جرير: (هو هذا القرآن الذي نزله على رسوله ﷺ).

وقوله: ﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

قال مجاهد: (الأمد: الدهر). قال ابن مسعود: (إنّ بني إسرائيل لما طال عليهم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3027) ـ كتاب التفسير، عند هذه الآية [الحديد: 16].

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4192) ـ كتاب الزهد. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3380).

(3) حديث صحيح. أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (2813)، وقال الهيثمي: إسناده حسن. وفي الباب عن عوف بن مالك، أخرجه أحمد (6/ 26 ـ 27) ح (23470) بإسناد لا بأس به.

الأمد قست قلوبهم ، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم استحلَّته أنفسهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم ، حتىٰ نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون).

قال النسفي: (ويجوز أن يكون نهياً لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وُبِّخُوا ، وذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره).

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ . أي: وكثير من هؤلاء الذين أوتوا الكتاب من قبل أمة محمد ﷺ خارجون عن دينهم ، نابذون لما في كتابهم.

قلت: وفي الآية تحذير لهذه الأمة من التشبه بالذين حملوا الكتاب من قبلهم حملاً هزيلاً ، فلما طال عليهم الأجل والإمهال والاستدراج قست قلوبهم لزوال الخشية والروعة التي كانت تنبعث لهم من الكتابين ، فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال في دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فصار الدين المحرّف يماشي الأهواء والشهوات ، ويبرّر ركوب المعاصي والموبقات ، حتىٰ وصلوا إلى هيئة من الأعراف المخالفة للشريعة يعظمونها فيما بينهم ، وهم في ما تعارفوا عليه نابذون لشرع الله خارجون عن ميزانه وضوابطه.

أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن أبي عامر (عبد الله بن يحيىٰ) قال: [حَجَجْنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلىٰ صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إنّ أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإنّ هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة ـ وهي الجماعة ـ وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارىٰ بهم الأهواء كما يتجارىٰ الكلب بصاحبه ، لا يبقىٰ منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيّكم ﷺ ، لغيركم من الناس أحرىٰ أن لا يقوم به][1].

---

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (4/ 102) ، (2/ 332) ، وسنن أبي داود (2/ 503 ـ 504) واللالكائي في «شرح السنة» (1/ 23/ 1) ، ورواه بنحوه الحاكم (1/ 128) ، والدارمي (2/ 241) ، والآجري في «الشريعة» (18). وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (204).

قال ابن القيم: (وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً غريبة بين اثنين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟ فإن نفس ما جاء به يضاد أهواءهم ولذاتهم وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهىٰ فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غاية مقاصدهم وإرادتهم؟).

وقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾. أي: يحيي الأرض اليابسة بعد موتها بالمطر. وقال صالح المري: (المعنىٰ يلين القلوب بعد قساوتها). وقال جعفر بن محمد: (يحييها بالعدل بعد الجور). وقيل: المعنىٰ فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة. قال ابن كثير: (وقوله تعالىٰ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾: فيه إشارة إلى أنه ـ تعالىٰ ـ يُلينُ القلوبَ بعد قسوتها، ويَهدِي الحَيَارىٰ بعد ضَلَّتِها، ويُفَرِّجُ الكروب بعد شِدَّتِها، فكما يُحيي الأرض الميّتة المُجْدبة الهامِدة بالغيث الهَتَّان، كذلك يَهدي القلوبَ القاسِية ببراهين القُرآن والدَّلائل، ويُولجُ إليها النُّور بعدما كانت مُقْفَلَةً لا يَصِلُ إليها الواصِل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمُضِلّ لمن أراد بعد الكَمَال، الذي هو لما يشاءُ فعَّالٌ، وهو الحَكَمُ العدلُ في جميع الفعَال، اللطيف الخبير الكبيرُ المتعال).

وقوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾. قال القاسمي: (﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي الحجج وضروب الأمثال ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: لتثوبوا إلى عقولكم ومراشدكم).

18 ـ 19. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالىٰ على المصدقين والمصدقات والوعد لهم بالأجر الكريم، وبيانُ أنَّ الصدق في الإيمان بالله ورسله يوصل إلى مرتبة الصديقين. والشهداء منازلهم خاصة بهم وأما الكفار فهم أصحاب الجحيم.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾. قال القرطبي: (أي المتصدقين والمتصدقات، فأدغِمت التاء في الصاد. قال: وهو حثٌّ على الصدقات).

وقوله: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. قال الحسن: (كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع). وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسباً صادقاً.

قلت: والأشهر أن القرض الحسن يكون في مفهوم النفقة والإعانة في سبيل الله. قال ابن جرير: (﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني بالنفقة في سبيله، وفيما أمر بالنفقة فيه، أو فيما ندب إليه).

وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾. أي: يضاعف الله لهم ثواب تلك القروض الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

أخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: [إن السَّلف يجري مجرىٰ شطر الصَّدَقة][1]. والسَّلَفُ: هو القرض الذي لا منفعة للمقرض فيه.

وأخرج ابن حبان بسند حسن في الشواهد عن الأسود بن يزيد عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً: [من أقرض مرتين كان له مثلُ أجر أحدهما لو تصدَّق به][2].

وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. أي: ولهم مآل كريم، ومستقر رفيع في الجنة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾. فيه أقوال حسب تأويل موقع «الشهداء» من العطف أو الاستئناف.

1 ـ قال ابن عباس: (﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ قال: هذه مفصولة ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾). وقال أبو الضُّحا: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، ثم استأنف الكلام فقال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾).

2 ـ قال مسروق، عن عبد الله في قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: (هم ثلاثة أصناف: يعني المصدِّقين، والصدّيقين، والشهداء).

3 ـ قال مجاهد: (﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: بالإيمان على أنفسهم بالله). قيل: فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء.

---

(1) أخرجه أحمد (1/ 412)، وأبو يعلىٰ (3/ 1298)، ورجاله ثقات. انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (1553) ـ فضل القرض الحسن وأنه يعدل التصدق بنصفه.

(2) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1155)، والطبراني في «المعجم الكبير» (3/ 68/ 1) بسند لا بأس به في المتابعات، وأخرجه ابن عدي (212/ 2)، وغيرهم.

قلت: والآية فيها من بديع الإعجاز الكثير ما يحتمل جَمْعَ هذه المعاني الطيبة المختلفة:

أ ـ مقام الصديقية أعلى من مقام الشهادة:

فإن الطائفة المنصورة حملة لواء هذا الدين من المؤمنين بالله ورسوله هم الصديقون الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين، والصالحون يتلون الشهداء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: 69]. ففرّق بين الصديقين والشهداء، فهما صنفان متمايزان، ومقام الصديقيّة أعلىٰ من مقام الشهادة.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إنَّ أهل الجنة ليتراءَوْنَ أهل الغرف من فوقهم، كما تراءَون الكوكب الدُّرِّيَّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلىٰ، والذي نفسي بيده، ورجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين][1].

ب ـ مقام الجهاد والشهادة في سبيل الله في الذِّروة العليا مِن مراتب الإسلام ومنازل الجنان.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: 20 ـ 22].

أخرج البخاري وأحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ في الجنة لمئة درجة، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله][2].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: [أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بشيء يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيع. قال: أخبرني؟ قال: هل تستطيع إذا خرج

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256)، ومسلم (2831)، وابن حبان (7393).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 9)، (6/ 10)، في الجهاد، وأخرجه أحمد (2/ 335).

المجاهدُ أن تصومَ لا تُفطر ، وتقوم لا تفتر؟ قال: لا. قال: فذلك الذي يعدل الجهاد][1].

وفي المسند ومستدرك الحاكم بسند حسن عن ابن عباس مرفوعاً: [الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ، في قُبّةٍ خضراء ، يخرج عليهم رزقُهم من الجنة بُكرةً وعشياً][2].

ج ـ أهل الصدق في الإيمان ـ من هذه الأمة ـ هم أهل الشهادة على الناس يوم القيامة. قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

أخرج الإمام أحمد والبخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: [يجيء النبيّ يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبيّ ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الثلاثة ، وأكثر من ذلك ، فيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم ، فيُدعىٰ قومُه ، فيقال لهم: هل بَلَّغكُم هذا؟ فيقولون: لا ، فيُقال له: مَنْ يَشْهَدُ لكَ؟ فيقول: محمد وأمتُه ، فيُدعىٰ محمد وأمتُه ، فيُقال لهم: هل بَلَّغَ هذا قومه؟ فيقولون: نعم ، فيُقال: وما عِلْمُكم بذلك؟ فيقولون: جاءَنا نبيُّنا ، فأخبرنا أن الرسل قد بَلَّغوا فصدَّقناه ، فذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾][3].

وقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾. قال القرطبي: (أي لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم).

والمقصود: لهم يومئذ الأجر الجزيل والنور العظيم الذي يسعىٰ بين أيديهم حسب تفاوت أعمالهم.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

هو ذكر حال الأشقياء ، بعد تفصيل أصناف السعداء. فإن أهل الكفر بالله والتكذيب بالوحي والنبوة والمعجزات لا أجر ولا نور لهم ، وإنما النار مثوىٰ لهم.

20 ـ 21. قوله تعالىٰ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (6/ 35) ، ورواه الترمذي في السنن. انظر صحيح سنن الترمذي (1320) ـ أبواب فضائل الجهاد.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد والطبراني والحاكم بسند حسن. انظر صحيح الجامع (3636).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6/ 286) ، وأحمد (2/ 32) ، وانظر صحيح الجامع (7889).

بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالىٰ الدنيا وفساد مناهج أهلها أهل اللهو واللعب والزينة والتفاخر بالزائل الفاني. وحثُّ الله تعالىٰ عباده على التسابق في طلب المغفرة والجنة ومنازل أهل المعالي.

فقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾. ـ توهين وتحقير لشأن الدنيا وزينتها الفانية وغرورها الزائل. قال قتادة: (﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: أكل وشرب). وقال مجاهد: (كل لعب لهو). وقيل: اللعب ما رغَّب في الدنيا، واللهو ما ألهىٰ عن الآخرة. وقيل: اللعب الاقتناء، واللهو النساء.

قال القاسمي: (﴿لَعِبٌ﴾ أي تفريح نفس ﴿وَلَهْوٌ﴾ أي باطل ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي منظر حسن ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي: في الحسب والنسب). وقال النسفي: (﴿لَعِبٌ﴾ كلعب الصبيان ﴿وَلَهْوٌ﴾ كلهو الفتيان ﴿وَزِينَةٌ﴾ كزينة النسوان ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ كتفاخر الأقران ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ كتكاثر الدهقان[1] ﴿فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي مباهاة بهما، والتكاثر ادعاء الاستكثار). وقال القرطبي: (﴿وَزِينَةٌ﴾ الزينة ما يتزين به، فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة، وكذلك من تزين في غير طاعة الله. ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ أي يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخلقة والقوة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء. قال: وجه الاتصال ـ يعني في الآية وما قبلها ـ أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفاً على نفسه من القتل، وخوفاً من لزوم الموت، فبين أن الحياة الدنيا منقضِية فلا ينبغي أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقىٰ. و﴿وَمَا﴾ صلة، تقديره: اعلموا أنّ الحياة الدنيا لعب باطل ولهو فرحٍ ثم ينقضي).

قلت: وهذه الآية خير تعريف لحقيقة هذه الحياة الدنيا في أمثل تشبيه.

---

(1) الدهقان: التاجر. فارسي معرب.

وفي التنزيل: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7].

وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة][1].

وفي صحيح مسلم ـ أيضاً ـ عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه خطبهم فقال: [إنَّ الله أوحىٰ إليَّ أن تواضعوا، حتىٰ لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد][2].

وفي سنن ابن ماجة بسند حسن عن أبي الدرداء قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال: آلفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبّاً، حتىٰ لا يُزيغَ قلب أحدكم إزاغة إلا هِيَهْ، وايم الله لقد تركتم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء][3].

وفي صحيح ابن حبان ومسند أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً: [ما أخشىٰ عليكم الفقر، ولكني أخشىٰ عليكم التكاثر، وما أخشىٰ عليكم الخطأ، ولكني أخشىٰ عليكم التعمُّد][4].

وقوله: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾. أي: مطر. ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾. الكفار هنا: الزرّاع، وأصل ذلك من الكفر وهو التغطية، فهم يغطّون البذر. وقيل: الكفار هنا الكافرون بالله عز وجل، لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا من المؤمنين، فهم يعظمونها حرصاً على شهواتهم ومصالحهم. قال ابن كثير: (﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾، أي: يُعجِبُ الزُّرَّاعَ نباتُ ذلك الزرع الذي نبتَ بالغيث، وكما يُعْجِبُ الزرَّاع ذلك كذلك تُعْجِبُ الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرصُ شيءٍ عليها وأمْيَلُ الناس إليها).

وقوله: ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾. أي: ثم يجف بعد خضرته ويتغيّر من النضرة إلى

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (3/ 45)، والبيهقي (4/ 63)، وغيرهما.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 160)، ورواه أبو داود وابن ماجة ـ في أثناء حديث طويل.
(3) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (5)، وإسناده حسن، رجاله كلهم ثقات.
(4) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2479)، والحاكم (2/ 534)، وأحمد (2/ 308)، وإسناده صحيح على شرط مسلم. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2216).

الصفرة. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ثم ييبسُ ذلك النبات ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد أن كان أخضر نضراً).

وقوله: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾. أي: ثم يصير يابساً متحطماً. والمقصود: إنما مثل الحياة الدنيا كذلك: شباب فاكتهال فعجز وشيخوخة. فالشباب مليء بالجمال والقوة، والكهولة مرحلة متوسطة تنفدُ فيها بعض قوىٰ الشباب وتتغير بعض الطباع، والشيخوخة ضعف في الهمة والحركة. كما قال تعالىٰ: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54].

أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [اغتنم خمساً قبل خمس: حياتكَ قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك][(1)].

فإذا وهبك الله عقلاً سديداً فأشغله بالعلم والقرآن، وإذا وهبك قوة وسلامة في البدن والجوارح فبادر إلى الطاعات والصدقات والقيام، وخذ من الليل إن استطعت قبل أن لا تستطيع القيام، واعلم أن الله قد يخذل من استطاع وضيَّعَ العمر باللهو وارتكاب الحرام، فلا يوفقه للنطق بالشهادة عند الاحتضار في لحظات الختام، ويحرمه من لذة النظر إلى وجهه يوم القيامة كما يحرمه نعمة الأمن هناك والأمان.

كما خرَّج البخاري في صحيحه من حديث جرير رضي الله عنه قال: [كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلةً فقال: إنكم سترون ربَّكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامونَ في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: 39]][(2)].

وقوله: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾. قال قتادة: (صار الناس إلى هذين الحرفين في الآخرة). أي: ليس في الآخرة إلا هذا أو هذا: عذاب شديد مهين، أو مغفرة ورضوان ونعيم مقيم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد عن عمرو بن ميمون مرسلاً. والحاكم والبيهقي عن ابن عباس مرفوعاً. انظر: صحيح الجامع (1088)، وتخريج أحاديث «اقتضاء العلم» (170).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (554) ـ كتاب مواقيت الصلاة. باب فضل صلاة العصر.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾. قال القرطبي: (هذا تأكيد ما سبق، أي تغرّ الكفار، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة. وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيداً في العمل للدنيا، وترغيباً في العمل للآخرة).

وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: [والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يَجْعَلُ أحدكُم إِصْبَعَهُ هذه ـ وأشار يحيىٰ بالسّبابة ـ في اليَمّ، فينظر أحدُكم بِمَ تَرْجِعُ؟][1].

وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. حثٌّ على المبادرة إلى الخيرات، وفعل الطاعات وترك المحرمات، وما يكون فيه غفران الزلات والعثرات.

وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قال السدي: (كعرض سبع السماوات وسبع الأرضين). وقال الحسن: (يعني جميع السماوات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها). قلت: والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب التعبير عن سعة الشيء بعرضه دون طوله، ومنْ ثمّ فإذا كان عرض جنة النعيم بهذه السعة فتأمّل كيف يكون مقدار طولها!! وتفسير الحسن والسدي منسجم مع الآية الأخرىٰ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133].

وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾. أي: هي قد خُصِّصَت لأهل الصدق في الإيمان، ومتابعة الرسل عليهم الصلاة والسلام. والآية دليل على أنها مخلوقة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾. قال النسفي: (وهم المؤمنون، وفيه دليل على أنه لا يدخل أحدٌ الجنة إلا بفضل الله).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: [إنّ فقراءَ المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: قد ذهب أهل الدُّثور[2] بالدرجات العُلا، والنعيم المقيم. فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلونَ كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نُعتقُ. فقال رسول الله ﷺ: أفلا أُعلّمكم شيئاً تُدركون به من سبقكم، وتسبقون به مَنْ بَعدكم، ولا يكونُ أحدٌ أفضلَ مِنكم، إلا مَنْ صنعَ مثلَ ما صنعتُم؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله! قال: تُسبِّحون، وتكبّرون، وتحمدون دُبُرَ كل صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين مرّة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2858) ـ كتاب الجنة ونعيمها. وأخرجه أحمد (4/ 228).

(2) الدثور: جمع دَثْر، وهو المال الكثير.

قال أبو صالح[1]: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقال: سمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء][2].

وفي الصحيحين، وسنن ابن ماجة ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قاربوا وسَدِّدوا. فإنه ليس أحدٌ منكم بِمُنْجيهِ عَمَلُهُ. قالوا: ولا أنت؟ يا رسول الله! قال: ولا أنا. إلا أن يتغمَّدَني الله برحمةٍ منه وفضل][3].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. قال ابن جرير: (وهو ذو الفضل العظيم عليهم، بما بسط لهم من الرزق في الدنيا، ووهب لهم من النِّعم وعرَّفهم موضع الشكر، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعة ما وصف أنه أعَدَّه لهم).

22 ـ 24. قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تقديرُ الله تعالىٰ المصائب والآلام، وكل شيء قد قَدَّره سبحانه قبل خلق الأنام، لكيلا تأسوا على ما فاتكم عبر الأيام، وأهل البخل والإعراض مآلهم إلى الخزي والخسران.

فقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

قال ابن عباس: (هو شيء قد فرغ منه من قبل أن نبرأ النفس). وعن قتادة: (﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أما مصيبة الأرض: فالسنون. وأما في أنفسكم: فهذه الأمراض والأوصاب ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾: من قبل أن نخلقها).

---

(1) هو راوي الحديث عن أبي هريرة، واسمه ذكوان السمان، ثقة ثبت، توفي سنة (101).

(2) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (595) ـ كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، وبيان صفته.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4/ 48)، ومسلم (8/ 140)، وسنن ابن ماجة (4201).

وقال ابن زيد: (المصائب والرزق والأشياء كلها مما تحبّ وتكره فرغ الله من ذلك كله قبل أن يبرأ النفوس ويخلقها). فالضمير في ﴿ نَّبْرَأَهَآ ﴾ يعود على النفوس أو على المصيبة ، والأحسن عوده على الخليقة والبرية.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، والإمام أحمد في مسنده ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كَتَبَ الله مقاديرَ الخلائق قبلَ أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وَعَرْشُه على الماء][1].

وفي لفظ أحمد: [قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألفِ سنة].

قلت: والآية ردٌّ على القدرية الذين يقولون لا قدر ، وعلىٰ الذين يخوضون في القدر دون علم ولا يثبتون العلم السابق لله. فإن كل نازلة مكتوبة ، وكل مصيبة بذنب ، وما يدفع الله أكثر.

ففي التنزيل: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورىٰ: 30].

وفي معجم الطبراني «الصغير» بسند حسن عن البراء بن عازب مرفوعاً: [ما اخْتَلَجَ عِرْقٌ ولا عَيْنٌ إلا بِذَنْبٍ ، وما يَدْفَعُ الله عنه أكثر][2].

وقوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾. قال ابن كثير: (أي: إنَّ علمه تعالىٰ الأشياء قَبْل كَونِها وكتابَتِه لها طِبْقَ ما يُوجَدُ في حينها سَهْلٌ على الله ـ عزّ وجل ـ لأنه يعلمُ ما كان وما يكونُ ، وما لم يكنْ لو كان كيف كان يكون).

وقوله: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾. أي: أعْلَمناكم بسبق عِلْمِنا وتَقَدُّم كتابتنا ، فإنَّ ما أصابكم أيها الناس من مصيبة في أموالكم أو أنفسكم فإنه مكتوب عليكم قبل خلقكم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فلم تدركوه منها ، ولا تفرحوا بما آتاكم منها فَمَلَّكَكُم وخَوَّلَكُم.

قال ابن عباس: (﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ ﴾ قال: الصبر عند المصيبة ، والشكر

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2653) ـ كتاب القدر ، وأخرجه أحمد (2/ 69) ، والترمذي (2156) ، ورواه ابن حبان (6138).

(2) حديث حسن. رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (1053) ، وانظر السلسلة الصحيحة (2215).

عند النعمة). وقال: (ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، وغنيمته شكراً). وقال ابن زيد: (لا تأسوا على ما فاتكم من الدنيا ، ولا تفرحوا بما آتاكم منها). وقال سعيد بن جبير: (﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾: من العافية والخصب).

وقراءة العامة ﴿آتاكم﴾ أي: أعطاكم من الدنيا ، وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو ﴿أَتاكم﴾ أي: جاءكم. وهما قراءتان صحيحتان ، والمدّ أشهر ، واختاره ابن جرير.

وخلاصة المعنى: المؤمن يوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فهو يتقلب بين منزلتي الصبر والشكر ، ويعلم أنّ الله قد فَرَغ من كتابة كل شيء وَعَلِمَهُ.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والترمذي في الجامع ، بسند صحيح عن عبادة بن الوليد بن عبادة قال: [حدثني أبي قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي ، فقال: أجلسوني ، فلما أجلسوه قال: يا بني إنك لم تطعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتىٰ تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أوَّلَ ما خلقَ الله القلم ، ثم قال له: اكتب ، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. يا بني إن مت ولست على ذلك دَخلت النار][1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. أي: لا تتخذوا نعمة الله عليكم أشراً وبطراً ، تفخرون بها على الناس. قال القرطبي: (والحزن والفرح المنهيّ عنهما هما اللذان يتعدّىٰ فيهما إلى ما لا يجوز ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي متكبّر بما أوتي من الدنيا ، فخور به على الناس).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37].

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 317) ، والترمذي في «التفسير» (2/ 232).

2 ـ وقال تعالىٰ ـ في وصية لقمان لابنه ـ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: 18].

وفي الصحيحين عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ألا أخبركم بأهل النار؟ كلّ عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر][1].

وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [بينما رجل يمشي في حلّة تُعْجِبُهُ نفسُه، مُرَجِّلٌ رأسَه، يختال في مِشْيَتِهِ، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة][2].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ﴾. قال سعيد بن جبير: (﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ يعني بالعلم ﴿ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ﴾ أي: بألا يعلِّموا الناس شيئاً). وقال زيد بن أسلم: (إنه البخل بأداء حق الله عز وجل). وقيل: إنه البخل بالصدقة والحقوق ـ قاله: عامر بن عبد الله الأشعري ـ. وقال طوس: (إنه البخل بما فيه يديه).

وهذه الأقوال متقاربة في المعنىٰ. والمقصودُ: ذمّ الذين يفعلون المنكر ويحضّون عليه.

قال النسفي: (﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من ﴿ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ كأنه قال: لا يحب الذين يبخلون ـ يريد الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالاً وحظاً من الدنيا، فلحبّهم له وعزّته عندهم يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به ـ ﴿ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ﴾: ويحضون غيرهم على البخل ويرغبونهم في الإمساك).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: 8 ـ 11].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16].

وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم، فإن الظلم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (8/ 507 ـ 508)، (10/ 408)، ومسلم (2853).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 221)، (10/ 222)، وأخرجه مسلم (2088).

ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشُّحَ ، فإن الشّحَ أهلك من كان قبلكم ، حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][1].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. أي: ومن يعرض عن طاعة ربه وتعظيم أوامره فإن الله هو الغني عن عباده ، الحميد إلى جميع خلقه بوفير نعمه عليهم. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: ومن يدبر معرضاً عن عظة الله ، تاركاً العمل بما دعاه إليه من الإنفاق في سبيله ، فرحاً بما أوتي مختالاً به فخوراً بخيلاً ، فإن الله هوالغني عن ماله ونفقته ، وعن غيره من سائر خلقه ، الحميد إلى خلقه بما أنعم به عليهم من نعمه).

25. **قوله تعالىٰ:** ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذه الآية: إرسالُ الله تعالىٰ الرسل الكرام ، بالبينات والكتب والميزان ، والله تعالىٰ وعد بالنصر لأوليائه الصالحين الكرام.

فقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾. أي: بالمعجزات الواضحات ، والحجج القاطعات ، والشرائع الظاهرة ذات الدلائل الباهرة.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾. أي: الكتب ، فيها النقل الصدق والخبر الصحيح. قال النسفي: (﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الوحي).

وقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾. قال قتادة: (الميزان: العدل). وقال ابن زيد: (﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ بالحق ، قال: الميزان: ما يعمل الناس ، ويتعاطون عليه في الدنيا من معايشهم التي يأخذون ويعطون ، يأخذون بميزان ، ويعطون بميزان ، يعرف ما يأخذ وما يعطي. قال: والكتاب فيه دين الناس الذي يعملون ويتركون ، فالكتاب للآخرة ، والميزان للدنيا).

فالميزان: أداة الضبط وآلة التمييز ، وهو الحق الذي فطر الله القلوب والعقول

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2578) ـ كتاب البر والصلة.

عليه ، فبه يتميز الحق من الباطل ، وبه تقاس الأمور وتُحاكَم ، وبه يُنْصَف المظلوم .

وفي التنزيل : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : 7 ـ 9] .

وفي صحيح مسلم عن جابر ، أنّ رسول الله ﷺ قال : [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشّح فإن الشّح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم](1) .

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء](2) .

وقوله : ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ . أي : ليعمل الناس بينهم بالعدل ـ في معاملاتهم وعلاقاتهم ، وليُحَكِّمُوا الشرع الحنيف الذي يقوم على الحق والعدل .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ .

الحديد يُخلق في المعادن ، والمعادن إنما تكون في الجبال ، فالحديد ينزله الله من معادنه التي في الجبال ، لينتفع به بنو آدم .

وقوله : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ . يعني فيه قوة شديدة . قال ابن تيمية : (أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه ، الذي به يُنْصر الله ورسوله ﷺ) .

فائدة : الجمع في الآية بين الكتاب والميزان والحديد منسجم غاية الانسجام ، فالكتاب فيه الوحي العظيم ، الذي يضمن لمن اهتدىٰ بهديه سعادة الدارين . والميزان فيه قواعد الشريعة وأصول الحكم ورفع المظالم والفصل بين المتخاصمين . والحديد فيه ردعٌ لمن اختار الفساد والباطل والظلم ، فيكون في بأسه وقوته حراسة للحق والعدل والدين .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : [بُعثت بين يدي الساعةِ بالسيف ، حتىٰ يُعبَد الله وحده لا شريك له ، وَجُعل رزقي

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2578) ـ كتاب البر والصلة .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم ـ حديث رقم ـ (2582) ـ الباب السابق . والجلحاء : التي لا قرن لها .

تحت ظلِّ رمحي ، وجعلت الذلّة والصَّغار على من خالف أمري ، ومن تَشَبَّهُ بقوم فهو منهم][(1)] .

وأخرج النسائي وابن ماجة بسند حسن ، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [حَدٌّ يُعْمَلُ به في الأرض ، خَيْرٌ لأهل الأرض مِنْ أَنْ يُمطروا أربعين صباحاً][(2)] .

قال شيخ الإسلام رحمه الله ـ معلقاً على هذا الحديث ـ: (وهذا لأن المعاصي سبب لنقص الرزق والخوف من العدو ، كما يدل عليه الكتاب والسنة ، فإذا أقيمت الحدود ظهرت طاعة الله ونقصت معصية الله تعالىٰ ، فحصل الرزق والنصر)[(3)] .

قلت: فإن حمل الناس على الوقوف عند حدود الله وتعظيم حرمات الله هو من مقاصد الحكم في الإسلام ، ومن ثمّ فإن تشريع الحدود إنما جاء لتحقيق هذا الهدف النبيل ، وإنما تحمل العقوبات الشرعية الخير للناس في دنياهم وأخراهم. وبعض الناس لا يصلح إلا بالقوة ، وبعضهم لا يصلحه إلا اللين والسماحة ، وبين الفئتين قوم ينفع معهم تحكيم الميزان. فكان في الكتاب والميزان والحديد ما يغطي أحوال الناس وطبائعهم وسلوكهم.

وقوله: ﴿ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾. قال ابن كثير: (أي: في معايشهم كالسِّكة والفَأس والقَدوم ، والمِنشار ، والإزْميل ، والمجْرفة ، والآلات التي يُستعان بها في الحِراثة والحِياكة والطبخ والخَبْز ، وما لا قَوام للناس بدونه ، وغير ذلك).

وقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾. اختبار الله تعالىٰ عباده في غاية حمل السلاح. والآية عطف على محذوفٍ دلّ عليه ما قبله. والتقدير: أنزل الله سبحانه الحديد لينتفعوا به ، ويستعملوه في الجهاد ، وليعلم الله من يصدق نصر الله ورسله عند البأس. أو يكون التقدير: أنزل الله تعالىٰ الكتاب والميزان والحديد اختباراً لعباده في حراسة الدين وسياسة الدنيا به.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (2/ 50) ، (2/ 92) ، والطحاوي في «المشكل» (231) ، وابن أبي شيبة (5/ 313) ، وله شواهد.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (2/ 111) ، والنسائي (2/ 257) ، وأحمد (2/ 402) ، وأخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (287/ 1). وانظر السلسلة الصحيحة (231).

(3) انظر: «السياسة الشرعية» ـ ابن تيمية ـ ص (68). وكتابي: «السياسة الشرعية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة» (166 ـ 168).

وعن ابن عباس: (﴿ يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قال: ينصرونهم لا يكذبونهم، ويؤمنون بهم ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: وهم لا يرونهم). وقيل: ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: بالإخلاص.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾. أي: إن الله قوي على نصر دينه ورسله وأوليائه، ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي: منيع غالب قاهر لأعدائه، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم أيها الناس ببعض، وهو ـ تعالىٰ ـ غير محتاج إلى من ينصره أو ينصر دينه.

قال ابن جرير: (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ يقول تعالىٰ ذكره: إن الله قوي على الانتصار ممن بارزه بالمعاداة، وخالف أمره ونهيه، عزيز في انتقامه منهم، لا يقدر أحد على الانتصار منه مما أحل به من العقوبة). وقال النسفي: (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ﴿ عَزِيزٌ ﴾ يربط بعزته جأش من يتعرض لنصرته).

26 ـ 27. قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إرسالُ الله تعالىٰ نوحاً وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وجعلُ النبوة والكتاب في سلالتهما للمصطفين الكرام، وثناؤه تعالىٰ على عيسىٰ بن مريم وأتباعه الصادقين أهل الإحسان، وذمّ أهل الابتداع في الدين والتنطع وأهل الفسق اللئام.

فقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾.

إخبار من الله تعالىٰ أنه منذ بعث نوحاً وإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ لم ينزل كتاباً أو يرسل رسولاً أو يوحي لبشر إلا من سلالتهما حتىٰ كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسىٰ بن مريم الذي بشر من بعده بنبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. قال القرطبي: (﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: جعلنا بعض ذريتهما

الأنبياء، وبعضهم أمماً يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان). وقال ابن عباس: (الكتاب الخط بالقلم).

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾. أي: فمن ذرية إبراهيم ونوح مهتد إلى الحق مستبصر سبيل الرشاد والنجاة. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: كافرون خارجون عن الطاعة.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾. أي: ثم أتبعنا على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم في أقوامهم: كموسىٰ وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم.

وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾. أي: وأتبعنا بعيسىٰ ـ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ـ وآتيناه الإنجيل: وهو الكتاب الذي أوحيناه إليه.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾. ﴿رَأْفَةً﴾ أي: رقة وخشية ومودة وليناً. ﴿وَرَحْمَةً﴾ تعطفاً على إخوانهم، كما قال في صفة أصحاب النبي ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾. قال النسفي: (هي ترهبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة، وهي الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشي، وانتصابها بفعل مضمر يفسّره الظاهر، تقديره: وابتدعوا رهبانية).

وقوله: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾. أي: ابتدعها أمة النصارىٰ، فأخرجوها من عند أنفسهم ونذروها.

وقوله: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾. أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم ألزموا بها أنفسهم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾. فيه تفسيران متكاملان:

التفسير الأول: إنهم قصدوا بذلك رضوان الله. قال قتادة: (لم تكتب عليهم، ابتدعوها ابتغاء رضوان الله). وقال ابن زيد: (ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تطوعاً، فما رَعَوْها حق رعايتها).

التفسير الثاني: ما كتبنا عليهم ذلك السلوك في العبادة، إنما كتبنا عليهم ما كان ابتغاء رضوان الله ـ أي على منهاج النبوة.

وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾. قال ابن كثير: (أي: فما قاموا بما التزموه حقَّ

القيام. وهذا ذمٌّ لهم من وجهين ، أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمُر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزمُوه مما زعموا أنه قُرْبَةٌ يُقَرِّبهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ).

قلت: فالآية دليل على ذم الابتداع في الدين ، حتىٰ في أمم الأقدمين ، فإن الإحداث في الدين واختراع الطرق في العبادة خروج عن منهاج النبوة واتهامٌ لدين الله بالنقص وفتح لباب الهوىٰ. وكان ابن مسعود يقول: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم).

وفي التنزيل الحكيم:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: 7].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: 80].

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: [صَنَعَ رسولُ الله ﷺ أمراً فتَرَخَّصَ فيه ، فبلغَ ذلك ناساً من أصحابه ، فكأنهم كَرِهوه وتَنَزَّهوا عنه ، فبلغَهُ ذلك ، فقام خطيباً فقال: ما بالُ رجالٍ بَلَغهُم عني أمرٌ تَرَخَّصْتُ فيه ، فكرِهوه وتنزهوا عنه ، فوالله! لأنا أعلمهم بالله وأشدُّهُم له خَشْيةً][1].

وذكر الإمام الشاطبي في «الاعتصام»: (أن الزبير بن بكار قال: سمعت مالكاً بن أنس ـ وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ ـ قال: من ذي الحليفة حيث أحرم رسول الله ﷺ. فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد. فقال: لا تفعل. قال: فإني أريد أن أُحْرِمَ من المسجد من عند القبر. قال: لا تفعل فإني أخشىٰ عليك الفتنة. فقال: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها ، قال الإمام مالك: وأيّ فتنة أعظم من أن ترىٰ أنك سبقت إلى فضيلة قصّر عنها رسول الله ﷺ ، إني سمعت الله يقول: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: 63]).

وصحّ عن الشافعي أنه قال: (ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه ، فمهما قلت من قول ، أو أصَّلْتُ من أصل ، فيه عن رسول الله ﷺ خلافُ ما قلتُ ، فالقولُ ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي)[2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم ـ (2356) ـ كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ بالله تعالىٰ وشدة خشيته.

(2) رواه الحاكم بسنده المتصل إلى الشافعي. وانظر كذلك: ابن عساكر (15/ 1/ 2).

وذكر ابن عبد البر في «الانتقاء» (ص 145) قول أبي حنيفة: (حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، فإننا بشر، نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً). وكان يقول: (إذا صحّ الحديث فهو مذهبي)(1).

ومضىٰ على ذلك المنهاج الأصيل الإمام أحمد بن حنبل وكان يقول: (لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا أبا حنيفة ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري رحمهم الله تعالىٰ، وخذ من حيث أخذوا، من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال)(2).

وأما «الرهبانية» فهي في مفهومها الصحيح عكس ما في أذهان جهلة الزهاد والعباد، إنها الجهاد في سبيل الله، وقد صحّ في ذلك الخبر عن رسول الله ﷺ.

فقد أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أنّ رجلاً جاءه فقال: أوصني. فقال: سألتَ عما سألتُ عنه رسول الله ﷺ من قبلك، أوصيك بتقوىٰ الله تعالىٰ فإنه رأسُ كلِّ شيء، وعليكَ بالجهاد، فإنه رهبانيّةُ الإسلام، وعليك بذكر الله تعالىٰ، وتلاوة القرآنِ، فإنه رَوْحُكَ في السماء، وذِكرُك في الأرض](3).

وله شاهد عنده من حديث أنس بلفظ: [لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله].

وقوله: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾. قال ابن زيد: (الذين رعوا ذلك الحق).

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾. أي: وكثير منهم مبتدع في الدين، خارج عن طاعة الله وطاعة رسوله، منقاد وراء الأهواء والشهوات.

28 ـ 29. قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا

(1) انظر: ابن عابدين في «الحاشية» (1 ـ 63). وكتابي: (السيرة النبوية) (1/ 17 ـ 18).
(2) انظر: ابن القيم في «أعلام الموقعين» (2/ 302)، والمرجع السابق ص (18).
(3) حديث حسن. أخرجه أحمد (3/ 82)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (555). وانظر للشاهد بعده مسند أحمد (3/ 266)، ومسند أبي يعلىٰ (4204).

يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله تعالىٰ عباده المؤمنين أن يَصْدُقوهُ التقوىٰ والإيمان، ومتابعة رسوله عليه الصلاة والسلام، فإن الفضل كله بيد الله وهو ولي الأتقياء الكرام.

فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ في توجيهه تأويلان:

التأويل الأول: قيل الخطاب لمؤمني أهل الكتاب. قال ابن عباس: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ يعني الذين آمنوا من أهل الكتاب). واختاره ابن جرير.

التأويل الثاني: قيل بل الظاهر أن لفظ الآية أعم، وأن المقصود بها حثّ كل من آمن بالنبي ﷺ على الثبات في الإيمان والرسوخ فيه، والانصياع لأوامره.

وهذا التأويل أرجح عندي وأشمل، وقد اختاره العلامة القاسمي رحمه الله، وقال: (ومنه ما حرض عليه في الآيات قبلها من الإنفاق في سبيله، وسخاوة النفس فيه. وأنّ لهم في مقابلة ذلك أجراً وافراً، كما قال في أول السورة: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ فآخر السورة، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به، وما سبق نزولها لأجله).

وقوله: ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾. أي: يؤتكم نصيبين من الأجر والثواب.

وأصل الكفل: الحَظّ، وأصله ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط.

وفي توجيهه كذلك تأويلان: **التأويل الأول**: الضمير في ﴿ يُؤْتِكُمْ ﴾ يعود على مؤمني أهل الكتاب.

قال ابن عباس: (﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ قال: أجرين، لإيمانهم بعيسىٰ ﷺ، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد ﷺ، وتصديقهم به). وقال أيضاً: (﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ قال: ضعفين). فوجّه ابن عباس الآية هنا إلى مؤمني أهل الكتاب الذين صدقوا محمداً ﷺ وتابعوه. وهذا تفسير سالك مؤيد بالأحاديث الصحيحة، منها:

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي موسىٰ الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي،

ورجل مملوك أدىٰ حق الله وحق مواليه ، ورجل أَدَّب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران][1] .

الحديث الثاني: أخرج الروياني في «مسنده» ، وأحمد كذلك نحوه ، بسند حسن عن أبي أمامة الباهلي قال: [كنت تحت راحلة رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، فقال قولاً حسناً ، فقال فيما قال: مَنْ أَسْلَم مِنْ أهل الكتاب فله أجره مرتين ، وله مثل الذي لنا ، وعليه مثل الذي علينا ، ومن أسلم من المشركين فله أجره ، وله مثل الذي لنا ، وعليه مثل الذي علينا][2] .

التأويل الثاني: الضمير في ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ يعم المؤمنين من هذه الأمة.

فإن توجيه الآية لعموم المؤمنين الصادقين في تقواهم وحفظهم هذا الدين ـ من هذه الأمة ـ يؤيده ما رواه ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير قال: (لما افتخر أهلُ الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرّتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ، أي: ضِعْفين ، وزادهم: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ ، يعني: هُدىً يتبَصَّرُ به من العمىٰ والجهالة ، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾. ففضلهم بالنور والمغفرة).

وكذلك يؤيده من السنة الصحيحة أحاديث ، منها:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسىٰ ، عن النبي ﷺ قال: [مثلُ المسلمين واليهود والنصارىٰ كمثلِ رجُلٍ استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجْرِك الذي شَرَطْتَ لنا ، وما عَمِلْنا باطلٌ. فقال لهم: لا تَفْعَلوا ، أكمِلوا بقية عَمَلِكم وخُذُوا أجركم كاملاً ، فأَبَوْا وترَكُوا. واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكْمِلوا بقيَّةَ يومِكم هذا ، ولكم الذي شرطْتُ لهم من الأجر ، فَعَمِلُوا حتىٰ إذا كان حينَ صلاة العَصْرِ قالوا: لَكَ ما عَمِلْنا باطِلٌ ولكَ الأجْرُ الذي جَعَلْتَ لنا فيه ، فقال لهم: أكملوا بَقِيَّة عملِكم فإن ما بَقِيَ من النهار شيءٌ يسيرٌ ، فأَبَوْا ، فاستأجَرَ قوماً أن يَعْمَلُوا له بَقِيَّةَ يَوْمِهم فَعَمِلوا بقيَّة

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (154) ـ كتاب الإيمان ، وأخرجه البخاري كذلك ، وقد تقدم.
(2) حديث حسن أخرجه الروياني في «مسنده» (30/ 220/ 1) ، وأحمد في المسند (5/ 259) وفيه عنده «يوم الفتح» بدل «حجة الوداع» ـ والأول أصح. وانظر السلسلة الصحيحة (304).

يَوْمِهم حتىٰ غابت الشَّمْسُ واستكمَلُوا أجْرَ الفريقين كِليهما ، فذلك مَثَلُهم ومثلُ ما قَبِلوا من هذا النُّور][1] .

الحديث الثاني : أخرج أحمد والبخاري والترمذي عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : [مَثَلُكُم ومثلُ اليهودِ والنصارىٰ كمثلِ رَجُلٍ استعملَ عُمّالاً ، فقال : مَنْ يعملُ لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراطٍ قيراطٍ؟ ألا فعملت اليهودُ. ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراطٍ قيراطٍ؟ ألا فعملت النصارىٰ. ثم قال: من يعمَلُ لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم. فغضبت النصارىٰ واليهودُ ، وقالوا: نحن أكثرُ عملاً وأقلُّ عطاءً. قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فَضْلي أُوتيه من أشاء][2] .

وقوله: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾. قال ابن عباس: (الفرقان ، واتباعهم النبي ﷺ). وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: (﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ قال: القرآن). وعن مجاهد: (﴿ تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ قال: هدىٰ). قال القاسمي: («النور» هو ما يبصر من عمىٰ الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده ، كما قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29]).

وقوله: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. أي: ويصفح لكم عن ذنوبكم فيسترها عليكم والله واسع المغفرة والرحمة.

وقوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره للمؤمنين به وبمحمد ﷺ من أهل الكتاب: يفعل بكم ربكم هذا لكي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي آتاكم وخصّكم به. لأنهم كانوا يرون أن الله قد فضَّلهم على جميع الخلق ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتىٰ أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم). وقال القرطبي: (﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: ليعلم ، و«أن لا» صلة زائدة مؤكدة ، قاله الأخفش.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (558) ـ كتاب مواقيت الصلاة. وكذلك (2271) ـ كتاب الإجارة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 6) ، والبخاري في الصحيح (3459) ، والترمذي في الجامع (2871) ، وابن حبان في صحيحه (6639).

وقال الفراء: معناه لأن يعلم و«لا» صلة زائدة في كل كلام دخل عليه جَحْد).

وقد ذكر أن في قراءة عبد الله ﴿لكي يعلم﴾ ـ ذكره الطبري. قال القاسمي: (ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، فضلاً عن أن يتصرفوا في أعظمه، وهو النبوة، فيخصوا بها من أرادوا).

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

إعلام الله تعالىٰ أهل الكتاب ـ الذين زيَّنَ لهم الشيطان أنهم أفضل الخلق ـ أنه قد آتىٰ أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة ما لم يؤتهم لأن الفضل بيده ـ سبحانه ـ دونهم، ودون غيرهم من الخلق، يؤتيه من يشاء من عباده ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

تم تفسير سورة الحديد
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
الاثنين 7 رمضان 1426 هـ
الموافق 10 / تشرين الأول / 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ «سبحان الله وبحمده» صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق.

2 ـ الله تعالىٰ هو الأول ليس قبله شيء ، وهو الآخر فليس بعده شيء ، وهو الظاهر فليس فوقه شيء ، وهو الباطن فليس دونه شيء.

3 ـ أعْجَبُ الخلق إيماناً قوم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها من عند الله رب العالمين ، ويتابعون صحابة هذا النبي الكريم ، أولئك لهم عند الله الأجر العظيم.

4 ـ لا يستوي من أنفق وقاتل من قبل الفتح مع من فعل ذلك بعده.

5 ـ المؤمن القوي خير وأحبّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير.

6 ـ يسلب المنافقون نورهم على الصراط ويتم الله النور للمؤمنين.

7 ـ يعرف النبي ﷺ أمته بأثر الوضوء ، ويعرفهم بسيماهم في وجوههم ، ويعرفهم بنورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم.

8 ـ يا ابن آدم! اعمل كأنك تُرىٰ ، وعُدَّ نفسك مع الموتىٰ ، وإياك ودعوة المظلوم.

9 ـ النار أولىٰ بالمنافقين من كل منزل لقاء كفرهم وخداعهم ومكرهم.

10 ـ أول شيء يُرفَعُ مِنْ هذه الأمة الخشوع ، حتىٰ لا ترىٰ فيها خاشعاً.

11 ـ إن السَّلف يجري مجرىٰ شطر الصدقة ، والسَّلف القرض الحسن.

12 ـ مثل هذه الدنيا كزرع يبس ثم تحطم ، والآخرة نعيم لا يبلىٰ.

13 ـ كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء.

14 ـ اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم.

15 ـ أرسل الله الحق بالقرآن والقوة بالحديد لحمايته الحق وإقراره.

16 ـ حدٌّ يُعْمَلُ به في الأرض ، خَيْرٌ لأهل الأرض مِنْ أن يُمْطروا أربعين صباحاً.

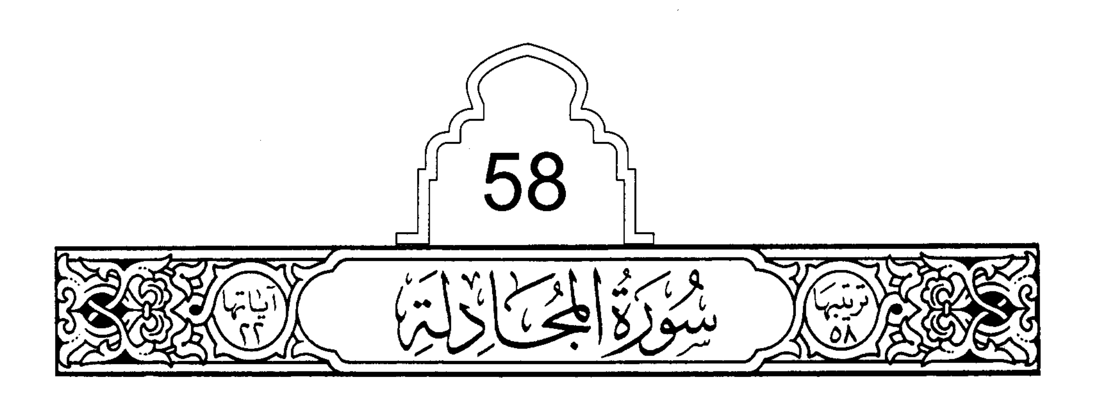
17 ـ لا يقبل الله عملاً ابتدعه الناس ديناً لهم ، بل ما كان على منهاج النبوة.

18 ـ لكل نبي رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله.

19 ـ القرآن فرقان يفرق بين الحق والباطل ، ونور يُبَصِّرُ من عمىٰ الجهالة والضلالة.

20 ـ خير الأمم أمة محمد ﷺ ، وفضل الله يؤتيه ـ تعالىٰ ـ من يشاء.





وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (22) .

قال المهايميّ : (سميت بها ، لأنها لما كانت لطلب الحق والصواب ، أشبهت مجادلة الأنبياء والقرآن ، ولذلك سمع الله لصاحبها) .

موضوع السورة

قصة المجادلة ، وآداب النجوىٰ

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ سماع الله قصة المجادلة وشكواها من فوق عرشه وهو السميع البصير .

2 ـ ذكر مفهوم الظهار ، وأحكام الظهار ، والكفارة الواجبة في ذلك .

3 ـ المكر بالذين يحادون الله ورسوله ، وإحصاء الله تعالىٰ أقوالهم وأعمالهم .

4 ـ علم الله تعالىٰ بالسر وأخفىٰ ، وما يكون في النجوىٰ ، والله بكل شيء عليم .

5 ـ ذمُّ أهل الكتاب الذين يتغامزون عند رؤية المؤمنين ، وتوعد الله لهم عذاب الجحيم .

6 ـ الأمْرُ للمؤمنين بالتناجي بالبر والتقوى لا بالإثم والعدوان ، فإن النجوىٰ لا تسلم من مكر الشيطان .

7 ـ الأمْرُ بالتفسُّح في المجالس وعدم إيذاء النبي الكريم ، والله تعالىٰ يرفع المؤمنين وأهل العلم الصادقين .

8 ـ الأمْرُ بتقدم النجوىٰ للرسول بالصدقات ، ثم نسخ ذلك والأمر بالطاعات والقربات .

9 ـ ذم المنافقين وتوعدهم العذاب المهين ، ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم يوم الدين .

10 ـ كتابة الله النصر للمؤمنين والخزي على الكافرين ، والولاء والبراء جزء من منهج الإيمان عند المسلمين ، وأهله هم حزب الله الذين يرثون جنات النعيم .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 . **قوله تعالىٰ:** ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ .

في هذه الآية: سماعُ الله تعالىٰ قصة المجادلة وشكواها إلى النبي ﷺ من فوق سبع سماوات ، والله هو السميع البصير.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والنسائي في «التفسير» ، بسند على شرط مسلم ، عن عروة ، عن عائشة قالت: [الحمد لله الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصوات ، لقد جاءت المجادِلةُ إلى النبي ﷺ تُكلِّمُه وأنا في ناحيةِ البيتِ ، ما أسمع ما تقولُ ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا . . .﴾ . . . إلى آخر الآية][1] .

واختلف المفسرون في اسم المرأة من الأنصار ـ المجادِلة رسول الله ﷺ ـ ونسبها. قيل: هي خولة بنت ثعلبة. وقيل: هي خويلة بنت خويلد. وقيل: هي خويلة بنت الصامت. وقيل غير ذلك.

قلت: ولا يهمّ الاسم[2] ، وإنما يهمّ العلم المنبثق عن تلك المجادَلة. قال ابن جرير: (وكانت مجادلتها رسول الله ﷺ في زوجها ، وزوجها أوس بن الصامت ، مراجعتها إياه في أمره ، وما كان من قوله لها: أنت عليّ كظهر أمي ، ومحاورتها إياه في ذلك).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 46) ، والبخاري (7385) تعليقاً ، والنسائي (3460) ، وفي «التفسير» (590) ، وابن ماجة (188) ، (2063) ، وعبد بن حميد (1514) ، ورواه ابن جرير في التفسير (33726) ، وإسناده على شرط الإمام مسلم.

(2) وإن كان ثبت في صحيح أبي داود أن اسمها خويلة بنت مالك بن ثعلبة ، وخويلة هي للتصغير من «خولة». واسم زوجها أوسُ بن الصامت. انظر صحيح سنن أبي داود (1934).

2 ـ 4. **قوله تعالى**: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

في هذه الآيات: ذكر مفهوم الظهار، وأحكام الظهار، والكفارة الواجبة في ذلك.

أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم بسند صحيح في الشواهد عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: [كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظاهرت من امرأتي، حتىٰ ينسلخ رمضان، فرقاً من أن أصيب منها في ليلي فأتتابع في ذلك، إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني ذات ليلة، إذ تكشَّف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم فقلت: انطلقوا معي إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لا تفعل، نتخوَّفُ أن ينزل فينا قرآن، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقي علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك. قلت: فخرجت فأتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته خبري، فقال: «أنت بذاك»؟ قلت: أنا بذاك، قال: «أَنْتَ بِذَاكَ»؟ قلت: أنا بذاك، قال: «أَنْتَ بِذاكَ»؟ قلت: أنا بذاك، وها أنذا فأمض فيَّ حكم الله، فإني صابر لذلك، قال: «أَعْتِقْ رقبةً». قال: فضربت صفحة عنقي بيدي، فقلت: لا والذي بعثكم بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فَصُمْ شَهْرين»، قلت: يا رسول الله وهل أصابني ما أصابني، إلا في الصيام، قال: «فأطْعِمْ ستين مِسْكيناً»، قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وَحْشَىٰ[1] ما لنا عشاء. قال: «اذهب إلى صاحِبِ صَدَقَةِ بَني زُرَيْقٍ فَقُلْ لهُ فليَدْفَعْها إليك فاطعِمْ عنك منها وَسْقاً سِتِّين مسكيناً، ثم استَعِنْ بِسائِره عليكَ وعلى عيالك».

(1) بات وَحِشاً: أي جائعاً.

قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، أَمَرَ لي بِصَدَقتكم فادفعوها إلي، فدفعوها إليّ][1].

وأخرج أبو داود بسند حسن عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة، قالت: [ظاهرَ مني زوجي أوسُ بن الصامت، فجئت رسول الله ﷺ، أشكو إليه، ورسول الله ﷺ يجادلني فيه، ويقول: «اتقي الله فإنه ابن عمك»، فما برحت حتىٰ نزل القرآن: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ إلىٰ الفرض فقال: «يعتق رقبة»، قالت: لا يجد، قال: «فيصوم شهرين متتابعين»، قالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «فليطعم ستين مسكيناً»، قالت: ما عنده من شيء يتصدق به، قالت: فأتِيَ ساعتئذ بِعَرَقٍ[2] مِنْ تَمْرٍ، قلت: يا رسول الله، فإني أعينه بعَرَق آخر، قال: «قد أحسنت، اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكيناً، وارجعي إلى ابن عمك»][3].

وله شاهد عنده من طريق سليمان بن يسار قال: [فَأُتِيَ رسول الله ﷺ بتمر فأعطاه إياه، وهو قريب من خمسة عشر صاعاً، قال: «تَصَدَّق بهذا» قال: فقال: يا رسول الله، على أفْقَرَ مني ومن أهلي؟ فقال رسول ﷺ: «كله أنت وأهلك»][4].

فقه أحكام الظهار:

1 ـ من قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي فهو مظاهر. قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾.

2 ـ المظاهر تحرم عليه زوجته، فلا يطؤها ولا يستمتع منها بشيء حتىٰ يكفّر.

ففي سنن أبي داود عن عكرمة: [أن رجلاً ظَاهَر من امرأته فرأىٰ بريق ساقها في القمر فوقع عليها. فأتىٰ النبي ﷺ، فأمره أن يكفر].

وفي لفظ: [أن رجلاً ظَاهَر من امرأته، ثم واقعها قبل أن يُكَفر، فأتىٰ النبي ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو دواد (2213)، والترمذي (3299)، واللفظ له، وابن ماجة (2062)، والحاكم (2/ 203)، وكذلك نحوه (2/ 204). وانظر صحيح الترمذي (2628).

(2) العَرَقُ: هو زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً أو أكثر.

(3) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2214) ـ تفريع أبواب الطلاق ـ باب في الظهار، وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1934).

(4) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2217) ـ الباب السابق. انظر صحيح سنن أبي داود (1937).

فأخبره ، فقال: «ما حملك على ما صنعت»؟ قال: رأيت بياض ساقها في القمر ، قال: «فاعتزلها حتىٰ تكفر عنك»][1] .

3 ـ الكفارة: تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً.

أخرج أبو داود عن هشام بن عروة: [أن جميلة كانت تحت أوس بن الصامت ، وكان رجلاً به لمَمٌ ، فكان إذا اشتدَّ لَمَمُهُ[2] ظاهرَ من امرأته ، فأنزل الله تعالىٰ فيه كفارة الظهار][3] .

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ﴾ .

4 ـ الظهار حرام ، لأن الله وصفه بأنه منكر من القول وزور ، وأنكر على المظاهر. قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴾ .

قال سعيد بن جبير: (كان الإيلاء والظهارُ من طلاقِ الجاهلية ، فوقَّت الله الإيلاء أربعة أشهر ، وجعل في الظهار الكفّارة).

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم ﴾ ـ الخطاب للمؤمنين. واستدل الإمام مالك بقوله: ﴿ مِنكُم ﴾ على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية.

وقوله: ﴿ مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ ـ استدل بها الجمهور على أن الأَمَةَ لا ظهار منها ، ولا تدخل في هذا الخطاب.

وقوله: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ ﴾ . قال ابن كثير: (أي: لا تصيرُ المرأة بقولِ الرجُل: أنتِ عليَّ كظهر أُمِّي ، أو كأمي أو «مثل أمي» ، وما أشبه ذلك ، لا تصيرُ أمَّهُ بذلك ، إنما أُمُّهُ التي وَلَدَتْهُ. ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ ﴾ ، أي: كاملاً فاحشاً باطلاً ، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴾ ، أي: عما كان منكم في حال الجاهلية ، وهكذا أيضاً عما خَرَج من سَبْقِ اللسانِ ولم يَقْصِد إليه المتكلم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (2221) ، (2222) ـ في الظهار. انظر صحيح سنن أبي داود(1941 ـ 1942).

(2) اللمم: شدة الرغبة في النساء.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2219) ـ تفريع أبواب الطلاق. باب في الظهار.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾. تكرار العبارة لبيان حكم الظهار، بعد بيان أنه منكر وزور.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾. أي: ثم يعودون لنقض ما قالوا أو لتداركه ـ على حذف المضاف ـ. أو: ثم يعودون لتحليل ما حرّموا على أنفسهم. واختلف المفسرون بماذا يحصل النقض على أقوال:

1 ـ قال أحمد بن حنبل: (هو أن يعود إلى الجماع، أو يعزم عليه، فلا يَحِلُّ له حتىٰ يكفِّرَ بهذه الكفّارة).

2 ـ وقال أبو حنيفة: (هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه، ورُفِعَ ما كان عليه أمر الجاهلية، فمتىٰ ظاهر الرجل من امرأته فقد حرّمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفّارة).

3 ـ وقال الشافعي: (هو أن يُمسِكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلّق فيه فلا يُطَلِّق).

4 ـ وحُكي عن مالك: (أنه العزم على الجماع والإمساك)، وعنه: (أنه الجماع).

5 ـ وقال سعيد بن جبير: (﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾، يعني: يُريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرّموه على أنفسهم). وقال الحسن البصري: (يعني الغِشْيَانَ في الفَرْج). وكان لا يرىٰ بأساً أن يغشىٰ فيما دون الفرج قبل أن يُكفرِّ.

6 ـ قال بُكير بن الأشج: (العودُ هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرّره).

قلت: أما قول بكير فباطل ـ كما قال ابن العربي وغيره ـ ولا دليل عليه في أصل هذا التشريع من السنة الصحيحة في القصص الواردة في الظهار. وقول الشافعي بعيد عن مفهوم السياق، ويبقىٰ مفهوم العَوْدِ يدل عليه ما بعده ـ وهو إيجاب الكفارة ـ فيكون المقصود: الذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون فيما ذهبوا إليه، فيعزمون على غشيانهن ووطئهن رغبة في تحليلهن بعد تحريمهن، فلا بد من الكفارة.

ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عكرمة: [أنّ رجلاً ظَاهر من امرأته، ثم واقعها قبل أن يُكفِّرَ، فأتىٰ النبي ﷺ فأخبره، فقال: «ما حملك على ما صنعت»؟ قال: رأيت بياض ساقها في القمر، قال: «فاعتزلها حتىٰ تكفّر عنك»][1].

وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. أي: فإعتاق رقبة[2] كاملة، من قبل

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2221) ـ تفريع أبواب الطلاق. باب في الظهار.

(2) قال ابن كثير: (فهاهنا الرقبة مطلقةٌ غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان).

المسيس بأي شكل من أشكاله ـ وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي.

وعن ابن عباس: (﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾، المسّ: النكاح)، وقال الزهري: (ليس له أن يُقَبِّلها ولا يَمَسَّها حتىٰ يُكَفِّر).

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾. أي تُزجرون به. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. أي: والله عليم بأحوالكم، خبير بما يُصلحكم.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. أي: فمن لم يجد ما يعتق رقبة وجب عليه صيام شهرين متتابعين قبل المسيس.

فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر استأنفهما، وإن أفطر لعذر من مرض أو سفر يبني على ما صام منهما. قال مالك: (إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنىٰ إذا صحّ).

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾. قال القرطبي: (ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبة، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكيناً لكل مسكين مُدّان بمُد النبي ﷺ. قال: ودليلنا قوله تعالىٰ: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ وإطلاق الإطعام يتناول الشّبع، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليه).

وقال النسفي: (لكل مسكين نصف صاع من برّ، أو صاع من غيره).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. أي: هذا التغليظ في الكفارة لتَصْدُقوا الله تعالىٰ الإيمان به وتعظيم شرعه وهدي نبيه ﷺ، وتنخلعوا من عادات الجاهلية.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾. أي محارمه فلا تنتهكوها، بَيّنَ لكم الطاعة بعد المعصية، والمعصية هنا الظهار، والطاعة الكفارة وترك ذلك القول المنكر.

وقوله: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال ابن كثير: (أي: الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجُون من البلاء، كلاّ، ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم، أي: في الدنيا والآخرة).

5 ـ 7. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا

عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إذلالُ الله الذين يناصبونه ورسوله العداء ومكرهُ تعالىٰ بهم، وإحصاؤه جميع أقوالهم وأعمالهم ليظهرها يوم الحشر لهم، فهو سبحانه يعلم السر وأخفىٰ، ويعلم ما يكون في النجوىٰ، ثم يُنَبِّئُ عباده يوم القيامة بما عملوا، وهو بكل شيء عليم.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. قال قتادة.: (يقول: يعادون الله ورسوله). وأصل المحادّة الممانعة، ومنه الحديد. قال الزجاج: (المحادّة أن تكون في حدّ يخالف حدّ صاحبك). والمقصود: توعّدٌ من الله للمعاندين شرعه المحادين المخالفين لرسله، الممانعين علوّ دينه في الأرض.

وقوله: ﴿كُبِتُواْ﴾. قال أبو عبيدة والأخفش: (أهلكوا). وقال قتادة: (أُخزوا كما أخزي الذين من قبلهم). وقال ابن زيد: (عذبوا). وقال السدي: (لعنوا). قلت: وأصل الكبت الصرف والإذلال. والعرب تقول: كبت الله العدو أي صرفه وأذلّه. وكَبَتَه لوجهه: أي صَرَعَه.

وقوله: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أهينوا وَأُخْزُوا ولعنوا وذلّوا كما فعل بمن أَشْبَهَهُم من قبلهم.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾. قال ابن جرير: (يقول: وقد أنزلنا دلالات مفصلات، وعلامات محكمات تدلّ على حقائق حدود الله).

وقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. أي: وللجاحدين آيات الله البينات التي أنزلها الله على رسوله، والمستكبرين عن طاعته عذاب موجع يوم القيامة في نار جهنم.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾. أي: يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينبئهم بما صنعوا من خير أو شر.

وقوله: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾. أي: أثبته ـ تعالى ـ وحفظه وضبطه عليهم ونسيه عاملوه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. أي: لا يغيب عنه شيء ولا يخفىٰ عليه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية. إخبار عن إحاطة علمه سبحانه بخلقه، واطلاعه عليهم، وسماعه كلامهم، ورؤية مكانهم ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾أي من سر ثلاثة ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي يسمع سرّهم ونجواهم، ولا يخفىٰ عليه شيء من أسرارهم.

وقوله: ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾. أي: ولا يكون من نجوىٰ خمسة إلا هو سادسهم، ولا أقل من ثلاثة ولا أكثر من خمسة إلا هو معهم إذا تناجوا في أي موضع كانوا.

قال الضحاك: (﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ قال: هو فوق العرش وعلمه معهم).

وقوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. أي: ثم يخبر هؤلاء المتناجين وغيرهم بما كان من أمرهم وما حاولوا كتمه مما يحبّه ـ تعالىٰ ـ أو يسخطه ـ يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. إثبات أن المعية الوارد في الآية هي معية علم، وكذلك حيثما وردت المعية في القرآن جاء ما يفسّرها ويدل عليها من السياق، وهي تفيد في مجموع مواضعها أنها معية بالصفات لامعية في الذات، فالله تعالىٰ فوق عرشه، بائن من خلقه، يسمع ويبصر ويعلم كل شيء في أرجاء ملكوته، وفي أحوال عباده. قال الإمام أحمد: (افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم).

8 ـ 10. **قوله تعالىٰ**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ

بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ أهل الكتاب الذين يتغامزون عند رؤية المؤمنين ، وتوعّد الله لهم عذاب الهون في نار الجحيم. وأمْرُه تعالىٰ المؤمنين التناجي بالبر والتقوىٰ لا بالإثم والعدوان ، فإن النجوىٰ من مكر الشيطان ، ليفَرِّق بذلك بين المؤمنين ، وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله العظيم.

فقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾. قال مجاهد: (﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾ قال: اليهود). قال النسفي: (كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ، ويريدون أن يغيظوهم ويوهموهم في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا ، وأن أقاربهم قتلوا ، فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم وكان تناجيهم بما هو إثم وعدوان وتواص بمعصية الرسول ومخالفته).

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الآية.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، وكذلك البزار ، والطبراني في المعجم؛ بإسناد جيد عن عبد الله بن عمرو: [أنّ اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سامٌ عليك ، ثم يقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول ، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾][1].

وفي صحيح مسلم عن الأعمش ، عن مُسْلم ، عن مسروقٍ ، عن عائشة قالت: [أتىٰ النبيَّ ﷺ أُناسٌ من اليهود ، فقالوا: السَّامُ عليكَ ، يا أبا القاسم! قال: «وعليكم». قالت عائشة: قلتُ: بَلْ عَلَيْكُم السَّامُ والذَّامُ. فقال رسول الله ﷺ: يا عائشةُ! لا تكوني فاحِشة. فقالت: ما سَمِعْتَ ما قالوا؟ فقال: أو ليسَ قد رَدَدْتُ عليهم الذي قالوا؟ قلْتُ: وعَلَيْكمُ][2].

وفي رواية: [ففطنت بهم عائشة فَسَبَّتْهُمْ ، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ ، يا عائشةُ!

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 170) ، والطبراني والبزار. وقد جوّده الهيثمي في «المجمع» (11405) ، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ المجادلة ـ آية (8).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2165) ح (11) ، كتاب السلام. باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم.

فإنَّ الله لا يُحِبُّ الفُحْشَ والتَفَحُّشَ» ـ وزاد فأنزل الله عزَّ وجلَ: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ . . . ﴾ إلى آخر الآية].

وفي صحيح البخاري ومسلم ـ واللفظ له ـ عن جابر قال: [سَلَّمَ ناسٌ من يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ عليكَ ، يا أبا القاسم! فقال: «وعليكم». فقالت عائشة ، وغضبت: أَلَمْ تَسْمَع ما قالوا؟ قال: بلىٰ ، قَدْ سَمِعْتُ ، فَرَدَدْتُ عليهم ، وإنّا نُجَابُ عليهم ولا يُجَابون عَلينا][1].

قال ابن كثير: (وقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ، أي: يفعلون هذا ، ويقولون ما يُحرِّفون من الكلام وإيهام السلام ، وإنما هو شَتْمٌ في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبياً لعذَّبنا الله بما نقول له في الباطن ، لأن الله يعلم ما نُسِرُّه ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يُعَاجلَنا الله بالعقوبة في الدنيا ، فقال الله تعالىٰ: ﴿ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ ﴾ ، أي: جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ، ﴿ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾).

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾.

تَأديبٌ من الله تعالىٰ عباده المؤمنين ، بمخالفة طريقة الكفرة والمنافقين ، فإذا تناجوا فلا يتشبهوا باليهود والمنافقين في تناجيهم بالشر.

وقوله: ﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ ﴾. أي: وتناجوا بالطاعة وبالعفاف عما نهىٰ الله عنه.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾. أي: وخافوا الله الذي إليه تجمعون في الآخرة ، فعظموه حق التعظيم بامتثال دينه والتحاكم إليه.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. أي: إنما النجوىٰ ـ وهي المسارَّة التي يظن المؤمن منها السوء ـ من تزيين الشيطان وتسويله ، لِيُسيءَ إلى المؤمنين ويمزّق الأخوة التي تربطهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6401) ، ومسلم (2166) ، وكذلك (2165) نحوه.
وله شاهد عند الترمذي عن قتادة: [أخبرنا أنس بن مالك أن يهودياً أتىٰ على نبي الله وأصحابه فقال: السلام عليكم ، فرد عليه القوم ، فقال نبي الله ﷺ: هل تدرون ما قال هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، سلم يا نبي الله ، قال: لا ، ولكنه قال: كذا وكذا رُدّوه عليَّ ، فردوه فقال: قلت: السام عليكم؟ قال نعم ، قال نبي الله ﷺ عند ذلك: إذا سلم عليكم أحدٌ من أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت. قال: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾]. صحيح سنن الترمذي (2629).

وفي الصحيحين والمسند عن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: [إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجىٰ اثنان دون الثالث][1].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [إذا كنْتُم ثلاثة فلايتناجىٰ رَجُلان دونَ الآخر حتىٰ تختلطوا بالناس، مِنْ أجْلِ أنَّ ذلكَ يُحْزِنُه][2].

وقوله: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (بأمره).

قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: وليس التناجي بضارّ المؤمنين شيئاً إلا بإذن الله، يعني بقضاء الله وقَدَره).

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. قال القرطبي: (أي يكِلون أمرهم إليه، ويفوّضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلّط الشيطان بالوساوس ابتلاءً للعبد وامتحاناً ولو شاء لصرفه عنه).

11. قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآية: الأَمْرُ بالتفسّح في المجالس عند الحاجة لذلك وعدم إيذاء النبي ﷺ في مجلسه الكريم، والله تعالىٰ هو يرفع المؤمنين وأهل العلم في درجات الأولياء الصالحين.

فقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾. تعليم منه تعالىٰ للمؤمنين أدب المجالس، وذلك بأن يفسح المرء لأخيه ويتنحّىٰ توسعة له. وقُرِئَ: ﴿في المجلس﴾. قال الشهاب: (وارتباطه بما قبله ظاهر، لأنه لما نهىٰ عن التناجي والسرار، علم منه الجلوس مع الملأ، فذكر آدابه. ورتب على امتثالهم فسحه لهم فيما يريدون التفسح، من المكان والرزق والصدر).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6288)، كتاب الاستئذان، باب لا يتناجىٰ اثنان دون الثالث. ورواه مسلم (2184) نحوه، وأبو داود (4851)، وأحمد (1/ 375).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6290)، كتاب الاستئذان. باب: إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارّة والمناجاة. ورواه مسلم (2184)، كتاب السلام.

قال ابن كثير: (وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح:

«من بنىٰ لله مسجداً بنىٰ الله له بيتاً في الجنة». وفي الحديث الآخر: «من يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». ولهذا أشباه كثيرة، ولهذا قال: ﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾).

قال قتادة: (نزلَت هذه الآيةُ في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدَهم مُقْبِلاً ضَنُّوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله أن يَفْسَحَ بعضُهم لبعض).

أخرج البخاري في صحيحه عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [لا يُقيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِه ثم يَجْلِسُ فيه][1].

ورواه بنحوه في ـ كتاب الجمعة ـ من صحيحه عن ابن جُرَيج عن نافع قال: سمعت ابنَ عمر رضي الله عنهما يقول: [نهىٰ النبيُّ ﷺ أن يقيم الرجلُ الرجلَ مِنْ مَقْعَدِه ويَجْلِسَ فيه. قلت لنافع: الجمعةَ؟ قال: الجُمُعَةَ وغيرَها][2].

وله شاهد عنده في كتاب الاستئذان عن نافع ـ أيضاً ـ عن ابن عمر عن النبي ﷺ: [أنه نهىٰ أن يُقامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ ويَجْلِسَ فيه آخر، ولكن تَفَسَّحُوا وتوسَّعوا، وكان ابن عمر يكرهُ أن يقومَ الرجلُ من مَجْلِسِه ثم يُجْلسَ مكانَهُ][3].

وفي مسند الإمام أحمد بإسناد حسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [لا يُقِمِ الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن افسحوا يفسَحِ الله لكم][4].

وفي لفظ: [لا يقوم الرجل للرجل من مجلسه، ولكن افسحوا يفْسَحِ الله لكم].

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾. النشز: الارتفاع، وأصله من نشز الأرض وهو ارتفاعها. قال النحاس: (النَّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحىٰ). ونشزَ الرجل إذا انتحىٰ من موضعه، وامرأة ناشز أي منتحية عن زوجها.

فالمعنىٰ: إذا قيل لكم ﴿ ٱنشُزُواْ ﴾ عن النبي ﷺ ﴿ فَٱنشُزُواْ ﴾ ـ أي انهضوا فإنه له

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ (6269) ـ كتاب الاستئذان.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (911) ـ كتاب الجمعة، باب: لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ويقعد مكانه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6270) ـ كتاب الاستئذان. عند ذكر آية المجادلة (11).

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 338) بإسناد حسن. وكذلك (2/ 483) للفظ الآخر.

حوائج فلا تمكثوا. وقال قتادة: (المعنىٰ أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف).

قال القاسمي: (﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي انهضوا للتوسعة، أو ارتفعوا في المجالس، أو انهضوا عن مجلس الرسول، إذا أُمِرتم بالنهوض عنه، ولا تملوه بالارتكاز فيه).

وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾. أي: يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره، وأوامر رسوله، فإنه ليس في فسح الرجل لأخيه في المجلس انتقاص له، بل رفعة ومزية عند الله، كما هو النهوض لكل أمر بمعروف.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾. قال ابن مسعود: (مدح الله العلماء في هذه الآية). والمقصود: يرفع الله المؤمنين والعلماء بالثواب في الآخرة وبالكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم، وللعلماء مزية.

قال القرطبي: (المعنىٰ أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أُمِروا به).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9].

2 ـ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عامر بن واثِلَةَ: [أن نافعَ بنَ عبد الحارث لقِيَ عُمَرَ بعُسْفَانَ، وكان عمرُ يَسْتعملُه على مَكَّةَ فقال: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ على أهل الوادي؟ فقال: ابْنَ أَبْزَىٰ؟ قال: وَمَنِ ابْنُ أبزىٰ؟ قال: مَوْلىً مِنْ موالينا. قال: فاسْتَخْلَفْتَ عليهم مَوْلىً!؟ قال: إنَّهُ قارئٌ لكتاب الله عزَّ وجلَّ، وإنَّهُ عالِمٌ بالفرائض. قال عمر: أما إنَّ نبيَّكم ﷺ قَدْ قال: «إنَّ الله يَرْفَعُ بهذا الكتاب أَقْواماً ويضَعُ به آخرين»][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي الدرداء مرفوعاً: [وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب. إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إن

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (817) ـ كتاب صلاة المسافرين، وأخرجه أحمد في المسند (1/ 35)، وابن ماجة (218)، وأخرجه ابن حبان (772).

الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما وَرَّثُوا العلم ، فَمَنْ أخذَهُ أخذ بِحظٍّ وافر][1] .

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [نَضَّرَ الله امرأً سمِعَ منا حديثاً فحفظه حتىٰ يُبَلِّغَه ، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفْقَهُ منه ، وربَّ حامل فِقْهٍ ليس بفقيه][2] .

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ . أي: خبير بمراتب عباده ومنازل أعمالهم ، وقد وسع علمه كل شيء .

12 ـ 13 . قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

في هذه الآيات: الأمْرُ بتقدم النجوىٰ للرسول بالصدقات ، ثم نَسْخُ ذلك والأمر بالتوبة وإقامة الصلوات ، وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله وفعل الخيرات .

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ .

أَمْرٌ من الله تعالىٰ عبادَه المؤمنين إذا أراد أحدهم مناجاة رسول الله ﷺ ومساررته بأمر أن يقدّمَ بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لهذا المقام ، ثم نسخ ذلك . قال قتادة: (إنها منسوخة). وقال ابن عباس: (كان المسلمون يقدّمون بين يدي النجوىٰ صدقة ، فلما نزلت الزكاةُ نُسِخَ هذا) .

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ . أي: خير لكم عند الله وأطهر لقلوبكم من المآثم .

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . قال قتادة: (سأل الناس رسول الله ﷺ حتىٰ أحفوه بالمسألة ، فوعظهم الله بهذه الآية ، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبيّ الله ﷺ ، فلا يستطيع أن يقضيها حتىٰ يقدّم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله عزَّ وجل الرخصة بعد ذلك ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (223) . باب فضل العلماء والحث على طلب العلم .
(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن ـ (3660) ـ كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم .

وقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ﴾.

قال ابن كثير: (أي: أَخِفْتُم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول، ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، فنسخ وجوب ذلك عنهم).

وعن ابن عباس: (قوله: ﴿فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾، ذلك أن المسلمين أكثرُوا المسائلَ على رسول الله ﷺ حتىٰ شقّوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيِّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلما قال ذلك ضَنَّ كثيرٌ من الناس وكَفُّوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فوَسَّعَ الله عليهم ولم يُضَيِّق).

14 ـ 19. قوله تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

في هذه الآيات: ذمُّ الله تعالىٰ المنافقين، وتوعدهم العذاب المهين، وما أولادهم ولا أموالهم بالتي تمنع عنهم نار الجحيم، فلقد عظموا أهواءهم حتى استحوذ عليهم الشيطان الرجيم.

فقوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ الآية. ـ إنكار من الله تعالىٰ على المنافقين موالاتهم للكفار في الباطن وهم لا معهم ولا مع المؤمنين.

قال قتادة: (هم المنافقون تولّوا اليهود وناصحوهم. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يقول: ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم). قال النسفي: (﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ يا مسلمون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ولا من

اليهود ، كقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . أي ويقولون والله إنا لمسلمون لا منافقون ، وهم يعلمون في حقيقة الأمر أنهم كاذبون منافقون .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والإمام ابن جرير في «التفسير» بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس قال : [قال رسول الله ﷺ : يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعيني شيطان . قال : فدخل رجل أزرق ، فقال : يا محمد ، علام سببتني أو شتمتني أو نحو هذا . قال : وجعل يحلف . قال : ونزلت هذه الآية في المجادلة : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ والآية الأخرىٰ][1] . وفي رواية : أن الرسول ﷺ هو الذي قال له : علامَ تشتمني أنت وأصحابك .

فقد أخرج أحمد والحاكم بإسناد على شرط مسلم عن سعيد بن جبير ، أن ابن عباس حدّثه : [أنّ النبي ﷺ كان في ظل حُجْرَةٍ من حُجَرِه ، وعنده نَفَرٌ من المسلمين قد كاد يَقْلِصُ عنهم الظلُّ ، قال : «إنه سيأتيكم إنسان ينظُرُ بعيني شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلّموه» . فجاء رجلٌ أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فَكَلَّمَهُ ، فقال : علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟» ـ نَفَرٌ دعاهم بأسمائهم ـ قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فأنزل الله عز وجلّ : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾][2] .

وقوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : أرصَد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليمَ على أعمالهم السيئة ، وهي موالاة الكافرين ونُصْحِهم ، ومُعاداةُ المؤمنين وغِشِّهم) .

وقوله : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ . أي : اتقوا بالأيمان الكاذبة ، لِيَخدعوا بذلك من لا يعرف أبعاد أعمالهم ، فحصل بذلك صدٌّ عن سبيل الله لبعض الناس . قال القرطبي : (﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ يستجِنُّون بها من القتل . وقرأ الحسن وأبو العالية ﴿إِيمانهم﴾ بكسر الهمزة هنا وفي «المنافقون» . أي إقرارهم اتخذوه جنة ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ، وكفرت قلوبهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ في الدنيا بالقتل

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (1/ 240) ، وابن جرير في «التفسير» (33805) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد (1/ 267) ، والطبري (33808) ، والحاكم (2/ 482) وإسناده على شرط مسلم . وقال صاحب المجمع (7/ 122) : (رجال أحمد رجال الصحيح) .

وفي الآخرة بالنار. والصدّ المنع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن الإسلام. وقيل: في قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق. وقيل: أي بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم).

وقوله: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالىٰ ذكره: لن تغني عن هؤلاء المنافقين يوم القيامة أموالهم، فيفتدوا بها من عذاب الله المهين لهم، ولا أولادهم، فينصرونهم، ويستنقذونهم من الله إذا عاقبهم).

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. أي: هؤلاء المنافقون الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم، وأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر هم أهل النار الذين هم فيها ماكثون.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ﴾. قال قتادة: (إنّ المنافق حلف له يوم القيامة كما حلف لأوليائه في الدنيا). وفي رواية قال: (والله حالَفَ المنافقون ربهم يوم القيامة، كما حالفوا أولياءه في الدنيا).

قلت: وهذا أمر عجيب، وهو بعث الله المنافقين من قبورهم أحياء كهيئاتهم قبل مماتهم: في خلقهم وسلوكهم، فيحلفون له مغالطين كاذبين كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا.

وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾. أي: في حلفهم وإنكارهم أمام ربهم عز وجل. قال ابن زيد: (ظنوا أنهم ينفعهم في الآخرة).

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾. تقرير لحالهم الذي كانوا عليه في الدنيا وبعثوا عليه.

وقوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾. أي: غلب عليهم الشيطان واستحوذ على قلوبهم حتىٰ غفلوا عن ذكر الله وتركوا طاعته.

قال المفضّل: (﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ﴾ أحاط بهم). وقيل: غلب واستعلىٰ عليهم بوسوسته لهم في الدنيا. وقيل: قوي عليهم. وفي لغة العرب: أحوذ فلان الشيء إذا جمعه وضم بعضه إلى بعض. والمقصود: جمعهم الشيطان فغلبهم وقوي عليهم وأحاط بهم حتىٰ كانت الغفلة وإهمال الطاعة أو الترك بالكلية.

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾. أي: جنده وأتباعه وطائفته ورهطه.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. قال القرطبي: (في بيعهم، لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة).

أخرج الإمام أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، بسند حسن عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما مِنْ ثلاثةٍ في قَرْيةٍ ولا بَدْوٍ، لا تُقامُ فيهم الصلاةُ إلا قد استحوذَ عليهم الشيطانُ، فعليكَ بالجماعة فإنما يأكل الذئبُ القاصيةَ][1].

20 ـ 22. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: كتابةُ الله النصر للمؤمنين والخزي على الكافرين، والولاء والبراء جزء من منهج الإيمان عند المسلمين، وأهله هم حزب الله وأهل رضوانه وقد وعدهم الله جنات النعيم.

فعن قتادة: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ يقول: يعادون الله ورسوله). وقال مجاهد: (يعادون، يشاقّون).

فقوله: ﴿يُحَآدُّونَ﴾. أي هم في حدٍّ، والشرع في حدٍّ، فهم مجانبون للحق مشاقون له، قد جعلوا أنفسهم في ناحية بعيدة عن ناحية الهدىٰ والرشاد.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾. أي هم في أهل الذلة والصغار والشِّقوة.

وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾. قال قتادة: (كتب الله كتاباً وأمضاه).

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 196)، وأبو داود (547)، والنسائي (2/ 106)، وابن حبان (2101)، وابن خزيمة (1476)، والحاكم (1/ 211). انظر صحيح أبي داود (511).

قال ابن جرير: (يقول: قضىٰ الله وخطَّ في أمّ الكتاب، لأغلبنّ أنا ورسلي من حادّني وشاقّني).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. قال النسفي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لا يمتنع عليه ما يريد ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب غير مغلوب).

وقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

قال قتادة: (لا تجد يا محمد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادّون من حادّ الله ورسوله: أي من عادىٰ الله ورسوله). قال القرطبي: (﴿يُوَآدُّونَ﴾: يحبون ويوالون).

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

أي: لا يوادّ المؤمنون المحادّين لله ورسوله ولو كانوا أقرب الأقربين كالآباء والأبناء والإخوان وغيرهم من القرابة والأرحام.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28].

2 ـ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق هذه الآية أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الحاكم والطحاوي بسند رجاله ثقات من حديث حبيب بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده قال: [رأيت رسول الله ﷺ، وهو يريد غزواً، أنا ورجل من قومي، ولم نسلم، فقلنا: إنا نستحي أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم، قال: أو أسلمتما؟ قلنا: لا، قال: فلا نستعين بالمشركين على المشركين، قال: فأسلمنا، وشهدنا معه، فقتلت رجلاً، وضربني ضربة، وتزوجت بابنته بعد ذلك، فكانت

تقول: لا عدمتُ رجلاً وشحك هذا الوشاح! فأقول: لا عدمتُ رجلاً عجل أباك إلى النار][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عمر ـ في قصة أسارىٰ بدر ـ قال: [فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم، فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرىٰ أن تأخذَ منهم الفدية، فيكونَ ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسىٰ أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترىٰ يا ابن الخطاب؟ قال: قلت والله ما أرىٰ ما رأىٰ أبو بكر. ولكن أرىٰ أن تمكنني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضربَ عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضربَ عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم...] الحديث[2] ـ وقد نزل الوحي بعدها يوافق قول عمر ـ.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾. أي المؤمنون أصحاب منهج الولاء والبراء.

قال السدي: (﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾: جَعَل في قلوبهم الإيمان).

وقال الربيع بن أنس: (كَتَبَ: أثبت). وقيل: ﴿كَتَبَ﴾ ـ أي جمع.

وقيل: خلق في قلوبهم التصديق، يعني من لم يوال من حاد الله ـ حكاه القرطبي.

وقوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾. قال ابن عباس: (أي: قوّاهم). وقال الحسن: (﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾: بنصر منه). وقال الربيع بن أنس: (بالقرآن وحججه). وقال ابن جريج: (بنور وإيمان وبرهان وهدىٰ). وقيل برحمة من الله. وقيل: أيدهم بجبريل عليه السلام. قلت: وهذه المعاني متقاربة متكاملة تغطي آفاق مفهوم هذه الآية.

وقوله: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

قال ابن كثير: (وفي قوله تعالىٰ: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾: سرٌّ بديعٌ، وهو أنه لما سَخِطُوا على القَرَائب والعَشَائِر في الله عَوَّضَهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطحاوي (3/ 239)، وأحمد (3/ 454)، والحاكم (2/ 121 ـ 122) وصححه، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ عقب حديث ـ (1101).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 30 ـ 31)، وبنحوه رواه مسلم (1763).

أعطاهُم من النعيم المُقيم ، والفوز العظيم والفضل العميم).

وقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾. أي: أولئك الذين هذه صفتهم جندُ الله وأولياؤه وأهل كرامته.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. قال النسفي: (الباقون في النعيم المقيم ، الفائزون بكل محبوب ، الآمنون من كل مرهوب). وقال القاسمي: (أي الناجحون الفائزون بسعادة الدارين).

قلت: وهذه الآية في وصف المؤمنين بأنهم حزب الله المفلحون ، تقابل الآية التي سبقتها في وصف المنافقين الكاذبين بأنهم حزب الشيطان الخاسرون. فهؤلاء أهل النعيم المقيم ، وأولئك أهل الشقاء في الجحيم.

تم تفسير سورة المجادلة
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منّه وكرمه
عصر السبت 12 رمضان 1426 هـ
الموافق 15 / تشرين الأول / 2005 م



دروس ونتـائج وأحكـام

1 ـ الله تعالىٰ يسمع السر والنجوىٰ مهما خفيت ، فسمع المجادلة وهي في بيت عائشة من فوق سبع سماوات ، وعائشة لم تسمعها تماماً ولو أصغت .

2 ـ الظِّهار من أمر الجاهلية ، ولا تحل امرأة المظاهر له إلا بعد الكفارة ، والكفارة عتق أو صيام أو إطعام قبل أن يتماسا .

3 ـ الله تعالىٰ يعلم النجوىٰ ، ونهىٰ رسول الله ﷺ أن يتسار اثنان دون الثالث فيحزن ، واليهود والنصارىٰ كانوا يتناجون في معصية الرسول فكشفهم الله وأرداهم .

4 ـ لا يقيم الرجلُ الرجلَ مِنْ مَجْلِسِه ثم يَجْلِسُ فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم .

5 ـ لا يجوز القيام تعظيماً لأحد من الناس ، والصحابة قاموا لإنزال سعد لأنه مصاب جريح لا دخل للتعظيم في ذلك ، والقيام لا ينبغي إلا لله .

6 ـ أمر الله بدفع صدقة إذا ناجىٰ أحد الرسول إشعاراً لهم بقدر نبيهم وهديه ، ثم نسخت الآية تخفيفاً عنهم .

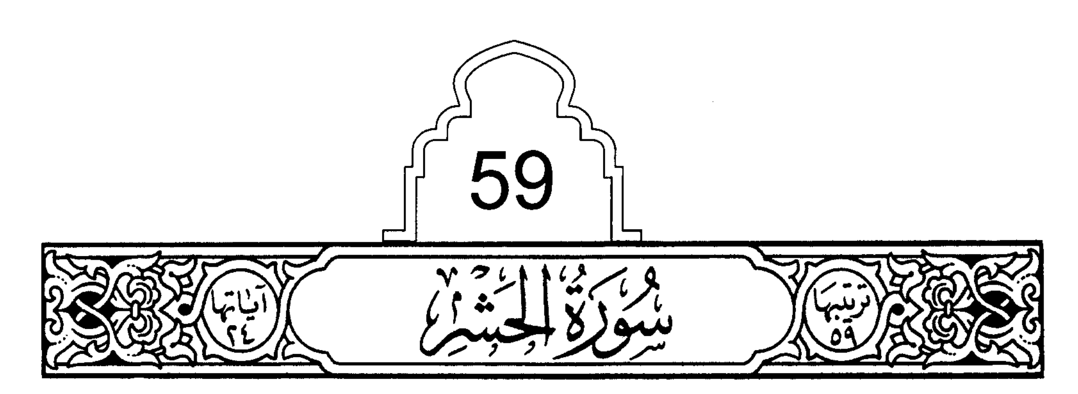
7 ـ اليمين الغموس أن يحلف الرجل كذباً وهو يعلم ، وهي من أكبر الكبائر .

8 ـ ما يستحوذ الشيطان إلا على حزبه المنافقين والكافرين وأمثالهم .

9 ـ المؤمن لا يوادّ من حادّ الله ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه .

10 ـ حزب الله المفلحون هم الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله ، فأولئك هم الفائزون ، وحزب الشيطان هم الخاسرون .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (24).

روىٰ البخاري في كتاب التفسير من صحيحه عن سعيد بن جبير قال: [قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفَاضِحَةُ ما زالت تَنْزِلُ: ومِنْهُمْ ومِنْهُمْ ، حتىٰ ظنوا أنها لم تُبْقِ أحداً منهم إلا ذُكِرَ فيها. قال: قلت: سورةُ الأنفال؟ قال: نَزَلَتْ في بَدْرٍ. قال: قلت: سورةُ الحشر؟قال: نزلت في بني النضير][1].

وروىٰ البخاري في كتاب المغازي من صحيحِهِ عن سعيد بن جبير قال: [قلتُ لابن عباس: سورةُ الحشر ، قال: قُلْ: سورة النضير][2].

وسميت سورة الحشر لأنهُ كان في إجلاءِ بني النضير أول حشر في الدنيا إلى الشام.

موضوع السورة

حشر يهود بني النضير إلى أرض المحشر في الشام
وثناء الله تعالى على المهاجرين والأنصار الكرام

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ اشتراك الخلائق جميعاً بالتسبيح لله العزيز الحكيم ، وإخراج يهود بني النضير من ديارهم صاغرين.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4882) ، كتاب التفسير. وكذلك (4029) ، كتاب المغازي.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4029) ، كتاب المغازي. وكذلك (4883) ، كتاب التفسير.

2 ـ جعل الله الثواب على قطع نخل هؤلاء الماكرين ، أو تركِهِ وكل ذلكَ ليخزي الفاسقين.

3 ـ ذكر الأموال التي أغدقها سبحانه على رسوله من جرّاءِ تشريد بني النضير وإخراجهم.

4 ـ تنبيه المؤمنين لتعظيم هديه عليه الصلاة والسلام ، فأمرهُ وَقَسْمُهُ يقتضي الامتثال من الأتباع الكرام.

5 ـ الثناء على المهاجرين والأنصار أهل السبق إلى الإيمان ، وبيان فضل من جاء بعدهم من أهل الإحسان.

6ـ الإخبار عن المنافقين ومكرهم وتآمرهم مع اليهود ضد النبي عليه السلام ، وتشبيه سلوكهم في المكر بوسواس الشيطان.

7 ـ الوصية للمؤمنين بصدق التقوىٰ والاستعداد ليوم الدين ، ولا يكونوا كالذين نسوا الله فنسيهم ، وكانوا من الفاسقين.

8 ـ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، فأصحاب الجنة هم أهل الفوز والنعيم.

9ـ تصدّع الجبال خشية لله من كلامِهِ العظيم ، ليعرف الإنسان تقصيره تجاه ربه الكريم.

10 ـ تفرد الله تعالى بالأسماء الحسنىٰ والصفات العليا ، وهو العزيز الحكيم.

❑ ❑ ❑

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 ـ 5. **قوله تعالى:** ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾.

في هذه الآيات: تسبيحُ الخلائق جميعاً لله العزيز الحكيم، وإخراجُ يهود بني النضير من ديارهم صاغرين، وذلكَ جزاءُ الكافرين الماكرين، وعَقْدُ الله الثواب على قطع نخلهم أو تركهِ ليخزي الفاسقين.

فقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾. أي صلىٰ لله، وسجد لهُ وعظّمه ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من خلقه. كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾. أي في انتقامهِ من أعدائهِ، مَنيعُ الجنابِ لا يعجزهُ شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير شؤون خلقه وفي قدره وشرعه.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾.

أي: هو الذي أخرج الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ وحاولوا قتله ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم يهود بني النضير أذلاء صاغرين من ديارهم إلى الشام فكانَ ذلكَ أول حشر في الدنيا إلى أرض المحشر والمنشر ـ الشام ـ. وأما تفصيل ذلكَ من صحيح السيرة:

فقد كان القراء السبعون الذين غُدِرَ بهم في بئر معونة من خيار المسلمين ، يحتطبون بالنهار ويتصدقون من ذلكَ على أهل الصفة ، ويقومون بالليل يصلون ويسبحون ، ويتدارسون بينهم القرآن. ففقدهم المسلمون في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة.

وقد فرح المنافقون واليهود في المدينة بما حصل ، وبدأت حركات المكر والدّس والخداع ، وكان اليهود قد أسهموا في تقديم المعلومات إلى قريش عن المسلمين ، وشاركوا في تحريضها واستثارتها لتأتي إلى قتال أُحُد.

قال ابن إسحاق: (كانت النضير قد دسّوا إلى قريش وحضوهم على قتال رسول الله ﷺ ودلّوهم على العورة).

وكان اليهود أيضاً قد أعانوا أبا سفيان من قبل في غزو أطراف المدينةِ حيث جاءها ليلاً ، والتي أدت لمطاردة المسلمين له في غزوةِ السويق بعد بدر ، بعدما فرّ هو وأصحابه متخففين من السويق أثناء الهروب.

أضف إلى ذلكَ تلك الأشعار الخبيثة التي أطلقها كعب بن الأشرف النضري ، والتي أفلت بها لسانهُ وبسطه في أعراض النبي ﷺ وأصحابه ونساء المسلمين ، والتي كانت سبباً لتصفيته وتخليص الأرض من رجسه.

أضف إلى ذلكَ أيضاً محاولتين جديدتين من يهود بني النضير في هذه الفترة ، للغدر وقتل النبي ﷺ ، من خلال طرق شيطانية وأساليب خسيسة ، هي جزء من منهج اليهود المكرة والمغضوب عليهم ، والذي عُرفوا به على مدار العصور والأزمان.

المحاولة الأولى: محاولة من بني النضير لاغتيال النبي ﷺ بعد غزوة بدر الكبرىٰ.

وكان ذلكَ إثر كتاب بعثت به قريش إليهم ، فيه تهديد ووعيد ، إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ ويجتمعوا على قتله.

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: [كتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحَلْقَةِ والحصون ، وإنكم لَتُقَاتِلُنَّ صاحبنا ، أو لَنَفْعَلَنَّ كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء ـ وهي الخلاخيل ـ فلما بلغ كتابُهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابكَ ، وليخرج منا ثلاثون حَبْراً ، حتىٰ نَلْتَقي بمكان المَنْصَفِ ـ أي موضع وسط ـ فيسمعوا منك ، فإن

صدقوكَ وآمنوا بكَ ، آمنا بك ، فقص خبرهم . .][1] .

ورواه عبد الرزاق في «المصنف» والحاكم في «المستدرك» والحافظ ابن حجر في «الفتح» ، وفيهِ أنهم لما اقتربوا اقترح اليهود أن يجتمع النبي ﷺ ومعهُ ثلاثة من أصحابهِ بثلاثةٍ من أحبارهم ، فإن أقنعهم آمنت بنو النضير ، وقد حمل الثلاثة خناجرهم ، إلا أن امرأة منهم قد أفشت خبرهم لأخ لها مسلم ، فهرع إلى النبي ﷺ وأخبرهُ بما بَيّتَ القوم ، فرجع عليهِ الصلاة والسلاَم ولم يقابلهم[2] ، ونجّىٰ الله نبيّهُ من قتلةِ الأنبياء يهود .

المحاولة الثانية : محاولة أخرىٰ من بني النضير لقتل النبي ﷺ بإلقاء صخرة عليه . وهذه المحاولة الثانية من يهود ، رواها ابن إسحاق وتابعه كتاب السير ، ومفادها أن النبي ﷺ ذهب بنفسهِ إلى بني النضير مع نفر من أصحابهِ ، وكلمهم في أن يعينوه على دفع دية الرجلين من بني كلاب ، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ، في أعقاب حادثة بئر معونة ، وكان ذلكَ يجب عليهم حسب بنود المعاهدة .

قال ابن إسحاق : (ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ، يستعينهم في ديةِ ذَينك القتيلين من بني عامر ، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري ، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، كما حدثني يزيد بن رومان ، وكان بَين بني النضير وبين بني عامر عقدٌ وحِلفٌ ، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في ديةِ ذَيْنَك القتيلين ، قالوا : نَعَمْ يا أبا القاسم ، نعينُكَ على ما أحْبَبْتَ ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلىٰ جنب جِدار من بيوتهم قاعد ـ فَمَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت ، فيُلقي عليه صخرةً ، فيريحنا منه؟

فانتدب لذلكَ عمرو بن جِحَاش بن كعب ، أحدهم ، فقال : أنا لذلكَ ، فَصَعِدَ لِيُلقِي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابهِ ، فيهم أبو بكر وعمر وعلي ، رضوان الله عليهم . فأتىٰ رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرجَ راجعاً إلى المدينةِ . فلما اسْتَلْبَثَ النبيَ ﷺ أصحابُه ، قاموا في طلبه ، فَلَقُوا

---

(1) حديث صحيح . انظر سنن أبي داود (2/ 139 ـ 140) ، كتاب الخراج والفيء والإمارة ، والحديث رجاله ثقات ، وجهالة اسم الصحابي لا تضر . وانظر كتابي : «السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة» (2/ 800) لتفصيل الحدث .

(2) انظر : «المصنف» لعبد الرزاق (5/ 359 ـ 360) ، و «فتح الباري» (7/ 331) .

رجلاً مقبلاً من المدينةِ ، فسألوهُ عنه ، فقال: رأيتهُ داخلاً المدينة. فأقبل أصحابُ رسول الله ﷺ حتىٰ انتهوا إليهِ ﷺ ، فأخبرهم الخبرَ ، بما كانت اليهود أرادت من الغَدْرِ به ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤِ لحربهم ، والسير إليهم)[1].

فهذه السلسلة من الأعمال العدوانية التي كانت تشير لسوء العلاقة ونبذ العهد من جانب بني النضير مع المسلمين ، والتي ختمت بمحاولتي اغتيال للنبي ﷺ ، كانت سبباً مباشراً في حصارهم وإجلائهم.

وكانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة أربع من الهجرة. وذكر ابن سعد والواقدي دون إسنادٍ أن النبي ﷺ بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: (اخرجوا من المدينةِ ولا تساكنوني بها ، وقد أجَّلْتكم عشراً ، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه).

فاستعدوا للخروج والرحيل إذ لم يجدوا مناصاً منه ، وهموا بذلكَ لولا أن عبد الله ابن أبي بن سلول المنافق حرَّضهم مع بعض المنافقين من أصحابه على التمرّد وعدم الخروج ، ووعدهم وعوداً كاذبة بالنصر والعون ، فأعلنوا تمردهم وتحصنوا بحصونهم.

قال ابن إسحاق: (وقد كان رهط من بني عَوف بن الخزرج ، منهم عدو الله عبد الله ابن أبيّ بن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل ، وسُوَيد وداعس ، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا ، وتمنَّعوا فإنا لن نُسْلِمكم ، وإن قُوتِلْتُمْ قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم).

وهنا شَعَرَ اليهود بالأمن ورجعت إليهم ثِقَتُهم ، واختاروا المناوأةَ والتحدي ، وأعلن رئيسهم حيي بن أخطب التمرد ، إذ بعث إلى رسول الله ﷺ يقول: (إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك).

فاشتاط المسلمون غضباً لهذا التحدّي السافر ، ونفوسهم ما زالت جريحة من ألم بئر معونة ، وقد رأوا تكالب العرب عليهم من كل جانب ، وتآمر الأعراب لاغتيالهم أفراداً وجماعات ، وها هي يهود تقدم على محاولة دنيئة لقتل النبي ﷺ ، ثم تعلنُ التمرد والكبر ، فما كان أمامهم إلا خوض الملحمة مهما كانت النتائج.

---

(1) انظر: «السيرة» لابن إسحاق (3/ 191) ، وكتابي: السيرة النبوية (2/ 800 ـ 801).

وبالفعل ، فما إن بلغ النبي ﷺ جواب حيي بن أخطب إلا كَبَّرَ وَكبَّرَ أصحابهُ ، ثم نهض لمناجزة القوم ، وأعطىٰ اللواء إلى علي بن أبي طالب.

قال ابن هشام : (واستعمل على المدينة ابن أمِّ مكتوم). وقال ابن إسحاق : (ثم سار بالناسِ حتىٰ نزل بهم).

ولما انتهىٰ رسول الله ﷺ إلى بني النضير ، وجدهم قد لجؤوا إلى حصونهم وتحصَّنوا بها ، فما إن أبصروا الجيش إلا بدؤوا يرمون المسلمين من داخل حصونهم بالنَّبل والحجارة ، تعينهم في ذلك وتغطيهم بساتينهم ونخيلهم ، وهنا أصدر النبي ﷺ أوامرهُ إلى جنده بقطع النخيل وتحريقها.

قال ابن إسحاق : (فنادوه: أن يا محمد ، قد كنتَ تنهىٰ عن الفساد ، وتعيبه على من صَنَعهُ ، فما بالُ قطع النخيل وتحريقها).

إلا أن النبي ﷺ لم يأبه لهذه الحركات الشيطانية ، والدعايات الصبيانية من يهود ، بل مضىٰ في إصدار أوامره لأصحابِهِ ، فهو يعلم أن اليهود قوم غدر مكرة ، لا ينفع معهم إلا السيف والحسم.

يروي أبو داود بسند صحيح عن عبد الرحمن بن كعب ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : [فلما كانَ الغد ، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم ، فقال لهم: إنكم واللهِ لا تأمنون عِندي إلا بعهد تُعاهدوني عليه ، فأبوا أن يعطوهُ عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك. ثم غدا على بني قريظةَ بالكتائب ، وتركَ بني النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه. فانصرف عنهم ، وغدا على بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتىٰ نزلوا على الجلاء ، فجلت بنو النضير ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم ، وأبواب بيوتهم وخشبها ، فكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها ، وخصّه بها ، فقال : ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ يقول: بغير قتال ، فأعطىٰ النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين ، وقسمها بينهم ،وقسم منها لرجلين من الأنصار ، وكانا ذوي حاجة ، لم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما ، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ ، التي في أيدي بني فاطمة][1].

فأذاقهم الله الخزي في الدنيا ، قبل ما ينتظرهم من خزي الآخرة ، وخذلهم

(1) حديث صحيح. انظر سنن أبي داود (3/ 404 ـ 407) ، وكتابي : السيرة النبوية (804).

المنافقون وتخلوا عنهم ، وخضعوا لأمر النبي ﷺ واستسلموا له ، ورجوه أن يُجْليهم ويكف عن دمائهم ، على أن يحملوا على الإبل ما استطاعوا من أموالهم إلا السلاح ، فأجازهم ، فجعلوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، ويخلعون أبوابها وما وافقهم من أخشابها وشبابيكها . وأنزل اللهُ فيهم سورة كاملة من القرآن ، وهي سورة الحشر .

قال ابن إسحاق : (ونزل في بني النضير سورةُ الحشر بأسرها ، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمتهِ ، وما سلط عليهم به رسوله ﷺ وما عمل به فيهم) .

أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن عائشة رضي اللهُ عَنها قالت : [فحاصرهم رسول الله ﷺ حتىٰ نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة ـ يعني السلاح ـ فأنزل الله فيهم : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله : ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ فقاتلهم النبي ﷺ حتىٰ صالحهم على الجلاء فأجلاهم إلى الشام ، وكانوا من سبطٍ لم يصبهم جلاء فيما خلا ، وكان الله قد كتب عليهم ذلك ، ولولا ذلكَ لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي ، وأما قوله : ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ فكانَ ذلكَ أول حشر في الدنيا إلى الشام][1] .

قال ابن عباس : (من شكَ في أن أرضَ المحشر هاهنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ : «اخرجوا» . قالوا : إلى أين؟ قال : «إلى أرض المحشر») .

وفي المسند للإمام أحمد ، وكذلكَ في سنن ابن ماجة بإسناد صحيح من حديث ميمونة بنت سعد ، عن النبي ﷺ قال : [الشام أرض المحشر والمَنْشَر][2] .

وعن قتادة : (قوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ قيل : الشام ، وهم بنو النضير حي من اليهود ، فأجلاهم نبي الله ﷺ من المدينة إلى خيبر ، مرجعه من أحد) .

ثم قال سبحانهُ مخاطباً المؤمنين : ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ وينزل بهم الخزي فيغادروا مساكنهم ومنازلهم ﴿وَظَنُّوٓا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وذلكَ لما أرسل إليهم رأس المنافقين وجماعته أن اثبتوا في حصونكم ووعدوهم النصر ، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم والبيهقي. انظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة الحشر. وكتابي: «السيرة النبوية على منهج الوحيين» (2/ 805).
(2) حديث صحيح. انظر أحاديث فضائل الشام (4) ، وصحيح الجامع الصغير (3620).

﴿يَحْتَسِبُواْ﴾ أن يأتيهم ، وقذف بهم الرعب فزلزل قلوبهم ، فأخذوا ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ من داخلها ، والمسلمون يخربونها من ظاهرها ، وهو قوله: ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قال الزهري: (لما صالحوا النبي ﷺ كانوا لا يعجبهم خشبة إلا أخذوها ، فكان ذلكَ خرابها). وقال قتادة: (كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها ، وتخربها اليهود من داخلها). وقال ابن زيد: (هؤلاء النضير ، صالحهم النبي ﷺ على ما حملت الإبل ، فجعلوا يقلعون الأوتاد يخربون بيوتهم).

وقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾. فيه مشروعية القياس في الإسلام ، كدليل من أدلةِ الاستنباط في الشريعة. والمعنىٰ: أي فقيسوا أنفسكم وأعمالكم واتعظوا يا ذوي الأفهام أن ينزل بكم ما نزل بيهود إن قلدتم مسلكهم.

قال ابن جرير: (وإنما عُني بالأبصار في هذا الموضع أبصار القلوب ، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون).

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾. قال البخاري: (الجلاء الإخراج من أرض إلى أرض).

والمقصود: لولا أن قضىٰ الله جلاء يهود بني النضير من أرضهم وديارهم ، لعذبهم في الدنيا بالقتل والسَّبي ، ولكنه رفع العذاب عنهم في الدنيا بالقتل ، وجعل عذابهم في الدنيا الجلاء.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾. حَتْمٌ لازم لهم في الآخرة صلي النار ، بعد أن أخزاهم ـ تعالى ـ في الدنيا بالرحيل من ديارهم صاغرين ، ليجمع لهم سبحانه بذلك بين الخزيين.

لقد خرجوا يحملون أبواب بيوتهم وشبابيكها بعد أن خربوا ديارهم بأيديهم ، حتىٰ حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف ثم حملوا النساء والصبيان ، وتحملوا على ست مئة بعير. قال ابن إسحاق: (فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، فكان أشرافهم مَنْ سار منهم إلى خيبر: سلاّم بن أبي الحُقيق ، وكِنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق ، وحُيَيّ بن أخطب).

قال: (وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة ، يضعها حيث يشاء ، فقسّمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار. إلا أن سَهْلَ بن حُنيف وأبا دجانة سِماكُ بن خرشة ذكرا فَقْراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ.

قال: ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: يامينُ بن عُمير، وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحْرزاها).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. قال القرطبي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ أي عادوه وخالفوا أمره). وقال القاسمي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الجلاء والعذاب ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ﴾ أي خالفوا ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي فيما نهاهم عنه من الفساد، ونقض الميثاق).

وقوله: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. أي له في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قال مجاهد: (نهىٰ بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل، وقالوا: إنما هي مغانم المسلمين، ونزل القرآن بتصديق من نهىٰ عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه).

وفي الصحيحين عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: [حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع، وهي البُوَيْرَة[1] فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾][2].

وفي جامع الترمذي وسنن النسائي بسند حسن عن ابن عباس: [في قول الله عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ قال: اللينة[3]: النخلة، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: استنزلوهم من حصونهم. قال: وأُمِروا بقطع النخل فحكّ في صدروهم، فقالوا: قد قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً، ولنسألن رسول الله ﷺ هل لنا فيما قطعنا من أجر، وهل علينا فيما تركنا من وزر، فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾][4].

---

(1) البويرة: اسم لنخل بني النضير.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4031)، كتاب المغازي، وأخرجه مسلم (1746) ح (29).
(3) قال الأخفش: إنما سميت لينة اشتقاقاً من اللَّون لا من اللين. قيل: وأصلها لونة. وقيل: بل أصلها لينة من لانَ يلينُ. وقيل هي النخلة القريبة من الأرض. والله أعلم.
(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3303)، والنسائي في «التفسير» (594) بسند صحيح.

6 ـ 7. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله سبحانه الأموال التي أغدقها على رسوله من جرّاء تشريد بني النضير وإخراجهم، وجعلها خالصة لنبيّه ﷺ يقسمها كيف يشاء بينهم. وتنبيهُ الله المؤمنين لتعظيم هديه عليه الصلاة والسلام، فإن أمره ونهيه وقَسْمه يعني الامتثال والرضا من الأتباع الكرام.

فقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

الفيء لغة من فاء يفيء إذا رجع. وهو المال الذي أخذه المسلمون من أعدائهم دون قتال. والإيجاف سرعة السير، وهو كناية عن القتال والجهاد، والركاب ما يركب عليه من الإبل.

أخرج البخاري في صحيحه عن عمرَ رضي الله عنه قال: [كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يوجِف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، وكان ينفق على أهله نفقة سنتهِ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكُراعِ(1) عُدَّةً في سبيل الله](2).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال النسفي: (يعني أن ما خوّل الله رسوله من أموال بني النضير شيء لم تحصلوه بالقتال والغلبة، ولكن سلطه الله عليهم وعلى ما في أيديهم كما كان يسلط رسله على أعدائهم، فالأمر فيه مفوض إليه يضعه حيث يشاء ولا يقسمه قسمة الغنائم التي قوتل عليها وأخذت عنوة وقهراً).

---

(1) الكراع: اسم لجميع الخيل.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2904)، كتاب الجهاد والسير.

وقوله: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: ما أفاء الله على رسوله من جميع البلدان التي تُفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير في التقسيم، فالله سبحانه لم يقسم هذا الفيء أخماساً ولا أثلاثاً، وإنما ذكر في الآية من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم أهم من يدفع إليه.

قال الإمام مالك: (هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطي منه القرابة باجتهاد، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين).

وقوله: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾. قال القرطبي: (ومعنىٰ الآية: فَعَلْنا ذلك في هذا الفيء، كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس رُبْعها لنفسه، وهو المِرْباع. ثم يصطفي منها أيضاً بعد المِرْباع ما شاء. يقول: كي لا يعمل فيه كما كان في الجاهلية. فجعل الله هذا لرسوله ﷺ، يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعاً).

وقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾. أصل عظيم من أصول هذه الشريعة العظيمة، ومنهاج قويم لبناء أمة قوية كريمة.

قال الحسن: (﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ قال: يؤتيهم الغنائم ويمنعهم الغلول). وقال السدي: (ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه، وما منعكم منه فلا تطلبوه). وقال ابن جُريج: (ما آتاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه). وقال الماوردي: (وقيل إنه محمول على العموم في جميع أوامره ونواهيه، لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهىٰ إلا عن فساد).

أخرج البخاري ومسلم وأحمد وأصحاب السنن عن عَلْقَمةَ: [عن عبد الله قال: لَعَنَ اللهُ الواشِمات والموتَشِماتِ، والمُتَنَمِّصاتِ والمُتَفَلِّجاتِ للحُسْنِ، المُغَيِّراتِ خَلْقَ الله، فبلغ ذلك امرأةً من بني أسَدٍ يُقال لها: أُمُّ يعقوبَ، فجاءت فقالت: إنه بَلَغَني أنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وكَيْتَ، فقال: ومالي لا ألْعَنُ مَنْ لعَنَ رسولُ الله ﷺ ومَنْ هو في كتابِ اللهِ؟ فقالت: لقد قَرَأْتُ ما بين اللَّوْحَيْنِ فمَا وجدتُ فيه ما تقولُ، فقال: لئِنْ كُنْتِ قَرأْتِيه لقد وَجَدْتيه، أما قرأت: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ قالت: بلىٰ، قال: فإنه قد نهىٰ عنه، قالت: فإني أرىٰ أهلكَ يَفْعَلونه، قال: فاذهبي

فانظري ، فذهبَت فنظرتْ فلم تَر مِنْ حاجتها شيئاً ، فقال: لو كانت كذلك ما جامَعْتُها][1] .

وأخرج النسائي بسند صحيح عن ابن عمر وابن عباس: [أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه نهىٰ عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾][2] .

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ . أي: خافوا عذاب الله ، بتعظيم أوامره وترك معصيته ، فإنه تعالىٰ شديد العقاب لمن عصاه ، وخالف أمره أو أمر رسوله فأباه.

8 ـ 10 . قوله تعالىٰ: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: ثناءُ الله تعالىٰ على المهاجرين والأنصار أهل السبق إلى الإيمان ، وبيان حال الذين جاؤوا من بعدهم أهل الفضل والإحسان.

فقوله: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ . بيان من الله تعالىٰ لحال الفقراء المهاجرين المستحقين للفيء. فقد أخرجهم كفار مكة ، أي أحوجوهم إلى الخروج.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4886) ، كتاب التفسير ، وأخرجه مسلم (2125) ح (120) ، وأخرجه أبو داود (4169) ، والترمذي (2782) ، والنسائي (5099) ، وفي «التفسير» (599) ، وابن ماجة (1989) ، وأخرجه أحمد (1/ 433).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (5215) ، ورواه مسلم (6/ 95) دون تلاوة الآية.

وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾. قال القرطبي: (أي غنيمة في الدنيا ﴿وَرِضْوَانًا﴾ في الآخرة، أي مرضاة ربهم).

وقوله: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ﴾. قال ابن كثير: (أي: هؤلاء الذين صَدَّقوا قولَهم بفعلِهم، وهؤلاء هُم ساداتُ المهاجِرين).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. مدحٌ للأنصار وثناء عطر عليهم، وبيان لشرفهم وفضلهم وكرمهم. فهم الذين ﴿تَبَوَّءُو الدَّارَ﴾ أي: سكنوا المدينة واستوطنوها قبل قدوم المهاجرين إليهم، وآمنوا قبل كثير منهم.

أخرج البخاري في صحيحه عن عَمْرو بن مَيمون قال: قال عمر رضي الله عنه: [أُوصي الخليفة بالمهاجرين الأوَّلين أنْ يَعْرِف لهم حَقَّهم، وأوصي الخليفة بالأنصار الذين تبوؤوا الدارَ والإيمان مِنْ قَبْل أن يُهاجِرَ النبي ﷺ: أن يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهم ويَعْفُوَ عن مسيئِهم](1).

وقوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾. قال ابن زيد: (هؤلاء الأنصار يحبون من هاجر إليهم من المهاجرين).

والمقصود: لقد أظهر الأنصار تألق نفوسهم وما انطوت عليه من الشرف والكرم حتىٰ شاطروا إخوانهم المهاجرين أموالهم، وأنزلوهم منازلهم، ونزل من كان عنده زوجتان عن إحداهما لأخيه من المهاجرين يتزوجها.

ومن كنوز السنة العطرة في آفاق ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن سفيان عن يحيىٰ بن سعيد: [سمع أنسَ بن مالك رضي الله عنه حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبيُ ﷺ الأنصار إلى أن يُقْطِعَ لهم البحرين، فقالوا: لا إلاّ أن تُقْطِعَ لإخواننا من المهاجرين مِثْلَها. قال: إمَّا لا فاصبروا حتىٰ تَلْقَوني، فإنه سيصيبُكم بَعْدي أَثَرَةٌ](2).

الحديث الثاني: أخرج الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسِم بَيْننا وبَيْن إخوانِنَا النخيل، قال: لا، فقالوا: تكفونا المؤونة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4888)، كتاب التفسير، وانظر الحديث (1392).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3794)، كتاب مناقب الأنصار. وانظر (2376).

ونُشْرِكُكُم في الثَّمرَة ، قالوا: سمعنا وأطعنا][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس قال: [قال المهاجرون: يا رسول الله ! ما رأينا مثلَ قوم قدمنا عليهم أحسنَ مواساةً في قليلٍ ولا أحسنَ بذلاً في كثيرٍ ، لقد كَفونا المُؤْنَة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ! قال: «لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم»][2].

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ . قال الحسن: (يعني الحسد). وقال قتادة: (﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني مما أُعطي إخوانهم). والمعنى: ومن كرم هؤلاء الأنصار وسمو أخلاقهم وتألق خصالهم أنهم لا يجدون في أنفسهم حسداً لإخوانهم المهاجرين فيما فَضَّلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم في الذكر والرتبة ، والسَّبْق في بعض الخصال ورفيع الأعمال.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، والإمام النسائي في «السنن الكبرى» بسند على شرط الشيخين عَنْ أنس قال: [كُنّا جُلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يَطْلُعُ عليكم الآنَ رجلٌ من أهل الجنة». فَطَلَع رجلٌ من الأنصار تَنْطُفُ لحيتُه من وضوئِه ، قد تَعَلَّقَ نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغدُ قال رسول الله ﷺ مثلَ ذلك ، فطلعَ ذلك الرجل مثل المَرَّة الأولىٰ ، فلما كان اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثلَ مَقالتِه أيضاً ، فطلعَ ذلك الرجل على مِثل حالهِ الأولىٰ ، فلما قام رسولُ الله ﷺ تَبِعه عبدُ الله بن عمرو بن العاص ، فقال: إني لاحيتُ أبي ، فأقسمتُ ألا أدخُلَ عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تُؤويني إليك حتىٰ تمضي فَعَلْتُ. قال: نعم. قال أنس: فكان عبد الله يُحدِّث أنه باتَ معه تلكَ الليالي الثلاثَ فلم يرَه يقوم من الليل شيئاً ، غير أنَّه إذا تعارَّ تَقَلَّبَ على فراشه ذَكَر الله وكبَّر حتىٰ يقوم من الليل شيئاً ، غير أنَّه إذا تعارَّ تَقَلَّبَ على فراشه ذَكَر الله وكبَّر حتىٰ يقوم لصلاةِ الفَجْر. قال عبد الله: غير أني لم أسمَعْه يقول إلا خيراً ، فلما مَضَتِ الثلاثُ ليالٍ وكِدْتُ أن أحتقِرَ عملَه قلت: يا عبد الله ! لم يكنْ بيني وبين أبي غَضَب ولا هَجْر ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مَرّات: «يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة». فطَلَعت أنت الثلاث المرّات ، فأردت أن آوِي إليك لأنظُرَ ما عَملُك فأقتدِيَ به ، فلم أرَكَ تعمل كثيرَ عملٍ ، فما الذي بلغَ بكَ ما قال رسولُ الله ﷺ ؟ قال: ما هو إلا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2325) ، كتاب الحرث والمزارعة. وانظر (2719) كذلك.
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 201) وإسناده صحيح ، رجاله رجال البخاري ومسلم.

ما رأيتَ. فلما وَلَّيتُ دعاني فقال: ما هُو إلا ما رأيت، غير أني لا أجِدُ في نفسي لأحد من المسلمين غِشّاً، ولا أحسُد أحداً على خيرٍ أعطاهُ الله إياه. قال عبد الله: «هذه التي بَلَغَت بكَ، وهي التي لا نُطيق»][1].

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. يعني: حاجَة.

وأصل الخصاصة من الاختصاص، وهو الانفراد في الأمر. قال القرطبي: (فالخصاصة الانفراد بالحاجة، أي ولو كان بهم فاقة وحاجة). وأما الإيثار فهو تقديم الآخرين على النفس وحظوظها الدنيوية، رغبة في الحظوظ الدينية. وينشأ ذلك عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة. فهذه الخصلة الرفيعة قد وصف الله تعالىٰ بها الأنصار، فهم يقدّمون المحاويج على حاجة أنفسهم.

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: [أنّ رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فبعث إلى نسائه فقلن ما معنا إلا الماء. (وفي لفظ: أتىٰ رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أصابني الجَهْدُ. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً). فقال رسول الله ﷺ: من يضمّ أو يضيف هذا؟ فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته فجعلا يُريانه كأنهما يأكلان، فباتا طاويين. فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾][2].

وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. أي: مَنْ سَلِمَ مِنَ الشّح فقد أَفْلَح وأَنْجحَ. والشّح: البخل، ومنع الفضل من المال. والشحيح: البخيل. قال ابن زيد: (من وقي شحّ نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئاً، ولم يقربه، ولم يدعه الشحّ أن يحبس من الحلال شيئاً، فهو من المفلحين، كما قال الله عز وجل). وفي رواية عنه: (من لم يأخذ شيئاً لشيء نهاه الله عز وجل عنه، ولم يدعه الشحّ على أن يمنع شيئاً من

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 166)، والنسائي في «الكبرىٰ» (10699) بسند على شرطهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3798)، (4889)، وأخرجه مسلم (2054) ح (172)، (173)، والترمذي (3304)، والنسائي في «التفسير» (602).

شيء أمره الله به ، فقد وقاه الله شحّ نفسه ، فهو من المفلحين).

وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشّح فإن الشّح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم](1).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾. هذا هو القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء. قال النسفي: (﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ عطف أيضاً على المهاجرين وهم الذين هاجروا من بعد. وقيل التابعون بإحسان ، وقيل: من بعدهم إلى يوم القيامة).

وعن مجاهد: (﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ قال: الذين أسلموا نعتوا أيضاً).

فالمهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان داخلون في استحقاق الفيء لفقرائهم ، وقد ورد هذا العطف في آية براءة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: 100].

قال ابن كثير: (فالتابعون لهم بإحسان المتبعون لآثارهم الحَسنة وأوصافهم الجميلة ، الدّاعون لهم في السِّر والعلانية. ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ﴾ ، أي: قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ ، أي: بُغْضاً وحَسَداً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضيَّ الذي يسبُّ الصحابةَ ليس له في مال الفيء نصيبٌ لعدم اتصافه بما مَدَحَ الله به هؤلاء في قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾).

قلت: وقد ثبت في صحيح السنة بيان مفهوم هذه الآية في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البيهقي بسند صحيح عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة ذكرها قال: [ثم تلا: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ إلى آخر الآية ، فقال: هذه لهؤلاء ، ثم تلا: ﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى آخر الآية ، ثمّ قال: هذا لهؤلاء ، ثم تلا: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2578) ، كتاب البر والصلة.

عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قرأ: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قال: هؤلاء المهاجرون ، ثم تلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال: هؤلاء الأنصار ، قال: وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ إلى آخر الآية ، قال: فهذه استوعبت الناس ، ولم يبق أحدٌ من المسلمين ، إلا وله في هذا المال حق ، إلا ما تملكون من رقيقكم ، فإن أعش إن شاء الله ، لم يبق أحد من المسلمين ، إلا سيأتيه حقه حتىٰ الراعي بـ «سرو حمير» يأتيه حقه ، ولم يعرق فيه جبينه][1] .

وفي لفظ: (والله ما من أحد من المسلمين إلا وله حق في هذا المال ، أعطي منه أو منع حتىٰ راع بـ «عدن») .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عمر قال: [﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: 6] ، هذه لرسول الله ﷺ خاصة ، قُرىٰ عرينة فدك وكذا وكذا ، ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: 7] ، و﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: 8] ، و ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: 9] ، و ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: 10] ، فاستوعبت هذه الآية الناس ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق] .

قال أيوب: (أو قال: حظ ، إلا بعض من تملكون من أرقائكم)[2] .

الحديث الثالث: أخرج الشافعي والبيهقي بسند صحيح عن الزهري عن مالك بن أوس أن عمر رضي الله عنه قال: [ما من أحد إلا وله في هذا المال حق ، أعطيه أو منعه ، إلا ما ملكت أيمانكم][3] .

11 ـ 17. قوله تعالىٰ: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ

(1) إسناده صحيح. أخرجه البيهقي (6/ 352) من طريق عكرمة بن خالد عن مالك بن أوس. وانظر للفظ بعده: الإرواء (5/ 84 ـ 85) ، وإسناده حسن.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2966) ـ كتاب الخراج والإمارة والفيء. باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال. انظر صحيح سنن أبي داود (2570) ، والإرواء (5/ 83 ـ 84) .

(3) حديث صحيح. أخرجه الشافعي (1159) ، وعنه البيهقي (6/ 347) ، وانظر تخريج «الإرواء» ـ حديث رقم ـ (1245) .

كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول ورافعة بن تابوت ووديعة ومالك ابني نوفل وسُويد وداعس وغيرهم حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر وبذل الغالي والنفيس لنصرتهم على محمد ﷺ وأصحابه، وهم في ذلك كاذبون، بل هم عند البأس جبناء أذلاء صاغرون، يفرون إذا حمي الوطيس فشأنهم في تحريضهم شأن الوسواس من الشيطان الرجيم.

فعن ابن عباس: (قوله: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ يعني عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه، ومن كان منهم على مثل أمرهم. ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: بني النضير).

وقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾. أي يقولون لهم: لئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم، وأجليتم عنها لنخرجنّ معكم، فنجلي عن منازلنا وديارنا معكم.

وقوله: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: ولا نطيع أحداً سألنا خذلانكم، وترك نصرتكم، ولكنا نكون معكم).

وقوله: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾. أي: وإن قاتلكم محمد ﷺ وأصحابه لنكونن لكم بالعون والنصر والتأييد.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. أي: والله يشهد كذب هؤلاء المنافقين في زعمهم ووعدهم لبني النضير بالنصر والتأييد.

وقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾. تأكيد لِنَعْتهم بالكذب.

وقوله: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾. أي: منهزمين. وقيل: معنىٰ: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ طائعين. ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ مكرهين ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾. وقيل: معنىٰ ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ لا يدومون على نصرهم. قال القرطبي: (وقيل: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ أي علم الله منهم أنهم لا يخرجون إن خرجوا. ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي علم الله منهم ذلك. ثم قال: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ فأخبر عما قد أخبر أنه لا يكون كيف كان يكون لو كان؟ وهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾. قال القاسمي: (أي بنوعٍ مّا من أنواع النصر. والضمير للمنافقين أو اليهود).

وقوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾. أي لأنتم أشد مرهوبية في صدور بني النضير أو المنافقين من الله، فهم يخافونكم معشر المؤمنين أكثر مما يخافون من ربهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾. قال النسفي: (لا يعلمون الله وعظمته حتىٰ يخشوه حق خشيته).

وقوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾. أي: لا يقدر هؤلاء اليهود أو المنافقون على مقاتلتكم مجتمعين إلا حالة تحصّنهم بالخنادق والدروب أو من وراء حيطان يستترون بها لجبنهم ورَهْبَتِهم.

وقوله: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾. أي عداوتهم بينهم شديدة. وقال مجاهد: (﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي بالكلام والوعيد لنفعلن كذا). وقيل: إذا لم يلقوا عدواً نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، فإذا لقوا العدو انهزموا.

وقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾. قال مجاهد: (يعني اليهود والمنافقين).

وعنه أيضاً: (يعني المنافقين). وقال قتادة: (﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين على أمر ورأي ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة). وعن مجاهد أيضاً: (أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود، وهذا ليقوّي أنفس المؤمنين عليهم). وقال قتادة: (تجد أهل

الباطل مختلفة شهادتهم ، مختلفة أهواؤهم ، مختلفة أعمالهم ، وهم مجتمون في عداوة أهل الحق).

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ . أي ذلك التشتيت والكفر لكونهم لا يعقلون أمر الله ولا يتدبرون آياته ، بل هم منقادون وراء أهوائهم وشهواتهم.

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ . قال ابن عباس : (يعني بني قَيْنُقاع ، أمكن الله منهم قبل بني النضير). ومعنىٰ : ﴿ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي جزاء غَدرهم وكفرهم ومكرهم ، فأجلاهم رسول الله ﷺ وشرَّدهم.

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . أي : في الآخرة.

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ﴾ . قال مجاهد : (المراد بالإنسان هاهنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم). ومعنىٰ قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ﴾ أي أغواه حتىٰ نطق بالكفر. قال ابن عباس : (فضرب الله هذا مثلاً للمنافقين مع اليهود).

وقوله : ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ . تشبيه لتخاذل المنافقين عن اليهود وعدم الوفاء في نصرتهم. قال القاسمي : (﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ ﴾ أي إذ غرّ إنساناً ووعدهُ على اتباعهِ وكفره بالله ، النصرة عند الحاجة إليه ﴿ فَلَمَّا كَفَرَ ﴾ أي بالله ، واتبعه وأطاعه ﴿ قَالَ ﴾ أي مخافة أن يشركه في عذابه ، مسلماً له وخاذلاً ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾ أي فلا أعينك ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي في نصرتك ، فلم ينفعهُ التبرؤ ، كما لم ينفع الأول وعده بالإعانة).

وقوله : ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ ﴾ . أي : فكان عاقبة الشيطان وذلك الإنسان المصدق له المتّبع لأمره أنهما خالدان في النار ماكثان فيها أبداً.

وقوله : ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : وذلكَ ثواب اليهود من النضير والمنافقين الذين وعدوهم النصرة ، وكُلُّ كافر بالله ظالمٌ لنفسه على كفره بِهِ أنهم في النار مخلَّدون).

18 ـ 20. قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

في هذه الآيات: وصيةُ الله تعالى عباده المؤمنين أن يَصْدُقُوه التقوىٰ والاستعداد ليوم الدين، ولا يكونوا كالذين نسوا الله فنسيهم وكانوا من الفاسقين. إنه لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة فأصحاب الجنة هم أهل الفوز والنعيم.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾. أمر من الله تعالى بتقواه، وليحاسب كل نفسه قبل أن يحاسبه سبحانه، وليجهد بادخار وسعه من العمل الصالح. قال قتادة: (﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعني يوم القيامة. ما زال ربكم يقرب الساعة حتىٰ جعلها كغد، وغدٌ يوم القيامة).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عند المنذر بن جرير، عن أبيه قال: [كنا عند رسول الله ﷺ في صَدْرِ النهار، فجاءَهُ قومٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتابي[1] النِّمار أو العَباءِ، متقلدي السُّيوف، عامَّتُهم مِنْ مُضَرَ، بل كُلُّهم مِنْ مُضَر، فتَمَعَّرَ وَجْهُ رسول الله ﷺ لِمَا رأىٰ بِهِم من الفاقَةِ، فدخلَ ثم خَرَجَ، فأمَرَ بلالاً فأذَّنَ وأقامَ، فصلّىٰ ثم خطبَ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1] إلى آخر الآية. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ والآية التي في الحَشر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: 18] تَصَدَّقَ رجُلٌ من ديناره، مِنْ دِرْهَمِه، مِنْ ثوبِه، من صاعِ بُرِّه، مِنْ صاعِ تَمرِهِ ـ حتىٰ قال ـ ولو بِشِقِّ تمرةٍ. قال: فجاءَ رجلٌ من الأنصار بِصُرَّةٍ كادت كَفُّهُ تَعْجِزُ عنها، بل قد عَجَزَتْ، قال: ثم تتابعَ النَّاسُ، حتىٰ رأيتُ كومين مِنْ طعام وثياب، حتىٰ رأيتُ وجهَ رسول الله ﷺ يَتَهَلَّلُ، كأنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسنةً، فلهُ أجرُها، وأجْرُ مَنْ عَمِلَ بِها بعدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أجورهم شيءٌ، وَمَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً، كانَ عليهِ وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوزارهم شيءٌ»][2].

---

(1) قال: اجتبت القميص أي دخلت فيها، والنمار جمع نمر، وهي ثياب صوف فيها تنمير كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض. أراد أنه جاءه قوم لابسي أزر مخططة من صوف، ومجتابي النمار أي خارقي أوساطها.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1017)، كتاب الزكاة. وأخرجه أحمد (4/ 359).

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ ﴾. تأكيد للأمر الأول، فإنَّ السعادةَ في الدارين منوطةٌ بالتقوىٰ.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾. أي: إن الله مطلع على جميع أعمالكم ولا يخفىٰ عليهِ شيء.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾. قال سفيان: (نَسُوا حقَّ الله، فأنساهم أنفسهم، قال: حَظَّ أنفسهم). وقال النسفي: (تركوا ذكر الله عز وجل وما أمرهم به: ﴿ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ فتركهم من ذكره بالرحمة والتوفيق).

وقال مقاتل بن حيان: (تركوا أمره ﴿ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ أن يعملوا لها خيراً). وقال سهل بن عبد الله: (﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ ﴾ عند الذنوب ﴿ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ عند التوبة).

والمقصود: تحذير الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كالذين ركبوا المعصية والذنوب وأصروا حتىٰ خذلهم الله عن التوبةِ والتوفيق وأرداهم المهالك وبلوغ الشقاء.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾. قال سعيد بن جبير: (العاصون. وقال ابن زيد: (الكاذبون). وأصل الفسق الخروج، والمقصود: هؤلاء الذين خذلهم الله هم الخارجون عن طاعته، المستكبرون عن الإخبات لأمره.

وقوله: ﴿ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ ﴾. أي: لا يعتدل أهل النار وأهل الجنة في الرتبةِ والفضل والمنزلةِ. ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ أي: هم المقربون المدركون ما طلبوا وأرادوا، الناجون مما حذروا، السالمون من عذاب الله عز وجل.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: 18].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴾ [ص: 28].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [الجاثية: 21].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: [أما أهل النار الذين هم

أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون][1] .

وفي صحيح مسلم ـ أيضاً ـ عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي اللهُ عَنهما عن النبي ﷺ قال: [ينادي مُنَادٍ: إنَّ لكم أن تصِحُّوا فلا تسقَمُوا أبداً ، وإن لكم أن تَحْيَوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً][2] .

21 ـ 24 . **قوله تعالى** : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : تَصَدُّعُ الجبال خشية لله من كلامِهِ العظيم ، فاللهُ تعالى هو الملكُ القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم ، وهو سبحانهُ الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنىٰ العزيز الحكيم .

فقوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ .

قال ابن عباس : (يقول : لو أني أنزلت هذا القرآن على جبلٍ حملته إياه تصدّع وخشعَ مِنْ ثقلِهِ ، ومن خشيةِ الله ، فأمر الله عز وجل الناس إذا أنزل عليهم القرآن ، أن يأخذوه بالخشيةِ الشديدةِ والتخشّع) .

وقال قتادة : (يعذر الله الجبل الأصمّ ، ولم يعذر شقيّ ابن آدم ، هل رأيتم أحداً قط تصدّعت جوانحهُ من خشية الله) .

والمقصود : إذا كان الجبلُ في قسوتِهِ وصلابتِهِ يتصدعُ لو فهم القرآن ، خشية من عظمة الرحمان ، فكيفَ لا تلينُ قلوب البشر الذين فهموا مراد الله ووعده ووعيده .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 118) ، في أثناء حديث طويل .

(2) حديث صحيح أخرجه مسلم (2837) ، كتاب الجنة ونعيمها ، باب في دوام نعيم أهل الجنة .

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: 31]. أي: لكانَ هذا القرآن.

وقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. قال الزمخشري: (والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلةِ تخشعه، عند تدبر القرآن، وتدبّر قوارعه وزواجره). وقال القاسمي: (﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أي وتلك الأمور، وإن كانت وهمية، مفروضة، فلا بد من اعتبارها وضربها للناسِ الذين نسوا صغر مقدارهم فتكبروا، ولينَهم فقست قلوبهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي ليعلموا أنهم أولىٰ بذلكَ الخشوع والتصدّع).

وفي التنزيل: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: 74].

أخرج البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي اللهُ عنهما: [أنَّ النبي ﷺ كان يقومُ يومَ الجمعةِ إلى شجرة، أو نَخْلَةٍ، فقالت امرأة من الأنصار، أو رَجُلٌ، يا رسول الله، ألا نَجْعَلُ لكَ مِنْبراً؟ قال: «إنْ شئتم»، فجعلوا لهُ مِنْبراً، فلما كانَ يومُ الجُمعةِ دَفَعَ إلى المنْبر، فصَاحَتْ النخلةُ صِياحَ الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فَضَمَّهُ إليهِ، يَئِنُّ أنِينَ الصَّبي الذي يُسَكَّنُ، قال: «كانت تبكي على ما كانت تَسْمَعُ من الذِّكر عندها»][1].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: الذي يتصَدَّعُ من خشيتِهِ الجبل أيها الناس، هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة والألوهية إلا له، عالم غيب السماوات والأرض، وشاهد ما فيهما مما يرىٰ ويحسّ ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يقول: هو رحمان الدنيا والآخرة، رحيم بأهلِ الإيمان به).

وقوله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾.

﴿ ٱلْمَلِكُ ﴾: أي المالك لكل شيء المتصرف فيه. و﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾: الطاهر من العيوب المُتنزِّهُ عنها. وعن قتادة: (﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ أي: المبارك).

وفي الصحيحين عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يقبض الله

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3584)، كتاب المناقب، وأخرجه الترمذي (505)، والبيهقي في «السنن» (3/ 196)، وأخرجه ابن حبان (6507) من حديث أنس.

الأرض يوم القيامةِ ويطوي السماء بيمينهِ ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض][1] .

وفي صحيح أبي داود عن عائشة: [أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: [سُبُّوح قدُّوس ربُّ الملائكة والروح][2] .

وقوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ . أي: ذو السَّلام ، الذي سَلِمَ من كل عيب وبرئ من كل آفة .

أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند حسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعهُ الله في الأرض ، فأفشوا السلام بينكم][3] .

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ . أي: الذي يصدق عبادَه وعدَه ، فهو من الإيمان: التصديق ، أو يؤمنهم في القيامة من عذابه ، فهو من الأمان ، ضِدُّ الخوف[4] .

قال ابن عباس: (أي: آمن خلقه من أن يظلمهم). وقال ابن زيد: (صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به).

وقوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ . أي: الشهيد. وقيل: الأمين. وقيل: الرقيب الحافظ.

قال ابن عباس: (أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنىٰ هو رقيب عليهم ، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: 9] ، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 46] ، وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: 33]).

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ . أي الغالب القاهر ، والعِزَّة: الغَلَبة .

قال الحافظ ابن كثير: (العزيز: أي: الذي قد عزَّ كل شيء فقهره وغلب الأشياء ، فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه).

وقوله: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ . هو الذي أجْبَرَ الخلق وقهرهم على ما أراد من أمرٍ أو نهي .

وقيل: هو العالي فوق خلقه. قال قتادة: (الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء). وقال ابن جرير: (الجبار: المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: [رأيتُ رسول الله ﷺ على المِنْبر وهو

---

(1) حديث صحيح أخرجه البخاري في الصحيح (7382) ، (6519) ، ورواه مسلم (8/ 126).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (1/ 165) ، ورواه مسلم بنحوه كذلك.

(3) حديث حسن. انظر صحيح «الأدب المفرد» (760) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (1894).

(4) انظر: «جامع الأصول» (4/ 176) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1/ 380) ـ بحث الأسماء والصفات.

يقول: يأخذ الجَبَّارُ عزَّ وجلَّ سماواته وأرضيه بِيَدَيْهِ ، ثم يقول: أنا الجبار ، أنا الملك ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون][1] .

وقوله: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ . أي المتعالي عن صفات الخلق. وقيل: الذي يَتَكَبَّرُ على عُتاة خلقه إذا نازعوه العظمة فَيقصِمَهم. وقيل: إن المتكبِّرَ من الكبرياء الذي هو عظمة الله تعالى ، لا مِنَ الكِبْر الذي هو مذموم[2] .

وعن قتادة: (المتكبر: يعني عن كل سوء). أو قال: (تكبَّر عن كلّ شرٍّ).

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: [قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي ، والعزةُ إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيه في النار][3] .

وفي لفظ: «والعظمة إزاري» .

وفي صحيح مسلم عنه بلفظ: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي ، والعِزّ إزاري ، فمن نازعني في شيء منهما عَذَّبته][4] .

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . أي: تنزّه الله وتعالى عن شرك المشركين به .

وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ . الخلق: التقدير ، والخالق هو الذي يقدر وينفذ كما شاء ، ولا يوصف بذلكَ إلا الله عزَّ وجَلَّ ، فهو الذي إذا أراد شيئاً قال لهُ كن فيكون على الصفة التي يريد .

أخرج الطيالسي والبيهقي بسند صحيح عن أسامة ، عن النبي ﷺ قال: [قاتل الله قوماً يُصَوِّرون ما لا يخلقون][5] .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [قال الله تعالى: ومن أظلم ممن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2788) ، ح (26) ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وله شاهد عند ابن ماجة (198) ، وأحمد (2/ 88) .

(2) انظر جامع الأصول (4/ 177) ، وكتابي أصل الدين والإيمان (1/ 382) .

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 248) ، ورواه أبو داود (4090) ، وابن ماجة (4174) .

(4) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (8/ 35 ـ 36) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (552) .

(5) حديث صحيح. رواه الضياء في «المختارة» (1/ 434) من طريق الطيالسي وهذا في «المسند» (623) . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (996) ، ورواه البيهقي .

ذهب يخلق خلقاً كخلقي ، فليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا شعيرة][1] .

وفي المسند عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى هو الخالق القابض الباسط الرازق][2] .

وقوله: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾. هو الذي خلق الخلق لا عن مثال.

وفي المسند بإسناد صحيح من حديث عبد الرحمن بن خنبش التميمي عن النبي ﷺ قال: [أتاني جبريل ، فقال: يا محمد! قُلْ. قلت: وماذا أقول؟ قال: قل أعوذُ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر من شرّ ما خلق ، وذرأ ، وبرأ. .][3] .

وقوله: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾. هو الذي أنشأ خَلْقَهُ على صُوَر مختلفة. ومعنىٰ التصوير: التخطيط والتشكيل. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 6].

وفي سنن النسائي عن علي ، أن رسول الله ﷺ كان إذا سجد يقول: [اللهم لك سجدت ، ولك أسلمت ، وبك آمنت. سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره ، فأحسن صورته ، وشقَّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين][4] .

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. أي: كل أسمائه تعالى حسنىٰ ، وهي الدالةُ على صفاته العلا.

وفي الصحيحين عن أبي هريرةَ ، أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ لله تِسْعَةً وتسعين اسماً ، مئةً إلا واحِداً ، مَن أحصاها دخلَ الجنة][5] .

وفي لفظ: [لله تِسْعةٌ وتِسْعونَ اسماً ـ مئةٌ إلا واحِداً ـ مَنْ حَفِظَها دخَلَ الجنةَ ، وهو وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ].

---

(1) حديث صحيح. أخرجهُ البخاري (10/ 324) في اللباس ، ومسلم (2111) في اللباس والزينة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند. وبنحوه أبو داود في السنن (3451). انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2945).

(3) برأ: أي أوجد من العدم. وذرأ: أي خلق. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (74).

(4) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (1078). ورواه مسلم بنحوه.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2736) ، كتاب الشروط. وكذلك (6410) ، كتاب الدعوات. ورواه مسلم (2677) ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: ينزهه جميع ما في السماوات والأرض، ويسجد له طوعاً وكرهاً، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، أي الشديد الانتقام من أعدائه، المنيعُ الذي لا يُرامُ جنابُه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير خلقه وفي شرعه وقدره.

تم تفسير سورة الحشر
بعون الله وتوفيقه، وواسع منّه وكرمه
عصر الخميس 17 رمضان 1426 هـ
الموافق 20/ تشرين الأول/ 2005 م

❑ ❑ ❑

دروس ونتــائج وأحكــام

1 ـ كل شيء في هذا الكون يسبح الله ويمجده ويعظمه ويقدسه .

2 ـ تآمر يهود بني النضير على قتل رسول الله فأجلاهم ، وما قطع من نخل بني النضير أو حرق أو ترك فبإذن الله .

3 ـ الفيء : كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ، ومصارفه : لله ولرسوله وذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل .

4 ـ صرف شيء من ذلكَ الفيء لفقراء المهاجرين والذين تبوؤوا الدار .

5 ـ التواضع والانقياد لأوامر رسول الله ﷺ ونواهيه واجب على كل مسلم .

6 ـ الداعي إلى الحق يجب ألا يخالف ما ينهىٰ عنه ، وعليه أن يكون في موضع الأسوة الحسنة .

7 ـ قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ استوعبت المسلمين عامة .

8 ـ منافقو المدينة وَرَّطّوا اليهود ـ يهود بني النضير ـ ثم تَخَلَّوا عنهم ، فمثلهم كمثل الشيطان يغوي ويتبرأ ممن غواه .

9 ـ إن الجبال تتصدع من خشية الله ، فما لقلوب المشركين لا تتصدع .

10 ـ كل أسماء الله تعالى حسنىٰ ، ولله سبحانه تسعة وتسعون اسماً من حَفِظَها دخل الجنة ، وهو تعالى وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْر .

❑ ❑ ❑